

## صَحِيفَة

# مِعْهَدُ الدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي مَدْرِيدٍ

يصدرها معهد الدراسات الاسلامية في مدريد  
رئيس التحرير : مدير معهد الدراسات الاسلامية في مدريد

تصدر عددين في العام في مجلد واحد

هذا المجلد يباع بضعف قيمة الاشتراك السنوي لأنّه يضم مجلدي سنتي ١٩٦٣ و ١٩٦٤

العنوان : معهد الدراسات الاسلامية  
فرنسيسكو دي أسيس منث كاساريجو رقم ١٠ مدريد ، اسبانيا

مدريد - ١٩٦٣ - ١٩٦٤

المجلدان الحادى عشر والثانى عشر



# فهرس القسم العربي

## أبحاث ونصوص

- حسين مؤنس ..... الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ..... ٧  
 معاصر و الأدريسي ..... معاصر ..... ٧  
 بعد الأدريسي ..... ١٤٣  
 الاشارات الجغرافية في كتابات ابن الخطيب ..... ٢٧٧  
 محمد المنوفي ..... ظاهرة تعرية في المغرب أيام السعديين ..... ٣٢٩

## الكتب : نقد وعرض

- لسان الدين بن الخطيب .. كتاب أعمال الأعلام ..... ٣٥٩  
 شارل بلا ..... ديوان ابن شهيد الأندلسي ..... ٣٦١  
 أبو علي حسين بن القطان . نظم الجمان ..... ٣٦٤  
 كراتشيفسكي ..... تاريخ الأدب المغرافي العربي ..... ٣٦٧  
 أحمد توفيق المدنى ..... كتاب الجزائر ..... ٣٦٩  
 عبد الملك بن صاحب الصلاة تاريخ المذاهب على المستضعفين ..... ٣٧٢  
 حكمة على الأوسي ..... القواعد الأساسية لغة الإسبانية ..... ٣٧٤  
 الأصول المطبوعة التي تحظى بها مكتبة المشي ببغداد ..... ٣٧٥  
 محمد عبد الله عنان ..... عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ..... ٣٧٨  
 إيرنست وآخرون ..... قراءات من العربية المعاصرة ..... ٣٨٠  
 طه حسين ، مجلد تكرييم مهادى من مدرسة المستشرقين الإيطاليين ..... ٣٨٣  
 راؤ لنديسى ..... المدارس الأمريكية في بلاد الشام في القرن التاسع عشر ..... ٣٨٥  
 أبو الحسين هلال الصابى .. رسوم دار الخلافة ..... ٣٨٩  
 ب. م. هولت ..... تاريخ السودان في العصر الحديث ..... ٣٩٠  
 جيوفاني أومان ..... نبذة بيوجرافية عن الجغرافي العربي الأدريسي ومؤلفاته ..... ٣٩٢

## أنباء

- نشاط معهد الدراسات الإسلامية خلال سنتي ١٩٦٣ و ١٩٦٤ ..... ٣٩٥  
 ملخصات للأبحاث المحررة بالاسبانية في هذا المجلد ..... ٤٢١

الاشتراك السنوى :

١٥٠ قرشاً مصرىاً

١٨٠ بيزنثه إسبانية أو ٣ دولارات

وللمجلدات المزدوجة ٣٠٠ قرشاً مصرىاً أو ٣٦٠ بيزنثه إسبانية أو ٦ دولارات

طبعت بطبععة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد

١٩٦٤ — ١٩٦٣

# الجغرافية والجغرافيون في الأندلس

معاصرو الإدريسي

بينما كان الإدريسي يعمل في صقلية ، كان جغرافيون آخرون يعملون في نواح شتى من مملكة الإسلام ، ولكنهم كانوا يسيرون في الجغرافية على النهج القديم ، ولم يقرأ أحد منهم شيئاً مما كتب ، لأن الإدريسي عمل في ظروف خاصة جعلت وصول كتابه إلى معاصريه من المسلمين عسيرة ، بل منهم من لم يسمع به ، وظلوا يعملون سائرين على درب الماضين غير عالمين أن أخا لهم قد فتح في الفن الذي أولعوا به فتحاً حاسماً خطأ به قروناً كثيرة إلى الأمام .

وليس معنى ذلك أن أعمال أولئك المعاصرين قليلة القيمة أو لا تستحق عناء دراستها ، لأن النهج الجغرافي التقليدي ، وإن بدا قليل الجدوى إلى جانب نهج الإدريسي ، إلا أن له فضائله وقيمته ، والمجيدون من السائرين عليه لهم قدرهم ودورهم في تاريخ هذا العلم في عالم الإسلام ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن بعضهم جمع صفات الدقة والأمانة ورُزق موهبة طيبة في جمع المعلومات الجغرافية وكتابتها على طريقة البلاديين أو الفلكيين والعجبائيين تبينا أن تاريخاً للعلم الجغرافي في الأندلس لا يمكن إلا بالكلام على رجال مثل أبي القاسم بن خلف بن بشكوال واليسع بن عيسى الغافقي وأبي حامد الغرناطي وأبي بكر الزهرى وأمثالهم ، خاصة وقد امتاز بعضهم بخصائص الدقة والفهم لطلاب الوصف الجغرافي ، وتفرد بعضهم الآخر بالإبعاد في الرحلة والسياحة في بلاد كانت في ذلك الحين في حكم الجحولة والعودة إلى بلاد الإسلام بكل عجائب

طريف ، وأتيح لواحد منهم (وهو محمد بن أبو بكر الزهري) أن يحتفظ لنا بنص أحد كتب الجغرافية التي كان يتداولها الملحقون والتجار وأهل الموانى ، وهي كتب عملية كانت تكتب شرحاً للخرائط التي كانوا يستعملونها ويعولون عليها ، وهي كتب تبدو لنا قليلة القيمة العلمية إلى جانب ما صرنا نمر به ، ولكنها تصور مفهوم الجغرافية عند هذه الطوائف من الناس التي كان أهل العلم يدرجونها فيها يسمونه بالعوام .

#### المaban الجغرافي من ابن بشكوال

وقد يبدو غريباً أن نذكر أبا القاسم خلف بن بشكوال في بحث خاص بالجغرافية والجغرافيين لأن ابن بشكوال مشهور بأنه قميء محدث ، ولكنه كان إلى جانب ذلك مؤرخاً مجيداً ، وابن الأبار الذي أتانا بأوسع ترجمة لابن بشكوال يقول إنه كان «حافظاً حافلاً اخبارياً ممتعاً تارينيناً مقيداً ذاكراً لأخبار الأندلس القديمة والحديثة ، وخصوصاً لما كان بقرطبة ، حاشداً مكتراً». وعن طريق التاريخ اسهم ابن بشكوال في الجغرافية ، وكانت الجغرافية لا تفترق عن التاريخ في مفهوم الأندلسيين على ما قلناه .

وحيات أبا القاسم خلف عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال (٣ ذى الحجة ٤٩٤ - ٨ رمضان ٥٧٨ / ٢٩ سبتمبر ١١٠١ - ٥ يناير ١١٨٣) حياة عالم حق . عاش أربعاً وثمانين سنة هجرية إلا أشهراً أفقها كلها منذ شب عن الطوق في الدرس والبحث والقراءة والتأليف والتعليم . شيوخه عشرات من عليه أهل العلم وجلة الفقهاء ، وأصحابه وأنظاره في الشرق والغرب لا يقلون عن شيوخه عدداً أو مقاماً ، وتلاميذه أعاظم أهل العلم في الأندلس من العقد الثالث من القرن السادس المجري إلى نهايته ، أما خلقه فكان مضرب المثل

عفةً ونزاهةً وتصاوناً وقناعةً وصبراً على التعلم والتعليم ، ولابن الأبار في ترجمته له عبارة تصور خلقه أصدق تصوير ، قال : « وحدثنا عنه جماعة من شيوخنا الجلة ووصفوه بصلاح الدخلة وسلامة الباطن وصحة التواضع وصدق الصبر للراحلين إليه وبين الجانب وطول الاحتمال في الكبرة للسماع رجاء المثوبة ، ولم يعرض في تاريخه لما اراده أبو عبد الله المنيري وسواء منه ، ونفوا تركه عليه وأحبوا خوضه فيه من احتلال ما رأه أحق بالاحتلال » أى أنه تصاون عن أن يذكر في كتابه (الصلة) مساوىء الناس وعيوبهم وسقطاتهم مما أحب أولئك الفقهاء أن يضمنه ترجمته ، لأن خلقه لا يرضى ذكر هذه النواحي التي لا يكاد يسلم منها أحد . ولم يتول ابن بشكوال من الوظائف إلا قضاء بعض نواحي إشبيلية نائباً عن أبي بكر بن العربي ، تولاه لفترة صغيرة ، وعقدَ الشروط فترة أخرى طلباً للرزق ، ثم ترك ذلك كله وانقطع للعلم وحده بقية عمره الطويل .

وقد كتب ابن بشكوال نحو خمسين كتاباً أورد أسماء بعضها ابن الأبار في مادته الصافية عنه ، واستكملاها بونس بويس في الفصل الواقى الذى أداره عليه معتمداً على ابن الأبار وابن خلkan وحاجى خليفة ، وهذه الكتب هي :

١ - كتاب «الصلة في تاريخ أمة الأندلس وعلمائهم ومحدثتهم وفقهائهم وأدبائهم» وهو أهم كتبه وأكثرها ذكراً في المراجع ، وهو كتاب تراجم أكمل به كتاب «تاريخ علماء الأندلس» الذي ذكرناه لابن الفرضي ، وقد نشره فرنسيسكو كوديرا في جزأين في مدريد سنة ١٨٨٣

٢ - التاريخ الصغير في أحوال الأندلس (ذكره حاجى خليفة برقم ٢٦٥ من طبعة فستنفلد) .

٣ - أخبار قضاة قرطبة ، حاجى خليفة ، رقم ٢٢١

٤ - معجم مشيخته ، ذكره ابن الأبار في مقدمة التكملة .

٥ — كتاب الفوائد المختبة والحكايات المستغربة ، ذكره ابن الأبار في ترجمته لابن بشكوال وقال إنه في عشرین جزءاً .

٦ — كتاب التنبية والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين ، ذكره ابن الأبار .

٧ — كتاب الغواص والمباهات ، ذكره ابن الأبار ، وقال عنه : « في اثني عشر جزءاً ، وقد اختصره شيخنا أبو الخطاب بن واجب ورتبه ترتيباً عجبياً ، واستحقه بذلك ، فحملناه عنه وسمعناه منه مختصراً » .

٨ — كتاب الحasan والفضائل في معرفة العلماء الأفاضل ، ذكره ابن الأبار .

٩ — ذيل الصلة . ورد ذكر هذا الكتاب في بعض تراجم ابن الأبار في التكملة ، ويبدو أن ابن بشكوال شرع في كتابته بعد أن فرغ من الصلة ليستدرك فيه ذكر من فاته من الشيوخ ، ولم ينشر ذكر هذا الكتاب ، بل لم يشر إليه أبو جعفر أحمد ابن الزبير في كتابه الذي ألفه لنفس الغرض وأعطاه نفس الاسم .

ولكن المقرئ أتى في نفح الطيب بفقرات لابن بشكوال لا نعرف إلى أي كتبه تنسب ، فهي فقرات طويلة ذات قيمة جغرافية كبيرة ، مثال ذلك قوله :

« وذكر ابن بشكوال — رحمه الله — أن أبواب قرطبة سبعة أبواب : باب القنطرة إلى جهة القبلة ويعرف بباب الوادي ، وبباب الجزيرة الخضراء ، وهو على التهر .

وباب الحديد ، ويعرف بباب سرقسطة .

وباب ابن عبد الجبار ، وهو باب طليطلة ، وباب رومية ، وفيه تجتمع الثلاثة الرصُف التي تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى طرّكونه إلى أربونه مارة في الأرض الكبيرة .

ثم باب طَبَيْرَة ، وهو أيضًا باب ليون .  
 ثم باب عاصِ القرشى ، وقدّامه المقبرة المنسوبة إليه .  
 ثم باب الجوز ، ويعرف بباب بطليوس .  
 ثم باب العطارين ، وهو باب إشبيلية .

وهذا التفصيل في ذكر أبواب قرطبة وحدها لا يكون إلا في كتاب كبير عن الأندلس كله أو عن قرطبة على الأقل . وسنرى من الفقرة التالية أن ذلك الكلام جزء من كلام غاية في التفصيل عن قرطبة ، أى أنها أمام قطع من كتاب كبير إما في صفة الأندلس أو في صفة قرطبة وحدها ، وعلى الحالين فهو كتاب وصف جغرافي أو طبوبغرافي داخل في موضوعنا ، ويفيد ذلك ما ي قوله ابن الأبار في سياق كلامه عنه أنه كان : « حافظاً حافلاً أخبارياً ممتعًا تاريجياً مقيداً ذاكراً لأخبار الأندلس القديمة والحديثة ، وخصوصاً لما كان بقرطبة حاشداً مكثراً » وقوله إنه كان مقيداً وحاشداً ومكثراً يدل على أن كتب الرجل الأخرى كانت أكبر من كتاب الصلة الذي بين أيدينا ، وهو على غراره مادته من صغار الكتب ، فain يكون موضع هذه الفقرات الطويلة من كتبه التي ذكرناها ؟ أفي مقدمة التاريخ الصغير للأندلس أو في أخبار قضاة قرطبة أو في كتاب الفرائد المختارة والحكايات المستغربة ؟ لا نستطيع القطع بشيء ، لأن طرائق مؤلفينا القدامى في إنشاء كتبهم لم تكن تسير على نحو يمكننا من تصور ما تحتويه في كثير من الأحيان . ولكن يغلب على ظننا أن هذه قطع من وصف مطول لقرطبة لم يصل إلينا منه ، وسقوط اسم كتاب كهذا لا يستغرب ، فقد كان الكثيرون من الشيوخ لا يرون أن كتب الجغرافية وما إليها مؤلفات لا تستحق الذكر ، وقد رأينا كيف أغلق الكثيرون ذكر المسالك والمالك بين كتب البكري ، وسيتكرر هذا مع كتاب « الروض المعطار » لحمد بن عبد المنعم الحميري وغيره .

فإذا نظرنا في نص القطعة التي أوردناها تبينا أنها من نفس ما لدينا عن قرطبة ، وإذا نحن قارناها بما بين أيدينا من أوصاف هذا البلد في عصوره الإسلامية زادت قيمتها وضوحاً ، فإن أحسن ما لدينا في هذا الباب هو ما ذكره الإدريسي ثم ابن عبد المنعم الحميري ، والثاني نقل عن الأول معظم المادة الطبوغرافية التي أوردها . فاما ما ذكره الإدريسي فهو مشكلة في ذاته إذ أنه يقول إن قرطبة «في ذاتها خمس مدن يتلو بعضها بعضاً ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفي كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائل الصناعات ، وطواها من غربها إلى شرقها ثلاثة أميال ، وعرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود ميل واحد ، وهي في سفح جبل مُطل عليها ، يسمى جبل العروس ، مديتها الوسطى هي التي فيها باب القنطرة<sup>(١)</sup>» ولا ندرى ما ذاك عن الإدريسي بهذه المدن الخمس التي يتلو بعضها بعضاً : هل يريد قرطبة وأرباضها ؟ إذن لماذا يقول إن عرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود ميل واحد ؟ وهذا ليس عرض قرطبة بأرباضها .. ثم ما هي هذه الأسوار الحاجزة التي تقوم بين كل مدينة ومدينة ؟ إننا لا نعرف إلا سوراً واحداً لقرطبة الإسلامية هو هذا الذي تقع فيه الأبواب التي ذكرها كلها ابن بشكوال وذكر بعضها الإدريسي .

ان ابن بشكوال هو الوحيد من مؤلفينا الذي ذكر أبواب قرطبة السبعة وحدد لنا أسماءها و مواقعها وما يؤدي إليها كل باب منها ، لأن قوله أن باب القنطرة كان يعرف أيضاً بباب الجزيرة الخضراء معناه أنه يشرع إليها ، وأن باب الحديد يعرف بباب سرقسطة معناه أنه يقع في شمال شرق قرطبة ويؤدي إلى سرقسطة ، وباب ليون في اتجاه طلبرية ، أى أنه يقع في شمال غربي البلد وهكذا .

(١) الإدريسي ، المغرب والأندلس ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، الروض المعطار ، ص ١٥٧

ويستوقفنا بصفة خاصة كلامه عن باب ابن عبد الجبار قوله : « وهو باب طليطلة وباب رومية ، وفيه تجتمع الثلاثة الرصاف التي تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى أربونة مارة بالأرض الكبيرة » فهذه العبارة تكشف عن حقيقة كبرى ، وهي أن الطرق الرومانية القديمة كانت قائمة مستعملة على أيام العرب ، وابن بشكوال يكمل هنا المعلومات التي وصل إليها الباحثون الذين درسوا شبكة الطرق الرومانية في إسبانيا .

ذلك أن ابن بشكوال عندما يقول عن باب ابن عبد الجبار أنه « باب طليطلة وباب رومية » إنما يريد أن هذا الباب يشرع عنده طريق طليطلة وطريق روما ، وعنه تجتمع « الثلاثة الرصاف » وهي الطرق الرومانية القديمة Viae Romanae المعبدة المرصوفة ، ولهذا يسميه بالرصاف جمع رصيف ، ومن هنا نعلم أن الرصيف في المصطلح الأندلسي يطلق على الطريق الروماني القديم وعلى كل طريق معبد مرصوف أنشئ على هذا الغرار ، فرصيف قرطبة هو الشارع المرصوف الذي أنشأه الأمراء والخلفاء بين الجامع ونهر الوادي الكبير ومدوه ناحية الشرق إلى آخر ما كانت تنتهي إليه أراضي قرطبة الشرقية التي سبقت حدث عنها ابن بشكوال في فقرة نفيسة سنعرض لها بعد قليل .

وقد كانت قرطبة على أيام الرومان ملتقى شبكة موصلات إقليم باطقة Bética أي حوض الوادي الكبير وما يليه جنوباً ، والعلومات التي لدينا تذكر ستة رصاف كانت تتفرع منها أو تمر بها ، أولها رصيف هرقل Via Herculea الذي سمى بعد ذلك رصيف أغسطس Via Augusta نسبة إلى ذلك الامبراطور ، ثم رصيفان رئيسيان يشرع أحدهما إلى طليطلة ، ومن طليطلة إلى سرقسطة وهناك يلتقي برصيف أغسطس ، والثاني يشرع إلى انطاكية فالقية ومنها إلى طركونة ثم برشلونة إلى أمبرياش Ampurias وهناك يلتقي برصيف أغسطس .

والرصف الثلاثة الأخرى التي كانت تشرع من قرطبة يذهب أحدها إلى مدلين Medellén فالاشبونة والثاني يشرع إلى قرمونة وإشبيلية فقادس أى أنه استمرار للرصيف الأغسطي ، والثالث يشرع إلى « صحراء » Zafra وببلاد صغيرة أخرى إلى غربها<sup>(١)</sup> .

وإذن فثلاثة من هذه الرصف التي تلتقي عند قرطبة كانت تشرع إلى روما سالكة مسالك مختلفة ، ولكنها تلتقي كلها عند أمبرياش ، ومنها تستمر في غالة فضالي إيطاليا فروما ، وتلك هي التي عناها ابن بشكوال هنا .

وابن بشكوال دقيق جداً عندما يصف هذه الطرق بأنها تشق دائرة الأرض ، لأنها بعد أن تلتقي في أمبرياش تستمر إلى روما ومنها شرقاً حتى انطاكية . ولكنه عندما يقول إنها كلها تشرع من قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى أربونة مارة بالأرض الكبيرة إنما يعني الرصيف الأغسطي وحده ، فهذا كان الطريق الرئيسي الذي يسير بهدا الاتجاه ويستمر إلى روما ومنها إلى انطاكية . وقد حدد لنا ابن حوقل طرق التجارة الرئيسية التي كانت تلتقي عند قرطبة وعددها ستة وهي تقابل على وجه التقريب الطرق الرومانية الستة التي ذكرناها ، وهذه الطرق هي :

الأول من قرطبة إلى إشبيلية فقادس فالجزيرة الخضراء ، وعند إشبيلية يتفرع طريق آخر يذهب إلى شلب .

الثاني من قرطبة إلى طليطلة فسرقسطة فلاردة .

الثالث من قرطبة إلى غرناطة إلى مرسية فبلنسية فطرطوشة فلاردة .

الرابع من قرطبة إلى مالقة ماراً باستجه ثم إلى مرسية ثم يلتقي بالسابق .

(١) انظر عن ذلك الفصل الذي كتبه خوسيه رامون ميليدا :

José Ramón Mélida, *El Arte en España durante la Época Romana*.

في كتاب :

Ramón Menéndez Pidal, *Historia de España*, tomo II, *España Romana*, Madrid, 1935, pp. 567-574.

الخامس من قرطبة إلى المعدن إلى قوريه فسلمونقة فسمورة .  
وال السادس من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء ماراً باستجه ومورور وشدونة<sup>(١)</sup> ،  
فاما الطريقان الأول والثاني فهما على الحقيقة طريق واحد يبدأ عند لاردة  
وينتهي عند قادس ، وهو الرصيف الأوغسطي .

والطريقان الثالث والرابع من هذه هما الرصيفان الرئيسيان اللذان ذكرناها في  
تعداد الرصف الرومانية الشارعة من قرطبة مع ملاحظة أن الطريقين العربين كانا  
يتهيأان عند لاردة ولا يستمران إلى أمبرياش ، لأن هذه الأخيرة كانت خارجة  
عن الأندلس الإسلامي وداخلة في كونتية برشلونة ، كذلك لم تكن الطرق  
العربية الذاهبة إلى الشرق تستمر إلى برشلونة لنفس السبب ، وإنما كان  
منتهيًّاها في هذه الناحية عند طرطوشة ، وكانت هذه تقوم على الحدود بين بلاد  
الإسلام وببلاد النصرانية من هذه الناحية ، وإلى هذا ترجع أهميتها في العصور  
الإسلامية ، وقد فقدت طرطوشة هذه الأهمية بعد سقوطها في يد النصارى ،  
إذ انتقلت الأهمية إلى طركونة وبرشلونة .

وعبارة ابن بشكوال هذه هي الوحيدة في كتب مؤلفينا خاصة بالنصف  
الرومانية واستعمال الناس لها في العصور الإسلامية ، وهو يذكر بصراحة أنها  
تؤدي إلى روما وأنها تشق دائرة الأرض ، وربما يكون ابن بشكوال قد  
عرف أن ذلك الرصيف الأوغسطي يستمر بعد روما حتى يصل إلى انطاكيه ،  
وربما يكون ذلك قد غاب عن عالمه ، ولكن قوله إنه «يشق دائرة الأرض»  
يدل على أنه يعرف أنه طريق طويل يقطع الأرض من طرف إلى طرف :  
من الغرب إلى الشرق<sup>(٢)</sup> .

(١) ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، ج ١ ص ٤٦

(٢) كتاب مانويل أوكانيا خمينيث دراسة مطولة عن فقرة ابن بشكوال هذه الخاصة  
بابا بابا قرطبة :

Manuel Ocaña Jiménez, *Las puertas de la Medina de Córdoba*, Al-Andalus, III, 1935,  
pp. 143-151.

وقد أورد المقرى في «فتح الطيب» بعد هذه الفقرة فقرة أخرى تزيد عليها في الأهمية بالنسبة لطبوغرافية قرطبة العربية ، ونصها : « وذكر أيضاً – أى ابن بشكوال – أن عدد أرباض قرطبة عند انتهاءها في التوسع والعارة أحد وعشرون ربيضاً ، منها :

القبيلية بعدها النهر (أى الجنوبية على الضفة اليسرى للوادي الكبير)

ربض شقندة .

وربض مُنْيَة عَجَب .

وأما الغريبة فتسعة :

ربض حوانيت الريمانى .

وربض الدَّفَقَين .

وربض مسجد الْكَهْف .

وربض بلاط مغيث .

وربض مسجد الشفاء .

وربض حمام الإلبيرى .

وربض مسجد مسرور .

وربض مسجد الروضة <sup>(١)</sup> .

وربض السجن القديم .

وأما الشَّمَالِيَّة فَتَلَاثَة : <sup>(٢)</sup>

ربض باب اليهود .

(١) أورد ابن الخطيب في أعلام الأعلام يياناً بأرباض قرطبة مطابقاً لبيان ابن بشكوال (انظر ص ١٠٣ ) وهو يسمى هذا الربض : ربض الروض المحدث .

(٢) ابن الخطيب يقول إن الأرباض الثلاثة التالية تقع « بالجهة الجوفية » ويريد بها ما يريد ابن بشكوال بالجهة الشمالية .

وربض مسجد أم سلمة .

وربض الرصافة<sup>(١)</sup> .

وأما الشرقيه فسبعة :

ربض شبلار .

وربض فرت بِرْيِيل .

وربض البرج .

وربض منية عبد الله .

وربض منية الغيرة .

وربض الراهرة .

وربض المدينة العتيقة .

قال : ووسط هذه الأراضي كلها قصبة قرطبة التي تختص بالسور دونها ، وكانت هذه الأراضي دون السور (أى خارج السور) فلما كانت أيام الفتنة صُنِع لها خندق يدور بجميعها وحائط مانع<sup>(٢)</sup> » .

وقد درس هذه الفقرة بما هي حقيقة به من عناية علماء أجياله من طراز رافائيل كاستييخون وفرديناند زيبولد وليفي بروفنسال ومانويل أوكانيا خيمينيث وانتفعوا بها في دراساتهم عن قرطبة العربية<sup>(٣)</sup> ، ونضيف إلى ما استخرجوه من هذا النص حققتين تهمان من يدرسون تاريخ قرطبة والمدن الأندلسية بصفة عامة :

(١) ابن الخطيب (أعلام ، ص ١٠٣) : ربض قوت راشه المنسوب إلى أم سلمة .

(٢) المcri ، نفح الطيب ، ٢ / ١٢ - ١٤

(٣) انظر :

Rafael Castejón y Martínez de Arizala,  
*Córdoba Califal*, Córdoba, 1930.

Ibidem, *Guía de Córdoba*, Madrid, 1930.

C. F. Seybold, *Hispano-Arábica*, I, en la Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino, tomo III.

Lévi-Provençal, *L'Espagne Musulmane, au X<sup>e</sup> Siècle*, Paris 1932, pp. 195-236.

Ibidem, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, III, pp. 356 sgg.

ومقال أوكانيا خيمينيث الذي أشرنا إليه في المأمور قبل السابق .

الأولى أن البعض هنا ليس معناه الضاحية ، بل معناه الحى من أحياط المدينة ، وواضح أن هذه الأراضي كانت أول الأمر ضواحاً لقرطبة العربية الأولى خارج أسوارها ، ثم امتدت المدينة شيئاً فشيئاً فدخلت الأراضي في المدينة نفسها وأصبحت أحياطاً ، ومن هنا أصبح البعض مرادفاً للحى .

والثانية أن قرطبة كانت تتكون في الواقع من أربعة أقسام رئيسية : القسم الأول هو المدينة أو القصبة ، وهى المدينة القديمة وامتدادها إلى الشمال فشملت على الترتيب من الجنوب إلى الشمال ربع باب اليهود وربع مسجد أم سلامة وربع الرصافة ؛ والقسم الثاني هو «الجانب الشرقي» أو «المدينة الشرقية» إلى الشرق ويضم سبعة أحياط أو أراضي ؛ والقسم الثالث هو «الجانب الغربي» أو المدينة الغربية ويضم تسعة أراضي أو أحياط ، والقسم الرابع هو المدينة القبلية على الضفة اليسرى للوادى الكبير ويضم حيين أو ربضين هما شقندة ومنية عجب .

وقد أورد ابن الخطيب مثل هذا البيان في «أعلام الأعلام» ، وواضح أنه أخذه عن ابن بشكوال دون أن يذكر ، والنص عنده أدق مما هو عند المقرى في مواضع وأقل دقة في مواضع أخرى ، ولا ندري إن كان ذلك راجعاً إلى ابن الخطيب والمقرى أو إلى الناسخين ، وعلى أي حال فقد تابعنا نص المقرى لأنه ينص صراحة على أن هذا كلام ابن بشكوال .

ولكن روایة ابن الخطيب تنفرد بفقرة تلقى ضوءاً على ما عناه الإدريسي بقوله إن قرطبة «في ذاتها خمس مدن يتلو بعضها بعضاً ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز... الخ» قال ابن الخطيب — نقلًا عن ابن بشكوال في الأغلب — في كلامه عن القسم الأوسط من قرطبة : «ربع المدينة — القصبة العتيقة ، واسطة البلدة — وكان ينقسم على ربضين : الجامع وما حوله ربع واحد يتولاه عريفه ، ومحارسه على حدة ، وربع آخر بذاته يتفرد به أيضاً عريفه » أي

أن القسم الأوسط انقسم إلى حيين : القسم الجنوبي الملاظق للنهر ويضم الجامع وما حوله ، أى قلب قرطبة العتيقة ، ثم بقية المدينة العتيقة إلى الشمال وتضم أحياً أو أرباض مسجد أم سلمة (قوت راشه) وباب اليهود والرصافة ؟ وكان كل من هذين القسمين كأنه مدينة قائمة بذاتها له عريفه ومحارسه . واعتماداً على هذا يمكن القول بأن أقسام قرطبة الثلاثة الأخرى كانت كأنها مدن قائمة بذاتها لكل منها عريفه ومحارسه ، أى أن أقسام قرطبة الخمسة كانت في وقت ابن بشكوال والإدريسي كأنها خمس مدن ، لكل منها عريف ومحارس ، وربما كان لها أسوار أيضاً ، وهذا ربما كان تفسيراً معقولاً لكلام الإدريسي .

هناك بعد ذلك ملاحظتان جانبيتان تهمان أولئك الذين يدرسون تاريخ قرطبة العربية : أولهما أن ابن بشكوال يذكر الجامع وما حوله في هذه الفقرة دون إشارة إلى قصور الخلافة وكانت مواجهة له على الجانب الغربي للمحاجة العظمى ، ولو كانت موجودة لأشار ابن بشكوال إليها هنا ، فقد كان بالنسبة لتخطيط قرطبة في نفس أهمية المسجد الجامع ، وعدم الإشارة إليها هنا يدل على أنها كانت قد تهدمت وعدا الناس على أرضها والباقي من مبانيها ، ويعيد ذلك الفرض أن الإدريسي أيضاً لا يشير إلى هذه القصور ، وثانيةهما أن البلد فَقدَ وحدَته فلم يعد مدينة واحدة يشرف على الأمان فيها صاحب المدينة ، وإنما خمس مدائن متباورة يشرف على الأمان في كل منها عريف مستعيناً بعدد من الحراس ، والعريف في الماضي كان نائب صاحب المدينة في كل حي من الأحياء ، فأصبح الآن رئيساً في ناحيته ، فكأن التقسيم الذي شمل الأندلس كله شمل قرطبة كذلك .

وقد أورد المقرى في نفح الطيب نقولاً أخرى كثيرة عن ابن بشكوال من كتابه الذي قبس منه هاتين الفقرتين ، وهذه النقول تدل في مجموعها على أنها أخذت من كتاب في الجغرافية والتاريخ ، أى كتاب يتكون من مقدمة

جغرافية طويلة ثم موجز تاريخي ، ومعظم هذه الفقرات يدور حول مسجد قطبة الجامع وتاريخه وتطوره ووصفه<sup>(١)</sup> .

ويستوقفنا من هذه النقول واحد يقول : « وسئل ابن بشكوال عن قصر قطبة فقال ... » لأن هذه العبارة تدل على أن ابن بشكوال كان يقرأ كتابه هذا في درسه ، وفي أثناء الدرس سأله أحدهم عن قصر قطبة فأدلى ببيانات التي سنشير إليها بعد . حقيقة أن إحدى مخطوطات « النفح » تجعل هذه العبارة « ولما وصف ابن بشكوال قصر قطبة قال ... » ولكن العبارة الأولى أقرب إلى المقول ، لأن قصر قطبة لم يكن على أيام ابن بشكوال إلا أطلالا ، فهو لا يصف شيئاً قائماً وإنما يسأل عن شيء تهدم وزالت معالمه . ولما كان ابن بشكوال قد عرف هذا القصر في أواخر أيام رونقه ، فقد كان ابن بشكوال في مداخل شبابه أيام بلغت دولة المرابطين أوجها ، وكانت هذه الدولة قد أوقفت الفتنة وحركة النهب والتخريب التي سادت عصر الطوائف ، وأبقيت بذلك على ما بقي من رواء القصور في قطبة وغيرها لفترة من الزمن . وربما كان عمال المرابطين هم الذين نظموا قطبة على أساس خمس مدن لكل منها عريفها ومحارسها ، وعلى هذه الحالة رآها الإدريسي عندما زارها ووصفها في « نزهة المشتاق » . ولما قام الموحدون على المرابطين قامت الفتنة من جديد في الأندلس وعاد التخريب ، فأتى على البقية الباقي من القصور ، وكان ذلك كله في حياة ابن بشكوال الطويلة ، ومن هنا كان قادراً على أن يحدث الناس عن القصر الذهاب وتاريخه وأقسامه على النحو الذي رواه المقرى في نفح الطيب<sup>(٣)</sup> .

(١) هذه الفقرات تدور حول : الأحاديث النبوية في فضيل الأندلس (١٩٠/١) وجبارية الأندلس أيام الناصر (١٩٦/١) وقصر قطبة (١١/٢) وزيادة المنصور ابن أبي عامر في جامع قطبة (٨٤/٢) ونص لل الخليفة الحكم المستنصر عن هذه الزيادة (٩٨/٢) وأصل موضع الجامع (٩٩/٣) ومصحف عثمان الذي كان في المسجد (١٣٥/٢) .

(٢) نفح الطيب : ١١/٢

(٣) انظر نفح الطيب ، ١٣—١١/٢

اليسع بن عيسى بن حزم الغافق

وننتقل من ابن بشكوال إلى فقيه آخر معاصر له هو اليسع بن عيسى ابن حزم بن عبد الله بن اليسع الغافق الجياني المتوفى في القاهرة في رجب ٥٧٥ / ديسمبر ١١٧٩<sup>(١)</sup> ، ألف كتاباً يسمى «المغرب (أو المغرب) في محاسن المغرب» يكثُر النقل عنه فيما تلاه من الكتب ، وعنده أورد المقرى في النفح عددًا من النقول ذات الطابع الجغرافي .

ولا يقارن اليسع الغافق بابن بشكوال في عالمه أو مكانه أو موضعه من الثقة ، فقد كان ابن بشكوال شيخ عصره في الأندلس وعمادًا من عمد تاريخ الفكر الأندلسي عامته ، أما اليسع فقد كان فقيهًا عاديًا أصل بيته من جيَّات وسكن أبوه المرية ، والأغلب أن اليسع ولد فيها أوائل القرن السادس الهجري ، فقد ذكر أبو عبد الله التيجي «واكثُر خبره عنه» كما يقول ابن الأبار في «التكلمة» إنه «توفي بعد انصرافه عنه في رجب سنة ٥٧٥ وكان مُسِّيناً» ودرس القرآن والحديث على أبيه ونفر من شيوخ بلده وغيرهم . ويدرك ابن الأبار أنه سمع البخاري من ابن هذيل سنة ١١٤٩ / ٥٤٤ ، وابن هذيل هذا هو أبو المجد هذيل بن محمد بن هذيل الأنصاري الاشبيلي ، من تلاميذ ابن بشكوال (التكلمة رقم ٢٠٢١ ص ٧١٦) . ويقول ابن الأبار في التكلمة أن اليسع لقي بيلنسية أبو حفص بن واجب وأبا إسحق بن خفاجة الشاعر ، وابن خفاجة توفي على أصح الأقوال في ٢٦ شوال ٥٣٣ / يونيو ١١٢٩<sup>(٢)</sup> ، مما يفهم منه أن اليسع لقي ابن خفاجة وسمع منه في أواخر أيام

(١) ورد هذا التاريخ في ترجمة اليسع في التكلمة ، وفي ترجمته في «المعجم في أصحاب أبي على الصدق» (وكلا الكتابين لابن الأبار) رجب ٥٩٥

(٢) راجع ترجمة ابن خفاجة في المعجم في أصحاب أبي على الصدق لابن الأبار ، رقم ٤٤ ص ٥٩ - ٦٢ وخاصة الماشية رقم ١ ص ٦٠ ففيها نص تعليق على إحدى نسخ ديوان ابن خفاجة يحدد تاريخ وفاته كما ذكرناه .

هذا الأخير ، وقبل ٢٦ شوال ٥٣٣ على أى حال . ونفترض أن اليسع كان إذ ذاك في مطالع شبابه وأوائل دراسته ، لأنَّه سمع البخاري من ابن هذيل بعد ذلك بحادي عشرة سنة (سنة ٥٤٤) ، وليس هناك تجُوزٌ كثير في افتراض أن اليسع ولد حوالي سنة ١١١٦/٥١٠ ، ويؤيد هذا الفرض قول أبي عبد الله التيجي أنه رأه (في مصر) في رجب سنة ٥٧٥ (ديسمبر ١١٧٩) «وكان مسناً» ، فقد كانت سن اليسع إذ ذاك على افتراضنا فوق الخامسة والستين بقليل .

وقد هاجر اليسع من الأندلس إلى المشرق في تاريخ لا نستطيع تحديده ، ولكنَّه بعد سنة ٥٤٤ ، ففي تلك السنة سمع من هذيل بن محمد بن هذيل الإشبيلي ، ونزل اليسع الأسكندرية ، ولابد أنه أقام فيها زمناً ، لأنَّ ابن الأبار يقول إنه «استوطنهما» ثم رحل إلى القاهرة ودخل في خدمة صلاح الدين . ويرتبط دخول اليسع في خدمة صلاح الدين بقيامه بدور هام في حادث كبير من حوادث تاريخ مصر ، وهو قطع الخطبة للفاطميين والدعوة للعباسيين ، وما قام به اليسع هنا جدير هنا بوقفة قصيرة .

ذلك أنَّ ابن الأبار ينص في الترجمتين اللتين اختص اليسع بهما في «المجمع» و«التكلمة» على أنه هو الخطيب الذي أقام أول خطبة لل الخليفة العباسى بمصر عندما قرر صلاح الدين — بأمر نور الدين محمود — أن يقطع الخطبة لبني عبيد . وكان من نتائج ذلك أن حظي اليسع عند صلاح الدين ولقى منه كرامة كبيرة بعد ذلك ، قال ابن الأبار : «ورحل إلى المشرق واتصل بالملك صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب ، فاشتمل عليه وأجزل إحسانه إليه ، وأجرى له في كل شهر ما يقوم به ، وكان يكرمه ويشفعه في حواشي الناس ، فابتني بمصر داراً على شاطئ النيل ، وجعل لها اسطواناً يزار فيه ، حتى ذلك أبو عبد الله التيجي شيخنا ، وكان قد لقيه بالأسكندرية في سنة ٥٧٠ ، ثم لقيه بمصر ثانية بعد صدره من الحج». قال : وذكر لي أنه أول من خطب للعباسية على منابر العبيدية : صعد المنبر والأغْزَازُ حوله وسيوفهم مصلنته خوفاً

من الشيعة أن ينكروا فيقوموا ، فلم يجسر أحد أن يخطب سواه ، فخطى بذلك . قال : وانحدرت في النيل عائداً إلى الإسكندرية ، فتوفى بعد انصراف عنده في رجب سنة ٥٩٥ ، على ما بلغنى ، وكان مُسِنًا<sup>(١)</sup> ؛ وفي الترجمة الثانية في «التكلمة» يردد ابن الأبار نفس الكلام عن استيطراته الإسكندرية ثم يقول : «ثم رحل إلى مصر واشتمل عليه الملك صلاح الدين ورسم له جاريما يقوم به ، وكان يكرمه ويشفعه في مطالب الناس لأنّه كان أول من خطب على منابر العبيدية عند نقل الدعوة العباسية<sup>(٢)</sup> ؛ تجاسر على ذلك حين تهيه سواه ، وكان فقيهاً مشاوراً مقرئاً محدثاً حافظاً نسابة من أبدع الناس خطأ ، وله تاريخ سماه «المغرب في محسن المغرب» ، وهو متهم في هذا التأليف ، حدثنا عنه أبو عبد الله التنجي وأكثر خبره عنه ، قال وتوفي بعد انصراف عنه في رجب سنة ٥٧٥ وكان مسنًا . قلت : وروى عنه ابن الفضل القدسي وأبو القاسم الصفراوى وجماعة ؛ رأيت تاريخه<sup>(٣)</sup> .

وإذن فقد كان هذا الشيخ الأندلسي الجياني اليسع بن عيسى بن حزم الغافقى هو الذى تصدى لإقامة الخطبة للعباسيين على منبر العبيدين فى القاهرة عندما رهب غيره القيام بذلك ، ومن طريف ما يذكر هنا أن أبو المحسن يوسف بن تغري بردى يقول : «واختلفوا فى الخطيب ، فقيل إنه رجل من الأعاجم يقال له الأمير العالم ، وقيل : هو رجل من أهل بعلبك يقال له محمد ابن الحسّن بن أبي المضاء البعلبكي المقدم ذكره الذى توجه فى الرسلية من قبل

(١) ابن الأبار ، المعجم ، رقم ٣١٥ ص ٣٢٢ - ٣٢٣

ويلاحظ أن تاريخ ٥٩٥ واضح الخطأ ، فإن أبو عبد الله التنجي رأى اليسع بن عيسى سنة ٥٧٠ ورأه مرة ثانية بعد صدوره من الحج ، ثم توفي اليسع بعد ذلك بقليل ، ويستبعد أن يحج التنجي من سنة ٥٧٠ إلى سنة ٥٩٥ والأصح سنة ٥٧٥ كما ورد في ترجمة اليسع في التكلمة .

(٢) كذا في الأصل ، والأصح : إلى العباسية .

(٣) التكلمة ، رقم ٢١١٢ ص ٧٤٤ - ٧٤٥

صلاح الدين إلى بغداد ، وقيل انه كان رجلا شريفاً عجمياً ، ورد من العراق أيام الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك<sup>(١)</sup> » ، فاما أن الخطيب كان ابن أبي المضاء البعلبكي بعيد الاحتمال لأن ابن أبي المضاء كان رجلا معروفاً لا يخفي أسر قيامه بالخطبة على أحد لو أنه فعل ذلك حقاً ، ثم انه كان رسول صلاح الدين إلى الخليفة العباسى بعد أن تم الأمر ، ولو كان هو الذى خطب لما خفى الأمر على مؤرخ ثبت كأبي الحasan ، ثم ان الأمر لم يكن يتطلب رجلا معروفاً ، بل رجلا جريئاً متفانياً في سنته ليقتصر هذه العقبة غير مبالٍ بالخطر أو غير عارف بمداه ، وقد ولد اليسع وتربى في بلاد اجتاحتها الأخطار وتهدها الغزو النصراني ، فنشأ ثابت الجأش معتادا الثبات في لحظة الخطر شديد المصيبة لعقيدته السننية ، وقد وفد على مصر دون أن يتتبه أحد إلى مكانه أول الأمر ، ومن الطبيعي أن يكون أكثر من غيره ضيقاً بهذه الشيعية التي وجدها سائدة في مصر ، فما كاد يحس أن صلاح الدين يطلب من يتصدى لالقاء أول خطبة باسم العباسين حتى عرض أن يقوم بالعمل ، وقام به فعلاً ، والغالب أن لهجته الأندلسية بدت للسامعين أعمجية شيبة بنطقي الإيرانيين والخراسانيين ، فحسبوه رجلا من هذه التواхи ، وربما يكون رجال صلاح الدين قد كتموا اسمه خلال الأيام الأولى حرصاً على حياته ، فتضاربت الأقوال في شأنه كما رأينا في نص أبي الحasan ، وما هو في الحقيقة إلا اليسع ابن عيسى بن حزم الغافقى الجياني .

والسؤال بعد ذلك : كيف وصل هذا الرجل إلى صلاح الدين ، أو  
كيف وقع اختيار هذا عليه ؟ وأمثال هذه الأسئلة تسرع الإجابة عليها من  
مادة الترجم الصناعية التي تقدمها لنا معاجمنا ، ولكن لدينا البرهان على أن اليسع  
قام لصلاح الدين بخدمة جليلة وهي هذه الكرامة التي أولاها إياها بعد ذلك

(١) النجوم الظاهرة ، ٣٥٥/٥ - ٣٥٦

حتى كان يشفع في حوائج الناس لديه ، وهذا المال الذى أغدقه عليه حتى ابتنى داراً على النيل فيها اسطوان أى قاعة واسعة يقابل فيها الوفدين عليه . وهذا يمكن تعليله بما افترضناه في الفقرة السابقة من أنه ربما يكون قد سمع أن صلاح الدين يطلب من يستطيع إلقاء أول خطبة باسم الخليفة العباسى ، فعرض أن يكون هو القائم بذلك ، ووافق صلاح الدين على ذلك ، وقام اليسع بالمهمة وفتح لنفسه بذلك طريقاً واسعاً في الحياة .

وقد نقل المقرى وابن القطان عن اليسع بن عيسى الغافق نقولاً كثيرة بعضها في الجغرافية وبعضها الآخر في التاريخ ، وكلها في الغالب من كتابه الآف الذكر «المغرب في محسن المغرب» الذي قال عنه ابن الأبار أنه «متهم فيه» والشبهة هنا تنصب إما على مبالغة اليسع فيما ذكر من المعلومات عن الأندلس أو على أخطاء ظاهرة وقع فيها عند الكلام عن الموحدين وأنكرها عليه مؤرخوهم ، ومنهم ابن القطان . فمن أمثلة المبالغة أو عدم التدقيق قوله إن طول جزيرة الأندلس «من أربونة إلى أشبونة» ، وهو قطع ستين يوماً لفارس المجد ، وانتقد بأمررين : أحدهما أنه يقتضي أن أربونة داخلة في جزيرة الأندلس ، والصحيح أنها خارجة عنها ، والثانى قوله : «ستين يوماً لفارس المجد» أعياء وفراط ، وقد قال جماعة «إنها شهر ونصف» انتهى كلام المقرى <sup>(١)</sup> .

ويورد المقرى بعد ذلك تعليقاً لابن سعيد يقول فيه : «وهذا يقرب إذا لم يكن لفارس المجد ، والصحيح ما نص عليه الشريف من أنها مسيرة شهر ، وكذا قال الحجاري ، وقد سألت المسافرين الحقين عن ذلك ، فعملوا حساباً بالمراحل الجيدة ، أفضى إلى نحو شهر بنيف قليل <sup>(٢)</sup> » وبصرف النظر عن هذه

(١) فتح الطيب ، ١٢٥/١

(٢) نفس المصدر والصفحة .

الاعتراضات ، فكلها غير دقيقة ، فإن هذا التعليق يدل على أن كتاب اليسع كان متداولا في المشرق وموضع مناقشات واستدراكات من كتبوا عن الأندلس بعد ذلك .

ومن أمثلة المبالغة كذلك قول اليسع عند ذكره مدينة شِنْتُرَه (Cintra) في البرتغال حالياً) «من خواصها أن القمح والشعير يزرعان فيها ويحصدان عند مضي أربعين يوماً من زراعته ، وأن التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر . قال لي أبو عبد الله الباكورى ، وكان ثقة ، أبصرت عند المعتمد ابن عباد رجلاً من أهل شنترة أهدى إليه أربعاً من التفاح ما يُقللُ الحاملُ على رأسه غيرها ، دور كل واحدة خمسة أشبار ، وذكر الرجل بحضوره ابن عباد أن العتاد عندهم أقل من هذا ، فإذا أرادوا أن يجحِّهُ بهذا العِظَم وهذا القدر قطعوا أصلَها وأبقوا منه عشرة أو أقل ، وجعلوا تحتها دعامات من الخشب <sup>(١)</sup> » .

ومبالغة في هذه الأقوال ظاهرة ، فإن القمح والشعير منها كانت جودة الأرض وملاءمة الجو لا يمكن أن يحصدا قبل ثلاثة شهور في شنترة أو غيرها ، ثم أين هي التفاحة التي دروها خمسة أشبار أى نحو ١٠٠ سنتيمتراً؟ حتى في أيامنا هذه ، وقد بلغ التفاح فيها أقصى ما وصل إليه في التاريخ حجماً وزناً لا يمكن أن يصل دور أكبر تفاحة أكثر من شرين أى حوالي ٤٠ سنتيمتراً . ولدليل المبالغة محاولة اليسع تأييد كلامه برواية عن يسميه أبو عبد الله الباكورى من أنه رأى هذا التفاح العجيب عند المعتمد بن عباد ، والمعتمد انتهى أمره سنة ٤٨٤/١٠٩١ أى قبل مولد اليسع بخمس وعشرين سنة على الأقل ، والأغلب أن سن صاحبه الباكورى كانت تقارب سنه .

---

(١) نفح الطيب : ١٥٤/١ - ١٥٥

ومن أمثلة المبالغة أيضاً قوله إن الأندلس «لا يتزود فيها أحد ما حيث سلك لكتلة أنهارها وعيونها»، وربما لقى المسافر فيها في اليوم الواحد أربع مداهان، ومن المعاقل والقرى ما يحصى، وهي بطاح خضر وقصور ييفض<sup>(١)</sup>، فهذا كلام لا يصح، إذ أنه منها هطل المطر وإنما الزرع لا يمكن أن يقال إن الأندلس بطاح خضر وتصور بغض، ومن المعروف أن شبه جزيرة إيبيريا حافلة بالمناطق الجرداء.

ومن أمثلة أخطائه في التاريخ قوله أن من بين الهيئات الأساسية في تنظيم الموحدين جماعة تسمى السبعين أو أهل سبعين، ولم يرد لهذه الهيئة ذكر عند العارفين بنظام الدعوة الموحدية، وقد علق على ذلك ابن القطنان بقوله: «أما ما ذكره اليسع من أمر السبعين فلا أعرفه ولا أراه صحيحاً»<sup>(٢)</sup>.

وخلالصة أن اليسع بن عيسى بن حزم الغافقي لم يكن جغرافياً أصيلاً محققاً، ولكنه كتب في جغرافية الأندلس على سبيل الدعوة لوطنه الذي خلفه وراءه في حال من الاضطراب وترادف الأخطار جعلت الأمل في اقادة ضئيلاً، ولهذا بالغ في وصف محسنه ليحفز الهمم على السعي لاستنقاده، ولم ينفرد اليسع بهذا الطراز من الكتابة عن الأندلس، فسنرى علياً ابن سعيد المغربي يفعل هذا أيضاً، نعم إن ابن سعيد لم يسترسل مع المبالغة إلى الحد الذي ذهب إليه اليسع، ولكنه كان أيضاً داعية للأندلس انتدب نفسه للحديث عن وطنه بين أهل إخوانه من أوطان المسلمين مذكراً إياهم بما كان للأندلس من عز ومجده وما له من حقوق على المسلمين، ولم يكن اليسع على علم واسع بجغرافية بلاده أو بتاريخ الغرب الإسلامي، فأعتمد في ذلك على ما وصل إلى يده من كتب وأضاف من خياله أشياء أخرى من طراز ما ذكرناه، ومن أسف أن كتابه

(١) نفح الطيب: ١٩٤/١

(٢) نظم الجبان لابن القطنان، الجزء السادس بتحقيق الدكتور محمود على مكي، تصوان، ١٩٦٤، ص ٢٩

قد ضاع ، ولو لا أن الميري — ذلك الجماع الحاشد — احتفظ لنا بفقرات من الكتاب لما كانت لدينا أي فكرة عن طبيعته وقيمة أو مكانه بين كتب الجغرافية والتاريخ .

لقد كان أمثال اليسع في المشرق كثيرين جداً أحصينا منهم في « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » نحو مائتي رجل ، كلهم غادروا وطنهم الذي أشبه — ابتداء من القرن السادس — بسفين دهمته العواصف وسط البحر ، فأخذ يغرق شيئاً فشيئاً ، ونجا من استطاع من ركباه وحط على أقرب شاطئ ، ومضى ينتحلث بما كان لسفين من جمال وما كان فيه من أتعاب ، ولكن القليلين منهم اجتهدوا في الدعوة الخالصة لإنقاذ الأندلس ، وربما كان اليسع أقدر الجميع على القيام بجهد في هذه الناحية بما كان له من المكانة والحظوظة عند صلاح الدين ، وربما يكون قد فعل شيئاً من ذلك فقد كان رجلاً مقداماً ، فيه ذلك الاندفاع إلى القول والعمل الذي تميز به الكثيرون من الأندلسين ، ومن يدرى ؟ فربما كان لليسع أثر فيها لوحظ من اهتمام صلاح الدين بالجناح الغربي لمملكة الإسلام وتطلعه إلى التعاون مع الموحدين ؟

ومثل كتاب « المغرب عن أحوال أهل المغرب » هذا لدينا أسماء كتب أخرى كتبت على غراره ، حررها في المشرق نفر من مهاجرة الأندلسين أو المغاربة الذين هاجروا إلى المشرق أو استقروا فيه ، وعنهما نقل كتاب المشرق ومثال ذلك تلك المعلومات الكثيرة عن المغرب والأندلس التي يوردها أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس المصري (ت ٩٣٠ / ١٥٢٤) عن المغرب والأندلس في كتابه « نشق الأزهار في مجائب الأقطار<sup>(١)</sup> » ناسباً إياها « لبعض أهلها » ، فان معظم ما يورده ابن إياس في هذا الباب مبالغات من طراز ما رأيناه في كتاب اليسع ، وكذلك كتاب « مناهج الفكر ومباهج العبر » (أو مباحث الفكر ومناهج

(١) لم ينشر هذا الكتاب بعد ، ومحظوظاته كثيرة (انظر بروكلمان ، ملحق ٢ ص — ٤٠٦ ، وينقل الميري في نفح الطيب عنه كثيراً مكتفياً بقوله : قال صاحب نشق الأزهار .

العبر) بجمال الدين محمد بن ابراهيم بن يحيى بن على الانصاري المعروف بالوطواط الكتبى الوراق (١٣١٨ - ١٢٣٣ / ٧١٨ - ٦٣٢) ، فهو أيضاً كتاب مبالغات وتهويات ، وما يخص المغرب والأندلس فيه كثير ، ولم ينشر ذلك الكتاب بعد<sup>(١)</sup> ، ولكن المقرى أورد في نفح الطيب مقتطفات كثيرة منه شبيهة بما أورد من كتاب اليسع بن عيسى الغافقي . وقول ابن إياس أنه أخذ هذه المعلومات عن « بعض أهلها » أى بعض أهل الأندلس يدل على أنه نقل عن كتب كثيرة في هذا الشأن أنها أندلسيون مهاجرون .

أبو حامد الغرناطي

ويختلف عن هؤلاء جميعاً رجل من مشاهير معاصرى الإدريسي من الأندلسيين ، وهو محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ريم القيسى الغرناطي<sup>(٢)</sup> .

(١) انظر بروكلمان ، تاريخ ٥٤/٢ وملحق ٥٣/٢

(٢) أوردت اسمه هنا كما ذكره هو بنفسه في فاتحة كتابه « المغرب عن بعض مخائق المغرب » مخطوط أكاديمية التاريخ في مدريد (رقم ٤٢ مجموعة جيانجوس) ورقة ٤ ، وعلى هذه النسخة معلانا فيما سند ذكر عن هذا الكتاب .

وقد وردت كنية مؤلفنا « أبو بكر » و « أبو محمد » و « أبو عبد الله » في المراجع المختلفة ، ويغلب علىظن أن أبي حامد هي أصح الكني ، فقد كان له بالفعل ولد يسمى حامد . وورد اسم أبيه عند حاجي خليفة عبد الرحمن ، ويبدو أن هذا تصحيف .

ومعلانا في الكثير مما سنورد عن أبي حامد على المقدمة الضافية التي كتبها جابريل فيران لتحقيقه الكتاب تحفة الآلباب .

Cf. *Le Tuhfat al-Albāb de Abū Hāmid al-Andalusī al-Gharnātī*; édité d'après les mss. 2167, 2138, 2170 de la Bibliothèque Nationale (de Paris) et le ms. d'Alger, par Gabriel Ferrand. *Journal Asiatique*, Juillet Septembre 1925.

وسنشير إلى هذا المرجع باسم « التحفة » .

واعتمدنا كذلك على الدراسة المستفيضة التي ضممتها سizar دوبير الكتاب الذى نشر فيه قطعة من « المغرب عن بعض مخائق المغرب » وهو :

César E. Dubler, *Abū Hāmid el-Granadino y su Relación de viaje por Tierras Eura-siáticas* (texto árabe, traducción e interpretación). Madrid 1953.

وسنشير إلى هذا المرجع باسم : المغرب — دوبير ، وسنشير إلى ما نورد من المخطوط بعبارة : المغرب — مخطوط .

كان رحالة يدفعه إلى جوب الآفاق شوق لا يقارن إلا بهذا الذي دفع ابن بطوطة إلى رحلاته ، بل أربى على هذا الأخير في ذلك ، إذ كانت له جرأة غير معهودة على اقتحام المخاطر والدخول في بلاد بعيدة مجهلة الأحوال والأنسن ولا يدخلها الغريب إلا على غَرَر ، وأوغل في تلك النواحي المرة بعد المرة وأطال التغرب ، وعاد إلى دار الإسلام في كل مرة يحكي من الغرائب والعجبات ما لا يكاد يصدق ، واستمر في ذلك الجهد المضني حتى نيف على التسعين وهو في رحلة ما يزال ، وخلف لنا طائفة من كتب فريدة في باهها ، فهي ليست كتب رحلات شبيهة بما كتب ابن فضلان مثلا ، وليس كتب غرائب وعجبات كالذى سنبجده في كتاب أبي بكر الزهرى الذى سنعرض له بعد قليل ، وليس كتب جغرافية خالصة كتلك التي صرنا بها إلى الآن ، وإنما هي مزاج من ذلك كله : نلقى فيها الرحالة الطلعة القوى القلب ، والجغرافي الدقيق البعيد الملاحظة ، والمجانبي المغرب المسرف فيها يروى من أخبار المستبعدات وأوصافها ، وهو يؤكد أنه رأى الكثير من ذلك بنفسه أو اختبره بيده ، ولو لا أننا نعرف أن المؤugin بهدا الشأن في تلك العصور كانت فيهم سذاجة في التصور وإسراعاً إلى التصديق يجعلنهم يخدعون أنفسهم حتى ليتوهمون رؤية ما لا يرون أو يبالغون في تصوير ما يرون حتى يجاوزوا به المعقول ، لو لا هذا لقلنا أنه غير صادق فيما روى . وحال أبي حامد الغرناطى في هذا هي حال أبي الحسن المسعودى وشمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسى في الكثير مما ذكرنا في كتبهما ، وها رغم ذلك من أهل الصدق والثقة في حسابنا ، ونحن عندما نقرأ لأمثال هؤلاء أحاديث الحرافة والمستحيلات ونجدهم يؤكدون أنهم رأوا ذلك بعين رأسهم ندرك أنهم لشدة ولعهم بالعجبيب الخارق وفرط إيمانهم بقدرة الله تعالى على كل شيء حسبوا أنهم رأوه أو أحسوا به كما وصفوه أو خيّلوه لأنفسهم كما تصوروه ، وربما أحسينا ونحن نقرأ لهم أن الرغبة في تشويق السامعين والولع باستفزازات الانتباه بحديث

الغرائب حملها الكثيرون منهم على زعم الرؤية وتأكيد المشاهدة ، فانساقوا في قول ما قالوه عن حسن نية ورغبة ساذجة في الامتناع والتسلية .

نقول هذا لأننا سنجد أحاديث أبي حامد الغرناطي حافلة بالغريب وما يخرج عن حد التصديق ، ثم نجد الرجل نفسه يؤكّد أنه رأى ذلك بنفسه أو اختبره بيده ، وأبو حامد بعد ذلك رجل فاضل عاقل يستبعد منه الكذب والشعبنة والاسفاف إلى ما لا تقبله العقول أو الاستخفاف بسامعه وقارئه ، ولا تفسير لأعاجيبه وتهوياته إلا ما ذكرناه ؛ ثم إن أبي حامد كان ابنَ عصره ، والعصر كان يقبل هذه الأحاديث ولا يستبعدها ، وفي هذه الحدود ينبغي أن نقرأ أبي حامد الغرناطي ونفهمه .

#### حياة أبي حامد الغرناطي ورحلاته

وحيات أبي حامد نفسها ربما كانت أغرب من كثير من الأعاجيب التي أوردها في كتبه ، فهي حافلة بالحوادث والحركة والنشاط على نحو يندر أن نجد له مثلاً ، وقد استخلص جابريل فران مراحل هذه الحياة من أقوال المؤرخين ومن كتابات أبي حامد نفسه ، وأوردها في القدمة الضافية التي ساقها بين يدي تحقيقه « لتحفة الألباب » ، وعاد فحكلها في صورة أدق وأوفى سizar دوبلر في مقدمة ما نشر من « المغرب من عجائب المغرب » معتمداً على ما ذكره أبو حامد في ثنايا كتبه وما ذكره المقرى في ترجمته الضافية له في « نفح الطيب » ، وفيما يلي مراحل هذه الحياة الحافلة :

ولد أبو حامد في غرناطة سنة ٤٧٣-١٠٨١ / ١٠٨٠ ، وقد نص هو على ذلك في « المغرب » فقال : « ومولدى بالمغرب الأقصى بجزيرة تعرف بأندلس فيها أربعون مدينة ، وموالدى في مدينة تسمى غرناطة ». وأعاد ذلك في « التحفة » : « فإن بلدى بأندلس ، واسم بلدى غرناطة ، وهو بلد عظيم

كبير يقال إنه مدينة دقianoس ». أما نسبته « القيسى » فليست كما قال في العرب (١٣) نسبة إلى قيس عيلان بن الياس بن مصر بن نزار ، بل إلى قرية قريبة من غرناطة تسمى قيس ، أما نسبته الأخرى « الأقليشي » فإلى بلدة أقليش أو أقليج Uclés في مديرية كونكة Cuenca حالياً ، وربما يكون قد قضى فيها سنوات من صبّوته وشبابه الباكر ، فنسب إليها .

ولا ندرى شيئاً عن حياة أبي حامد حتى مغادرته الأندلس إلى غير رجعة حوالي سنة ٥٠٠-١١٠٧-١١٠٦ في الغالب ، أى في سن السابعة والعشرين ، ولا شك أنه درس على الشيخ على نفس النظام الذي جرى عليه غيره من أبناء عصره ووطنه ، ولكننا لا نحسب أنه تعمق في دراسة الفقه أو الأدب وما إليها من فروع العلم الإسلامي ، لأننا لا نلحظ في كتبه ما يدل على تعمق أو استبحار ، بل نلاحظ قصوراً واضحاً في الزاد الفكري والعلمي ، ولكن الذي يستنتاج من كتاباته أنه كان حاد الذكاء شديد التعلم دقيق الملاحظة حسن الحديث خفيف الروح ، ومن كانت هذه خلاله تفتح له الأبواب وتسهل أمامه الحياة ولا يحتاج إلى كد النفس وإرهاقها في طلب العلم ، وحسبه من كل شيء طرف يسمى به في المجالس ويتحدث به بين الناس .

وليس في كتابات أبي حامد ما يشير إلى عودته إلى وطنه ، ويعمل سizar دوبلر هذه المجرة النهائية بسقوط بلده أقليش في أيدي النصارى<sup>(١)</sup> . وقد

(١) يعلق دوبلر على هذا بقوله إن المقرى يقول إن أبي حامد كان في الإسكندرية سنة ٥٠٨ هـ واعتماداً على ذلك افترض فيران (مقدمة التحفة ص ٢١) أن أبي حامد عاد إلى الأندلس ، وتبعه في ذلك بروكلان وجورج سارتون (وبذلك قال كراتشكونوفسكي ، الأدب المغربي ، ص ٢٩٥) وذهب إلى مثل ذلك مينورسكي اعتماداً على ترجمة لحياة أبي حامد شيهية بما يذكره المقرى عنه وجدتها في مخطوطة طشقند التي ترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادي ، وربما كانت هناك علاقة ما بين الترجمتين . ويقول دوبلر أنه لا يستبعد إمكان وجود أبي حامد في الإسكندرية سنة ٥٠٨/١١١٤-١٥ ، ومن الممكن أن يكون قد عبر البحر من هناك وزار بعض جزأه ثم عاد إلى الإسكندرية سنة ٥١٢ ، وربما يكون قد حدث خلط بين التارixin (٥٠٨ و ٥١٢) ، ومن هنا جاء القول بأن أبي حامد عاد إلى الأندلس والمغرب بين هذين التارixin .

طاف أبو حامد بعد مغادرته الأندلس بناوحي المغرب الأقصى ، ووصل إلى سجلماستة ، وكانت سريراً تجاريًا عظيماً على الحدود الشمالية للصحراء الكبرى . ولا شك أن أبي حامد وصل إلى هذا البلد ، فقد أعطانا معلومات دقيقة عن أصناف المتاجر التي تحمل من وسط إفريقيا إلى هناك ، ووصف طريقة صنع السهام التي تستعملها قبيلة الكوكوكو ، وكانت من أقوى القبائل في تلك الناحية .

ومن هناك انطلق أبو حامد إلى إفريقيا (تونس الحالية) . وما يستوقف النظر أنه يخلط بين مدينة تونس والقيروان ، وهو خلط يرجع — في الغالب — إلى أن ما ذكره عنها في التحفة كتبه بعد ذلك بسنوات طويلة . وقد ذكر في التحفة أيضاً (ص ١٣٨—١٣٩) ، أنه زار هناك قبر رجل صالح يقال له محمد العلم ، والمراد به محز بن خلف بن رزين المتوفى سنة ٤٢٣/١٠٣٢ ، وأخطأ الناسخ فكتب مهداً مكان محز . وأخذ أبو حامد شيئاً من تراب قبره ، وكان الناس يتبركون به ويحملونه معهم إذا ركبوا البحر لتبعده عنهم الأنواء ، ويقص أبو حامد حكاية طريقة عن هذا الموضوع .

ويغلب أن أبي حامد غادر تونس إلى الإسكندرية بطريق البحر سنة ٥١١/١١١٧—١١١٨ ، ويحتمل أن يكون قد نزل أثناء هذه الرحلة بجزيرة سردانية ، فهو يقول في التحفة (ص ١٠٤) : «وفي بحر الروم من الجزر كثير جداً ، منها جزيرة تسمى سردانية ، وهي عظيمة جداً ، فيها من الكفار خلق كثير شجعان ، والبحر الذي هم فيه يقال له بحر اللاذقية خلف قسطنطينية ، متصل بالبحر الرومي الذي قبل بلد قسطنطينية» . وشاهد بنفسه جبل النار (بركان إتنا) ، ووصف خروج حمم اللاما منه ، قال : «ويقال إنها جر كبار كأعمال القطن ، يتقطع فيقع بعضها في البر فتصير حجراً أبيض خفيفاً يطفو على الماءخلفته ، والذي يقع في البحر يصير حجراً أسود مثقباً ، تحلك به الأرجل في الخام . . .»

وفي نفس هذه السنة كان أبو حامد في الاسكندرية وسمع العلم على أبي عبد الله الرازي وأبي بكر الطرطوشى . وفي الاسكندرية زار المنارة ووصفها وصفاً دقيقاً ، وقد كان أبو حامد من آخر من رآها بحالتها الكاملة من رحالة العرب وجغرافيهم ، ووصفه لها دقيق يدل على مشاهدة مباشرة وإن كان شديد الشبه بوصف البكري إليها ، وأبو حامد يذهب إلى أنها من بناء ذى القرنين ، وهو يذكر تاريخها القديم ثم يصفها كما رآها ، ولا يكتفى بالوصف بل يرسمها بيده : «والنصف الأسفل الذى من عمل ذى القرنين : يدخل الإنسان من الباب الذى للمنارة ، وهو مرتفع عن الأرض مقدار عشرين ذراعاً ، يصعد عليه على قناطير مبنية بالصخر المنحوت على هذه الصورة التي أصورها . . . » (تحفة ، ص ٧١) وقد أورد الرسم بالفعل (ورقة ١٧ من الخطوط) وهو رسم لا يأس به ، وعييه الكبير هو أن الرسم مسطح لا منظور ، وهذا عيب شائع في التصاوير العربية والفارسية إلى ذلك الحين . وأبو حامد يؤكد أنه صعد المنارة ودخل غرفها مرات كثيرة أثناء وجوده في الاسكندرية سنة ٥١١ هـ . وفي الاسكندرية زار أيضاً معبداً يغلب أنه سيرابيوم الاسكندرية المشهور ووصفه وصفاً دقيقاً (تحفة ٧٢-٧٣) ، وعلى مثل هذه الصورة وصف ذلك المعبد جغرافيون ورحالة مسلمون آخرون<sup>(١)</sup> . وذكر أبو حامد نفس الكلام عن الاسكندرية في المغرب (خطوط ورقة ٤٥-٤٦) وأضاف هنا أنه : « يأتي إلى اسكندرية خليج من ماء النيل ، ومن ذلك الخليج يشربون ويملاون منه صهاريج في بيوتهم ، ويشربون أيضاً من ماء المطر ، يجمعون ماء المطر وماء العين (سبق أن وصف هذه العين وبعائبه) في صهاريج في بيوتهم . وليس في الاسكندرية ماء إلا من النيل أو من المطر ، وماء العين الصدفية ماء يسير ليس بطيف » .

(١) أورد ذكر بعضهم فيران في تعليق رقم ١ من نفس الصفحة من التحفة ، وكذلك جاستون فييت في تعليقاته على ما نشر من خطوط المقريزى ، ج ٣ من ١٣١ هامش ٦

ومن الاسكندرية انتقل أبو حامد إلى القاهرة في السنة التالية (٥١٢/١١١٨) وهو يسميه مصر (تحفة ٧٣ ، مغرب ورقة ١٤٦ - ب) ويقول في الأخير : « ودخلت مصر سنة اثنى عشر وخمسائة وهي التي تعرف بالفسطاط التي بناها عمرو بن العاص » ، ويؤكد ذلك في التحفة بقوله : « وفي مقابلة مصر الفسطاط ثلاثة [أهرامات] ، أكبر هذه الثلاثة . . . » وهو يطيل وصف جامع عمرو ويبالغ على عادته ، ولكنه لا يذكر اسم القاهرة ولا الجامع الأزهر كأنه لم يره ، وله في أشاء ذلك ملاحظة تدل على استنكاره لدعوى الفاطميين في نسبهم ، وربما يكون قد كتبها إرضاء للوزير عون الدين الذي ألف له الكتاب ، قال (ورقة ٤٦ ب) : « وذكر لي المصريون أن الأفضل بن أمير الجيوش كان من أهل السنة ، وكان هو في السنة التي دخلت مصر ، سنة اثنى عشرة وخمسائة ، بالحياة فاهراً للمدعى الذي بمصر الذي يقول إنه من ولد إسماعيل بن جعفر ، ويكتب ، لأن إسماعيل بن جعفر مات صغيراً لم يبلغ الحلم...» والعبارة ذات أهمية خاصة ، لأن المعروف أن الخلاف بين الخليفة الفاطمي أبي علي منصور المعروف بالأمر بأحكام الله ووزيره الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى كان شديداً ، وأن العلاقات بينهما لم تزل تسوء حتى انتهت بمقتل الأفضل في رمضان ٥١٥ (انظر النجوم الزاهرة ، ٥ / ١٧٠ وما بعدها) ، يكن الاختلاف في المذهب ( وإنما كان التنافس على السلطان وخوف كل منها من الآخر ، ولا يمكن لهذا القول بأن الأفضل كان في سنة ٥١٢ سنياً متھمساً لمذهب قاهراً للأمر لهذا السبب ، إلا إذا كانت هذه أحاديث سمعها أبو حامد في مجالس الناس في مصر ، وعلى هذا الاعتبار تكون لها أهمية تاريخية .

وبالإضافة إلى جامع عمرو بن العاص وصف أبو حامد الغرناطي الكثير من آثار مصر ومجائبها كقياس الروضة (٤٧) وهو يقول إنه مسجد بناء أمير المؤمنين للأمون وسط النيل ، ولكنه يصف المقياس وصفاً دققاً ، ثم

يصف الفيضان ، ويستوقف انتباهه من مظاهر الفيضان أن الفيران والحيات والثعابين تخرج « من تلك الأرض وتدخل على الناس في القرى ، والناس يقتلونهم ليلاً ونهاراً أياماً كثيرة ، لأن أرض مصر من أكثر البلاد حيات وثعابين » ويقف هنا وقفة طويلة ليتحدث عن ثعابين مصر حديثاً مغرقاً في المبالغة حتى ليصف الطريق الذي سار فيه ثعبان في الرمال بأنه كان « مثل النهر عريضاً عميقاً » وأن عرضه كان ٢٠ ذراعاً . ثم يتحدث عن قصر فرعون على الضفة الغربية للنيل . ثم يتكلم عن خصوبة أرض مصر ، ويقول إنه رأى فيها البطيخ الهندي « في كل واحدة منها مائة مِنْ ، يحمل اثنان منها على جل قوى ، وهي حلوة طيبة عذبة جداً ، لم أشاهد في الدنيا مثل ذلك » ، ولمن المצרי كان وزنه إلى سنة ١٤١٤ ميلادية ٨١٢,٥ جراماً أما المن العراقي فوزنه على التقريب ٨١٦,٥ جراماً<sup>(١)</sup> ، ومعنى ذلك أن هذه البطيخة التي رآها بمصر وزنها أزيد من ٨١ كيلوجراماً بقليل ، وهي مبالغة تذكرنا بتفاحة اليسع ابن عيسى بن حزم الغافقي ومحيطها خمسة أشبار أي نحو ١١٠ سنتيمتراً .

ثم ينتقل إلى وصف التساح (١٤٩) ثم يتحدث عن الأهرام (١٥٠) وهنا خرم في الخطوط ينتقل الكلام فيه إلى اليمن ، ولكننا نجد بقية مشاهداته في مصر في التحفة (ص ٧٤ وما يليها) : فهو يتتحدث هناك عن مسلة عين شمس ، وهو يقول إنها « منارة مربعة علوها مقدار ١٠٠ ذراع من الرخام الجزع الصاف ، قطعة واحدة محددة الرأس » ويصف بقایا المعابد التي كانت لا تزال قائمة إلى أيامه في موضع المسلة .

وظل أبو حامد في مصر حتى سنة ٥١٥/١١٢١-١١٢٢ (مقري ، نفح ٥٥١/١) ونزل دمشق ودرّس الحديث بها ، وربما يكون قد زار في أثناء ذلك بعلبك وتدرس إذ هو يصفهما في كتابه ، ووصل بغداد سنة ٥١٦/١١٢٣-

(١)

Cf. Walther Hinz, *Islamische Masse und Gewichte* (Leiden 1955) p. 16-17.

١١٢٤ ( حاجى خليفة ١٩٥٤ / والمغرب ورقة ٢ ب ) وأقام في بغداد أربع سنوات على وجه التقرير .

ولأول نزوله بغداد عرف الوزير عون الدين الذى سيكون راعيه وملاده من ذلك الحين ، وله ألف كتاب المغرب وقال في فاتحته ( ١٢ ) « ... ورأيت أن أسمى هذا المجموع بالمغرب عن بعض عجائب المغرب ، وات أجعله برسم خزانة مولانا الوزير العادل الزاهد المجاهد عون الدين ملك الجيوش صفي الإمام ، معين الدولة ، مصطفى الخلافة ، سيد الوزراء ، صدر الشرق والغرب ، أبي المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعد بن حسن بن أحمد بن الحسين بن جهم بن عمرو بن هبيرة الشيباني ظهير أمير المؤمنين ... » ولم يكن يحيى بن هبيرة الشيباني هذا وزيراً عندما دخل أبو حامد بغداد ، إنما كان من عليه الناس ، ولابد أنه كان شاباً إذ ذاك ، لأنّه سيتولى الوزارة المقتفي في ربيع الأولى ١٤٩٥ / أغسطس وسيظل في الوزارة أيام المستجد إلى جنادي الثانية ٥٦٠ / مارس ١١٦٥ وسيعظم أمره حتى يلقب بسلطان العراق . وعبارة أبي حامد هذه تدل على أنه كتب « المغرب » بعد سنة ٥٤٤ ، وقد لقى أبو حامد من يحيى ابن هبيرة هذا كل أكرام حتى أنزله في داره وفتح له أبواب مكتبه الظاهرة ، وظل إلى وفاته راعياً للرحلة الجغرافي مشجعاً له على الرحلة والتأليف مستمماً إلى أحاديثه في شوق ، مما كان له أبعد الأثر في حياة أبي حامد وعمله فيها بعد . وبفضل هذه الرعاية أتيح لأبي حامد أن يشبع نهمه العظيم للرحلة ومشاهدة البلاد الغريبة البعيدة ، ويصعب تتبع خطواته بعد ذلك ، لأن الرجل في كتبه لا يصف رحلة متصلة الحلقات بل ينتقل من عجيبة في ناحية إلى عجيبة مشابهة لها في ناحية أخرى ، فيما يتحدث عن منارة الإسكندرية ينتقل إلى الأندلس ليصف صنم قادس ، ولكنه لحسن الحظ أثبت تواريخت زياراته لبعض المواقع ورؤيته لبعض العجائب ، وهذه التواريخت تعينا على تتبع بعض خطواته .

وبصفة عامة يمكن القول إنه اتخذ بغداد قاعدة لرحلاته ومعظمها في هضبة إيران التي وصل إلى أقصاها شرقاً وفي بلاد التركستان ثم في جنوب روسيا وحوض الفليجا وشرق أوروبا ، وقد بلغ في رحلاته إلى البحر ووصفها ، وفقرات «العرب» التي يصف فيها ما شاهد في تلك النواحي الأخيرة هي التي حددت مكانته كجغرافي أصيل زار بلاداً لم يزرتها إلا القليون قبله وأثناها عنها بتفاصيل غاية في المتعة والفائدة والدقة ، نعم إن حديثه لا يخلو أبداً من حديث الحرافة والعجبائب ، ولكن هذا كان وسيلة للتشويق والت剌غيب في القراءة ، وإذا كان هو يرحل ليشاهد ويتأمل فقد كان قرأوه يقرأون للتسلية والتسرية عن النفس ، ولم يكن لأبي حامد بد من أن يرضى هذه الرغبة ، ثم أنه كان يعتقد في صحة ما يحكى .

وستتبّع فيما يلى ما يمكن من خطواته بعد وصوله بغداد اعتماداً على التوارييخ القليلة التي أوردها في كتابيه العرب والتحفة .

ففي سنة ٥٢٤ / ١١٣٠ أى بعد ثمانى سنوات من نزوله بغداد كان في أبهر فـ إـيرـان<sup>(١)</sup> ، ويدـكـرـ أبوـ حـامـدـ هناـ حـقـيقـةـ هـامـةـ وـذـلـكـ حيثـ يقولـ «ـفـالـنـاسـ يـحـمـلـونـ مـنـ بـلـادـ إـلـيـسـلـامـ سـيـوـفـ تـتـخـذـ فـيـ زـنجـانـ وـابـهـرـ وـتـبـرـيزـ وـأـصـفـهـانـ نـصـوـلاـ ،ـ وـلـاـ يـتـخـذـونـ لـهـ آـلـهـ وـلـاـ حـلـيـةـ ،ـ إـلـاـ حـدـيـدـ كـاـمـ يـخـرـجـ مـنـ النـارـ ،ـ وـيـسـقـوـنـ تـلـكـ السـيـوـفـ سـقـيـاـ عـظـيـمـاـ ،ـ حـتـىـ إـذـاـ عـلـقـ السـيـفـ بـخـيطـ وـنـقـرـ بـالـفـطـرـ أـوـ بـشـىـ مـنـ حـدـيـدـ أـوـ خـشـبـ يـسـمـعـ لـهـ طـنـيـنـ دـائـمـ ،ـ فـذـلـكـ السـيـفـ هـوـ الـذـىـ يـحـمـلـ إـلـىـ يـوـرـاـ »ـ وـهـمـ شـعـبـ مـنـ الشـعـوبـ الـتـىـ كـانـتـ خـاضـعـةـ لـبـلـغـارـ الـفـوـجـاـ<sup>(٢)</sup> .

(١) حدد هذا التاريـخـ فـيـ إـرـانـ فـيـ مـقـدـمـةـ التـحـفـةـ (ـصـ ٢٢ـ) وـعـلـقـ عـلـىـ كـلـامـ أـبـيـ حـامـدـ شـرـحـاـ طـوـيـلاـ صـحـيـحـ فـيـ خـطـأـ وـقـعـ فـيـ سـلـفـسـتـرـ دـىـ سـاسـىـ فـيـ تـرـجـمـتـهـ وـتـعـلـيـقـاتـهـ عـلـىـ رـحـلـةـ عـبـدـ الطـيـفـ الـبـغـادـىـ .

Silvestre de Sacy, *Rélation de Abd Allatif*, p. 218

(٢) عـلـقـ سـيـزارـ دـوـبـلـرـ عـلـىـ هـذـاـ التـقـيـلـ مـنـ النـاسـ بـقـوـلـهـ أـنـ الـأـرـجـعـ أـنـ الـمـرـادـ هـنـاـ هـمـ الـيـورـاـكـيـونـ السـمـوـيـونـ Yuracos Samoyeoas بالـأـلـمـانـيـةـ AltSAMOYEDEN كانواـ قـبـيلـاـ أـعـرـقـ فـيـ الـقـدـمـ ،ـ وـلـمـ تـبـقـ مـنـهـمـ إـلـاـ بـهـاـيـاـ فـيـ شـرـقـ سـيـرـيـاـ .

Cf. *Abū Ḥāmid*, 207 n. 2.

ومن هناك انتقل إلى أرَدَبِيل ، وهو يتحدث بهذه المناسبة عن حجر كبير أسود موضوع في ميدان البلد «أسود له طنين كالفولاذ ، له محك كمحك القلعي الرصاص ، وهو على صورة كلية البقرة فيه أكثر من مائتي مَن» ويقول إن هذا الحجر يستدر المطر ، وقد ذكر ذلك الحجر ووصفه بنفس الوصف جغرافيون عرب آخرون مثل الإدريسي وأبي الفدا وياقوت<sup>(١)</sup> وزاد أبو حامد فرسم هذا الحجر بيده رسماً طريفاً .

وحيث أنَّ أبو حامد عن هذه النواحي النائية في شرق هضبة إيران وشمالها الشرقي حديث طويل حافل بالفائدة ، فهو يتحدث عن الأمم التي كانت تسكن عند درَبَنْدَا أو الدرَبَنْد أو باب الأبواب وهو أقصى ما وصل إليه الفتح الإسلامي شرقاً أيام الأمويين ، ويدرك نظامها السياسي ، ويقف وقفة طويلة عند وصول مسلمة بن عبد الملك إلى هناك ، ويفصل لنا أمر «سيف مسلمة» الذي تركه للناس هناك لتقوى قلوبهم على محاربة من يجاورهم من الأمم «فعملوا له محارباً من الصخر وأقاموه في داخله على تل حيث كان نازلاً (مسلمة) ، وهو الآن باق في تلك الأرض يزوره الناس» (تحفة ٨٤) ، ويقول إنه «بالقرب من درَبَنْدَا جبل عظيم في أسفله قريتان فيها أمّة يقال لها زريه كاران (بالفارسية ومعناه صناع الجلد) «يعنى صناع الدروع ، يتخدون الآلات جميعها للحروب من الدروع والجواشن والخوذ والسيوف والرماح والقسى والنشاب والخناجر وجيش جميع أنواع آلات النحاس ، جميع نسائهم وأولادهم وبناتهم يتخدون هذه الصنائع كلها ، وليس لهم حرث ولا بساتين ، وهم أكثر الناس خيراً ومala ، يقصدهم الناس بجميع النعم من جميع الآفاق ، وليس لهم دين ولا يعطون جزية».

وقد أقام أبو حامد في هذه النواحي المتطرفة فترات طويلة وتردد عليها المرة بعد المرة حتى ليذكر أنه دخل خوارزم ثلث مرات (التحفة ، ص ٨٢) ، ومن

(١) التحفة ، ص ٨٢ وتعليق ١

الطريف أنه دخل خوارزم عن طريق بلاد البلغار وجنوب روسيا أى أنه عبر البحر الأسود من آسيا الصغرى إلى القرم ثم عبر بحر آزوف واتجه شرقاً حتى وصل إلى مصب الفولجا ثم انحدر إلى شرق إيران وخوارزم ماراً ببحر الخزر (قزوين) ، وكأنما راقته هذه النواحي فأكثر الكلام عنها وعن مجائبها في كتابيه التحفة والعرب .

ولدينا بعض التواريخ عن إقامته في هذه النواحي أو مروره ببعض بلادها ، ففي سنة ٥٢٥ / ١١٣١ كان في سجسين أو سقسين أو سجسين<sup>(١)</sup> عند مصب نهر إيل وهو الفولجا ، وهو يقص هنا (التحفة ١١٦-١١٧) حكاية طويلة طريفة تتلخص في أن شيخاً فقيراً عثر على سوار من الذهب « وزنه أربعون منقاً » ولم يعرف ماذا يصنع به ، فطاف به في كل ناحية يبحث عن صاحبه فلم يجده ، فخار في أمره ، وسأل أبو حامد ، فقال له أن يتصرف فيه فهو مال حلال ، فرفض الرجل ، وأخيراً قال أبو حامد : « افتد به الأسرى من أيدي الترك ، ففرح وقال : بارك الله عليك ، فرجأ عن كربه ، قلت : أوليس هنا من أهل العلم من يأمرك بمثل هذا ؟ فقال : ها هنا من أهل العلم من يقول : أعطنا إيه ، ونحن نعرف ما نصنع به ، وإنما يريدون أكله ! ». وأبو حامد يصف ناحية سجسين هذه وصفاً يعتبر اليوم من المراجع التي يعتمد عليها في تاريخ روسيا القديم بسبب ما يتضمن من المعلومات وما فيه من الدقة التي لا تصدر إلا عن معاينته ، قال (العرب ص ٣ من طبعة دوبلر) : « ودخلت البحر إلى بلاد الخزر ، فوصلت إلى نهر عظيم أكبر من الدجلة

(١) بلدة كانت قرب مصب الفولجا ، يصفها جغرافيyo المسلمين بأنها كانت نصفين ، واحد على كل من شطئ النهر . ويسمىها بعضهم مدينة إيل وقد ورد ذكرها في بعض المدونات الروسية باسم سكسيني . وقد زالت هذه المدينة أما بسبب مد نهر الفولجا وتغييره لمجراه أو بسبب تخريب المدول . وفي القرن الثالث عشر الميلادي نجد مكانها مدينة تسمى حاجي طرخان وهو تحريف لاسمها الأصلي طرخان خافان ، ومن تلك الصورة المحرفة جاء اسمها الحال استرخان التي ينسب إليها الفرو المعروف . ومعنى سجسين باللغة المزرية الموضع الجاف Cf: Dubler, *Abū Hāmid*, pp. 225-230

مرات أضعافاً مضاعفة ، كأنه بحر تخرج منه أنهار عظيمة (يريد نهر إيل وهو الفولجا) وعليه مدينة يقال لها سجسين ، فيها من الغز أربعون قبيلة ، لكل قبيلة أمير على حده ، ولم دور كبيرة ، وفي كل دار خركاه<sup>(١)</sup> عظيمة كاقبة الكبيرة ، تسع الواحدة مائة رجل وأكثر ، مغشاةً باللبيود . وفي المدينة من أمم التجار والغرباء وأولاد العرب من المغرب آلاف لا يحصى عددهم ، وفيها جوامع يصلّى فيها الجمعة في الخزر ، وهم أمم أيضاً ، وفي وسط البلدة أمير من أهل بلغار ، لهم جامع كبير يصلّى فيه الجمعة ، وحوله أمم من البلغاريين ، وجامع أيضاً آخر فيه أمم يقال لها أهل صوار<sup>(٢)</sup> ، وهم أيضاً كثيرون ، ويوم العيد يخرجون بمنابر كثيرة ، يصلّى كل أمير بأمم كثيرة ، ولكل أمم قضاة وقهاء وخطباء ، والجميع على مذهب أبي حنيفة ، إلا أولاد المغاربة ، فانهم على مذهب مالك ، والغرباء على مذهب الشافعى ، ودارى الآن فيهم ، وأمهات الأولاد وأولادى وبناتى» .

ومعنى هذا أن أبو حامد استقر في هذه التواحي زماناً حتى اتخذ أمهات أولاد وأنجب بنين وبنات ، وقد راقت له الاقامة هناك رغم ما لا يزال يشکو منه من شدة البرد : «الشتاء عندهم شديد البرد ، وبيوتهم في الشتاء من خشب الصنوبر ، جذوع كبار بعضها فوق بعض ، وسقوفها وسطوحها من أواح الخشب ، ويقدون النار ، ولها أبواب صغار مغشاة بجلود الأغنام بصوفها ، وداخلها حارة مثل الحمام ، والخطب عندهم كثير . ويحمد النهر حتى

(١) الخركاة خيمة كبيرة مستديرة أو خيمة ملκية على هيئة قبة

انظر J. A. Vullers, *Lexicon Persico-Latinum*, Bonn 1864, I, 678-9.

ويذهب بعضهم إلى أنه من الفارسية القديمة خورنة ويستعمل ابن بطوطه اللفظ في صورة معربة : خرققة . انظر : دوزى ماجق القواميس ، ٣٦٦/١ ودوبلر : أبو حامد ص ٣٤٩

(٢) قبيل من الناس مجھول الأصل كان يسكن الضفة الشرقية لدانة الفولجا ، ينطق اسمهم أيضاً سواش وشواز ، وقد ذكر أرسطو ليدي اللفظ عند ابن فضلات صواز مقرباً إليه من هاتين القراءتين ، وكانوا جاوريون ومعاصريين لقبيل البرشاش الذي يذكر ذكره عند جغرافيينا .

Cf: Dubler, *Abū Hāmid*, p. 261

يصير كالارض ، تمشي عليه الخيل والجمل من البهائم جيئاً ، ويتقاتلون على ذلك الجد ، ومشيت عرض ذلك النهر لما جد فكان عرضه ألفى خطوة وثمانمائة ونيف وأربعين خطوة بخطوي ، سوى الأهار التي تخرج من ذلك النهر» (مُعِّرب ، دوبلر ، ص ٥-٦).

وقد بقى أبو حامد هناك ثلاث سنوات ، فهو يذكر في (التحفة ص ١٢٣) أنه لقى هناك سنة ١١٣٤-١١٣٣/٥٢٨ رجلاً «من أهل جيلان ساحل طبرستان اسمه عبد الواحد بن علي» ويقص من أمره حكاية عجيبة . وبعد سنتين أى في سنة ١١٣٥-١١٣٦/٥٣٠ نجده في مدينة بلغار<sup>(١)</sup> (التحفة ١٣٢) ولقي هناك «من نسل العاديين رجلاً طويلاً ، كان طوله أكثر من سبعة أذرع ، كان يسمى دنق (أو دفي أو ونق) كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الحمل الصغير ، وكان من قوته يكسر ساق الفرس بيده ، ويقطع جسده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل ، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً يتحمل على مجللة وببيضة رأسه كأنها مرجل ، وكان إذا وقع القتال يقاتل بخشبة من شجر البلوط يمسكها كالعصا في يده لو ضرب بها الفيل قتلها ، وكان خيراً متواضعاً ، كان إذا التقى يسلم علىَّ ويرحب بي ويكرمني ، وكان رأسى لا يصل إلى حقوق رحمة الله . ولم يكن يبلغ حمّام يمكن أن يدخل فيها إلا حمام واحدة واسعة الأبواب ، فكان يدخل فيه . وكان من أعجب بنى آدم ، لم أشاهد قط مثله . وكان له أخت على طوله ، ورأيتها مراراً عدة في بلغار ، وقال لي في بلغار القاضي يعقوب بن النعيم أن هذه المرأة الطويلة العادية قتلت زوجها ، وكان اسمه آدم [وكان] من أقوى أهل بلغار ، ضمته إلى

(١) بلغار مدينة يذكر ابن فضلان أنها كانت حديثة البناء أيام زارها ، ثم ذكر ابن حوقل أنها قد صارت مدينة كبيرة أواخر القرن العاشر الميلادي ، وفي «حدود العالم» تقرأ أن بلغار مدينة سكانها من المسلمين فقط ويصفها أبو حامد بأنها مدينة عاصمة ، ثم خربت بعد ذلك ، ويفهم من كتابات المخراطيين بعد ذلك أنها كانت قرية من قازان . وفي القرن الثامن عشر على أثار بلغار قرب مدينة سميرسك الحالية . Cf: Dubler, *Abū Hāmid*, 230-231

صدرها فكسرت أضلاعه ، فمات [في ساعته] » (التحفة ، ١٣٢ - ١٣٣) . ولابد أن أبا حامد كان يعيش من التجارة في أثناء مقامه في هذه النواحي ، فإن اهتمامه باصناف المتاجر وأسعارها شديد ، نعم إنه لا يصرح بذلك ، ولكننا لا نتصور أن يقيم وينشئ أسرة وتكون له أمهات أولاد معتمداً على ما كان يمده به الوزير عون الدين . وهو يخلط ما يقدم من المعلومات التجارية بحديث العجائب ، لأن هذا الحديث هو العنصر الهام الذي يعجب سامييه وقراءه . ومثال ذلك قوله عن بلاد البلغار<sup>(١)</sup> (المغرب ، دوبлер ، ص ٦ - ٧) : « وهذه الولاية شديدة البرد ، وفي هذا النهر من أنواع السمك ما لم أشاهد قط في الدنيا مثله ، السمكة<sup>(٢)</sup> الواحدة حمل رجل قوي ، ومنها نوع السمكة حمل جمل قوي ، ومنها صغار أيضاً ، ليس في السمكة شوك ولا عظم في رأسها ، وليس لها أسنان ، كأنها إلية الحمل محسنة بلحوم الدجاج ، بل أطيب من لحم الحمل السمين وأعذب ، تُشوى هذه السمكة وتجعل فيها الأرز فتكون أطيب من لحم الحمل السمين ومن لحم الدجاج . تشتري هذه السمكة التي يكون فيها مائة من<sup>(٣)</sup> بنصف دانق ، ويخرج من بطنهما دهن يكفي السراج شهراً ، ويخرج من معدتها من غرَى<sup>(٤)</sup> السمك نصف من ، ويُقدَّد فيكون أحسن من كل قديد في الدنيا ، في لون الكهرباء أحمر صافياً يؤكل مع الخبز كما هو ، لا يحتاج أن يطبخ ولا يغلى . والذى ينفق بينهم الرصاص الأبيض : كل ثمانية أمنان بالبغدادى بدینار ، يقطعونها قطعاً ويشربون بها ما يشاءون من

(١) المراد هنا بلغار القوقاز وكانت بلادهم تتدحرج حتى قرب كييف ، وتعود جماعة منهم إلى حوض الدنيبر ، ويمتدون شرقاً إلى القوقاز .

(٢) حدد دوبлер هذا السمكة بأنها من النوع المعروف بالاستوريون Esturión واسمها العلمي Acipenser Stario L Cf: Dubler, *Abū Hāniḍ*, p. 212

(٣) وزن الملن البغدادى في المتوسط ٨٦٦,٥ جراماً حتى القرن السادس عشر الميلادى .

Cf: Walther Hinz, *op. Cit.* 17

(٤) غرَى السمك ، يراد به ما يعرف بالبطارخ .

الفواكه والخبز واللحام ، واللحام عندهم رخيص ، بحيث يكون الغنم — إذا جاءت القوافل من الكفار — يكون الغنم الواحدة بنصف دانق ، وأتمل بُطسوج ، وعندهم أنواع من الفواكه لا يوجد أكثر منها ، وفيها بطيخ حلو في النهاية ، ومن البطيخ جنس يمسك في الشتاء» .

ومن ملاحظاته ذات القيمة العظيمة بالنسبة للتاريخ الطبيعي قوله في المغرب (دوبлер ، ص ١٠—١١) : «ويوجد في أرضهم (أى أرض البلغار) من عظام قوم عاد : السن الواحد عرضه شبران ، وطوله أربعة أشبار ، ومن طوله إلى منكبه خمسة أرباع ، ورأسه مثل القبة العظيمة ، وهو هناك كثير» وهذه العظام التي لا تزال توجد إلى الآن ليست عظاماً آدمية وإنما هي عظام حيوانات منقرضة . ويقول أبو حامد بعد ذلك : «ويوجد تحت الأرض أننياب الفيلة ، بيض كالثلج ، ثقيل كالرصاص ، الواحد مائتا من وأكثر وأقل ، لا يُدرى من أى حيوان هو ، يقطع ويحمل إلى خوارزم وخراسان ، ويتحذى منه الأمشاط والحقاق وغير ذلك ، كما يتحذى من العاج . وهو أقوى من العاج لا ينكسر<sup>(١)</sup>» . وفي هذه الناحية مات ابن لأبي حامد ، وهو يتحدث عنه عرضاً في كلامه عن مشاهداته بمدينة بلغار (تحفة ١١٧—١١٨) : «وسمعت ببلغار ، وهي مدينة في آخر بلاد الإسلام في الشمال ، هي فوق سقسين باربعين يوماً ، يكون النهار في الصيف عشرين ساعة والليل أربع ساعات [ويكون الليل في الشتاء عشرين ساعة والنهار أربع ساعات] ويَشُدُّ البرد فيها حتى إذا مات لأحد ميّت لا يقدر أن يدفنه ستة شهور ، لأن الأرض تكون كالحديد ، ولا يمكن أن يحفر فيها قبر ، ولقد مات لى بها ولد ، وكان في آخر الشتاء ، فلم أقدر على دفنه ، فبقي في البيت ثلاثة أشهر حتى أمكن دفنه ، وبقي الميت كالحجر» .

(١) المراد هنا عظام الماموث أو ما يسمى باسم *Elephas antiquero* ولا زال الناس يستخرجونها إلى الآن في نواحي القوقاز وحول بحر قزوين ، وهي تعتبر من موارد الثروة هناك .  
Cf: Dubler, *Abū Ḥāmid*, 205-206

ويذهب فيران (مقدمة التحفة ، ص ٢١) إلى أن أبو حامد زار في ذلك الوقت ناحية بلخ (باكتريا Bactria) ولكن دوبلر (أبو حامد ، ص ١٢٩) لا يرى ذلك . وعلى أي حال فإننا نجد أبو حامد في سنة ٥٤٥ / ١١٥١-١١٥١ في باشغِرد أو باشغورد وهو الاسم الذي يطلقه على الجر (تحفة ، ١٩٥-١٩٦) وهو يصف الجر هنا بقوله : « وهذا باشغورد أمم عظيمة ، وهي ثمانية وسبعون مدينة ، كل مدينة كأصفهان وبغداد ، وفيها من النعمة والرخاء ما لا يعد ولا يحصى ، وابني الأكبر حامد فيها ، تزوج بامرأتين من بنات كبار المسلمين » وهو يطيل الكلام عن الجر في (العرب دوبلر ، ص ٢٨ وما يليها) وكلامه كله حافل بالفوائد التاريخية والجغرافية ، وقد أقام هناك ثلاثة سنين ، وترك ابنه حامدا هناك . والتفاصيل التي يقدمها تلقى ضوءاً على طبيعة عمله وحياته في تلك البلاد ، وإليك بعض فقرات منه « فلما وصلت إلى بلاد أنتوريا (يريد أونجريا وهي الجر ويكتبها الإدريسي أنكريا ويقوت المنشك) وفيهم أمة يقال لهم باشغرد<sup>(١)</sup> ، من أول ما جاء عن بلاد الأتراك ودخل بلاد الأفرينج<sup>(٢)</sup> ، وهم شجعان ، لا عدد لهم ، وبلادهم التي تعرف بأنقورية هي ثمانية وسبعون مدينة ، كل مدينة لها حصون ورساتيق وقرى وجبال وعناصير وبساتين كثيرة ،

(١) تكتب كما ذكرنا باشغرد أو باشغورد ، والأولى تجعل الاسم من فصيلة الأسماء الفارسية المنتهية بـ « جرد » بمعنى مدينة ، والثانية تجعله من الألفاظ الفنية التي منها بـ « جور » و « أجور » بمعنى قبيلة وكان اللفظ مستعملاً في صورته للدلالة على أقوى القبائل المغاربية أيام قيام هنغاريا الكبرى Hungria Magna وهو الوقت الذي زارها فيه أبو حامد . وقد ذهب بعضهم إلى أن باشغرد هو الأصل البعيد لاسم مدينة بخارست ، وهو مستبعد Cf. Dubler, *Abū Ḥāmid*, 233 n. 3 أبو حامد أن أنتوريا (ربما كانت صحة قراءة الاسم أنتاريا) أكبر مساحة من بلاد الروم ، أي الدولة البيزنطية ، وقال أنها تقطع في ٢٠ يوماً ، ولا مبالغة في ذلك ، فقد كانت مملكة الجر قد وصلت إذ ذاك إلى أقصى اتساعها وامتدت من جبال الكربارات إلى البحر الأدراني ومن تاترا Tatra في روسيا حتى اتصلت حدودها بحدود الدولة البيزنطية عند نهر موراوا ، أي أنها امتدت ما بين ٨٠٠ و ١٠٠٠ كيلومتراً طولاً ومثلها عرضاً Cf. Dubler, *op. cit.*, p. 221

(٢) أي من أول القبائل الآسيوية هجرة إلى الغرب واستقراراً في أراضي الدولة الرومانية .

وفيها من أولاد المغاربة<sup>(١)</sup> آلاف ، لا عدد لهم أيضاً ، وفيها من أولاد الحوارزميين آلاف لا عدد لهم أيضاً . وأولاد الحوارزميين يخدمون الملوك ، ويظهرون بالنصرانية ويكتسون الإسلام ، وأولاد المغاربة لا يخدمون النصارى إلا في الحروب ، وهم يعلّمون بالإسلام . ولما دخلت بين أولاد المغاربة أكرموني ، وعامتهم شيئاً من العلم ، وأطلقت ألسنة بعضهم بالعربية . وكنت أجتهد معهم في الاعادة والتكرار في فرائض الصلاة وسائل العبادات ، واختصرت لهم الحج وعلم الموارث حتى صاروا يقسمون المواريث ... » وهو في أثناء ذلك يروي لنفسه شرعاً هو مجرد نظم مثل :

العلم في القلب ليس العلم في الكتب      ولا تكن مغرماً باللهو واللهم

ثم يقول إنه عاهم صلاة الجمعة ويضيف « فعندهم الآن اليوم أكثر من عشرة ألف مكان ينخطب فيه يوم الجمعة ظاهراً وباطناً ، لأن ولايتم عظيمة » ولا ندري إن كانت هذه الآلاف العشرة من الموضع التي تنخطب فيها الجمعة نتيجة لنشاطه هو ، وعلى أي حال فالرقم ظاهر المبالغة .

ثم يقول : « أقت بنيهم ثلاثة سنين ، لم أقدر أدخل إلى أربعة من المداين ، وتلك الولاية (أى بلاد المجر) من رومية العظمى ، وفيها جبال يخرج منها الذهب والفضة ، وتلك البلاد من أكثر البلاد رخاء ونعة ، يكون الغنم عشرين بدینار ، والحملان والجداء ثلاثة بدینار ، والعسل خمس مائة رطل

(١) ذكر أولئك المغاربة كثير في النصوص العربية الخاصة ببلاد وسط أوروبا وشرقها حتى بلاد الدولة البيزنطية ، بل وجدت جماعاتهم في القوقاز وشمال شرق إيران ، ولم يدرس أحد إلى الآن هذه الظاهرة . والغالب أنهم بقايا الجماعات المغربية التي كانت تقوم بالغزو على شواطئ أوروبا الجنوية وتستقر في مراكز تواли غزواتها منها : ومن هناك كانت تنتقل كوحدات متباينة أو أفراداً متفرقين إلى داخل أوروبا وتعمل لحسابها الخاص أو تدخل في خدمة الدول القائمة ، ويلاحظ من كلام أبي حامد أن الكثيدين من أفرادها كانوا قد نسوا اللغة العربية .

بدينار ، والمارية الحسنة بعشرة دنانير . وفي وقت الغزو تشتري المارية الجديدة بثلاثة دنانير ، والغلام الرومي [٠٠٠] <sup>(١)</sup> ، وشتريت جارية مولدة ، أبوها وأمها وآخرتها بالحياة ، اشتريتها من سيدها بعشرة دنانير ، بنت خمس عشرة سنة ، أحسن من القمر ، سوداء الشعر والعين ، بيضاء كالكافور ، تعرف الطبخ والخياطة والرُّقْم ، وشتريت جارية أخرى رومية ، بنت ثمانى سنين بخمسة دنانير .. ثم يروى أبو حامد كيف استطاعت هذه الصبية أن تستخرج « خمسة أقراص من الشمع الصافى كالذهب » من « حَبَّيْنِ مملوئين بالعسل شهدًا بشَّمْعِهِ » اشتراها بنصف دينار . ثم يضيف « وجاء منها ولد ومات ، فاعتقها وسيتها مريم ، ورغبت أن تجئ معى إلى سجين ، فخشيت عليها من أمرهات الأولاد الترك الذين في سجين » أى أن حياة أبي حامد هناك كانت رخيصة سعيدة يستمتع فيها بأطاليب العيش عن سعه ، فيتزوج وينجح وقد تخطت سنه السبعين سنة ، ويتأهل في بلاد المجر مع أن له نساء آخريات في سجين على مقربة من بحر قزوين . ولم يكن هذا حاله وحده بل شاركه في ذلك ابنه حامد ، فهو يقول (العرب ، دولار ، ٣٤) « وتركت أبى الأكابر حامداً فىهم ، وهو من أول يوم تركته عمره نيف وثلاثون سنة ، وتزوج بأسرأتين من بنت المسائين الخديشين ، ورزق أولاً ، وهو شجاع فاضل ، كنت أعطيه على كل مسألة يحفظها في حال صغره نصف دانق » .

وكانت لأبى حامد هناك مكانة رفيعة ، فكان أشبه بالرئيس الروحي لل المسلمين هناك ، يتصدى للدفاع عنهم والواسطة بينهم وبين ملك باشغرد ، ويبدى ذكاء عظيما ، ومن أمثلة ذلك أنه كان قد حرم على المسلمين شرب الخمر وأباح لهم « الجواري وأربعة من الحرائر » فأنكر الملك ذلك وقال : « ليس هذا من العقل ، لأن الخمر يقوى الجسد ، وكثرة النساء تضعف الجسد والبصر ؟ ودين

(١) بياض بالأصل .

الإسلام لا يكون على وقف العقل» (أى على ما ينافقه) فقلت للترجمان : «قل الملك : شريعة المسلمين ليست مثل شريعة النصارى ؛ والنصراني يشرب الخمر على الطعام بمنزلة الماء ، ولا يسكر ، وذلك يزيد في القوة ؛ والمسلم الذى يشرب الخمر إنما يطلب منه غاية السكر ، فيذهب عقله ، ويصير كالجنون ، يزني ويقتل ويُكفر ، ولا خير عنده ، ويعطى سلاحه وفرسه ، ويضيع ماله فى طلب لذته ؛ وهم هاهنا جندك ، وإذا أمرته بالغزو لا يكون له فرس ولا سلاح ولا مال ، قد أهلكه فى الشراب ، فإذا علمت إما تقتله ، أو تضرره ، أو تطرده ، أو تعطيه خيلاً وسلاحاً يفسده أيضاً . وأما الجواري والنساء ، فإن المسلمين يوافقهم النكاح لحرارة طباعهم ؛ وأيضاً فإنهم جندك ، فإذا كثروا أولادهم كثروا جندك » . فقال : « اسمعوا من هذا الشيخ ، فإنه عاقل ، قرروجوا ما شئتم ، ولا تخالفوه » . ذلك الملك خالف القسيسين ، واستباح الجواري ، وذلك الملك يحب المسلمين » .

ومن أدلة المركز الكبير الذى وصل إليه عند ملك باشغرد أنه لما استأنذه فى الذهاب إلى سجين اشترط عليه أن يترك ابنه حامداً عنه ، وأصحابه رجال يسمى إسماعيل بن حسن «من كان يقرأ علىّ» ، وهو من أولاد أمراء المسلمين الشجعان الذين يظهرون دينهم » وأعطاه الملك خطاب توصية إلى ملك الصقالبة « وختمه بالذهب الأحمر الذى فيه صورة الملك » وكان الملك قد طلب إليه أن يرسل له عدداً من «ضعفاء فقراء المسلمين والأتراء الذين يحسنون رمى الشاب » ، وقد فعل ذلك أبو حامد ، ويقول : «فجعات لذلك الرسول جماعة من المسلمين الذين يرمون الشاب ، وأرسلت معهم تلميذاً من أصحابي من يحفظ شيئاً من الشريعة ، وقلت له : أذهب إلى الحجج وأرجع إليكم إن شاء الله على طريق قونية فلما ذهبوا إلى باشغرد ركبوا البحر شهراً ، وقصدت أرض خوارزم ، وقد كتبت دخلها قبل ذلك » (المغرب ، دوبلر ، ٣٨ - ٣٩) .

ويبدو أن مقامه في بلاد الصقالبة ، أى الروس لم يطل لأنَّه يتحدث عن صوره بها حديثاً سريعاً ؛ ولكن يبدو من كلامه أنه كان في قاعدة ملَّكتهم نفر من المسلمين فقد صحبه واحد منهم يسمى عبدُ الْكَرِيمِ بْنُ فِيروز الجوهري ، كان هو الآخر قد اتَّخذ سجينين مركَّأً لِأَعْمَالِهِ وَتَرَكَ فِيهَا أَهْلَهُ ، وقد ترك عبدُ الْكَرِيمِ هذَا زوجته في سجينين ثُمَّ عادَ إِلَى بِلَادِ الصِّقالَبَةِ ، وَعَبَرَ أَبُو حَامِدَ الْبَحْرَ الْأَسْوَدَ فِي شَهْرٍ ، وَدَخَلَ أَرْضَ خوارزم .

وصل أَبُو حَامِدَ خوارزم فِي أَوَّلِ أَيَّارٍ ١١٥٣ / ٥٤٥ ، ولم يطل مقامه هناك هذه المرة ، إذ خرج فِي ١١٥٥ / ٥٤٦ إِلَى الْحَجَّ مَارِأً بِيَمِنِي وَسِرْ وَنِيسَابُورِ والرِّيِّ وأَصْفَهَانِ وَالْبَصَرَةِ فِي الْغَالِبِ ، فَأَدَى الْفَرِيْضَةَ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى بَغْدَادِ حِيثَ استقبله صاحبه الْوَزِيرُ عُوْنَ الدِّينُ بْنُ هَبِيرَةَ وَأَنْزَلَهُ فِي دَارَهُ . ولم يستقر أَبُو حَامِدَ فِي بَغْدَادِ طَوِيلًا ، لأنَّهَ كَانَ يَرِيدُ الْلَّاحِقَ بِاسْرَتِهِ وَابْنَهِ حَامِدَ فِي باشْغَرْدَ ، فَسَأَلَ عُوْنَ الدِّينَ أَنْ يَتَوَسَّطَ لَهُ لَدِي مُسْعُودَ الْأَوَّلَ سُلْطَانَ سلاجقةِ الرُّومِ فِي آسِيَا الصُّغْرَى لِيَأْذِنَ لَهُ فِي اجْتِيَازِ بَلَادِهِ إِلَى قُونِيَّةَ ، وَيَفْهَمَ مِنْ نَصِ التَّحْفَةِ (١٣٣ - ١٣٤) أَنَّهُ سَأَلَ بَعْضَ النَّاسِ عَنْ طَرِيقِ قُونِيَّةَ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُمْ بِهِذِهِ الرَّحْلَةَ ، رِبَّما لِأَنَّ سَنَّهُ الْعَالِيَّةَ قَعَدَتْ بِهِ ، إِذَا نَهَى كَانَ إِذْ ذَاكَ فِي الْخَامِسَةِ وَالْسَّبْعِينِ مِنْ عُمْرِهِ . وَقَدْ ظَلَ فِي بَغْدَادِ حَتَّى سَنَةَ ١١٦١ / ٥٥٦

ويرجح دوبلاز أنَّ أَبَا حَامِدَ كَتَبَ «الْعَرَبُ» مَدْوَنًا فِي رَحْلَاتِهِ وَمَشَاهِدَاتِهِ فِي سَنَةِ ١١٥٥ / ٥٤٦ وَاهْدَاهُ لِلْوَزِيرِ عُوْنَ الدِّينِ . وَفِي سَنَةِ ١١٦١ / ٥٥٦ ذَهَبَ إِلَى الْمُوْصَلِ حِيثَ بَقِيَ عَامًا ، وَهُنَّا كَتَبَ «التَّحْفَةَ» اسْتِجَابَةً لِرَجَاءِ الشَّيْخِ مَعْنَى الدِّينِ أَبِي حَفْصِ عَمَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ خَضْرِ الْأَرْدَبِلِيِّ ، وَهُوَ مُؤْلِفُ مَعْرُوفٍ ذَكَرَهُ بِرَكْلَانَ وَنَسَبَ إِلَيْهِ كِتَابَ «وَسِيلَةِ الْمُتَبَدِّلِينَ» وَقَدْ فَرَغَ أَبُو حَامِدَ مِنْ كِتَابِهِ «التَّحْفَةَ» كَمَا تَدَلُّ عِبَارَةُ الْخَتَامِ فِي ٣ رَبِيعِ الثَّانِي ٥٥٧ / ٢٢ - ١١٦٢ - وَفِي ٢٠ رَمَضَانَ مِنْ نَفْسِ السَّنَةِ - نَسَخَتْ مِنْهَا نَسْخَةٌ كَثِيرَةٌ دَفْعَةً وَاحِدَةً ، وَبَعْدَ الفَرَاغِ مِنْ ذَلِكَ خَرَجَ إِلَى حَلَبَ فَأَقَامَ فِيهَا سَنَةَ ٥٦٠ /

— ١١٦٥ ، ثم انتقل إلى دمشق حيث ادركته المنية في سنة ١١٦٩ / ٥٦٥ في الثانية والتسعين من عمره .

تلك هي حياة هذا الرحالة الطلعة الذي قضى عمره يجوب الأفاق ويرمي بنفسه في المخاطر يدفعه إلى ذلك شوق عظيم إلى المجهول ورغبة لا تخبو في الوقوف على غرائب هذا الكون الواسع وبدائع صنع الله فيه . وانه لما يستثير الالحباب أن نرى ذلك الغرناطي الذي خادر بلاده على رأس المائة الخامسة وهو في السابعة والعشرين من عمره يقطع الفقار والبحار من سجلماستة في أقصى مملكة الإسلام غرباً إلى بخارى في أقصى شرقها ، ثم يغامر بنفسه في بلاد خارج دار الإسلام باحثاً عن الجماعات الإسلامية الشناثرة في مساحات شاسعة تتدنى من بحر آزوف إلى وسط سهل الجر عابراً بحر قزوين ثم يتخذ لنفسه داراً وأهلاً في سجسين إلى شماله ثم يصعد مع نهر الفولجا حتى يصل إلى مدينة بلغار عاصمة أمة البلغار ثم يوغل في بلاد الصقالبة فيزور عاصمتهم وهي كيف فيكون بذلك أول رحلة علامة يصل إلى هذا البلد ويتحدث عنه بـ<sup>١</sup> يسترس إلى شمالها فيزور جوركمان على نهر الدنيبر ثم يختنق الأرض إلى سهل الجر عابراً جبال الكربات ، وهناك يتخذ ييتاً وأهلاً وينشر العربية بين جماعات المسلمين هناك ويعالمهم شرائع الإسلام ، ثم يعود خلال هذا الطريق الطويل حتى يصل بغداد ماراً ببخارى ومردو والرى . ولا يقعده الشيَّخ بعد ذلك عن الحج إلى بيت الله الحرام ، ويفكر بعد ذلك في العودة إلى الجر ، ويتخذ الأهبة لذلك ، ولكن السن — ولما حكمها — تقدّم به فيستقر في الموصل ، ثم يمضي إلى دمشق حيث تلاقيه المنية .

هذا الشوق إلى استجلاء المجهول الذي نراه عند المسعودي والمقدسى ، والذي سيظهر في صورة أوسع في حياة ابن بطوطة إنما هو جزء من ذلك الترزوغ العلمي الذي ملاً قلوب أمّة العرب في عصور النشاط والازدهار ، وهو مظهر من مظاهر الحيوية العربية الدافقة التي ملأت العصور الوسطى نشاطاً وعلماً ، فلم

يُكن أبو حامد يرجو من وراء هذا العناء كله رزقاً ولا كسباً ، فقد كان له في بغداد مكان مرموق ، وكان حرياً بأن يقر مكانه قانعاً برعاية الوزير عون الدين بن هبيرة ، إذ كان أبو حامد على علم وفهم كفiliين بأن يمهدأ له أسباب الرزق في أي مكان يحل به في بلاد الإسلام ، ولكن الشوق إلى العلم والمعروفة دفعه إلى هذا الجهد كله ، وجعل حياته أقرب إلى الأسطورة ، وممكن له من أن يضيف إلى تراث العرب المغربي شيئاً جديداً فريداً في بابه ، رأينا نماذج منه فيما سبق ، وسنرى نماذج أخرى فيما يلي من ذلك البحث .

#### مؤلفات أبي حامد

لم يصل إلينا من كتب أبي حامد إلا كتابان هما «تحفة الألباب ونخبة الاعجاب» و «العرب عن بعض عجائب المغرب» أما ما ورد ذكره من كتب له مثل «عجائب الخلق»<sup>(١)</sup> الموجود في المكتبة البوذلية ، والذى ينسبه إليه بونس بوينيس فليس من تأليفه ، وإنما هو مجموع من أحاديث العجائب مستخرج من مؤلفات يوسف الوراق وابن البيطار والمرwoi وغيرهم . أمّا ما يرد فيه من أن الذى صنفه هو أبو حامد فغير ممكن لأن ابن البيطار توفى بعده بثلاثين سنة .

ومثل ذلك «كتاب تحفة الكبار في أسفار البحار» الموجود في مكتبة أكاديمية التاريخ في مدريد ، فهو مجموع من حكايات الغرائب صنف في زمن متاخر ونُسب إلى أبي حامد الغرناطي ، وقد نسبه إليه بونس بوينيس أيضاً .

(١) انظر : بروكلان : ٦٢٩/١ والملحق : ٨٧٨/١ ، وبونس بوينيس ، ص ٢٣٠ وتعليقات جيانجوس على ما ترجم من فتح الطيب للمقرى إلى الانجليزية (لندن ١٨٤٠) ج ١ ص ٢٥ وما يليها . انظر : سزار دوبيل ، أبو حامد ، من ١٣٢ ومقيدة جابريل فيران لحقيقة وترجمته الفرنسية لنص التحفة ، وقد سبق أن ذكرنا ذلك كله .

## كتاب المغرب في بعض عجائب المغرب

ذكرنا فيها سبق أن أبا حامد كتب هذا الكتاب بعد وصوله بغداد ٥٥٦ / ١١٦١ وأنه أهداه إلى الوزير عون الدين بن هبيرة . ويبدو من نص هذا الكتاب أنه أول ما كتب ، فليس فيه إشارة إلى كتاب سابق له .

وقد ورد ذكر هذا الكتاب بعنوانين مختلفتين في المؤلفات التي أخذت عنه بعد ذلك ، وكذلك في بعض نسخه ، ومن هذه الأسماء «نخبة الأذهان» في عجائب البلدان ، والمغرب عن بعض عجائب البلدان» وقد أخذنا هنا بعنوانه الوارد في مخطوطة أكاديمية التاريخ بمدريد . وتوجد من هذا الكتاب إلى جانب تلك المخطوطة نسخة أخرى في مكتبة جوتا برقم ١٥٣٥ ( وقد درسها هارتويج La Revue Critique, 1882, I, 210, n. 3 ) ديربورن وكتب عنها مقالاً في Bolletino italiano degli Studi وتناولها بالبحث كذلك مقالاً نُشر في : Orientali, N S 315 ( انظر ملحق الكتالوج تحت رقم ٨٥٣ ) ولكن مخطوطة أكاديمية التاريخ في مدريد ( مجموعة جياننجوس رقم ٣٢ ) هي أحسن نسخه وأكملها .

والكتاب صغير الحجم ، عدد أوراقه بحسب مخطوطتنا ١١٤ ورقة من القطع الصغير ، ولكنه حافل بالمادة الطيبة التي تلقى ضوء على معارف أبي حامد وتدل على توفره على دراسة الفلك والتقاويم المختلفة . وهو يبدأ بفاتحة قصيرة يذكر فيها الوزير عون الدين ويضيف في مدحه ويقول إنه أهدى هذا الكتاب إليه ، ثم يبدأ بذكر اسمه ولقبه ومكان ولادته . وبعد ذلك مباشرة يدخل في ذكر العجائب فيذكر كهفاً تحت الأرض إلى جوار مدينة لوشه (Loja) فيه سبعة نيام منذ الزمر القديم يشبهون أهل الكهف ، ثم ينتقل إلى جبل الثلج المطل على غرناطة ويتحدث عن كنيسة قرب هذا الجبل عندها

شجرة زيتون عجيبة تزهر وتنمر الزيتون ويتم نضجه في يوم واحد من أيام الربيع ، ثم يقول عن الأندلس : « بَنَتِ الْجِنُّ لِسْلِيَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِدِينَةً النَّحَاسِ ، دَوَرُهَا أَرْبَعُونَ فَرْسِنًا وَعَلَوْ سُورُهَا خَمْسَايْةً ذَرَاعَ فِيهَا يَقُولُ وَاللَّهِ أَعْلَمُ » ثم يذكر وصول موسى بن نصير إليها ، وكيف استحال عليه أن يقتسم أسوارها ، لأنَّه كلام صعد رجل من رجاله السور سخاً وألقى نفسه بداخلها ، ثم تبين له أخيراً أن « فِي الْمَدِينَةِ جَنًا يَجْرُونَ مِنْ اطْلَعَ عَلَى الْمَدِينَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ » ثم يقول « وَلَيْسَ إِلَى ذَكْرِ مَا جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْعَالَمِ مِنْ عَجَابِ الْأَشْيَاءِ سَبِيلٌ ، وَالَّذِي عَيَّنَاهُ مِنْهَا يَسِيرٌ مِنْ كَثِيرٍ » .

ولا يذكر أبو حامد عن وطنه الأندلس إلا أمثل هذه العجائب ، فهو يطيل الحديث عن مدينة النحاس والأواحة العشرة التي إلى جانبها والبحيرة المجاورة لها ، وما وجد فيها موسى بن نصير من « حِبَابَ مِنَ النَّحَاسِ لَهُ أَغْطِيَةٌ مِنَ الرَّصَاصِ مُخْتُومَةٌ ، فَأَفَسَ الْأَمِيرُ مُوسَى فَقْتَحَ مِنْهَا حِبَّ وَاحِدٍ ، فَخَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْحِبَّ فَارِسٌ كَأَنَّهُ مِنَ الْذَّهَبِ ، وَفَرَسُهُ وَرَحِمُهُ أَيْضًا مِنَ الْذَّهَبِ فِي رُؤْيَايَتِ الْعَيْنِ ، وَطَارَ فِي الْمَوَّا وَهُوَ يَقُولُ : يَانِي اللَّهُ لَا أَعُودُ ! وَفَتَحَ حِبَّاً آخَرَ فَرَجَ مِنْهُ فَارِسٌ عَلَى فَرَسٍ يَدِهِ رَمِحٌ كَأَنَّهُ لَهُبَ النَّارِ ، وَطَارَ فِي الْمَوَّا وَهُوَ يَقُولُ : يَانِي اللَّهُ لَا أَعُودُ .. ! » .

وهو عندما يقف بطليطلة يذكر قنطرتها ويقول إن الجن بنتها لسلیان عليه السلام ، ويدرك سرقسطة باسم « المدينة البيضاء » ، ويقول أيضاً إن الجن بنتها لسلیان « فِيهَا يَقُولُ لَا يَدْخُلُهَا حَيَّةٌ وَلَا عَقْرُبٌ وَلَا شَيْءٌ مِنَ الْحَشَرَاتِ ، وَفِي رُسْتَاقِهَا نُوعٌ مِنَ الْعَنْبَرِ وَزَنُ الْحَبَّةِ الْوَاحِدَةِ عَشَرَةً مُثَاقِلٍ » فإذا عرفنا أن متوسط وزن المثقال <sup>٤</sup> جراماً ، كان وزن حبة العنبر هذه <sup>٤٥</sup> جراماً ، ثم يقول : « وَأَخْبَارُ هَذِهِ الْبَلَادِ وَمَا فِيهَا كَثِيرٌ ، وَإِنَّمَا أَذْكُرُ مِنْهَا الشَّيْءَ الَّذِي لَا يَوْجَدُ مِثْلَهُ فِي الدُّنْيَا فِيهَا رَأَيْتُ » ثم يذكر تفاصيل شنته الذي ذكره اليسع ،

ويقول إن محيط التفاحة ثلاثة أشبار (حوالى ٦٠ سنتمراً) ويضيف هنا عبارة لها مغزاها : «والعاقل يعرف الجائز والمستحيل ، وقدرة الله ومقدوراته لا نهاية لها ، ولا سبيل إلى الاحتاطة بها» ثم يعود إلى مدينة النحاس ، فيورد شعراً يقول إنه أرسل به إلى خوارزم شاه من بلاد الترك ، ويختتم هذا الشعر بقوله :

في الأرض آيات فلا تكُنْ مُنْكِرا فعجبائب الأشياء من آياته

ويتحدث بعد ذلك عن «البحر الأسود الذي يعرف ببحر الظلمات ، يحيط بأكثرب بلاد الأندلس من ناحية مغرب الصيف والشتاء (كذا) وناحية الشمال . وفي آخر أندلس يكون مجموع (يريد مجمع) البحرين الذي ذكره الله تعالى في القرآن» وهو يريد به مضيق جبل طارق ، وكلامه عن المحيط الأطلسي طويل ملخصه أنه يقسمه إلى بحرين : الأخضر وهو ماجاور الساحل ويصب فيه بحر الروم ، والبحر الأسود وهو ما بعد عن الساحل ، ويقول إنه رأى في ذلك البحر عجائب كثيرة منها حيوان بحري يشبه أن يكون الأخطبوط ، وحيوان ملتصق بقاع البحر يبدو للرأي وكأنه عرجون عنب ، وسمكة أخرى كانت له معها حكاية طويلة لها ذنب مثل ذنب الحية ورأس مثل رأس الأرنب .

ثم يترك الأندلس ليتحدث عن عجائب جبل اللكام ، ثم عجائب جبل السّراة في بلاد العرب ، وجبل الراهون «الذى هبط عليه آدم عليه السلام من السماء بسرىديب ، جزيرة في بحر الهند» ويذكر من عجائبها وآثار آدم فيه شيئاً كثيراً ، ثم يمضى في ذكر جبال أخرى ويروى من عجائبها أحاديث أشبه بالخرافات .

ومن نهاية ورقة ١٤ تغير لهجة الكتاب تغيراً يستوقف النظر ، فأبو حامد يبدأ بباباً عن «أوقات الصلاة ومعرفة الفَيْ ووالزوَال» ويريد بالفَيْ الظلَّ وبالزوَال تمام الشمس ، وهو يلدوه على طريقة المحدثين : حدثنا محمد بن عبد الله

الحضرمي قال : حدثنا هُدَيْبَةُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَابِ الْمَرْوُزِ بْنُ مَكَّةَ وَالْحَسِينِ بْنِ حَرْثَةَ قَالَ ... أَخْ » ثُمَّ يُروى حديث نزول جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم وتلقينه إياه الصلوات في موافقتها .

ثم يُتبع ذلك بفصل عن « ذكر ساعات الليل والنهار في الزيادة والتقصان » وهو يُروى فيه عمن يسميه أبو العباس ويقول : « فَاللَّيلُ وَالنَّهَارُ فِي كُلِّ زَمَانٍ عِنْدَنَا ٢٤ سَاعَةً وَالسَّاعَةُ ١٥ دَرْجَةً ، وَهِيَ ٣٠ شَعِيرَةً ، وَكُلُّ دَرْجَةٍ ٦٠ دَقِيقَةً ، وَالدَّقِيقَةُ ٤٢ طَرْفَةً ، فَاللَّيلُ وَالنَّهَارُ فِي كُلِّ زَمَانٍ أَهْلُ الْعِنَاءِ بِهَذَا الشَّأْنِ » وهذا الحساب لا يصح إلا إذا قرأنا العبارة : « .. وَكُلُّ شَعِيرَةٍ ٦٠ دَقِيقَةً ». ثم يصف بعد ذلك اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر بحسب شهور السنة ، وهو يحسب ذلك بالشهر الرومية والفارسية دون ذكر الشهور العربية ، والشهر الرومية عنده هي ما يسمى بالسريانية ، وهو لا يشير في اثناء ذلك إلى شيء من تجاربه الشخصية ، فهو يقول مثلاً قال : « أبو العباس : فَأَطْوَلُ مَا يَكُونُ النَّهَارُ خَمْسَةُ عَشَرَ (كذا) سَاعَةً ، وَيَكُونُ اللَّيلُ حِينَئِذٍ تِسْعَ سَاعَاتٍ » مع أنه سيقرر في هذا الكتاب نفسه أن الليل في بلاد الصقالبة ٢٠ ساعة في الشتاء ، وهذا يدل على أنه أخذ هذه الفقرة كلها عن أبي العباس هذا ووضعها في كتابه ، ودليل ذلك أنه يقول في سياق الكلام : « فَإِنَّا مُفَسِّرُ ذَلِكَ عَلَى قَدْرِ أَزْمَنْتُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ يَوْمٍ تَأْلِفَنَا هَذَا الْكِتَابُ وَذَلِكَ أَوْلَ يَوْمٍ مِنَ الْحَرَمِ سَنَةً ثَمَانَ عَشَرَةً وَثَلَاثَةَ مِنْ هِجْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » .

وعن أبي العباس هذا ينقل بعد ذلك أبواباً عن « الزوال ومقادير الظل في البلدان » و « معرفة استخراج الزوال » و « معرفة ما مضى من ساعات النهار وما بقي » و « معرفة طلوع الفجر » و « معرفة دخول شهور الفرس » و « معرفة سنة الكبيس الرومي » و « معرفة سنة الكبيس العربي » و « شهور العرب » و « إذا أردت معرفة أيام الشهور » .

وفي أثناء باب عنوانه «معرفة أئمّات الستين» ينقطع الكلام فجأة في آخر ورقة ٤٠١، ويعود الحديث إلى مجمع البحرين ، ومعنى ذلك أن هذه الفصول الفلكية والتقويمية أقحمت في الكتاب اقحاماً ، والغالب أن أبو حامد الغرناطي هو الذي أدرجها في كتابه استجابة لرغبة الوزير عون الدين بن هبيدة ، ثم جاء الناسخ فبتر النص في فصل منها وعاد إلى أحاديث العجائب .

وقد بحثت عن أبي العباس الذي أخذ منه أبو حامد الغرناطي هذه الفصول فلم أصل إلى بيان شافٍ ، ولكنني وجدت في تحفة الألباب (ص ١٠٦) ذكرًا لعجائب يسمى أبو العباس الحجازي وكان من أقام بأرض الهند والصين أربعين سنة ، وكان الناس يحدثون عنه بالعجبائب ، فقلت له : يا أبو العباس ، إني سمعت عنك أشياء كثيرة من العجائب ، والآن أريد أن أسمع منك شيئاً عن عجائب خلق الله تعالى ، وكان الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر [محمد بن الوليد] الفوري (يريد الطروشى) حاضراً ، فقال أبو العباس : قد رأيت أشياء كثيرة ، ولا يمكن أن أحدث بها ، لأن أكثر الناس يحسبون أنها كذب ، فقال الشيخ الإمام أبو بكر : «يكون ذلك من العوام الجهل ، وأما العقلاة وأهل العلم فأنهم يعرفون الجائز والمستحيل ، وذكر عجائب خلق الله تعالى يستحب التحدث بها إظهاراً لقدرة الله تعالى في عجائب مخلوقاته» ، فقال أبو العباس : «دخلت جزيرة سرندليب ، وهي جزيرة عظيمة في وسطها جبل الراهون الذي نزل عليه آدم عليه السلام ...» فإذا ذكرنا أن كلام أبي حامد في العجائب وقف عند ذكر عجائب الجبال ، وجبل الراهون هذا على وجه التحديد ، تبينا أن أبو حامد كان يتبع كلام أبي العباس الحجازي فيما ذكر من العجائب ، ثم استرسل في النقل من كتاب له لم يذكر اسمه ، فجاء بهذه الفصول الفلكية والتقويمية ، ثم عاد إلى العجائب مرة أخرى . وربما كان كتاب أبي العباس هذا هو المشار إليه في كتاب الأنساب للسمعاني منسوباً إلى من يسميه أبو العباس الصيني .

وفي سياق هذه العجائب يحدثنا أبو حامد عن «صفة البركان» في جزيرة صقلية ، ويقول إنه مشرف على البحر الأخضر ، وكان أولى به أن يقول على بحر الروم ، ويطيل في وصف البركان وما يخرج منه من حم ، ويقول انه أقام في البحر مقابل هذه الجزيرة خمسة أيام إذ «لم يكن لهم ريح» وفي اليوم السادس تحركت بهم السفينة إلى الإسكندرية ، ثم يذكر جزيرة مالطة ويقول إن فيها غنماً كثيراً مثل الجراد المنتشر ، ثم يذكر أنواع شتى من حيوانات البحر الأبيض مثل السرطانات الكبيرة وسمك يعرف بخنزير البحر وأخر يسمى الكوسج وثالث يسمى بالحبر بسبب ما يخرج من مساراته من مادة سوداء ، وأسماء أخرى ذات صفات وخصائص عجيبة منها واحدة تعرف بالمنارة ، «في طول المنارة الطويلة ، تخرج من البحر وتلقى نفسها على السفينة فتكسرها وتهلك من فيها ...»

ومعظم هذه الأسماك التي يذكرها ليست مخلوقات خرافية ، بل من بينها أسماك معروفة يصفها أبو حامد بغاية الدقة . ومن سماتة المنارة ينتقل أبو حامد إلى ذكر الإسكندرية وبعض عجائبها ، وحديثه هنا حديث رجل عرف الإسكندرية وشاهد عجائبها مثل المغارات والأنفاق المعروفة بالكلاتا كومب ، وقد دخل أبو حامد في واحد منها ووصفه وصفاً طويلاً ، ثم يتحدث عن منارة الإسكندرية ، ويرسم صورة لها كما شاهدها ، وأبو حامد من آخر الرحالة الذين شهدوا المنارة في تمام هيئتها وقبل تدميرها ، وقد وصفها معاصره الإدريسي بمثل وصفه ، وكلامه هنا يعتبر وثيقة تاريخية لها أهميتها ، لأن المنارة تهدمت بعد ذلك وزالت معالمها .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى ذكر عجائب مصر ، وقد أشرنا إليها ، ثم يستطرد إلى ذكر النجم سهيل ويورد أشعاراً ورد ذكره فيها . ومن هنا يدخل في فصول فلكية عن «نجوم القبلة السيارة من المشرق إلى المغرب منازل للشمس والقمر» وهو يطيل وصف كل صورة أو جريدة نجمية ويرسم هيئتها على وجه

التقريب . ويتحدث بعد ذلك عن « الجرة وكيف الاستدلال بها على القبلة » وعن « الرياح الدالة على القبلة » و « ذكر جهة البلاد إلى بيت الله الحرام » وكلامه في هذه الفصول الأخيرة دقيق يمكن وصفه بأنه علمي ، خاصة وهو يستند فيه إلى علماء كثيرين .

وبعد ذلك يتحدث عن « صفات الأرضين وطولها وعرضها ، وكلامه هنا استوائي صرف ، لأنه يتحدث عن الأرضين السابتين تحت هذه الأرض التي ذكرناها » ويدرك عرضها وما يسكنها من أمم وأسماء هذه الأمم وكذلك السمات السبع .

ومن هنا ينتقل أبو حامد إلى « ذكر طول الأرض وعرضها » فيعود مرة أخرى إلى الكلام الدقيق بحسب مفهوم تلك العصور عن الأطوال والعرض ، ويليه ذلك « ذكر طول بيت الله والمسجد الحرام » ناقلاً عن جغرافيين وكتاب عديدين ، ثم يتحدث عن البحار ، طولها وعرضها « ناقلاً عن أبي العباس الذي ذكرناه » ، وكلامه هنا يشبه كلام معظم جغرافيي العرب من مشارقة ومغاربة .

ويختتم أبو حامد هذا القسم الجغرافي من كتابه بالكلام عن الأقاليم السبعة ناقلاً عن أبي العباس أيضاً ، وأبو العباس هذا يأخذ بقول الفرس القدماء في تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم أو كشورات ، وهي أقاليم إيرانشهر ، والصين والروم وإفريقية والعرب والهند والترك ، أي أنها ليست الأقاليم الجغرافية النظرية التي أخذها العرب عن اليونان وأتبهها الإدريسي على خريطته ، بل هي أقاليم بمعنى النواحي ، وهو يتتابع الفرس في قولهم إن إقليم إيرانشهر يتوسط الأقاليم الستة الأخرى « وهي محددة به وهذه صورتها .. » ومن أسف أن الناسخ أسقط الصورة ، ثم يقول بعد ذلك : « قال — أي أبو العباس الحجازي — : وقسموا هذه الأقاليم السبعة أربعة أقسام ، فجعلوا منها إقليم إيرانشهر ، وسموه قلب الأرض ، والقسم الثاني إقليم العرب والهند ، والقسم الثالث إقليم الصين والترك ، والقسم الرابع إقليم الروم وإفريقية » ثم يطيل الكلام عن

ايرانشهر ويقول إنه خير أقاليم الأرض جيّعاً ، ويروى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كان العلم معلقاً بالثريا لثالثه رجال فارس ». ثم يتحدث عن الأقاليم السبعة واحداً واحداً .

وبعد ذلك يتحدث عن الجبال ، ولكن حديثه هنا ليس عمائياً بل واقع صرف فيه لمحات على طريقة المسالكين في ذكر المسافات والمراحل .

وصف أبي حامد لخوارزم وتركستان والقوقاز وجنوب روسيا وبلاط المجر

وبعد هذا الفصل يأخذ الكلام صورة وطريقة آخرين ، فإن أبو حامد ينحصر بقية الكتاب ( ١١٤ - ٩٧ ) لوصف البلاد التي عاش فيها سنوات طويلة من عمره ، وهي البلاد التي سماها سizar دوبلر ناشر ذلك القسم من الكتاب بالبلاد الأورو-آسيوية وتمتد المنطقة التي زارها أبو حامد ووصفها في هذا الجزء من كتابه من خوارزم إلى سهل المجر ، وقد ذكرها أطرافاً من كلام أبي حامد عنها ، وهو كلام دقيق يعتبر من الأسانيد العلمية التي يمكن الاعتماد عليها في التاريخ لهذه التواحي ووصف خصائصها الجغرافية سواء أكانت طبيعية أم بشرية .

وأبو حامد في هذا الجزء من كتابه أصيل في كلامه ، فهو يتحدث عما رأى وعاين ، ويصف الناس والأشياء كما رأهم ورآها ، وهو يقول ما يقول في أسلوب بسيط يقرب أن يكون عامياً وساذجاً ينم عن صدق رغم ما فيه من مبالغات هنا وهناك ، كهذا الرجل الضخم الذي لم يصل أبو حامد إلى حقوه ، والحقوق أعلى الفخذ ، ولم يكن أبو حامد بالقصير أو الدجاج ، وإنما هو وسط في طوله ، ومعنى هذا أن ذلك الرجل الضخم لا بد أن طوله كان ثلاثة أمتار ونصف ! وما أراد أبو حامد قوله هو أن الرجل كان مسرفاً في طوله ، ومثل ذلك قوله في سياق مشاهداته في بلدة غوركومان ، من كبار بلاد الصقالبة

(الروس) إذ ذاك ، وتقع إلى الشمال قليلاً من كييف : « ورأيت يوماً في أصل شجرة حيواناً يشبه العظاءة بيدين ورجلين ، كأن الله تعالى أخرجها من الجنة ، كأنها عملت من الياقوت الأحمر الصافى ، الذى ينفذ به البصر في صفائه ، ومن الذهب المجلّى الصافى الذى ما شاهدت فى الدنيا مثله ، كأنها منظومة بصنعة وتأليف ، وتحيرت في حسنها ، فاحتاط أصحابي بها على الخيول ، وهى تنظر بعينين كأن السحر في عينيها ، وتدير رأسها إلينا يميناً وشمالاً ولا تتحرك ، ولا تبالي بنا البتة » ، والمراد هنا نوع من السالماندر Salamander ، ولم يصب دوبلر عندما قال (ص ٣٥٦) بأن المقصود هنا حيوان خيالى ، لأن أبي حامد لم يزد على أن وصف عظاءة شمالية شديدة الحمرة وصفاً شاعرياً . ومثال ذلك أيضاً قوله في وصف الثيتل : « وفي باشغرد (ال مجر) بقر وحشية كبار أمثال الفيلة ، جلد الواحد منها يحمل بغلين قويين ، ورأسه يحمل مجده ، يصطادونها وتسمى الثيتل ، وهي من أغرب الحيوان طيب اللحم ، سمين ؛ وقوتها كبار طوال مثل أنبياء الفيلة » (معرب ، دوبلر ، ص ٣٤) ، والمراد هنا الثيتل المجرى المعروف عالمياً باسم Bos taurus وقد انقرض الآن ، وقد رأه في القرن السادس عشر الرحالة هيربشتاين Herbenstien وصوره تصويراً دقيقاً لا يخرج عن كلام أبي حامد<sup>(١)</sup> .

وليس أدل على دقة أبي حامد في هذا الجزء من كتابه من ذلك الوصف المتقن لما يسمى بالاسكى Ski وهي أواح الإزلاق على الثلج . (معرب ، دوبلر ، ص ١٦ - ١٧) ، قال : « والطريق إليهم (أى إلى بلاد اليورا<sup>(٢)</sup>) في

Cf. Dubler, *Abū Hāmid*. 207. (١)

(٢) ذكر هؤلاء اليورا البيرونى ونفر من جغرافي المسلمين ، وهم مذكورون في حلية كييف الروسية باسم يوجرا Jugra وتحدث عنهم أ. فيغير في تاريخ سيريا .

J. E. Fischer, *Siberische Geschichte*, 2 vols., St. Petersburg, 1768, I, 177 ff.  
وذهب دوبلر (ص ٢٦٩) إلى أنهم من شعوب سيريا القديمة — وربما كانوا الأجر Ogor أو الاستياكوس أو الوجول Woguls أو اليوراك Yorak من فروع السامويين — وانهم هربوا قبل زمان أبي حامد بقرون كثيرة أمام البدو الطورانيين وأقاموا في التواحي الباردة الممتدة شمال شرق القوقاز .

أرض لا يفارقها الثلوج أبداً ، ويتحذذ الناس لأرجلهم أواهـاً ينحثونها ، طول كل لوح باعـً وعرضه شبرـ ، مقدم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعـان من الأرض ، وفي وسط اللوح موضع يضع فيه الماشي رجلـ ، وفيه ثقب قد شدوا فيه سیورا من جلود قوية يشدونها على أرجلهم ؛ ويقرن بين اللوحين التي تكون في رجليه بشنداـل طويـل مثل عـنـان الفرس ، يمسـكه في يـدـه الشـمالـ ، وفي يـدـه الـيمـنى عـصـى بـطـولـ الرـجـلـ ، وفي أـسـفـلـ العـصـىـ مثلـ كـرـةـ منـ الشـيـابـ ، مـحـشـوـ بـصـوـفـ كـثـيرـ ، مـثـلـ رـأـسـ الإـنـسـانـ ، خـفـيقـةـ ؛ يـعـتـمـدـ عـلـىـ تـلـكـ العـصـىـ عـلـىـ الثـلـجـ وـيـدـفـعـ العـصـىـ خـلـفـ ظـهـورـهـ ، كـمـ يـصـنـعـ المـلـاحـ فـيـ السـفـيـنةـ ، فـيـذـهـبـ عـلـىـ ذـلـكـ الثـلـجـ بـسـرـعـةـ ، وـلـوـلاـ تـلـكـ الـحـيـلـةـ لـمـ يـكـنـ أـحـدـ أـنـ يـمـشـيـ هـنـاكـ الـبـتـةـ ، لـأـنـ الثـلـجـ عـلـىـ الـأـرـضـ مـثـلـ الرـمـلـ لـاـ يـتـلـبـدـ الـبـتـةـ ، وـأـىـ حـيـوانـ مـشـىـ عـلـىـ يـغـوصـ فـيـ ذـلـكـ الثـلـجـ فـيـمـوتـ فـيـهـ ، إـلـاـ الـكـلـابـ وـالـحـيـوانـ الـخـفـيفـ كـالـتـلـبـ وـالـأـرـنـبـ ، فـإـنـهـ يـمـشـيـ عـلـىـ بـخـفـةـ وـسـرـعـةـ . وـالـتـلـبـ وـالـأـرـنـبـ فـيـ تـلـكـ الـبـلـادـ تـبـيـضـ جـلـودـهـاـ فـيـ زـمـانـ الشـتـاءـ» . وـلـيـسـ فـيـ الدـقـةـ عـلـىـ هـذـاـ مـنـ مـزـيدـ ، بـلـ أـنـ أـبـاـ حـامـدـ رـسـمـ هـذـهـ الـأـلـوـاحـ بـيـدـهـ زـيـادـةـ فـيـ الـايـضـاحـ .

وـلـاـ يـطـيلـ أـبـوـ حـامـدـ الـكـلـامـ فـيـ جـهـةـ مـنـ الـجـهـاتـ مـثـلـ إـطـالـتـهـ فـيـ الـكـلـامـ عـنـ خـوارـزمـ ؛ وـقـدـ وـصـفـ هـذـاـ الـاقـلـيمـ الـكـثـيرـونـ مـنـ جـفـرـافـيـنـاـ ، وـلـكـنـ كـلـامـ أـبـيـ حـامـدـ أـحـفـلـ مـاـ لـدـيـنـاـ بـالـفـائـدـةـ لـأـنـهـ لـاـ يـنـفـقـ الـوقـتـ فـيـ تـعـدـادـ الـمـدـنـ وـالـمـسـافـاتـ بـيـنـهـاـ ، بـلـ يـهـمـ بـالـنـاسـ وـهـيـئـهـمـ وـأـعـمـالـهـمـ وـالـأـرـضـ وـحـاـصـلـهـاـ وـمـتـاجـرـهـاـ ، وـيـقـصـ مـاـ اـتـفـقـ لـهـ مـاـ عـجـائـبـ وـغـرـيـبـ الـحـكـاـيـاتـ هـنـاكـ ، وـهـىـ لـيـسـ بـعـجـائـبـ خـرـافـيـةـ ، بـلـ أـشـيـاءـ تـشـبـهـ مـاـ نـقـرـؤـهـ فـيـ كـتـبـ «ـصـدـقـ أـوـ لـاـ تـصـدـقـ»ـ الـمـعاـصـرـةـ ، فـهـىـ طـرـائـفـ لـاـ عـجـائـبـ . وـبـوـاصـفـ خـوارـزمـ يـخـتمـ كـتـابـهـ هـذـاـ وـعـبـارـتـهـ هـنـاـ جـدـيـرـةـ بـالـذـكـرـ قـالـ : «ـوـإـنـاـ ذـكـرـتـ بـعـضـ مـاـ شـاهـدـتـهـ عـلـىـ طـرـيـقـ الـاختـصارـ ، وـلـوـ شـرـحـتـ لـأـطـالـ الـكـتـابـ ، وـالـاختـصارـ فـيـ كـفـائـةـ . وـلـوـلـاـ هـؤـلـاءـ الـأـمـةـ الـفـضـلـاءـ

الذين سأولني ورغبوا في جمع هذه الجملة لما تصدّيت لهذا المجموع ، إذ لست أرى نفسي أهلاً للتأليف .

وخرجت من باشغลด سنة ثلث وخمسين ؛ وخرجت من سجين إلى خوارزم سنة أربع وخمسين ؛ وخرجت من خوارزم طالباً للحج في ربيع الأول سنة خمس وخمسين في شوال<sup>(١)</sup> . . . . وحججت وعدت إلى بغداد . وقد أعانتي المولى الوزير عون الدين ، جلال الإسلام ، صفي الإمام ، شرف الأنام ، معز الدولة ، مجير الأمة ، تاج الملوك والسلطانين ، سيد الوزراء ، صدر الشرق والغرب ، مصطفى الخلافة ، ظهير أمير المؤمنين - أadam الله بنعمته لبتَ أعدى دولته - وأوصل إلى من خلّعه الشريفة وماله وإفضاله ما أعجز عن عده وحصره ؛ وأخذ لي كتاباً من حضرة الخلافة - أadam الله على العالمين في مشارق الأرض وغاربها ظلّها ، وكبت بالندل والصغار أعداءها - وكتب إلى صاحب قونية ابن الملك مسعود - رحمه الله - ليكون طريقه عليه إلى باشغلد ، لعل الله تعالى يسهل بالوصول والاجتماع بالأهل والأولاد ؛ وما ذلك على الله بعزيز ، وهو عليه يسير ، وهو على كل شيء قادر » .

وإذن فأبو حامد في هذا الكتاب ليس جغرافياً صرفاً أو عجائبياً خالصاً ولا رحالة فحسب ، إنما هو ذلك كله ، وقد أخطأه التوفيق في نظم الكتاب ، فانتقل انتقالاً سريعاً من مبحث لمبحث ومن أسلوب لأسلوب ، وحشد في الكتاب فصولاً كثيرة نقلها عن أبي العباس الحجازي دون أن يحسن الربط بينها وبين سياق الكتاب ، ولا يُعَلَّل إفحام هذه الفصول إلا بأحد أمرين : أما أن الوزير عون الدين طلب إليه ذلك أو أن أبو حامد أراد ألا يكون كتابه كله حكايات ونواذر وعجبات ، فضمنه بعض المباحث العلمية التي يحتاج

(١) هنا شيء سقط من الناسخ واحتل السياق بسقوطه ، وتستقيم إذا أضفنا شيئاً مثل : [فوصلت الحجاز] في شوال .

إليها الناس ، وهو في هذا يجمع بين المقيد واللطيف كـأيقال ، ولو أنه قصر كتابه على مشاهداته في البلاد الأورو-آسيوية وأطال في ذلك كيف شاء لكن هذا الكتاب كله وثيقة جغرافية إجتماعية تاريخية ذات قيمة لا تقدر ، ولكن الأدب الجغرافي العربي على أيامه كان قد أخذ يتحول إلى أدب عجائب وغرائب ، ولم يعد الناس يطلبون كتاباً جغرافية صرفة كتلك التي ألفها أعلام المسالكين والبلانيين ، وإنما أصبح الناس على أيام أبي حامد يطلبون كتب تسليمة وترويج عن النفس وإزباء للفراغ ، ولم يكن لأبي حامد مفر من أن يصب كتبه على هذا القالب .

وأبو حامد من أوائل من اتجهوا بالعلم الجغرافي العربي هذه الوجهة العجائبية ، وقد أسرف الناس بعد ذلك في هذا الباب حتى غدت كتبهم وكأنها صفحات من ألف ليلة ، ولم يشذ عن ذلك إلا أمثال أبي الفدا وياقوت ، فاما الأول فقد كان أميراً يؤلف لنفسه وهو في سعة من العيش ، فلم يكن بحاجة إلى أن يطلب تسليمة قارئ أو يلتمس إطاراً وزيراً أو أميراً ، وأما ياقوت فن طلائع الموسوعين للهنجين ، وهو عالم متبحر جم فاويعي ، فاقتدر على النجاة من التيار العام واستطاع الابداع . أما أبو حامد فكان رجل رحلة وحركة وشوق إلى المشاهدة والتقليل لا يكاد يتسع وقته لجمع علم غزير أو الانكباب على تأليف كبير ، ومن ثم فقد كتب ما تيسر له استجابة لطلب راعيه وتمشياً مع ما كان الناس يستحبونه من أحاديث المستحبات ، وهو نفسه يعتذر عن سوء تأليفه ويقول «لست أرى نفسي أهلاً للتأليف» ولو وفق إلى ما وفق إليه ابن بطوطه من رجل مثل ابن جُزَى يأخذ عنه حدثه ويبدونه ويصوغه في قالب جميل لكنه مؤلفاته أحسن وأشمل ، أما وهو مشغوف بالرحلة مشغول بأهله الذين فرقهم في نواحي الأرض ، فلم يكن يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل ، وهو مشكور عليه ، وله مكانه الذي لا ينكر بين جغرافيينا .

### كتاب تحفة الألباب ونخبة الأعجاب

كتب أبو حامد هذا الكتاب بعد «المُرْبٌ» بستين ، فقد فرغ منه في ٣ ربيع الثاني ١١٦٢ / ٥٥٧ مارس بعد خروجه من بغداد واستقراره في الموصل في كنف صديقه الشيخ معين الدين أبي حفص عمر بن محمد ابن الخضر الأزدي مُؤلِّف كتاب «وسيلة المتعبدين»<sup>(١)</sup> الذي يشَّنِ عليه أبو حامد ثناءً طويلاً في فاتحة الكتاب ويقول : «ولم يزل أيده الله وأبقاءه ، ومن المكاره وقاه ، يحثني كلما كنت ألقاه أن أجمع ما رأيته في الأسفار من عجائب البلدان والبحار ، وما صع عندي من نقلة الأخبار والثقة الأخبار ، فأجبته إلى ذلك ، وإن لم أكن هنالك<sup>(٢)</sup> ، لعزوب الفطن ، وضيق العطن ، وبعد الأهل والوطن ، وتشتت الأحوال ، وركوب الأحوال ، وطول الاغتراب والبعد عن الأحباب ، ومساورة العذاب . أسألُ الكريم الجيب ، أن يمن على بالفرج القريب ، «ويرحم الله عبداً قال آميناً» ، ورأيت أن أسمى هذا المجموع «تحفة الألباب» وأرتبه على مقدمة وأربعة أبواب . فالمقدمة للبيان والتمهيد ، والأبواب لتنمية المقصود :

الباب الأول : في صفة الدنيا وسكنها ، من إنسها وجانها .

الباب الثاني : في صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان .

الباب الثالث : في صفة البحار وعجائب حيواناتها ، وما يخرج منها من العنبر والقار ، وما في جزائرها من أنواع النفط والنار .

الباب الرابع : في صفة الحفائر والقبور ، وما تضمنت من القفار إلى يوم التشور .

(١) انظر بروكلان ، ملحق : ١/٧٨٣ — ٧٨٤

(٢) أي : وإن لم أكن أهلاً لذلك .

ليكون ذلك سبباً للاعتبار وداعياً إلى القرار من دار البوار إلى دار القرار ، جعلنا الله وإياكم من الفائزين ، وأدخلنا برحمته في عباده من الصالحين ». وإذن فقد كتب أبو حامد كتابه هذا وهو يتطلع إلى العودة إلى المجر ليلقى أهله وأحبابه ، وقد تشتت ذهنه واستبد به حنين الشيخ إلى أهله وولده ليقضى معهم آخر أيامه . وقد كانت سن أبي حامد إذ ذلك ٨٤ سنة هجرية ، وهي سن تؤيد ما ذكره في خطبة الكتاب ، وكلامه يُشعر بأنه كان يحس أن أمانته لن تتحقق ، ولهذا فهو يرجو القارئ أن يقول «آمين » لكي تتيسر الأسباب لأبي حامد للعودة إلى باشغرد التي كانت قد أصبحت له وطناً ، وخلف فيها ابنه حامداً .

وإذا كان أبو حامد صادقاً في تصوير حاله النفسية واعتزازه عن قلة تماسك الكتاب « بعزو布 الفطن وضيق العطن » إلا أنه فاته أن تجربته الأولى في التأليف نفعته عند ما أمسك القلم ليكتب كتابه الثاني ، فقد كتب كتابه الأول (العرب) دون خطة أو ترتيب ، وقال انه « في بعض عجائب المغرب » ثم لم يلبث أن خرج الأمر عن يديه فمضى يجمع الغرائب من كل مكان في الدنيا ، وأعوزته مادة طيبة فأستعار فصولاً من كتاب سابق ، ثم ارتد إلى عجائب المغرب ، ولم يدخل في موضوع أصيل ذي قيمة مبتكرة إلا في الأوراق العشرين الأخيرة من الكتاب كما ذكرنا .

أما في كتابه الثاني فقد وضع للكتاب خطة قبل أن يكتبها ، وجعله — بناء على هذه الخطة — تمهيداً وأربعة أبواب ، والتزم هذا التقسيم في كتابه التزام مؤلف يكتب في موضوع محدود واضح أمامه ، ولا عجب والحالة هذه أن يلقى هذا الكتاب قبولاً أكثر مما لقيه كتابه الأول ، وأن يكون سبب ذيوع اسم أبي حامد وتواثر ذكره في المؤلفات التي كتبت بعده .

ومنخطوطات هذا الكتاب كثيرة توجد في مكتبات باريس ولينينغراد والتحف البريطانية وجوتا والجزائر ، وفي مكتبة باريس الأهلية وحدها خمس

مخطوطات منه ، ولقد لقى من عناية المحدثين مثل ما لقى من تقدير القدماء ، فعكف على دراسته نفر كبير منهم ، ونشروا منه قطعاً ، وترجموا قطعاً أخرى إلى لغات أوروبية شتى ، ونشره كاملاً جابريل فيران في سنة ١٩٢٥ وعلق عليه شرحاً ضافياً ذات قيمة علمية كبيرة<sup>(١)</sup> .

وقد اهتم أولئك العلماء بأبي حامد لأنّه من أوائل من اتجه بالعلم الجغرافي العربي نحو ما يسمى بعلم الكون أو الكوزموЛОجية Cosmology في الإنجليزية وعلم وصف الكون أو الكوزموغرافية Cosmography في Kosmographie في

Gabriel Ferrand, *Le Tuhfat al-Albāb de Abū Ḥāmid al-Andalusi al-Garnātī*, (١) Journal Asiatique, Juillet - Septembre 1925.

وقد أورد فيران في مقدمة تحقيقه للتحفة بياناً وافياً بكل الأبحاث التي تمت عن أبي حامد إلى سنة ١٩٢٥ . وأهم من درس أبو حامد وكتاباته إلى ذلك التاريخ ثلاثة : دورن الروسي وجبور ياكوب وفرين الألمانين .

وقد نشر دورن Dorn معظم ما كتب عن أبي حامد في :

Mélanges Asiatiques tirés du Bulletin de l'Académie Impériale des Sciences de Saint Pétersbourg .  
المجلدات ٦ - ٨ فيما بين سنى ١٨٦٩ و ١٨٧٣ و مقالاته في هذا المجموع تدور كلها حول ما كتبه علماء المسلمين عن البلاد الشمالية وروسيا بصفة خاصة . ويهمنا منها ما نشره في المجلد السادس (ص ٦٨٥ - ٧١٨) والمجلد السابع كله فهو يتضمن مختارات من تحفة الألباب وترجمتها إلى الألمانية بعنوان :

Über zwei für das Asiatische Museum Erworbene arabische Werke.

ونشر في نفس المجلد نص كتاب يسمى « مختار من مختصر تحفة الألباب بمحالسة الأحباب » وهو مختصر للتحفة عمله محمد بن عاصم بن عبيدة الله بن محمد بن ادريس الأندلسي الرندي . وفي مقال آخر في نفس المجموعة عنوانه .

Auszüge aus vierzehn morgenländischen Schriftstellern, betreffend das Kaspische Meer und angränzende Länder Mélanges VI, 685-716.

وبل ذلك في نفس المجلد :

Die jetzigen Kubätschi, Eine Erläuterung aus Abū Ḥamid el-Andalusīs Nachrichten über diesen Volksstamm (p. 717-740).

أما جبور ياكوب Georg Jacob فدراساته التي يدور البحث في أثناها عن أبي حامد فهي :

—Der Nordisch - Baltische Handel der Araber im Mittelalter, Leipzig, 1887.

—Studien in arabischen Geographen, Heft I, Berlin 1890; Hälften II, III, IV, Berlin 1892

A. Seippel, Rerum Normannicarum Fontes Arabici, Oslo, 1896-1928.

وانظر أيضاً : وبحث سizar دوبر المستفيض عن أبي حامد الغنطي ، وقد سبق أن ذكرنا عنوانه كاماً .

الألمانية مع شيء من علم حركات الوحدات الكونية والبحث عن أسبابها وتعليق مظاهرها ، وهو ما يسمى بالكزموجونية Cosmogony . وقد اتجه المسلمون من زمن مبكر بهذا العلم نحو عجائب الكون ، ووصلت إليهم كتابات اليونان في هذا الصدد من طاليس المطوي Thales of Miletus ( حوالي القرن السادس قبل الميلاد ) إلى بطليموس الأسكندرى أو القلوذى كما يسمى في الكثير من كتبنا ، وهو تعریف لاسميه الكامل Claudius Ptolemaeus ، ووصلت إليهم كذلك آراء الفرس والهنود في هذا الباب ، وتناولها مفكراً واسع العلم والذكاء كأبي الحسن المسعودي من وجة النظر الكوزموجرافية و الكوزموجونية معاً ، واجتهد في وصف المظاهر الكونية وتعليقها بما عرف عنه من النفاد واصالة التفكير ، وتناول الموضوع من زاويته العلمية الفلكية الرياضية أبو الريحان البيروني .

وفي العصر الذهبي لعلم الجغرافية عند المسلمين خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين انصرف الناس عن الكوزموجرافية إلى وصف الأرض نفسها وتحديد علاقتها بالكون في كلام مقتضب لا يتطرق إلى حديث العجائب ، ولكن العلم الجغرافي كله اتجه خلال القرن السادس وما يليه وجة عجائبية صرفة ، أى أنهم الناس اتجه إلى البحث عن عجائب الكون والأرض والخلوقات ووصفها والبالغة في ذلك الوصف على اعتبار أن ذلك إظهار لقدرة الخالق سبحانه وتعالى على خلق المعجزات والعجبات وما لا يحيط به عقل البشر . وقد كتب المسلمون في ذلك كثيراً جداً ، ومعظم ما كتبواه خرافي بعيد عن التصديق مما كان يلائم عقلية هذه العصور ، ولم يشذ عن هذا الانحدار بعض الشيء إلا قليلاً مثل الفرزويني في كتابه « عجائب الخلق » والدميري في « حياة الحيوان الكبرى » ومن في طبقتها .

وعلى الرغم من أن أبي حامد الغرناطي كان رحالة جواب آفاق ، شهد من الأرض المعمرة إذ ذاك قدرأ يبلغ النصف أو يشف قليلاً ، وكان قديراً

بهذا على أن يكتب وصف رحلته على النحو المفيد المتع المدى وصف به ما زار من البلاد الأورو-آسيوية ، وعلى الرغم من اطلاعه الواسع في الجغرافية والفالك ، وكان قد يكتب كتاباً جيداً في الجغرافية ، إلا أن ظروفه الخاصة واتجاهه الذهني نحو أحاديث العجائب غلت على ما ألف ، ثم إنه بطبعه لم يكن بصاحب بحث أو صير على الكتابة والتدوين ، إنما كان محدثاً بارعاً يُطْرُف ساميته بعجائب ما رأى وشاهد ، وإذا كان قد كتب فقد فعل ذلك مستجيئاً إلى طلب أصحابه ومن اتصل بهم ، فدون — على رغمه — ما أحبوا أن يدونه ، ومن ثم فقد قصر كلامه تقريراً على الناحية العجائبية من وصف الكون ، فكان بهذا من أوائل من اتجهوا بالعلم الجغرافي نحو الكوزموجرافية العجائبية ، فيما كان معاصره الإدريسي يتوجه بالجغرافية وجهة علمية سليمة ويضع أساس الجغرافية كما ينبغي أن تدرس ، اتجه هو بالعلم تلك الوجهة الأسطورية التي لم تبق فيه من الجغرافية إلا اسمها ، والحسنة الوحيدة لهذا الاتجاه أنه قدم للقصاص الشعبيين مادة واسعة من أحاديث الخراقة صبّت بعد ذلك في تيار الأدب الشعبي وظهرت في حكايات ألف ليلة وما ماثلها . واتجاه أبي حامد هذا الاتجاه أمر مؤسف حقاً ، لأنه مما يؤلم أن تجد رجالاً قادراً على عمل شيء ثم يعمل ما هو دونه ، وقد كان الرجل قادرًا على أن يضيف إلى ثروة العلم الجغرافي العربي شيئاً كما رأينا في تلك الصفحات القليلة التي عرضنا مادتها ، وقد رأى أبو حامد أضعاف ما كتب وعمر نحو ثلاثين سنة زيادة على الإدريسي . ولكننا نتعزى فنقول إنه كان ابن عصره ، والناس في كل زمان ومكان أبناء عصورهم إلا أن يكونوا أفاداً كالإدريسي وابن بطوطة وابن خلدون والمقرizi وياقوت الحموي ومن إليهم من خرجوا على حكم زمانهم وساروا بشعلة العلم العربي خلال ظلام عصورهم . والتيار الذي جعل الجغرافية في يد أبي حامد علم عجائب ، هو نفس التيار الذي جعل الكثير من كتب التاريخ مدائعاً ملوك ودعاوين الشعر مجموعات محسنات وتزاويق لفظية ،

وهو الذي مسخ أسلوب النثر سجعًا عقinya وجعل كتب الأدب جموعات مختارات  
معظم ما فيها هزيل ، وكتب الفقه مختصرات وشروحًا على مختصرات . من هذه  
الزاوية نستطيع أن نقدر أبا حامد ونضعه في مكانه الذي يرضاه له الإنصاف .  
يبدأ أبو حامد مقدمته بترتيب العقول درجات « فعقول الملائكة والأنبياء  
أكابر [من عقول جميع العلماء ، وعقول العلماء أكابر] من عقول [جميع]  
العوام في الدنيا ، وعقول العوام أكابر من عقول النساء ، وعقول النساء أكابر  
من عقول الصبيان ، وبقدر هذا التفاوت يقع الانكسار لأكثر الحقائق من  
أكثـر الناس لنقصان العقل ، لأن الذي يعرف الجائز والمستحيل يعلم أن كل  
مقدور بالإضافة إلى قدرة الله تعالى قليل ، فالعامل إذا سمع [عجبًا] جائزًا  
استحسنـه ولم يكذب قائله ولا هـجـنه ، والجاهل إذا سمع ما لم يشاهد قطع  
بتكذيب وتزييف قائله ، وذلك لقلة بضاعة عقله وضيق باع فضله ..  
(التحفة ، ص ٣٧) وهذا الكلام أشبه بالاعتذار عن غرابة ما سيروي بعد في  
الكتاب من غرائب ، ثم يضرب مثلاً للعجبـات التي لا يصدقـها إلا من عـرف  
شأنـها فيقول : ومن شهد حجر المغناطيس وجذبه للحديد ، وكذلك حجر [عرة]  
الماس<sup>(١)</sup> الذي يعجز عن كسرـه الحديد ويكسرـه الرصاص ، ويـثقبـ اليـواقيـتـ  
والـفـولـاذـ ولا يـقـدرـ على ثـقـبـ الرـصـاصـ يـعـلمـ أنـ الـذـيـ أـودـعـهـ هـذـاـ السـرـ قادرـ علىـ  
كلـ شـيءـ ..» . وأـبـوـ حـامـدـ هـنـاـ يـنـقـلـ ماـ سـعـمـ مـنـ غـيرـهـ دونـ أـنـ يـتـكـلـفـ عـنـاءـ  
اخـتـيـارـ ماـ يـقـولـ ، وـلـمـ يـكـنـ هـذـاـ الاـخـتـيـارـ عـلـيـهـ عـسـيرـاـ ، وـإـذـاـ التـسـنـاـ لـهـ عـذـرـاـ فـ  
مـبـالـغـاتـهـ عـنـ حـجـرـ المـغـناـطـيسـ فـأـىـ عـذـرـ لـهـ فـيـ القـولـ بـأـنـ الرـصـاصـ  
يـكـسـرـ المـاسـ ، وـكـانـ فـيـ اـسـتـطـاعـتـهـ أـنـ يـجـربـ ذـلـكـ بـنـفـسـهـ ؟

ثم يبدأ الباب الأول «في صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها» فيقول : أعلم وفتك الله أن الدنيا عبارة عما في ذلك القمر من الهواء والبحار

(١) هكذا ورد أيضاً عند الفزويي (بعايب المخلوقات ، ٢٣٦/١).

والأرض وما عليها وما تحتها وما يحيط بها ، والمعمورة منها فيما يقال مسيرة مائة عام من ناحية الشمال مع ما يقارب ذلك من المشرق والمغرب ، وما سواه من الأرض ليس فيه آدمي لقرب الشمس وميلها على ما سوى الشمال ، وشدة سلطانها على ما سوى الشمال ، فإن الشمال بارد يابس ومغربه بارد رطب ومشرقه حار يابس . . . » وهذا كلام يستغرب من رحالة ساح في معظم الأرض وقطع المسافة من سجامة إلى غرمان كان شمالي كييف ، ولكن هنا ناقل لا منشيء أو ناقد ، وتلك من خصائص عصر الانحدار : النقل دون مناقشة ودون استخدام العقول التي أفضى أبو حامد الكلام عنها في المقدمة .

ثم يتحدث عن ياجوج وmajogj ، وينتقل إلى أمم السودان فيتحدث عنهم حديثاً هو خليط بين المعمول وغير المعمول ، ونضرب صفحأ عن غير المعمول ، فهو كثير ولا محل له في هذا البحث ، ونقتصر على أمثلة من المقبول الذي يمكن أن نخرج منه بشيء : « . . وأهل غانة أحسن السودان سيرة وأجملهم صوراً ، سُبْطُ الشعور لهم عقول وفهم ، ويحجون إلى مكة ، وأما فاوة وقوف وملأ وتكرر وغدامس فقوم لهم بأس وليس في أرضهم بركة ولا خير ، ولا دين لهم ولا عقول ، وأشرهم قوقو : قصار الاعناق فُطس الأنوف تُحرر العيون لأن شعورهم حب الفلفل ، وروائحهم كريهة كالقرون الحرقـة ، يرمون بنبل مسمومة بدماء حيات صفراء لا تثبت ساعة واحدة حتى يسقط لهم من أصابعه ذلك السهم من عظمـه ، ولو كان فيلاً أو غيره من الأفاعـي . . » وقد كان أبو حامد حريراً بأن يقول كلاماً أحسن وأدق من هذا ، فقد كانت هذه الأمم كلها معروفة المسلمين ، وقد كتبوا عنها كلاماً أحسن من ذلك بكثير .

ويتحدث بعد ذلك عن جلد جيد من جلود الماعز يؤتى به من بلد السودان ويصف خصائصه وصفاً طيباً ، ثم يتحدث عن حيوان اللقط وجده الذي تصنع منه الدروع اللقطية ، والقط نوع من الوعول شبيه بالبقر وإن كان

أقل منه حجماً ، أبيض الشعر أسود الظفر سريع العدو وشهرته ترجم إلى جلده الذي كانت تصنع منه الدروع المطية التي اشتهر بها المرابطون . ومن مؤلفينا من يذهب إلى أن لطة قبيلة من صنهاجة <sup>(١)</sup> .

ثم يتكلم عن بعض أمم السودان ، فيثني على أهل زبلع ، وينتقل إلى جزيرة العرب فيقول كلاماً غريباً لا ندرى كيف استجاز قوله عن جزء من الأرض معروفة للمسالمين مثل جزيرة العرب : « عند صناعة أمة من العرب قد مسخوا كل إنسان منهم نصف إنسان ، له نصف رأس ونصف بدن ويد واحدة ورجل واحدة يقال لهم ببار ، هم من ولد إبرم بن سام أخي عاد وثمد وليس لهم عقول ، يعيشون في الآجام [ و ] في بلاد الشحر على شاطئ بحر الهند والعرب تسميهم النسناس ويصطادونهم ويأكلونهم ، وهم يتكلمون العربية [ ويتناسلون ] ويسمون بأسمى العرب ، ويقولون الأشعار . . . . » ثم يروي لهم شرعاً ! .

ويقتدح أبو حامد بلاد الهند والصين امتداحاً طويلاً ويقول عن أهلها إنهم أهل « الملك العظيم والعدل الكثير والنعمة الجزيلة والسياسة الحسنة . . . . » ويدرك أنهم من أعلم الناس ، ويختتم كلامه عن الصين بقوله : « ويخترمون التجار من المسلمين غاية الاحترام ، ولا يؤخذ منهم أعشار [ في بيع أو شراء ] ولا مكس ، فياليت ملوك المسلمين اقتدوا بمثل هذه السياسة الحسنة ، فهم كانوا أحق بها ، ولكن ذلك للحكمة الالهية ، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الدنيا سجن للمؤمن ، والسجن موضع الضيق والخوف ، ولا يكون ذلك إلا مع عدم العدل وكثرة الظلم والجور وقلة المال والخصب حتى يتحقق في حق المؤمن السجن في الدنيا . . . . » (ص ٥٠) .

(١) انظر تعليق فيران الطويل على هذا الفظ ، ص ٢٤٨ تعليق ١

ويختتم الباب — بعد حديث قصير عن الجان — بكلام عن الأرض والجبال والبحار «التي أحاط بها جبل قاف» وهو هنا لا يشير ولو من بعيد إلى كروية الأرض أو نظام الأفلاك ، كأنه رأى أن يهمل كل ما وصل إليه علماء المسلمين قبله مفضلاً عليه كلاماً خارجياً أخذه من مبالغات القصّاصين وشطحات الصوفيين ، ولا عجب فهذا الكتاب مُهدى إلى رجل صوف .

أما الباب الثاني «في صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان» (ص ٥٥ وما يليها) فمعظمها أحاديث خرافية لا يستوقفنا منها إلا حديثه عن صنم قادس وجمع البحرين (وهو عنده مضيق جبل طارق) ومنارة اسكندرية ، وهو هنا ينقل ما قاله في «المغرب» حرفاً بحرف ، ويسترسل في النقل فيذكر عجائب البنيان في مصر بما في ذلك من منارة عين شمس والأهرامات و«مدينة فرعون» وبربا أخيم ، وكل ذلك وارد أيضاً في «المغرب» ؟ ثم يتتحدث عن بعض عجائب البنيان في الشام : حصن بعلبك ومدينة حمص ومدينة تسمى اللجة في حوران ، وينتقل إلى العراق فيذكر «تل عَقرَقوف» ويصف إيوان كسرى أو طاق كسرى وصفاً دقيقاً يدل على مشاهدة ، ولا عجب في ذلك فهو يذكر أنه دخل إلى هذه الناحية من مدينة أبهر سنة ٥٢٤ ونزل عند القاضي أبي السرّى بن عطاء بن إسحاق الشيرازى ، وهو يذكر هذا الشيخ بعد قليل باسم أبي اليسر عطاء بن نبهان ، ويقول إنه كان من أصحاب الشيخ الإمام أبي إسحاق الشيرازى ، وقد روى له هذا الشيخ ابن عطاء من عجائب البنيان في فارس شيئاً كثيراً .

ثم يتكلم عن أردبيل وببلاد دربند ، وقد أشرنا إلى كلامه عن هذه النواحي ، ويختتم الكلام عن خوارزم وسخسين وما حولها معيناً ما ذكره في المغرب .

والباب الثالث «في صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار وما في جزائرها من النفط والنار» (ص ٩١ وما يليها) يبدأ بكلام معقول

عن البحار بحسب نظرية أهل العصور الوسطى : «اعلم أن البحر المحيط – الذى أحاط بالدنيا والأرض فى وسط البحر كالكرة فى غدير ماء ، وهو البحر الأسود الذى يعرف ببحر الظلامات – لا تدخله السفن ، وبحر الهند خليج منه ، وبحر الصين خليج منه ، وبحر الفلزم (البحر الأحمر) خليج منه ، وبحر الروم خليج منه ، وبحر اللادقية (الخوض الشرقي من البحر الأبيض) خليج منه ، وبحر فارس خليج منه ، يمتد بعضه إلى البصرة وعبدان وسيراف وكرمان والبحرين [وجزيرة قيس] (هي جزيرة كيسى فى الخليج الفارسى) والدىبل (ميناء صغير كان إلى جنوب بومبای على ساحل الهند) إلى [بلاد الخبše إلى الزنج وإلى] سرنيب والصولين (ساحل كروماندل) ، وكل هذه البحار التى ذكرتها وما لم أذكرها إنما أصلها من البحر الأسود الذى يقال له البحر المحيط ، وأما بحر الخزر (بحر قزوين) وبحر خوارزم (بحيرة آرال) وبحر اخلاط (بحيرة وان) وبحر أرميه (البحر الميت) والبحر الذى عنده مدينة النحاس (غير محقق وقد ذهب جودفروا ديموبين إلى أن المراد به بحيرة تشاد) وغير ذلك من البحار الصغار فهى منقطعة عن البحر الأسود ، ولذلك ليس فيها حزر ولا مد ، وإنما هي [ماء له] مادة من الأنهار الكبار ، وأكبرها بحر الخزر» ثم يتكلم بعد ذلك عن المحيط الأطلسي (الذى يسميه البحر الأسود) وعلاقته ببحر الروم و «مجمع البحرين الذى بينهما» كلاماً سبق أن ذكره في العرب ويسترسل في ذكر أسماك عجيبة كثيرة سبق أن ذكر بعضها في «العرب» أيضاً .

ويتحدث عن جزائر بحر الروم فيذكر سردانية وصفلية ومالطة . وينتقل إلى جزائر بحر الهند والصين ، وهنا يذكر لقاءه مع الشيخ أبي العباس الحجازي الذى ذكرناه ، ويروى عنه خبر جبل الراهون في جزيرة سرنيب . ويسترسل في الرواية عنه ، ولكنه لا يروى في هذه المرة فصولاً عن الفلك والمواقيت بل أحاديث خرافية نراها كلها بعد ذلك في «ألف ليلة» ، مثل الدهن الذى إذا أدهن به أحد لم تؤثر فيه السيف حتى يغتسل «ومن شرب من ذلك

الدهن عشرة دراهم ولا يأكل لبناً ولا ما يتخذ من اللبن لم يضره الحديد البطة» ودهن آخر أعطاه إياه ملك الصين إذا دهن به جرح زال ألمه والتجمد في وقته قبل أن يخاط فتق مثله ، ويروى أبو العباس هذا أن ملك الصين أهدى الأفضل بن أمير الجيوش شيئاً كثيراً من تحف بلاده . ثم يقول أبو حامد أن أبو العباس هذا اتخذ حمامات وخانات ودكاكين وأن له سبعة أولاد من سبعة أنواع من الجواري : صينية وهندية وحبشية وسرندية وصوليانية من جزيرة الصوليان . . . وكان أولاده يتكلمون بالسنة جماعة ، وكان بعضهم يأنس بي وأعطياني من العود الفائق ومن ورق الصين أنواعاً زرقاً وحراً<sup>(١)</sup> [كلها] عليها تصاوير [الصين] يذهب أحسن من الديباج الرومي» (ص ١٠٧ - ١٠٨) . وبعد ذلك ينتقل أبو حامد إلى الحديث عن طائر الرخ «الذى يكون في جزأء بحر الصين» (ص ١٠٩ - ١١٠) ، وقد نقل كلامه الدميري في حياة الحيوان الكبيري وقرر أنه ينقل عن الماجط وأبي حامد ، وكلام هذا الأخير قريب جداً مما نجده في قصة السنديباد في ألف ليلة .

ويتحدث عن الكركدن ، وهو الصورة الأسطورية التي يرسمها العجائبيون لوحيد القرن أو الخرتيت ، وهي مأخوذة عن كتابات أهل الصين والهند ، واللفظة نفسها أصلها سنسكريتي : خضْجَدَنْشا ثم حُرّفت إلى كَرْكَدَن أو كَرْكَنْد ، ومعناها «الحيوان ذو السن على هيئة الحربة» وتصاوير الكركدن في الرسوم الصينية القديمة شديدة الشبه بالتفاصيل الغربية التي يحكى بها عنه أبو حامد وغيره من كتابنا ، مما يدل على أنهم لم يكونوا يخترعون وإنما ينقلون ما يروى لهم دون محاولة تحقيقه أو التفكير في امكانه على الأقل ، فإن القول بأن جناح الرخ ١٠٠٠ باع يحتاج إلى تفكير ، لأن الباع متزان ، أى أن جناح هذا الطائر طوله كيلومتران ، وهذا أمر أظن أن أحداً لا يتصوره مهما

(١) انظر الترجمة الفرنسية للتحفة ، ص ٢٦٧ ، تعليق ١

اتسع خياله ، وكذلك القول بأن طول الكركدن ١٠٠ ذراع ، والذراع ٥٦ سنتيمتراً على وجه التقرير ، فطول هذا الحيوان ٥٦ متراً . والطريف أن أبا حامد يذكر بعد ذلك حمار الوحش ويصفه وصفاً دقيقاً كما هو في الحقيقة وقد يكون حمار الوحش عجيبة في نظر أبي حامد ، ولكن لا يوجد في نفس المستوى مع الرخ والكركدن أو الطاووس البحري الذي يصفه (ص ١١١) وصفاً شاعرياً : « وقال لي رجل شريف يعرف بالهاروني من ولد هارون الرشيد أنه كان في بحر الهند فرأى طاووساً قد خرج من البحر أحسن من طاووس البر وأجمل ألواناً ، فكثّرنا لحسنه ، وجعل يسبح في البحر وينظر إلى نفسه وينشر أجفنته وينظر إلى ذنبه ساعة ، ثم غاص في البحر » وقد نقل هذا الخبر الأبيهى في المستطرف عن أبي حامد ، وقال إن هذا رواه عن أبي العباس الحجازى ، ولا ذكر لأبى العباس هنا عند هذا الأخير .

ثم يذكر طيراً مصرياً في هيئة العقاب يعيش على سلك النيل ، ويقول إنه يصبح في الجو « الله فوق الفوق ! بكلام فصيح يسمعه الناس من بعد وهو نوع كثير على نيل مصر » (ص ١١٢) والغالب أنه يريد الكروان ، والناس في مصر يقولون أنه ينشد في السماء « الملك لك لك يا صاحب الملك » وما نسمعه على الألسنة في مصر إنما هو بداية الأسطورة التي استقرت في كتب العجائبين على هذه الصورة .

وينتقل إلى بحر الخزر ، وهو بحر عَرْفَةَ وركب مياهه ، فيذكر بعض عجائبها ويقف طويلاً عند منطقة البترول قرب باكوه . وقد تحدث عن هذا البترول المسعودي (ص روج الذهب ، ٢١ / ٢) : « والروس انتهوا إلى ساحل النفاطة من مملكة شروان المعروفة ببَاگَه » ، ولكن أبا حامد يفصل الأمر تفصيلاً طيباً : « وفي مقابلة هذه الجزيرة على جانب البحر أرض سوداء كالتقير ينبت فيها الحشيش ، وفيها أنواع من الوحوش ، ويخرج من تلك الأرض السوداء القير والنقط الأبيض والأسود ، وهي قرية من باكوه من عمل

شرون ، ويظهر في الليل في تلك الأرض والجزيرة نار مثل نار الكبريت زرقاء ، تشتعل ولا تحرق الحشيش ولا حرارة لها ، وإذا نزل عليها المطر زادت واشتعلت وعلت ، يراها الناس من بعيد ، وليس لها في النهار أثر ... » وهو كلام واضح عن البتول والغاز الطبيعي ، لو لا ما فيه من القول بأن نار الغاز الطبيعي لا حرارة فيها وأنها تنطفئ في النهار ، والحقيقة أنها دائمة الاشتعال ، ولكن لها الأزرق لا يرى في ضوء الشمس .

ثم يصف نهر إتل (الفوجلا) ويكرر الكثير مما قاله في المغرب ويضيف عجائب أخرى مثل السمكة الآدمية ، ووصفها عنده شبيه بوصف جنّية البحر في ألف ليلة .

وينتقل إلى الباب الرابع «في صفات الحفائر والقبور وما تضمنت من العظام إلى يوم البعث والتشور (ص ١٢٠ وما بعدها) ، وهنا يعيد ذكر كهف لوشه Loja قرب غرناطة الذي وصفه في المغرب ، ثم يشير إلى عذاب الظالمين في قبورهم ، ويدرك على سبيل المثال حكاية واحد من الظالمين في بلدة غرناطة بنى لنفسه «قبراً من الرخام ذات قبة جميلة ، فتقطع ذلك الرخام وأسود وأحترق وأسودت القبة من الدخان الذي يخرج من قبره حتى صارت كالأتون ، ولم يدفن أحدٌ بقربه ميتاً ، وكنت أذهب مع الناس إلى قبره للاعتبار ، ونأخذ من سواد دخان قبره كما يؤخذ من الأتون السواد ، وهذا عذاب ظاهر ، وأمثاله [في الدنيا] كثيرة» وهو يسمى هذا الظلم قراح ، وإذا كان ولا بد أن نصدق أبا حامد فلا بد أن ناساً أحرقوا قبر هذا الرجل بعد موته فصار القبر إلى هذه الصورة ، لأن قبور الظالمين لو كان يصيبها هذا حقاً لرأينا من هذا القبر ألوفاً .

ويورد بعد ذلك أمثلة كثيرة من عجائب عذاب الظالمين في قبورهم منها واحد يدور على عذاب أبي جهل منسوب إلى عبد الله بن عمر ، وينتقل إلى عجائب القبور في مصر ، وهو باب أكثر مؤلفونا الكلام فيه ، ثم ينتقل إلى

«المغرب الأعلى قریب من القیروان» وهو يريد هنا ما يعرف بافريقية ، وهي تونس فيذكر «قبر محرز العلم» ، ثم يعود إلى مصر ، ومصر أم العجائب كما يقولون ، فيروى حکایة رجل يسمى عفان وقعت له قصة طريفة مع عبد زنجي له ، والحكایة طويلة ، وقد انتقلت برمتها إلى ألف ليلة . ثم يختتم الكتاب «بحکایات عجيبة في أمر أمير المؤمنين على بن أبي طالب وظهور قبره بعد الثلاثين وخمسة في ناحية بلخ» .

وقد أورد فيران بعد ذلك قطعة من «التحفة» وجدها في مخطوط الجزائر وليس لها وجود في مخطوطات باريس ، وهي تدور حول وصف القسطنطينية ، ومن الغريب أن أبا حامد يسميها رومية العظمى . وفي نهاية القطعة يتكلم عن باشغرد (يكتبها باشغورد) ويعيد كثيراً من الكلام الذي سبق أن ذكره في العرب حرفاً بحرف تقريباً .

وفي هذه القطعة يمر بذكر الأندلس قائلاً : وما في جزيرة الأندلس أن ابن حازم ذكر في رسالته التي وضعها في وصفها وذكر خصائصها وطبائع أهلها أن أرضها شامية في طبيتها ، تهمامـة في اعتدالها واستواها ، أهوازية في عظم جياعتها ، عدنية في منافع سواحلها ، صينية في معادنها ، هندية في عطرها وذكائها ، وأهلها عرب في العزة والانفة وفضاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل والنزاهة عن الخضوع ، هنديون في فرط عنائهم بالعلوم وحبهم لها ، بگداديون في ظرافتهم ونظافتهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم ولطافة أذهانهم ودرة أفكارهم ، نبطيون في استبانتهم المياه ومعاناتهم لغرسـة وتركيب الشجر والفلاحة ، صينيون في اتقان الصناعة العملية وأحكام المهن الصورـية ، تركيون في معاناة الحروب ومعاجلة آلاتـها والنظر في مهامـتها<sup>(١)</sup> .

---

(١) التحفة ، ص ١٩٩ — ٢٠٠

وظاهر أن ابن حازم المذكور هنا هو ابن حزم ، لأنه هو الذي كتب الرسالة المعروفة في فضل الأندلس ، ولكن نص الرسالة كما احتفظ به المقرى لا يضم هذه العبارة ، وهذا طبيعي ، لأن هذه العبارة على الحقيقة لأبي عبيد البكري ، ولكن نصها كما أورده المقرى في النفح وابن عبد المنعم المحرى في الروض المعطار ، وكما قارنه ليفي بروفنسال بأصله في القطع الباقي عن الأندلس من المسالك والممالك للبكري<sup>(١)</sup> لا يصل إلى كماله كما أورده أبو حامد الغرناطى ، ولا يمكن القول بأنه أضاف إليه من عنده ، فأسلوب هذه القطعة أعلى بكثير من أسلوب أبي حامد ، ولا يبق بعد ذلك إلا أحد فرضين : إما أن مخطوط المسالك والممالك مختصر لكتاب الأصل بدلالة هذه القطعة الباقية ، وإما أن واحداً من الناس تناول نصه بالتحسین والتزویق ، وعلى هذه الصورة رآه أبو حامد ونقله ناسباً إليه إلى ابن حزم ، ولم يكن الرجل كما رأينا ذا ميل إلى الكتب ومطالعتها أو ذا معرفة بكلام ابن حزم ونص رسالته ، فأورد الكلام كما هو دون تدقيق كبير ، وهذا مثال واضح من طريقة في النقل عن الأصول وإيراد النصوص .

وينتقل بعد ذلك إلى عجائب بلد اسمه حمص في ناحية كرمان ثم إلى بلاد التبت فيقول إن من أقام فيها ، « اعتراه سرور لا يدرى ما سببه ، ولا يزال مبتسمًا ضاحكا حتى يخرج منها » .

وبعد أن يمر بعجزات كثيرة في بلاد شتى يأتي بفصل قصار (ص ٢٠٧ وما يليها) تتضمن أحكاماً موجزة عن البلاد ، وهذه الأحكام أشبه بالحكم فالمهد « بحراها دُرّ وجبلها ياقوت وشجرها عود وورقها عطر » وكرمان « ماؤها وشل وثمرها دقل<sup>(٢)</sup> وعودها بَهْل » ... وطريف منه قوله « والشام عروس بين نساء جلوس ، ومصر هوأها راًكد وحرها متزايد ، تطُول الاعمار وتسود الأبشر » .

(١) نفح الطيب ، ١٢٥ / ١ ، الروض المعطار ، ص ٣

(٢) الدقل أرداً أنواع المتر (لسان العرب) .

ثُم يقول : « فصل : ونذكر خصائص البلاد العملية ، فيقال حكاء يونان وأطباء جنديسابور وصاغة حران وحَاكَة اليمين وكتاب السواد » ، ثُم : « فصل : ونذكر خصائص البلاد في الأحجار ، فيقال فيروج ( فيروز ؟ ) نيسابور وياقوت سرنديب ولوئؤ عمان وزبرجد مصر وعقيق اليمين وجزع ظفار ونجاد<sup>(١)</sup> بلخ ومرجان افريقيا » ثُم : « فصل : نذكر خصائص البلاد في الحيوانات ذات السموم ، فيقال : أفاعي سجستان وثعابين مصر وعقارب شهرزور وحرارات الأهواز وبراغيث ارمينية وفار أَرْزَنْ ونمل ميافارقين وذباب ندفافان ( يصححها فيران في الهمش تل فافان ) و « فصل : ونذكر خصائص البلاد في الملابس ، فيقال برود اليمين وقصب مصر وديباج الروم وخز السوس وحرير الصين وأكسية فارس وحلل اصبهان وسقلاطون بغداد وعائم الْأَبْلَهِ ومسير الرى ومُلَحَّم مرو » وهذه الضروب من النسيج كلها واردة مشرحة في معجم الملابس العربية لدوزي . ويستطرد أبو حامد في هذه الفصول القصار التي تعتبر من أحسن ما في كتابه ، وكما نقول عن ناس يصرح باسمائهم حيناً ويفلتها حيناً آخر ، ويطيل النقل عن الماجط دون أن يذكر من أى كتبه يأخذ .

هذا هو كتاب تحفة الألباب ، وهو كما يرى خليط عجيب من المفيد وغير المفيد ، من الواقعى والاسطوري ، مما يدخل فى نطاق العلم وما يدخل فى نطاق علم العوام والقصص الشعبي ، ولكنـه فى جمـوعـه كتاب كوزموجـرافـيـة ، أى تصـوـير لـعـجـائـبـ الـكـوـنـ وـالـأـرـضـ بـصـفـةـ خـاصـةـ . وـهـذـهـ هـىـ الصـورـةـ التـىـ أعـطاـهـ أـبـوـ حـامـدـ لـعـلـمـ الجـغـرافـيـ ، وـهـوـ نـفـسـهـ لمـ يـدرـكـ أـنـهـ يـكـتـبـ فـيـ هـذـاـ الـعـلـمـ وـلـاـ ذـكـرـ اسمـهـ مـرـةـ وـاحـدةـ ، وـلـكـنـهـ صـاغـ مـادـةـ كـانـ يـمـكـنـ أـنـ تـكـوـنـ جـغـرافـيـةـ فـيـ هـذـاـ الـأـسـلـوبـ ، وـوـضـعـ بـذـلـكـ نـمـوذـجـاـ سـيـحـتـذـيـهـ الـكـثـيـرـوـنـ بـعـدـ مـثـلـ «ـ تـلـخـيـصـ الـأـنـارـ وـعـجـائـبـ

(١) صـفـةـ الـبـجـادـىـ أـوـ الـبـيـجـادـقـ وـهـوـ حـجـرـ كـرـمـ كـانـ مـعـرـوـفـاـ فـيـ الـعـصـورـ الـوـسـطـىـ . انـظـرـ تـعـلـيقـ فيـرـانـ ، صـ ٢٠٩ـ هـامـشـ ٢ـ

الواحد القهار» للباقي ، و «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» مؤلف مجاهول و «كتاب جامع الفنون وسيرة المخزون» لجهول أيضاً ، و «جريدة العجائب وجريدة الغرائب» لابن الوردي ، و «نزة القلوب» لحمد الله المستوفى و «المستطرف من كل فن مستطرف» للابشيمى ، وأحسن هذه الكتب جمِيعاً هما «عجائب المخلوقات» و «آثار البلاد» لذكرى بن محمد بن محمود القرزوينى ثم «حياة الحيوان الكبير» للدميرى .

وهذه كلها (فيما عدا الثلاثة الأخيرة) كتبت للتسلية لا للعلم ، فكل ما فيها من أدب وتاريخ وجغرافية لم ينظر فيه إلا بجانب الطرافه والعجب ، والقطع الجغرافية فيها مجانية الطابع ، وهي تعطينا فكرة عن تصور الناس للجغرافية في عصور الأضليل ، وإذا كان الجغرافيون الأول قد كتبوا في «صورة الأرض» فأن الغالب ابتداءً من أيام أبي حامد ومن سار على طريقته هو «تصور الأرض» ، تصوّرها في هيئة أعاجيب وغرائب ، وهذا التصور ناتج من غلبة الجهل وهبوط المهم وقلة النطلع ، وهو قائم على الخوف من الشرور الكثيرة التي امتلأت بها الأرض في تصوّر أهل عصور أخذ الركود يخيم عليها شيئاً فشيئاً ، ويستثنى من ذلك أولئك الأفذاذ الذين أشرنا إلى بعضهم ، أولئك الذين خرجوا على نطاق عصورهم وحافظوا على شعلة العلم والنور والحضارة والدنيا من حولهم ظلام .

ونضيف إلى هذا الكلام عن أبي حامد حُكماً عاماً أصدره عليه آخر من درسوه قبلنا وهو سizar دوبلر ، فقد قال في آخر مقدمته الضافية للقطعة التي نشرها «من المغرب في عجائب المغرب» : «ونسختم هذا الكلام بمقارنة ، ونسأل : ما هي الغاية من كتاب أبي حامد؟ إن المؤلف ليس علاماً ولا يقول إنه علام ، ومن هنا فإنه لا يرى إلى هدف تعليمي ، والأمر الوحيد الذي طلبه هو تسلية جمهوره ، ومن هنا جاء اهتمامه الدائم بتقديم استطراد

بعد آخر لِيُزْهِى بخشـد مجموعـه المـتنوع اللطـيف من الحـكايات والأـقاـصـص . ولـكـن أـلم يـكـن هـذـا الـهـدـف الرـئـيـسـي نـفـسـه هـو الـذـى رـمـى إـلـيـه هـيـرـودـوـت بـأـسـالـيـب مشـابـهـة قـبـل أـبـى حـامـد بـخـمـسـة عـشـر قـرـنـاـ؟ (١) » .

« فإن مؤلف هاليكارناسوس (٢) لا يَنْفَكُّ يُدخل في صلب كتابه حكايات معترضة لا تزال تستثير اهتمام مطالعه إلى الآن بسبب ما تضمه من الفائدة الواقعية . لقد اشتهر الرجل أكثر بأوصافه الأنثropolجية ، ولكن هناك نقطة من كتابه تنتهي عندها هذه الحكايات المعترضة ، وذلك عند ما يستبد به الحماس الوطني وهو يقص أخبار حروب اليونان والفرس . وهذه الفقرات التي تدور حول تلك الحروب وما تضمنه كتابه من اشارات اثنوجرافية تفيض بالحقائق ، هذان العنصران هما الذي جعلا الناس يلقبونه بعد موته بأبي التاريخ . ولكن هيرودوت رغم كل الحقائق الكبيرة التي يعرضها لم يكن هدفه التعليم أو إثارة الحماس ، إنما كان هدفه الأخير هو امتاع جمهوره فترة من الزمن . وهيرودوت لم يكن إلا القصاص الشرقي في ملابس أغريقية ، إذ أنه في عصره كما كان الحال في أيام أبى حامد بلغ هذا التصوير الساذج لروحية الشعب درجة أدبية رفيعة المستوى » .

« ودون أن نحاول — بصورة عامة — أن نقارن هيرودوت بصاحبه المسلم الذي عاش في القرن الثاني عشر ، نقول إنه ليس من العسير أن نلاحظ بين الاثنين وجوهًا ظاهرة من الشبه : كلاماً ضمّن كتاباته فقرات ذات قيمة تقريرية كبيرة لا تذكر ، وكلامًا لجأ إلى الاستطرادات كوسيلة أسلوبية ، وكلامًا يستحوذ على اهتمام جمهوره بمهارة القصاص الشرقي المعروفة في كل العصور . وهناك أكثر من ذلك ، فإن كلام هيرودوت عن صور الحكم (٣/٨٠ وما يليها)

Dubler, *Abū Hāmid*, p. 140. (١)

(٢) المراد هنا هيرودوت .

— الذي ينتهي بمناقشة حامية حقيقة — مشهور بما ينطوى عليه من روح هيليني خالص ، ولكنها مشهور أيضاً بما فيه من تشويق بسبب تلك الصورة الأدبية الجديدة ذات الطعم الشرقي التي يتضمنها . وكان هيروودوت أول من استعمل هذا الأسلوب في العالم القديم ، ثم أعقبه في ذلك مقلدون كثيرون من أمثال توكيديوس وبولينيسيوس وتابكينوس وغيرهم من المؤرخين اللاتين ، وهذه الطريقة نفسها يستخدمها أبو حامد عندما يروي محادثه مع ملك الجزر ، ولن نناقش الآن ما إذا كانت هذه المحادثة حقيقة أم لم تكن ، ولكننا سننظر إليها كما هي : مناقشات مع ملوك في موضوع الدين ، وهذه المناقشات كثيرة في الأدب الشرقي في العصور الوسطى ، وخاصة في مجال التحدث بتفاصيل عقيدة المؤلف . وإذا كانت مسألة صورة الحكومة أو نظام الحكم مهمة بالنسبة لهيروودوت فقد كان لمسائل الدين نفس الأهمية في العصور الوسطى ، وأبو حامد — وهو رجل عارف باهتمامات عصره — يلتجأ إلى نفس الطريقة الأسلوبية ، وهي طريقة الحديث مع ملك في الموضوع الذي يهم قراءه » .

« ولكن هيروودوت لم يستطع أن يتخبط في عصره ونطاق ثقافته ، وكتابه الرئيسي لا يستطيع ولا يصل إلى تحقيق ما أراد منه . ولقد تمسك اليونان القدماء بحفهم في كتابه ، وأصبح هذا الكتاب الملهم بالاستطرادات — والذي لم يكن يرمي من ورائه إلا لتدليل ساميته — جزءاً من التراث القومي الهيليني . أما أبو حامد ، وهو رجل دقيق الملاحظة ، فقد فهم عقلية جمهوره على طبيعة لغتها ، وقدمت للناس شيئاً من تفاصيل حكايات ألف ليلة ، وهذه الحكايات كانت خلال العصور الوسطى المساهمة الأساسية التي قدمها الفكر الإسلامي للأدب العالمي <sup>(١)</sup> » .

وقد أفرد أغناطيوس يوليانيوفتش كراتشكوفسكي لأبي حامد فقرات طويلة من كتابه الجامع « تاريخ الأدب الجغرافي العربي » استصنف فيها كل ما كتب عنه منذ أيام دِرْبُلو d'Herbelot ، ولكنه لم يقرأ دراسة دوبلر ، لأنها ظهرت بعد وفاته بستين ، ولهذا نجد يقول أن مادة أبي حامد عما زار من البلاد الأورو-آسيوية تنتظر بحثاً خاصاً .

وختم كراتشكوفسكي كلامه عن أبي حامد بعبارة غاية في الأهمية نسقها فيما يلى كما وردت في الترجمة العربية البدعة التي قام بها الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم<sup>(١)</sup> :

« ومن المستحيل تجاهل الغرناطي في تاريخ الأدب الجغرافي ، فهو قد اكتسب شهرة عريضة لدى جمهرة القراء ، لأن المهج الذي ابتدعه في الجمع بين معطيات واقعية دقيقة وضروب من العجائب مختلفة في وحدة كوزموغرافية قد راق كثيراً للأجيال التالية . وقد اتسعت قراءة مصنفه واستنساخه بصورة ملحوظة ، كما حفظ لنا شذرات كبيرة منه كوزموغرافي القرن الثالث عشر الفزويني واستعمله كل من ابن الوردي وابن إيلاس في بداية القرن السادس عشر ، ولم يقف عدد من نقلوا عنه عند حد الجغرافيين وحدهم بل تعداد إلى غيرهم ، فرجع إليه عالم الحيوان الأديب الدميري (القرن الخامس عشر) وصاحب المجموعة الأدبية الدائمة الصيّت الأ بشيّه في القرن الخامس عشر . وقد حمن أبو حامد تخميناً صحيحاً حاجة الأجيال القادمة إلى هذا الضرب من المؤلفات ، فمنذ ذلك الحين أصبح نمط الكوزموغرافيا بما يلزمها من عنصر الغرائب محبياً إلى الطبقات الشعبية بشكل خاص ، وليس في مقدورنا بطبيعة الحال أن نعتبر لهذا النمط خطوة تقدمية في ميدان العلم ، اللهم إلا إذا استثنينا نقاطاً معينة فيه » .

(١) أغناطيوس يوليانيوفتش كراتشكوفسكي « تاريخ الأدب الجغرافي العربي » ترجمه من اللغة الروسية إلى العربية الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٧ ، ومن أسف أن هذا الكتاب القيم في ترجمته العربية الرفيعة لم يصل إلى إلا أبناء الكتابة عن أبي حامد الغرناطي .

### كتاب «الجغرافية» المنسوب إلى محمد بن أبي بكر الزهري

وكتابات أبي حامد تؤدى بنا إلى الكلام على كتاب في «الجغرافية» شبيه بها فيما تورد من حديث العجائب ، بل هو يغرق فيها إلى درجة تصل بنا إلى القصص الأسطوري الموجل في الغرابة الذي نجده في ألف ليلة ، وينفرد هذا الكتاب عن غيره من كتب الجغرافية بميزات تجعل له مكاناً فريداً في ذلك البحث الذي تتولاه ، وهو كتاب «الجغرافية» المنسوب إلى محمد بن أبي بكر الزهري .

ولا نملك أى معلومات ذات قيمة عن الزهري هذا . بل إن اسمه غير وارد في أى من مخطوطاته الكثيرة ، ولهذا ظل الكتاب معروفاً إلى حين قريب باسم «مخطوط المرئي المجهول المؤلف El Anónimo de Almería » ثم استطعنا بعد ذلك نسبته إلى الزهري عن طريق بعض التقول التي أوردها المقرى عنه في نفح الطيب ، ولم نجد لهذا المؤلف ذكراً في كتب الترجم والتاريخ التي بين أيدينا ، وكل ما نعلم هو أنه كان حياً قبيل سنة ٥٤٥ / ١١٥٠ وهي السنة التي هدمت فيها منارة قادس المعروفة في كتبنا باسم صنم قادس ، فإن محمد بن أبي بكر الزهري يقول إنه رأها قبل هدمها ، ثم حدثه بعض معارفه بخبر هذا المدم ووصفه له ، ومعنى هذا أنه من أهل النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، وأنه كان معاصرًا للادرسي وأبي حامد الغناطي وابن بشكوال ، ولا نعرف عنه غير ذلك . وقد تناول النسخ مخطوطاته بالزيادة في مواضع كثيرة ، فأضافوا عبارة «أعادها الله للإسلام» عند ذكر بلاد سقطت في القرن السادس الهجري ، وأضافوا كذلك ملاحظات ترجع إلى عصور متاخرة ، وهذا هو الذي جعل ميكيل أماري يظن أن الكتاب ألف في القرن الثامن أو التاسع الهجريين .

والمشاكل المتعلقة بهذا الكتاب ومؤلفه كثيرة ، ولم نستطع رغم البحث الطويل الوصول إلى حلول مقبولة للكثير منها . وأولى هذه المشاكل هي الاختلاف الكبير بين نصوص ما لدينا من مخطوطاته ، في بعضها فقرات لا توجد في البعض الآخر ، وقد يختلف السياق بينها كذلك ، أما الاختلاف في رسم الاعلام الجغرافية وغير الجغرافية فلا يكاد يسلم منه إلا عدد قليل جداً منها .

وثانية هذه المشاكل هي طبيعة الكتاب نفسه كما يشرحها مؤلفه في فتحته ، فهو يقول : « قال مؤلف هذه الصفوة : أما بعد حمد الله تعالى ، فقد نسخت هذه الجغرافية<sup>(١)</sup> من جغرافية نسخت عن جغرافية القراءى (في نسخ أخرى القماري والقراءى) التي نسخت من جغرافية أمير المؤمنين عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، التي اجتمع على عملها سبعون رجلاً من فلاسفة العراق ، وضعوا هذه الجغرافية في صفة الأرض (نسخ أخرى) : في صفة صورة الأرض) ... » ، ومعنى هذا :

- ١ — أن المؤلف الذي بين أيدينا « صفوة » أي مختصر .
- ٢ — أن المؤلف نسخ هذا المختصر الجغرافي من كتاب جغرافي نُسخ بدوره عن مؤلف آخر لرجل اسمه القراءى أو القراءى أو القماري .
- ٣ — وأن هذا الأخير نسخ جغرافيته عن جغرافية وضعها للمؤمنون سبعون عالماً من فلاسفة العراق .

وإذن فأصل هذه الجغرافية يرجع آخر الأمر — على قول المؤلف — إلى جغرافية عملها للمأمون نفر من العلماء كما يزعم ، ولستنا نجد في أي مرجع من مراجعنا إشارة إلى أن شيئاً مثل هذا صنع للمأمون ، لأن الذي صنع هو الزبيج المتعن ، والزبيج ليس جغرافية وإنما هو جدول رياضي يبني عليه الحساب

---

(١) هكذا ورد رسم هذا اللفظ بالعين المهملة في كل مخطوطاته ، وسنعلق على ذلك فيما بعد .

الفلکی والریاضی لأطوال الموقع وعرضها<sup>(١)</sup> ، وحساب ما يقابل كل درجة من درجات دائرة الفلک بالأمیال ، والزیج المتنحن هو الجدول المختبر أو الحقق الذى أمر الخليفة المأمون (١٩٨ - ٨١٣ / ٢١٨ - ٨٣٣) بعمله ليتحقق من صحة وقوع كل بلد من البلاد على العرض والطول الواردين في الكتب ، ولكن يضبط مقدار ما يقابل كل درجة من المساحة الأرضية بالأمیال ، وقد وصف لنا على بن يونس المصرى الطريقة التي اتبعها الفلكيون في هذا العمل بتدعیق كبير ، في حين أن ابن خلکان عندما تعرض للزیج المتنحن في ترجمة محمد بن موسى ابن شاکر الرياضي وقع في أخطاء جسمية بينها کارلو ناللينو بتفصيل كبير في كتابه عن علم الفلک عند العرب<sup>(٢)</sup> . وإذا نحن تأملنا طريقة عمل هذا الزیج كما وصفها على بن يونس والنتيجة التي أدى إليها تبينا أن الزیج المتنحن كان في الحقيقة جدولًا بالأطوال والعرض وما يقابل كل منها من بروج الفلک وما يقع على كل منها من البلاد وتقدير المسافات بين هذه البلاد بعضها بعض اعتماداً على الأرصاد الفلكية وما يقابل قياساتها من مسافات على الأرض .

إذا نحن تأملنا كتاباً مثل «صورة الأرض من المدح والجبال والبحار والجزائر والأنهار» الذي استخرجه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي من كتاب

(١) جاء في كتاب «علم الفلک» ، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى تأليف کارلو ناللينو (طبع بالعربية في روما سنة ١٩١١ وأعادت نشره مكتبة المثنى في بغداد سنة ١٩٦٣ ، ص ٤٢) : «ولفظ زیج أصله من اللغة البهلوية التي كان الفرس يستخدمونها في زمن الملوك الساسانيين ، وفي هذه اللغة «زیک» معناه السيد الذي ينسج فيه لحمة النسيج ، ثم اطلق الفرس هذا الاسم على الجداول العددية لمشابهة خطوطها الرئيسية بخطوط السيد — فهذه الكتب تشتمل على جميع الجداول الرياضية التي يبني عليها كل حساب فلکي ، مع إضافة قوانين عملها واستعمالها مجردة في الأغلب عن البراهين الهندسية — ومنها الزیج الصابی لحمد بن جابر بن سنان البشّان المطبوع بروما في ثلاثة أجزاء وكتب أخرى عديدة .

(٢) أورد کارلو ناللينو في كتابه المذكور في التعليق السابق أولى نصين باقيين لدينا عن الطريقة التي اتبعها الفلكيون الذين عهد إليهم المأمون في عمل ذلكقياس الدقيق ، أولهما وارد في كتاب الزیج الحاکم الكبير لابن يونس المصرى المتوفى سنة ١٠٠٩ / ٣٩٩ (نسخة خطية في مكتبة لايدن رقم ١٠٥٧ من فهرست مخطوطات هذه المكتبة ، ج ٣ ص ٨٨) والثانى وارد في وفيات الأعيان لابن خلکان (ترجمة رقم ٧١٨ من طبعة جوتنجن) .

جغرافيا الذي ألفه بطميروس القزويني<sup>(١)</sup> « تبينا أنه جدول من هذا الطراز يبدو للناظر غير الخبر بمئلافات العرب في علوم الأوائل أو ترجماتهم لها أنه زيج لا جغرافية ؛ وفي مراجعنا خلط كثير بين مفهومي الزيج والجغرافية ، ومثال ذلك ما نجده في القطعة الباقية لنا من زيج الفزارى كأوردها المسعودى في مسح الذهب ، قال : « .. فرأينا أن نختم هذا الباب بجموع من مساحة مسافات المالك وما بينها من القرب والبعد على حسب ما رواه الفزارى صاحب كتاب الزيج والقصيدة في هيات<sup>(٢)</sup> النجوم والفلك وبالله القوة : زعم الفزارى أن عمل أمير المؤمنين من فرغانة وأقصى خراسان إلى طنجة بالغرب ٣٧٠٠ فرسخ ومن باب الأبواب إلى جدة ٦٠٠ فرسخ ، ومن الباب إلى بغداد ٣٠٠ فرسخ ، ومن مكة إلى جدة ٣٢ ميلا . عمل الصين في المشرق ٣١٠٠ فرسخ في ١١٠٠ فرسخ . عمل الهند في المشرق ١١٠٠ فرسخ في ٧٠٠ فرسخ . عمل تبتُ ٥٠٠ فرسخ في ٢٣٠ فرسخاً<sup>(٣)</sup> ... الخ » وهذه تحديات جغرافية لا جداول فلكية ، وإذا كانت بقية زيج الفزارى<sup>(٤)</sup> على هذه الصورة ، فهو

(١) نشر هذا الكتاب هائز فون مزيك في لاييسك سنة ١٩٢٦ وأعيد طبعه سنة ١٩٦٢ بطريقة الأوفسيت في مطبعة الرابطة في بغداد سنة ١٩٦٢ ، ومن حسن الحظ أن الذين أعادواطبع نشروا المقدمة الألمانية كما هي ، فنص الكتاب لا يفهم بدونها ، ويتبين من قراءة هذه المقدمة أسباب الأخطاء التي وقعت في هذا الكتاب أثناء عمليات النسخ المتواترة ، فإن درجات الطول والعرض واردة فيه بالحرروف لا بالأرقام ، ولكل حرف قيمته العددية ، فيكتفى أن يصطف الناسخ حرف الماء إلى حرف الجيم أو حرف اللام إلى حرف الكاف حتى تختلف القيمة العددية .

(٢) كما في الأصل كما نشره باريبيه دى مينار في باريس سنة ١٩١٤ ج ٤ ص ٣٧ وما يليها وربما كانت صحته هيأة أو هيئات النجوم .

(٣) مسح الذهب للمسعودي ، بتحقيق باريبيه دى مينار ، ج ٤ ص ٣٧ وما يليها .

(٤) هناك خلاف في حقيقة اسمه : ابراهيم بن حبيب أو ابراهيم بن محمد ، وذهب القسطنطيني في أخبار الحكماء إلى أنها رجالان ، وأثبتت كارلو ناللينو أنهاا رجل واحد وقع التصحيف في اسمه (علم الفلك ، ص ١٥٦ وما يليها) والغالب أن الفزارى عاش أيام المنصور ، ولكن الفقرة التي نقلها المسعودي عنه تشير إلى أشياء وقعت في أيام هارون الرشيد وما بعده بقليل ، كإشارته إلى « عمل إدريس الفاطمى » وقد بدأ حكم الأدارسة في المغرب الأقصى سنة ١٧٢/٧٨٩ ، فيحتمل أن يكون المسعودي قد أكمل النص من مراجع أخرى .

في الحقيقة جغرافية لا زيج ، والحق أن الخلط الفاصل بين الزيجات (وهي التقاويم الفلكية) وكتب الجغرافية الأولى التي اتبعت مناهج الفرس واليونان ، (وهي تقاويم البلدان) لم يتضح إلا للقلائل من أهل العلم في عصورنا الماضية ، وفي هذا يقول ج. هـ. كرامز في مادة «جغرافية» في ملحق الطبعة الأولى من دائرة المعارف الإسلامية (ص ٦٨) : «وأخيراً ، فإن مصطلح الزيج الذي كان يطلق على المداول الفلكية والمداول الجغرافية التي تتضمن الأطوال والعرض ، يمكن أن يعتبر أمراً من آثار ذلك العلم الفارسي الإيراني (في تاريخ العلم عند العرب<sup>(١)</sup>)». ومن رأى كرامز أن كتاب صورة الأرض للخوارزمي زيج على الحقيقة ، ومعظم أجزائه يبدو في صورة جدول أو زيج ، لأن الخوارزمي كان فلكياً ، وكتابه ليس ترجمة حرافية لكتاب بطليموس المسمى Γεωγραφική φύση (المرشد إلى صورة الأرض) وإنما تضمين المادة البطلية في صورة جداول تخللها معلومات جغرافية عن البلاد الإسلامية .

وهذا الخلط بين مفهوم الزيج والجغرافية ناشئ عن ارتباط موضوعي الفلك والجغرافية عند المسلمين في أوائل اشتغالهم بالعلم الجغرافي ، وهو ناتج أيضاً عنأخذ الكثيرين منهم بأراء الهندو والفرس في علم الفلك<sup>(٢)</sup> وعن الخلط بين موضوعي كتابي بطليموس في الفلك (المخططي)<sup>(٣)</sup> وفي الجغرافية (أشروا إليه مراراً) .

(١) يشير كرامز هنا إلى القطعة الباقية لنا من زيج الفزارى الذى ذكرناها آنفاً .

(٢) انظر عن ذلك كتاب نقيس أحمد ، جهود المسلمين في الجغرافية (ترجمة فتحى عثمان) الفصل الرابع ، ص ١٤٤ وما بعدها .

(٣) المخططي اسم ابتكره علماء العرب لكتاب بطليموس الرئيسي في الفلك ، وقد شكله حاجي خاليفة في كشف الظنون المخططي ، وقال انه افظع يوناني معناه الترتيب «أصله ماجستوس ، لفظ يوناني مذكور ومؤثره ماجستي » ثم قال : « وأما المخططي فعنده «الأعظم » في لغتهم . هكذا قرأتة في كتاب أسرور كالبينو (يريد Ambrsoius Calpinus) أما البيروني فيشير إليه باسم سينطاسيس ، ويفسر هنا بأنه «الفكر في ترتيب المقدمات » ، والبيروني هنا أدق ، لأن اسم الكتاب الأصلى μαθηματική سوتنا كسيس مايتاكى ( التحليل الرياضى الكبير ) ولم يرد =

من هنا يغلب على ظننا أن جغرافية المأمون التي يشير إليها الزهرى في فاتحة كتابه يقصد بها «الزيج المتنحن» الذى عمل للمأمون ، إذ ظنه صاحب هذه «الصفوة» (الموجز) كتاباً جغرافية . أما قوله أنه نسخ هذه الجغرافية من جغرافية نسخت من جغرافية الفزارى (أو القرزاوى أو القارى) التي نسخت من جغرافية أمير المؤمنين للمأمون ، ففيه خلط كثير ، إذ أنها لا نسمع عن جغرافى أو فلكى يسمى القرزاوى أو القارى بعد المأمون أو في أيامه ، فلم يبق إلا الفزارى الذى ذكرناه ، وقد عاش قبل عصر المأمون فلا يتائق أن ينقل عن شيء صنع له .

ولكنا سنرى أن النص الذى بين أيدينا لا يمكن أن يكون منقولاً عن زيج أو كتاب من كتب الجغرافية الأولى التى كان العرب يؤلفونها في عصر المأمون أو قبله ، بل هو لا يمكن أن يكون منقولاً عن كتاب واحد وضع في زمان معين ، وإنما هو أشتات متفرقة بعضها متقدم وبعضها متاخر ، بعضها علم وبعضها حديث خرافة ، بعضها طريف وبعضها لا قيمة له ، وربما يكون السبب في هذا التصنيف المجنون أن هذا النص شرح خريطة جغرافية كما هو الحال في سلسلة كتب أطلس الإسلام ، أو أن هذا النص قام أساساً على المعلومات الجغرافية والفلكلورية الموجزة التي توجد في المؤلفات الجغرافية العربية المترجمة الأولى ، ثم أضيفت إليه معلومات وتفاصيل أخرى من أصول وطبعات شتى .

---

== الكتاب في أي نسخة من نسخه اليونانية باسم مجزق <sup>٥٢٣</sup> وذهب كارلو ناللينو إلى أن العرب نحتوا اسم المخططي من الاسم الأصلى لكتاب (علم الفلك عند العرب ، ص ٢٢٢—٢٢٣) والمهم لدينا أن ذلك الاسم الذى ابتكره العرب لازم الكتاب عندما ترجم إلى اللاتينية ثم إلى اللغات الأوروبية فعرف باسم Almageste . وهذا الكتاب يتألف من ثلات عشرة مقالة معظم موضوعاتها داخل في نطاق المفهوم الإغريقى للجغرافية مثل: البرهان على كروية السماء والأرض؟ وثبوت الأرض في مركز العالم؟ وميل فلك البروج ، واختلاف عروض البلدان ، وما إلى ذلك (رابع التفصيل في كتاب الفلك عند العرب ، ص ٢٢١ وما يليها) ومن هنا جاء الارتباط الوثيق بين الفلك والجغرافية عند معظم الجغرافيون في المصور الوسطى .

أما لفظ «نسخ» الذي يستعمله صاحب المخطوط فلا يمكن أن ينصل إلا على هذه الخريطة ، لأن قطعاً منه من كلام الزهرى نفسه ، وقطع آخرى ترجع إلى فترات قريبة من عصره ، فلا يمكن لهذا أن يكون منسوخاً بالتواتر مرات كثيرة حتى يرجع إلى عصر المؤمن أو قبله . وسنرى من دراستنا لطبيعة الكتاب والغرض الذى رمى إليه مؤلفه أن الخريطة كانت الجزء الأساسى فيه ، وهذا فقد كان لابد لهذا المؤلف من أن يجمع مادة عن كل ناحية وردت فيها ، ويضيف إلى ذلك ما كان لابد منه من مادة محاذية تشوق القراء وتكون من أسباب رواج كتابه وتداؤله بين الناس .

وربما استطعنا أن نقول إن هذه الإضافات من عمل ناس آخرين غير المؤلف الأول : أضاف كل منهم إلى مادة الكتاب ما أراد حتى وصل إلى الصورة المجيبة التي نجده عليها ، وقد تراى إلى نفسى الشك في وقت من الأوقات فى أن يكون اسم المؤلف ملائقاً ، لأن له طابع الأسماء المصطنعة التي توضع على بعض الكتب مجرد نسبتها إلى شخص خالص العربية ، يوحى جرس اسمه بأنه من العلماء الأجلاء ، وهذا مجرد ظن على أي حال .

والعبارة التي تأتى بعد ذلك في خطبة الكتاب عظيمة الأهمية ، قال بعد ذكر الجغرافية التي وضعها «سبعون من فلاسفة العراق» للمؤمنون : «وضعوا هذه الجغرافية على صفة الأرض . (في نسخ أخرى : على صفة صورة الأرض) ، فإن قال قائل : هي على غير الحقيقة ، فالجواب على ذلك أن الأرض كثيرة والجغرافية بسيطة ، ولكن وضعوها كما وضعوا الأسطرلاب وهيئات الكسوف ، وكذلك بسطوا الجغرافية ليعلم الناظر بذلك أجزاءها وحدودها وأقاليمها وجميع بحارها وأنهارها وبجميع بلادها ومعمورها وقفارها وحيث تقع كل مدينة من مدنها في مشرقها ومغاربها ، وفي جميع أجزائها وأصقاعها ، وينظر الناظر مكان أعاجيبها ، وما في كل جزء منها من الأعاجيب المشهورة فيها والمباني الموصوفة بالقلم (كذا في الأصل ، وربما كانت سجّتها بالكلام أو بالقدم) في أقطارها ،

إذ اشتملت هذه الجغرافية على جميع أقطار الأرض وما فيها من الخلائق على صفاتها وصورتها وألوانها وأخلاقها وما يأكلون وما يشربون في جميع بلادهم من الحبوب والنواكه ، واختلاف أرزاقها ، وما في كل صنع منها مما ليس في غيره من جميع الأرزاق ، وما يجلب لكل صنع منها من التحف والطرف والطيب والعطر والأمتعة والسلع مما في البر والبحر ، وما في جميع أقطار الأرض من الحيوان المذكور الشهور بالخصوص والأعجيب والسموم القاتلات والمانع لذلك ، وما في براها وبحراها على ما وصفه الحكماء المتقدمون وال فلاسفة الماضون ، مع ما ذكرت في هذه الجغرافية من مساحة الأرض وطولها وعرضها ، وما قالت الفلسفه في تكسيرها وعد فراسخها وأميالها ، وما في كل جزء من ذلك ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، وهو العين والموفق للصواب ، لا رب غيره ولا معبد سواه .

و قبل أن نناقش هذه العبارة التي تتضمن منهجه الكتاب وغايته نلاحظ ما يلى : ان المؤلف يستعمل لفظ جغرافية في معنى صورة الأرض أي خريطة الدنيا كما نقول اليوم ، ويدهب الباحث الإيطالي جريفيني — في دراسة سنعرض لها بعد قليل — إلى أن هذا الاستعمال خاص بأهل الغرب الإسلامي دون المشارقة ، فان هؤلاء يقولون « جغرافيا » دون اداة التعريف ، وهم يعنون بذلك كتاب بطليموس ، ومثال ذلك ما ي قوله الخوارزمي من أنه استخرج كتاب صورة الأرض من « كتاب جغرافيا الذي ألفه بطليموس القلوذى » ، فلفظ جغرافيا هنا هو عنوان كتاب بطليموس ، كما يقال كتاب الجسطي ، ومن أمثلة استعمال الفظ على هذه الصورة في المشرق قول المسعودي : « وقد ذكر الفيلسوف في الكتاب المعروف بجغرافيا صفة الدنيا ومدنها وجبلها ... » و « وذكر في جغرافيا أن ابتداء بحر مصر والروم من بحر الأصنام ، أصنام النحاس ... » و « وهذه البحار كلها مصورة في كتاب جغرافيا بأنواع من الأصباغ مختلفة المقادير والصور .. <sup>(١)</sup> » ،

(١) هذه الأمثلة واردة في صریح الذهب ، طبعة أوروبا ، ج ١ ص ١٨٣ - ١٨٥ ، ونجد أمثلة مشابهة في كتاب التنبیه والاشراف للمسعودي أيضاً ، ص ١٣ و ١٢٧ و ١٢٩ .

ثم تطور استعمال اللفظ بعد ذلك ، فتقرأ في رسائل أخوان الصفاء : «الرسالة الرابعة في جغرافيا ، يعني صورة الأرض والأقاليم ، من رسائل أخوان الصفاء صان الله أقدارهم<sup>(١)</sup> » أي أنه أصبح يدل على وصف صورة الأرض ، ولكننه ظل يستعمل دون أداة التعريف . وعند الإدريسي — وهو معاصر لزهري — نجد اللفظ مستعملا مع أداة التعريف ، فهو يقول : «الكلام على صورة الأرض المسماة بالجغرافيا كما سماها بطليموس ووصفها به» ، أي أن لفظ «جغرافيا» عنده يدل على صورة الأرض ، أي خريطة الدنيا ، ووصفها . أما ياقوت فيقول : «... فاما من قصد ذكر العمran بجماعة وافرة منهم من القدماء وال فلاسفه والحكاء أفلاطن وفيثاغوس وبطليموس وغيرهم كثير من هذه الطبقة ، وسموا كتبهم في ذلك جغرافيا ، سمعت من ي قوله بالغين المجمعه والمهمله ، ومعناه صورة الأرض ، وقد وقفت لهم منها على تصانيف عدة جعلت أكثر الأماكن التي ذكرت فيها وأباهم علينا أمرها لتطاول الزمان فلا تُعرف<sup>(٢)</sup> » ، وغريب أن نجد ياقوت بعد ذلك لا يذكر كتاب جغرافيا لبطليموس ، بل يذكر الجسطي خحسب ، وكلامه عن الرجل نفسه مضطرب ، وهو ينسب إليه أعمالا تنسب إلى اراتشنيز<sup>(٣)</sup> . ولا ذكر للفظ جغرافيا في كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي<sup>(٤)</sup> . أما ابن خلدون فيستعمل اللفظ مرة كاسم لكتاب بطليموس ومرة أخرى بمعنى خريطة الدنيا .

(١) رسائل أخوان الصفاء (الفاهرة ١٨٨١)، ص ٩٢

(٢) باقوت ، معجم المidan ( طبعة الحانجى ) : ١ / ٧

(٣) نفس المصدر: ١٦—١٧ ، وانظر الترجمة الانجليزية للفصول المهمية من معجم البلدان الثالث قام به مارتن جيمس ، وقد أشرنا لها في تعلقنا ، ص ٢١—٢٦ والخواص .

(٤) محمد بن أهْدَنْ يُوسُفْ الْمُوَارِزِيُّ الْكَاتِبُ : مَفَاتِحُ الْعِلُومِ ، الْقَاهِرَةُ ١٣٤٢ ، رَاجِمُ الْفَصْلِ الْمُؤْتَمِنُ عَلَيْهِ . ( ١٢٥ - ١٣٠ ) : فَذَكَرَ الْإِلَاءَ وَتَكْسِبَ أَحَدِهَا ، الْكَوْكَبَ اَكَبَ فَسَيَ

الثاني من أبواب السادس (ص ١٢٥ - ١٢٦) : « في ذي القعده وربيعه وموسم حسون سبب يه و هيئه الأرض وأقاليمها » .

لنظر γεωγραφία اليوناني يمكن أن ينطوي بضم الجيم وفتحها وكسرها أيضاً ، وقال كارلو ناللينو في كتاب —  
معظم مؤلفينا يكتبون جفرا فايا بفتح الجيم او سرها وافهم بضمها ، وهذه الصور كما مقبولة دن

واستعمال لفظ جغرافيا للدلالة على خريطة الدنيا (صورة الأرض) أو الخريطة مع وصفها يعيننا على تفسير السطور الأولى من خطبة كتاب الزهري وتعريف طبيعته ، فهو يقول إنه نسخ جغرافيته عن جغرافية نسخت عن جغرافية الفزارى التي نسخت بدورها من جغرافية (كذا) للأمون . فالكلام هنا يدور حول صورة الأرض — أي خريطتها — التي رسماها ، وقد حرص على إيراد إسنادها لكي يعلم القارئ أنها منقولة بالتوأثر عن أصول موثوق فيها ، وقد خانه التوفيق في ذلك رغم حسن نيته ، فإن علماء الأمون لم يرسموا له خريطة ، والفزارى عاش قبل الأمون ، أي أن الخريطة التي وصلت مع إسنادها إلى الزهري كانت خريطة وضعها أحدهم ونسبها إلى علماء الأمون ، ثم نقلت عنها خريطة نسبت إلى الفزارى ، وعن هذه نسخت أخرى ، وهذه الأخيرة هي التي نسخها الزهري . ومن أسف أن خريطة الزهري ضاعت ، ولكن العبارة تدل على أنه كانت هناك خرائط للدنيا كثيرة متداولة لا تعرف نسبتها ، وهذهحقيقة لها أهميتها في تاريخ علم الخرائط عند المسلمين .

ثم يقول الزهري بعد ذلك : « فإن قال قائل : هي — أي صورة الأرض — على غير الحقيقة ، فاجلواه على ذلك أن الأرض كرية والجغرافية بسيطة ،

== الفلك عند العرب (ص ٢٧٨ تعليق ١) : « زعمت علماء العرب في العراق والشام ومصر أثناء القرون الوسطى أن جغرافيا اسم من الأعلام الأجنبية ، فما عرفوه أبداً بأداة التعريف ولا قيده في كتب اللغة . راجع الشواهد على ذلك التي أوردها في المجموعة المطبوعة لتخليد ذكر المستشرق الإيطالي المشهر ميخائيل أماري. Centenario della nascita di Michele Amari, Palermo, 1910, p. 422.

ومثال آخر في من ١٦٣ (سطر ٧) من كتاب الدر المنتحب في تاريخ حل لحمد بن الشحنة المطبوع في بيروت سنة ١٩٠٩ » والشواهد التي يشير إليها ناللينو هنا واردة ضمن مقال E. Griffini المنشور في كتاب الذكرى المئوية ليلاد ميكيل أماري المذكور هنا ، وعنوان المقال : Nuovi Testi Arabo-Siculi, I, 365. وهو مقال طويل عظيم القيمة ، يتضمن نصوصاً عربية عن صقلية لم يوردها أماري في المكتبة الصقلية أو أوردها برواية تختلف عن رواية جريفيني . وفي هذا المقال قطع من كتاب الزهري واردة تحت رقم ٤ من النصوص الجديدة ، وعنوان هذه القطعة :

Estratti dalla Geografia di Az-Zubri o Anonimo di Almeria, p. 416 sqq.

ثم أضاف ملحاً عن لفظ جغرافية اتفقنا به كثيراً هنا ، وسنجعل إليه فيما يلي من البحث مشيرين إليه باسم : Griffini, Nuovi Testi

ولكن وضعوها كما وضعوا الاسطراطاب ووضعوا هيئات الكسوف ، وكذلك بسطوا الجغرافية لعلم الناظر بذلك أجزاءها وحدودها وأقاليمها ... الخ » وهذه العبارة لا تفهم على حقيقتها إلا إذا فسرنا لفظ « وضعوا » بأنه « رسموا » فهو يريد أن يقول : فإذا قال قائل إن هذه الجغرافية — أي خريطة الأرض أو رسماها أو صورتها — لا تتفق مع الحقيقة ، لأن الأرض كرية في حين أن الجغرافية مبسوطة مسطحة على الورق ، فقلنا : هذا صحيح ، ولكن العلماء رسموا صورة الأرض بسيطة — أي مبسوطة — مسطحة على الورق لعلم الناظر بذلك أجزاءها وحدودها وأقاليمها ... الخ ومعنى هذا أن الجغرافيا عنده هي الخريطة المسطحة للأرض ، أي ما يعرف بالبلا<sup>ن</sup>يسفير .

ويبدو من الفقرة الأخيرة من خطبة الكتاب أن معنى لفظ جغرافية عندك يشمل الخريطة ووصفها أو شرحها كذلك ، وربما تصور أن الخريطة لا تتم إلا إذا كان معها شرح مفصل لما فيها ، فهذه الفقرة تقول : « ... مع ما ذكرتُ في هذه الجغرافية من مساحة الأرض وطولها وعرضها ، وما قالت الفلسفه في تكسيرها وعد فراسخها وأميالها ، وما في كل جزء منها ، والله أعلم بحقيقة ذلك ... ». وهذا المفهومان للفظ جغرافية ( خريطة أو خريطة مع شرحها ) كانا موجودين في الغرب الإسلامي ، فقد ورد في المعجم العربي اللاتيني المعروف بالفو<sup>كابوليستا</sup> لفظ جغرافية ( بالعين المهملة ) مرتين ، الأولى في صفحة ٨٠ : جغرافية وأمامه لفظ mapa أي خريطة ، والأخرى في صفحة ٤٦٩ : جغرافية وأمامه mapamundi<sup>(١)</sup> أي خريطة الدنيا ، وابن خلدون يستعمل لفظ جغرافيا في

(١) Vocabulista in arabico وهو قاموس عربي لاتيني ، لاتيني عربي وضع في القرن الثالث عشر ليستعين به رجال الدين الإسبان في التبشير بال المسيحية بين من وقع تحت سلطان ملك إسبانيا النصرانية من المسلمين ، وألفاظ القاموس تدل على أنه وضع في بلنسية ، ويظن أن مؤلفه هو الراهب المبشر رايوندو مارتين الذي تحدثنا عنه في « تاريخ الفكر الأندلسى » . وقد نشره سكياباريلى في فالورنسا سنة ١٨٧١ ، اقرأ عنه مقدمة ناشره وخاصة ص ١٩ و ٢٠ و ملحق القواميس العربية لدوزي ، ج ١ ص ١٠ من المقدمة ، وتاريخ المستعربين للأدب سيمونيت ، ص ١٧٠ وما بعدها .

في كتابه من المعلومات ، وسيختفي هذا الاضطراب عندما يفرغ الزهرى من معنى خريطة ، وأضاف : وقد ذكر ذلك كله بطليموس في كتابه والشريف في كتاب رُجَار ؛ ويقول ابن خلدون في «المقدمة» : «وصوروا في الجغرافيا جميع ما في المعمور من الجبال والبحار والأودية ، واستوفوا من ذلك مالا حاجة لنا به لطوله ، ولأن عنایتنا في الأكثـر إنما هي بالغرب الذى هو وطن البربر ، وبالأوطان التي للعرب من المشرق ، والله الموفق<sup>(١)</sup>» .

ويلاحظ أن الزهرى يكتب دائمًا جغرافية بالعين المهمة ، وكذلك نجد اللفظ في الفوکابوليستا وفي الخطوطات الجيدة من مقدمة ابن خلدون ، وهذا ليس مجرد تصحيف<sup>(٢)</sup> ، وإنما كان رسمًا معروفاً لهذا اللفظ في كثير من الكتب الأندلسية خاصة ، وقد رأينا ياقوت يقول إنه سمع من ي قوله — أى لفظ جغرافيا — بالغين المعجمة والمهمة ، وأكـد ذلك دوزى وأتـى بأمثلة كثيرة على ذلك في معجمه<sup>(٣)</sup> .

وبقية خطبة كتاب الزهرى تعرفنا بمفهوم العلم الجغرافى عنده ، وهو مفهوم واسع يتناول كل المعلومات الخاصة بالأرض وما عليها ومن عليها وعلاقة الأرض بالكون وموفها من الفلك وما إلى ذلك ، أى كل ما يدخل في نطاق الجغرافية الفلكية والطبيعية والبشرية ، واضح أن سياق الكلام في الخطبة غير قويم ، فهو ركيك كثـير التكرار مضطرب النسق ، مما يدل على أن المؤلف كتب هذه الخطبة لـكـي يضمـنـها — فـصـورة عـامـة — كل ما سيورده

(١) ابن خلدون ، المقدمة (بولاق) ، ص ٤٠

(٢) أورد جريفيـني في مقالـة الآـنـفـ الذـكـرـ (صـ ٤٢٥) صورـاً كـثـيرـ لـتصـحـيفـ لـفـظـ جـغـرافـياـ عـلـىـ يـدـ النـاسـخـينـ ، وـبعـضـ هـذـهـ الصـورـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـ الـكـثـيرـينـ مـنـ نـاسـخـ الـكـتـبـ فـيـ الـعـصـورـ الـمـتأـخرـةـ لـمـ تـكـنـ لـدـيـهـمـ أـىـ فـكـرـةـ عـنـ رـسـمـ هـذـاـ الـفـظـ وـمـعـنـاهـ ، فـقـدـ كـتـبـ وـاحـدـ مـنـهـمـ «ـكـتـابـ جـفـرـ الـأـيـاءـ (ـيـرـيدـ جـغـرافـياـ)ـ بـطـلـمـيـوسـ»ـ وـكـتـبـ آـخـرـ :ـ قـالـ صـاحـبـ كـتـابـ مـعـارـفـناـ (ـيـرـيدـ جـغـرافـياـ)ـ .ـ وـفـيـ بـعـضـ الـأـيـامـ كـانـ بـعـضـ مـؤـلـفـ هـذـهـ الـعـصـورـ يـعـرـفـونـ الـفـظـ ، وـلـكـنـهـمـ لـمـ يـعـرـفـواـ كـيـفـ يـرـسـوـهـ ، فـقـدـ عـمـلـ رـجـلـ أـرـمـيـ منـ تـونـسـ يـسـمـيـ مـقـرـدـيـعـ الـكـسـيـعـ مـخـتـصـراـ لـكـتـابـ تـزـهـةـ الـمـشـاتـاـقـ ، وـرسـمـ الـفـظـ هـكـذاـ :ـ «ـكـتـابـ الـجـغـرافـياـ الـكـلـيـةـ ،ـ أـىـ صـورـةـ الـأـرـضـ وـمـاـ فـيـهـ ،ـ قـدـ التـقـطـهـاـ مـنـ كـتـابـ تـزـهـةـ الـمـشـاتـاـقـ الـفـقـيرـ مـقـرـدـيـعـ الـكـسـيـعـ الـأـرـمـيـ ،ـ غـرـضـهـ مـنـهـاـ تـبـجيـلـ الصـانـعـ الـحـالـقـ وـإـنـادـ الـأـخـوانـ»ـ .ـ

(٣) اـنـظـرـ مـلـحقـ القـوـامـسـ ،ـ ١٩٨/١ـ ١٩٩ـ

الخدمات ويدخل في صلب كتابه ، مما يحمل على الظن بأنه كتب الخطبة بعد أن فرغ من الكتاب ، وكتبها معجلا دون تدقيق كثير ، وهى لهذا أضعف ما في الكتاب وأقل ما فيه دلالة على قيمته . وهذا كله بالإضافة إلى التصحيحات الكثيرة في النص ، فعلى كثرة مخطوطاته لا نجد واحداً منها سليماً من التصحيحات الكثيرة التي لا يخلو منها سطر ، وأسم العَلمُ الواحد يرد في كل نسخة بصورة ، وقد اعتمد كل من دوزي وأماري وهنري باسيه وجريفينى على ما تيسر له من المخطوطات في نشر ما حاجه من نصوص الكتاب ، ورجعنا هنا إلى مخطوط بسكوال جابانجوس المحفوظ في مكتبة أكاديمية التاريخ في مدريد ، وراجعنا عليه القطع المنشورة مع مفارقاتها ، فتبيننا أن النسخة جميعاً في مستوى واحد من الدقة — أو قلتها بتعبير أدق — بحيث لا تفضل واحدة منها الآخريات في شيء<sup>(١)</sup> . وهذه التصحيحات من النوع الكبير الواقع في المخطوطات

(١) أضحى رينيه باسيه في مقدمة القطعة التي نشرها من جغرافية الزهرى المخطوطات الموجودة إلى أيامه (سنة ١٩٠٣) وعددها ستة ، واحد في مكتبة جامعة الجزائر برقم ٢٠١٦ ، وهذا المخطوطة منسوخ عن آخر بجامعة الزيتونة ؛ ومخطوط كان يملكه الشيخ عظوم التونسي واستنسخ منه رينيه باسيه نسخة لنفسه ؛ ومخطوط بالكتبة الوطنية في الجزائر تحت رقم ١٢٥٥ ؛ ومخطوط بالكتبة الأهلية في باريس برقم ٢٢٢٠ (مخطوطات عربية) ، والمخطوط رقم ٣٥ من مجموعة جابانجوس (وهي موجودة حالياً في مكتبة أكاديمية التاريخ في مدريد) ، والمخطوط رقم رقم ٢٥٧٤٣ (إضافات) بكتبة المتحف البريطاني . ويضاف إلى هذه ترجمة إسبانية ترجم إلى منتصف القرن الخامس عشر ، محفوظة في مكتبة القصر الملكي في مدريد . وقد نشر الجزء الخاص بجغرافية إسبانيا من هذه الترجمة في مجلة جمعية مدريد الجغرافية سنة ١٨٧٩ ، ص ٧٠٣ وما يليها . ونشرت من جغرافية الزهرى قطع صغيرة فيما يلى :

Amari, *Biblioteca arabo-sicula*, 1855, p. 158 sqq.

الجزء الخاص بصفلية اعتماداً على مخطوط المكتبة الأهلية في باريس .

Dozy, *Recherches*, 3.<sup>o</sup> ed. 1881, II, appendice XXXV p. LXXXIX.

القطعة الخاصة بأحمد هرقل اعتماداً على مخطوط المتحف البريطاني .

Lerchundi y Simonet, *Chrestomathia Arabigo-Española*, Granada, 1881, pp. 44-45.

قطعتان قصيرتان خاصتان بجبل شلبر وشجرة زيتون عجيبة قرب حصن بشكر في

Houdas et René Basset, *Mission Scientifique en Tunisie*, II.<sup>e</sup> partie, Alger

1883, p. 154 sqq.

قطعة خاصة بالسوس الأقصى اعتماداً على مخطوطات باريس وتونس والجزائر والقيروان

التي نسخت في العصور المتأخرة ، وربما يكون هذا أيضاً هو الذي حدا بأمارى إلى القول بأن الزهرى نفسه عاش في القرن الرابع عشر الميلادى<sup>(١)</sup> .

ومثل هذا الكتاب لا ننتظر أن نجد فيه مادة جديدة أو تصوراً للأقاليم يمتاز بالدقة وحسن الفهم وسعة المعلومات كما وجدنا عند من سبقوه الزهرى وكما سنجد عند بعض من أتى بعده ، إنما هو رجل استهواه العلم الجغرافى ، فقرأ فيه بعض ما تيسر له من الكتب من تأليف المسعودى وابن الجزار ورجل يسميه «صاحب التاريخ» (وأظن أن المراد به أحمد بن محمد الرازى ، لأننى وجدت اشارة إليه على هذه الصورة في مختصر مجھول المؤلف لجغرافية الرازى وتاريخه) ثم وصلت إلى يده خريطة مجھولة النسبة ، فنسخها ثم وضع كتاباً في شرحها معتمداً على ما أشرنا إليه من قراءاته ، وسماها معًا كتاب الجغرافية ، وهو هذا الذى وصل إلينا .

وجدير باللحظة أن هذا الرجل كتب كتابه في المرية ، وقد رأينا أنها كانت موطن العذرى ، وإليها ذهب البكرى ولقى العذرى وأخذ عنه ، وكان لهذا أثره في توجيهه نحو الجغرافية والتأليف فيها ، فكان هذا البلد كان مركزاً للدراسات الجغرافية في الأندلس ، أو كانت فيه على الأقل جماعة تعنى بهذا العلم وتجد بين يديها مادة صالحة لدراسته ، وليس هذا بغيريب فإن المرية كانت قد أصبحت خلال القرن الخامس المجرى من أعمى بلاد الأندلس وأوفرها نشاطاً

R. Basset, *Documents géographiques sur l'Afrique Septentrionale*, Paris 1898, = chap. II, pp. 14-30.

وهي ترجمة فرنسيّة لقطعة المنشورة عن السوس الأقصى . انظر :

René Basset, *Extrait de la Description de l'Espagne, tiré de l'ouvrage du Géographe Anonyme d'Almeria*, Homenaje a Codera, Madrid 1904, p. 619 sgg.

وراجع عن كتاب الجغرافية للزهرى ، بروكلان ، تاريخ ٤٧٦/١ وملحق ٨٧٦/١

(١) ذكر أمارى ذلك في الفقرة رقم ٥٤ من الفقرات الخاصة بمراجعة المكتبة الصقلية ، وقد وردت هذه الفقرة في ص ٦١ من المقدمة .

وحيوية ، ثم إن العلم الجغرافي الجديد ظهر في موانئ البحر الأبيض كما ذكرنا ، إذ كانت حاجة الملحقين إلى المعلومات الجغرافية كبيرة وعنتفهم بها كبيرة ، ويضاف إلى ذلك أن أولئك الملحقين كانوا من مصادر هذه المعلومات بما يأتون به من الأخبار والبيانات عن البلاد التي يبحرون إليها ويزرون بها ، وكانت المريمة إذ ذاك قد أصبحت ميناء الأندلس الإسلامي الأكبر ومركز الاتصال البحري مع المغرب والشرق المسلمين ، بل منها كانت تصدر المتاجر الذاهبة إلى غانة وغيرها من بلاد إفريقيا الغربية كما يقول العذرى ، ومن ثم فمن الطبيعي أن تكون مركزاً تجتمع فيه المعلومات عن شتى البلاد ، ولابد أن «الجغرافية» أى الخريطة التي وصلت إلى يد الزهرى — وانتسخها واتخذها أساساً لكتابه — كانت واحدة من الخرائط الكثيرة المتداولة بين أيدي ملachi المريمة ومن يفد عليها من التجار من كل حدب وصوب .

نقول إننا لا ننتظر أن نجد في هذا الكتاب شيئاً من الخصائص الأصلية التي وجدناها عند من سرنا بهم من جغرافيي الأندلس مثل إحاطة الرازى بصفة شبه الجزيرة وصدق تصوره لنواحيها وأقسامها ، ودقة العذرى وعلمه ، وسعة علم البكري ومنهجه العلمى ، وعقبالية الشريف الإدرىسي ، وما إلى هذه من الخصائص التي اجتهدنا في إبرازها ، لأن ننتظر هنا من ذلك شيئاً لأن خطبة الكتاب نفسها تدل على فهم محدود لمعنى الجغرافية وعلم قليل بما عدتها ، فإن الأسلوب مفكك غير متراoط ، والكلام ركيك لا تقاد تستقيم فيه عبارة ، والمعلومات مرسلة دون تدقيق أو محاولة تعليم ، وبيدو لي أن المؤلف — إن وجد ، ونحن لا نعلم عنه إلا اسمه — كان رجلاً بسيطاً من العاملين في البحر أو التجارة ، فان طريقته في الكلام لا تحمل أى خاصة من خصائص التأليف العربي التقليدي ، ويتبين هذا بصورة ملموسة إذا نحنأخذنا وصفه لبلد من البلاد كالأندلس مثلاً ، فنجده أنفسنا أمام سياق يصعب تتبعه ، وليس مرد

ذلك إلى رداءة المخطوط الذي تابعه ، بل إلى أصل الكتاب نفسه ، فقد جمع رينيه باسيه ستة من أحسن مخطوطاته الموجودة ليستطيع أن ينشر مقتطفات من وصفه للأندلس ، واجتهد في الوصول إلى أحسن قراءة مقبولة لكل كلة وأضاف أسفل كل صفحة المفارقات الواردة في النسخ الأخرى حتى بلغت أرقام التعليقات بين الأربع والعشرين والثلاثين في كل صفحة ، والنتيجة بعد هذا كله نص متعب مجهد يحصار الإنسان في فهمه ، وإليك مثلاً من ذلك الفقرة الأولى من ذلك الوصف :

« ذِكْر الصَّقْعِ الثَّالِثُ مِنْ هَذَا الْجَزْءِ الْخَامِسِ مِنْ مَعْمُورِ الْأَرْضِ ، وَهِيَ بَلَادُ الْأَنْدَلُسِ ، وَفِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ مَا نَذَكِرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

اعْلَمْ أَرْشَدَنَا اللَّهُ وَإِلَيْكَ أَنْ بَلَادَ الْأَنْدَلُسِ هِيَ مِنْ بَلَادِ الشَّامِ وَهِيَ آخِرُ صَقْعٍ مِنْ أَصْقَاعِ الشَّامِ .

« وَطُولُ هَذَا الصَّقْعِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مِنَ الْجَبَالِ الْمَسَماَةِ بِجَبَالِ أَطْرِيجُوشِ إِلَى الْطَّرْفِ الْمَسْمَى بِطَرْفِ الْأَغْرِى إِلَى أَشْبُوْنَةِ إِلَى الْبَحْرِ الْأَعْظَمِ إِلَى أَوَّلِ جَبَالِ الشَّارَاتِ — وَهِيَ تَسْعُونَ فَرْسِنَّا — إِلَى أَوَّلِ الْجَبَالِ عَلَى قَرْبِيْبِ مِنْ جَزِيرَةِ طَرِيفِ الَّتِي مِنْ الْجَبَالِ الْمَعْرُوفَةِ بِجَبَالِ الصَّوْفِ ، وَهِيَ كُورَةُ تَاكُورَنَةِ وَهِيَ ثَلَاثَمَانَةَ . وَعَرَضُهَا فِي الْمَغْرِبِ مِنْ طَرْفِ الْأَغْرِى إِلَى أَشْبُوْنَةِ عَلَى الْبَحْرِ الْأَعْظَمِ إِلَى جَبَالِ الشَّارَاتِ تَسْعُونَ فَرْسِنَّا ، وَذَلِكَ مِنَ الْأَيَّامِ تَسْعَةَ أَيَّامٍ . وَعَرَضُهَا فِي الْمَشْرِقِ مِنْ جَبَالِ أَطْرِيجُوشِ إِلَى الْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ بِبِرْتَقَالٍ ، وَهُوَ الدُّخُلُ إِلَى بَلَادِ نَبَارَةِ ثَمَانُونَ فَرْسِنَّا ، وَهِيَ مِنَ الْأَيَّامِ ثَمَانَةَ أَيَّامٍ » .

« وَهُوَ الْجَبَلُ الْمَعْرُوفُ بِأَطْرِيجُوشِ هُوَ الْفَاصِلُ بَيْنَ بَلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَبَلَادِ الْأَفْرَنجِ ، وَهُوَ الْجَبَلُ يَأْخُذُ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الْبَحْرِ ، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِطَرْفِ الْيَهُودِيِّ ، فِي هَذَا الْجَبَلِ ثَمَارٌ كَبَارٌ عَظِيمَةُ مِنَ الصَّنْوَبِ وَالْطَّخْشِ وَالْبَقْسِ ، وَفِيهِ أَشْجَارٌ يَسْتَظِلُّ تَحْتَهَا أَلْفُ فَارِسٍ فَلَا يَظْهَرُونَ . وَمِنْ هَذَا الْجَبَلِ يَجْلِبُ عُودُ الْبَقْسِ إِلَى بَلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَبَلَادِ الْمَغْرِبِ . وَفِي هَذَا

الجبل معدن الأئم القرطاجي ، ومنه يحرب إلى بلاد المشرق . وفي هذا الجبل نحل كثير يجمع منه عسل كثير ، حتى لا يمكن أن يكون في بلاد الأرض أكثر منه عسلا . وفي هذا الجبل الحصن الذي لا يوجد في الأرض معقل مثله ولا أكثر منه منعًا» .

فهذه الفقرة على قصرها تحوى من المشاكل والعبارات التي لا تفهم ما يحتاج حلها وتفسيره وفهمه إلى صفحات بعد صفحات من المناقشات والفرضيات ثم لا ينتهي الأمر بعد ذلك إلى شيء حاسم ، وهي بعد ذلك غير وافية ولا متناسقة ، فان ثلثها يدور حول الجبل الذي يسميه أطريجيوش ، والتجمة الإسبانية القديمة التي أشرنا إليها في تعليق سابق ترسمه جبل Targios وليس هناك جبل بهذا الاسم في شبه الجزيرة ، أما رينيه باسيه فيترجمه بجبل اشتريس les Monts d'Asturias ، وقد رجع في ذلك إلى الرسم اللاتيني لهذا الاسم Asturicus أي أن الاسم كان ينبغي أن يرسم في العربية اشنطريجيوش لا اطريجيوش أو أطوجيوش أو أطريجيش كما ورد في النسخ المختلفة لهذا الخطوط ؛ والمؤلف يطلق هذا الاسم على جبال البرت أو جبل الأبواب أو جبال هيكل المعروفة عادة باسم جبال البرانس ، ولم تقرأ في أي كتاب آخر أنها تسمى جبال اشتريس ، لأن ما يطلق عليه هذا الاسم يسمى في الحقيقة جبال كن McBride ، والإدريسي يسميه جبال شبـيـه Auseba ، وفي حين أن الإدريسي يفرق بين جبال شبـيـه هذه وجبال البرت نجد مؤلفنا يجعلها جبالاً واحدة ويمدها دفعـة واحدة من جـلـيقـية إلى ساحـلـ الـبـحـرـ الأـيـاضـ ويقول إنـهاـ كلـهاـ تـتجـهـ منـ الشـمـالـ إـلـىـ الـجـنـوبـ ، وهو قول يدل على أن مراجعـهـ والخـرـيـطةـ التيـ كانـ يـعتمدـ عـلـيـهـ لمـ تـكـنـ مـسـتـوـيـ عـلـىـ جـدـيرـ بالـشـفـقـ ، وربـماـ كـانـتـ مـنـ هـذـهـ الـخـرـائـطـ والـدـافـاتـرـ الـتـيـ كـانـ الـمـلاـحـونـ وـالـتـجـارـ وـالـشـفـارـ يـحـمـلـونـهـاـ وـيـتـبـادـلـونـهـاـ ، فـإـذـاـ صـحـ هـذـاـ كـانـتـ هـذـاـ الـكـتـابـ أـهـيـةـ خـاصـةـ إـذـ أـنـهـ يـطـلـعـنـاـ عـلـىـ نـوـعـ الـخـرـائـطـ وـالـعـلـومـاتـ الـتـيـ

كان أولئك الناس يعتمدون عليها والأسماء التي يطلقونها على الأعلام الجغرافية ، وتصورهم للاتجاهات وموقع البلاد .

ومما يؤيد هذا الرأي اهتمام المؤلف بالمحاصلات من زراعية وغير زراعية ومصادرها وإلى أي جهات كانت تصدر ، وقد رأينا مثلاً من ذلك في القطعة التي أوردناها في صفة الأندلس ، فإن ثلث المادة — على قصرها — يدور حول ثمار ما يسميه بحبيل أطريجوش وما فيه من الخيرات ، ومن دلائله أنه يسمى جبال رندة ( la Serranía de Ronda ) « بالجبال المعروفة بحبال الصوف وهي كورة تاكورنة » ، وتاكورنة هي تاكرُنَا وهو الاسم الذي كان يطلق على كورة جبلية صغيرة جنوبى الوادى الكبير قاعدها رندة<sup>(١)</sup> ، وقوله أن هذه الجبال معروفة بحبال الصوف يراد به أنها منطقة يحلب منها الصوف ، وهى إشارة ذات أهمية تجارية تذكرنا بما رأيناه عند الإدريسي من قوله أقليم البصل وأقليم البلوط وأقليم الزيتون ، وهى أيضاً تسميات تجارية لا جغرافية ، وقد أخذها الإدريسي من أفواه التجار ، وكان اعتماده في الحصول على المعلومات عليهم عظيماً .

ومما يؤكد ذلك أن المؤلف يعقب هذه الفقرة السابقة بفقرة عن عمران الأندلس ووفرة الخيرات وكثرة المدن فيه ، وهذه الفقرة كسابقتها منقوصة في أكثر من موضع من مواضعها ، مختلة السياق في الكثير من عباراتها حتى ليبدو من غير المقبول نشرها على الصورة التي نشرها بها رينيه باسيه ، ومن حسن الحظ أننى عثرت على أصلها ، أو الأصل الذى اقتبست منه ، في متحف النقول الأندلسية وهو نفح الطيب للمقري ، ومن أسف أنه صدرها بقوله : « وقال بعض المؤرخين » فضيع علينا بذلك فرصة كانت معينةً على كشف النقاب عن أصل كتابنا هذا ، وتلك حالنا مع تراثنا الأندلسي الذى نجمع شوارده وأوابده بكل

(١) الفالب أنت تاكرنا اسم آخر لكورنة رندة . انظر عنها الروض المطار لابن عبد المنعم الخيري ، ص ٦٢ رقم ٦٣ وس ٧٨ من الترجمة الفرنسية وهامش رقم ٣

ميسور من الجهد والصبر ، وما دمنا لا نعرف إن كان «بعض المؤرخين» هذا هو مؤلفنا أو الأصل الذي نقل عنه ، فسأورد فقرات المخطوط وأكملها بما عند المقرى بين حواضر ، حتى يستثنى القارئ مقدار ما فعل المؤلف بالأصل الذي أخذ عنه ، أو ما أصاب نصه على أيدي النقلة والنساخ :

«وببلاد الأندلس بلاد حسنة الماء طولها ثلاثة أيام [وعرضها تسعة أيام و] يشقها أربعون نهرًا [كباراً] ولا يوجد هذا في معمور الأرض إلا فيها ، [وبها من العيون والحمامات والمعادن مالا يحصى] وهي أبرك بقاع الأرض وأكثرها نسلا ، وذلك لأنها صقع صغير فيه ثمانون مدينة من القواعد الكبار ، وأزيد [من ثلاثة] من <sup>(٢)</sup> المدن الصغار [وفيها من الحصون والقرى والبروج ما لا يحصى كثرة حتى قيل : إن عدد القرى التي على نهر إشبيلية أنها عشر ألف قرية] ، وليس في معمور الأرض صقع أكبر <sup>(٣)</sup> منه [يجد المسافر فيه ثلاثة مدن وأربعا من يومه إلا في الأندلس ، ومن بركتها أن المسافر] لا يمشي فيها فرسixin دون ماء [أصلا] ولا يمشي ثلاثة فراسخ إلا وجد فيها [الحوانيت في الفلووات والصحاري والأودية وروعوس الجبال تباع] الخبز الكثير [والقواكه والجبن واللحم والحوت] والزيت والزييب والتين [وغير ذلك من الأطعمة] في الحوانيت <sup>(٤)</sup> .

وإذن فنحن أمام نص مختصر عن أصل ، وواضح أن المؤلف أساء الاختصار ، إذ لا يعقل أن يكون جميع كتاب النسخ الكثيرة التي بين أيدينا قد وقعوا في نفس الأخطاء أو في أخطاء من نفس النوع ، فاستخرج نصاً سقيناً

(١) في نسخة الأصل التي اعتمد عليها باسيه : أربعون ، وفي نسخة المكتبة الأهلية في باريس : ثلاثة ، وكذلك في نفح الطيب وفي الترجمة الإسبانية القديمة : tryenta .

(٢) في نفح الطيب (٢١٠/١) : من المتوسط

(٣) في الأصل : أصغر ، ولا يستقيم به المعنى ، وصوابه ما أثبتناه .

(٤) وردت العبارة في الأصل مضطربة السياق فقومتها على قدر الاستطاعة .

مضطرباً ، ولكنه واف بمحاجات جماعات معينة من الناس ، جماعات لا تهم بسلامة الأسلوب واستقامة السياق ، وإنما تهم بمعلومات خاصة تهمها في شؤون عيشها ، وهذه المعلومات تدور في الغالب حول الحاصلات والمنتتجات وما تشهر به الناحية أو البلد من المتأجر والصناعات وما لها من الفضائل وما فيها من العجائب . وهذه الجماعات — فيما نظن — هي جماعات التجار والملاحين والسفار . وقد يكون الأصل الذي استخرج منه هذا المختصر هو كتاب الزهرى نفسه ، وفي هذه الحالة لا تكون النسخ التي بين أيدينا إلا نسخاً للمختصر ، وقد تؤيد هذا الفرض كثرة النسخ التي وجدناها منه ، فلدينا ستة مخطوطات على الأقل ، ولم نجد من أى كتاب جغرافي آخر ما يقارب هذا العدد إلا نزهة المشتاق للادرسي ، وهذه النسخ الكثيرة تدل على أن الكتاب كان — على ركابه واضطراب سياقه — كثير التداول عظيم النفع لطوائف من الناس حرست على اقتناء نسخ منه ، وهذه الطوائف لا يمكن أن تكون من أهل العلم أو طلاب المعرفة أو المعنيين بالجغرافية ، فهولاء لا يعجبهم مثل هذا النص ولا يحرصون على اقتنائه ، ولو حرص هؤلاء على اقتنائه والاتفاق به لوجدنا نقولاً منه فيما تلا ذلك من الكتب ، ولحرص أصحاب الترجم على إثبات شيء عن صاحبه ، ولكننا لا نجد منه إلا هذه النقول اليسيرة التي أوردها المقرى ولم نعثر لصاحبها على أثر في أيٍّ من مراجعنا .

وعلى أي حال فنحن أمام طراز من الكتابة الجغرافية يختلف في طبيعته وغايتها عمما مررنا به من طرز التأليف في ذلك العلم : طراز شعبي ، إذا جاز أن نستعمل هذا الوصف في مقابل ما يسمى في اللغات الأوروبية *vulgarisation* ، طراز مبسط يجمع المادة الجغرافية التي تهم أهل الأسواق ، ومن ثم فليس فيه تدقيق علمي ولا تقسيم منطقي ولا عنایة بأسلوب الكتابة ، لأن ما يهم أهل الأسواق من المادة الجغرافية هي الزروع والحاصلات والمواد ذات القيمة التجارية ثم أحاديث العجائب ، وتضاف إلى هذه بعض المعلومات العامة عن هيئة الأرض

ومكانتها في الكون وبمحارها وجبارها وأئمارها الرئيسية مع تعريف بسيط لكل منها ، ثم تقسيم الأرض إلى أقسام كبيرة ، تسمى في مخطوطنا أجزاء وهذه إلى أصقاع ثم إدراج عدد من البلاد والنواحي في كل صقع ، ويعقب ذلك الكلام على الأصقاع واحداً واحداً دون تقيد شديد بهذا النهج ، فقد يسمى الجزء إقليماً وقد يسمى الصقع بلداً ، وقد لا يقسم جزء إلى أصقاع ، بل قد تهمل بلاد بأسرها ، لأن المهم ألا يسقط من الحساب بلد مشهور يقصده المسافرون والرحلة والتجار ، ولا يُغفل أمر عجيبة لها شهرة بين الناس ، ولا يُنسى ما يهم التجار من شئون المحاصلات والصناعات وما يجلب من كل بلد وما يصدر إليه . هذا المزاج من المقيد والطريف ، من النافع والعجب هو الذي يعطي ذلك الكتاب طابعه الفريد بين ما لدينا من كتب الجغرافية الأندرسية ، وهو الذي حبه إلى الناس فأقبلوا على نسخه وتداؤله ، ومن الطريف أن الناس حين لم يتكلفو جهداً في التدقيق في رسم الأعلام وضبط المسافات ، فقد كانوا يعرفون أنهم ينسخون لناس لن يجهدوا أنفسهم في تحقيق النسخة أو مقابلتها على غيرها ، إنما هم تجار وللاحون لا يعنيهم في كثير أن تكتب «بابل» بالياء أو «الأهوار» بالراء ، لأن بابل هذه مضت لشأنها وأصبح حدثها حديث أسطير ، والأهوار بعيدة في بلاد فارس لا يكاد يقصدها من حوض البحر الأبيض قاصد من التجار ، إنما التدقيق يكون فيما يتصل بهذا البحر وموانئه وجزائره وسواحله ، وما يتصل به من بحار أهمها بحر القلزم وموانئه ، هنا نجد النص دقيقاً في رسم الأعلام وفي ايراد التفاصيل ، لأن البحر الأبيض كان مجمع التجارة والتجار ، والمريعة — بلد المؤلف — كانت على عصره من أكبر موانئه ، وحدثه عنها لذلك حافل بالفائدة ، وهو يضيف إلى معلوماتنا عنها فوق ما أضافه العذرى كما سترى .

ومن هنا فإن أضعف أجزاء الكتاب هي فصوله الأولى الخاصة بالقدمات العامة عن هيئة الأرض وموضعها في الفلك وما إلى ذلك ، لأن هذه مباحث

علمية لا يفهم قراء مثل هذا الكتاب إلا خلاصتها . وكلام المؤلف هنا عام غير دقيق ، وهو لا يحرض على تعليل شيء حرص ابن رستة مثلاً على تعليل ما يذكر من ظواهر ، لأن ابن رستة كتب لنوع آخر من القراء : كتب لأهل العلم ، فهو يحرض لهذا على أن يخاطبهم بمنطقهم ، أما كتابنا فيقول مثلاً تحت عنوان : في ذكر الأرض وصفتها ودورها واسقاعها (بالسين) وفراستها وأميالها :

«قالت الحكمة : اختلف تناقض الناس من سلف وحدث أن الأرض كورة ومنهم من قال إنها سطح فلا يقوم لها برهان ، غير أنه تعلق بقوله عن وجوب «والأرض بعد ذلك دحها» ، وتأويل هذه الآية لا يفهمها إلا أهل العلم ، ولو لا أن الله يمتنّه دحى (كذا) الأرض ما استقر عليها أحد ، وهو قوله عن وجوب «لتسلكوا منها سبلًا بخاجا» ؛ وأما من قال إن الأرض كورة فله في ذلك البراهين الواخفة والدلائل البينة ، منها جرى الماء الذي على الأرض واختلاف الناظر في الفلك ، ويقصّر الليل وطول النهار ، وإيصالج بعضه في بعض ، واختلاف درج المطالع . ولو كانت الأرض سطحة لم يكن في الفلك من هذا كله شيء ، ولكان الليل والنهار على حد واحد طول الدهر . واختصرنا الكلام في هذا ، إذ ليس هذا موضعه» [ورقة ١ ظهر] . واضح أننا لسنا أمام كلام اختصره صاحبه لضيق المجال كما قال ، بل نحن أمام كلام مبتور شيء الصياغة ، وربما فهم مؤلفه براهين كروية الأرض كما ذكرها ، أما القراء ، فلا نظن أن أحداً منهم فهم برهاناً واحداً منها كما أني بها المؤلف .

ومن هذا الطراز قوله بعد ذلك : «اتفق جميع الفلاسفة وكل من عين مساحة الأرض أن الأرض ٢٤٠٠٠ فرسخاً ، وهي من الأميال ٧٣٠٠٠<sup>(١)</sup> ، وإنما أخذ ذلك من تسمية كورة الأرض من كورة الفلك ، وذلك أن كورة

(١) الفرسخ ٣ أميال ، والميل العربي كيلومتران تقريباً ، أي أن الفرسخ ستة كيلومترات تقريباً.

Cf: Walter Hinz, Islamische Masse und Gewichte, pp. 62-63

الأرض تدور بها كورة الفلك ، وفي الفلك ٣٦٠ درجة ، تقطع الدرجة ٧٥ ميلا ، وذلك ما يمشي الماشي ما بين اليوم والليلة ، كما تقطع الشمس درجة في اليوم والليلة ، فيكون دور الأرض على هذا الحساب ٢٧٠٠٠ ميل<sup>(١)</sup> ، وذلك ثلاثة أيام التكسير على أقرب التقرير» (ورقة ١ ب و ١٢) .

ثم يزيد الموضوع خلطاً بعد ذلك فيقول : «إذا كان تكسيرها ٢٤٠٠٠ فرسخاً كان ٢٧٠٠٠ ميلا (!) وجَب أن يكون قطرها ٩٠٠٠ ميل ، وذلك ثلث الدّور على أقرب التقرير ، والله أعلم بذلك كله» ! وإليك تقسيم الأرض بحسب ما جاء في ذلك الكتاب : «فصل ، فلنذكر الآن أجزاء الأرض .

اعلم أرشدنا الله وإياك أن الأرض تنقسم على سبعة أجزاء : الأول منها : بلاد الصين وببلاد السندين وببلاد الهند .

والجزء الثاني : بلاد اليمن وببحر القلزم ومصر إلى أول بلاد الشام . والجزء الثالث : بلاد العراق .

والجزء الرابع : أرض فلسطين وذواتها .

والجزء الخامس : بلاد الشام وذواتها .

والجزء السادس : بلاد العرب وذواتها .

والجزء السابع : بلاد السودان وذواتها (ورقة ١٢) » .

وأين بقية الأرض ؟ بل أين الأندلس ، وهو وطن المؤلف ؟

انه يضعه بعد ذلك في الجزء الخامس ، لأنه فيما يلي من الكلام يقسم كل جزء إلى أقسام (يريد أقسام) إلا الجزء الأول ، فهو غير مقسم عنده ، وهذه الأقسام عنده تقسيمات غير دقيقة ، فالجزء الثاني مثلاً ثلاثة أقسام :

(١) سبق أن قال إن دور الأرض ٧٢٠٠٠ ميل ، لأنه افترض أن مساحتها (!) ٢٤٠٠٠ فرسخ ، ثم ضرب هذا في ثلاثة . وطول الميل العربي كيلومتران في المتوسط ، والفرسخ ثلاثة أميال أي ٦ ك. م. ، والبريد ٤ فراسخ أي ٢٤ كيلومتراً تقرباً .

«الصق الأول حده من ساحل مدينة عدن ومدينة صنعاء إلى أرض السحارة<sup>(١)</sup> وأرض تهامة إلى جزيرة العرب ، وبها البيت الذي فرضه الله تعالى قبلة ، وفرض الحج إلىه .

الصق الثاني من الجزء الثاني حده من مكة إلى القلزم إلى حيز مدينة بايل (أيّله ؟) إلى أرض مدين إلى بلاد الشام في الشمال . وحده في الغرب مدينة تيما (تياء ؟) .

«الصق الثالث : أعلم أرشدنا الله وإياك أنه صق كبير فيه من المدائن مدينة مصر ، ولم يذكر الله ، عن وجل ، من مدائن الأرض [مدينة] باسمها إلا مصر ، فقال تعالى : «اهبتو مصر فإن لكم ما سألتم» وقال تعالى «ادخلوا مصر إن شاء الله آمين» وهذه المدينة قديمة البناء ، وقد سكنها كثير من الجبابرة والفراعنة والعاملة من القبط والروم وغيرهم ، وهذه المدينة لها حُسُن صور : إما بيضاء فضية ، وذلك عند انتهاء النيل<sup>(٢)</sup> عليها ، وإما حراء مِسْكِيَّة ، وذلك وقت الزيادة ، وإما سوداء عنبرية ، وذلك عند هبوط النيل عنها ، وإما خضراء زمردية ، وذلك عند كمال نباتها ، وإما صفراء ذهبية ، وذلك عند حصاد غرسها » (ورقة ٢٤ ب) .

ثم يلي ذلك كلام طويل عن عجائب مصر يصل إلى ورقة ٣٢ ب .

«الجزء الثالث ثلاثة أصقاع ، الأول حده أرض فارس ، وهناك من المدائن مدينة غرانة . . . حتى يصل إلى اصبهان والأهواز .

الصق الثاني ، من هذه المدينة (الأهواز) إلى مدينة سرمين وفيه بغداد .

الصق الثالث ، حده في المغرب إلى بلاد غرانة<sup>(٣)</sup> إلى بلاد خراسان إلى بلاد

(١) واضح أن المراد هنا : الصحراء ، وهذا الرسم يصور النطق الدارج للفظ على ألسنة الناس في الأندلس .

(٢) يريد : عندما يبلغ فيضان النيل منتهاه .

(٣) فرانة ؟

التبت ، إلى حد أرض بابل ، إلى سحاري (كذا وصحتها صحاري) القبطوم ..» وعلى هذه الترتدة يستمر المؤلف في الكلام حتى نهاية التقسيم ، وقد يذكر أن الجزء الرابع مثلاً ينقسم إلى ثلاثة أصقاع ، ثم يذكر اثنين وينسى الثالث . وهذه النقول تعطى القارئ فكرة عن المستوى العلمي لهذا الكتاب ، فإذا صرحت أن تتطلب في مثله مستوى علمياً ، لأن هذه الناحية من بناء الكتاب شديدة الاضطراب يصعب ضبطها ، وأسلوب المؤلف كما رأينا قلق غير متصل ، يصل إلى البلاغة أحياناً كما رأينا في الكلام على مدينة مصر ، ويسف إلى العامية أحياناً أخرى كما رأينا فيها أوردناه من الماذج ، ومصنفه يعتمد دائمًا على حسن ظن قارئه وتسامحه في الضبط والحساب .

أما إذا تعلق الأمر ببناء من موانئ البحر الأبيض الذي يهم التجار والملاحين شأنها ، فإنه يتكلم عنها كلاماً غاية في الفائدة ، وأحسن مثل ذلك كلامه عن مدينة اليرية . قال (ورقة ١٦٨) « وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر الرومي ، وهي من بنيات معاوية بن محمد الأمير<sup>(١)</sup> ، وهي مرسى الأندلس ، وإليها تقلع مراكب المشرق والاسكندرية ، وهي قيسارية الأندلس ودار صناعتها ، وفيها كان يُعمل الدبياج الحكيم الصنعة من المدججات المعروفة بالبغداديات ، وثياب السنديس الأبيض ، وهو دبياج أبيض كله لا يخفى على أحد من صناعته شيء ، وفيها استنبط ثياب الشنة المعروفة بالخلدي ، وليس في ثياب الجزيرة (كذا وربما كانت صحته الحرير) انفع منه ولا اتم جمالاً ، ولذلك سميت بهذا الاسم الذي هو مشتق من الخلد ، وفيها كان يصنع كل شيء حسن من الأثاث من جميع الأشياء » .

وهذا كلام دقيق واضح الفائدة ، يضيف إلى معلوماتنا عن صناعة النسيج في الأندلس مادة جديدة ، وربما كان السبب في ذلك أن المؤلف نفسه

(١) كذا في الأصل ، والصحيح عبد الرحمن بن الامير محمد ، وهو عبد الرحمن الناصر ، وقد اخْتَطَطَ المرية في سنة ٩٥٥/٣٤٤

من المريّة ، فمعلوماته عنها دقيقة محددة . ونقول ذلك لأن المعلومات التي يقدمها الزهرى عن غير المريّة من موانى البحر الأبيض أقل من ذلك تحديداً وتفصيلاً ، والسبب في ذلك – فيما نحسب – أن الرجل كان مشغولاً أبداً بحديث العجائب ، فلا تكاد تخطر بباله عجيبة في مدينة أو إلى جوارها حتى يقطع الكلام ويترسل في الكلام عنها ، ثم ينسى أن يكمل ما استطرد عنه ، ومثال ذلك أنه يقول عن مدينة أشبوونه « وهي على آخر النهر المعروف بنتائجه عند وقوعه في البحر ، وفي هذه المدينة الموضع الثاني الذي يوجد فيه الذهب ، وسيأتي ذكر الموضع الثالث ، إن شاء الله تعالى . وهذه المدينة كثيرة الأرزاق من الزرع والحبوب وغير ذلك ، وفي هذه المدينة تفاح كالتفاح الأرميني دور التفاحة ثلاثة أشبار وأكثر وأقل ، وبين هذه المدينة ومدينه طلبيرة تكون القنطرة العظيمة المعروفة بقنطرة السيف ، وهي من عجائب الأرض ... »<sup>(١)</sup> وهنا يستطرد في وصف هذه القنطرة إلى آخر المادة .

ولولا هذه الاستطرادات لكان الجزء الذى كتبه عن الأندلس من أكثر ما لدينا فائدة ، لأن له فى أثنائه ملاحظات لا تخلو من طرافة ، مثل ذلك انه يقول عند ذكر نهر الوادى الكبير (ورقة ١٥٨) « وليس في الأندلس نهر باسم عربي إلا هذا النهر ، وكذلك جبل الأندلس الذى [بطل] عليها (أى على قرطبة) يسمى

(١) انظر القطعة التي نشرها رينيه باسيه ، في كتاب تكرييم فرنسيسكو كوديرا وقد سبق أن ذكرناه ، من ٦٣٨ – ٦٣٩ وبالحظ أنه يشير هنا إلى تفاح شنته الذى تحدث عنه اليسع الفافق وأبو حامد الغرناطي ، وإنه لما يدعو إلى الدهشة استمرار أولئك الرجال في ترديد غرائب مثل هذه دون أن يكلف واحد منهم نفسه عناء التفكير أو الاختبار البسيط ، فإن التحقق مما إذا كان من الممكن أن يكون دور تفاحة ثلاثة أشبار (حوالى ٦٠ سنتيمترا) أو خمسة أشبار (١٠٠ سم) أمر ليس بالعسير ، ولكن عبودية النقل والولع بالغرائب جعلت مثل هذه العبارة يتزدّد في كتاب بعد كتاب . ويدرك المؤلف هنا طلبيرة وهذا وهم وحمة الاسم طبيرة Tavira ، مبناء على الشاطئ الجنوبي للبرغال . وعلى الطريق من الأشبوونة إليها تقع قصرة السيف Alcacer do Sal على ٨٩ ك.م. جنوب غربى الأشبوونة ، ولا زالت هذه القنطرة قائمة إلى الآن على نهر سادو Rio Sado الذى يمر بالبلدة المنسوب إليها .

يجبل العروس ، وليس في الأندلس جبل يسمى باسم عربي إلا هذا » والملاحظة غير دقيقة ، لأننا نجد بين أنهار الأندلس وجباله كثيراً ما يحمل أسماء عربية ولا يزال يحملها إلى الآن مثل الوادي الأبيض (Guadalaviar) والوادي الأحمر (Guadelmedina) (Gualamar) ووادي الارز (Guadalhorce) ووادي المدينة (Sierra de Almaden) وقبة وجبل الثلوج (Sierra Nevada) وجبال المعدن (Mulhacén) ورغم هذا فإن ملاحظته جديرة بالتقدير ، فقد تكلم على قدر عالمه ، والمهم أنه أبدى ملاحظته طريفة .

ومن ملاحظاته التي تستوقف النظر قوله في الكلام عن قربة (١٥٩) : « وكذلك في أسفل قربة — اعادها الله دار إسلام<sup>(١)</sup> — على الوادي الكبير [توجد إشبيلية وتسمى]<sup>(٢)</sup> عروسة مدائن الأندلس ، لأن عليها تاج الشرف<sup>(٣)</sup> ، وفي عنقها سبعة<sup>(٤)</sup> النهر ، وهذا النهر ليس في معمور الأرض أتم حسناً منه ، لأنّه يضاهي الدجلة والفرات ونيل مصر ووادي الأردن الذي بالشام في الحسن والجمال » .

ثم يقول : « وعلى مقربة من هذه المدينة بخمسة عشر فرسخاً<sup>(٥)</sup> أو نحوها عين الزاج ، ولا يوجد هذا الزاج في معمور الأرض ، وإذا ما اسود يخرج من عين ، وينعقد منه على صفتى هذه العين الزاج وغيره ، وهذه العين في

(١) لا تدهشنا هذه العبارة هنا فهي إضافة من النساخ فيما بعد ، ومثل هذا كثير في مخطوطات أخرى من ذلك الكتاب .

(٢) سقطت هذه العبارة من الأصل .

(٣) الشرف ، ويسمى إلى الآن Ajarafe أو Aljarafe هو الأرض المرتفعة غرب الوادي الكبير وإلى الشمال الغربي من إشبيلية ، وإقليم الشرف مشهور بزيتونه . انظر ، الروض المطلار لابن عبد النعم الحميري ، ص ١٠١ — ١٠٢ والترجمة الفرنسية ، ص ١٢٤ وتعليق ٤ .

(٤) في الأصل سماك ، ولا معنى له هنا .

(٥) الفرسخ ، كما ذكرنا ، ٦ ك. م. تقريباً .

آخر شَرْف إشبيلية . . . ومن هذه الشرف يجلب الزيت إلى بلاد الروم وبعض بلاد الأندلس وإلى جميع بلاد المغرب وأفريقيا ، وإلى أرض مصر والاسكندرية ، وربما بلغ منه إلى اليمن قليل ، وهذا الزيت أطيب زيت المعمور كله وأوْدَ كه<sup>(١)</sup> ، وذلك أن كل زيتون يحيط الأرض لا يبقى أكثر من سنة واحدة ، ويُعْنِي ، ولا يخرج منه زيت ، وزيتون هذا السقع (يريد الصقع) يظل تحت الأرض عشرين سنة وثلاثين سنة وأكثر من ذلك ، فيكثُر زيته ويخرج . . .»<sup>(٢)</sup> ويقول بعد ذلك (١٦٠) : « وبالغرب من إشبيلية على نحو الفرسخ معدن التراب<sup>(٣)</sup> الذي يعمل منه التَّبَل ، ولا يوجد هذا التراب في الأندلس إلا في هذا الموضع ، ومنه يجلب إلى جميع بلاد الأندلس للطبععين ، ومن عجب هذا التراب أنه ينبع كأنه ينبع من بستان الطفل .»

وهذه الملاحظات ذات القيمة الاقتصادية كثيرة جداً في الكتاب ، وهي تؤيد ما ذهبنا إليه من أنه مجموع صنف للتجار والملاحدين ، وواضح أنه لا يهم بشيء قدر اهتمامه بالحاصلات وعيوب الثروة ، وهذه هي التي تهم أولئك الناس في المكان الأول .

ومن أحسن فقرات «جغرافية» الزهرى عن الأندلس تلك التي يتكلم فيها عن غرناطة ، فهي لا تدل فقط على أنه عاش في هذا البلد زمناً وعرف ما فيه معرفة تامة بل تكشف عن حقيقة هامة ، وهي أن الكثير من منشآت

(١) في الأصل : كلها وأوْدَ كها ، وصوبته لسياق . وأوْدَ كه أي أكثره مادة دهنية ، لأن الودك هو الدهن .

(٢) قارن بذلك ، الروض العطار ، ص ٢١ و ٢١ .

(٣) يريد تراب الحديد ، والمقصود الأحجار التي تحوى معدن الحديد وهي كثيرة في الجبال الواقعة شمال إشبيلية وتعد بعد ذلك شهلاً بغرب وكانت تعرف عند جغرافيينا باسم جبال المعدن ، واسمها الحالى سيرا موريينا Sierra Morena أو الجبال السمراء ، وفيها إلى اليوم مناجم حديد ، ولا تزال توجد هناك إلى اليوم بلدة كبيرة تسمى المعدن Almaden تقع على بعد ١١٨ ك. م. شمالي قرطبة في مديرية ثيوداد ريال ، والمراد بالطبععين هنا الحدادين الذين يطبعون النبال والسيوف أي يصنعنها .

غرناطة المنسوبة إلى بني الأحمر كانت قائمة فيها قبل أن يتخذها محمد بن يوسف ابن الأحمر عاصمة ويسرع في تحسينها وتعميرها في سنة ٦٣٠ / ١٢٣٢؛ فان الزهري كان فيها حوالي سنة ٥٤٥ / ١١٥٠ - ١١٥١ لأنه شهد منارة قادس قبل هدمها في هذه السنة، ثم حَدَّثَهُ بأمر هدمها واحد من الذين حضروا ذلك، أى بعد سنة ٥٤٥. وحتى إذا فرضنا أن ذلك كان في شبابه، فإنه يستبعد أن يكون قد عاش إلى ما بعد سنة ٦٣٠ ورأى منشآت محمد بن يوسف بن الأحمر فيها، فلم يبق إذن إلا القول بأن غرناطة التي عرفها ووصفها هي غرناطة قبل بني الأحمر. وإليك وصفه لها، ثبته لما له من الأهمية (ورقة ٦٤ ب) : «ومدينة غرناطة على النهر الكبير المسماى بوادى شِنْيل ، يشق وسطها ، ومنه يؤخذ الذهب الأحمر الذى ليس فى الأرض أطيب منه ، وهو الموضع الثالث من الأندلس الذى تقدم ذكره ، والذهب الذى يؤخذ فى هذا النهر إنما هو ورقه ، وأكثر ما يوجد هذا الذهب فى وسط المدينة فى الموضع المعروف بالبردوية<sup>(١)</sup> [عند] باب القنطرة المعروفة بقنطرة الحراثين والقنطرة المعروفة بقنطرة القاضى فى مصب الخندق المنصب من جبل السبيكة ما بين الحرة<sup>(٢)</sup> ومورور<sup>(٣)</sup>. وقد يوجد فى باب الوادى وأسفاله يسير من الذهب . وهذا الذهب إذا جُمع فإنه ينبع

(١) كذا في الأصل ، ولعل صيغته البنيه أو باب البنية وهو أحد أبواب غرناطة القديمة التي لا زالت آثارها باقية إلى اليوم إلى جوار باب البارقة وباب زايدة Bib Ceida في شمال غربى غرناطة إلى الشمال من حى البياسين .

(٢) الحرة أو باب الحرة هو الرسم العامى للاسم الأصلى للباب الرئيسى من أبواب الحمراء ، وهو يلي الباب المعروف بباب الشريعة ، ويسمى هذا الباب الآن باسم بويرتا دل بيدرو أى باب الحمر ، ولا علاقة لهذا الباب بالحمر ، وإنما هو باب الحمرة حرفت إلى الحرة وترجمت إلى البيضا . وكان المظنون أن هذا الباب من انشاء بني الأحمر ، ولكن يرى من هذا النص أنه كان موجوداً قبلهم .

(٣) كذا في الأصل ، والأصح مورور والمراد ريض مورور إلى شمال غرناطة ، وكان عند باب مورور ، نسبة إلى مدينة مورور وهى اليوم Morón . وباب مورور كان يسمى إلى عهد قريب بباب الشرق Bib Axarc ثم سمي بباب الشمس Sol . Puerta del Sol .

مثقاله بزاید على جميع الذهب بالریبع والخمس في القيمة . وهذا النهر يدخل غرناطة من ناحية الجوف ، وينخرج قبلها ما بين القصبتين<sup>(١)</sup> على باب محكم الصنعة على البناء ، قد علق عليه رُقْقَ مصفحة . وفي جوف هذا الباب بإبان صغيران لاستقاء الماء وقت الحرب ، ولا يوجد مثل هذا الموضع في الأندلس إلا في غرناطة . وهذا النهر يشق غرناطة بشطرين ، قد بنى عليه أربع قنطر عالية البناء ، يجوز الناس عليها من النصف الواحد إلى النصف الثاني ، وهذه المدينة كثيرة البرودة والثلج ، ليس في بلاد الأندلس أكثر منها بردًا . ومن هذه المدينة يحملب الكتان والحرير إلى جميع بلاد الأندلس وببلاد المغرب ، ومن أحد عجائب هذه المدينة أن فيها طلسمًا من اللاتون ... »

وقد بینا في تعليقاتنا أهمية بعض ما تكشف عنه هذه الفقرة عن غرناطة قبل بنى نصر ، وهي من هذه الناحية وثيقة غایة في الأهمية بالنسبة لمن يدرسون تاريخ غرناطة ، ولا يتسع المقام هنا للكلام بتفصيل عن كل الحقائق التي تكشف عنها هذه الفقرة .

وللمؤلف في أثناء كلامه عن الأندلس ملاحظات عظيمة الفائدة ، وهذه الملاحظات تقع في حديثه عن التواحي التي زارها وعرفها ، وقد رأينا حديثه عن المرية وغرناطة ، ومثل ذلك أيضًا حديثه عن قصن قادس ، وهي المنارة الكبيرة التي يقال أنها كانت قائمة على ساحل البحر قرب قادس ، وتعرف في الروايات اللاتينية باسم Columnae Herculis أي عمدة هرقل ، وذكراها كثير في مراجعنا الأندلسية ، ولكن الزهري رأى تلك المنارة قبل هدمها سنة ٥٤٥ / ١١٤٩-١١٥٠ ووصفها بغاية الدقة كما رآها ، ثم حدثه بعض أصحابه بأمر هدمها ، والفرقة عظيمة الأهمية ، لأنها تدل على أن الزهري كان حيًّا في ذلك الحين ،

(١) أي القصبة القدية على التل الذي يقوم عليه حالياً حي البياسين ، وكانت هذه القصبة تسمى قديماً حصن الرمان ومنه جاء اسم غرناطة للبلد كله ، ولم يسم بالبياسين إلا بعد هجرة نفر من أهل بياسة Baeza إليه وسكنهم فيه . وهذه العبارة تدل على أن القصبة الجديدة وهي قصور الحمراء اليوم كانت قائمة قبل بنى نصر .

وأنه كتب كتابه بعد سنة ٥٤٥ بقليل ، وقد نشر دوزي هذه القطعة بأكملها وعلق عليها (الأبحاث ، ج ٢ ملحق ٣٥ ص ٨٩ من الملحق العربي) مما يعفينا من إيرادها هنا ، ولكننا نجتنبه منها بفقرة تدل على دقتها في وصف ما شاهد ، ونشرها بحسب ما ورد في مخطوطة أكاديمية التاريخ في مدريد ، رقم ٣٥ ورقة ٦٠ ا وما يليها مراجعة على ما نشره دوزي بناء على مخطوط المتحف البريطاني ورقة ٦٩ ب وما يليها) : « وكانت في هذه المدينة (قادس) المنارة العجيبة ، وكان ارتفاعها مائة ذراع ، وكانت مربعة مبنية بالكدان الأحرش الحكم التجارية معقدة في أعدة النحاس الأحمر ، وكان في رأس هذه المنارة مربع ثانٍ قدر ثُلث الأول ، وكان في رأس هذا المربع الصغير شكل مثلث محدود له أربعة أوجه ، على كل وجه من المربع الصغير وجه من المثلث ، ففي رأس تحديد المثلث رخامة بيضاء مربعة من شبرين في شبرين ، وعلى تلك الرخامة مثال صورة ابن آدم من أبدع ما يكون من الاتقان وأحسن ما يكون من الانشاء ووجهه لناحية المغرب مما يلي البحر ملتفتاً على ناحية الشمال ، قد مد ذراعه الشمال وقبض أنامله وأشار بسبابته على فم الخليج الخارج من البحر الأعظم المسماً بالزقاق المعترض بين طنجة وبين جزيرة طريف ، كأنه يُرى السالك ، وقد أخرج يده اليمنى للبر تحت لحافه وقبضها ، وفي يده عصى كانه يشير برميه إلى البحر . وزعم كثير من الناس أنه مفتاح ، وهو في ذلك على باطل من القول ؛ قال المؤلف لقد رأيته سراراً ولم أر في يديه مفتاحاً ، وإنما يظهر في يديه شبه عود صغير لبعده من الأرض . ولقد أخبرني من حضر هدم الصنم — وكان من العرافاء الذين حضروا تلك المنارة — أن الذي كان بيده عصى طولها اثنا عشر شبراً وفي رأسها شкаشف كالفرجلة وسيأتي ذكر هدم هذه المنارة في موضعه ، ومنذ هدمت هذه المنارة انقطع دليلها ، وكان هدمها سنة أربعين وخمسين <sup>(١)</sup> في أول الفتنة

(١) كذا في الأصل ، وال الصحيح ٤٥٥ ، وسيذكر المؤلف هذا التاريخ فيما بعد .

الثانية ببلاد الأندلس ، هدمها على بن عيسى بن ميمون ، حين شاع في جزيرة قادس أن ذلك المثال من الذهب ، فلما قلعه وجده من الالاطون ، وقد غسل بالذهب الطيب ، فجرّد عنه ١٢٠٠٠ دينار من الذهب ، فبطلت حركته من البحر ... »

ومن الأخبار الشيهة بهذه في الكتاب خبر « البيلتين » اللتين صنعنها أبو القاسم بن عبد الرحمن بن رز ليسجل بها أيام الشهر القمرى يوماً يوماً عن طريق ما يدخلها من ماء نهر تاجة بتأثير المد الذى يتتابع تطور القمر . والبليلة هى الحوض ذو البالوعة (بالإسبانية *pila*) ، وقد بني ذلك المهندس العربي هاذين الحوضين داخل غرفة ابتناؤها في الماء ، وجعل ثقبى الحوضين على سطح الماء بحيث إذا مَدَ النهر وعلا الماء دخل منه في الحوضين بقدر ما علا ، وإذا جزر نقص من ماء الحوضين بقدر جزر ماء النهر ، وقد نقلها عنه القرى مع بعض التعديل<sup>(١)</sup> وشوه اسم المهندس ، فرأينا أن نأتى بها هنا على توالياها ، لأنها نموذج من أحسن صفحات هذا الكتاب وأقربها إلى روح العلم . وقد أورد الزهري خبر هاتين البيلتين في الفصل الذى اختص به طليطلة ، وهو يتضمن معلومات طيبة لها قيمتها ، ولهذا فسنورده كله ونتعلق عليه بما يسمح به القام ، وسنأخذ بأحسن ما يتراوئ لنا من قراءات الخطوطات ، تاركين مفارقاتها لمن يريد أن يتتبع ذلك في فقرات نص الزهري كما نشره رينيه باسيه في مجلد تكريم كوديرا .

« فصل : وكذلك من أعظم بلاد الأندلس مدينة طليطلة وهى مدينة عظيمة قد أحدق بها النهر المسى بنهر تاجة وهى من بنىان الخضر وقيل أنها من

(١) نشر هذه الفقرة ضمن ما نشر من وصف الأندلس من جغرافية العذرى رينيه باسيه في مجلد التكريم المهدى إلى فرانسيسكو كوديرا (سبق أن أرودنا عنوانه) ، ص ٦٣٢ - ٦٣٤ وأوردته المجرى في النفح ، ١٩١/١ - ١٩٢ وعن لفظ بيلة انظر رحلة ابن جبير ، بتحقيق وليام رايت ، (جامع المفردات) ص ١٨ و Simonet, Glosario de Voces Ibéricas y Latinas, p. 438

بنيان القوطيين ، وهى كانت دار ملکهم ودار ملك الروم من بعدهم ، وأصح الروايات أنها كانت من بنيان الخزر الذين كانوا في مدة ابراهيم عليه السلام وقال ابن الجزار في كتاب عجائب البلدان : أنه سكن في هذه المدينة ابن المزرود وهو فرعون ابراهيم عليه السلام حين ولاد أبوه بلاد المغرب ، ومنها خرج إلى ساحل قرطاجنة بكوره تدمير في الأندلس ، وسيأتي ذكرها في موضعها إن شاء الله تعالى . ومن عجائب طليطلة أن القمح يبقى فيها سبعين سنة وثمانين سنة لا يتفسس وهي كثيرة الزرع والضرع » .

« وفيها العجب العجيب الذي ما صُنِعَ في الدنيا مثله وهو البيتان اللتان صنعاها أبو القاسم بن عبد الرحمن المعروف بابن رز ، قال : وذلك أنه عفا الله عنه لما سمع بذكر الطلس الذى بمدينة أرين من أرض [المهد] الذى ذكره المسعودى أنه يدور باصبعه مع الشمس من طلوعها إلى غروبها كما تقدم ذكره في عجائب الهند ، صنع هو هاتين البيتين ، وهما في خارج طليطلة في بيت في جوف النهر الأعظم في الموضع المعروف بباب الدباغين ، فمن عجائب هاتين البيتين أنهما تمتنان وتنحرسان مع زيادة القمر ونقصانه ، وذلك أنه إذا كان الوقت الذي يُرى فيه الهلال يخرج فيها شيء من ماء ، فإذا أصبح كان فيها ربع سبعها من ماء ، فإذا كان آخر النهار انكل فيها نصف سبع ، فلا يزال كذلك يزيد بين اليوم والليلة نصف سبع حتى تتكلل سبعة أيام وسبعين ليل فيكون فيها نصفها ، ثم يزيد كذلك نصف سبع في كل يوم وليلة حتى ينكمل امتلاؤها بكمال القمر ، فإذا كان في ليلة خمس عشرة وبدأ القمر في النقصان نقصاناً بقصاصات القمر في كل يوم وليلة نصف سبع ، حتى يكون من الشهر أحد وعشرون يوماً واحداً وعشرون ليلة فينقص منها نصفها . ولا يزال كذلك ينقص كل يوم وليلة نصف سبع ، فإذا كان من الشهر تسعة وعشرون يوماً لا يبقى فيها شيء من الماء . وإذا تكفل أحد حين يكون فيها الماء دون امتلاء وجلب لها الماء وملاها ابتلعتا ذلك من حينها حتى لا يبقى فيها

شيء من الماء الا ما كان فيها في تلك الساعة ، فهذا ماء داخل وماء خارج<sup>(١)</sup> ، وكذلك لو تكالب أحد عند امتلائها أن يفرغها حتى لا يبق فيها شيء ثم ازاح يده عنها خرج فيها من الماء ما يملأها في ساعة واحدة ، فهذا أعجب وأشنع ، وإن كان الصنم الذي بمدينة أرين الذى تقدم ذكره عجيباً فهذا أعجب منه ، لأن ذلك في نقطة الاعتدال من الفلك والأرض بالوضع الذى لا ينقص فيه ليل ولا نهار ، وأما هاتان البيلتان إنما هما بالوضع الذى ينقص ليه ويزيد نهاره خارجاً عن الاعتدال ، فهذا أغرب من ذلك الصنم والله أعلم» .

«وكانت هاتان البيلتان في بيت واحد ، فلما اتصل خبرها بملك طليطلة الأدفونش أراد أن يبحث عن حركاتها فأمر أن تقلع الواحدة منها لينظر من حيث يأتى إليها الماء ، وكيف حركتها ، فانبطلت حركة الواحدة وكان قلعها وفسادها في عام ثانية وعشرين وخمسين ، وكان سبب فسادها حنين بن ربوة اليهودي المنجم لعن الله ، الذي جلب حمام الأندلس كلها إلى طليطلة في يوم واحد ، وكان ذلك في عام سبعة وعشرين وخمسين ، وأخبره أن ولده سيدخل قطبة ويلكلها ، فرارد اليهودي أن يكشف حركة البيلتين فقال أنا أطلعها وأردها كما كانتا وأحسن ، وأردها تمتلثان بالنهار وتحسران في الليل ، فلما قلعهما لم يقدر على ردهما ، وإنما أراد أن يسرق من صنعتهما ، فبقيت الواحدة معطلة والثانية باقية على حالها» .

و واضح أن الزهرى نقل هذه الفقرة برمتها من كتاب ابن الجزار الذى أشرنا إليه ، فإن الكلام فيها على متisco صادر عن فهم صحيح لتركيب هاتين البيلتين وقام على علم وثيق بالفلك ، ولا نسبة مطلقاً بين هذه الفقرة وأمثالها وتلك الفقرات الخرافية المهللة معنى وأسلوبها الذى أتينا بماذج منها ، وإنه لمن الغريب حقاً أن يجتمع الردىء جداً والجيد جداً بين دفتى كتاب واحد ، فهذا

(١) يريد : وذاك ماء خارج .

ليس تأليفاً أو تصنيفاً وإنما هو حشد احتطاب بلئيل يؤيد ما افترضناه في أمر هذا الكتاب ، وهو أنه مجموع من المعلومات احتطتها صاحبها من أى مصدر تيسر له : من أفواه الرحالة وأخبار التجار وأقاصيص السُّفَارِ وحكايات السُّمَار مع صفحات من كتب قيمة وأخرى غير قيمة . جمعت كلها دون تكليف ترتيب أو تنسيق وسيقت شرحاً لخريطة مما كان الملاجون وأهل الرحلات يستعينون به ، وانصرف الاهتمام فيها إلى التجارية والمحصولات وما إليها مما يهم التجار وأهل الأسواق والملاجين .

ونخرج من هذا بأن كلام الزهرى عن الأندلس مقبول لا يخلو من الفوائد على الجلة ، وقد حفظ لنا قطعاً كثيرة من كلام ابن الجزار عن شبه الجزيرة ، ولا شك أن كتاب ابن الجزار هذا كان من أحسن ما كتب عنها . ونص كتاب الزهرى يزيد في بعض فقراته فائدة على نص ابن عبد المنعم الحميري في الروض المعطار ، ولا شك أن نشره كاملاً يضيف إلى معلوماتنا الجغرافية عن ذلك البلد . أما كلامه عن غير الأندلس فيتفاوت من حيث القيمة ، فهو يحيد الكتابة — على طريقه — عن مصر والشام وجزيرة العرب ، وهذه الجودة تقل شيئاً فشيئاً كلما اتجه نحو الشرق ، حتى إذا وصل إلى الصين لم نجد إلا حديث خرافات ، ولكن الزهرى يحرص دائماً على إيراد المعلومات التي تهم التجار ما أمكنه ذلك ، فهو يقول عن خراسان (١٣٨) « ومن هذه المدينة تجلب الثياب المعروفة بديقان ، وهي ثياب رفاق من القطن مرصومة بالذهب وألوان السنديس الملون بأحسن الصبغات ، وهذه الثياب لا توجد في غير هذه المدينة ، ومنها تجلب إلى أقطار الأرض » وأمثال هذه المعلومات القيمة تقل في حديثه عن بعض البلاد كالمهد مثلاً ، فإن كلامه عنها سلسلة من أحاديث الخرافات والعجبات ، كأنما صرفته هذه الأعاجيب عن منهاجه فمضى يتتحدث عن الأذاعى والطيور العجيبة والغيلان المفترسة والأحجار السحرية والأشجار الغريبة فلم يعد يذكر منهاجه إلا لاماً . ومن أمثلة عجائبها هنا قوله عن شجرة السيرج : « وهو

شجر طيار كبار ، تشر في كل عام في شهر نيسان بجوز كبار ، وإذا كان شهر يونيو جمعت تلك الجوز ، وأخرج منها أطيار في شكل الزرازير ، يطبخونها ويأكلون لحمها « (٩ ب) ». ويلاحظ استعماله الأشهر السريانية والرومانية هنا ، مما يدل على أنه يُثبت ما سمع كا هو ، ولكن لا ينسى الحالات والمعادن أبداً ، فهو مثلاً يتحدث عن جزائر السندي ، ويذكر إحدى جزرها ويقول (ورقة ١١٩) : « وفيها معدن الحديد ، ومنها يجلب إلى بلاد الهند والصين . كذلك يجمع فيها كثير من الذهب ، ويوجد فيها كثير من اللبان وكثير من الشيطر (? ) » ، ثم يقول بعد ذلك « واختصرنا بلاد السندي ، إذ ليس فيها أمحوبيه تذكر ، فلنذكر الآن ما يأكلون من الحبوب والفواكه ، وأخلاق أهلها وصفاتهم وأديانهم وشعائرهم » ثم يذكر بعد ذلك كلاماً هو أوغل ما يكون في الغرابة والبعد عن التصديق ! ، ويختمه بقوله : « وأكثر طعامهم القطاكي وقليل من القمح ، وربما بلغ إليهم أحياناً زيت الزيتون ، وإنما زيتهم زيت الشمس وزيت الشحم ، وعندهم من الفواكه الكثيرة وعين البقر وقليل من النفاح ، ولكن يجلب إليهم كثير من التمر من بلاد العراق والزبيب من بلاد اليمن ، ويجلب إليهم من بلاد الحبشة كثير من طعامهم الذي يزرعونه عندهم على النيل <sup>(١)</sup> مثل الفول وغير ذلك ». وهكذا يجمع الرجل بين ما يسوقه التاجر والملاح وما ينفعها : حديث العجائب وحديث المتاجر .

والخلاصة أن حديث العجائب في هذا الكتاب جزء من صلبه وتكتوينه ؛ وعجائبه تتراوح بين عجائب المنشآت والصناعة — ما هو ممكناً منها وما هو غير ممكناً — ومجائب الأرض والخلوقات من الطراز الذي رأيناها عند أبي حامد الغرناطي ومن طرز أخرى شبيهة بما نقرأ في ألف ليلة ، وهذه العجائب تكثر في النواحي البعيدة التي لا يعرف الناس عنها كثيراً مثل نواحي خط الاستواء

(١) كذا في الأصل ، والغالب أن المراد : على طريقة الري كما هو الحال في وادي النيل .

والهند والصين ، فهو يذكر في خط الاستواء حيواناً شبيهاً بالقرد يسمى الزمردة « ذات سم زعاف يقتل من ساعته » (ص ٢ ب - ١٣) ، ثم يذكر طير الرخ ، ويضيف إلى ما نعرف من عجيب خلقه أنه يأكل بفميه ، ومن الطريف أنه يقول بعد ذلك : « وذكرت الحكماء في هذه الأرض ما لا تقبله العقول ، واختصرنا ذكرها لبعدها عن الوجود ، والله أعلم ! »

ثم ينسى أنه قال ذلك ، ويمضي في الحديث عن جنوب خط الاستواء ويقول : « فمن نساً وخلق تحت الأبراج الشمالية فلا يستطيع دخول النصف الجنوبي ، لأنَّه يتغيب عليه الهواء ، ويرجع رأسه إلى ناحية الأبراج الجنوبيَّة وقدماه إلى الناحية الشمالية ، وذلك بضد ما خلق فيه من الهواء ، وإنما يدخل التوبة والحبشة<sup>(١)</sup> في هذا الموضع على خط الاستواء على ما تقدم ذكره لأنَّهم نشأوا ما بين الجنوب والشمال ، فهواؤهم ممزوج بعضه ببعض ، فلذلك يدخلون في هذه الأرض عشرين فرسخاً ونحوها ، ثم يغلب عليهم الهواء ويقتلون ( يريد ينقلبون ) في الأرض ، فلا يمشون في الأرض لذلك كله » .

وتكتفى هذه العجيبة ، فإنَّ الكتاب مليء من أمثلتها ، والزهري حريص على إيرادها في كل فقرة من كتابه تشويقاً لقارئه وامتاعه بهذه الأحاديث التي أصبحت بعد أبي حامد الغرناطي جزء من الجغرافية ، بل أصبحت هي الجغرافية كلها في كثير من الأحيان .

أبو بكر بن العربي وميلاد أدب الرحلات في الأندلس

ونختم هذا الفصل عن معاصري الإدريسي بالكلام عن ناحية من نواحي نشاط الفقيه الأندلسي محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربي المعافري (٤٦٨ - ٥٤٢ / ١٠٧٦ - ١١٤٨) تَبَّأَّ إِلَيْهَا أَغْنَاطِيُوسْ كِرَاشْكُوفْسْكِي

(١) يريد أهل التوبة والأحباش .

كتابه الجامع عن تاريخ الأدب المغرافي العربي ، وهذه الناحية هي مؤلفات ابن العربي في وصف رحلته إلى المشرق ، وحديثه عما زار من البلاد ومن لقى من العلماء .

وقد أصاب العلامة الروسي عندما قال إن ابن العربي «أول من وضع الأساس لهذا الفن حسب علمنا»<sup>(١)</sup> لأن ما وصل إلينا من أوصاف رحلات ابن العربي هو بالفعل أقدم ما وصل إلينا من ثمرات هذا الفن في الأندلس ، وقد يكون غيره قد سبق إلى ذلك ، ولكن شيئاً من ذلك لم يصلنا على أى حال . وقد كتب ابن العربي وصفاً مفصلاً لرحلاته سماه «ترتيب الرحلة للترغيب في الله» لم تصل إلينا منه إلا فقرات في كتب شتى سنشير إليها ، وذكر أطراضاً من أخبار رحلته ومن لقى من العلماء في خطبة كتابه المسماة «قانون التأويل في تفسير القرآن» ، وقد ضاع هذا الكتاب أيضاً ، وليس لدينا منه إلا نقول ؛ ثم استخلص من «ترتيب الرحلة» بعض رسائل شبه رسمية كتبها إلى الخليفة المستظاهر يتحدث إليه فيها عن أفضال المرابطين وخدماتهم للإسلام ، ورسائل أخرى كتبها له محمد بن محمد بن جهير وزير المستظاهر ، وخطابات أخرى يرد تفصيلها فيما بعد ، وجمعها كلهما في رسالة نستطيع أن نسميها «شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان»<sup>(٢)</sup> وهذه الرسالة هي التي وصلت إلينا كاملة تقريباً .

ولسنا في حاجة إلى أن نقف طويلاً عند حياة أبي بكر بن العربي ، فقد أجملنا خطوطها الرئيسية في «تاريخ الفكر الأندلسي» ، وعرضها عرضًا سريعاً كراتشيفسكي في كتابه ، وتحدث عنه بونس بويسن في كتابه مع تفصيل مشكور ، وجع كل المادة الموجودة عن حياته محب الدين بن الخطيب

(١) أغناطيوس يوليانوفتش كراتشيفسكي ، تاريخ الأدب المغرافي العربي ، نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ١٩٦٣ / ٢٩٨.

(٢) استخلاصت هذا الاسم من عبارة وردت في السياق وسيجيء ذكرها .

في مقدمته الخالفة لكتاب «العواصم من القواسم» لابن العربي (القاهرة ١٣٢٧) وأحصى كذلك كل مؤلفاته وأعماله.

وسنورد هنا ما لابد لهذا البحث من معرفته من حياة ابن العربي الخالفة بالحركة والأحداث. ولد في اشبيلية في ٢٢ شعبان ٤٦٨ / أبريل ١٠٧٦ وكان أبوه عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربي (٤٣٥ - ٤٩٣ / ١٠٤٣ - ١٠٦٩)<sup>(١)</sup> من علماء اشبيلية المعروفين وإليه يرجع الفضل في توجيهه ابنه نحو العلم والدراسة. أما أمه فقد كانت من بيت من بيوت العلم والرياسة في اشبيلية، فكان أخوها الحسن بن عمر بن الحسن الموزني (٤٣٥ - ٥١٢) «فقيهاً مشاوراً عالياً في روايته، ذاكراً للأخبار والحكايات، حسن الایراد لها»<sup>(٢)</sup>، أما أبوها عمر بن الحسن بن عمر بن عبد الرحمن بن عمر الموزني (٤٦٠ - ٣٩٢)<sup>(٣)</sup> فكان عالماً، ولكنه تعلم إلى السياسة ونافس العتيد بن عباد في الاستئثار بالسلطان، ولم يستطع الثبات أمامه، فقتلته العتيد «بيده، ودفنه بيديه وقلنسونه، وهيل عليه التراب داخل القصر»<sup>(٤)</sup>. ويبدو أن تلك المهاية الحزنة كان لها أثر على البيت كله، فاستكانت أفراده لبني عباد على نور وكراهة. ومن الشابت على أي حال أن خال أبي بكر بن العربي وهو أبو القاسم الحسن بن عمر الموزني كان من الساعين في القضاء على بيت بني عباد، ومن الحرضين ليوسف بن تاشفين على ذلك، حتى خُلِّم المعتمد بن عباد ونفي إلى أغمات.

وفي هذه السنة بالذات، وبعد أن صارت اشبيلية في ملك المرابطين كانت سن أبي بكر بن العربي ١٦ سنة، فخرج به أبوه في رحلة حجج ودراسة وسماع إلى المشرق، وخلال هذه الرحلة إلى المشرق نلاحظ أنABA بكر بن العربي

(١) ابن بشكوال، الصلة، ص ٦٢٠

(٢) نفس المصدر، ص ٣١٥

(٣) نفس المصدر، ص ٨٦٠

كان مفتح الدهن واعيًّا لما يمر عليه من بلاد وناس ، وسيدون بعض ملاحظاته عن رحلته هذه في «ترتيب الرحلة» وفي بعض فقرات «قانون التأويل» ، ثم في «شواهد الجلة والأعيان» ، ونلاحظ عليه في هذه السن الباكرة حماساً للمرابطين وتقديرًا عظيمًا لهم .

لم تكن رحلة الأب والابن بالبحر يسيرة ، فقد أجلتهاها الأنواء إلى الرسو في ميناء بجاية ، وكان في ذلك الحين مرسى صغيراً لم تمض على إنشائه سنوات ، فقد اختطه سنة ٤٥٧ / ١٠٦٥ محمد بن البغبَع أمير البحر ~~لتميم~~ بن المعز ابن باديس الزيري ، ورغم ذلك فقد كان فيه نفر من العلماء سمع منهم أبو بكر وأبوه ، وهو يذكر بصفة خاصة أبا الحسن على بن محمد بن ثابت الخداد الخولاني القرى ويقول عنه «فكنت أحضر عليه كتابه المسمى بالإشارة وشرحها من تأليفه» . ثم انتقل إلى المهدية في أواخر ٤٨٥ / ١٠٩٢ وهناك لقى ابن العربي الإمام أبا عبد الله محمد بن علي المازري (٤٥٣ - ٥٣٦ / ١٠٦١ - ١١٤١) وسمع عليه .

ومن المهدية رحل أبو بكر مع أبيه بالبحر إلى الإسكندرية ، ولكن البحر كان أقسى عليهم هذه المرة مما كان في المرة السابقة ، فثارت عاصفة حطمت السفينة ، وكاد ابن العربي وأبوه يغرقان ، ولكنها استطاعا الوصول إلى الشاطئ في أسوأ حال ، وسيصف ابن العربي ذلك في «قانون التأويل» وكان خروجهما من البحر في موضع من ساحل طرابلس تسكنه بيوت من بني كعب بن سليم ، فأكرمهم رئيس أولئك الشَّامِيَّين ، ثم واصلوا السير إلى الإسكندرية .

لم يطل مقام أبي بكر وأبيه في الإسكندرية ، بل اتجها إلى القاهرة فوصلها قبل نهاية سنة ٤٨٥ / ١٠٩٢ وكان الخليفة إذ ذاك هو المستنصر والدعوة الفاطمية على أشدّها وعلماء السنة يسترون مجالسهم لسماع تلاميذهم ، فكان ابن العربي يذهب إلى القرافة الصغرى قريباً من قبر الإمام محمد بن إدريس الشافعى ليسمع دروس القاضى أبي الحسن على بن الحسين بن محمد الخلعى

(٤٠٥—٤٩٢) وكان كبير مشايخ الشافعية في وقته حتى كان يلقب بمسند<sup>(١)</sup> مصر . وسمع في مصر أيضاً من أبي الحسن على بن شرف ومهدى الوراق ، وأبي الحسن بن داود الفارسي<sup>(٢)</sup> .

ثم انتقل أبو بكر بن العربي إلى بيت المقدس ، وهناك لقى أبا بكر / محمد بن الوليد الطرطوشى الفهري المعروف بابن أبي رَنْدَقه (٤٥١—٥٢٠) / ١٠٥٩—١١٢٦) وهو أندلسى مثل ابن العربي ، ولم يكن قد استقر بعد في الإسكندرية ، وقد أفاد ابن العربي كثيراً من دروس الطرطوشى وسمع ما كان يدور أثناءها من المناقشات وشارك فيها ، واستلقت انتباهه بصفة خاصة موضوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو موضوع ظل يشغل بال ابن العربي من ذلك الحين ، لأن علماء الأندلس كانوا يشعرون بعد ضياع الخلافة وتفرق بلادهم أن من واجبهم رعاية قومهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما ي بيانه في دراستنا عن «شيخ العصر في الأندلس» وسيكتب ابن العربي عن ذلك الموضوع كثيراً في كتبه . ومن الموضوعات التي أثيرت في مجالس الطرطوشى موضوع فضل الصحابة على<sup>(٣)</sup> غيرهم ، وربما كان هذا هو الذي أوحى إلى ابن العربي فيما بعد كتابه المسمى «العواصم من القواسم» .

وأقام ابن العربي في بيت المقدس ثلاث سنوات سمع فيها إلى جانب الطرطوشى دروس ابن الكازرونى ، وقال فيه «كان يأوى إلى المسجد الأقصى ، ثم تمتنعنا به ثلاثة سنوات ، ولقد كان يقرأ في مهد عيسى (أى في بيت لحم) فيُسمع من الطور ، فلا يقدر أحد أن يصنع شيئاً دون قراءته إلى الاصغاء إليه<sup>(٤)</sup>». وتجول ابن العربي بعد ذلك في نواحي فلسطين وزار وادى موسى ووصفه فيها بعد .

(١) السبكي ، طبقات الشافعية ، ٢٩٦/٣

(٢) محب الدين الخطيب ، مقدمة العواصم من القواسم ، ص ١٤

(٣) محب الدين الخطيب ، ص ١٥

(٤) نفس المصدر والصفحة . وقد رواها محب الدين على هذه الصورة ، ومن الواضح أن العباره في حاجة إلى تقويم .

ثم انتقل إلى دمشق وسمع على نفر من شيوخها ، ودخل بغداد حوالي سنة ٤٩٠ / ١٠٩٧ في أوائل خلافة أبي العباس أحمد المستظاهر بالله بن المقتدى<sup>(١)</sup> (٤٨٧ - ٥١٢ / ١٠٩٤ - ١١١٨) .

وقد طالت إقامة ابن العربي في بغداد ، وسمع من شيوخها إذ ذاك ما بين شافعية وحنبلية ومعزلة ، ودارت بينه وبينهم محاورات كانت بعيدة الأثر في تكوينه الذهني والفقهي . ويدرك محب الدين بن الخطيب إلى أن ابن العربي لقى في بغداد محمد بن تومرت ، وهذا غير معقول قطعاً ، لأن ابن تومرت بدأ رحلته إلى المشرق سنة ٥٠٠ أو ٥٠١ / ١١٠٦ - ١١٠٧ ، ولا يمكن أن يكون قد وصل إلى المشرق قبل سنة ٥٠١ ، وفي هذا الوقت كان الغزالى قد ذهب إلى طوس حيث توفي سنة ٥٠٥ / ١١١٢<sup>(٢)</sup> . وفي سنة ٥٠١ كان ابن العربي قد عاد إلى أشبيلية منذ ثمان سنوات ، ومع هذا فسيسأل ابن العربي في محضر عبد المؤمن بن علي إن كان قد لقى ابن تومرت في بغداد ، وسيضطر الشیخ إلى أن يجيب إجابة مبهمة ، ولكنك لن ينجو من عقابه ، لأن عبد المؤمن كان يريد أن يقرر أمام الناس أنه رأى ابن تومرت بين طلاب الغزالى ، فخالف ابن العربي ظنه .

في بغداد ندب ابن العربي نفسه لمهمة سياسية خدمة للمرابطين ، فكتب خطاباً إلى الخليفة المستظاهر يعدد فيه فضائل يوسف بن تاشفين ويرجوه تأييده ،

(١) يذهب محب الدين الخطيب (مقدمة القواصم من العواصم ، ص ١٦) إلى أن ابن العربي دخل بغداد في خلافة المقتدى ، وقبل خلافة المستظاهر بستين ، وهذا غير ممكن ، لأن المقتدى توفي سنة ٤٨٧ / ١٠٩٣ ومعنى ذلك أن ابن العربي دخل بغداد سنة ٤٨٥ ، وهي السنة التي خرج في ربيع الأول منها من أشبيلية ، وقد وصل إلى مصر قرب نهاية هذا العام ، ثم رحل إلى بيت المقدس وقضى فيه ثلاث سنوات ، ثم انتقل إلى دمشق وقضى فيها وقتاً ، ثم دخل بغداد بعد ذلك ، ولهذا قلنا أنه دخلها حوالي سنة ٤٩٠ ؟ هذا إلى أن أول رسالة كتبها ابن العربي إلى الخليفة المستظاهر مؤرخة في رجب ٤٩٠

(٢) راجع مناقشة التواريني في : Ambrosio Huici Miranda, *Historia política del Imperio Almohade*, Tetuán 1956, p. 27-32.

ونص هذه الرسالة بين أيدينا ، وهو لا يشير إلى أن أحداً كلفه بذلك ، والخطاب مؤرخ في رجب ٤٩٠ / يونيو ١٠٩٧ ثم أخذ كتاباً من محمد بن محمد ابن جهير وزير المستظر إلى يوسف بن تاشفين يمتدحه ويؤيده ويقول فيه : « ولقد بالغ هذا الفقيه وولده (ابن العربي وأبواه) في الثناء على الأمير ، وأطرب في وصف ما يعتمد من لزوم قوانين العدل والإنصاف ومحابية طرق العسف والاعتساف » وهذه العبارة تدل على أن هدف ابن العربي وأبيه من انتداب نفسيهما لهذه المهمة كان التقرب من المرابطين ، والوصول إلى مكانة طيبة في دولتهم .

وقد أورد ابن العربي بعد ذلك في « شواهد الجلة » خطاباً قال إن الغزال حَمَّله إياه في تأييد المرابطين ، والخطاب كما يدل عليه أسلوبه وطريقته لا يشبه الغزال في شيء ، فهو يدعو لل الخليفة المستظاهر بالله دعوة صريحة وهو يستعمل مصطلحًا ديوانيًا ، وهو مسرف في رضاه عن المرابطين ، وأبو حامد كان رجلاً معتملاً متزنًا بعيداً عن ذلك كله . وعندما لقى ابن العربي الطرطوشى في الإسكندرية وهو في طريق العودة إلى الأندلس ، حمل منه خطاباً طويلاً في تأييد المرابطين أتى بنصه أيضاً في نفس الكتاب .

وقد دفع ابن العربي إلى ذلك طموحه إلى الوظائف وتطلعه إلى المكانة في دولة المرابطين ، وقد كان غنيّاً عن ذلك بعame ومكان بيته ، ثم إن السلطان في أندلس ذلك الحين كان قد هان وخلا من كل رونق ، ولكن ابن العربي كان بطبيعة رجلاً طموحاً إلى الواجهة والمكانة بين الناس ، وسيصل بالفعل إلى ما كان يطمع فيه أيام المرابطين ، ولكن سرّكه سيتخرج عندما ينتقل الأسر إلى الموحدين .

ولا يمكن أن يكون ابن العربي قد أطال السماع من أبي حامد الغزالى ، فأن ابن العربي عندما وصل إلى بغداد كان الغزالى قد بارحها واعتزل في دمشق ليؤلف كتاب أحياء علوم الدين ، ثم حجّ وعاد إلى بغداد ، وهنا لقيه ابن

العربي وأخذ عليه ، ثم غادر الغزالى بغداد إلى دمشق ، ثم خرج ساحقاً إلى بيت المقدس ومنها إلى الإسكندرية ، ولهذا ، فإننا نستبعد أن يكون ابن العربي قد لقيه مرة أخرى في صحراء الشام كما ذكر في رحلته .

وبعد أن عاد ابن العربي إلى الأندلس انصرف إلى التدريس والتأليف حتى سنة ١١٣٤ / ٥٢٨ عندما دعاه تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين والى اشبيلية لأبيه على بن يوسف بن تاشفين إلى تولى القضاء ، فتولاه عن جدارة وقدرة شهد له بها كل الناس ، ولكنهم أخذوا عليه اهتمامه الزائد بالوالى وحرصه على لقائه حتى أن أحد السامعين عليه — وهو أبو عبد الله الإشبيلي — انقطع عن حضور دروسه ، وسئل في ذلك فقال : « كان يدرس وبغلته عند الباب ينتظر الركوب إلى السلطان » .

وكان ابن العربي حازماً في قضائه لا يجامل أحداً ، فنفر منه بعض الناس وحملوا عليه ، ثم إنه ندب نفسه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد ابتنى المرابطون وولاتهم بطاقة من صغار الفقهاء كان لهم أسوأ الأثر في سير الأمور في الدولة ، فسعي نفر من هؤلاء بابن العربي عند تashفين بن على بن يوسف ورجاله ، ويبدو أن ابن العربي كان مبغضًا لهؤلاء الفقهاء شديداً عليهم ، ونحن نستنتج ذلك من موقفهم مما تعرض له من إصلاح سور اشبيلية ، فقد خرج عن شيء من ماله ودعا الناس إلى التبرع بجلود الأضاحي لاستخدام ثمنها في ذلك العمل الجليل ، وتمكن بهذا من إصلاح السور . ولكن تصديه لهذا الأمر فتح الباب لنقده والتأليب عليه ، فوثب به نفر من العامة وأرادوا اقتحام داره ، وكان ذلك قبل سنة ٥٣٦ / ١١٤٢ لأنه تكلم عن الحادثة في «العواصم من القواسم الذي ألقه في ذلك التاريخ ، قال بعد أن ذكر مأساة استشهاد الخليفة عثمان (ص ١٣٧ - ١٣٨) «ولقد حكمتُ بين الناس فألزمتهم الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لم يكن يُرى في الأرض منكر ، واشتتد الخطب على أهل الغصب ، وعظم على الفسقة الكرب ، فتألبوا وألبوا ،



وثاروا إلى . فاستسلمت لأمر الله ، وأمرت كل من حولي الا يدفعوا عن داري ، وخرجت على السطوح بنفسى ، فعاثوا على وأمسية سليم الدار ، ولو لا ما سبق من حسن المدار لكونت قتيل الدار » . وقد ثبتت كتب ابن العربي في ذلك الحادث ، ثم صرُفَ عن القضاء وانتقل إلى قرطبة ، وفرغ للتدريس والتأليف .

وعاد ابن العربي بعد ذلك إلى أشبيلية بعد موت على بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٣٧ / ١١٤٣ في الغالب ، ولكنَّه لم يعود إلى القضاء ولم يتول عملاً ما ، وفي هذه الأثناء كان الصراع بين المرابطين والموحدين في المغرب قد وصل إلى ذروته ، وانتهى بمقتل تاشفين بن على بن يوسف قرب وهران في سنة ٥٣٩ / ١١٤٤ ثم الاستيلاء على مراكش وقتل أبي إسحاق ابراهيم بن تاشفين آخر أمراء المرابطين في شوال ٥٤١ / مارس ١١٤٧ .

ولم يكُن الأُمر يستقر للموحدين حتى فكر ابن العربي وطائفة من علماء أشبيلية وشيوخها في الوفود على عبد المؤمن بن على في مراكش لتقديمه ولائهم ، وكانت أشبيلية قد أصبحت في الحقيقة عاصمة الأندلس بعد تضعضع أمر قرطبة نتيجة لفتنة الفترة الأولى من عصر الطوائف ، وقد أورد صاحب « الحلال الملوبيه » بياناً باسماء رؤساء الوفد ، وبمقارنة تواريخ ميلادهم نستنتج أن أبو بكر ابن العربي كان أكبرهم سنًا ، فقد كان إذ ذاك في الرابعة والسبعين من عمره ، وربما كان أكثرهم اهتمامًا باظهار الولاء للموحدين ، فإن علاقته بالمرابطين كانت معروفة للناس أجمعين ، وهذه رسائله في « شواهد الجلة » أكبر دليل على ذلك ، وكذلك كانت علاقته بتاشفين بن على بن يوسف حديث الناس . وربما كان أفضل لهذا الشيخ الجليل لو قعد مكانه وليجر القضاء بما يريد ، ولكن ابن العربي كان كما ذكرنا قلقاً لا يهدأ ، والأغلب أن الذي دفعه إلى تجشم عناء هذه الرحلة هو الخوف من أن تظن الدولة الجديدة به سوء ، فهو يحمل

عبد سنواه ومضى يلتمس الأمان غير عالم أنه كان يمضي بقدميه نحو ما خاف منه ، وسبحان من جعل مصائر الخلق وراء أستار الغيوب .

وصل الوفد الإشبيلي إلى مراكش واستقبله عبد المؤمن بن علي ، وكان أول المتكلمين أبا بكر بن العربي ، ثم أعقبه أبو بكر بن الجد ، وكان بعد شابا ، ثم التفت عبد المؤمن إلى أبي بكر بن العربي وسأله إن كان قد لقي محمد بن تومرت في مجلس الغزالى ، فأخرج الشيخ إذ كان لا بد — إذا أراد السلامة — أن يقول إنه لقيه ، ولو أنه قرر الحقيقة وقال أنه لم يره في مجلس الغزالى ل كانت العافية وخيمة ، وربما أدى الأمر — بعد عقابه — إلى أن يقال إن ابن العربي هو الذى لم يلق الغزالى ولا رآه ، والقول قول السلطان ! فتحليل الشيخ للخلاص وقال : « لم ألقه هناك ولكنى سمعت الناس يتتحدثون عنه ، وكان الشيخ — أى الغزالى — يقول : لا ريب في قرب ظهوره <sup>(١)</sup> » ، ولم تأت الإجابة على وفق ما أراد عبد المؤمن ، فصرف الوفد ولكن لم يأذن له في مغادرة مراكش ، فضلوا هناك تسعة شهور ، ثم أذن لهم في العودة إلى بلدتهم ، وخرجوا عائدين ، فإذا هم على مسيرة يوم من فاس أدركت المنية الشيخ أبا بكر بن العربي ، وينذهب النباهى إلى أنه مات مسموماً <sup>(٢)</sup> ، فحمل إلى فاس ، وووري التراب في ٧ ربیع الأول ٥٤٣ / ٢٧ يوليو ١١٤٨ ودفن خارج باب المحروق بتربة القائد مظفر .

#### كتابات ابن العربي في الرحلات

تلك كانت حياة أبا بكر بن العربي . قراة ٧٥ سنة هجرية حافلة بالدرس والتأليف والرحلات والحوادث والمتاعب ، وقد جرّ هو على نفسه الكثير

(١) الحلل الموشية ، ص ١٢٣ - ١٢٤

(٢) النباهى ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٩٥

منها ، لأنه كان إلى جانب صفاته التي ذكرناها متكلماً جدلاً عنيف القول لا يكاد لسانه يسكت ، وكان منافساً لغيره طامحاً إلى الجاه في زمان مائل وقتن لا تكاد تنقطع ، فكثرت متابعيه وكثير القائدون فيه .

ولكن مثل هذه الحياة تشحذ الذهن وترهف الفهم ، وبالفعل كان أبو بكر بن العربي آية في الذكاء وسرعة الخاطر وحضور البال وسرعة الحفظ ، وقد استوعب في حياته علمًا كثيراً وألف كثيراً وكتب في أسلوب شائق يتراوح بين التصنع إذا سجع والسلسة إذا أرسل نفسه على سجيتهما ، وقد أحصى محب الدين الخطيب مؤلفات ابن العربي ، وأثبتت خمسة وثلاثين كتاباً لم يصل إلينا منها إلا القليل ، ومعظم هذه المؤلفات رسائل صغيرة مثل « شرح حديث جابر في الشفاعة » و « حديث الأفك » و « شرح حديث أم زرع » وبعضها مطول في أجزاء مثل « عارضة الأحوذى في شرح الترمذى » وقد وصل إلينا وطبع في القاهرة ، واعتماداً على ما وصلنا من كتبه نستطيع القول أن الرجل كان غزير المادة في تأليفه ، بدليل ما نجده من فيض المعارف والمعلومات في كتاب صغير مثل « العواسم من القواسم » وهو كتاب في فضائل الصحابة والدفاع عنهم واستبعاد وقوع الخطأ منهم ، (نشره محب الدين الخطيب مع تعليقات ضافية في القاهرة سنة ١٣٧١) . ومن حسن الحظ أن ابن العربي كان من أولئك الذين يميلون إلى الحديث عن أنفسهم ، فلا تكاد تفتح فرصة أثناء الكلام في أي موضوع إلا استطرد إلى الحديث عن نفسه أو عن شيء وقع له ، ويبدو أن الرجل كان مبتلى بالأعداء والخصوم ، فهو في دفاع عن نفسه أبداً ، وكانت كتبه هي وسليته في هذا الدفاع ، ومن المعروف أن نصوص الكثير جداً من كتب شيوخنا القدامى إنما هي روايات تلاميذهم ، كتبوها والشيخ يتلو ويشرح ، فكان التلميذ يتثنون كل شيء — ما في الموضوع وما هو خارج عنه — والكثير مما لدينا من كلام ابن العربي عن نفسه إنما هي استطرادات أثناء الدروس دفعت إليها الرغبة في الدفاع عن النفس ، وأندرجت

بعد ذلك في النصوص وأصبحت جزء منها ، فظفروا بهذا بمعلومات عظيمة القيمة عن الرجل وأحواله .

وسرى مثلاً واحداً من ذاك في خطبة رسالة « شواهد الجلة » التي سنوردها بعد قليل ، بل هذا واضح في خطبة عارضة الأحوذى ، قال : « وفي علم علام الغيوب أن أحرص الناس على أن تكون أوقاتي كلها مستغرقة في باب العلم ، إلا أنني مُنيت بمحَسدة لا ينتظرون<sup>(١)</sup> ومبتدعة لا يفهمون ، قد قعدوا مني مزاج الكلب يتصبصون ، والله أعلم بما يتربصون » قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسينين ، ونحن نترصد بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فترقصوا إنا معكم متربصون » ييد أن الامتناع عن التصریح بفوائد الملة والتبرع بفوائد الرحلة لعدم المنصف أو مخافة المتعسف ليس من شأن العالمين . . . »<sup>(٢)</sup> .

#### كتاب ترتيب الرحلة للترغيب في الملة

لم نعثر إلى الآن على هذا الكتاب ، وما لدينا منه نقول في كتب سنشير إليها ، ولكننا وجدنا إشارة طيبة إليه في خطبة « شواهد الجلة » تعطينا فكرة عن ذلك الكتاب وما فيه . قال ابن العربي بعد ديباجة قصيرة : « أما بعد فإن الداخل في طلب العلم كثير ، والسعيد قليل ، وعدم الإنفاق خطب جليل ، وكم من حاضر بعَرَفةَ من غير معرفة ، ونازل بمني وما نال مُنِي<sup>(٣)</sup> ، وكم من قارئ في بغداد ، خرج وما قرئ بزاد ، فالشجر يوجد والثمر يعد ،

(١) في الأصل المطبوع : لا يفتقرون ، ولا معنى له هنا ، وأرجح أن الصحيح ما أتبته .

(٢) عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى لابن العربي ، القاهرة ١٩٣١ ، ١/٣ .

(٣) إذا لاحظنا أن ابن العربي لم يؤود فريضة الحج — كما يستنتج من المعلومات التي لدينا إلى الآن — فهمنا هذه العبارة على أنها تعريض بمن حجوا ولم يستفيدوا من حجتهم .

والأجسام تفنى والأرواح تتقدم ، والقشر عام واللب خاص . وقد شاهدت من طلبة العلم بأفريقيا ومصر والشام والساحل وال العراق والخجاز ما لا يأتي عليه الأحصاء ، ولا يُنال بالاستقصاء ، جميعهم يأمل الغاية وما حصل عليها ، ويقصد النهاية وما انتهى إليها ، وخلع ثياب الوطن ، واستظره على الغربة واستوطنه ، يجتهد بزعمه وهو لا يعلم كيف ولا أين ، ويرجع بعد طول الغيب بمحنة حنين ، ومنهم من يأخذ العلم بدبيب ، ويقنع منه بأدنى نصيب ، فيعود بباع قصير ونظار غير بصير إن رمى عنه فغایته الأعمش ، أو بحث فليله ليل أعمى وأعطش ، ومنهم من يعتمد من العلوم فناً ، ويرى غيره دوناً<sup>(١)</sup> ، فلا عليه حصل ، ولا به حفل ، ومنهم من يدخلها عائراً لا يتنعش ، وأملس لا ينتقش<sup>(٢)</sup> ، ومنهم من يدخلها ملح بارق ، وقبس طارق ، ومجالة راكب أولى خطى برقة وخد نفسيه وقربه عجائبه<sup>(٣)</sup> . ولما سبق خير القضاة برحلتي إلى تلك المشاهد الكريمة ، وحلوا في تلك المقامات العظيمة ، دخلتها والعمر في عنفوانه ، والغضن مائس بأفاناته ، والكتاب مختوم بعنوانه ، ومعي صارم لا أخاف نبوته ، وحصان لا أنوقي كبوته ، أب في الرتبة وأخ في الصحبة ، يسند ويعين ، ويسقى من النصيحة بماء معين ، وزوى الله بفضله عن قلبي كل بطالة ، وكشح عن فؤادي كل إهالة ، فبنيت من كل شجرة زهرة ، ووعيت من كل صنف درره ، وكشفت عن كل خفاء غوره ، وافتقرت من كل فقرة ، حسباً فسرته وأوضحته ، وشرحته وبينته ، وقررته وزَّلتَه ، في كتاب « ترتيب الرحلة للترغيب في الملة » ، وذكرت فيه لقاء الأعيان لنا ، وسيَرَ الفضلاء معنا ، ولحظهم جانينا بناظر التعظيم ، ومقابلتهم

(١) الأصل دهرنا ، وقد صوبناه . (٢) كذلك في الأصل ، والعباره قلقه .

(٣) ورد نص رسالة « مشاهد الجلة » ضمن مخطوط صوره الدكتور محمود على مكي من مكتبة القرويين في فاس ، واستخرج معهد الدراسات الاسلامية في مدريد منه نسخة لمكتبه ، وهذا المخطوط هو الذي أخذ منه الأستاذ ليق بروفنسال نسـ كتاب مفاخر البربر ، ويدأ نص « مشاهد الجلة » فيه من ص ١١٣ ب وينتهي في ص ١٤٩ ب ، والقطع التي أوردنها في ص ١١٣ ا و ب . ويقوم الدكتوران مكي والعبادي بإعداد هذا المخطوط للنشر الآن .

ورودنا بالتجليل والتكرير ، ووعدنا لهم على غاية الرضى والتسليم ، وانقلابنا عنهم بصفة المرتضى ، واتبعناهم جملاً من طرائفهم وتتفاً من فوائدهم ، مما تتأرجج به اصائل الأيام ، ويحلو نوره ديجور الظلام ، وكان ذلك أمراً يطول النظر فيه ، ويدخل الشادى بخواقه عن مباديه ، فاستخرت الله تعالى على تجريد هذه الأوراق ، بشواهد الجلة والأعيان ، في مشاهد الإسلام والبلدان<sup>(١)</sup> لنا بجزية التعظيم والتوقير ، وتسجيلهم لنا بتحصيل العلوم على غاية التوفير ، حتى يظهر البوون ، ويتبين أن الله تعالى يختص من يشاء بالعون ، ويتحقق الحسود الناقص المتقصى لما حولى ، ليغضض بزعمه مني ، أنه فاسد الفطرة خاسر الصفة مقبح الوجه مستحق النجّه ، وجعلته مراتب على حسب الوقت الذى حصل فيه كل نوع منه » .

وإذن « فكتاب ترتيب الرحلة للترغيب في الله » رسالة كتبها ابن العربي لغرض معين ، وهو الحديث عن رحاته المشرقية وما درس فيها وما أفاده من هذا الدرس ومن لقى من العلماء والأعيان .

و واضح أن دافعه الأول إلى كتابة كتابه هذا هو الدفاع عن نفسه ضد خصومه الكثرين وإظهار امتيازه على غيره من درس في المشرق وبيان ما حصله من العلوم في المدة القصيرة ، ثم تفصيل ما قام به من مجهودات إيجابية للربط بين الخلافة العباسية ودولة المرابطين ، وذلك هو ما أشار إليه ابن خلدون عندما قال إن يوسف بن تاشفين بعث « عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبا بكر ، فلطفوا في القول وأحسنا في الإبلاغ ، وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس ، فعقد له ، وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك منقولاً بأيدي الناس ، وانقلباً إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من

(١) هذه هي العبارة التي اقتبسناها عنواناً لهذه الرسالة ، وهي ليست عنوانها على الحقيقة ، وإنما فعلنا ذلك تيسيراً للإشارة إليها .

الأقطار والأقاليم ، وخطابه الإمام الغزالى والقاضى أبو بكر الطرطوشى بمحضانه على العدل والمسك بالجد ، ويقتبشه فى شأن ملوك الطوائف بحكم الله<sup>(١)</sup> . ولم يقرأ ابن خلدون كتاب «ترتيب الرحلة» ، قراءة إمعان ، لأنه لو كان فعل ذلك لرأى بوضوح أن يوسف بن تاشفين لم يبعث عبد الله بن العربي (الأب) وابنه أبا بكر ليخاطب الخليفة العباسى فى أمر توليته على المغرب والأندلس ، وهذا هو المعقول ، لأن عبد الله العربى (الأب) لم يكن كبير فقهاء الأندلس أو أشبئيلية فى ذلك الحين ، بل لم يكن من كبارهم ، إذ كان هناك كثيرون يفوقونه مكانة وعلماً ، فكانوا لهذا أولى منه بأن ينذبوا لهذه المهمة إذا كان ولا بد أن ينذب لها فقيه ، وأما ابنه فكان فى السابعة عشرة من عمره ، وهى سن لا تؤهل صاحبها لمثل هذه السفاراة ، ثم إن يوسف بن تاشفين لم يكتب إلى الخليفة العباسى طالباً التولية على المغرب والأندلس ، وإنما الذى كتب هو ابنه على بن يوسف كاً هو واضح من رسالة من الخليفة المستظاهر العباسى ، سبق أن نشرناها<sup>(٢)</sup> ويصدق ذلك أيضاً على ما ذهب إليه ابن خلدون من أن الغزالى والطرطوشى افتيا يوسف بن تاشفين فى أمر ملوك الطوائف ، فهما فى الحقيقة لم يفتيا بشئ فى هذا الشأن ، وهذا خطأهما — إذا صحا — فى «شواهد الجلة» يؤيدان ما نقول تأييداً صريحاً .

الحقيقة إذن أن عبد الله العربى وابنه نديباً نفسيهما لهذا العمل تبرعاً ورغبة فى اكتساب المكانة لدى المرابطين وسرى مصاديق أخرى لذلك فى سياق ما يلى من الكلام .

والقطع الذى لدينا من «ترتيب الرحلة» قليلة ، ولكن هذا القليل يدل على تيقظ والتفات وملاحظة ، ومن أسف أن الكثير من النقول التى لدينا لا تعين

(١) ابن خلدون ، العبر ، ٦/١٨٨

(٢) انظر مقالنا «سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم فى الأندلس» صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٢ عدد ١—٢ ص ٥٥ وما يليها ، ووثيقة المستظاهر واردة فى ص ٦٦-٦٨

مصدر النقل ، ولكن الفقرة التالية التي رواها المقرى في فتح الطيب (٢٤٢/٢) — (٢٤٣) منقولة عن «ترتيب الرحلة» (نقلها بشيء من الاختصار ابن العربي نفسه ، كما يرى في آخرها) وربما يكون المقرى أخذها من «قانون التأويل» : «وشاهدت المائدة بطور زيتاً مواراً ، وأكلت عليها ليلاً ونهاراً ، وذكرت الله فيها سراً وجهاراً ، وكان ارتفاعها أشفَّ من القامة بفتح الشبر ، وكان لها درجان قبلي وجنوبي ، وكانت صخرة صلوداً لا تؤثر فيها المعاول ، وكان الناس يقولون : مُسخَّت صخرة إذ مُسخَّ أربابها قردة وخفافيز ، والذى عندي أنها صخرة في الأصل ، قطعت من الأرض حَمَلاً للمائدة النازلة من السماء ، وكل ما حولها حجارة مثلها ، وكان ما حولها محفوفاً بقصور ، وقد نحتت في ذلك الحجر الصلد بيوتُ أبوابها منها ومجالسها منها ، مقطوعة فيها ، وحنيناها من جوانبها ، وبيوتٍ خدمتها قد صورت من الحجر كَا تصور من الطين والخشب ، فإذا دخلت في قصر من قصورها ورَدَّت الباب ، وجعلت من ورائه صخرةً مقدار ثُمن درهم لم يفتحه أهل الأرض للصوقة بالأرض ، وإذا هبَّت الريح وحَثَت تحته التراب لم يُفتح إلا بعد صب الماء تحته والأكثار منه حتى يسيل بالتراب وينفرج منفرج الباب ، وقد بار بها قومٌ بهذه العلة ، وقد كنت أخلو فيها كثيراً للدرس ، ولكنني كنت في كل حين أكنس حول الباب ، مخافةً مما جرى لغيري فيها ، وقد شرحت أمرها في كتاب ترتيب الرحلة باكثير من هذا» .

وطور زَيْتاً هذا (ياقوت ٦٨/٦) «جبل مشرف على المسجد (مسجد القدس) وفيها ينبعها وادي جهنم» وهو إذن ليس وادى موسى كما ظن محب الدين بن الخطيب . ويسمى أيضاً بجبل الزيتون وهى الترجمة العربية لطور زيتاً، وعلى رأسه مسجد بُنى ذكرى لمقام عمر بن الخطاب فى هذه البقعة عدة أيام ، وبين الجبل ومسجد القدس يمتد واد فيه حدائق وكروم وغيران للرهبان وكنيسة

بنيت على قبر السيدة مريم ، وفيه كذلك بناء قديم يسمى قبر أبْسَلُوم يسميه العامة طَنْطُور أو بيت فرعون ، وقد وصفه ناصرى خسرو بتفصيل<sup>(١)</sup> . وأغلب الظن أن ابن العربي خلط بينه وبين وادى موسى ، فإن الوصف الذى يذكره ينطبق أكثر على هذا الأخير .

والقطعة التالية أيضاً من «ترتيب الرحلة» ، رواها المقرى في النفح (٢) ٢٣٩ قال : «منها ، أنه حكى دخوله بدمشق بعض بيوت الأكابر وأنه رأى فيه النهر جارياً إلى موضع جلوسهم ، ثم يعود إلى ناحية أخرى ، فلم أفهم معنى ذلك حتى جاءت موائد الطعام في النهر المقابل إلينا ، فأخذها الخدم ووضعوها بين أيدينا ، فلما فرغنا ألقى الخدم الأواني وما معها في النهر الراجم ، فذهب بها الماء إلى ناحية الحرير من غير أن يقرب الخدم هذه الناحية ، فعلمت السر ، وإن هذا لعجب ، انتهى بمعناه» وهو عجيب حقاً ، أن يبلغ الحرص على ستر الحرير والتغافل في الحيلة بين الرجال ورؤيتهن إلى هذا المبلغ .

ولكن معظم مادة ابن العربي في «ترتيب الرحلة» تدور على الشيوخ وما دار بينه وبينهم وطرائف ما سمع منهم ، وهو هنا بعيد عن التواضع كما رأينا في خطبة «شواهد الجلة» ، وقد ذكر المقرى أنه نقل عنه أنه قال : كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به أنا والقاضى أبو الوليد البابى ، أو كلاماً بهذا معناه ، أو قال : لم يرحل غيرى وغير البابى ، وأما غيرنا فقد تعب ، أو نحو هذا مما لم تحضرنى عبارته الآن<sup>(٢)</sup> ، ولا ندرى لماذا اختص أبا الوليد البابى وحده بهذا التكريم ، مع أن الذين رحلوا إلى المشرق قبله وقبل ابن العربي وأتوا بأكثر مما أتيا به كثيرون جداً ، ولكنه كان بطبعه رجلاً حديد اللسان

Guy Le Strange, *Palestine under the Moslems*, (1890) 218-220 (١)

(٢) أزهار الريان للقرى ، ٦٣/٣

قاسياً على غيره بقدر ما كان رفيقاً بنفسه ، مغالياً في تقدير نفسه بقدر ما كان مسراً في غمط اقدار الآخرين ، فكانت المسافة إلى الغير تصدر عنه فيضَ الخاطر وعفوَ اللسان والقلم دون أن يقدر موقعها وما تسببها للغير من آلمَ ، وهذا يفسر لنا سببَ كثرة خصومه وحرصهم على أذاه ، وفي هذه العبارة الماضية مثل واضح لذلك ، فقد أهان المئات من الشيوخ وأهل الفضل اسوأ اهانة بحرة قلم ، وهل هناك آلم من قوله « لم يرحل غيري وغير الباجي ، وأما غيرنا فقد تعجب »؟ .

وملاحظاته في رحلته لا تقتصر على ذكر الشيوخ وما سمع منهم ، بل فيها طرائف لغوية وفقهية وأشياء أشبه بالنوادر ، فمن الطراز الأول قوله : « سمعت الشيخ خير الإسلام أبا بكر الشاشي ، وهو ينتصر لمذهب أبي حنيفة في مجلس النظر ، يقول : يقال في اللغة العربية لا تقرب كذا — بفتح الراء — أى لا تتلبس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء كان معناه لا تدْنُ من الموضوع»<sup>(١)</sup> ومن النوع الثاني قوله : « سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء بن عقيل يقول : إنما تَبِعَ الولدُ الأمَّ في المالية وصار بحكمها في الرق والحرية ، لأنَّه انفصل عن الأَب نطفة لا قيمة له ولا مالية فيه ، ولا منفعة مبتوطة عليه ، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها ، فلذلك تبعها ، كما لو أكلَ رجل تمراً في أرضِ رجل ، وسقطت منه نواة في الأَكل ، فصارت نخلة ، فإنها مِلك صاحب الأرض دون الأَكل باتفاقِ الأمة ، لأنَّها انفصلت عن الأَكل ولا قيمة لها ، وهذه من البدائِع»<sup>(٢)</sup> ، ومن النوع الثالث قوله : « وكان يقرأ معنا برباطِ أبي سعيد على الإمام دانشمند (يريد الغزالى) من بلاد المغرب حتى ليس له حية وله ثديان وعنده جارية ، فربَّك أعلم به ، ومع طول

(١) نفح الطيب ، المقرى ، ٢٤٣/٢

(٢) نفح الطيب ، المقرى ، ٢٤٨/٢

الصحبة عقلني الحياة عن سؤاله ، وبودي لو كاشفته عن حاله »<sup>(١)</sup> . ومن هذا النوع أيضاً قوله : أخبرنى المهرة من السحرة بأرض بابل أنه من كتب آخر آية من كل سورة ويعلقها لم يبلغ إليه سحرنا ، قال : هكذا قالوا ، والله تعالى أعلم بما نقلوه »<sup>(٢)</sup> .

و واضح أن مثل هذا الكتاب لا يمكن أن ينال رضى شيوخ عصر ابن العربي ، بسبب ما فيه من زهو وتفاخر أولاً ، وبسبب ما قرره فيه من نشاطه السياسي وتدخله مع رجال الدولة في بغداد وسعيه إليهم ، ثم بسبب هذه الحكايات والتواتر التي ترد فيه ، قال معاصره القاضى أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي : « ولکثرة حديثه وأخباره وغريب حكاياته وروایاته أكثر الناس فيه الكلام ، وطعنوا في حديثه »<sup>(٣)</sup> . ولكن كل ذلك لا يقلل من أهمية كتاب « ترتیب الرحلة » فهو أول وصف رحلة يكتبها أندلسى ، ومعنى هذا أن أبو بكر بن العربي هو مبتكر هذا الفن في الأندلس ، فعم إن أبا حامد الغرناطي كتب شيئاً قريباً من هذا ، ولكنه لم يصف رحلته ، ولم يُعَيِّن مراحلها أو « مراتبها » بحسب مصطلح ابن العربي في كتابه . لقد تعود الناس قبل ابن العربي أن يكتبوا « برامج » شيوخهم ، أى يذكرون أسماء من لقوا من الشيوخ وأخذوا عنهم وما أخذوه عن كل منهم ، ولكن هذه البرامج خالية من الوصف واللاحظة أو النظر إلى أى شيء خلا الشیوخ والكتب والروايات ، أما أبو بكر بن العربي فقد كتب رحلة حقاً ، ووصف مراحلها ومن لقى في كل مرحلة ، نعم إنه لم يصل في ذلك إلى شاؤ ابن جبير ، ولكنه دون شك السابقة التي سيحتذى بها أمثال ابن رشيد والعبدري .

(١) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤٩

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٥٠

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٣٦

## كتاب قانون التأويل

المعروف أن هذا الكتاب في التفسير ، وربما كان ذلك صحيحًا ، لأن ابن العربي كتب في الحديث وشرحه كثيراً ، وكان لابد أن يكتب شيئاً مطولاً في التفسير . وربما كان هذا الكتاب مكلاً لكتابه «أحكام القرآن» .

والذى يهمنا من هذا الكتاب تلك الملاحظات ذات الطابع الوصفي أو الجغرافي التي نقلها عنه من أتوا بعده ، وهذه الملاحظات كثيرة ، وبعضها فقرات طويلة تصف شيئاً مما حدث له في الرحلة . ويلاحظ أن كل الفقرات التي لدينا مقتبسة من هذا الكتاب مصوغة في قالب السجع من الطراز الذى رأيناه في خطبة «شواهد الجلة» ولهذا غالب على ظننا أن هذه الفقرات مقتبسة من خطبة «قانون التأويل» لأن خطب الكتب – وإن كانت تفسيراً – تجرى في قالب السجع ، أما التفسير نفسه فلا يمكن أن يكون سجعاً ، ومن المستبعد أن يكون ابن العربي مسترسلام في شرح آية في نثر مرسل ، ثم يقطع الكلام ليقص شيئاً في سجعات .

والغالب أن أبا بكر بن العربي جمل مقدمة «قانون التأويل» وسيلة ليقص أطرافاً من رحلته ويلذكر بعض من لقى من الشيوخ وما سمع منهم تدليلاً على سعة عالمه واصالة مصادره . وأهم فقرة بقية لدينا من ذلك الكتاب هي تلك التي يذكر فيها غرق سفينته بعد أن ركب البحر من الهندية في طريقه إلى الاسكندرية ونجاته (مع أبيه) ونزوله في مكان من شاطئ طرابلس تنزل به بطون من كعب بن سليم ، والقطعة طويلة رواها المقرى في أزهار الرياض (٩١/٨٩ - ٢٣٧/٢) وفتح الطيب (٢٣٩) وابن غازى في «التكامل» والرهونى في «حاشيته على رسالة خليل» والشيخ مخلوف في «شجرة النور الزكية» (١/١٣٧) ومحب الدين الخطيب في مقدمة «العواصم من القواسم»

(١١-١٢) ، ولهذا فسنجزى منها بقطع يسيرة . قال : « وقد سبق في علم الله تعالى أن يعظم علينا البحر بزوله ، ويفرقنا في هوله ، فخرجنا من البحر خروج الميت من القبر ، وانتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بنى كعب بن سليم ، ونحن من السغرب على عطبه ، ومن العرى في أقبح ذي ، قد قذف البحر رقاد زيت مزقت الحجارة هيأتها<sup>(١)</sup> ، ودسمت الأدهان وبرها وجلدتها ، فاحترمناها أزرًا ، واستعملناها لفافًا ، تمجّنا الأبصر ، وتحذلنا الأنصار ، فعطف أميرهم علينا ، فأوينا إليه فآوانا ، وأطعمنا الله على يديه وسكنانا ... » ثم يصف بعد ذلك كيف أنه اقترب في هذا الذي من أمير بنى سليم هؤلاء ، فوجده يلعب بأعواد الشاه (الشطرنج) مع صاحب له ، فبشر منه ما أفهم القوم أنه يفهم هذه اللعبة ، ثم ما زال يشير على الأمير بما يفعل حتى فاز على صاحبه « فقالوا : ما أنت بغير ! » ، ومن الطريق أنه يصف نفسه في أثناء ذلك بقوله : « إذ كنت من الصغر في حد لا يُسمح فيه للأئمار ... » ولا ندرى كيف يكون هذا وقد كان إذ ذاك في الثامنة عشرة من عمره .

ثم يصف بعد ذلك كيف شرح للأمير معنى كلمة « رب » في بيت للنبي ، فأعجب به إعجاباً عظيمًا : « وأقبلوا يتعجبون مني ، ويسألونني كم سني ، ويستكشفونني عن سري ، فبقرت لهم حديثي ، وذكرت لهم نجيشي .. » وختم الحكاية بقوله : « فانظر إلى هذا العلم الذي هو إلى الجهل أقرب ، مع تلك الصيابة اليسيرة من الأدب ، كيف اتقى من العطبه ! وهذا الذكر يرشدكم إن عقلتم إلى المطلب .. » .

والقصة كلها مبالغ فيها ، إذ كيف استطاع هو وأبوه أن يواصلوا الرحلة إذا كان كل ما معهم قد غرق وضعف حتى خرجو من البحر في حال « من العرى في

(١) كذا في طبعة ليدن ، وقدقرأها محى الدين عبد الحميد « منيغتها وقال في المامش أن المنشطة المجلد أول عهده بالدجاج .

أصبح زى » ؟ ثم كيف يكون لشيخ بنى سليم « بياذقة » وحراس ؟ وكيف يكون من الترف بحيث يرسل إلهم « كل خوان بأفنان وألوان » ؟ ومن ملاحظاته في هذا الكتاب وصفه للقائه للغزالى ، قال : « ورد علينا دانشمند (يريد الغزالى) فنزل برباط ابن سعد بأزاء المدرسة النظامية ، معروضاً عن الدنيا ، مقبلاً على الله تعالى ، فمشينا إليه ، وعرضنا أمنيتنا عليه ، وقلت له : أنت ضالتنا التي ننشد ، وإمامنا الذي به نسترشد ، فلقينا لقاء المعرفة ، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة...<sup>(١)</sup> » ، وقد وصف في فقرة أخرى لقاء ثانياً للغزالى ، قال : « رأيت الغزالى في البرية ، وبيه عكاز ، وعليه مرقة وعلى عاتقه رکوه ، وقد كنت رأيته في بغداد يحضر درسه أربعينات عمامة من أكبر الناس وأفاضلهم ، يأخذون عنه العلم ، فدنوت منه وسلمت عليه ، وقلت له : يا إمام ، أليس تدرس العلم ببغداد أحسن من هذا ؟ فنظر إلى شزاراً وقال : لما طمع بدر السعادة في ذلك الارادة (أو قال : في سماء الارادة) وجئّحت شمس الوصول في مغارب الأصول :

تركتُ هوى لَيْلَى وسُعَدَى  
ونادت بيَ الأشواق مَهْلَأً فهذه  
غزلتُ لهم غرلاً رقيقاً ، فلم أجده لغزالى نسجاً ، فكسرت مغزلى<sup>(٢)</sup>

وهذا الخبر بادى الصنعة ، فهذه صورة للغزالى لا يعرفها أحد من يعرفونه حق المعرفة ، ولكن ابن العربي كان صاحب أخبار وحكايات وروايات غريبة كما قال أبو الفضل عياض اليحصبي ، ولم يكن هو الآخر بخير منه في هذا المجال ، وفي « ترتيب المدارك » ما هو أغرب مما ابتكره ابن العربي في فاتحة « قانون التأويل » .

(١) المقرى ، أزهار الرياض ، ٩١/٣

(٢) ابن المجاد ، شذرات الذهب : ١٣/٤

ومها يكن الأمر فإننا لا نستطيع إصدار حكم نهائي على كتابات ابن العربي في الرحلات معتمدين على هذه القطع القليلة منها ، والهم لدinya — وهو ما يعني هنا — أن الرجل في حماسه للدفاع عن نفسه وإعلاء شأنه بدأ في تاريخ الفكر الأندلسي شيئاً جديداً ، وهو أدب الرحلات ، وسيعقبه في هذا الطريق من بعده كثيرون سيصل واحد منهم وهو ابن جبير إلى أن يكتب أجمل وأصدق وصف رحلة في تراث الفكر الأندلسي كلها .

\* \* \*

هؤلاء هم أهم معاصرى الإدريسي من أهل الأندلس من كتب فى الجغرافية أو خاف شيئاً يدخل فى بابها . سار بعضهم على الدرب القديم قبله ، وانحدر بعضهم بالعلم الجغرافي إلى مستوى القصص وأحاديث الخراقة ، وادخل بعضهم الآخر فى الفكر الأندلسي شيئاً مبتكرأ ، واشتراكوا جميعاً فى شيء واحد : هو أنهم واصلوا تقليد الاهتمام بالجغرافية والكتابة فيها ، وهذا فى ذاته شيء جدير بالذكر والتقدير . ولم يكن من المنتظر أن يتأثر نفر منهم بالإدريسي ، فقد كان معاصرأ لهم يكتب فى بلد خارج عن دار الإسلام ، وإن تذيع كتبه بين المسلمين إلا بعد أجيال ، لأن الكتب التي كانت تروج لوقتها فى تلك العصور كانت كتب علوم الدين والفقه والأدب ، أما الجغرافية وما إليها ، فكانت هوایات لا يعني بنقل كتبها إلا أصحابها ، وما كان أقلمهم ! هذا إلى أن دنيا الأندلس كانت قد مالت وتواتت عليه المحن ، وإنه لمن الغريب بعد ذلك كله أن يظل فيه من يعني بالعلم ، فضلاً عن الجغرافية وما إليها .

## بعد الإدريسي

المجراهية وتطور التاريخ العالمي

من الظواهر التي تستوقف النظر في تاريخ العلم الجغرافي في العالم العربي كله أنه يضم — إلى جانب الثروة العلمية الحافلة — حشدًا عظيمًا من الشخصيات الطريفة التي تستثير بخصائصها الذاتية اعجابَ الدارس — وعجبَه — حتى على فرض أن أصحابها لم يضيفوا ما قدر لهم أن يضيفوه من صفحات زاهدة إلى سجل العلم الانساني . ففيما يتصل بتاريخ الجغرافية في المشرق لدينا سلسلة ممتعة من الرجال سيرَهم أقرب إلى أحاديث المغامرات ، والقارئ ولا شك يذكر — على سبيل المثال — مغامرات أبي الحسن على المسعودي ومجازفات أبي القاسم ابن حوقل النصيبي وأقاصيص أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي البشاري وما تضمه تواريُخ حياتهم من قصص طريف ممتع جدير بأن يقرأ لذاته ، وليس لدينا ما يدعو للتشكك في صحة ما رواه أولئك الناس عن أنفسهم كما فعل معهم ابن حوقل والمقدسي في خطبتي كتابيهما ، وكما يحاول بعض المحدثين التشكيك في بعض رحلات الإدريسي أو بعض فقرات رحلة ابن بطوطة ؛ ونعتقد أنه من المستبعد أن يدعى رجل القيام برحلات لم يقم بها ، لأن الرحلة في ذاتها لم تكن من مواضع الفخر في تلك العصور اللهم إلا إذا كانت رحلة حج أو رحلة لقاء شيخ وسماع منهم ، أما ادعاء دخول البلدان وركوب المخاطر والمجازفة بالنفس في سبيل رؤية غريب أو عجيب ، فلم يكن يعلى قدر الرجل أو يضيف إلى احترامه ، ومن هنا فلم يكن هناك ما يدعو إلى تجسُّم الكذب فيه . وأما ما يوجهه بعض أولئك القدائِ إلى بعضهم الآخر

من نقد جارح في بعض الأحيان فرجعه إلى أنهم عاشوا وعملوا في أيام ظالمة وظروف غير رحيمة جعلت العنف وطول الأظافر أدوات لازمة للنجاة من الملائكة أو الفقر والخمول في معركة البقاء ، وقد انقضت تلك العصور ، وذهب هؤلاء وأولئك مع أمس الدابر ، ونحن حريون بأن نأخذ الرجل منهم بكلامه ما لم يقم على عدم تحريره الصدق دليلاً مقبولاً .

وفي العصر الذي نورخ فيه الجغرافية الأندلسية في هذه السطور ، وهو عصر ما بعد الشريف الإدريسي ، من منتصف القرن السادس إلى منتصف السابع الهجريين (منتصف الثاني عشر إلى منتصف الثالث عشر الميلاديين) نرى مثلاً حياً من أمثلة حياة الرحلة المتصلة وتواتر الأسفار والتعرض للملائكة في سيرة أمير جغرافيٍّ المشرق الإسلامي على الاطلاق وهو ياقوت الحموي الذي عاصر ، ضمن ما عاصر ، زحف التتار المخرب على عالم الإسلام واقتراهم رويداً رويداً من سرو التي كان يعمل فيها عندما توالت الأنبياء بزحف التيار التترى المخرب نحو الغرب ، فمضى يقطع الأرض أمامهم ناجياً بنفسه من الخطر حتى دخل الموصل خالي الوفاض ، لا كتب ولا مال ولا أوراق ، ثم ساعفتة المقادير فعاد إليه الأمان في ظل الوزير ابن القسطنطين في حلب ، وهناك استقر وكتب معجمه الجغرافي الخالد ، وهو ديوان الجغرافية العربية الأكبر وكنزها الذي يمثل صرحاً من صروح العبرية العالمية البشرية في كل العصور .

ولم نفتقد ظاهرة الطرافة في الشخصية أو سيرة الحياة عند أحد من صرنا بهم من أعلام الجغرافية الأندلسية إلى الآن ، فقد رأينا — مثلاً — قاسماً بن أصبح البياني الفقيه المحدث يترك الفقه ردحاً من الزمن ليعمل في شيء كان في ذلك حين أبعد ما يكون عن ولادة الفقهاء ، وهو الاشتراك مع مواطنه المسيحي حفص بن أبى البر في ترجمة كتاب هروشيش من اللاتينية إلى العربية ، ورأينا أبا عبد البكرى يخرج من موطنـه جزيرة شلطيـش هارباً مع أبيه إلى إشبيلـية ، ثم يتنقلـ في الأندلسـ من غربـ إلى شرقـ حيث يلتـقى بالـعذرـى في المـرـية

ويأخذ عنه ، ويستقر أخيراً في اشبيلية ويفرغ للتأليف في الجغرافية ؛ ورأينا الشريف الإدريسي وما في حياته من محب خارج عن المأثور ، وأبا حامد الغرناطي الذي أشبهه — بما طُوف ورأى وتعرض له — أن يكون سندباد بحر وبر معًا ، ثم أبا بكر بن العربي وما ملأ نفسه من قلق وطموح ؛ وهذه مجرد أمثلة تخدونا إلى القول بأنّ الجغرافيَّ في تلك العصور كان لا بد أن يكون مغامراً جريِّ القلب خفيف الحركة طُعنة يحفزه إلى طلب المعرفة شوق إلى المجهول لا يأنّ له في ركون أو استقرار ، وإذا كانت الرحلة في قافلة محروسة وعلى درب مطروق مغامراً في تلك الأعصر ، فما بالك برحلة الرجل وحيداً أو مع دليل لا تؤمن غدراته ؟ ثم كيف يكون الإنسان جغرافيًّا في تلك العصور إلا إذا أقدم على ذلك المرة بعد المرة ؟ إذ لم تكن هناك كتب وافية بالغرض في هذا الباب ، وكان لا بد للراغب في الاتيان فيه بتجديد من أن يترك أمان بيته إلى مخاوف الدروب والطريقات ومعاطب ركوب البحار على سفن يصدق عليها قوله : الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود . وإذا كان الدافع إلى طلب العلم هو ذلك القلق المبارك الذي يدفع الإنسان إلى أن يعلم ويعرف ويستكشف ، فأنتا مع جغرافيينا أمام ناس هم نماذج لهذا القلق الخيرِ الكشاف ومع طلائع في ركب الإنسانية في سيرها الآبد في مخاطر المجهول . ولم نورد هذا المثل هنا لجرد اتصال السياق ، بل لأنّه يعبر أصدق تعبير عن شعور أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبيه الكناني صاحب الرحلة المشهورة التي ننتقل إلى دراستها الآن ، فهو القائل :

البحرُ مُرُّ المذاقِ صعبٌ      لا جُعلَت حاجتي إليه  
أليس ماءٌ ونحوه طين؟      فما عسى صبرُنا عليه؟<sup>(١)</sup>

(١) رحلة ابن جبيه بتحقيق الدكتور حسين نصار (القاهرة ١٩٥٥) ص ٣٠٦ ، وهي طبعة جيدة اعتمد فيها على طبعة ولیام رایت (لندن ١٨٥٢) التي اعاد طبعها مصححة متفقة دى خواية سنة ١٩٠٧ وقد حقق حسين نصار بعض قطع الرحلة على نقول منها في عدد كبير من الكتب أورد بيانها في صفحة ز من مقدمته .

وقد قال ابن جبیر هذین الیتین — وها من ألطف ما وصل إلينا من شعره — في سياق وصفه الممتع لرحلته بالبحر الحافلة بالمتاعب والمخاطر والآلام من عكا إلى صقلية في طريقه إلى الأندلس ، وهو وصف يصور لنا دون مبالغة ما كان الناس يكابدوه إذ ذاك من الأهوال في ركوب البحار حتى على الطرق البحريّة المأهولة إذ ذاك كطرق البحر الأبيض .

وكلام ابن جبیر عن أهوال ركوب البحار وتربيص الموت للسفن في كل لحظة يكشف لنا عن حقيقة لا بد لنا من تناولها قبل الفراغ لهذا الرحالة المبدع ومن عاصره أو أتى بعده من اشتغل بالجغرافية والرحلات من الأندلسيين .

ذلك أن ما وصل إليه الإدريسي والبيروني وأبو حامد الغرناطي ومن سبقهم من العلم بالأرض وما عليها ومن عليها هو أقصى ما كان يستطيع الوصول إليه بوسائل الرحلات وآلات قياس الأبعاد والارتفاعات وتحديد الأوقات ومعرفة الاتجاهات التي عرفها الناس إلى ذلك الحين ، ولكن يصل الناس إلى معلومات جغرافية أكثر أو أحسن أو أدق كان لا بد من وسائل وأدوات أحسن وأدق مما كان لديهم ، فإن مراكب تلك العصور لم تكن تستطيع عبور البحار إلا على الأخطار التي وصفها ابن جبیر في رحلته الصغيرة نسبياً والتي سبقه إلى وصفها على نطاق أوسع أبو الحسن على المسعودي ، فقد كانت سفننا صغاراً غير متقدمة الصنع يتسرّب داخلها الماء باستمرار ، ولا تستطيع أن تقطع في أمان إلا رحلة الأسبوع أو نحوه في بحر ساكن كصفحة المرأة ، وأقل زيادة في المدة وأيسر نوء في البحر أو أقل خطأ في الاتجاه كان معناه الملاك . وهذه السفن كانت أقصى ما يستطيع بناؤها صنعوا في هذه الأعصر وظروفاها السياسية العامة ، فإن سفن التجارة كان يبنيها في العالم العربي أفراد من الناس لا تصل رؤوس أموالهم إلى أن تعمّر من السفن أكثر مما عمرت ، وكانت هذه السفن معرضة للمعاطب من العواصف والأنواء وشُعّب البحر ومتلصصته في كل مرحلة من مراحل رحلاتها ، وحتى في مرافوء بلادها لم تكن في أمان من حكمها

أنفسهم ، إذ كانت يدهم على التجار والتاجر ثقيلة ، ولم يكن هناك أهون عليهم من مصادرة تاجر أو الاحتجاج عليه بالغaram والمطالب ومطالبه بالهدايا الفالية والألطاف النفيسة في كل حين ، ولم يعنَ واحد من حكام القرن المجري الرابع وما بعده باصلاح صرفاً أو بناء دار صناعة أو حراسة ميناء أو تأمين تجارة فيها عدا أشياء قليلة قام بها الأمويون وأهل البحر والتجارة في الأندلس ، ولهذا لم يكن أى تاجر أو ملاح ليغامر بجزء كبير من ماله في عمارة سفينة ضخمة ينتظرها القدر المحظوظ على أيدي الانواء أو الرياح أو المتلاصصة أو الحكام ، ونتيجة لهذا ظلت السفن صغيرة غير متقدمة الصنع قصارى ما تستطيعه بعض رحلات في امد قصير ثم تتلاشى ، بل سرى أن سفن البحر الأحمر كانت تبني لرحلة واحدة ، وكان صاحبها يحسب حسابه على أن يسترد تكاليف بنائها في هذه الرحلة الواحدة . ونتج عن ذلك أن التجارة البحرية في ذاتها ظلت محدودة جحاً ومدى ، بل هي أخذت تتضاءل عما كانت عليه مع استمرار ضعف الحكومات وعجزها عن القيام بمسؤولياتها حيال شعوبها وطمعها المتزايد في أموال الرعية .

ومثل هذا يقال عن تجارة البر ، فقد ظلت تقوم على قوافل سيئة الحراسة لا تقطع مرحلة من الأرض إلا بعد دفع إتاوة باهضة لأصحابها ، ولا تدخل بلداً إلا اقض عليها الملاسون والعشارون كالصقور يمدون أيديهم حتى في ملابس الناس ويغرسون الإبر الطويلة في أمعتهم بخشأً عن ذهب أو فضة أو أى شيء تجبي عليه ضريبة ، وهذه كلها حقائق يصفها لنا ابن جبير بأحسن بيان ومن هنا فلم يكن هناك طريق إلى تجارة ذات شأن إلا إذا كانت في خدمة الحكام مباشرة أو بمشاركة لهم للتجار في الملاسون دون الغارم ، وهذه هي بعض الأسباب الأساسية في هبوط أمر التجارة والتجار في مملكة الإسلام كلها من أول العصر العباسي الثاني ، وهو هبوط يسير متوازياً مع الهبوط السياسي وفساد نظم الحكم وغلبة الأتراك على أدوات الحكم وما استتبعه ذلك من ضياع

لشون الرعية وميلٍ لميزان العدالة وتخللٍ للأمن وانحدارٍ لمستوى الاجتماعي كله تبعاً لذلك .

وأهم ما يعنينا هنا من عقایل هذا الانحدار السياسي الاقتصادي أن تجارة البحر الأبيض خرجت من أيدي المسلمين جملة ، وأن الطرق الكبيرة التي كانت عامرة بالرحلة والسفار والقوافل في العصور الأولى فقدت الأمان والحراسة وخلت من السايلة إلا من قوافل الحج ، وقد تعودنا أن نربط بين ضياع تجارة البحر الأبيض من أيدي المسلمين وأض migliori أسطوanel الدول الإسلامية فيه ، ولكن الحقيقة أن العلاقة بين هذا الأض migliori وضياع التجارة علاقة غير حقيقة ، لأن الذين انتزعوا سيادة طرق البحر من أيدي المسلمين لم يكونوا أقوى منهم سياسياً أو عسكرياً ، ودولة النورمان التي قامت في صقلية منتصف القرن الخامس الهجري «الحادي عشر الميلادي» لم تكن أقوى من دول الفاطميين والأيوبيين والمرابطين والموحدين ؛ وكذلك الجمهوريات الإيطالية التي ورثت من المسلمين أمواه ذلك البحر لم تكن — بادهة — تصاهي تلك الدول الإسلامية قوة وثروة ، ولكنها كانت كلها دولاً جديدة ، للحكم في نظرها مفهوم آخر تستطيع أن نصفه بأنه كان جديداً في تلك العصور .

فأما دولة النورمان فقد بینا في كلامنا على الإدريسي وفي بحثنا عن «أدراستة صقلية<sup>(١)</sup>» أنهم كانوا قوماً أذكىاء أقاموا دولتهم في صقلية على رضى الناس عنهم وتأييدهم إياهم وتقديمهم إلى النورمان أحسن ما لديهم من القوى والملكات والخبرات ، خدمتهم في الجزيرة العرب والبيزنطيون والصقليون ، ولم يتدخل ملوك النورمان — وخاصة رُجَار الثاني منهم — في عقائد الناس أو ثقافاتهم أو شعونهم الخاصة إلا بالقدر الذي اضطررت إليه روح العصر ، فسعد الناس في ظلهم وانتفعوا بهم ونشطت التجارة وانتظمت الملاحة بين موانئ

(١) نشر في مجلة المجمع العلمي العراقي ، مجلد ١١ (١٩٦٤) .

دولتهم وغيرها سواء أكانت في بلاد النصارى أو المسلمين . وأما الجمهوريات الإيطالية فكانت — كما يبينه سيسموندي في كتابه *الذائع الصيت عنها* — طلائع أولى لفلسفة الحكم في العصور الحديثة ، فسواء أكنا في البنية أو جنوة أو بيزا أو أماكن فتحن أمام جمادات من التجار والملاحين تشتري من أمراء نواحيها حرية العمل في مدينتها ومساحة ضيقة من الأرض حولها في مقابل ضريبة سنوية تؤديها لأولئك الحكماء . وما يكاد الاتفاق يتم حتى تتتحول موانئ أولئك التجار إلى مراكز كبرى للتجارة والنشاط البحري فتقوم فيها دور الصناعة والمخازن والأسواق والمصارف ، وتبني السفن وتتضى في كل سهل ، وينشىء التجار وأهل الصناعة والمال مجلساً للحكم مهمته الرئيسية حماية الأموال والتجار والسفن وحفظ حقوق التجار والملاحين ، وبفضل هذه الحماية تربو الثروات ويثير البلد وينشئ أهله القصور الجليلة والمخازن الضخمة والأرصفة الواسعة والمحصون والأسوار ووسائل الدفاع والأساطيل الحاربة لتعقب متلاصصة البحر الذين نسميه عادة بالقرصانين . ويطعم الأمراء المجاورون في هذه الثروات الكبيرة ولكن الجمهوريات التجارية ترد مطامعهم بجيوشها وتحصيناتها وينتهي الأمر بذلك الجمهوريات التجارية إلى أن تصبح دولاً مستقلة أو تدين بطاعة اسمية لهذه الدولة أو تلك ، ومنها ما كان يدخل في طاعة الدولة البابوية جملة للاستظلال بمجايتها الروحية .

والمهم بالنسبة لموضوعنا هنا أن طبيعة تكوين هذه الجمهوريات أدت إلى تقدم الفنون البحرية جمعياً تقدماً كان له فيما بعد أكبر الأثر في تطور التاريخ العام ، فقد ارتقى فن بناء السفن بفضل وجود رؤوس الأموال القادرة على إنشائها ، ووجد المهووبون من بناتها من يؤجرهم على عملهم فأجادوا وأبدعوا ، ولم يبخل التجار عليهم بالمال لأنهم آمنون على السفن أولاً ثم وافقون ثانياً من أنهم سيجنون من ورائها الأرباح الكبيرة ، فنشأت سفن كبيرة متينة قادرة على القيام بالرحلات البعيدة والصمود للأمواج والأمواج ، وعلى سُكّانات هذه السفن قام

ربابة مهرة قادرون على الملاحة في البحار الواسعة يعاونهم ملاحون ذوو دربة وجرأة وجاء ، وهؤلاء وأولئك جمعوا عن البحار والأرضين معلومات دقيقة وافية وأدلوا بها إلى رجال مهروا في رسم الخرائط في تلك الموانى الإيطالية وموانى الجزائر الشرقية (البليار) فنشأت الخرائط البورتولانية أو المرففية التي تحدثنا عنها فيما سبق ، وبعبارة موجزة : وقفَت تلك الموانى الإيطالية بفنون البحر على أبواب التحول العظيم الذي قاد إلى حركة الكشوف المغربية الكبرى ، ونتج عن هذا التحول العظيم في فنون البحر تطورٌ واسع المدى في المعلومات الجغرافية . أى أنها نشهد في الواقع ميلاد علم الجغرافية كما نعرفه اليوم في اثناء هذا التطور البعيد المدى الذي اجملناه في سطور ، وهذه حقيقة شرحها بأجلٍ بيان الجغرافي الفرنسي فيدال دى لا بلاش في مقدمته المبدعة لكتاب «المغربية العالمية» . وحركة الكشوف الجغرافية في حقيقتها إن هي إلا نتيجة مباشرة لتقدير فنون الملاحة وأدواتها واتساع المعلومات الجغرافية ، وثمرة لتطور فلسفة الحكم في بعض البلاد الأوروپية على الأساس الذي أشرنا إليه في كلامنا عن قيام الجمهوريات الإيطالية<sup>(١)</sup> . ونحن عندما نقول إن كريستوفر كولومبوس كشف العالم الجديد ننسى أنه ما كان يستطيع الوصول إلى شيء من هذا لو لا العلم الذي تجمع بين يديه عن الأرض وما فيها — وأساس الجزء الرئيسي في هذا العلم عربي كما بينا في كلامنا عن أبي عبيد البكري — ولو لا بناء السفن

(١) انظر عن تفاصيل هذا التطور الخامس في تاريخ أوروبا :

K. Bücher: *Die Entstehung des Volkswirtschafts*, 7°. Auflage, Tübingen, 1910.

A. Dopsch, *Wirtschaftliche und Soziale Grundlagen der Europäischen Kulturentwicklung aus der Zeit von Kaiser bis auf Karl den Grossen*. Wien, 2°. Auflage, 1923-1924, 2. Bände.

A. Schaube, *Handsgeschichte der romanischen Völker des Mittelmeersgebiets bis Zum Ende der Kreuzzüge*. München - Berlin, 1906.

H. Pirenne, *Un Contraste économique: Mérovingiens et Carolingiens*, dans *Revue Belge de philologie et d'histoire*, tome I (1922) et II (1923).

Ibidem, *Les Villes des Moyen Age*. Essai d'histoire économique et sociale (Bruxelles, 1927).

C. W. Previté Onions, *The Shorter Cambridge Medieval History* (Cambridge, 1953), II, 1076 sqq.

الذى استطاع أن ينشى له «السانتا ماريا» و «لا بِيَنْتَا» و «لا بِيَنْتَا» وهى كل أسطوله الذى غير به وجه الأرض والتاريخ ، وكذلك لولا حاكم الذى فهم كلامه وللح احتمالات الثروة والقوة التي كان يتحدث عنها ، فأفرغ عليه الأموال وحشد له الملحقين المهرة ومكى له من أن يصمد فى البحر ثلاثة أشهر سوية حتى يصل إلى الشاطئ الموعود ، ولا يشوب ذلك أنه كان يحسب أنه وصل إلى شاطئ الهند أو الصين كما قرأ عند أبي عبيد البكري ، فقد كان هذا أسعد خطأ فى التاريخ ، وهو كذلك خطأ قام على صواب كثير . وفي سياق هذه المعانى نقول إنه لم يكن مجرد مصادفة أن الشريف الإدريسي لم يوجد مكاناً يعمل فيه ويبعد إلا فى بلاط النورمان وأن أبو الحسين بن جبير الذى ستحدث عنه بعد قليل قام برحلته الأولى — وهى أهم رحلاته — من المغرب إلى المشرق — ذهاباً وعودة — على سفن جنوية .

وتجدر بنا أن نظير الوقوف عند هذا التطور البعيد المدى لأسباب كثيرة تتصل بموضوع دراستنا هنا ، ونكتفى منها هنا باثنين : الأول أننا سنرى أن ابن جبير سيلاحظ بعض مظاهره فى مروره ببعض بلاد النصرانية ، والثانى أن معرفة تفاصيله توضح لنا السبب فى أننا لم نستطع — رغم توفر العلم والربابة القادرين فى بلادنا — أن نقوم بحركة الكشف الجغرافى أو نsemهم فيها ونغادر غياب عصورنا الوسطى فى الوقت الذى غادروا عصورهم الوسطى فيه .

إلى جانب هذا التطور الذى شهدناه فى الجهوريات البحرية الإيطالية كانت أوروبا كلها تمر بحركة تطور عميق واسع المدى بدأ من أوائل القرن العاشر الميلادى ، فقد كان المجتمع الأوروبي قد تحول شيئاً فشيئاً عقب الغزوات الجرمانية — وحتى نهاية القرن الناسع الميلادى — إلى مجتمع زراعى مقلل شبيه بالمجتمع المصرى والشامى تحت حكم الملوك والأتراك العثمانيين ، فسيطر أمراء الاقطاع — وعلى رأسهم الملوك — على مصائر الأمم وشئون الناس ، وسيروا شئون الحكم على نحو يتعلّم — مع من عاونهم من كبار رجال الدين —

المتمتعين وحدهم بخيرات البلاد كلها ، فاضمحلت المدن في أوروبا كلها (عدا الأندلس) وتلاشى الكثير منها ، وتوقفت التجارة الكبيرة في داخل القارة الأوروبية وفي موانئها القائمة على البحر الأبيض على الخصوص . ثم بدأت دول جديدة تقوم على انقاض الاقطاع من القرن الثامن الميلادي فصاعدا ، وبعد تجارب عديدة فيها يعرف الآن بفرنسا على وجه خاص ، تبين الملوك أبناءها أن إقامة الدول على سواعد أمراء الاقطاع ومقاتلتهم لا يسمح لها إلا بعمر قصير ومدى من اتساع الرقعة وقوة البنية محدود ، وأن دولة من الدول لن تقوى ويشتند ساعدتها ويدوم لها السلطان إلا إذا تخلصت من الاعتماد على أمراء الاقطاع والأسراف ورجال الدين . فاتجاه الأذكياء الواقعون من الملوك إلى التجار والصناع من أهل البلاد يستعينون بهم في صراعهم مع الاقطاعيين ، فنحو جماعات التجار والصناع في المدن حقوقاً وضمانات ، وأذنوا لهم — لقاء اتاوات مالية — في تحصين هذه المدن وتسويير شتون الحكم فيها كما يشاءون ، فبدأت المدن تتنفس من جديد ، وأدار أصحابها من التجار حولها الأسوار وأنشأوا القوات العسكرية ، ووضعوا — على أساس الوثائق التي أصدرها الملوك لهم — تشريعات جديدة أهم ما تحرض عليه هو تحصين المال والمتجر والمصنع وتأمين أهلها ، وقامت النقابات واجتهد رجالها في الحافظة على أصول صناعات أعضائها وثبتت قواعد أخلاق عملية جديدة ، فاستقوى أمر هذه المدن سريعاً كما حدث في الموانئ الإيطالية ، وزادت أسوارها حصانة وجيوشها قوة ، وخلف أسوار المدن هذه ولدت أوروبا الحديثة بعقليتها العلمية الواحة وبصناعاتها الجيدة المتقدمة وبثرواتها الكبيرة القادرة على تدعيم بنية الملك التي ترضي عنها ، وبفضل قوانينها المدنية التي جعلت مفهومات الرومان والبيزنطيين في هذا الباب أثراً من آثار الماضي ؛ وب بدأت الشعوب الأوروبية المختلفة تظهر بسماتها وخصائصها ، وبعبارة مختصرة : في هذه المدن ولدت أوروبا الجديدة وكانت النهضة الكبرى التي غيرت وجه التاريخ ، وأما القول بأن هذه النهضة بدأت في إيطاليا بسبب

انتقال علماء الدولة البيزنطية إليها فكلام لا يثبت لأقل تفكير ، وأبسط ما يهدمه هو أن نسأل : إذا كان عدد قليل من أولئك العلماء البيزنطيين هم الذين أشعلوا قبس النهضة في إيطاليا ، فكيف لم يشعلاها في بلادهم نفسها ، وكانوا هناك أكثر واقرر ، وببلادهم أولى بهذا الخير الذي أفاضوه على بلاد الآخرين ؟ الحق أن النهضة الأوروبية كلها ولدت في هذه المدن والموانئ ، ولم يتتبه أهل النهضة إلى علوم اليونان والرومان إلا بعد زمان طويل . هذا كله كان يحدث أثناء عصور الحروب الصليبية ، وبعدها سارت النهضة بخطوات أسرع وأكبر ، في حين لم تلبث الشعلة التي توهجت عندنا على أيام الاتباكة ثم نور الدين وصلاح الدين وقضت على الخطر الصليبي أن أخذت تخبو تحت وطأة الأيوبيين للتأخررين ومن تلاميذ الملك ، ثم سكنت الرياح في مملكة الإسلام وانتشرت ظلال عصور طويلة من الركود في كل ميدان ، وأغلقت الأبواب والنواخذة ورسخت قواعد مجتمع زراعي مغلق فغير زادته نظم الحكم القائمة إذ ذاك فقرأً وركوداً .

وفي مثل هذه الظروف السياسية والاجتماعية لم يكن من الممكن أن يتقدم العلم الجغرافي ، لأن المعلومات الجغرافية لا تتحصل إلا من الرحالة والمشاهدة ودراسة المظاهر الطبيعية والاجتماعية في شتى البلاد ، إذ الجغرافية — ربما دون سائر العلوم — علم لا يزهد ويشر إلا في جو طلاق رحيب ياذن في الحركة المتصلة دون قيد ، ولا غرابة والحقيقة هذه في أنها سنمر فيها بقى من هذا البحث برجال موهوبين في هذا الفن حقاً مثل ابن جبير وعلى ابن سعيد وأبي محمد العبدري وأبن عبد المنعم الحميري وأبن الخطيب ولكنهم لن يأتوا بمجديد من المعلومات وإن جوّدوا في فنون الرحلات والرسائل المختصرة أو المعاجم الجغرافية ، والذنب في هذا ليس ذنبهم ، إنما هو ذنب الظروف التي عاشوا فيها وحكمت عليهم وحددت مداره ، فلا شك في أن رجلاً مثل على بن سعيد كان حقيقةً

بأن يضيف إلى العلم الجغرافي شيئاً عظيماً لو لم تتحكمه وتحدد اتجاهات ذهنه ونشاطه ظروف لا تعين عالماً في هذا الفن على التجديد أو الابتكار .

بيد أن هناك ظاهرة فتحت باباً واسعاً للأمل في التجديد والابتكار أمام المشغوفين بالرحلة القادرين على الملاحظة والاستنتاج ، وهي إقبال الناس على أدب الرحلات بعد هذه البداية الطيبة التي قام بها أبو بكر بن العربي ، فمن منتصف القرن السادس المجري / الثاني عشر الميلادي — نجد أنفسنا أمام سلسلة طيبة من كتب رحلات ذات قيمة كبيرة قام بتأليفها أندلسيون ومغاربة ، وقد كانت الرحلة إلى المشرق أمراً تقليدياً عند الأندلسين والمغاربة من خبر تاريخهم الإسلامي ، ولكن — لأمر ما — لم يدوّن أحد منهم وصف رحلته وما شاهده فيها قبل ابن العربي ، ولعل بعضهم دون وصف رحلته وضاع هذا الوصف ضمن ما ضاع من كنوز العلم الأندلسي ، وعلى أي حال فنحن لا نجد إشارة إلى وصف رحلة لأندلسي قبل أبي بكر بن العربي ، والطريف أن وصف الرحلة التالي له — رحلة ابن جبير — طفر بفن وصف الرحلات في تاريخ الفكر الأندلسي طفراً وصلت به إلى قريب من القمة التي وصل إليها هذا الفن في الأدب العربي كله ، فبعد رحلة ابن جبير نصل إلى القمة عند ابن بطوطة ، ولكل من هذين الرجلين مكانه في تاريخ الأدب الجغرافي العالمي ، وبعدهما مباشرة يجيء الإيطالي ماركو بولو ، وهو من البنديقية ، أحدى الجمهوريات الإيطالية التي أشرنا إليها ، ولا نتقال زعامة فن الرحلات في الأدب العالمي من أيدينا إلى أيديهم — كما هو واضح — مغازه ومعناه فيما يتصل بانتقال زعامة العلم الجغرافي وفنونه إلى الغرب نتيجة لما شرحناه<sup>(١)</sup> .

(١) رجمتنا في هذا الموجز إلى :

Kimble, G. H., *Geography in the Middle Ages*, 1938.

Bagrow, L., *Geschichte der Kartographie*, Berlin, 1951.

Beazley, C. R., *The Dawn of Modern Geography*, III, 1906.

أبو الحسين محمد بن جبير الكناني

وابن جبير ، صاحب هذه الرحلة الجليلة الشأن هو أبو الحسين محمد بن جبير الكناني ، ولد في بلنسية أو شاطبة في ١٠ ربيع الأول سنة ٥٤٠ / ٣١ أغسطس ١١٤٥ في بيت عربي أندلسي عريق يرجع نسبه إلى رجل من رجال طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيري ، ودرس أول الأمر في بلده ثم في غرناطة ، ويبدو أن أبا هاجر بأسرته إليها للعمل في دواوين الموحدين ، ومن الثابت على أي حال أنه — الأب — كان في خدمة عمال الموحدين على غرناطة ، وقد سار ابنه محمد بن أحمد بن جبير الكناني في هذا الطريق ووصل إلى أن يكون كاتبًا لأبي سعيد بن عبد المؤمن بن علي عامل الموحدين على غرناطة ، ومن البديه أن تكون له مكانة ممتازة عند هذا الأمير بفضل علمه الواسع باللغة والأداب والفقه وقدرته على نظم الشعر .

وكل هذا لم يكن — كما قال كرتشكوفسكي بحق — ليصل بابن جبير إلى الشهرة أو يجعل له مكاناً ممتازاً في تاريخ الفكر العربي ، لأن هذا الضرب من الفقهاء كان كثيراً في الأندلس وبقية العالم الإسلامي ، ولكن مصادفة لم تكن في الحسبان — إذا صدقنا القصة التي تحكي حولها — بعثته على الخروج إلى المشرق لأداء الفريضة ، فإذا برغبته لطلب العلم تتجدد فيمضي يسمع على الشيوخ فيما يمر به من بلدان ، وإذا هو يتكتشف عن رجل دقيق الملاحظة صائب النظر طلعة إلى المعرفة مشغوف بتسجيل ما يرى في أسلوب سهل صادق يبعث على النقاوة ، وإذا به نتيجة لذلك كله يختلف لنا وثيقة من أجمل وأصدق ما خلف الرحالة العرب يصل بها دفعة واحدة إلى قرابة القمة التي وصل إليها فن تدوين الرحلات في تاريخنا الفكري .

أما القصة التي يمكن عن سبب رحلته فرجعوا ذلك الجماعة الحاشدة أَمْدَنْ مُحَمَّد المقرئ ، وملخصها أن هذا الأمير أبا سعيد بن عبد المؤمن استدعى

الشيخ محمد بن أحمد بن جبير ليكتب عنه كتاباً وهو على شراب ، فأراد أن يزح مع الشيخ فد له يده بـكأس من النبيذ ، فاعتذر عن قبولهـ وأبي واسترجع ، وعزم على هذا الأمير أن تـرـد دعوته فاقسم على ابن جبير - تحت تأثير الخمر طبعـاً - أن يشرب منها سبعـاً ، خاف الرجل وشربها انتقامـاً لما هو أسوأ ، فـلـأـ الأمـير لـهـ الـكـأسـ سـبـعـ مـراتـ دـنـانـيرـ - بـتـأـيـرـ الخـمـرـ أيـضاً - فازمع ابن جبير الحجـ بهـذهـ الدـنـانـيرـ تـكـفـيرـاً عـاـ شـرـبـ منـ الاـشـمـ ، وأـيـاـ ماـ كانـ مـوـضـعـ هـذـهـ الأـقـصـوـصـةـ مـنـ الصـحـةـ فـهـىـ لـاـ تـخـلـوـ مـنـ دـلـالـةـ عـلـىـ خـلـقـ الـأـمـيرـ وـالـشـيـخـ مـعـاً ، فـأـمـاـ هـذـاـ الـأـمـيرـ فـكـانـ رـجـلاـ سـهـلاـ مـحـدـودـ الـمـلـكـاتـ ذـاـ مـيـلـ إـلـىـ الدـعـةـ وـالـاسـتـمـتـاعـ كـعـامـةـ أـلـاـدـ عـبـدـ الـمـؤـمـنـ بـنـ عـلـىـ فـيـماـ عـدـاـ اـبـنـهـ أـبـوـ يـعقوـبـ يـوسـفـ الـذـىـ وـرـثـ الـمـلـكـ مـنـ بـعـدـهـ ، وـأـمـاـ الشـيـخـ اـبـنـ جـبـيرـ فـقـدـ كـانـ رـجـلاـ مـتـدـيـنـاًـ سـلـيمـ الطـوـيـةـ حـسـنـ التـصـرـفـ فـيـ الـأـمـورـ ، فـانـ الحـجـ بـالـدـنـانـيرـ كـانـ كـفـيـلاـ بـحـوـ السـيـئةـ ، ثـمـ هـوـ يـرـيـحـهـ مـنـ هـذـاـ الـأـمـيرـ بـرـهـةـ مـنـ الزـمـانـ وـيـفـتـحـ أـمـامـهـ بـاـبـاـ لـلـفـرـجـ وـالـعـلـمـ وـالـحـرـكـةـ هـرـبـاـ مـنـ رـكـودـ الـحـيـاةـ فـيـ غـرـنـاطـةـ إـذـ ذـاكـ .

وـوـاضـحـ لـمـ يـطـلـعـ عـلـىـ وـصـفـ رـحـلـتـهـ أـنـ قـرـرـ قـبـلـ السـفـرـ أـنـ يـكـتبـ وـصـفـهـاـ وـاسـتـعـدـ لـذـاكـ ، فـكـانـ أـثـنـاءـهـ يـرـقـبـ حـسـابـ الـأـيـامـ وـالـشـهـورـ فـيـ دـقـةـ بـالـغـةـ وـيـدـونـ مـلـاحـظـاتـهـ عـمـاـ شـهـدـ وـرـأـيـ يومـاـ بـعـدـ يـوـمـ ، بـلـ نـعـتـقـدـ أـنـ هـنـىـ فـيـ الـأـوقـاتـ الـتـىـ كـانـ فـيـهـاـ عـلـىـ السـفـينـةـ حـرـصـ عـلـىـ أـنـ يـدـوـنـ - وـهـوـ يـقـاسـيـ هـوـلـ الـأـنـوـاءـ وـالـعـواـصـفـ - أـحـاسـيـسـهـ وـمـاـ يـرـىـ لـكـ يـسـجـلـهـاـ بـتـفـصـيلـ لـأـوـلـ مـاـ تـسـنـحـ لـهـ فـرـصـةـ ، وـبـدـونـ هـذـاـ لـاـ يـكـنـ تـصـورـ الـدـقـةـ الـبـالـغـةـ الـتـىـ يـصـفـ بـهـاـ كـلـ شـيـءـ وـيـسـجـلـهـ دونـ خـطاـ فـيـ تـارـيخـ أوـ خـلـطـ بـيـنـ حـوـادـثـ يـوـمـ وـآـخـرـ . وـقـدـ وـرـدـ فـيـ أـوـلـ الـمـخـطـوـطـ الـوحـيدـ لـلـرـحـلـةـ أـنـ اـسـمـهـاـ «ـتـذـكـرـةـ بـالـأـخـبـارـ عـنـ اـتـفـاقـاتـ الـأـسـفـارـ»ـ وـوـرـدـ فـيـ خـتـامـهـاـ أـنـ اـسـمـهـاـ «ـاعـتـبـارـ النـاسـكـ فـيـ ذـكـرـ الـأـثارـ الـكـرـيمـةـ وـالـمـنـاسـكـ»ـ وـلـاـ نـدـرـىـ أـيـهـاـ كـانـ عـنـوانـ الـكـتـابـ ، وـقـدـ تـكـونـ الـحـقـيقـةـ مـاـ قـالـهـ كـراـشـكـوـفـسـكـيـ مـنـ أـنـ الـعـنـوانـ لـمـ يـكـنـ هـذـاـ وـلـاـ ذـاكـ ، بـلـ رـحـلـةـ اـبـنـ جـبـيرـ أـوـ رـحـلـةـ الـكـنـانـيـ خـسـبـ .

## حياة ابن جبير ورحلاته

غادر ابن جبير غرناطة في رحلته الأولى إلى المشرق يوم الخميس ٨ شوال سنة ٥٧٨ / ٣ فبراير ١١٨٣<sup>(١)</sup> فيصحبة صديق له من المشغلين بالطب يسمى أحمد بن حسان كان يعمل معه في الكتابة في الديوان الموحدى في غرناطة<sup>(٢)</sup>، ولم يكونا — بداعه — يقصدان شهود الموسم في نفس السنة ، فقد كان بينهما موعد أقل من شهرين ، وهي مدة لم تكن تكفي لهذه الرحلة الطويلة في تلك العصور ، إنما كان الناس يخرجون من الأندلس في مثل هذا الموعد احتياطًا للطوارئ ولكل يسروا على هيئة فيكونوا في البقاع المقدسة في رجب من العام التالي ، فيؤدون العمرة الوجيبة ثم يقضون في مهد الإسلام رجباً وشعبان ورمضان وشوال وهذا القعدة ما بين درس وسماع وزيارات وأعمالٍ تقيّ ثم يؤدون الحج بعد ذلك في ذي الحجة ، ثم يعودون إلى أوطانهم سعداء بهذه المجاورة التي كانوا يدعونها أسعد أوقات حياتهم وخير زادهم للآخرة .

وهذا على وجه التقرير ما فعله ابن جبير ، إذ وصل إلى جدة في يوم الثلاثاء ٤ ربيع الآخر ٥٧٨ / ٢٦ يوليو ١١٨٣ أى أنه استغرق في الرحلة من بلده غرناطة إلى جدة خمسة أشهر هجرية وستة وعشرين يوماً ، وهي ١٦٢

(١) هنا هو ما ذكره ابن جبير في كتابه ، وقد كان حريراً على أن يدون سيره بالأيام والتاريخين المجري والملادي . ولكننا نلاحظ أولاً أن يوم ٨ شوال ٥٧٨ يقع يوم الجمعة لا الخميس ، ثم إنه يقابل ٢ (لا ٣) فبراير ١١٨٣ ، ونكتفي بهذه الملاحظة هنا ، وإن نخلى نصوح كل أخطاء التواريخ في الرحلة بل سنتبعها كما أثبتتها هو ، فهو على هذه الصورة جزء من الرحلة نفسها .

(٢) أبو جعفر أحمد بن حسان بن عبد الحسن القضاوي ، أصله من آنده — عمل بتنسية — كان متخصصاً يعلم الطب وله فيه تقدير مفيد ، مع المشاركة الكاملة في فنون العلم ، وكتب للسيد أبي سعيد ابن عبد المؤمن ، وجده لأمه القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية ، وتوفي براكش سنة ٥٩٩ أو ١٢٠٢ (أو ١٢٠٣) ولم يبلغ الخمسين من عمره ، ولم يذكره ابن جبير في رحلته إلا ثلاث مرات . انظر مقدمة رحلة ابن جبير للدكتور حسين نصار ، ص : ٥ .

يوماً على وجه التقرير . وهذا هو متوسط المدة التي كان يحتاجها الراحل من الأندلس إلى الحجاز ، ونلاحظ أن ابن جبير أكد في طريقة أهتم المزارات وأشدها قداسة عنده ، فلم يكدر يسمع من أحد من الشيوخ ، وكانت العادة أن يبدأ الناس السماع للحقيقة في الحجاز إذا وصلوا إليه تاركين من يرون به من الشيوخ في الطريق إلى العودة ، وبعد أداء الفريضة يتسع الوقت للدراسة والطلب . حقيقة أن ابن جبير اضطر إلى الوصول إلى مكة عن طريق الصعيد الأعلى وقوص ثم عبور البحر من عيذاب إلى جدة بدلاً من الطريق التقليدي عبر شبه جزيرة سيناء إلى أوليه ثم الانحدار جنوباً حتى المدينة فمكة ، ولكن هذا لا يغير من الوضع كثيراً ، فقد كانت الرحلتان متقاربتين من حيث الزمن اللازم لقطع كل منها ، لأن فرق المسافة كان يعوضه عبور البحر الأحمر من عيذاب إلى جده ، وهي رحلة بحرية كان لا ينبغي أن تستغرق أكثر من ثلاثة أيام ، ولكنها كانت تستغرق في العادة ما بين ثمانية أيام إلى عشرة أيام معاطب ومهالك مرجعها إلى سوء السفن واجتهد أصحابها في تحصيل تكاليف انشائها في عبور واحد ، ثم انعدام رقابة الدولة على شئون هذا المرفأ البحري المهام ، وهذه كلها حقائق أشرنا إليها فيما سبق ، ويرجع الفضل إلى ابن جبير في تصويرها تصويراً واقعياً لا يخافرنا الشك في صحته ، وسنعود إليه بتفصيل أوفى فيها بيلي من الصفحات .

ونتابع بقية رحلة ابن جبير الأولى وأحداث حياته إلى نهايتها لكي نفرغ بعد ذلك لدراسة الرحلة نفسها : بارح ابن جبير المدينة المنورة في ٨ محرم ٥٨٠ مع ركب الحاج الكبير الجامع للحجاج العراق وخراسان والشام فوصل إلى الكوفة في ٢٨ محرم ، أى أن القافلة استغرقت ٢٠ يوماً لقطع مسافة تزيد على ٨٠٠ كيلومتر ، بمعدل نحو ٤٠ كيلومتراً في اليوم ، وهو متوسط السرعة لأسفار القوافل في تلك العصور ، ووصل إلى بغداد مساء الأربعاء ٣ صفر ٥٨٠ ، ولم يقم فيها إلا ١٣ يوماً ، ولكن رأى في هذه الأيام القليلة ما لم ير

غيره في شهور ، لأن ابن جبیر كان شديد الشبه بمئرخنا المصري عبد الرحمن الجبری ، لا يکاد يسمع عن شيء غریب إلا أسرع لرؤیته ، ولا يتصل به طرف من خبر حتى يبادر إلى استقصاء تفصیله ، ولا يترك أثراً أو مشهداً أو اجتماعاً إلا خف إليه ، ثم هو حربیص بعد ذلك على أن يدون كل ما يرى ويسمع على أدق صورة وأوفاها ، وإلى هذا الحرص ترجع أهمیة رحلته هذه الفردیدة في بابها . ومن بغداد رحل إلى دمشق ماراً بتکریت والموصل ونصبین ورأس العین وحران ومنبج وحلب وحمah وحمص ، فوصلها يوم الخميس ٢٤ ربیع أول ٥٨٠ / ٥ يولیو ١١٨٤ ، وقد اقتصرنا هنا على ذکر المراحل الرئیسیة من خط سیره .

أقام ابن جبیر في دمشق حتى ٥ جمادی الآخرة ١١٨٤ / ١٣ سبتمبر ١١٨٤ فکأنه قضى فيها قرابة السبعين يوماً ، أى قریباً من المدة التي قضتها في الحجاز وستّ مرات ونصفاً قدر المدة التي قضتها في بغداد ، وليس مرد هذه الاقامة الطويلة إلى مجرد البحث عن وسيلة للسفر من دمشق إلى عكا على طريق كانت إذ ذاك تحت سلطان الصلیبین ، بل مردُه في الحقيقة إلى هذا الأنس الذي كان الأندلسيون يجدونه في عاصمة الشام للمساعدة في البيئة الطبيعية وأخلاق الناس ورابطة الأموية ، وهذا الأنس مصدق ما يقوله الجغرافيون الأندلسيون عن بلادهم من أنها شامية ، ولهذا لا نکاد نجد رحالة أو حاجاً أندلسيّاً إلا يطيل المقام والكلام في دمشق أو غيرها من مدن الشام ، وسنرى عند كلامنا عن علي بن سعید كيف استھوته حلب فبri لسانه بمدحها وفكّر في الاقامة فيها ، وسيُعرّف المقرّى عن هذا الشوق الشامي للأندلسيين في صفحات بعد صفحات من كتابه النفیس «نفح الطیب» .

واستطاع ابن جبیر الوصول إلى عكا حيث أکثرى مكاناً في سفينة جنوبية كان قصدها مدينة مسینة بجزيرة صقلیة ، وأبحر في يوم الخميس ١٠ ربیع / ١٨ اکتوبر ١١٨٤ على هذه السفينة التي يصفها ابن جبیر بالضخامة والعظمة .

ومقارنة بين وصفه للسفينة التي عبر عليها من عيذاب إلى جدة ووصفه لتلك السفينة الجنوية توضح لنا بما لا مزيد عليه من البيان البون الشاسع بين صناعة السفن وفنون البحر عند المسلمين والنصارى في أواخر ذلك القرن المجرى السادس / أواخر الثاني عشر الميلادى .

قال في وصف السفينة التي نقلته من عيذاب إلى جدة :

« والجلاب التي يصرّفونها في هذا البحر الفرعوني ، ملفقة الإنشاء ، لا يستعمل فيها سمار البَتَّة ، إنما هي مخيطة بأمراس من القِنْبَار ، وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن يتخيط ، ويفتلون منه أرساً يحيطون بها المراكب ، ويخلّونها بدُسُر من عيدان النخل ، فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة ، سقوتها بالسمن ، أو بدهن الخروع ، أو بدهن القرش ، وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم في البحر يبتلع الغرق فيه ، ومقصدهم في دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب ، لكثرة الشعاب المعرضة في هذا البحر . ولذلك لا يصرّفون فيه المركب المساري . وعود هذه الجلاب محظوظ من الهند واليمن ، وكذلك القنبار المذكور . ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شرّعها منسوجة من خوص شجر المُقل ، فجموعها متناسب في اختلال البنية ووهنها ، فسبحان مسخرها على تلك الحال ، والمسلم<sup>(١)</sup> فيها لا إله سواه . ولأهل « عيذاب » في الحجاج أحکام الطواغيت . وذلك أنهم يشنحون بهم الجلاب ، حتى يجلس بعضهم على بعض ، وتعود بهم كأنها أقفال الدجاج المعلوقة ، يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة في الكراء حتى يستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها في طريق واحدة ، ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك ، ويقولون : « علينا بالألواح ، وعلى الحجاج بالأرواح » . وهذا مثل متعارف بينهم<sup>(٢)</sup> .

(١) أي الذي يكتب السلام من العطب فيها .

(٢) الرحلة ، ص ٤٤ - ٤٥

وقال في وصف السفينة التي استقلها من عكا إلى مسينة : « وصعدنا إلى المركب ، وهو سفينة من السفن الكبار — بمنة الله على المسلمين — بالماء والزاد ، وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الأفرنج ، وصعده من النصارى المعروفين . بالبللغريرين — وهم حجاج بيت المقدس — عالم لا يحصى ، ينتهي إلى أزيد من ألفي إنسان ... وقل الزاد بآيدي الناس ، ولكنهم في هذا المركب — بمنة الله — في مدينة جامعة المرافق ، فكل ما يحتاج شراؤه يوجد : من خبز وماء ، ومن جميع الفواكه والأدم كارمان والسفرجل والبطيخ السندي والكمثرى والشاه بلوط والجوز والحمص والباقلاء — نئساً ومطبوخاً — والبصل والثوم والتين والجبن والحوت وغير ذلك مما يطول ذكره ؛ علينا جميع ذلك يباع<sup>(١)</sup> ». »

ووصل ابن جبير إلى مسينة يوم السبت ٢ رمضان ٥٨٠ / ١٨ ديسمبر ١١٨٤ بعد أهوال اشرف معها على الموت ، آخرها أن تحطم السفينة في مدخل مسينة وانتقل ابن جبير ومن معه إلى البر في زوارق أقبل بها نوائية من الشواطئ . وأقام في ذلك البلد عشرة أيام ، ثم عبر ممر مسينة في مركب صغير إلى ميناء شفلودي ووصف لنا في أثناء ذلك بركان اتنا أصدق وصف قرأناه عند أحد من جغرافيينا أو رحالتنا ، ومن شفلودي انتقل إلى ثمرة ثم إلى بلم (يكتبه بالرماء) فدخلها يوم السبت ١٦ رمضان ٥٨٠ / ٢٢ ديسمبر ١١٨٤ فاقام بها إلى السبت ٢٣ رمضان ٥٨٠ / ٢٩ ديسمبر ١١٨٤ ، ثم انتقل إلى إطربانش Trapani ، فاقام بها على رغمه إلى ٢١ ذي حجة ٥٨٠ / ٢٥ مارس ١١٨٥ حيث رحل إلى الأندلس في مركب جنوأ أيضاً ، فوصل إلى الأندلس مساء الخميس ١٥ محرم ٥٨١ / ١٨ ابريل ١١٨٥ ونزل بميناء قرطاجنة ومنها سار إلى غرناطة فوصلها بعد سبعة أيام ، ودخل منزله بعد غياب عامين هجريين وثلاثة أشهر ونصفاً بحسبه .

---

(١) رحلة ابن جبير ، ٣٠٣ - ٣٠٤

وقد قاسى ابن جبیر في رحلته هذه كثيراً من الأهوال وصفها بتفصيل كبير مرة بعد مرة في أسلوبه الساذج الجميل الذي ينم عن صدقه وسلامة طويته وعميق اعتقاده في الله سبحانه . ونعتقد أنه عاد إلى عمله في خدمة الموحدين في غرناطة ، ولكنه لم يعد إلى خدمة أبي سعيد بن عبد المؤمن ، فقد كان هذا قد ترك ولاية غرناطة من زمان ، والثابت على أي حال أن ابن جبیر كان رخى الحال ذا مكانة مرموقة في المجتمع الغرناطي في ذلك الحين ، وتدل قائمة الذين سمعوا عليه -- وقد أوردها المقرى -- على أنه اشتغل بالتدريس زمناً دون أن يكون من كبار الشيوخ ، فلم يذكره أحد بين هؤلاء ، وكلامه في رحلته يدل على علم متوسط ، فاقتباساته الشعرية من النوع القريب المتناول ، وأشاراته الفقهية لا تتم عن علم عميق واسع بالفقه ، ولكنه كان -- وهذا هو المهم -- رجلاً صادقاً بسيطاً شهماً كريماً ، فقد حكى المقرى حكاية تدل على شهامته وكرمه خلاصتها أنه توسط لأحد أبناء أصحابه في الزواج من ابنة صديق ، ولم يوفق الزواج وانتهى بالطلاق ، فاسرع ابن جبیر إلى الشاب بمائة دينار قدّر أنها تعدل ما خسره الشاب في ذلك الزواج غير الموفق ما بين مهر وشوار ونفقات عرس ، فلم يقبلها الشاب وتعلل في الاعتذار عن قبولها بعلة وجيهة قبلها ابن جبیر ، والطريف الذي يدل على أن الناس أبناء زمامهم أياً كانوا أن ابن جبیر لم يفكّر في مواساة الشابة المطلقة وتعويض شيء من خسارتها ، وهي -- كما هو بدبيهى -- أفرد بكثير من خسارة الشاب . وكان ابن جبیر متزوجاً من سيدة كريمة ، أبوها شيخ كبير يسمى الوقشى ، ولا نعرف من هو بين الشيوخ الوقشيين ، وهم كثيرون جداً ، وكان شديد التعلق بها ، حتى أنه لم يطق المقام في الأندلس بعد وفاتها كما سرى .

ورغم تلك الأهوال التي قاساها ابن جبیر في رحلته الأولى فإننا نراه ينهض لرحلة الحج مرة أخرى فيما بين سنتي ١١٩١ و ١١٨٩ / ٥٨٧ و ٥٨٥ ويقال إن الذي دفعه إلى ذلك فرجُه باستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة ٥٨٣ /

١١٨٥ ، فقرر العودة إلى المشرق ليرى بنفسه ثالثة مدن إسلام المقدسة وقد اطلها الإسلام من جديد ، ومن أسف أنه لم يسجل هذه المرارة يومياته كما فعل في رحلته الأولى ، وكل ما لدينا من آثار هذه الرحلة الثانية قصيدة طويلة رفعها إلى صلاح الدين الأيوبي يهنىء فيها بالفتح العظيم ، ويشكره عليه عسف رجاله وأمنائه بالحجاج وسوء معاملتهم أيامه .

ولم يستقر ابن جبير في غرناطة بعد عودته من رحلته تلك ، بل انتقل إلى مالقة ، ثم غادر الأندلس نهائياً إلى سبتة ثم إلى فاس وهناك انقطع للأقراء واسماع الحديث ، وتزهد في عيشة وإن لم ينقطع عن روایة الشعر ونظمه فقد كان مشغوفاً بذلك طول حياته .

ولم ينعم ابن جبير بحياة المهدوء طويلاً ، فقد توفي زوجته عاتكة في سنة ٦١٤ / ١٢١٧ وهو في الرابعة والسبعين من عمره ، ولم يحتمل الشيخ الواهن وطأة النكبة فقرر الخروج إلى المشرق والحجمرة ثالثة ، فذهب وجاور يمامة ثم انتقل إلى بيت المقدس وتحول بعد ذلك إلى الإسكندرية ، وهي مدينة طالما أحبهما وأطال في وصفها ، وهناك أقام يحدث ويدرس حتى توفى في شعبان سنة ٦١٦ أو ١٢١٩ أو ١٢٢٠ وقد قارب الثمانين من عمره .

#### الخصائص الجغرافية لرحلة ابن جبير

تلك هي حياة محمد بن أحمد ابن جبير الكناني ، حياة بسيطة عادية في جوهرها ، فإن ألواناً من الأندلسيين قاموا بفشل هذه الرحلة قبله مرات وعاشوا كذلك مثل هذه الحياة السهلة المدينة . حتى وفاة زوجته يبدو لنا عادياً ، فقد وقعت وهو في السبعينات من عمره ، ولا بد أنها لم تكن أصغر منه بكثير ، ولكننا نرى - لأمر ما - أن الحوادث التي تستحق الذكر في حياة ابن جبير تتحول إلى دوافع وحوافز تجعل لها طعم القصص ، فهو يقوم برحلته الأولى لأنه

أرغم على شرب الماء وأراد التكبير بالحج ، وهو يقوم برحلته الثانية للارتفاع  
باستيلاء صلاح الدين على القدس ، وهو في ذاته حادث فاصل جدير بأن يحتفل  
به ، وقيام ابن جبير بالرحلة لهذا السبب يدل على أنه كان ذا إحساس عميق  
بوحدة الوطن الإسلامي ، وهو يقوم برحلته الثالثة ليتعزى عن مصابه في زوجه  
عاتكة ، وهو أمر يدل على أن الرجل كان ذا قلب إنساني كبير ، فان هجرة  
الرجل من وطنه في هذه السن للتأمی والنسیان وزيارة البيت الحرام أمر لا  
يقدم عليه الكثيرون .

وهذا الفيض العاطفي الذي امتاز به ابن جبير هو — فيما نرى — دافعه  
إلى تقييد رحلته ، فان تقييد الرجل خطوات رحلته وتسبيله أحداها يدل على  
أنه كان يشعر أنها أمر هام جدير بان يسجل ويوصف ، وأنها ليست نزهة يقوم  
بها أو فرض يؤديه لأنه واجب فحسب ، ولهذا فهو يسجل كل شيء في أوراق  
معه ، وكلما وجد فراغاً من الوقت استعاد ما رأى وكتبه بغية الدقة دون  
سفطه أو اسراف في ألفاظ ، وهذا شأن رحالة حق ، يتجمّس أحظار  
الأسفار ومتاعبها ليرى ويتعلم وليحسن وينفع بما يرى ، وهذا أيضاً هو الذي  
جعل لهذه الرحلة تلك القيمة العلمية والأدبية الكبرى ، فان ابن جبير الذي  
سار بأدب الرحلات خطوة تالية للمحاولة الساذجة التي قام بها ابن العربي  
وصل بهذه الخطوة إلى أرق ما يكون عليه أدب الرحلات إلى نهاية العصور  
الوسطى ، بل قل أن تجد في كتب الرحلات في شتى الآداب ما يضاهى هذه  
الرحلة أو يساويها في المتعة والصدق والقيمة العلمية من كل وجه .

وإذا كانت الرحلات المشاهدة واللإحاظة والدراسة تعتبر من عُمد العلم  
الجغرافي ، فان ابن جبير يحتل عن جدارة مكاناً صدرأً في تاريخ الجغرافية في  
الأندلس على هذا الأساس ، وإن لم تكن مادة كتابه جغرافية صرفه ، بل إن  
التاريخ والآثار هما الغالبان عليها . ولكن الذي يستوقف الانتباه أن ابن جبير  
كان دقيق الملاحظة في كل ما يتصل بالمظاهر الجغرافية من أرضين وبحار

وخلجان ورءوس وأنهار ورياح وأمطار وشروع وغروب وفصول السنة وأجناس الناس وأشغالهم وصناعاتهم وزراعتهم ومتاجرهم وما إلى ذلك . ولو أن رجلاً متخصصاً في المغرافية قام بهذه الرحلة وسجل مشاهداته أثناءها ما زاد على ما قال ابن جبير شيئاً ، فهو من أول الرحلة يصف خط السير ويعلن المرافق والزمن الذي استغرقه كل منها ، وهو حريص على أن يدون في كل حالة التاريخيين المجري والميلادي ، وهو في هذه الثانية يكتب الشهور الميلادية على نحو قريب جداً مما نستعمله اليوم ، ولكنه لم يحدد السنة الميلادية أبداً ، ربما لأنه لم ير ما يدعوه إلى ذلك أكتفاء بذكر السنة المجرية ، وإذا قلنا إن ابن جبير كان لا يجد صعوبة في تحديد التواريخ وهو بالأندلس إذ كان يكفي أن يسأل من حوله ليجد الجواب ، فقد جاء عليه وقت في بلاد المشرق كان عليه أن يعتمد على نفسه في حساب الشهور الميلادية ، وعلى ظهر المركب كان عليه يرى ، وغريب بعد ذلك أن أخطاءه في هذا قليلة ، وهي دلالة على ذهن صاحب حاضر ، وهي صفة تدهشتنا عند ابن جبير في كل حالة ، لا فيها يتصل بحساب الأيام والتاريخ خحسب .

فمن أظهر أمثلة يقطنه وحرصه على أن يعلم – ويسجل – دائماً أين هو وفي أي اتجاه يسير قوله : « وأقلعنا ظهر يوم الخميس التاسع والعشرين منه (يريد شوال ٥٧٨) وبموافقة الرابع والعشرين من فبراير المذكور (سنة ١١٨٣) ، بحول الله تعالى وعونه لا رب غيره ، وكان طريقنا في البحر محاذياً لبر الأندلس . وفارقناه يوم الخميس السادس الذي القعدة بعده ، عندما حاذينا « دانيّة » . وفي صبيحة يوم الجمعة السابع من الشهر المذكور آنفاً قابلنا بر جزيرة « يابسة » ، ثم يوم السبت بعده قابلنا بر جزيرة « ميورقة » ، ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة « منورقة » ، ومن « سبتة » إليها نحو ثمانية تجاري ، والتجري مائة ميل . وفارقنا بر هذه الجزيرة المذكورة ، وقام معنا بر جزيرة

«سَرْدَانِيَّة» أول ليلة الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور ، وهو الثامن من مارس ، دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل . وبين الجزيتين «سردانية ومنورقة» نحو الأربع ، فكان قطعاً مستغرباً في السرعة » وهذه عبارة غاية الأهمية بالنسبة لطرق الملاحة في تلك العصور ، فان ابن جبير يرسم لنا الطريق بالضبط ويدرك الشاطئ الذى سارت السفينة فى محاذاته فى كل تاريخ ويعين المراحل البحرية وأطوالها بالمحارى (جمع محرى) ويدرك أن المحرى ١٠٠ ميل . ولا ندرى إن كان المراد ميلاً عربياً أو ميلاً بحرياً مما كان يستعمله الملاحون الجنوبيون . وما يدل على أن ابن جبير كان يسأل عن كل شيء أو يدون كل ما يصل إليه علمه قوله : « ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة منورقة ، ومن سنته إليها نحو ثمانية بحار » فهذه ملاحظة طيبة أراد ابن جبير أن يعيّن بها ما قطع في البحر منذ إقلاعه يوم الخميس السابق على ذلك الأحد . وقد كسب ابن جبير من طول ملاحظاته لجري السفن وتسير الرابطة لها فهماً يستوقف النظر لشئون السفن والرياح والأمواء ، وحديثه حافل بما يدل على ذلك الفهم ، وهو يستعمل فيه المصطلح الدارج كما سمعه دون محاولة للترجمة أو التعرّيف ، مما يعطي كلامه في ذلك الموضوع قيمة خاصة ، ومن أمثلة كلامه عن مهاب الريح قوله قبيل إقلاعه من ميناء عكا في طريق العودة : « وفي مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب ، وذلك أن الريح الشرقية لا تهب فيها إلا في فصل الربيع والخريف ، والسفر لا يكون إلا فيها ، والتجار لا ينزلون إلى عكة بالبضائع إلا في هذين الفصلين . والسفر في الفصل الربيعي من نصف أبريل ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ، وتطول مدتها إلى آخر شهر مايّه ، وأكثر وأقل ، بحسب ما يقضى الله تعالى به . والسفر في الفصل الخريف من نصف أكتوبر ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ، ومدتها أقصر من المدة الربيعية ، وإنما هي عندهم خلسة من الزمان ، قد تكون خمسة عشر يوماً وأكثر وأقل . وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف ، والريح

الغربية أكثرها دواماً ، فالمغاربون إلى المغرب ، وإلى صقلية ، وإلى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية في هذين الفصلين انتظاراً وعد صادق ، فسبحان المبدع في حكمته ، المعجز في قدرته ، لا إله سواه » . ومن أمثلة استعماله للمصطلح البحري قوله يصف بعض مراحل رحلة العودة هذه : « فلما كان نصف الليل ، أو قريب منه ، ليلة السبت التاسع عشر لرجب المذكور ، والسابع والعشرين لاكتوبر ، ترددت علينا الريح الغربية فقصفت قرية الصاري المعروف بالأردمون<sup>(١)</sup> ، وألقت نصفها في البحر مع ما اتصل بها من الشراع ، وعصم الله من وقوعها في المركب ، لأنها كانت تشبه الصواري عظماً وضخامة . فتبادر البحريون إليها ، وحط شراع الصاري الكبير ، وعطل المركب من جريمه ، وصبح بالبحريين الملزمين للعارضي المرتبط بالمركب . فقصدوا إلى الخشبة الواقعة في البحر ، وأخرجوها مع الشراع المرتبط بها . وحصلنا في أمر لا يعلمه إلا الله تعالى . وشرعوا في رفع الشراع الكبير ، وأقاموا في الأردمون شراعاً يعرف بالدلّون ، وبتنا بليلة شهباء ، إلى أن وضح الصباح ، وقد منَّ الله عن وجل بالسلامة . وشرع البحريون في إصلاح قرية أخرى ، من خشبة كانت معدة عندهم » .

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله : « وقام معنا بر جزيرة سردانية أول ليلة الثلاثاء الحادي عشر من الشهر المذكور (شوال ٥٧٨) وهو الثامن من مارس (١١٨٣) دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل » قوله « خرج علينا طرف من بر سردانية المذكور ، فأخذنا في الرجوع عوداً على بده ، إلى أن وصلنا طرفاً من البحر المذكور يعرف بقوسمركة » (Capo Sammarco) قوله — وهي ملاحظة غاية في الدقة والأهمية — يصف حلقة من حلقات عوده بالبحر من عكا إلى

(١) القرية الصاري الأفقى الحامل للشرع ، ويعرف عادة أعلا الصواري . والأردمون هو الصاري الخلقي ، مغرب عن Artémone الإيطالي .

قرطاجنة الأندلسية « فأصبحنا ولم نكدر . فكان من الاتفاقيات الموحشة أن أبصراً بـ إقريطش عن يسارنا ، وجباله قد قامت أمامنا . وكنا قد خلتناه عن يميننا ، فأسقطتنا الريح عن مجرانا ، ونحن نظن أنا قد جزناه . فسقط في أيدينا ، وخالفنا المجرى المعهود للميمون ، وهو أن يكون البر المذكور منا يميناً ، في استقبال صقلية ، فاستسلمنا للقدر ، وتجزعننا غصص هذا الكدر ، وقلنا :

سيكون الذي قضى سخط العبد أو رضي»

ولو درسنا كلام ابن جبير عن البحر والسفن وأوصافه لما رأى وعاين فيه وعليها لكيانت من ذلك رسالة غاية في الأهمية عن الملاحة في البحرين الأبيض والأحمر في القرن السادس المجري / الثاني عشر الميلادي ، ولم يلتفت لهذه الناحية من مؤرخي التاريخ البحري في البحر الأبيض إلا هويد في كتابه الدائم الصيت عن تاريخ التجارة في البحر الأبيض والبارون ماس لا ترى في مقدمة مجموعة وثائقه عن العلاقات بين المسلمين والنصارى أواخر العصور الوسطى ، أما سواها من شاوية إلى أرشيبالد لويس ، فلم يتقطن واحد منهم إلى شيء من ذلك رغم أن رحلة ابن جبير مترجمة إلى الكثير من اللغات الأوروبية متداولة فيها كلها بالقدر الذي هي متداولة به عندنا<sup>(١)</sup> .

أما أوصافه الجغرافية فهي الغاية في الدقة والصدق والفائدة ، فهو لا يصل إلى بلد إلا أعطى عنه صورة دقيقة في كلمات مختصرة تضم لباب الموضوع ، فمن أمثلة ذكره قوله يصف الاسكندرية : « فأول ذلك حُسن وضع البلد واتساع مبنائه ، حتى أنا ما شهدنا بلداً أوسع مسالك منه ولا أعلى مبني ولا أعتق ولا أحفل منه ، وأسواقه في نهاية من الاحتفال أيضاً . ومن العجب في وصفه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمن ، لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض ، فتقتصل الآبار بعضها ببعض ، ويمد بعضها بعضاً » .

P. Vidal de la Blache, *Géographie Universelle*, Vol. VII, 1ère partie (1934). (١) انظر :

«وعينا فيها أيضاً من سوارى الرخام وألواحه كثرة وعلوها واتساعاً وحسنها ما لا يتخيل بالوهم ، حتى إنك تلفي في بعض المرات بها سوار يغض الجبو بها صعوداً ، لا يدرى ما معناها ، ولا لم كان أصل وضعها . وذُكر لنا أنه كان عليها في القديم مبان للفلاسفة خاصة والأهل الرئاسة في ذلك الزمان ، والله أعلم ، ويشبهه أن يكون ذلك للرصد» ، وجدير باللاحظة إشارته إلى السراديب والمجاري التي كان الناس يحفرونها في الإسكندرية لإيصال الماء إلى البيوت على ما نفعل اليوم ، وهو يصف هذه المجاري بأنها أبنية تحت الأرض ، وهو تعير في غاية الدقة ، واضح أن الإسكندرانيين انتفعوا بالسراديب المسيحية القديمة (الكتاكومب) في هذا الغرض . ويلي ذلك كلامه عن منارة الإسكندرية وهو أدق من وصف البكري و قريب في القيمة والصحة من وصف الإدريسي ، والسبب واضح ، وهو أن البكري لم ير المنار ولا هو دخله ، وإنما نقل وصفه . أما الإدريسي فلا شك — بقرينة الدقة والتشابه تلك — في أنه عاينه ودخل إليه وصعد فيه ، وإن لم يذكر المسجد الذي كان في أعلىه . وكلام ابن جبير عن هذا المسجد بالذات يكشف لنا عن اهتمامه بالتحقيق والضبط ، فيما اكتفى غيره بالصعود في المنار بعض درجاته أو طبقاته صعد ابن جبير إلى القمة ، قال : «وفي أعلىه مسجد موصوف بالبركة ، يتبرك الناس بالصلاحة فيه ، طلعننا إليه يوم الخميس الخامس الذي الحجة (٥٧٨) ، وصلينا في المسجد المبارك المذكور ، وشاهدنا من شأن مبناه عجباً لا يستوفيه وصف واصف» .

ووصف ابن جبير للرحلة النيلية من القاهرة إلى قوص فريد في بابه ، فإن عامة المغارفيين قبل ذلك — كابن حوقل والإدريسي — يذكرون المدن الواقعة من القاهرة إلى أسوان سماعاً لا مشاهدة ، وهم لهذا ينقل بعضهم عن بعض ، حتى الإدريسي يمكن القول بأنه لم يغادر القاهرة جنوباً في مروره بمصر ، أما ابن جبير فقد قام بالرحلة فعلاً ووصف المدن والظواهر الجغرافية التي مر بها ،

وهو يذكر تاريخ وصوله إلى كل بلد نزل به أو مر به مما يعطينا فكرة واضحة عن الملاحة النيلية في ذلك العصر من مطاراتها ومراحلها وتوقيرها ومحصولات كل بلد وصناعة أهلها وما يُحمل إليه من التجار وما إلى ذلك ، ويستوقف النظر وصفه لأخيم والبربا التي بها ، والمراد بها المعبد ، والبربا باللغة المصرية القديمة هي المقبرة ، ولكن اللفظ كان يستعمل في العصور الوسطى في معنى المعابد المصرية القديمة وموقع الآثار عموماً ، ولم يكن يستوقف انتباه المغارفيين والرحلة من العرب شيء من ذلك مثل بربا أخيم هذه ، فلهم فيها كلام مسرف في الطول .

وفي هذه الرحلة إلى الحجاز عن طريق قوص وعيذاب يتتحدث عن قوص حديثاً عظيم الأهمية بالنسبة للتاريخ الاقتصادي لمصر وأفريقيا عامه ، لأنها كانت إذ ذاك من أعظم مراكز التجارة والنشاط الاقتصادي في القارة . ثم يعقب ذلك بكلام هو غاية في الأهمية العلمية عن الطريق من قوص إلى عيذاب على البحر الأحمر ، فهو يصف مراحله واحدة واحدة ، ويتحدث عن كل منزل وما فيه من عيون الماء ، بل هو يذكر دواب الحمل التي تستعمل والشقاديف (أى المحامل أو الهوادج) التي يحملها جملان ويستعملها الأغنياء والميسير . وجدير باللاحظة قوله عن عمران هذا الطريق : « ورُمْنا في هذه الطريق إحصاء القواقل الواردة والصادرة ، فما تمكن لنا ، ولا سِيَّما القواقل العِيْنَادِيَّة المتحملة لسلع « الهند » ، الوالصلة إلى « اليمن » ، ثم من « اليمن » إلى « عيذاب » . وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفلفل ، فلقد خيل إلينا لكثرته أنه يوازي التراب قيمة . ومن عجيب ما شهدناه بهذه الصحراء ، أنك تلتقي بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائلها من السلع مطروحة لا حars لها ، ترك بهذه السبيل ، إما لإعياء الإبل الحاملة لها ، أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصنونةً من الآفات ، على كثرة الماء عليها من أطوار الناس » . وهذا كله صحيح ، فقد كانت هذه التجارة من احتكارات الدولة ، ولهذا كانت

عنایتها بها وبالطريق الذى تمر عليه عظيمة ، وإلى هذا يرجع الأمان الذى يتحدث عنه ابن جبير هنا . وما هو جدير باللحظة — إذ هو يدل على فهم مدى الحكومات لمهامها فى تلك العصور — أن ذلك الأمان كان قاصراً على البصائر ، والقوافل حتى تصل إلى عيذاب ، أما الناس والحجاج منهم بصورة خاصة ، فإذا وصلوا إلى عيذاب تركوا تحت رحمة من يريد الاستبداد بهم من أهل ذلك الميناء أو أصحاب السفن أو البجعة أو الجاجة ، وابن جبير يصفهم أسوأ وصف يتصوره العقل ويشكو من سوء أفاعيلهم بالناس ، حتى لقد عاهد الله وهو فى هذا الموضع الذى ثقل على نفسه بأن تكون عودته من الحجاز عن طريق بغداد وعكا وكانت إذ ذاك فى أيدي الصليبيين ، وحال تجعل رجلاً بالغ التقى مثل أبي الحسين ابن جبير يفضل الرحالة عن طريق يسود بعضه المسيحيون على الرحالة فى طريق بعيدة عنهم لابد قد بلغت من السوء أسوأ درجة .

ولا يتخلل ابن جبير عن تلك الدقة فى وصف المدن إلا عند كلامه على مكة والمدينة ، فإنه يدع الواقع إلى العاطفة ويفيض فى الاطراء والاعجاب ، وهو يجرى فى هذا على سنن المسلمين جمِيعاً ، فهم لا يرون مكة والمدينة بعينهم وإنما بعين الخيال والعاطفة والإيمان ، فإذا اقتربوا من مكة لم يروا طریقاً ولا جبالاً أو ودياناً ، وإنما هى أنوار تهل عليهم وجنان تحيط بهم وعطور تملاً الجو حولهم ، وما تحس به القلوب فى تلك الأحوال يطغى على كل ما ترى العيون ، ولا غرابة في ذلك ، فان الرجل الذى يحمله الإيمان على ركوب المخاطر والتعرض للمهالك من ساحل الأطلسي أو من حدود الصين إلى الحجاز ينتقل بشعوره — إذا هو اقترب من مهد الإسلام و بلد البيت العتيق أو إذا هو أهل على مدينة سيد المسلمين وعترة بنى آدم — من عالم الواقع إلى عالم الاشراق الروحى ، و تستغرق إحساسه نسوة غامرة نحمد الله على ان كينا من عرفها واستشعر جمالها .

ومن أمثلة الدقة والتحديد الجغرافي وصفُ ابن جبير للطريق من مكة إلى المدينة ومنها إلى الكوفة . والجزء الأول من هذا الطريق (إلى المدينة) موصوف بضبط لا نجد له عند رحلة آخر ، فهو يتحدث عن كل منزل من المنازل ويصفه وصفاً موجزاً مع ذكر ما فيه من موارد الماء ، وقد خَيَّلَ إِلَىَّ وأنا أتبع سير قافلته من مكة إلى بطن سر إلى عُسفان إلى خَلْيَصَ إلى بدر إلى الصَّفَراء إلى الرَّوْحَاء إلى الْبَيَادَاء إلى مسجد ذي الحليفة إلى وادي العقيق إلى المدينة المنورة انه ربما رجع إلى البكري فيما أتى به من أوصاف هذه الموضع في « معجم ما استمعجم » ، ثم تبيّن أن الرجل يكتب من عند نفسه دون اعتماد على أحد ، لأن هناك أخطاء في الأبعاد وترتيب الأماكن وقع فيها البكري — إذ أنه كان يصف هذه النواحي وهو في حجرته معتقداً على كتبه — أما ابن جبير فقد قطع هذا الطريق بنفسه ، قَطَعَهُ واعيَاً متيقظاً لـ كل شيء ، ومن هنا فمن العسير أن يدخل عليه الوهم في ذلك ، ولا بد إذن من يريد أن يؤلف في جغرافية شبه الجزيرة العربية أو جغرافيتها التاريخية من أن يرجع إلى ابن جبير .

وفي أشاء كلامه عن هذا الطريق تجلى فقرة مشهورة يصف فيها ابن جبير في بيان لا زيادة لمستزد عليه محله الحاج العراقي أو ركب الحاج العراق وهو يسميه « الحلة العراقية ومن النضاف إليها من الخراسانية والمواصلة وسائر جهات الآفاق من الوالصلين صحبة أمير الحاج المذكور »<sup>(١)</sup> وهي فقرة تروع النفس في تصويرها ودقة وصفها لقافلة من قوافل الحج والتجارة الكبرى ، وهي الشرايين التي ظلت تبعث الحياة في كيان الأمة الإسلامية الكبرى قرونًا بعد قرون . ويكل هذه العبارة كلامه بعد أن وصل إلى الحلة وأخذ على الطريق إلى بغداد وتفرقت القافلة الضخمة بعد وصولها إلى غايتها ودخلت بالناس إلى عمار العراق ، قال ابن جبير في أسلوبه الواضح الجميل : « ومن مدينة الحلة يتسلسل

(١) رحلة ابن جبير ، ص ١٦٩

الحاج أرسلا ، وأفواجاً أفواجاً : ففهم المتقدم ، والمتوسط ، والمتأخر ، لا يعرج المستعجل على المتعذر ، ولا المتقدم على المتأخر ، ففيما شاءوا من طريقهم نزلوا وأراحوا واستراحوا ، وسكنت نفوسهم من روعة نهر الكوس ، الذي كانت الأقدمة ترجم له بدارا للرحيل ، واستعبالا للقيام ، فربما كان النائم منهم يهدى بنهر الكوس ، فيقوم عجلًا وجلاً ، ثم يتحقق أنها من أضغاث أحلامه ، فيعود إلى منامه » .

وتلي ذلك فقرة ربما كانت من أحسن المذاجر ل الكلام ابن جبير وما يضمه من الفوائد الجغرافية وغير الجغرافية ، فهي تحدثنا أولاً عن عمران العراق في ذلك الحين وما كان فيه من مجرى الماء الكثيرة وما عليها من القنطر ، بل هو يصف واحدة منها وصفاً موجزاً لا يحتاج إلى مزيد بيان ، ويتحدث عن الأمن الذي كان سائداً إذ ذاك والعناية بحراسة الطرق ، ثم يتكلم عن أمير الركب وعناته معن معه من الحاج ، وهو أمير يهم الدين يدرسون تاريخنا الاقتصادي وما يدخل فيه من نظم المواصلات ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف قرية « القنطرة » وصفاً جغرافياً دقيقاً . قال : « ومن جملة الدواعي لافتراقهم ، كثرة القنطر المعترضة في طريقهم إلى بغداد ، فلا تكاد تمشي ميلاً إلا وتتجد قطرة على نهر متفرع من الفرات ، فتلك الطريق أكثر الطرق سواق وقنطرين ، وعلى أكثرها خيام ، فيها رجال محترسون للطريق ، اعتناء من الخليفة بسبيل الحج ، دون اعتراض منهم لاستئناف بكديه أو سواها . فلو زاحم ذلك البشر تلك القنطر دفعه ، لما فرغوا من عبورها ، ولتراكموا وقوعاً بعض على بعض . والأمير طشترين المتقدم الذكر يقيم بالحلة ثلاثة أيام ، إلى أن يتقدم جميع الحاج ، ثم يتوجه إلى حضرة خليفته . وهذه الحلة المذكورة طاعة بيده للخليفة . وسيرة هذا الأمير في الرفق بالحاج والاحتياط عليهم والاحتراس لمقدمتهم وساقتهم ، وضمّ نشر ميمنتهم وميسرتهم ، سيرة محمودة ، وطريقته في الحزم وحسن النظر

طريقة سديدة ، وهو من التواضع ولبن الجانب وقرب المكان على وتيرة سعيدة ، نفعه الله ، ونفع المسلمين به » .

« وفي عصر يوم الاثنين المذكور ، نزلنا بقرية تعرف « بالقنطرة » كثيرة الخصب ، كبيرة الساحة ، متداقة جداً على الماء ، وارفة الظلال بشجرات الفواكه ، من أحسن القرى وأجملها ، وبها قنطرة على فرع من فروع الفرات ، كبيرة محدودة ، يصعد إليها وينحدر عنها ، فتُعرف القرية بها ، وتعرف أيضاً « بحصن بشير ». وألفينا حصاد الشعير بهذه الجهات ، في هذا الوقت الذي هو نصف ما يُه » .

#### يقطنه ودقة ملاحظته

ويطول بنا القام لو مضينا تتبع الأوصاف الجغرافية في هذه « الرحلة » المبدعة ، فالواقع أنها كنز حافل بالمعلومات من كل صنف ، ويكفي أن نقرأ كلامه عن رحلته من بغداد إلى دمشق ، فهذا دون شك أحسن ما كتب رحلة عربي وأصدقه وأدقه عن سفرة قام بها ، بالإضافة إلى ما أوتيه ابن جبير من دقة الملاحظة والرغبة في رؤية كل شيء بنفسه ، ومثال ذلك وصفه الدقيق لحلة الأمير العراقي أي مضرب خيام أمير ركب الحاج العراقي ، وهو وصف طويل دقيق يدل على أن ابن جبير اجتهد حتى دخله وقشى في أرجائه ورأى كل ما فيه بنفسه ، ولا بد أن ابن جبير قد بذل جهداً كبيراً حتى وصل إلى ذلك ، فإن هذه الحلة كانت أشبه بالمدينة الصغيرة المسورة المحروسة بحيث لا يفضي إلى داخليها غريب ، ولا يتسع القام هنا لإيراد ذلك الوصف فهو وارد ببطوله في « الرحلة » المطبوعة وهي بأيدي الناس (ص ١٥٨ - ١٦٠ من تحقيق الدكتور حسين نصار) . ومن أمثلة هذه الدقة أيضاً وصفه للخليفة العباسى أبي العباس أحمد الناصر لدين الله ، أطول خلفاء بنى العباس حكمًا على الإطلاق (حكم من

٥٧٥ إلى ١١٨٠ / ٦٢٢ - ١٢٢٥) وأطرف خلفاء العصر العباسي الأخير شخصية وأقربهم إلى مفهوم الخلفاء العظام ، وقد حرص ابن جبير على ألا تفوته رؤيته واعطانا عنه صورة ناطقة كأنها لوحة ملونة ، قال : «أبصرنا هذا الخليفة المذكور — وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضي بنور الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ، ويتصل نسبه إلى أبي الفضل جعفر المقترن بالله ، إلى السلف فوقه من أجداده الخلفاء ، رضوان الله عليهم — بالجانب الغربي ، أمام منظرته به ، وقد انحدر عنها ، صاعدا في الورق إلى قصره بأعلى الجانب الشرقي على الشط ، وهو في فتاء من سنّه ، أشقر اللحمة صغيرها ، كما اجتمع بها وجهه ، حسن الشكل ، جميل المنظر ، أبيض اللون ، معقول القامة ، رائق الرواء ، سنّه نحو الخمس وعشرين سنة ، لابساً ثوباً أبيضاً شبه القباء برسوم ذهب فيه ، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة ، مطوية بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للباس ما هو كالفنك وأشرف ، معتمداً بذلك زرى الأتراك ، تعمية لشأنه ، لكن الشمس لا تخفي وإن سُرت . وذلك عشيّة يوم السبت السادس لصفر سنة ثمانين . وأبصرناه أيضاً عشى يوم الأحد بعده ، متطلعاً من منظرته المذكورة بالشط الغربي ، وكنا نسكن بمقربة منها » .

وربما انساق ابن جبير مع تيار هذا التعلم الغالب عليه فأئى بأشياء تقرب في تفاصيلها مما تقرأ في صفحات الأدب الشعبي وهي مع ذلك من صميم الواقع ، رأها هذا النّاظار اللام الذي لا تفوّت بصره الحاد شاردة ، ووصفها بأسلوبه السهل الواضح ، ومن ذلك وصفه لموكب الخاتونين (مشنّي خاتون ومعناته الأميرة أو السيدة الكريمة ، وهو أصل اللقب النسائي المعروف عندنا : هانم) سلحوقة بنت السلطان مسعود وأم الأتابك عن الدين صاحب الموصل ، وهو وصف نحس ونحن نقرأه أن الشيخ طرب وهو يرى المشهد ، وطرب أكثر وهو يستعيده ويشتبه على الورق ، قال : « وهاتان الخاتونات هما أميرتا هذا العسكر الذي توجهنا فيه وقادتنا ، والله لا يجعلنا تحت قول القائل :

## ضاع الرَّعِيلُ ومن يَقُوْدُهُ

ولها أجناد برسها ، وزادها الخليفة جنداً يشيونها ، مخافة العرب الخفاجيين المضرين بمدينة بغداد ، وفي تلك العشية التي رحلنا فيها فجأتنا خاتون المسعودية المترفة شباباً وملكاً ، وهي قد استقلت في هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين ، الواحدة أمام الأخرى ، وعليهما الجلال المذهبة ، وها تسيران بها سير النسيم سرعةً ولينا ، وقد فتح لها أمام الهودج وخلفه بابان ، وهي ظاهرة في وسطه متنقبة ، وعصابة ذهب على رأسها ، وأمامها رعيل من فتيانها وجندها ، وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العناق ، ووراءها ركب من جواريها قد ركب المطايا والهماليج على السروج المذهبة ، وعصبن رءوسهن بالعصائب الذهبيات ، والنسيم يتلاعب بعذباتهن ، وهن يسرن خلف سيدتهن سير السحاب . ولها الرایات والطبول والبوقات تضرب عند ركوبها ، وعند نزولها . وأبصرنا من نحوة الملك النسائي واحتفاله رتبة تهز الأرض هزاً ، وتسحب أذیال الدنيا عزاً ، ويتحقق أن يخدمها العز ، ويكون لها هذا المهر ؛ فإن مسافة مملكة أيها نحو الأربعة أشهر ، وصاحب القدسية يؤدى إليه الجزية ، وهو من العدل في رعيته على سيرة عجيبة ، ومن موالة الجهاد على سنة مرضية » . وفي مناسبة أخرى — أيام كان في مدينة صور — شاهد زفافاً نصراانياً واسترعت انتباهه العروس ، فمضى يصفها في تؤدة وتدقيق حتى لقد راقته مشيتها فقال إنها كانت « تمشي فتراً على فتر مشي الحمام أو سير الغامة » ثم انتبه إلى نفسه واستدرك وقال : « نعوذ بالله من فتنة المناظر ! » ، ثم انساق في الوصف مرة أخرى ، وختم كلامه عن ذلك الشهد قائلاً : « فأدانا الاتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزخرفي المستعاد بالله من الفتن فيه <sup>(١)</sup> » .

أما ملاحظاته التي تدخل في نطاق التاريخ فربما كانت خير ما أتى به

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦

شاهد عيان من كتبوا عن الحروب الصليبية على إطلاق ، ومن سعيد الاتفاقيات أن رحلته الأولى — وهي التي وصفها — وقعت في فترة حاسمة مُشرقة من تاريخنا ، فقد كان السلطان إذ ذاك صلاح الدين الأيوبي ، وكان يستجتمع قواه ويتأهب لاستعادة بيت المقدس وكثُر ظهر القوة الصليبية في الشام ، وقد أعطانا ابن جبير صورة صحيحة محايدة لذلك البطل الإسلامي الأكبر تعتبر من وثائق التاريخ . وجدير بالتقدير أن ابن جبير لم يغادر شخصية ذات أهمية مَرَّ بها في طريقه إلا وفاحت منها من الوصف والكلام ، ولم تفتته في مجتمعات الناس من حوله ظاهرة ذات قيمة إلا أثبّتها سواه أكان ذلك في مصر أو الحجاز أو العراق أو الشام أو صقلية ؟ وبالنسبة لصقلية بالذات تعتبر فقرات ابن جبير عنها من أثمن ما يعزز به المؤرخ ، وقد نبه على ذلك اسكياباريل وأمارى وجابريل في أكثر من موضع ، ومن حسن الحظ أن ابن جبير كان رجلاً واعياً عائشاً في دنيا الناس لا طالب علم ذاهلاً ينزل بالبلد فلا يرى فيه إلا الشيخ فلان والشيخ علان وينفق الصفحات فيهاقرأ على هذا وما سمع عند ذاك ، وأنت إذ تقرأ رحلة رجل مثل ابن رُشيد الفهري يخيم إلينك أن هذا الرجل كأن يسير في فراغ لا يرى فيه إلا مجالس الشيوخ ، وحاله كحال رجل سائر في الليل ونظره مثبت في السماء يعد الدجوم . وقد تتج عن تيقظ ابن جبير لما حوله أن ملاحظاته وأنظاره تسلكه في عدد أصحاب النظر التاريخي الثاقب ، وهو صاحب الملاحظة المشهورة عن اتصال علاقات التجارة والتبادل بين المسلمين والنصارى أثناء الحروب الصليبية ، وهي ملاحظة طويلة ختمها بقوله : « وأهل الحرب مشتغلون بحرفهم ، والناس في عافية ، والدنيا لمن غالب » وهي عبارة لم يبق مؤرخ شرق أو غرب للحروب الصليبية إلا نقلها عن ذلك الرحالة البلنسي الأصيل <sup>(١)</sup> .

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٧

وصل ابن حبير إذن بأدب الرحلات إلى قريب من ذروته في تاريخنا الفكري وأضاف إلى سجل الجغرافية والرحلات صفحات من أجمل ما فيه وأغزرها مادة وأقربها إلى روح العلم وأصدقها ، ومن أسف أنه لم يصف رحلتيه الثانية والثالثة ، ولكن هذا لا يقلل من قدره أو أهمية الخدمة التي أداها للعلم . ولقد قال كرتشكوفسكي إن رحلة ابن حبير تعتبر « من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة في الأدب العربي<sup>(١)</sup> » وهو حكم له وجاهته من خبير بالجغرافية العربية مثل هذا العالمة الروسي الليتواني الجدير منا بكل شكر وتقدير .

محمد بن أيوب بن غالب الغرناطي وكتابه « فرحة الأنفس »

و قبل أن نترك ابن حبير نقف لحظة عند رجل ينسب إلى غرناطة – ويغلب على الظن أنه من أهلها – خلف لنا كتاباً عظيم القيمة عن جغرافية الأندلس وإن كان جهده كله انصب إلى التلخيص والنقل دون انتصار إلى طلب شيء جديد يضيفه إلى ثروة المعلومات عن بلاده أو إلى تاريخ العلم الجغرافي فيه .

ذلك الرجل هو محمد بن أيوب بن غالب الغرناطي الذي يرجع الفضل في تعريفنا به إلى المقرى ، فقد كانت نقوله عنه منبهة للأذهان إلى قدره وفضل كتابه المسمى فرحة الأنفس . وإلى حين قريب لم تكن معلوماتنا عن كليهما لتزيد على إشارات المقرى إليه وأشاره غير دقيقة في « ذيل كشف الظنون » لاسماعيل باشا ومادة مضطربة في كتاب بونس بوينس الجامع عن مؤرخي الأندلس وجغرافييه ، ولكن الحظ الحسن أراد أن يظهر الدكتور لطفى عبد البدين بقطعة من كتاب « فرحة الأنفس » انتقاها رجل من أهل القرن التاسع المجرى / الخامس عشر الميلادى وسماها « تعليق منتدى من نزهة الأنفس لحمد

---

(١) الأدب الجغرافي العربي ، ١/٢٠١

ابن أئوب بن غالب» فعكف على دراستها وتحقيقها ، ونشر النص مقدماً له بدراسة وافية ومعلقاً حواشيه بقدر عظيم القيمة من المعلومات أضافت إلى قيمة النص ، وهذه الدراسة هي مرجعنا الآن فيما سنذكر عن ذلك الجغرافي المغمور وكتابه النفيس الذي انتفع به كل من أتوا بعده وأولهم على بن سعيد .

لم يتيسر للطفي عبد البديع — رغم ما بذل من جهد — الحصول على معلومات عن حياة ابن غالب ، ويبدو أنه كان من جنود العلم المجهولين الذين ينعم الناس ب Summers جهودهم دون أن يحفزهم ذلك إلى الاشادة بذكراهم ولو بسطور قليلة من هذه التي تكفي بملواد الوفاة والبلد والشيخوخ وبعض اسميات الكتب ؛ بل أثبتت لطفي عبد البديع أن نسبة «البلنسى» المضافة إلى اسم الرجل غير صحيحة ، وأنه كان في الواقع غرناطيّاً ، ويبدو أن نسبة «البلنسى» راقت الناس وجرت على ألسنتهم فأضافوها إلى من لم يتحققوا من نسبه أو شكوا في أنه أندلسي ، وسنلاحظ هذا في نسبة أبي عبد الله محمد العبدري إلى بلنسية ، والغالب أن هذه أيضاً غير صحيحة . وخلاصة ما انتهى لطفي عبد البديع إليه في شأن العصر الذي عاش فيه هو أنه عاش في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وربما كان معاصرًا لأبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن والى غرناطة الذي خدمه ابن جبير وكانت له معه الحكاية التي دفعت هذا الأخير إلى الحجج . وقد رجح لطفي عبد البديع ذلك بقرينة تكرار ذكر ابن غالب له وتجيده إيهـ ، فإذا صحت هذه كانت محمد بن أئوب بن غالب من معاصرى ابن جبـير<sup>(١)</sup> .

(١) نشر لطفي عبد البديع بحثه الذي نشير إليه هنا في مجلة معهد الخطوط العربية ، ج ١ جزء ٢ (نوفمبر ١٩٥٥) ، ص ٣١٠ — ٢٧٢ والمواضع الأخرى التي أشرنا إليها هي ذيل كشف الفتنون ، ١٨٦ / ٢ وبونس بوينس ، رقم ٩٨ ص ١٢٣ — ١٢٤ والخوازي الإعلان بالتوبيخ ، نشر نصه مع تعليقات الدكتور أحمد الصالح العلي ضمن ترجمته لكتاب فرانس روزنال عن تاريخ التأريخ عند المسلمين ، ص ٦١٨ وتعليق ٤٨ . وقد ذكر روزنال أن عنوان كتاب ابن غالب هو فرحة الأنفس في أخبار أهل الأندلس ، وذلك اعتماداً على نفح الطيب .

وقد ورد عنوان الكتاب في صور شتى لا يثبت منها غير شطره الأول : فرحة الأندلس ، ثم يختلف الشطر الثاني فهو تارة « للآثار الأولية التي في الأندلس » (المقري ، نفح الطيب ١ / ٧٧ طبعة أوروبا) وتارة في فضلاء العصر من أهل الأندلس ( حاجي خليفة ، ٤١٧ / ٢ ) وتارة ثالثة : في أخبار الأندلس » (ياقوت ، ٢٧١ / ١ ) ، حتى تردد إلى ظن بعض المؤلفين ( مثل بونس بويميس ) أن لابن غالب أكثر من كتاب ، وقد رد لطفي عبد البديع الأمر إلى نصبه في مقاله الآف الذكر فقال إن « ابن غالب لم يكتب في الحقيقة إلا كتاباً واحداً قسمه جزئين : أولهما في جغرافية الأندلس وخططها عنوانه : فرحة الأنفس للآثار الأولية التي في الأندلس ، والجزء الثاني في أخبار الأندلسيين واسمه فرحة الأنفس في فضلاء العصر من أهل الأندلس ، وكل جزء منها يطلق عليه كتاب من قبيل تسمية القسم من أقسام المؤلف الواحد فضلاً أو باباً ، أما الكتاب كله فعنوانه : « فرحة الأنفس » كما ذكر ياقوت ، أو « تاريخ الأندلس » كما ورد في المخطوطة ». ونضيف إلى هذا أنه ليس من الضروري أن يكون الكتاب مقسماً إلى قسمين ، فإن الأغلب أنه كان كتاباً واحداً يضم فضولاً : واحد في صفة الأندلس أو جغرافيته ، وهو هذا الذي نقله صاحب التعليق المنتقى وعثر عليه لطفي عبد البديع وحققه ونشره ، وواحد عن الآثار الأولية التي في الأندلس ، وثالث يضم المعلومات العامة التي يحرص الكثير من المؤلفين الأندلسيين على إيرادها ، إما في باب مستقل أو متفرق في اطواء كتبهم ، ورابع للتراجم سماه « في فضلاء العصر من أهل الأندلس » وهكذا ، ودليلنا على ذلك أن المقري يقول ، ( ١ / ١٨٨ ) وقد أفرد ابن غالب في « فرحة الأنفس » للآثار الأولية التي بالأندلس من كتابه مكاناً « أى أنه خصص لهذه الآثار فضلاً من الكتاب .

وقد وصلت إلينا نقول من ذلك كله ، وراجعتنا كل ما نقله ابن سعيد في المغرب من تراجم « فرحة الأنفس » فتبين أنها لا تقتصر على أهل عصر ابن

غالب ، بل تتناول أعلاما من عصور شتى ، ففيها شيء عن عبد الرحمن الناصر وأخر عن جعفر مولى الحكم المستنصر وآخر عن أبي بكر محمد الاعمى الخزوئي الشاعر وأخر عن الظافر اسماعيل بن ذى النون أو أبي العلا عبد الحق خلف ابن مفرج الكاتب الناشر ، ومن هنا فإنه يغلب على ظني أن عنوان ذلك الفصل : « في فضلاء مصر من أهل الأندلس » .

#### التعليق المتنق من فرحة الأنفس

وتعيننا من تلك النقول الكثيرة عن ابن غالب القطعة العظيمة القيمة المسماة « تعليق متنق من فرحة الأنفس » التي حققها ونشرها لطفي عبد البديع وقرر أنها قطعة من جغرافية الأندلس لأحمد بن محمد الرازي ، وهذا صحيح فإن نص هذه القطعة يطابق إلى حد كبير الترجمتين البرتغالية والإسبانية القيمتين لهذا الوصف ، وقد سبق أن ذكرناها ، ويطابق الترجمة الفرنسية الحديثة التي عملها ليفي بروفسور للنص البرتغالي القديم ونشرها في مجلة الأندلس ، وقد أشرنا إليها فيما تقدم أيضاً عند كلامنا على وصف الرازي للأندلس .

وقد بينا في دراستنا لجغرافية الرازي مدى التطابق بين مادة جغرافية الرازي كما تبدو في الترجمتين الإسبانية والبرتغالية وفقرات « التعليق المتنق من فرحة الأنفس » ، وتبيننا أنها مطابقة حرفيًّا إلى حد كبير ، وضررنا بذلك بضعة أمثلة مما يسمح لنا بالقول هنا أن ما فعله ابن غالب هو أنه أخذ المقدمة الجغرافية للرازي واختار منها القطع التي تناسب كتابه ، فاختصر المدخل واستغنى عن بعض الكور وحذف فقرات من الكلام على بعض الكور الأخرى ، وأضاف هنا وهناك إشاراتيسيرة غير ذات أهمية ، فعمله في هذا الوصف قليل ، ولو أننا عثرنا على نص كامل لمقدمة الرازي الجغرافية لما أصبحت له قيمة على

الاطلاق ، إنما نحن نقدّره الآن لأنّه يحتفظ لنا بجزء كبير من كلام أبي الجغرافية والتاريخ في الأندلس .

ولم استطع تعرف الأساس الذي بني عليه غالب اختياره أو انتقاءه ، فإن عنوان الفقرات المتقدمة الخاصة بالكور يقول : « ذكر مدائن الأندلس الكائنة بأيدي المسلمين بعد الأربعين سنة من الهجرة ، وذكر ما فيها ، من ذلك كورة قبرة » فإذا كان هو من أهل القرن السادس ، فلماذا اختار المدائن (يريد الكور) الكائنة بعد الأربعين ، أي بعد انتشار عقد الخلافة وقيام دول الطوائف ؟ فإن كان يريد كور الأندلس عند قيام الفتنة فلم يكن هناك محل لل اختيار أو الانتقاء من كلام الرازى ، لأن هذه الكور ظلت كما كانت عليه أيام الخلافة حتى سقوط طليطلة في ١٥ محرم ٤٧٨ / ١١ مايو ١٠٨٥ ، وإذا كان يريد الكور التي كانت باقية إلى أيامه فلماذا أثبت طليطلة وسرقسطة ولاردة ووشقة ووادي الحجارة وبرطانية وكلها كانت قد استغلتها النصارى قبل أيامه ؟ ثم لماذا ينقل كلام الرازى كما هو دون تغيير سوى الحذف بداعي الاختصار ؟ .

الحق أن رجالاً كابن غالب يضعون قارئهم في حيرة كبيرة وهو يقرأ ما كتبوا ويتأمل طرائفهم في التأليف ، لأن رجلاً يتحدث في فصل التراجم من كتابه عن رجال عاشوا في القرن السادس مثل أبي العلاء عبد الحق بن خلف ابن مفرج بن الجناني<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٥٣٩ / ١١٤٤ - ٤٥ ثم لا يشير في كلامه عن طليطلة إلى أنها خرجت عن أيدي المسلمين سنة ٤٧٨ أو في حدثه عن سرقسطة أنها انتقلت إلى حوزة النصارى في رمضان سنة ٥١٢ / ديسمبر ١١١٨ لرجل غريب حقاً ، ولا تقول هذا منتقدين من قدر الرجل ، فالحق أنه أسدى لنا خدمة كبيرة بالاحتفاظ بهذه القطعة من جغرافية الرازى ، ولكننا نضع الأمر بين يدي القارئ على أنه مشكلة في ذاته أو ظاهرة تستحق التأمل .

(١) انظر المغرب في حل المغارب لابن سعيد ، بتحقيق شوقى صيف ، ٢٨٢/٢

كلام ابن غالب عن قبائل العرب التي نزلت الأندلس ومنازلها فيه

ولكن ابن غالب أودع كتابه أشياء أخرى ذات قيمة جغرافية تعوض بعض ما لاحظناه عليه من نقل مطلق دون تفكير ، وإذا كانت قيمة مقتطفاته من وصف الأندلس للرازي قد تضاءلت بسبب عثورنا على نسخة طيبة من ترجمته إلى البرتغالية ، فإن ما احتفظ لنا به المقرى وغيره من المقتبسات من فصول كتاب «فرحة الأنفس» الأخرى سيظل محفوظاً بقيمتها ، لأنها اشارات — قصيرة أو طويلة — أثبتت ابن غالب فيها بعض محفوظه أو خلاصة بعض مطالعاته ، ومثال ذلك تلك الفقرة التي يتحدث فيها ابن غالب عن منازل العرب في الأندلس ، وهي فقرة كانت من أحسن ما نعتقد عليه في دراسة هجرة القبائل العربية إلى الأندلس ومنازلها فيه ، وهو موضوع أساسى بالنسبة لتكوين البشرى (الأنثropolوجى) للأندلس ، وهو جانب هام من جغرافيتها وتاريخها . ومن الواضح أن ابن غالب يخلص في هذه الفقرة أهم ما ورد في جمهرة ابن حزم عن قبائل العرب التي استقرت في الأندلس ، ولكنه لا شك أضاف إليها من عنده قدرأً صالحاً ، ومن أسف أننا لا نستطيع إيراد هذه الفقرة هنا بسبب طولها ، ثم إن المقرى عذّل فيها وأضاف إليها من عنده ومن كلام مؤلفين آخرين بحيث لا يؤمن بإيرادها على أنها كلها من كلام ابن غالب ، وللهم أن لدينا — بفضله — فقرة طويلة تقع في حوالي ثمان صفحات من نص نفح الطيب (طبعة محى الدين ٢٧١ / ٢٧٩ ) تعطى فكرة واحدة عن استقرار القبائل العربية وتوزيعها في الأندلس ومن انحدر من كل قبيلة من بيوت كان لها دور في تاريخه<sup>(١)</sup> .

(١) بالإضافة إلى ما ذكرناه في «غير الأندلس» عن هجرة العرب إلى شبه الجزيرة الإيبيرية انظر البحث المطول الذى أداره خوليان ريبيرا على العرب في إقليم بلنسية :

Julian Ribera y Tarragó, *Disertaciones y Opúsculos*, II, (Madrid, 1928) p. 77 sqq.

Elias Teres, *Límites árabes en al-Andalus*, vol. XXI, fasc. 2, 1956; vol. XXII, fasc. 1, 1957.

## كلام ابن غالب عن الآثار الأولية في الأندلس

وتلى ذلك في الأهمية فقرة طريفة قبسها المcri من الفصل الخاص «بالآثار الأولية» من «فرحة الأنفس» ، وسنورد هذه الفقرة نظراً لأهميتها بالنسبة للجغرافية التاريخية لاسبانيا ، ثم لأنها تدلنا بالبرهان القاطع على تقدير العرب لما وجدوه في شبه الجزيرة من معالم العمran عند دخولهم ، ومعرفتهم بدقاقتها الفنية وحسن اتفاعهم بها .

قال المcri : « وقد أفرد ابن غالب في فرحة الأنفس ، للآثار الأولية التي بالأندلس من كتابه مكاناً ، فقال : منها ما كان من جلبهم الماء من البحر الملح إلى الأرض التي بطركته على وزن لطيف وتدبير محكم حتى طحنت به ، وذلك من أتعجب ما صنع ؟ ومن ذلك ما صنعه الأول أيضاً من جلب الماء من البحر الحيط إلى جزيرة قادس<sup>(١)</sup> من العين التي في إقليم الأصنام ، جلبوه في جوف البحر في الصخر الجحوف ذكرأ في أثني وشقوا به الجبال ، فإذا وصلوا به إلى الموضع المنخفضة بنووا له قناطر على حنایا ، فإذا جاوزها واتصل بالأرض المعتدلة رجعوا إلى البناء المذكور ، فإذا صادف سبخة بُنيَ له رصيف وأجرى عليه ، هكذا إلى أن انتهى به إلى البحر ، ثم دخل به في البحر ، وأخرج في جزيرة قادس ، والبنيان الذي [يجرى] عليه الماء ، في البحر ظاهر بين<sup>(٢)</sup> ، قال ابن سعيد : إلى وقتنا هذا .

« ومنها الرصيف<sup>(٢)</sup> المشهور بالأندلس ، قال في بعض أخبار رومية : إنه

(١) هذه العبارة غير واضحة ، والمعنى المراد كما يتضح من النص . جلب الماء من [الأرض إلى] البحر الحيط إلى جزيرة قادس ، لأن المراد هنا هو إيصال الماء من البر إلى طرف اللسان الذي تقوم عليه مدينة قادس بواسطة أنابيب مدت من الساحل خلال ماء الحيط . ولم أجده ذكرأ في مرجع آخر لإقليم الأصنام الوارد هنا .

(٢) الرصيف يراد به هنا الطريق الروماني المرصوف ، وقد سبق أن بينا ذلك .

لما ولَى يوليُش المعروف بـجاشِر<sup>(١)</sup> ، وابتدأ بتنزيع الأرض وتكسيرها ، كان ابتداؤه بذلك من مدينة رومية إلى المشرق منها وإلى المغرب وإلى الشمال وإلى الجنوب ، ثم بدأ بفرش المبلَّطة<sup>(٢)</sup> ، وأقبل بها على وسط دائرة الأرض إلى أن بلغ بها أرض الأندلس وركزها شرق قرطبة ببابها المنظام المعروف بباب عد<sup>(٣)</sup> الجبار ، ثم ابتدأها من باب القنطرة قبل قرطبة إلى شققده إلى إستجة إلى قرمونة إلى البحر ، وأقام على كل ميل سارية قد نقش عليها اسمه من مدينة<sup>(٤)</sup> رومية ، وذكر أنه أراد تسقيفها في بعض الأماكن راحة للخاطرين من وهج الصيف وهوول الشتاء ، ثم توقع أن يكون ذلك فساداً في الأرض وتغييراً<sup>(٥)</sup> للطرق عند انتشار اللصوص وأهل الشر فيها في الموضع المنقطعة النائية عن العمran ، فتركها على ما هي عليه » ، وذكر<sup>(٦)</sup> في هذه الآثار صنم قادس الذي ليس له نظير إلا الصنم الذي بطرف جليقية ، وذكر قنطرة طليطلة ، وقنطرة السيف وقنطرة ماردة ، وملعب سريطر ». .

فهذه فقرة بينَة الدقة والأهمية ، فقد وصف ابن غالب فيها كيف جلب الرومان الماء إلى قادس ، ووصف الطريقة الهندسية التي اتبواها في ذلك ، وتكلم عليها كلام من شاهد الأنابيب والسدليات التي مدها الرومان لهذا الغرض ، أو شاهد بعضها على الأقل . أما كلامه عن الطرق الرومانية فيكمل كلام أبي

(١) المراد يوليُوس قيصر .

(٢) كذا في طبعة أوروبا من نفح الطيب (١٢٤/١) .

(٣) الكلام هنا يدور على الطرق الرومانية المعروفة والمألف ينسب شقها كلها إلى يوليُوس قيصر ، وهو يرى هنا أن قيصر شق الطريق الغربي منها من روما إلى قرطبة ، وليس هذا بخطأ خالص ، فقد سبق أن بيننا أن لذلك الرأي من الحق وجهاً في كلامنا على ابن بشكوال الجغرافي .

(٤) هنا شيء ناقص ، وتمام العبارة فيها نعتقد : . . . قد نقش عليها اسمه [والمسافة] من مدينة رومية .

(٥) كذا في الأصل المطبوع ، والمعنى غير واضح .

(٦) المتكلَّم هنا هو المقرى ، يتحدث عن ابن غالب .

القاسم خلف بن بشكوال في نفس الموضوع ، وربما يكون ابن غالب قد اعتمد عليه ونقل منه ، ومن اليسير على القاريء أن يتبع أهمية هذه الفقرة . بقيت بعد ذلك اشارات قصيرة نقلها المقرئ عن «فرحة الأنفس» الأولى

(١) / (١٢٤) منقوله عن البكري في نسب أندلس بن يافث الذي تقول الاسطورة أن شبه الجزيرة سُمِّي باسمه ، والثانية (١) / (١٨٥) منقوله عن المسعودي في أن العنبر يوجد في الأندلس ، والثالثة (٢) / (٧) منقوله عن العذرى في إرجاع اسم قرطبة إلى أصل يوناني «وتؤويله القلوب المشككة» (عند العذرى ، ص ١٢١) قال : قال : «وذلك لأن تفسير [اسم قرطبة] بلسان القوط طاسعوت ، وهى عندهم القلوب المختلفة» ولفظ طاسعوت صحته فيما أعتقد طاسقُرْت ، رسم عربى للفظ اللاتينى معنى الخلاف ، ومنه جاء الإسبانى الحالى desacuerdo . وفقرة (٢) / (١٤) منقوله في الغالب عن ابن بشكوال عن سور قرطبة وهى تقول إن شقنة Secunda وهي الربض الجنوبي لقرطبة على الضفة اليسرى للوادى الكبير) كانت معدودة جزءاً من المدينة ، أى من مدينة قرطبة . وهذه كلها إشارات ذات قيمة بالنسبة للجغرافية التاريخية للأندلس .

كان ابن غالب إذن ناقلاً يندر أن يأتي بجديد أو يضيف شيئاً من عنده ، ولكنه كان ناقلاً جيداً ، أى يحسن الاختيار مما بين يديه من الأصول ، ثم يعرف كيف يربط بعضه إلى بعض ويجعل منه كلاماً متصلة على طريقة أهل تلك العصور ، ولا شك أن كتابه لو عثرنا عليه كاملاً يضيف إلى محسولنا من جغرافية الأندلس عند العرب شيئاً كثيراً نافعاً . وأمثال ابن غالب في تاريخ العلوم في العصور الماضية تتلخص مهمتهم في إيصال المعلومات التي يقرأونها في الكتب إلى غيرهم وتنبيتها بالتلكرار ، واستنقاذ الكثير من علم السابقين عليهم ؛ لأن الكتب في الماضي كانت عرضة للضياع لقلة ما ينسخ منها وتلاشى النسخ مع الزمن بكثرة الاستعمال أو فعل الأرضة وما إلى ذلك من عوامل القضاء على الكتب ، وقد كانت الكتب الجديدة تحمل القديمة التي ألفت في موضوعها ، وهى في

الغالب نقلٌ لما دتها أو اختيارٍ منها أو اختصارٍ لها مع اضافة الجديد . ولولا هذا لما وجدنا أثراً لما ضاع وقد من الكتب في الأندلس منذ قيام الفتنة الكبرى أوائل القرن الخامس الهجري ، وفي المغرب منتصفَ القرن الخامس إثر غارة بني هلال ، وفي الشرق الإسلامي في القرن السابع إثر استيلاء المغول على بغداد ودمشق وتواли مصائبهم على الجناح الشرقي لدولة الإسلام . ومن حسن الحظ أن أولئك الناقلين حرصوا على أن ينقدوا ما استطاعوا ، وبهذا وحده وصلت إلينا كتب كثيرة قيمة أو قطع منها ، وتاريخ الرازي ومقدمته الجغرافية خير مثال لذلك ، فها نحن نجمع أشتاتها كما يجمع حطام السفين الغارق ، والفضل في ذلك لرجال طيبين ذوى إحساس — واعٍ أو غير واعٍ — بقيمة تراث الماضيين وأهمية الحفاظ عليه كعنصر لازم لبقاء العروبة أولاً ثم لسير ركب الحضارة كلها إلى الإمام ثانياً .

### أبو الحسن علي بن سعيد ، جغرافيأ

ومن ابن غالب ننتقل إلى رحلة من مواطنه كان له في تاريخ الفكر الأندلسي مكان أوسع وأشمل ، فقد شارك في الأدب وتاريخه إلى جانب الجغرافية بتصنيب كبير ، ورحل فأبعد في الرحلة ، وجاور نواحي عالم العرب من طرف لطرف ، وعاش وأطال الإقامة في الأندلس والغرب ومصر والشام والعراق ، وعرف عن هذه البلاد كثيراً ، ودخل أهل العلم والأدب والرياسة فيها ؛ وكان إلى جانب ذلك كاتباً شاعراً بارعاً الحديث مقبلاً على التأليف والتصنيف ، فخلفت كتبه بلاحظاته وأنظاره وكلامه عما أحببه وما لم يعجبه ؛ وبينما كان أبو الحسين بن جبير رجلاً مطمئن النفس قنوعاً مستسلماً للأقدار كان أبو الحسن عليّ بن سعيد رجلاً قلقاً طالحاً متداخلاً مزيف النفس دائم الحسرة على ضياع أندلسه العزيز على نفسه ، وقد كان غادره في أسوأ حال سنة ٦٣٨ /

١٢٤٠ - ١٢٤١ إلى غير رجمة ، ومضى يقطع بلاد المشرق من طرف إلى طرف باكيًا مذكراً ، كما فعل الكثيرون جداً من أصحاب الرأى والعلم والرياسة من مواطنيه الأندلسيةين ، وقد عاونوا بتركهم بلادهم تمنى من بناتها على ضياع هذه البلاد وأسرعوا بزوالها ، لأن أشد ما أصاب الأندلس في عصور مختته هو إسراع أصحاب الرأى والفكر والثروة والرياسة والقيادة بالهجرة منه وتركهم جهور الناس هناك ضياعاً لا حمى لهم ولا قائد ، فلما استغل العدو البلاد لم يجد فيها من يتحدث باسم أهلها أو من يقودهم ويحمي مصالحهم ، فضاع أمرهم بددًا ، وقد فصلنا الكلام في ذلك في مقدمتنا لرسالة «أسنى المتاجر» للشيخ الونشري الشنقيطي نشرناها من سنوات .

ولا تمنعنا هذه الملاحظة العابرة من القول بأن أبي الحسن على بن سعيد يعد من أفذاذ الرجال في تاريخنا الفكري ، وشهرته عند القدامى والمحدثين يجدها عنها لسان الدين ابن الخطيب والمقرى وابن شاكر الكتبى وابن رشيد الفهرى وابن العاد الأصفهانى في خريدة القصر وأبو الحasan بن تغري بردى في «المنهل الصافى» وغيرهم كثيرون ، وفي أيامنا هذه عَرَفَ به بونس بوبيجس وبروكان وغرسية غومس وشوقى ضيف وملشور انطونيا وجورج سارتون وب . دوريتز ولك . فولوز وتالكفيست واغنـاطيموس كراتشکوفسکی وزكي محمد حسن وابراهيم الباري وج . بوتيرون<sup>(١)</sup> وغيرهم .

(١) عن أبي الحسن على بن سعيد انظر : فتح الطيب للمقرى (طبعة القاهرة سنة ١٩٤٩) ج ٣ ص ٢٩ وما بعدها (وفيه أولى تفصيل لدينا عن حياته) ورحلة ابن رشيد الفهرى ، مخطوطة الاسكورتيل رقم ١٧٣٧ ورقة ١٠١ وابن تغري بردى ، المنهل الصافى ، مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس ، (رقم ٢٠٧١ من فهرس دى سلان ، ورقة ١٦٦ ب) ، وتحفة العروس للتبيجاني ، مخطوطة مكتبة الجزائر الأهلية ، رقم ١٧٨٤ من فهرس فانيا ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ، ج ٢ ص ١١٢ ، والاحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب / ١ ٢٢٠ وما بعدها ؟ ومن المحدين : بونس بوبيجس ، رقم ٢٦٠ ، وبروكان / ١ ٢١٢ و ٣٣٦ و ٦٩٩ / ٢ والملحق / ١ ٥٤٦ و ٥٧٦ — ٥٧٧ ، ودائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الأولى ٤٢٩ / ٢ وجورج سارتون ، مقدمة تاريخ =

فاما مؤلفونا القدامي (من هؤلاء) فلم يقدّروا من ابن سعيد إلا ناحيته الأدبية ، وهي في رأينا أضعف نواحيه ، وقل من اهتم منهم بابن سعيد المؤرخ وأهم هؤلاء المقرى وابن الخطيب ، وأما ابن سعيد الجغرافي فقد اهتم به الغربيون بصورة خاصة ، وهنا تبيّنت القيمة الحقيقية لهذا الرجل النابه المتعدد الجوانب ، وقد كان بعض من نقلوا عن ابن سعيد من قدامى الجغرافيين مثل أبي الفدا قد خطأوه وحملوا عليه وقوسا في نقهـه ، خــاء بعض علماء الغرب من أمثال سارتون وبارتولد وكرانتشـكوفسـكي فأثبتـوا أنــ الرجل كان على علم صحيح حقــاً ، وأنــ أبي الفــدا ومن نــحا نحوــه لمــ يكونــوا مــوقــفينــ في نــقهــه .

والحقــ أنــنا إذا تأملــنا الجــوانــب الرــئــيســية التــلــاثــة من انتاجــ ابنــ ســعــيدــ وــجــدــناــ أنــ أــضــعــفــهاــ هوــ الأــدــبــ رــغــمــ أــنــهــ هوــ الــذــيــ شــهــرــ بــهــ عــنــ الــقــدــاــيــ وــالــكــثــيرــ مــنــ الــمــدــحــيــنــ .ــ أــمــاــ جــانــبــ الــقــوــةــ الــحــقــيقــيــةــ فــيــهــ فــهــوــ جــانــبــ الــجــغــرــافــيــ الــذــيــ لــمــ يــلــقــ فــيــ الــمــاضــيــ أــيــ عــنــيــةــ ،ــ وــأــمــاــ جــانــبــ التــارــيــخــيــ فــيــهــ قــيــيــنــ بــيــنــ ،ــ وــالــرــجــلــ فــيــ ذــلــكــ الــمــيــدــاــنــ الــأــخــيــرــ نــاقــلــ لــاــ مــبــتــكــرــ ،ــ حــقــاــ إــنــ عــدــاــ كــبــيرــاــ مــنــ مــؤــرــخــيــنــ كــانــواــ نــقــلــةــ أــوــ أــحــابــ مــخــتــصــرــاتــ أــوــ جــمــاعــيــنــ لــفــقــرــاتــ شــارــدــاتــ مــنــ هــنــاــ وــهــنــاــ ،ــ وــلــكــنــ ابنــ ســعــيدــ

== العلم ، ٢ / ١٠٦٥ من الأصل :

K. Vollers, *Fragmente aus dem Mugrib des Ibn Sa' id*, I, Berlin, 1894.

Ibidem, *Bericht über die Handschrift und das Leben des Ahmad ibn Tūlūn*, Berlin, Felber, 1894.

وهو يتضمن قطعاً من تاريخ أحد بن طولون ودولته من الجزء الخاص بمصر من كتاب المغرب و

K. L. Tallquist (Buch IV, *Gesch. der Ikhbschiden*, Leiden, 1899).

وهو جزء من «المغرب في حلــيــ الغــربــ» يتضمن تــارــيــخــ الــاخــشــيــدــيــنــ الــســمــيــ «ــالــعــيــونــ الدــعــجــ فيــ

ــتــارــيــخــ بــيــ طــفــيــ» ،ــ المــقــدــمــةــ الــإــلــاــيــانــيــةــ .ــ وــقــدــ أــعــادــ نــشــرــ هــذــاــ الــجــزــءــ زــكــيــ مــحــمــدــ حــســنــ وــحــســنــ مــحــمــودــ وــســيــدةــ

ــالــكــاــشــفــ فــيــ الــقــاهــرــةــ (ــســنــةــ ١٩٥١ــ) .ــ وــنــشــرــ جــزــءــ خــاصــاــ بــصــقــلــيــةــ بــ.ــ مــوــرــيــتــرــ فــيــ :

B. Moritz, *Ibn Sa'ids Beschreibung von Sizilien*, Centenario della naschità di Michele Amari, I, Palermo, 1910, pp. 292-305.

وــنــشــرــ Emilio García Gómez كتاب رــايــاتــ الــبــرــزــينــ وــغــالــيــاتــ الــمــبــرــزــينــ لــابــنــ ســعــيدــ مــعــ تــرــجــةــ

ــلــســبــانــيــةــ وــمــقــدــمــةــ ضــافــيــةــ وــتــعــلــيــقــاتــ وــافــيــةــ فــيــ مــدــرــيــدــ ســنــةــ ١٩٤٢ــ

ــوــآــخــرــ ماــ قــرــأــنــاــ بــحــثــ عــظــيمــ الــقــيــمــةــ فــيــ مجلــةــ أــرــاــيــكــاــ :

G. Potiron, *Eléments de Biographie et de Généalogia des Banū Sa' id*, Arabica, XII, 1965, fasc. I, 78-91.

في معظم ما بقى لنا من كتاباته في التاريخ ناقل صرف وخاصة فيها كتبه عن غير بلده الأندلس ، فما لدينا عن مصر منه إنما هو نقل مباشر عن الحسن بن زولاق وغيره .

أما سر شهرة ابن سعيد بالأدب فترجع إلى أنه وفد إلى المشرق في عصر غلب على المثقفين فيه طابع الأدب والرغبة في تسجيل كل بيت من الشعر يرد ذكره مخافة أن يضيع ، وهو اهتمام غالب على الناس بعد سقوط بغداد في أيدي التتار وضياع ألف الكتب أثناء هذه الكارثة المبررة ، فاتجاههم هم الناس إلى استرجاع ما فات واستنقاذ ما أمكن لإنقاذ من حطام السفين الغارق ، ولهذا فاننا نرى في عالم العرب كله ابتداء من القرن السابع الهجري اهتماما بالتسجيل والجمع ربما أشبه في كثير من الوجوه اهتماما اليوم بنشر هذا التراث ، ومن فضائل النفس العربية ذلك التعلق بالماضي والحرص على المحافظة على التراث الفكري للأجداد ، ولما كان حرص العرب على الحفاظ على هذا التراث يبدو في أجيال صوره في المحافظة على اللغة — لغة القرآن الكريم — فقد اهتم الناس أكثر ما اهتموا بالشعر والنشر ، فكثرت مجموعات المختارات من أواخر القرن السادس الهجري وطلبتها الناس بكل سبييل .

وفي هذا العصر بالذات أتى على بن سعيد إلى المشرق حاملاً زاداً ضخماً من تراث الأندلس الفكري ، وكان إحساس الناس في المشرق بضياع الأندلس عميقاً وإن لم يستطعوا عمل شيء لاستنقاذه ، لأنهم كانوا في مثل بلائهمنذ تراقت في أفقهم السنة هب الصليبيات وما أعقابها من كوارث غارات التتار ، فلا غرابة أن أقبل الناس على على بن سعيد إقبالاً عظيماً وطار اسمه كل مطار ، وكان هو نفسه رجلاً ذكيًّا نشيطاً لسيناً مقبلاً على العمل ، فاصبح خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري علماً من أعلام المجتمع والثقافة في المشرق العربي كله ، وذاع له الصيت العظيم ، ثم جاء المقرئ بعد ذلك بأربعة قرون فدعا لابن سعيد دعوة كبيرة وأشاد بذلك في كل موضع نزل فيه ، فزاد ذكر الرجل

طيراً ووصل إلينا اسمه في دوى عظيم على أنه من أكبر المؤلفين في تاريخنا الأدبي . والحق — كما قلنا — أن هذه الشهرة بالأدب ليس لها في الواقع ما يبررها ، ففي هذا الميدان بالذات لا يعد ابن سعيد من الجيدين ، وحتى في جزء كتاب «المغرب» الخاص بالأندلس ، وهو أهم ما بقى لنا من كتب المختارات الأدبية التي خلفها ، نلاحظ — بعد أن عثرنا على الكثير من الدواوين والأصول — أن ابن سعيد لم يحسن الاختيار في أحيان كثيرة ، وحتى الجيد من مختاره نجد أن مرجعه فيه مجموعات مختارات أخرى كالitième للتعالي وكتاب البديع في فضل الربيع لأبي الوليد الحميري والمسهب للحجاري وما إليها . ويبدو أنه صنف بعض صغار كتبه مثل «عنوان المرقصات» و «الزهور اليانعة» و «رایات المبرزين» استجابة لطلب من كان يخدمهم بالأدب ، فجاءت — وخاصة الأولان من هذه — مجموعات صغيرة سريعة الصنع ينقصها التجويد حتى لنجد له — رغم صغر هذه الكتب — يكرر في بعضها ما أورده في بعضها الآخر . وكان للرجل عذر في ذلك ، إذ أنه كان مضطراً في حياة الغربة التي كتبت عليه إلى أن يكسب رزقه ، وكانت هذه الكتب الصغيرة بعض وسائله إلى هذا الكسب ، وهذا يحذونا إلى أن نحمل حياة الرجل لكي نقدر ظروفه التي عاش وعمل فيها ، وسنوجزها في سطور ، لأن ابن الخطيب والمقرى أضا فيها بما يعنينا عن التفصيل ، ثم إن غيرنا من كتب عنه أو نشر شيئاً من مؤلفاته أورد ترجمة حياته بما فيه الكفاية ، وخاصة غرسية غومس في مقدمة «الرایات» وشوق ضيف في مقدمة «المغرب» وكراشكونفسكي في الفقرة التي أدارها على ابن سعيد من الفصل الثالث عشر من كتابه الفريد عن الأدب الجغرافي العربي (ص ٣٥٦-٣٥٩) (١) .

ولد على بن سعيد سنة ١٢٠٨ / ٦٠٥ في قلعة يحصب أو قلعة اسطبلير التي تسمى أيضاً بقلعة بنى سعيد وهي اليوم الكلا لا ريال (القلعة الملكية)

(١) نشير هنا إلى المادة الطيبة الخاصة بيني سعيد التي يوردها ج. بوتيرون في مقاله الآتف الذكر .

Alcalá la Real بلدة متوسطة ومركز إداري في محافظة جيان ، تقع على بعد ٥٦ كيلومتراً من عاصمة المحافظة وتقع على ٥٢ كيلومتراً شمال غربى غرناطة على الطريق منها إلى قرطبة ، وكانت هذه القلعة كا يتبين من آثارها التي زرناها قائمة على تل متوسط الارتفاع (٩٠٠ متر) ، وهى حصينة الموقع ، ولكنها ليست قط كما قال ابن فضل الله العمرى : « حصنًا خَيْمَ على الغيوم وتحت بالنجوم ، نافح الرياح ، وصفح بكفه الثريا راحا براح ، وعلا فما طلع إلا في ذيل افقه الصباح ... »<sup>(١)</sup> ، فهذه مبالغات أديب سجّاع لم ير بعينيه هذا الحصن أو أى شيء آخر في الأندلس ، وكأنه قدّر أن ميلاد الرجل في « حصن خَيْمَ على الغيوم » يستتبع بالضرورة أن يكون رجلاً عظيماً . ولكن العُمرى كان صادقاً في قوله بعد ذلك : « وهو صاحبى الذى أواقه فى هذا الكتاب تارة وثارة وأواخذه ، ومرة أعاده ومرة أنانبه » وهى عبارة تدل على اعتماد العُمرى على كتابات ابن سعيد فيما أورد عن الأندلس ، ولم يكن العُمرى الوحيد في الاعتماد على ابن سعيد ، فالحق أن مجموعات هذا الأخير ومحاتراته كانت من أكبر المراجع عن الأدب الأندلسي من بعده ، وفي كلام المقرى عن ابن سعيد في النفح ما يدل على ذلك بأجلٍ بيان .

وينتسب آل سعيد إلى الصحابي المعروف عمّار بن ياسر ، وأول من نسمع عنه منهم في الأندلس عبد الله بن سعيد بن عمّار بن ياسر وهو الذي دخل الأندلس وغرس جذور بيت بنى سعيد فيه ، ويبدو كذلك أنه أول من احتل قلعة أسطليير وسماها باسم بيته ، ولكن الأهمية السياسية لبني سعيد ترتبط بذلك عبد الملك بن سعيد بن خلف الذي استقل بالقلعة لأول عصر الطوائف ، وعلى

(١) ترجمة ابن سعيد في « مسالك الابصار » ، نسخة مصورة بدار الكتاب المصرية تحت رقم ٢٥٦٧ تاريخ ، المجلد الثامن ، الورقة ٣٨٢ ، وقد نضخت دار الكتاب المصرية فعملت صورة لمحمد الدراسات الإسلامية بمدريد من أجزاء مسالك الابصار الخاصة بالأندلس ، والفضل في هذه الاشارة يرجع إلى الدكتور شوق ضيف ، انظر مقدمة المغرب ص ٦ — ٧

هذه الصورة وجده الأديب الرحالة الجوال إبراهيم بن وزم الحجاري عندما وفد عليه سنة ٥٣٠ كـ حكيناه في موضعه . وقد دخل عبد الملك في طاعة المرابطين ، ولكنه كان أشبه بالمستقل في حصنه على عادة أصحاب الحصون في ذلك العصر المضطرب ، فلما انتقل الأمر إلى الموحدين انتقل إليهم بولائه وتوفى في مراكش سنة ٥٦٢ / ١١٦٧ ؛ وخلفه في ولية الحصن ابنه محمد ثم حفيده موسى والد أبي الحسن على ، وفي عهده انتهت رياضة البيت في القلعة المنسوبة إليهم ، وانتقل موسى إلى الجزيرة الخضراء وألياً لها للمتوكل بن هود ، ثم غادر الأندلس إلى المغرب فالمشرق جلة . وقد تكررت النهاية وعلو الذكر بالأدب في هذا البيت ، ونورد فيما يلي جدول نسب ذكر فيه أهم من اشتهر من أهل هذا البيت حتى على ابن سعيد وذلك مراعاة للاختصار ولجرد التعريف :

عبد الملك بن سعيد

كان واليًا لقلعة يحصب سنة ٥٣٠ / ١١٣٥ - ١١٣٦ وكان واسع الشهرة بالعناية بالأدب وأهله ، وعليه وفـ إبراهيم بن وزم الحجاري

محمد

١١٩٣ / ٥٨٩ - ١١٢٥ / ٥١٩

كان أول الأمر من أتباع يحيى بن غانية عامل المرابطين على شرق الأندلس ، ثم دخل بعد ذلك في طاعة الموحدين فاستوزر وولوه الاموال الجليلة مثل اشبيلية وغرناطة ، وكان سيداً جيلاً مدحه شعراء منهم الرصاف الرفاه وعلى يديه بنى جامع اشبيلية

أبو جعفر أحمد (ت ١١٥٥ / ٥٥٠)

كان كاتباً ووزيراً لعثمان بن عبد المؤمن الوحدى وكان شاعراً ذا إحسان . تلقى بالشاعرة حفصة الركونية ، وكان الوالي عثمان متعلقاً بها ، وفي المنافسة عليها لقى الشاعر حتفه

عبد الرحمن

ت. ١٢٢٠ / ٦١٦

في بخارى

أورد ذكره على بن سعيد فيما ذكر من أخبار أهل بيته في «الرایات» ص ٣٦

موسى

يحيى

مالك

توفي بالسكندرية سنة ٦٤٠ وهو والد على ، وستحدث عنه أبو الحسن على

١٢٨٦ / ٦٨٥ - ١٢١٣ / ٦١٠

وكانت وفادة ابراهيم بن زمر الحجاري على عبد الملك بن سعيد حادثاً فاصلاً في تاريخ البيت كله ، فقد كانوا كما رأينا أهل أدب وعنایة بالعلوم ، شأنهم في ذلك شأن الكثيرين من سروات الأندلس وأهل الرياسة فيه ، ولكن أحداً من بني سعيد لم يفكّر قبل ذلك في أن يؤلف كتاباً ، ثم أتاهم هذا الأديب الشاعر الرحالة القلق يحمل زاداً ضخماً من العلم بالأندلس وآداب أهله ، فاقتصر عبد الملك عليه أن يسجل شيئاً من علمه ومحفوظاته في كتاب ، فعمله في هيئة جدول جغرافي أدبي عام ، قسم الأندلس فيه إلى كوره وبلاده ، ووضع في كل كورة أو بلدة من ذَكْرِه من أهل الأدب من أبنائه ، فكان بذلك مبتكرًا لشيء سميه الجغرافية التكربية ، واستودع كتابه صاحبه وراعيه عبد الملك بن سعيد ومضى الحال سبيله .

ومضى عبد الملك وأبناؤه ينظرون في ذلك الكتاب فراقهم نظامه ، وهو في الواقع نظام مبتكر طريف ، ولكنهم وجدوا أن الحجاري أنسى الكثير وأهمل الكثير ، فضوا يكملون فواته ، وقد اعتبروا أنفسهم من أول الأمر شركاء للرجل في كتابه ، فضوا يعدّون فيه ويزيدون عليه ويحورون مادته كيما راق لهم حتى أصبح «المسهب» على أيديهم شيئاً آخر مختلف في تفاصيله عما وضعه مؤلفه ، ولكنهم احتفظوا على أى حال بهيكله العام ، وهو هيكل جغرافي ، وانصبّت اضافاتهم وتعديلاتهم في إطار هذا الهيكل ، ونحن إذا ساحناهم في إضافة ما أضافوا فأننا لا ننفر لهم حذف ما حذفوه من مادة الكتاب ، والبادئ بهذا عبد الملك بن سعيد فالثابت من مقدمه «للغرب» أنه كان «يختصر ما لم يوافق غرضه ، وفيه تطويل غير مفيد» ، ولا شك أن أولاده جروا على ذلك ، فأصبح المسهب على أيديهم كتاباً آخر هو المغرب في حل المغرب» ، وأصبح تأليفاً بالمشاركة بين رجل وأسرة ، وهو شيء طريف في بابه منها كانت وجوه نقدنا له .

وكان موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد أعظم أهل ذلك البيت عناية بالكتاب ، فقد كان في نفسه علامة فاق المنقطعين للدرس في اقباله على المطالعة والجمع والتقييد ، وهو يمثل لنا في الأندلس هذا النزوع إلى تسجيل تراث الماضي تحت تأثير الخطر الملحق ، وقد وصف لنا ابنه على بن موسى ابن سعيد ولعه البالغ بالمطالعة والقراءة وحرصه على تدوين كل ما وصل إلى علمه من الآثار الأدبية ، حتى لقد تحمل وهو وال على الجزيرة الخضراء جفوة رجل كانت لديه كراريس فيها تقييدات شعرية لكي ينسخ ما ند عنه من مادتها قبل أن تضيع ، وكان عمره كله قارئاً كتاباً ، ومثل هذا الرجل ، وإن خلا جهده الطائل من الجديد والاصالة ، يمثل لنا هذا النزوع الذي وُهبته أمة العرب إلى الحافظة على تراث الماضين من أبنائهما ، وهو نزوع يرجع إليه الكثير من الفضل في بقاء الأمة العربية نفسها وتجدد قواها وشبابها في أوقات الأخطار وبعد عصور الركود والاضمحلال .

ولتكنا إذا نظرنا فيها لدينا من قطع المغرب لم نلاحظ فيها ما يدل على تجميع واسع المدى أو حشد عظيم من المادة ، فإن ما تضممه صفحات هذه القطع لا يخرج عما يتيسر بالمشقة اليسيرة من مراجع معروفة لنا الآن ، وغالب التقول من مسهب الحجاري ومقتبس ابن حيان وحدائق ابن فرج وجذوة الحميري وذخيرة ابن بسام وقلائد الفتح بن خاقان ومطممه وما أشبه ، وهذه كلها مراجع نفترض بداعها أنها كانت بيد كل متاذب من أهل الأندلس إذ ذلك ، وهي لا تحتاج إلى العمر الطويل لقراءتها واستخلاص ما فيها ، فكيف قضى موسى عمره الطويل في هذا العمل ؟ وأين هي الغرائب والشوارد التي يحدها على بن سعيد أن أباه وفق إلى جمعها ؟ الحق أنها نحس هنا بشيء من المبالغة لا تستبعده من أبي الحسن هذا ، فقد كان بطبعه صاحب دعاية واسعة وطلب وزمر يسمعان من الأقصى ، وحسبك أن تنظر في بعض كتبه مثل «عنوان المرقصات والمطربات» أو «الغضون اليائنة» لترى أنها ليست بكتاب

مستقلة بحال ، إنما هي صفحات ومحنثارات من المغرب وغيره من كتبه الأخرى ، جمعها وجعل لها عنوانا طنانا رشيقاً بحسب مفهوم العصر ، وأسعد بها هذا أو ذاك من جماعة الكتب من سروات الناس ، بل إن تكوين كتاب المغرب نفسه يلقى في الروع هذا الإحساس ، فهذا رجل يجعل الأندلس ممالك كثيرة ، وما كان الأندلس على أيامه بمالك أو حتى بملكة ، وإذا استجزنا أن يقال مملكة قرطبة وملكة أشبيلية ، فكيف يقال مملكة شلب أو مملكة باجة أو مملكة أشبوونة أو مملكة مالقة ؟ وهذه لم تكن قط وحدات سياسية قائمة بذاتها لا أيام الطوائف ولا قبلها أو بعدها ؟ ثم ما هي هذه الكتب التي ملاً بها مؤلفه ؟ فلكل قرية كبيرة أو صغيرة ، ولكل حصن — هام أو غير هام — كتاب في حسابه ، والكتاب قد يكون صفحتين بل صفحة ، وكل كتاب من هذه يبدأ بتسمية وتصلية وتحميد كأنه مؤلف قائم بذاته ، بل للكتاب عنوان شامخ مسجوع ظاهر التكلف : « كتاب التعريش في حلى مدينة شريش » و « كتاب غفلة العجلان في حل قلعة خولان » وكتاب « فجأة السرور في حل كورة مورور » وما إلى هذا مما أتقل به على بن سعيد المغرب حتى أصبح وكأنه أقرب إلى الم Hazel ؟ هذا كله ثمرة ولعه بالدعوة الواسعة والكلام الطنان ، وهذه خصلة من خصاله ، ولا نقول هذا لنعيها عليه ، فهي ليست عيّاً وإنما جزء من شخصيته ، وربما كانت بعض أدواته لكسب عيشه ، والذى يهمنا هنا أن نحسب حسابها فيما يذكر على بن سعيد عن أبيه موسى وعظيم اجتهاده في الدرس والتقييد ، ولا ننكر أنه قضى عمره في ذلك ، ولكننا لا نجد بين أيدينا إلا القليل من ثمرات هذا الجمع .

ظل موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد في طاعة الموحدين حتى اضطرب عليهم الأمر في الأندلس بعد موت رابع خلفائهم محمد الناصر (توفي سنة ٦١٤/١٢١٤) فقد وقع الشقاق بينهم وتطاحنوا على الملك أو ما خيم إليهم أنه ملك ، حتى نهض أبو العلاء بن أبي يعقوب المنصور وكان والياً على

اشبيلية وجمع قواته وأزمع العبور إلى المغرب للمطالبة بالعرش ، وثار عليه الثائرون وأكثراهم المتوكل بن هود (٦٢١ - ٦٣٥ / ١٢٢٨ - ١٢٣٨) وكان رجلاً شهماً بأسلا لولا طيش واندفاع كانا فيه ، فدخل موسى بن سعيد في طاعته ، فولاه على الجزيرة الخضراء ، فانتقل إليها بأهله وولده ، ويفهم من هذا أنه تخلى عن قلعة يحصّب ، لأننا لا نجد لها بعد ذلك ذكرًا في تاريخ ذلك البيت ، وربما يكون الموحدون قد استنزلوا بني سعيد منها ، ولم تدم ولاية الجزيرة الخضراء لموسى ، أو لم يستمسك هو بها بعد مقتل المتوكل بن هود ، لأن أمراً الأندلس في الواقع صار إلى الفوضى التي سقط خلالها خط الوادي الكبير مع امتداده إلى بلنسية ومرسية ، وهي فوضى استمرت حتىتمكن محمد بن الأحمر من الثبات في حصن الحمراء وإنشاء الدولة النصرية التي انسأت في عصر الأندلس حوالي القرنين ونصف .

في سنة ٦٣٨ / ١٢٤٠ - ١٢٤١ أزمع موسى بن سعيد الرحلة إلى المشرق في رفقة ابنه أبي الحسن علي ، ويقال إن هذه الرحلة كانت للحج ول لكن الواقع أنها كانت هجرة نهائية ، وبعد ضياع قلعة بني سعيد وذهاب أمراً الموحدين وتلاشى الأمل الذي تراءى بظهور المتوكل ابن هود لم يبق لبني سعيد في الأندلس إلا الذكر الطيب وما ادخروا من ثروات المال . وكان نفر من أهل هذا البيت قد هاجر بالفعل إلى المشرق ، ومن هؤلاء أبو الحسن بن الحسين بن سعيد الذي استقر في تونس وتوفي فيها سنة ٦٠٤ / ١٢٠٧ وهو ابن أخي عبد الملك بن سعيد وقد ذكره المقرئ (فتح الطيب ١ / ٦٤٠) بمناسبة الكلام على حفيد ابن عم سعيد بن الحسن يسمى أبو عبد الله محمد بن الحسين الذي سيكون له شأن مع علي بن سعيد . وكان هذا الأخير من رجال أبي زيد بن الشیع أبي محمد بن أبي حفص والمستنصر الحفصيين ، ويبدو أن موسى بن سعيد وابنه كانوا يرجوان أن يستظلوا برعاية قريبيها هذا ويستقرا في تونس ، فقد كانت جماعاتٌ من مهاجرة الأندلسيين تفتقد إذ ذاك على عاصمة الحفصيين شيئاً فشيئاً .

وقد ذكر على بن سعيد ذلك الرجل في الولايات ووصفه بأنه «الوزير العالم الرئيس . . . صاحب دولة ملك إفريقية في هذا التاريخ وهو سنة أربعين<sup>(١)</sup> وستمائة» ، ولم يكن الرجل عند حسن الظن به ، إذ وقع بينه وبين على شىء من منافرة ، فاضطرر هذا إلى مغادرة تونس إلى المشرق<sup>(٢)</sup> .

من تونس انتقل مومي بن سعيد وابنه إلى الأسكندرية فوصلها في ٢٧ ربيع الأول ٦٣٩ / ٥ أكتوبر ١٢٤١ ويبدو أن موسى مرض هناك ، لأنهما أقاما بها حتى وفاته بها في ٨ شوال ٦٤٠ / ٣١ مارس ١٢٤٣ وبعد ذلك مباشرة انتقل على بن سعيد إلى القاهرة ، ويبدو أن شيئاً من صيته وصيت أهله كان قد سبقه إلى عاصمة الديار المصرية ، لأنه لم يلبث أن ظهر أسره وداخل أهل العلم والفضل والرياسة ، ومن أهم هؤلاء أبو الفتح موسى ابن يعمور بن سليمان بن عبد الله ، وكان من كبار رجال الدولة الأيوبيية ، إذ كان نائباً للسلطنة ، وقد ترجم له كتاب الدين بن جعفر بن ثعلب الأدفوي في «الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواية بأعلا الصعيد» (القاهرة ١٩١٤ ص ٣٨١ - ٣٨٢) وذكر الوظائف الكبرى التي تولاها ، فكان ولانيا للقاهرة أيام الملك الصالح أيوب ، ثم ولانياً لدمشق أيام تورانشاه ثم استادارا (أي رئيس القصر السلطاني) أيام الظاهر بيبرس ثم نائباً للسلطنة إلى أن توفي في أول شعبان ٦٦٣ / ١٩ مايو ١٢٦٥

وكانت لابن يعمور فيها يظهر عنابة بأهل الفكر من وفد على مصر من الأندلسين ، فقد كان من بين ندائه أبو الحجاج بن عتبة الإشبيلي الشاعر وأبو عبد الله محمد بن أبي الفضل الشامي المرسي وكان شاعراً أيضاً ، وأندلسي ثالث يسمى ابن الجزار . وكان من الطبيعي أن ينتفع ابن سعيد بصداقته هذا الرجل ، فألف له كتاب «رأيات المبرزين وغاليات المميزين» وهو كما يفهم من فاتحته

(١) رأيات المبرزين لابن سعيد ، ص ٦

(٢) انظر نفح الطيب ، ٤٠ / ٣ - ٤١

مقتبساً من «المغرب» ، وعلى طول حياة ابن سعيد كان «المغرب» هذا كنزه الذي يعتمد عليه وذرره الذي يستند إليه ، كلما حاجه الأمر إلى كتيب يلطف به رئيساً مذَّيده في المغرب وأخرج شيئاً ، ثم نسقه وزوجه بالسبعينات وأهداه ، ولا ندري إن كان المغرب إذ ذاك قد تم تأليفه أو أن علياً بن سعيد كان يحمل مادته وينتظر بها الفرصة المواتية لفراغ منها .

ويبدو من مقدمة كتاب «المشرق في حل المشرق» أن موسى بن سعيد كان قد فرغ من «المغرب» قبل رحلته إلى الشرق ، بل خطر بباله وهو على أبواب هذه الرحلة أن يكمله بكتاب على نسقه يسميه «المشرق» يستكمل به التاريخ السياسي والأدبي للعالم الإسلامي بأسره ويسميه «فلك الأرب ، الحيط بحلي لسان العرب» ، ويبدو أن العمر لم يطال به لاتمام مشروعه ، لأن كل ما لدينا من قطع «المشرق» إنما هي من تصنيف علي بن سعيد . أما المغرب فييمكن القول بأنه من عمل موسى بن سعيد ومن سبقه من اجتهد في جمع مادة هذا الكتاب من آل سعيد على أساس ما عمله الحجازي . وقد أضاف على إلى المغرب أشياء هنا وهناك ورتب ونسق ، وربما كانت العناوين المسجوعة من وضعه ، فقد كان بها جدًّا مولعاً .

ولم تسنح الفرصة لابن سعيد لإخراج المغرب وإتمام المشرق إلا بعد أن تعرف على صديق جديد هو كمال الدين بن عمر بن أبي جراده المعروف بابن العديم صاحب تاريخ حلب ، فقد وفد هذا على القاهرة رسولاً من الناصر الأيوبي صاحب حلب إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهناك عرف ابن سعيد وما عنده من العلم والفضل فدعاه إلى الرحلة إلى حلب والدخول في خدمة أصحابها ، فذهب إلى هناك وقضى ثلاث سنوات من ٦٤٤ إلى ٦٤٧ / ١٢٤٦ - ١٢٤٩ ربما كانت أهداً أيام حياته وأوفرها انتاجاً ، فقد أتم إخراج المغرب وربما جزءاً من المشرق . ويبدو أنه لم يطمئن بعد ذلك للمقام في حلب ، فاتجه إلى دمشق ، وهناك دخل في خدمة السلطان المعظم توران شاه وأصبح

من ندماهه ، ولم يطل به المقام هناك أكثر من سنة ، فرحل سنة ٦٤٨/١٢٥١ إلى بغداد ومر في طريقه بإرمينية وأرستان ، ثم غادر بغداد إلى الحجاز حيث أدى الفريضة ، ثم كر راجعاً إلى تونس سنة ٦٥٢/١٢٥٤ حيث نزل أول الأمر على صديقه أبي العباس أحمد التيفاشي صاحب الموسوعة المعروفة .

وقد طالت إقامته بتونس هذه المرة ، فلم يرحل منها إلا سنة ٦٦٦/١٢٦٧ ونعتقد أنه اهتم بإتمام «المشرق» في هذه الفترة ، والغالب أيضاً أنه كتب في أثناء ذلك أحسن ما ألف في الجغرافية وهو كتاب «بسط الأرض في طولها والعرض» الذي سنتحدث عنه بعد قليل ، ونميل إلى هذا الرأي لسبعين رئيسين : الأول أننا نلحظ في الكتاب طابع المواد الموسوعية التي كان يكتبه أبو العباس التيفاشي ، وربما يكون ابن سعيد قد لاحظ أن مادة صاحبه في الجغرافية قليلة ، فأحب أن يستكمل هذا النقص بكتاب مختصر له قائم بنفسه في ذلك الموضوع ، والثاني هو أن الكتاب في جملته قائم على أساس نزهة المشتاق ، ونظن أن هذا الكتاب وصل إلى تونس أول ما وصل من بلاد الإسلام .

وفي سنة ٦٦٦/١٢٦٧ رحل على بن سعيد إلى المشرق مرة أخرى ، ولا نعلم ما الذي دفعه إلى القيام بهذه الرحلة الجديدة ، بل لا نكاد نصدق ما يقال من أنه أبعد في السفر هذه المرة حتى أوغل في إيران لكن يرى بعضيه هولاًكو ، لأن هولاًكو توفي سنة ٦٦٣/١٢٦٥ أي قبل شروع ابن سعيد في رحلته بثلاث سنوات ، وقد لاحظ ذلك التناقض موريتز في دراسته عن الأجزاء الخاصة بصفلية من كتاب «بسط الأرض في طولها والعرض» لابن سعيد ، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا المقال<sup>(١)</sup> .

وعاد ابن سعيد بعد ذلك إلى تونس حيث أقام حتى آخر أيامه ، وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته ، فاما ابن شاكر الكتبى وابن تغري بردى

(١) رایات المبرزین ، بتحقيق غرسیة غومس ، ص ٦٤

فيقولات أنه توفي في دمشق سنة ٦٧٣ / ١٢٧٤ في حين أن ابن الخطيب والمقرى وابن فرحون (الديباج المذهب ، ص ٢٠٨) والسيوطى (حسن المعاشرة ، ١ / ٣٢٠) يقولون إنه توفي في تونس سنة ٦٨٥ / ١٢٨٦ وقد رجح شوقى ضيف (مقدمة المغرب ، ص ٨) رأى الآخرين بقرينة لا تتحتمل الجدل وهى ما ورد في نهاية نسخة مصورة محفوظة بدار الكتب المصرية لأحد مخطوطات «القصون اليانعة في محسن شعاء المائة السابعة» من أنه كتب سنة ٦٨٣ / ١٢٨٤ ، والمخطوط بخط ابن سعيد نفسه .

عاش ابن سعيد إذن حياة طويلة عريضة حافلة بالأحداث والتجارب والأسفار والعمل ، وهو دون شك من أعاظم الأندلسيين الذين وفدوا على المشرق ومن أبعدهم أثراً فيه ، فقد أقبل إلى المشرق يحمل قطعة عزيزة من تاريخ بلده متمثلة في تاريخ بيت يمني قديم يرجع إلى آل عنس اليحصبيين ويحمل في طياته عمار بن ياسر رمز المستضعفين في الأرض الذين مَنَ الله عليهم وجعلهم أغزة . انتقل آل هذا البيت إلى الأندلس وأقاموا هناك مجدًا سياسياً ثم توفر الآخرون من رجاله على إنشاء كتاب هو من مفاخر الأندلس بفضل ما يحمل من ثراث قرائح أهله ، ثم عاد آخر أولئك الرجال إلى المشرق طاوياً أعلام الجد السياسي وناشراً صفحات الجد الفكري في تونس وفي عواصم الشرق : القاهرة ودمشق وحلب أتم الرجل عمل آبائه وختم تاريخهم أجمل خاتم بفضل ما أُتى من الذكاء والنشاط وطرافة الشخصية وما حرص عليه من الدعوة العريضة لوطنه الأندلس وأهله ، فاما دعوته للأندلس فقد اتجهت نحو وصف الأرض والجو والمدن وما إلى ذلك فأمدتنا بمادة جغرافية صرفة من الطراز الأول ، وأما دعوه لأهله فاتجهت إلى بيان امتيازهم الفكري ، فأمدتنا بمادة أدبية ذات قيمة لا تقدر .

لا عجب إذن أن نجد لعلىَ بن سعيد صوتاً بعيداً وتقديرًا عظيمًا عند من أتى بعده من رجال الأدب في المغرب العالم الإسلامي ومشرقه ، فلسان الدين

ابن الخطيب يرى فيه «وُسْطَى عَقْدَ بَيْتِهِ، وَعَلَمَ أَهْلَهِ، وَدَرَةَ قَوْمِهِ، الْمَصْنُفُ الأَدِيبُ الرَّحَالُ، الطُّرْفَةُ الْإِخْبَارِيُّ، الْعَجِيبُ الشَّانُ فِي التَّجَولِ فِي الْأَقْطَارِ وَمَدَاخِلَةُ الْأَعْيَانِ لِلتَّمَتُّعِ بِالْمَحَرَّائِنِ الْعَالَمِيَّةِ، وَتَقييدُ الْفَوَادِنِ الْمَشْرِقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِيَّةِ<sup>(١)</sup>» والمقرى أكبر من حمل لواء الدعوة للأندلس في الشرق بعد ابن سعيد يقول على طريقته في المبالغة الساذجة : «أديب زمانه غير مدافع ، من اعترف له أهل الشرق بالسبق ، وأهل المغرب بالإبداع المغرب ... الشهير بالغارب والمشارق ، المُحَلَّى بجواهره صدور المهاجر<sup>(٢)</sup>» ، وابن فضل الله العمري يقول : «أديب مبدع ، ولبيب ممتع ، وكانوا من بيت ملك لا ينفعنه بالوعيد ، وكان لهم حصن سعيد بالأندلس ...» ويقول الصfdi : «ابن سعيد من أئمة الأدب المؤرخين » وغير ذلك كثير .

وأحسب القارئ قد لاحظ أن أحداً من هؤلاء لم يبنه إلى ابن سعيد الجغرافي ، فكأن الصفحات الجغرافية المشرقة التي قدم بها للأقطار والتي أتى بذكرها في كتابه الكبير «فلك الأرض» والتي سنورد منها نماذج مما يتصل بالأندلس ، كان هذه الصفحات كانت في حسابهم مداخل أو مقدمات لا أهمية لها ، حتى رجال موسوعيون كابن فضل الله العمري – المفروض فيهم أن يتبعنوا طبيعة ما يقرأون ويميزوه عن غيره ويفيدوا منه في بابه – فاتهم أن يتباهوا إلى ذلك ، وجعلوا الرجل أدبياً ومؤرخاً ولا زيادة ، والحق أن ابن سعيد في الأدب ناقل متكلف وفي التاريخ حاطب متجل وفى الشعر نظام قلل أن تظفر له بيت ذى قيمة شعرية حقيقة ، أما فى الجغرافية فقد كان رجلاً أصيلاً وذهناً جديراً بالاعجاب ، وقد بين ذلك بـ. موريتز فى دراسته عما كتب ابن سعيد عن صقلية وبارتولد فى دراسته لما كتب عن أوروبا الشرقية

(١) رواه المقرى في النفح ، ٣٨/٣

(٢) نفس المرجع ، ٢٩/٣

وهو يحيى بن جعفر بن حمَّان في كتابه الفريد عن الأقاليم السبعة وجورج سارتوت في مقدمة تاريخ العلم وغير هؤلاء كثيرون من أصحاب اغناطيوس كراتشوفسكي في عرضه الموجز الممتع لأعمال ابن سعيد الجغرافي (ص ٣٥٦ - ٣٦٠ من كتاب الأدب الجغرافي العربي).

### المادة الجغرافية في كتاب المغرب في حل المغارب

لن نذكر من أعمال على ابن سعيد غير «فلك الأرب» و «بسط الأرض» : فقد أحصاها بروكان واستوفى شوقى ضيف بعض فوات العالمة الألماني ، ودرس كذلك في مقدمة المغرب التكوين العام لهذا الكتاب مما يعنينا عن إعادته هنا ، ولكن يحسبنا العبارة التالية من مقدمة «المُشرق في حُلِّ المشرق» وهو جزء من النصف الثاني من «فلك الأرب ، المحيط بحل لسان العرب» وهي تبين منهج على بن سعيد في صياغة الكتاب في صورته التي وصلت إلينا ، وسنقسم العبارة إلى فقرات زيادة في الإيضاح . قال المؤلف :

١ — كل من التصنيفين (يريد المُشرق والمغرب وهما القسمان الكبيران لكتاب فلك الأرب) مرتب على البلاد . متى ذُكر بلد ذُكرت كُورَة ، وأتكلم عليه وعلى كل كورة منه .. وأبتدئ بكرسي مملكتها وقاعدة ولايتها بحسب مبلغ [علمي] من إعلام بمكانها من الأقاليم ، وما يحفل بها من ثَرَّ أو مَنْزَهٌ أو خاصة معدنية أو نباتية .

٢ — ومن تداول عليها من أبناء الملوك أولى التواريخ التي لا يجب إغفالها .

٣ — ثم نأخذ في الطبقات واحدة بعد أخرى ، وهي خمس : طبقة الأمراء ، وطبقة الرؤساء ، وطبقة العلماء ، وطبقة الشعراء ، وطبقة اللفيف . [والأربع الأولى] مخصوصة بمن له نظم من أولى الخطط المذكورة ، ولها تفسير

تقف عليه في موضعه . وطبقة اللفيف مخصوصة بمن ليس له نظم من أى صنف كان ، من لا يجب إغفاله ، وفيها من التوادر والمضحكات ما يكون [مثل] الاحماض<sup>(١)</sup> .

فالفقرة الأولى من هذا المنهج خاصة بالمادة الجغرافية من الكتاب .

والفقرة الثانية خاصة بالمادة التاريخية .

والفقرة الثالثة خاصة بالمادة الأدبية مع إشارات تاريخية .

وإذا نحنأخذنا الأجزاء الخاصة بالأندلس من «المغرب» تبيينا أن المادة الجغرافية تنقسم إلى قسمين : مقدمة عامة مفصلة عن جغرافية الأندلس ، ثم تعريفات جغرافية مختصرة خاصة بكل بلد يرد ذكره .

فأما المقدمة الجغرافية فستتحدث عنها بتفصيل بعد يسير ، وأما المقدمات الجغرافية الصغيرة للبلدان فمعظمها مأخوذ من مسمب الحجارى أو من جغرافية الرازى ، وقد تكون عبارات قصيرة مثل قوله عن كورة مُراد في منطقة قرطبة : «في غربى قرطبة ، الحال منها حصن مُراد ، سكنته قبيلة سراد فنسب إليها<sup>(٢)</sup>» أو قوله عن مدينة قبرة : «مدينة نابهة ، هي قصبة الكورة<sup>(٣)</sup>» أو قوله عن قرية مَقْرِيَّة في كورة اشبيلية : «قرية في نطاق حضرة اشبيلية<sup>(٤)</sup>» وما إلى ذلك من الإشارات التي لا تكاد تتضمن قيمة عالمية حقيقية ، وهي لا تطول وتَنْفَى بعض الشيء إلا في الكلام على الكور ، ومثال ذلك قوله عن كورة قرمونة : «كورة مشهورة بكثرة المحرث وطبيه ، والحالى منها مدينة

(١) نقلت هذه الفقرة من مقدمة «المشرق» بنصها كما أوردها شوق ضيف في مقدمة المغرب (ص ٩) وقد نقلها هو عن أصل مخطوط بالسلكية التيمورية بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٣٢ تاريخ ، وراجعها على ما أورده المجرى منها في فتح الطيب .

(٢) المغرب ، ٢٢٨/١

(٣) المغرب ، ٢٣٠/١

(٤) المغرب ، ٢٨٨/١

قرمونة ، وهي مدينة من جهة ضخامة الأسواق والحمامات ، ومعقل عظيم من جهة الارتفاع والمنعة ، لا ترافق بقتال ، وهي من حصون الإسلام المشهورة ، وقد كان امتنع فيها يحيى بن علي بن حود الفاطمي وجعل يقاتل ابن عباد في أشبيلية حتى صاق ابن عباد به ، ولم يكن له حيلة فيه لمنعة معقله ، إلى أن خرج ليلة وهو سكران بمليل ضربت من أشبيلية على قرمونة ، فوقع في يدهم فقتلوه<sup>(١)</sup> .

ويلاحظ على هذه الإشارات كلها — إلى جانب اتفاقيتها — طابع العجلة وقلة التحقيق والمراجعة حتى لييندر أن تمجد واحدة منها دون خطأ ، وفي هذا القليل الذي ذكرناه أخطاء كثيرة ، فمن الواضح أنه لم تكن هناك في الأندلس كورة تسمى كورة مراد ، وإنما هي ناحية إلى شمال قرطبة عرفت بهذا الاسم نسبة إلى من جماعة المراديين نزلتها ، ثم بني بعد ذلك الحصن ، وقوله إن مقرية قرية في نطاق حضرة أشبيلية غير دقيق وإنما هي كانت حيًا من أحياه أشبيلية ، وكذلك قوله عن قرمونة أنها من حصون الإسلام المشهورة يبدو أنه سهو منه «من حصون الأندلس المشهورة» ، أما إشارته إلى نهاية يحيى بن علي بن حود فغير دقيقة ، لأنه لم يقع في يد رجال ابن عباد ، بل سار هؤلاء إليه فخرج إليهم ووقع قتال قتل فيه .

والحق — كما تبين شوق ضيف — أن نسخة الجزء الخاص بالأندلس من المغرب التي وصلت إلينا كتبت على مجل و لم يراجع بعد ، وربما كانت مسودة نقلها ابن سعيد بعد ذلك على صورة أحسن ، فإن النسخة التي كانت بين يدي المقرئ ونقل عنها أوف وأصح من نسختنا بكثير (راجع مقدمة المغرب ، ص ٢٥ - ٢٦) .

(١) المرب ، ٢٩٩/١

و قبل أن ننتقل لدراسة المقدمة الجغرافية المفصلة للأندلس نلاحظ أن القطعة الباقيَة بين أيدينا عن هذِ القطر تبدأ في السفر الحادى عشر من كتاب المغرب وستمر إلى الخامس عشر ، وقد افترض شوق ضيف — وهو على حق — أن الجزء العاشر كان يتضمن المقدمات الجغرافية التي احتفظ لنا المقرى بمعظمها لحسن الحظ ، ففيما كانت الأسفار التسعة الأولى ؟ الغالب أنه اختص بها مصر والمغرب ، ولا نعلم على وجه التحديد كيف قسمها ، ولكن صياغة ما عثرنا عليه ونشر من الأقسام الخاصة بمصر لا تشبه أسفار الأندرس في شيء ، ومعظمها نقل دون تحخيص ، مما يدل على أن صلب الكتاب الحقيقي هو الجزء الخاص بالأندلس ، وهو الذي ورثه ابن سعيد عن آله ، ويغلب على الظن أن المقدمة الجغرافية العامة من عمله وحده فإن فيها نقولا عن الشريف الإدريسي ومناقشات البعض ما أورد ، ولم يطلع على بن سعيد على نزهة المشتاق إلا حين أقام في تونس .

على بن سعيد في هذه المقدمة نظار محقق ذو فهم وحسن جغرافيين ، وهذا يتضح للقارئ من أول ولة ، فهو يبدأ بمقدمات عن أصل اسم الأندرس وطوها وعرضها بحسب أقوال لأبي عامر السالمي في كتابه المسمى « بدر القلائد وغرس الفوائد » والمسعودي وابن اليسع ، وهو يروى قول هذا الأخير : « طوها من أربونة إلى أشبونة ، وهو قطع ستين يوماً لفارس الجد » ويعلق عليه بقوله وانتقد بأمرین : أحدهما أنه يقتضي أن أربونة داخلة في جزيرة الأندرس ، والصحيح أنها خارجة عنها ، والثانى أن قوله « ستين يوماً لفارس الجد » احياء وأفراط ، وقد قال جماعة إنها « شهر ونصف » ويضيف بعد ذلك : « وهذا يقرب إذا لم يكن لفارس الجد ، والصحيح ما نص عليه الشريف من أنها مسيرة شهر ، وكذا قال الحجاري ، وقد سألت المسافرين الحقيقين عن ذلك ، فعملوا حساباً بالمراحل الجيدة أفضى إلى نحو شهر بنَّيْف<sup>(١)</sup> قليل » ، وهذا كلام رجل يزن ما يصل

---

(١) برؤية المقرى في نفح الصليب ، ٢٢٥/١

إليه من معلومات ويتحققه ويسأله عنه من يعرفه . وَفَرَقْ<sup>١</sup> بين هذا الكلام وقول الحجارى إن طول الأندلس من الحاجز إلى أشبونة ألف ميل<sup>(١)</sup> ونيف ، لأن طول الأندلس لا يقاس من الحاجز — أى جبال البرت وهى المعروفة خطأً بالبرانس — إلى الاشبونة ، وحتى لو اعتمدنا قولهم أن الأندلس مثلثة الشكل فإن أحداً لم يقل أن الاشبونة كانت ركناً من أركان المثلث بحيث تتخذ المسافة منها إلى الحاجز ضلعاً من أضلاعه ، ومع هذا كله فالمسافة بين الاشبونة وجبال البرت لا تصل إلى ألف ميل أى ألفي كيلومتر على اعتبار أن الميل العربي كيلومتران .

وقد أورد المقرى في نفح الطيب بعد ذلك فقرة طويلة عن هيئة الأندلس وابعادها تعطينا نموذجاً طيباً من طريقة ابن سعيد في الكلام في هذه المقدمة ، نوردها على توالياً ، فإن عرضها مع تعليق قصير يغنى عن كلام كثير ، قال : « ومسافة الحاجز<sup>(٢)</sup> الذي بين بحر الزقاق والبحر المحيط أربعون ميلاً ، وهذا عرض الأندلس عند رأسها من جهة الشرق<sup>(٣)</sup> ، ولقلته سميت جزيرة وإلا فليست بجزيرة على الحقيقة لاتصال هذا القدر بالأرض الكبيرة .

وعرض جزيرة الأندلس في مُوسَّطها عند طليطلة ستة عشر يوماً<sup>(٤)</sup> ، واتفقوا على أن جزيرة الأندلس مثلثة الشكل ، واختلفوا في الركن الذي في الشرق والجنوب في حيز أربونة ، فمن قال إنه في أربونة — وإن هذه المدينة

(١) نفس المرجع ، ١٢٦/١

(٢) المراد بالحاجز هنا الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة بين البحر الأبيض والمحيط الأطلسي ، وعرضه ٨٠ كيلومتراً في بعض الموضع .

(٣) هذا على مذهبهم في أن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب فيقع الرقاق في الشرق ، وقد تحدثنا عن هذه النظرية فيما سبق .

(٤) هذا التقدير واضح الخطأ ، لأن متوسط ما كان يقطعه المسافر في اليوم ٤٠ كيلومتراً ، فالمسافة على هذا التقدير ٦٤٠ كيلومتراً ، وهي في الواقع ضعف ذلك تقريباً .

تقابلاها- مدينة برديل<sup>(١)</sup> التي في الركن الشرقي الشمالي—أحمد بن محمد الرازي وابن حيّان ، وفي كلام غيرها أنه في جهة أربونة ، وحقق الأُمر الشريفي<sup>(٢)</sup> ، وهو أعرف بتلك الجهة لتردد़ه في الأسفار برأً وبحراً إليها وتفرغه لهذا الفن .

قال ابن سعيد : وسألت جماعة من علماء هذا الشأن فأخبروني أن الصحيح ما ذهب إليه الشريف ، وأن أربونة<sup>(٣)</sup> وبرشلونة غير داخلتين في أرض الأندلس ، وأن الركن الموف على بحر الزقاق بالشرق بين برشلونة وطركونة في موضع يعرف بوادي زُلْقَطُو<sup>(٤)</sup> وهنالك الحاجز الذي يفصل بين الأندلس والأرض الكبيرة ذات الألسن الكثيرة .

وفي هذا المكان جبل البرت الفاصل في الحاجز المذكور وفيه الأبواب التي فتحها ملك اليونانيين بالحديد والنار والخل ، ولم يكن للأندلس من الأرض الكبيرة قبل ذلك طريق في البر ، وذكر الشريف أن هذه الأبواب يقع في مقابلتها في بحر الرقاق البحُرُ الذي بين جزيرتي ميورقة ومنورقة ، وقد أخبر بذلك جمهور المسافرين لتلك الناحية ، ومسافة هذا الجبل الحاجز بين الركن الجنوبي والركن الشمالي أربعون ميلاً<sup>(٥)</sup> .

(١) برديل هي بوردو ، وقد احتفظت الصورة العربية بالرسم اللاتيني *Burdigala* وهذه تكتب أحياناً ببردال . وكان الجنرافيون العرب يطلقون — كما رأينا — أن ضلماً من أصلاح مثل شبه الجزيرة يمتد من بوردو إلى أربونة في خط مستقيم من الشمال إلى الجنوب مخترقاً جبال البرت .

(٢) هذه أول مرة يشير مؤلفه إلى الشريف الإدريسي ، وإذا كان المغرب قد كتب حوالي سنة ٦٤٠ فيكون قد مضى نحو قرن من الزمن بين تأليف «نزهة المشتاق» وبدء الاتصال به عند علماء العرب .

(٣) هذا صحيح ، فأربونة خارجة عن شبه الجزيرة ، أما برشلونة فكانت إذ ذاك تابعة للملك غالا (فرنسا) وتسمى منطقتها في بعض الأحيان بالأرض الصغيرة في حين أن غالا تسمى بالأرض الكبيرة .

(٤) هو نهر *Llobrogat* واسمه باللاتينية *Rubrucatus* ومن هناأتي الاسم العربي ، وقد صوبه دوزي على هذا التحْوِي ، ولكن عجي الدين عبد الحميد فضل متابعة رسم طبعة بولاق القديمة : زلقطو ، وزاد فضيّط الاسم بفتح الراء واللام وسكون النون وفتح القاف ليقطع الشك باليقين !

(٥) التقدير هنا بعيد عن الصحة فإن متوسط المسافة من البحر الأبيض إلى خليج بسكابية في منطقة البرت حوالي ٤٠٠ ك. م. لا ٨٠ كما يقول ابن سعيد .

قال : وشمال الركن المذكور عند مدينة برديل ، وهى من مدن الإفرنج مطلة على البحر الحبيب فى شمال الأندلس ، قال : ويتقهر البر بعد تميُّز هذا الركن إلى الشمال فى بلاد الفرنجية ، ولم ير جزائر كثيرة ، ودوکرا<sup>(١)</sup> من الركن الشمالي عند شنت ياقوه من ساحل الجلاقة فى شمال الأندلس ، حيث تبتعد جزيرة بريطانيا الكبيرة ، فيتصور هنالك بحر داخل بين أرضين<sup>(٢)</sup> ، من الناس من يجعله بحراً منفرداً خارجاً من البحر الحبيب لطوله إلى الركن المتقدم الذكر عند مدينة برديل .

وذكر الشريف أن عند شنت ياقوه فى هذا الركن المذكور على جبل بمجمع البحرين صنعاً مطلاً مشبهها بضم قادس .

والركن الثالث بمقربة من جبل الأعن حيث صنم قادس ، والجبل المذكور يدخل من غربه مع جنوبه بحر الزفاف من البحر الحبيب مارياً مع ساحل الأندلس الجنوبي إلى جبل البرت المذكور .

ويورد المترى بعد ذلك (فتح / ١ - ١٣٤ - ١٣٣) فقرة منقولة عن الشريف الإدريسي تدل على أن ابن سعيد قرأه وفهم كلامه حق الفهم ، وهى فقرة خاصة بالأقاليم السبعة (شمال خط الاستواء) وموقع الأندلس منها ، وما يوازي مدنه من المدن الأخرى الواقعة في نفس الإقليم ، وسنورد هذه الفقرة فيما يلى لأنها تدل على قدرة على بن سعيد على تلخيص مادة الإدريسي ، وهو أمر سيعمله بصورة أوفى في كتابه « بسط الأرض » ، قال :

« وقال ابن سعيد : ذكر الشريف أن لا حظ لأرض الأندلس في الإقليم الثالث ، قال : ويمر بجزيرة الأندلس الإقليم الرابع على ساحلها الجنوبي وما

(١) كما في الأصل المطبوع .

(٢) المراد هنا بحر المانش أو القنال الانجليزى .

قاربه من قرطبة وإشبيلية ومرسية وبلنسية ، ثم يمر على جزيرة صقلية وعلى ما في سمتها من الجزائر ، والشمس مدبرة له .

والإقليم الخامس يمر على طليطلة وسرقسطة وما في سمتها إلى بلاد أرغون التي في جنوبها برشلونة ، ثم يمر على رومية وبلاها ، ويشق بحر البندقة ، ثم يمر على القسطنطينية ، ومدبرته الهرة .

وال السادس يمر على ساحل الأندلس الشمالي الذي على البحر المتوسط وما قاربه وبعض البلاد الداخلة في قشتالة وبرتغال وما في سمتها ، وعلى بلاد برجان والصقالبة والروس ، ومدبره عطارد .

ويمر الإقليم السابع في البحر المتوسط الذي في شمال الأندلس إلى جزيرة انقلطرة وغيرها من الجزائر وما في سمتها من بلاد الصقالبة وبرجان . قال البيهقي : وفيه تقع جزيرة تولى وجزيرة أجفال والنساء وبعض بلاد الروس الداخلة في الشمال والبلغار ، ومدبره القمر ، انتهى .

وإليك فقرة أخرى عن البحر الأبيض نرى منها أن تصور ابن سعيد لهذا البحر كان سليماً معقولاً ، وقد سبقه إلى هذا التصور السليم معظم التأهبين من جغرافينا ، وخاصة أبو عبيد البكري ، وسيصوره ابن خلدون فيما بعد تصويراً هو الغاية في الدقة وحسن الفهم حتى بمقاييس العلم الجغرافي في أيامنا ، ولكننا نورد هذه الفقرة لأنها نموذج من طريقة ابن سعيد في المزج بين الحقائق الجغرافية وبعض حكايات التاريخ التي كانت تدخل عندهم في الجغرافية ، وهي تعطينا أيضاً أمثلة من ملاحظاته الشخصية القائمة على مشاهداته . ويلاحظ أن تصور ابن سعيد – والبكري وابن خلدون – لهيئة البحر الأبيض أنه كان بيضاوياً على هيئة اللوزة أو العين مثلاً ، وطرف منه عند جبل طارق ، والطرف الآخر عند صور على ساحل الشام . وتحديد صور بالذات من دون موانئ الشام راجع إلى بطاميوس :

قال ابن سعيد : «مخرج بحر الروم المتتصاعد إلى الشام هو بساحل الأندلس الغربي بمكان يقال له الحضراء ما بين طنجة من أرض المغرب وبين الأندلس فيكون مقدار عرضه هناك كما زعموا ثمانية عشر ميلا ، وهذا عرض جزيرة طريف إلى قصر مصمودة بالقرب من سبتة ، وهناك كانت القنطرة التي يزعم الناس أن الإسكندر بنها ليعبر عليها من بر الأندلس إلى بر العدوة ، ويعرف هذا الموضع بالزقاق ، وهو صعب الجماز لأنه مجمع البحرين لا تزال الأمواج تتطاول فيه والماء يدور ، وطول هذا الزقاق الذي عرضه ثمانية عشر ميلا مضاعف ذلك إلى ميناء سبتة ، ومن هناك يأخذ البحر في الاتساع إلى ثمانمائة ميل وأزيد ، ومنتهى مدينة صور من الشام ، وفيه عدد عظيم من الجزر» .

إذا انتقل على بن سعيد إلى الكلام على مدن الأندلس وحالاته النباتية والمعدنية وحيوانه ونباته وصناعات أهله ألى من ذلك كله بمادة وافرة لم يوفق واحد من الجغرافيين قبله إلى الاتيان بمثلها ، وهو يتحدث في معظم هذه الفقرات حديث العالم الثابت الذي يتكلم عما يعرف ، ولو لا ولعله بإيراد الكثير من الشعر والحكايات في أثناء ذلك لكان كلامه أقرب ما يكون إلى مفهومنا في التأليف الجغرافي اليوم ، وعزاونا في هذه الاستطرادات الأدبية أنها تضم أحياناً فوائد جغرافية ، ومثال ذلك قوله في الكلام على قرية نارجة ، وهي Nerja على ٥٣ كيلومتراً إلى شرق مالقة على الشاطئ ، وهي نهاية ما يعرف اليوم بشاطئ الشمس La Costa del Sol ، وهي مشهورة بمناظرها العميقة الفسيحة التي تعتبر اليوم من مقاصد السائحين ، قال : « وهي قرية كبيرة تصاهي المدن ، قد أحذقت بها البساتين ، ولها نهر يفتح الناظرين ، وهي من أعمال مالقة » ثم يذكر بعد ذلك كيف اجتاز عليها مع والده أبي عمران موسى : « وكان ذلك زمن صباقة الحرير عندهم ، وقد ضربوا في بطن الوادي بين مقطعايه خيما ، وبعضهم يغنى ويطرب ، وسئلوا : بِمَ يَعْرُفُ هَذَا الْمَوْضِعُ ؟ فَقَالُوا : الطراز ، فقال والدي : اسْمُ طَابِقِ مَسَاهِ وَلَفْظِ وَافْقَ مَعْنَاهُ :

وقد وجدت مكانَ القولِ ذا سعةٍ فان وجدت لساناً قائلاً فقلَّ  
 ثم قال : أجزٌ : بنارجِيَّة ، حيث الطرار المتمم  
 فقلت : أقم فوق نهرٍ تغره يتبعُ  
 إلى آخر هذا الشعر الذي اشتراكه هو وأبواه في صياغته ، وهو شعر استغرق  
 صفحة كاملة<sup>(١)</sup> .

ومن نماذج كلامه عن المدن قوله عن بلنسية :

«كورة بلنسية من شرق الأندلس ينبع بها الزعفران ، وتعرف بمدينة  
 التراب ، وبها كثري تسمى الأرزة في قدر حبة العنب ، قد جمع مع حلوة  
 الطعام ذكاء الرائحة ، إذا دخل داراً عرف بريمه ، ويقال : إن ضوء بلنسية  
 يزيد على ضوءسائر بلاد الأندلس ، وبها منازل ومسارح ، ومن أبدعها  
 وأشهرها الرصافة ومنية ابن أبي عامر» .

ثم تلى ذلك مقطوعات شعرية لشرف الدين أبي جعفر بن مساعدة الغرناطي  
 وابن الزقاق البلنسي ومروان بن عبد الله بن عبد العزيز الذي ملك بلنسية  
 بعض الوقت وأبى عبد الله بن عياش وأبى الحسن بن حريق والرصافي الرفاء  
 و «بعضهم» .

ويستوقف النظر أن أول ما يذكره عن كورة بلنسية أنها تنبع الزعفران ،  
 ولا زالت تنبعه إلى اليوم بكثيرات كبيرة ، وإلى وجوده مع الأرز بها ترجع  
 شهرة بلنسية بطبق الأرز المعروف بالبائِيَّا paella ويقال أنه طبق عربي أصل  
 اسمه «البقاء» . أما الكثري التي يذكرها فوجوده فعلاً وتسمى في الإسبانية  
 peras de San Juan ، ولكنها ليست في حجم حبة العنب ، وإنما في حجم البيضة  
 الكبيرة . ويكلِّل ابن سعيد كلامه عن بلنسية بقوله بعد الاشعار : «وبرصافة

(١) رواه المقرئ في نفح الطيب ، ١٦٦/١ - ١٦٨

بلنسية مناظر وبساتين و المياه ، ولا نعلم في الأندلس ما يسمى بهذا الاسم إلا هذه ورصفة قرطبة » ، وهي ملاحظة صحيحة .

وأورد ابن سعيد — نقلًا عن « المسهب » للحجاري — فقرات طويلة عن حيوان<sup>(١)</sup> الأندلس ، فذكر السمور « الذي يعمل من وبره الفراء الرفيعة يوجد في البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة بريطانية ، ويصلب إلى سرقة ويسنح بها ، والقناطير حيوان أدق من الأرنب وأطيب في الطعام وأحسن وبراً وكثيراً ما يلبس فرأوها ، ويستعملها أهل الأندلس من المسلمين والنصارى ، ولا توجد في البر إلا ما جلب منها إلى سبتة ، فنشأ في جوانبها » وأضاف بعد ذلك أن القناطير جابت في هذه المدة إلى تونس حضرة افريقية ، ولفظ canalia لاتيني ومعناه الأرنب .

ويضيف : « ويكون بالأندلس من الغزال والابل وحمار الوحش وبقره وغير ذلك مما لا يوجد في غيرها كثير ، وأما الأسد فلا يوجد فيها البطة ، ولا الفيل والزرافة وغير ذلك مما يكون في أقاليم الحرارة . ولها سبع يعرف باللَّب أَكْبَر بقليل من الذئب في نهاية من القحة ، وقد يفترس الرجل إذا كان جائعاً » .

وعبارته عن اللَّب جديرة بالملاحظة ، لأن اللَّب lobo هو في الحقيقة الذئب ، وهو من اللاتينية lopus ، ولكن الذئب في إسبانيا وعامة أوروبا أكبر من ذئب البلاد المشرقة وأشد عدواً في حالة الجوع ، ولهذا ميزه ابن سعيد عن الذئب وذهب إلى أنه حيوان آخر ، وقد تسمى كثير من المسلمين باسم هذا الحيوان فقالوا لَب بن سعيد مثلاً ، ولا زال الاسم مستعملاً في الإسبانية : López ومعناه على الحقيقة ابن لَب . ثم يقول : « وبغال الأندلس فارهة وخليها ضخمة الأجسام ، حصون لقتال تحملها الدروع وثقال السلاح والعدو ...

(١) نفح الطيب ، ١٨٤ / ١٨٥

ولها من الطيور الجوارح وغيرها ما يكثُر ذكره ويطول ، وكذلك حيوان البحر . ودواب بحرها المحيط في نهاية الطول والعرض . قال ابن سعيد : عاينت من ذلك العجب . والمسافرون في البحر يخافون منها لئلا تقلب المراكب فيقطعون الكلام ، ولها نفخ بالماء من فيها يقوم في الجو ذا ارتفاع مفرط « والكلام هنا على حيوان البحر المعروف بالعنبر ، وكان يسمى في الأندلس باسمه اللاتيني والإسباني *البلينيه* la ballena .

ولابن سعيد في هذه المقدمة فقرة عظيمة الأهمية عن فواكه الأندلس ، وما أظن أحداً من مؤلفينا — غير النباتيين — كتب شيئاً شبيهاً بهذا في الدقة عن فواكه بلده : « وأما الثمار وأصناف الفواكه ، فالأندلس أسعد بلاد الله بكثرتها ، ويوجد في سواحلها قصب السكر والموز ، ويوجدان في الأقاليم الباردة (يريد من الأندلس) ، ولا يعد منها إلا التمر ، ولها من أنواع الفواكه ما يعدم في غيرها أو يقل كالتين القوطى والتين السّفري في إشبيلية . قال ابن سعيد : وهذا صنفان لم تر عيني ولم أدق لها منذ خرجت من الأندلس ما يفضلها ، وكذلك التين الملاقي والزبيب المنكبي والزبيب العسلى والرمان السّفري ، والملوخ والجوز واللوز ، وغير ذلك مما يطول ذكره<sup>(١)</sup> ». قوله أنه لا يعدم من الأندلس إلا التمر يستوقف النظر ، فإن في إسبانيا اليوم من غابات النخيل التي تثمر التمر الجيد ما يدهش له الزائر لنواحي أش Elche ولقنت Alicante وامتداد الساحل حتى المريية ومرسية ، وهذا معناه أن التمر الإسباني الحالى شيء جديد استجد بعد أيام العرب . نعم كان في الأندلس دائماً نخل ، ولكنه فيما يبدو لم يكن يشعر ثمناً يحدُر بالذكر ، وإلا لما أبدى ابن سعيد هذه الملاحظة .

(١) رواه المقرى في فتح الطيب ، ١٦٦/١

وقال عن معادن الأندلس : « إن الأرض الشمالية الغربية فيها المعادن السبعة ، وهي في الأندلس التي هي بعض تلك الأرض ، وأعظم معدن للذهب بالأندلس في شنت ياتوه Santiago de Compostela قاعدة الجلاقة على البحر المتوسط ؛ وفي جهة قرطبة الفضة والزئبق ؛ والنحاس في شمال الأندلس كثير والصفر (النحاس الجيد) الذي يكاد يشبه الذهب وغير ذلك من المعادن المتفرقة في أماكنها <sup>(١)</sup> » وهذه العبارة ضعيفة ، فهي لم تأت إلا على النزد اليسير من معادن الأندلس التي عرفها العرب واستخرجوها ، وإغفاله ذكر الحديد مثلاً لا يمكن تبريره ، وكان العرب يستخرجون منه مقدار طيبة من مناجم واقعة إلى شمال شرق قرطبة ، عند البلدة المعروفة اليوم باسمها العربي Almaden (المعدن) بل كانت جبال سيراً مورينسا كلها تسمى جبال المعدن لهذا السبب ، واستخرج العرب كذلك حديد مريطر Murviedro التي تعرف حالياً باسمها اللاتيني Sagunte قرب بلنسية .

أما إشارة ابن سعيد إلى صناعات الأندلس فهي من أقيم ما لدينا عن هذا الموضوع ، وهي جديرة بأن نوردها هنا :

« قال ابن سعيد : وإلى مصنوعات الأندلس ينتهي التفضيل ، وللمتعصبين لها في ذلك كلام كثير ، فقد اختصت المرية ومقالة ومرسية بالموسي للذهب يتعجب من حسن صنعته أهل المشرق إذا رأوا منه شيئاً ، وفي نذنالة من عمل مرسيية تعمل البسط التي يُغَالِي في ثمنها بالشرق ، ويصنع في غرناطة وبسطة من ثياب اللباس المحررة الصنف الذي يعرف بالملبد الختم ذو الألوان العجيبة ، ويصنع في مرسيية من الأسرّة المرصعة والخصر الفتانة الصنعة وألات الصفر والحديد من السكاكين والأمقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندي ما يبهر العقل ، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقيا وغيرها ،

---

(١) المقرى ، فتح الطيب ، ١٨٦/١

ويصنع بها وبالمرية ومقالة الزجاجُ الغريب العجيب وفخار مزجج مذهب ، ويصنع بالأندلس نوع من المفضض المعروف في المشرق بالفسقَيْفَسَاء نوع يبسط به قاعات ديارهم يعرف بالزليجي يشبه المفضض ، وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملون الذي يصرّفه أهل المشرق في زخرفة بيورتهم كالشاذروانِ ، وما يجرى مجراه .

« وأما آلات الحرب من التراس والرماح والسروج والألم و الدروع والغافر فأكثر هم أهل الأندلس — فيها حكى ابن سعيد — كانت مصروفة إلى هذا الشأن ، ويُصنع فيها في بلاد الكفر ما يهرب العقول ، قال : والسيوف البرذيليات مشهورة بالجودة ، وبرذيل : آخر بلاد الأندلس من جهة الشمال والمشرق ، والفولاذ الذي يأشبليه إليه النهاية ، وفي أشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره » .  
ويطول بنا الأمر لو مضينا نعرض هذه المقدمة الطويلة في الجغرافية العامة للأندلس التي سماها « كتاب وشى الطرس في حل جزيرة الأندلس » وهي السفر العاشر من المغرب كأ قلناه . فقد أورد المقرى في نفح الطيب معظمهما ناسباً الفقرات إلى ابن سعيد في الغالب ، وإن كان بين الحين والحين يغفل ذلك ، ولن نورد هنا الفقرات الطويلة عن نظام الأندلس الإداري وخططه وعادات أهل وخصائصهم الخلقية والعقلية ، فهذا كلام طويل كثير أحق بأن يجمع في كتاب وحده حتى تظهر مزاياه ، ولكننا نختم هذه الدراسة عن جغرافية الأندلس لابن سعيد بتلك الفقرات التي يذهب فيها مع الإيجاب بيده إلى درجة التعصب والمغالاة في إظهار الفضل والامتياز حتى لا يتخرج عن المسام بالبلاد المشرقة التي كان يعيش فيها . وهذا الاستعلاء من الأندلسين على غيرهم وعدم تحرزهم مما يجرح مشاعر الغير كانوا من بعض خصائصهم ، لا مع غيرهم فحسب ، بل مع بعضهم البعض ، وإن الإنسان ليدهش وهو يقرأ سيرهم من الحاج الكثيرين منهم على ما يهين ويغضب دون حاجة في كثير من الأحيان .

قال ابن سعيد : « وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحذقت بها البحار ، فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة ، فتى سافرت من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع ، والصحاري<sup>(١)</sup> فيها معروفة ، وما اختصت به أن قراها في نهاية من الجبال لتصنع أهلها في أوضاعها وتبييضها ، لثلا تنبو العيون عنها ، فهى كما قال الوزير بن الحمارة فيها :

لاحتْ قُرَاهَا بَيْنَ حُسْنِهَا أَيْكَهَا      كَالدُّرُّ بَيْنَ زَبَرَجَدِ مَكْنُوف

ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التي تکدر العين بسودادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها . وفي الأندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة الممقرة من مثلها ، والمثال في ذلك أنك إذا توجهت من الشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعض آخر مدينة شريش ، وهى في نهاية من الحضارة والحضارة ، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ، ثم مالقة ، وهذا كثير في الأندلس ولهذا كثرت مدنها ؛ وأكثرها مسورة من أجل الاستعداد للعدو ، فحصل لها بذلك التشييد والتزيين . وفي حصونها ما يبقى في محاربة العدو ما ينفي على عشرين سنة لامتناع معاقلها ، ودرية أهلها على الحرب ، واعتيادهم لمحاورة العدو بالطعن والضرب ، وكثرة ما تخزن الغلة في مطاميرها ، فنهما ما يطول صبره عليها نحوًا من مائة سنة قال ابن سعيد : ولذلك أdamها الله تعالى من وقت الفتح إلى الآن ، وإن كان العدو قد نقصها من أطرافها ، وشارك في أوساطها في البقية منعة عظيمة ، فأرض بق فيها مثل الشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وما ينضاف إلى هذه الحواضر العظيمة الممقرة الرجاء فيها قوىًّا بحول الله وقوته ، انتهى .

(١) هذه العبارة غير دقيقة ، ففي شبه الجزيرة مناطق صخريّة وصخرية قاحلة كثيرة تبلغ نسبتها ٨٪ من مساحتها الكلية .

قلت<sup>(١)</sup> : قد خاب ذلك الرجاء ، وصارت تلك الأرجاء للكفر مَعْرِجاً ، وسائل الله تعالى الذي جعل لهم فرجاً ، والاضيق مخرجاً ، أن يعيد إليها كلمة الإسلام حتى يستنشق أهله منه فيها أرجاً ! آمين » .

قال ابن سعيد : « وأنا أقول كلاماً فيه كفاية : منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطافت في بر العدوة ، ورأيت مدنها العظيمة كمراكب وفاس وسلا وبسبتة ، ثم طفت في إفريقيا وما جاورها من المغرب الأوسط فرأيت بجاية وتونس ، ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الإسكندرية والقاهرة والفسطاط ، ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلبا وما ينتمي إلىهما . لم أر ما يشبه رونق الأندلس في مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، ومدينة دمشق بالشام ، وفي حمأة مسحة أندلسية ، ولم أر ما يشبهها في حسن المباني والتزيين والتصنیع ، إلا ما شيد بمراكب في دولة بنى عبد المؤمن ، وبعض أماكن في تونس ، وإن كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالإسكندرية ، ولكن الإسكندرية أفسح شوارع وأبسط وأبدع ، ومبانی حلب داخلة فيها يستحسن ، لأنها من حجارة صلبة ، وفي وضعها وترتيبها إتقان » .

وفي هذا كفاية لبيان القيمة العالمية لهذه المقدمة الجغرافية الطويلة للأندلس ، ولم يستطع ابن سعيد أن يائني بمثل هذه المعلومات في تقديميه لما تحدث عنه من غير الأندلس من البلاد التي تناولها الكلام في قسمى « فلك الأرب » و« المغرب والمشرق » وهو أمر طبيعى ، فإن الأندلس بلد وهو به أعراف ، وفضله ظاهر في استطاعته جمع حشد عظيم من المعلومات الجيدة وسياقتها في أسلوب سهل بسيط لا يخالطه حديث محاجب أو حكایات أساطير إلا في النادر . وهو يسمو بهذه المقدمة إلى مستوى أعظم الجغرافيين الأندلسين من أمثال الرازى والعدرى والبكرى ويواصل تقاليد هذا العلم التي جرى عليها أقطابه في

---

(١) المتكلم هنا هو المقرى صاحب النفح .

ذلك الصقع . بل هو يتمتع بتصور أوضح يدل على مملكة عالمية أصلية قادرة على تمييز الخصائص وتبيين الحقائق وربط الأمور بعضها بعض وسياقة المعلومات الكثيرة في نطاق موجز دون إخلال .

ومن كلام ابن سعيد في هذه المقدمة ثم من تقسيماته للأندلس بعد ذلك نستدل على أنه رسم لنفسه مخططاً للأندلس ليجري في الكلام بمقتضاه ، ولسنا نقول ذلك استنتاجاً ، ولكنه حقيقة ، قال المقرى في كلامه عن الكتاب : «وصور — رحمه الله تعالى — أجزاء الأندلس في كتاب وشى الطرس» ولكن يبدو أن خريطته كانت توضيحية لا جغرافية صرفة ، والخريطة التوضيحية هي رسم يعمل مجرد توضيح الكلام لا لتصوير الهيئة الجغرافية لإقليم ما كهذا الرسوم التي أثرت عن الخوارزمي مثلاً ، وكخرائط كتاب ابن حوقل ، فهي رسوم للتوضيح في ذهن القارئ ، وهي تقابل ما يقال مثلاً من أن هيئة الأرض على شكل طائر رأسه في العراق وذيله في الأندلس ، أو أن ايرانشهر (هضبة إيران وما إليها شرقاً) وجزيرة العرب في هيئة الطيسان ، وما إلى ذلك من التشبيهات التي نجد الكثير من نماذجها عند المسعودي في «مروج الذهب» ودليلنا على أن خريطة ابن سعيد كانت رسمًا توضيحياً قول المقرى بعد ذلك : «وقال أيضاً (أى ابن سعيد) إن كلاً من شرق الأندلس وغربها ووسطها يقرب في قدر المساحة بعضه من بعض ، وليس فيها جزء يتجاوز طوله عشرة أيام ، ليصدق التثليث في القسمة ، وهذا دون ما بأيدي النصارى<sup>(١)</sup>» فهذا كلام رجل قسم الأندلس إلى ثلاثة أقسام متساوية ليسهل عليه الكلام ، وهو تقسيم سبقه إليه ابن بسام في النهاية ، وجعل ابن سعيد طول كل قسم عشرة أيام ، أى ٤٠٠ كيلومتراً على وجه التقرير . وإذا كان ابن سعيد قد أصاب في قياس عرض الأندلس هنا من البحر الأبيض إلى المحيط الأطلسي

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ٢١٠/١

فجعله ١٢٠٠ كيلومتراً ، وهو قريب من الصواب ، فإنه لم يكن موقفاً في هذا التقسيم الهندسى ، فإن البلاد لا تقسم جغرافياً على هذه الصورة المفتعلة ، وإنما تقسم إلى مناطق طبيعية أو أقاليم ذات خصائص متميزة أو أقسام إدارية لها حقيقة في الواقع ، ولكن عذرنا أن التقسيم هنا نظرى صرف مجرد التقرير .  
ونختم كلامنا عن تلك المقدمة الجغرافية بعبارة للمقرى تبين لنا أقسام كتاب المغرب الخاصة بالأندلس وصقلية والأرض الكبيرة (ما يلي الأندلس شمال جبال البرت من بلاد غرب أوروبا) ، ومن أسف أنه لم يأتنا بتقسيم المغرب كله . قال :

وتقسمه إلى أقسام منها :

« وشى الطُّرس فى حل جزيرة الأندلس » وهو ينقسم إلى أربعة كتب :  
الكتاب الأول كتاب : حل العرس فى حل غرب الأندلس  
« الثاني » : الشفاه اللعس ، فى حل موسطة الأندلس  
« الثالث » : الأنس فى حل شرق الأندلس  
« الرابع » : لحظات المريب ، فى ذكر ما حاه من الأندلس  
عبداد الصليب .

والقسم الثاني كتاب : الألحان المسلية فى حل جزيرة صقلية ، وهو أيضاً ذو أنواع (أى يقع في كتب) .

والقسم الثالث كتاب : الغاية الأخيرة ، فى حل الأرض الكبيرة ، وهو أيضاً ذو أقسام » .

وإذن فقد كانت هناك أجزاء كبيرة من هذا الكتاب عن صقلية وغرب أوروبا ؛ أجزاء يسميهما هو كتاباً ولا ننتظر أن تكون متساوية في القيمة لهذا القسم الأندلسي الذي عرضنا أطرافاً منه ، ولكنه كان يضم على أي حال مادة علمية جديدة عن هذه الأقسام من الدنيا . وإنما هو جدير باللاحظة أن الملكة الجغرافية العربية كانت أوسع أفقاً وأبعد طموحاً مما كانت عليه الملكة

التاريخية أو الأدبية مثلاً . فقد رأيناكم من الجغرافيين العرب وصفوا أوروبا أو بعض أجزائها في حين يندر أن نجد مؤرخاً عريباً طمح إلى أن يؤرخ لمالك تلك القارة أو بعضها ، وإذا استثنينا ابن خلدون وابن الخطيب فإننا ينبغي أن ننتظر إلى عصر الموسوعيين : عصر القلقشندى والعمرى ومن إليهم حتى نقرأ شيئاً عما وراء حدود مملكة الإسلام يعود بنا إلى آفاق العلم العربي الواسعة في العصر الذهبي الأول ، أيام كان رجل محمد بن جرير الطبرى يكتب في أستاذية تدعى إلى الإعجاب الحق تاريخاً لفارس قبل الإسلام يعتمد الناس إلى يومنا هذا فيما يكتبون عن الشرق القديم ، ويعتبره نولده كه وفستانفلد من أعظم الأعمال التاريخية على إطلاق ، ونولده كان رجلاً يزن ما يقول بكل ميسور من موازين العلم ، وكذلك كان فريدنان فستانفلد ، وفي صفحات كتابه الذي لا تبلى جدته عن المؤرخين العرب من مصاديق ذلك الشيء الكثير .

### كتاب بسط الأرض في الطول والعرض

لاحظنا في كلامنا عن الأجزاء الجغرافية من «فلك الأرب» أن علياً بن سعيد تأثر بالإدريسي تأثيراً بعيداً ، وافتراضنا أن يكون قد اطلع على نزهة المشتاق أثناء إقامته الطويلة في تونس ، وقلنا إن هذه أول مرة نجد فيها كتاب الإدريسي يدخل في الاستعمال في محيط العلم العربي ، وكان عادنا في ذلك كله على ما ورد من الإشارات فيما نقله المقرى من كلام ابن سعيد عن الأندلس . ولكن البرهان الأكبر على اعتماد ابن سعيد على الشريف الإدريسي في مادته الجغرافية هو كتابه المسمى ببسط الأرض في الطول والعرض الذي يسمى أيضاً بكتاب «جغرافيا في الأقاليم السبعة» .

وهذا الكتاب مشكلة حقيقة من مشاكل تاريخ العلم الجغرافي عند العرب ، لا بسبب اختلاف اسمه بين خطوطه وأخرى أو بسبب المفارقات الجسيمة بين

نصوص هذه المخطوطات ، بل في نسبة الكتاب إلى على بن سعيد إطلاقاً : فإن العارف بابن سعيد وأسلوبه الأدبي وطريقته في التفكير يشعر لأول ما يقرأ شيئاً من «بسط الأرض» أنه لا يمكن أن يكون لهذا الأديب المتألق المولع بالزينة الفظوية والسبع الأنثيق على أسلوب أهل عصره ، فحين هنا أمام كتاب علمي خالص لا يحرض صاحبه إلا على إبراز الحقيقة العلمية ولو أدى الأمر إلى ركاكتة الأسلوب أو عاميته ، كقوله في الكلام عن نيل مقدشو والمراد به النيل الأزرق : «... وهو معوجاً ومستقيماً (كذا في النص المطبوع) ويخرج منه من الأنهار ما تصير به تلك الجهة كالديار المصرية في الشكر وللوز وكالمند في المقل والنارجيل والقوقل ، فبِه يسقى ذلك وغيره ، وهم يزرعون عليه وعلى المطر ، ويصب بالقرب من مقدشو في شرقها ، ويكون طوله نحو ٢٠٠٠ ميل<sup>(١)</sup> » وأمثال ذلك كثير في الكتاب ، والفرق عظيم جداً بين هذا الأسلوب وأسلوب ابن سعيد في المغرب أو في مقدمته أو أسلوبه في « رأيات المبرزين » أو « الفصون اليائعة » وما إلى ذلك من كتبه الأخرى .

ثُمَّ ما الذي جعل ابن سعيد يؤلف هذا الكتاب الجغرافي الصرف الذي لا يصدر إلا عن منقطع لهذا الفن ؟ حقيقة أن معظم من مسرنا بهم من الجغرافيين كانت لهم مجالات عالمية أخرى ، وكان اشتغالهم بالجغرافية ارضاً لتطلع نيل إلى المعرفة وتحقيقاً لرغبة كريمة في الإضافة إلى تراث البشر العلمي ولكننا نجد في حياتهم ونشاطهم ما يفسر لنا انصرافهم إلى الجغرافية والتأليف فيها . ونلاحظ في معظم الأحيان أن دافعهم إلى ذلك الانصراف كان الرغبة في استكمال عملهم الرئيسي من تاريخ أو أدب أو فقه وما إلى ذلك ، فالرازي مؤرخ كتب في جغرافية الأندلس مدخلاً لتاريخه على مذهبهم ، والعذرى كان فقيهاً محدثاً ولكن وجوده في المربية ووفرة المعلومات الجغرافية من حوله

(١) كتاب بسط الأرض في الطول والعرض بتحقيق خوان بيرنيت خينس Juan Vernet Jinés نشره معهد مولاي الحسن بتطوان المغرب سنة ١٩٥١ ص ١٤

نَبَّهَ ملكته العلمية إلى هذا الفن ، فطلب ما وجد من الأصول والمراجع ، وأعانه الحظ فوجد بين يديه شيئاً من سجلات الخلافة القرطبية فنقل منها ما تيسر ، ثم إنَّه كان ذا ميل إلى التاريخ والتأليف فيه ، وكان من العسير الفصل بين الجغرافية والتاريخ في تلك العصور ؟ والبكرى أخذ هذا النزوع إلى الجغرافية عن شيخه العذري وعن لعله بتحقيق الشعر القديم وما فيه من أسماء المواقع ، وهكذا الحال مع كل من اشتغل بالجغرافية من أحصيناه في هذا التأليف . ولو أن مساهمة ابن سعيد في الجغرافية اقتصرت على كلامه عن الأندلس لما كان في الأمر إشكال ، فهذه مقدمة جغرافية لكتاب في أدب الأندلس وتاريخه ، ولكننا أمام كتاب جغرافي صرف لا يشبه في شيء تواليف ابن سعيد الأخرى ، ولا نجد لهذا الكتاب فاتحة طويلة أو قصيرة تفسر لنا السبب في تأليفه إياه ، فلعل أحداً من الناس طلب إليه أن يعمله ، ولا نجد كذلك عند أحد من مؤلفينا أي إشارة تشير لنا هذا الموضوع ، حتى أبو الفدا ، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر ، وهو أكبر من انتفع به — ونقده في نفس الوقت — من القدماء ، لم يشر إلى شيء من ذلك .

أما هذا الغموض يبدو لنا أنه ليس من المستبعد أن يكون اهتمام على ابن سعيد بالتأليف في الجغرافية على هذا النحو أمراً من آثار صداقته لأبي العباس أحمد بن يوسف التيفاشي الذي يمكن أن يوصف بأنه كان طليعة الموسوعيين العرب على الطريقة المنهجية التي ستتجلى في صور أوضح عند أبي فضل الله العمري والقلقشندي والنويري .

ومع أن معلوماتنا عن التيفاشي قليلة جداً إلا أنها نستطيع القول بأنه كان طليعة مدرسة الموسوعيين المنهجيين الذين ذكرناهم ، فقد عاش ودرس وكتب الكتب في النصف الأول من القرن السابع المجري وتوفي سنة ٦٥١/١٢٥٣<sup>(١)</sup> ،

(١) انظر : بروكلان ، ٦٥٢/١ وملحق ٩٠٤/١

فهو سابق على النويرى أقدم الموسوعيين الكبار بنحو قرن من الزمان ، فقد توفي النويرى سنة ١٣٣٢/٧٣٢ ، وسابق على العمرى (توفى ١٣٤٨/٧٤٨) بمثل هذه المدة تقريباً ومتقدماً عن القلقشندى (توفى ١٤١٨/٨٢١) بقليل القرن والنصف ، وقد كان التيفاشى مثلهم رجل كتابة ودواوين ، وهذا كان حافزه إلى تصنيف كتاب شامل يكمن أشبه بالموسوعة التي يرجع إليها رجال الدولة وكتابها من الناحية الديوانية أولًا ثم الثقافية العامة ثانياً ، وقد تبينا الآن أن كل ما ينسب إليه من المؤلفات الصغيرة الحجم مثل «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار» الذى يعرف أيضاً باسم «منافع الأحجار» و«مطالع البدور في منازل السرور» (وموضوعه المعادن) و«نزهة الألباب فيها لا يجاد في كتاب» (وموضوعه الأدب) كل هذه وغيرها مما تصح نسبة إليه إنما هي فصول من موسوعة عامة شاملة عنوانها «فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب» ، وقد عرفنا ذلك من دراسة ملخص هذه الموسوعة الذى عمله محمد بن مكرّم بن منظور المصرى (صاحب لسان العرب) في كتاب سماه «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» تحفظ دار الكتب المصرية بنسخة منه . وقد كان التيفاشى صديقاً حمياً لعلى بن سعيد ، فقد كان هذا ينزل عليه إذا وفد على تونس ، وكان حريصاً على مدحه والاشادة بفضله في تأليفه ، فقال عنه مثلاً في «الرايات» (ص ١٠٩ من طبعة غرسية غومس) : المولى الفاضل العالم الحسيب شرف الدين أبو الفضل أحمد بن الرئيس الحسين القاضى أبي يعقوب يوسف بن أحمد التيفاشى ، من بيت علم شهير وشرف يحمل عن الوصف . كان أحمد كاتب الملك ، فقصد المعز بن الرند<sup>(١)</sup> . وذكر العاد في

(١) كما في الأصل المطبوع ، وصحتها المعز بن الرند ، وكان بنو الرند كما ذكر ابن خلدون في تاريخه لمن افرد بأمر مدينة قصبة (٦٦/٦) أصحاب دولة صغيرة قصيرة العمر في قصة ، وكنيته المعز هذا أبو عمر وهو ابن عبد الله بن محمد بن الرند مؤسس إمارة بني الرند ، وقد بدأت إمارته أبي عمر المعز هذا في سنة ٤٦٥/١٠٧٢ ومن المرجح أن يكون قد حكم إلى سنة ٥٠٠/١١٠٦ تقريباً ، والمقصود في هذه الفقرة هو أحمد التيفاشى جد شرف الدين أبي الفضل أحمد التيفاشى الذى تحدث عنه .

«الخريدة» ابنيه يحيى ومحمدًا ، وأخبرنا أن محمدًا لما أشد عبد المؤمن بدایة قصيدة مدحه بها وهي :

ما هن عطفيه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن على  
أشار له بأن يقتصر على هذا البيت وأمر له بـ«ألف دينار». ويحيى ومحمد  
هذان لابد أنهما كان عَمِّي أبي الفضل التيفاشي وقد قتل واحد منها في صقلية  
هو يحيى كما ذكرنا في حديثنا عن الإدريسي . والشاهد من كلام على بن سعيد  
أن بيت التيفاشي كانوا — كبيت بنى سعيد — أهل علم وأدب وفضل ورياسة  
وصلات بعيدة بالبيوت الحاكمة ، وربما كان هذا هو الذي جعل علياً بن سعيد  
ينزل على صاحبه أبي الفضل أحمد التيفاشي ويصطفيه من دون ابن عمه أبي  
عبد الله محمد بن أبي الحسين الذي كان من أهل الدولة والصدرارة في بلاط  
الحفصيين (توفي سنة ٦٧١/١٢٧٣) ، وكان هذا أولى باستضافة  
عليّ بن سعيد وتقديمه والرفع من شأنه ، ولكنـه كما يبدو من كلام ابن سعيد  
نفسه خشى منافسته وخشي أن يظهر عليه ، مما محل برحيله عن تونس عندما  
وقد عليها أول مرة<sup>(١)</sup> .

المهم لدينا أن صحبة ابن سعيد لأبي الفضل التيفاشي تثير لنا هذه المشكلة  
بعض الشيء وتكشف الستار — إلى حد ما — عن الدافع الذي جعله ينصرف  
إلى الجغرافية برهة من الزمان يكتب فيها هذه الرسالة العلمية الجغرافية الخالصة ،  
فقد وجد ابن سعيد نفسه مع رجل موسوعي يجمع المعلومات من كل حدب

(١) هذا واضح من كلام ابن سعيد عن ابن عمـه هذا كما رواه المقرى في النفح (٤٤/٣ وما بعدها) أما تعظيمـه إلـيـاه في المـادـة التي اخـتصـهـ بهاـ فـيـ الـرـايـاتـ (رـقـمـ ٦٤ صـ ٨٨) فـرـجـعـهـ إـلـىـ الكـيـاسـةـ وـبـعـدـ النـظـرـ ، فـقـدـ كـتـبـ ابنـ سـعـيدـ هـذـاـ الـكـتـابـ وـهـوـ بـمـصـرـ وـأـمـلـهـ مـلـقـ بـالـعـودـةـ إـلـىـ تـونـسـ فـكـانـ حـرـيـاـ بـأـنـ يـؤـمـنـ طـرـيقـ الـعـوـدـةـ ، وـمـعـ ذـلـكـ فـقـدـ خـتـمـ عـبـارـاتـ مـدـيـمـهـ لـهـ يـقـولـهـ : «يـقـرـ لـهـ بـالـفـضـلـ مـنـ لـاـ يـوـدـهـ ، وـيـقـضـيـ لـهـ بـالـسـعـدـ مـنـ لـاـ يـرـدـهـ» (قرأـهاـ غـرسـيـةـ غـومـسـ : مـنـ لـاـ يـنـجـمـ ، وـالـصـوابـ مـاـ أـبـتـنـاهـ وـهـوـ تـعـيـرـ مشـهـورـ) وـهـذـهـ الـعـلـارـةـ فـيـهـاـ مـاـ يـشـمـ مـنـهـ عـدـمـ اـرـتـياـحـ لـهـ سـعـيدـ إـلـىـ اـبـنـ عـهـدـ هـذـاـ فـيـ أـعـمـاقـ قـلـبـهـ .

وصوب ويكتب فصلاً عن المعادن وآخر عن الأحجار الكريمة وثالثاً عن الصحة ورابعاً عن الأدب ، ولما كان هو — أى ابن سعيد — رحالة ذا نظر في أحوال الأرض وما عليها مُغريًّا بالسياحة وجوب الآفاق وركوب السبل ، فقد كان بطبعه ميلاً إلى جمع المعلومات عن البلاد والعباد كما يقولون ، ثم أتيحت له فرصة العثور على نسخة من كتاب نزهة المشتاق في تونس فاستهوره وأكب على دراستها . وهذا ليس مجرد فرض بل هو حقيقة يؤكدها كتاب « بسط الأرض » وما سيكتبه ابن سعيد بعد ذلك عن جغرافية الأندلس وهو في المشرق ، ولا يبعد أن يكون أول ما قصد إليه اختصار « نزهة المشتاق » في رسالة صغيرة كهذه التي كان يُلْفُها صاحبه التيفاشي عن الأحجار أو المعادن أو الطب ، ثم وصلت إلى يده مراجع أخرى زادته تطلعًا إلى هذا العمل ، فلم يلبث أن عَكَفَ عليه فكانت النتيجة هذا الكتاب المسمى « بسط الأرض في الطول والعرض » .

وهذا الكلام لا يحل المشكلة حلاً نستطيع الاطمئنان إليه تماماً ، فلا زالت نسبة هذا الكتاب إلى على بن سعيد قلقة تحتاج إلى ما يثبتها ويؤكدها ، لأن النص نفسه بعيد عن أن يكون لابن سعيد كما نعرفه من طريقة تفكيره وأسلوبه في التأليف .

إذا تركنا موضوع هذه النسبة جانبًا وتركناها على ما يجمع الناس عليه من أن الكتاب لابن سعيد وجدنا أنفسنا أمام كتاب يعتبر من أحسن ما ألف العرب في الجغرافية ، ومن حسن الحظ أن عالمًا إسبانيًا راسخ القدم في تاريخ العلوم عند العرب وهو الدكتور خوان بيرنيت خيميس الأستاذ بجامعة برشلونة قد عنى بتحقيقه ونشره ، وتولى معهد مولاي الحسن في تطوان طبعه في سنة ١٩٥٨ ، وعلى هذه الطبعة التي لا تضم إلا النص<sup>(١)</sup> نعتمد في دراستنا تلك وأملنا أن

(١) نشر الأستاذ خوان بيرنيت النص وحده دون أي تعليق أو بحث أو دراسة ، وقال في مقدمته أنه سيصدر جزء ثانٍ يتضمن الدراسة والتعليق وترجمة إسبانية مع الفهارس .

يصدر الأستاذ خوات بيرنيت مجلده الثاني الذي وعد به في المقدمة حاويا للدراسة والتعليقات والفالرس .

الكتاب يمكن وصفه بأنه جدول بالمدن والجبال والأنهار والبحار وغيرها من الأعلام الجغرافية موقعة على أطوالها وعرضها في دقة لم يحاووها أحد من الجغرافيين قبل ابن سعيد ، والأطوال مقدرة بالنسبة لخط طول فرضي رئيسي يمر بالجزائر الخالدات ، أما العروض فمقدرة بالنسبة لخط الاستواء . وهو يقسم للعمور من الأرض إلى أقاليم كالحزمة العريضة تحيط بكرتها ، وعددتها عنده تسعه : واحد جنوب خط الاستواء وبسبعين مسكونة شماله يليها إقليم ثامن شمال خط الاستواء لا يسكن لشدة برده ، ثم يقسم كل من هذه الأقاليم إلى عشرة أجزاء بادئاً من جزائر الخالدات ومنتهياً إلى جزائر اليابان التي يسميهما جزائر السيل . وهذا العمور يحتل عنده ١٨٠ درجة طولية أي نصف محيط الأرض ، والباقي عنده محيط واسع يمتد من جزائر الخالدات إلى ساحل الصين .

وإليك كلامه بنصه فهو أكثر دلالة على طبيعة الكتاب من هذا التفسير :

«الأرض كرية محيط بها الماء ، لها <sup>(١)</sup> [واقفان بالمركز في قلب الأفلاك] <sup>(٢)</sup> ودورها ٣٦٠ درجة ، وكل درجة ونصف <sup>(٣)</sup> ميل ، والميل <sup>(٤)</sup> ذراع .

(١) أي الأرض والماء الذي يحيط بها . والتصور هنا أن الأرض وما يحيط بها من الماء كالمج و ما يحيط به من زلال البيض أو كأنها كرة في طبق ماء ، وهو معه ساجان في الفضاء في مركز الفلك ، وهذه هي نظرية من قالوا بكرية الأرض من جغرافي العرب من ابن رسته إلى الأدربي كي يبناه فيها سبق .

(٢) اعتمد الناشر مخطوطه باريس أساساً ، وأكلها وقارنها بالقطعتين المحفوظتين بالمتحف البريطاني والمكتبة البوذية في أوكسفورد . والأقواس تعين اتفاقات المضافة من القطعتين الأخيرتين .

(٣) الدرجة الطولية على هذا الأساس  $\frac{2}{3} ٦٦$  ميلاً . وغير ابن سعيد يرى أن اتساع الدرجة ٧٥ ميلاً .

(٤) تقدير الميل هنا بأربعة آلاف ذراع يفهم منه أن ابن سعيد يقدر الميل بنحو ٢ كيلومتر ، وهو طوله في المتوسط .

انظر : Walther Hinz, *Islamische Masse und Gewichte* (Leiden, 1955), s. 63.

« والمعمور منها طوله من الجزائر الحالات التي بالبحر الحيط بالغرب إلى جزائر السيلي [التي] في البحر الحيط بالشرق ١٨٠ درجة . « والظاهر منها مضرس لاستقرار البحار وسلوك الأنهار .

« وعرض المعمور من أقصاه في الجنوب إلى أقصاه في الشمال ٨٠ درجة . [وما بعد ذلك في الجنوب لا يسكن لقوة حر الشمس في الحضيض الذي لها هناك ، وما بعده في الشمال لا يسكن لقوة البرد والجمد ] .

« ومجموع المعمور مقسم على تسعه أقسام : المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب [واحد] <sup>(١)</sup> ، والسبعينة الأقاليم على التدرج من الخط <sup>(٢)</sup> . ثم يكون القسم التاسع المعمور ما بعدها إلى أقصى العمارة ، وفي التعلييل تطويل ] » .

ثم يلى ذلك الكلام بالتفصيل عن الأقاليم واحداً واحداً بادئاً بالأقاليم المعمور خلف خط الاستواء ، وهو يقسمه — وكلا من الأقاليم التالية — إلى عشرة أجزاء تبدأ من خط الطول الوهمي المار بجزر الحالات وتنتهي عند المحيط الأعظم شرق بلاد الصين .

وهذا التصور وذلك التقسيم هما تصور الإدريسي وتقسيمه ، وحدود الأقاليم وأجزاؤها عندها متطابقة ، ومن هنا جاء القطع بأن ابن سعيد اعتمد على الإدريسي اعتماداً رئيسياً ، ولكنه خالفه بعد ذلك في كثير ، فهو لم يختصر « نزهة المشتاق » كما كان يظن ، بل أخذ هيكله العام ومنهجه في التقسيم ومفهومه للجغرافية وهيئة الأرض ووضعها بالنسبة لنظام الأفلاك ، ثم أنشأ كتابه الختصر على أساس ذلك كله ، فنقل عن الإدريسي كثيراً جداً ولكنه نقل من غيره كثيراً جداً أيضاً ، وهذه النقول التي أضافها من غير الإدريسي تزيد

(١) هذا اللفظ ساقط من الأصول جميعاً ، ولكن المعنى لا يفهم بدونه .

(٢) المراد خط الاستواء .

في قيمة كتاب «بسط الأرض» كمصدر فريد لمعلومات ذات قيمة كبيرة — وخاصة فيما يتصل بأفريقيا — لأننا لم نعثر إلى الآن على بعض المراجع المهمة التي نقل عنها .

و قبل أن نعرض لهذه المراجع نستوف الكلام عن نظام التقسيم إلى أقاليم عرضية وأجزاءها ، ثم تقسيم هذه الأقاليم إلى درجات عرضية ، وتقسيم تلك الأجزاء إلى أطوال تحدد بالدرجات الطولية والدقائق .

هذا التقسيم كله يرجع — فيما يبدو لنا — إلى التضمين المختصر الذي عمله الخوارزمي الجغرافية بطاميروس مع تعديل مادته وتوسيعها فيما يتصل بالبلاد الإسلامية وهو المعروف باسم «كتاب صورة الأرض» الذي سبق أن تكلمنا عنه . ويكاد أن يكون من الحق أن ابن سعيد نظر وهو يكتب بعض أقسام «بسط الأرض» إلى الخرائط التي رسماها الخوارزمي ثم أورد في كتابه قوائم بالاعلام الجغرافية الواردة في هذه الخرائط ، وقد بقىت لنا من هذه الخرائط أربع فقط ، واحدة ذائعة الصيت لنهر النيل ، وهي من مفاخر علم الخرائط العربية ، لأن النيل يبدو فيها قريباً إلى حد بعيد من رسme على أيامنا ، فإذاقرأنا وصف ابن سعيد لمنابع النيل ومجاري هذه المنابع ونظرنا في نفس الوقت إلى خريطة الخوارزمي اتفق لدينا أي شك في أننا نقرأ وصفاً لهذه الخريطة ، فنقط الخلاف يسيرة يمكن ردها إلى خلاف في نقل النسخ المختلفين للخريطة نفسها ، وهذه الخريطة واردة ضمن ما ألقناه بهذا البحث من رسوم وخرائط ، وإليك نص ابن سعيد لتقوم بالمطابقة ، ولنلاحظ أن التوافق يشمل أيضاً تحديد خطوط العرض وقد احتفظت بها الخريطة الخوارزمية .

الجزء الثالث [من الإقليم الأول المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب] .

من أوله حيث الطول ٣٦ درجة [ ودقيقة إلى طول ٣٩ درجة ] و

دقيقة<sup>(١)</sup> والعرض ١٦ درجة<sup>(٢)</sup> ينابيع<sup>(٣)</sup> أنهار النيل [الأربعة]<sup>(٤)</sup> التي هي بعد الجزء الخامس<sup>(٥)</sup> المتقدم الذكر [في آخر الجزء الثاني] ، وهي نابعة في بسيط . والخمسة<sup>(٦)</sup> الآخر ينابيعها أيضاً في الجزء الثالث ، إلا أنها من<sup>(٧)</sup> جبل القمر حيث الطول ٤٨ [درجة] إلى ٥٢ درجة و ٥ دقائق ، والعرض في هذه [النابيع] العشر لا يفارق [١٦ درجة] . فالخمسة أنهار الأولى تصب في البطيحة<sup>(٨)</sup> الغربية [الأولى ومركيزها]<sup>(٩)</sup> حيث الطول ٤٢ درجة والعرض ٧ درجة والقطر ٥ درجات .

(١) درجات الطول ودقاتها هنا محسوبة بالنسبة لخط الطول الوهمي المار بجزائر السعادات اتباعاً بطليوس ، ويقول ياقوت (معجم البلدان ١/٣٩) أنها تقع على ٢٠٠ فرسخ من شاطئ المغرب والفرسخ ٣ أميال والميل ٢ ك. م. وإن بعد هذه الجزائر عن شاطئ إفريقيا ١٢٠٠ ك. م. فإذا كان عرض الدرجة ٧٥ ميلاً ك. م. كان بعد هذه الجزائر عن الشاطئ ٨ درجات ، ولكن ابن سعيد يقول في ص ٤٥ أن عرض الجزء الأول من الأقليم الأول ١٠ درجات ، وهذا على حسابه هو بعد هذه الجزائر عن الشاطئ بالدرجات ، ومن هنا نستنتج أن تقديرهم بعد هذه الجزائر غير دقيق ، وقد سبق أن افترضنا أن المراد بهذه الجزائر (الحالات) جزأر الأزورس ، وأن جزائر الكنارياس هي المسماة بالسعادات ، ودليل ذلك أن ابن سعيد يقول في كتابه عن الجزء الأول من الأقليم الثاني : (ص ٤) : الجزء الأول من الأقليم الثاني : تقع فيه الجزيرة السادسة من جزائر الحالات وأربع من جزاء السعادات . وبذلك، صعود البحر المحيط فيه مشرقاً حيث الطول ١٠ درجات ... ».

(٢) الدرجة كما يقول ياقوت ٦٠ دقيقة ، فإذا كان عرض الدرجة ٧٥ ميلاً ، كان عرض الدقيقة ١,٢٥ ميلاً أي ٢,٥ ك. م. والدرجات المقصودة هنا عرضية واتساعها هو نفس اتساع الدرجات الطولية (٥٠ ميلاً عربياً أي ١٥ ك. م.) واتساع هذا الاقطاب عندم ١٦ درجة أي ٢٤٠ ك. م. وهو أعرض الأقطاب ، أما الأقطاب شمال خط الاستواء فتضيق شيئاً فشيئاً إذا اتجهنا شمالاً ، فعرض الأقطاب الأول نحو ٤٠ ميل وعرض السابعة نحو ١٥٠ ميل . انظر بيان ذلك عند ياقوت ٢٧ / ١ وما يليها .

(٣) يزيد منابع الأنهار الصغيرة التي يتكون منها نهر النيل.

(٤) هكذا ، وهو يقول بعد ذلك أن عدد النهيرات التي تصب في كل بطحعة خمسة ، وفي نهاية الفقرة يقول أن النهيرتين الثانية والثالثة عن كل من المجموعتين يصيران نهراً واحداً ، فكأن القول بأنها أربع نهيرات صواب وكذلك القول بأنها خمسة ، وفي خريطة الموارزى عددها أربعة .

(٥) لا أدرى ما المراد بالجزء الخامس هنا ، فلم يسبق له ذكر .

(٦) هنا يعود فريقه إن عدد التهيرات ٥

(٧) يزيد : إلا أنها تذمّع من جبال القمر .

(٨) الماء بالطبيعة هنا الحجمة :

(٩) أي أن مراكزها يقع عند تققاء خط طول ٤٢ بخط عرض ٧

« والبطيحة الشرقية [الثانية] بينها وبين الأولى درجتان ، و [المركز في] العرض واحد ، وكذلك القطر » .

« ويخرج من كل بطبيحة كما يدخل إليها خمسة أشهر من الجانب الشمالي ، [إلا أن الثاني والثالث من البططيحتين يصيران نهراً واحداً عن قريب ، ويصب الجميع في البطبيحة الكبرى التي تركز في الأقليم الأول] » .

« [وفي هذا الجزء الثالث من إقليم] السودان<sup>(١)</sup> رفلاة [وهي بين النهرين الأولين] بينها وبين البطبيحة درجة ، وكوشة على عيون تمد [آخر الأشهر] من البطبيحة الثانية حيث الطول ٥٣ والعرض درجتان ، وتحتها يمر نيل مقدشو الخارج [في شمال الخلط و مجالات القمر بين البططيحتين ، و مجالات أكراو في شمالها إلى بحيرة كوار<sup>(٢)</sup>] »<sup>(٣)</sup> .

ولننضف إلى ذلك أن تقديرات الطول والعرض عند ابن سعيد ومحمد بن موسى الخوارزمي تتطابق إلا في حالات خطأ النساخ في رسم الرموز التي استعملها هذا الأخير مكان الأرقام ، وهذا يدل بوضوح على أن علياً بن سعيد اعتمد على هذا الكتاب اعتماداً أساسياً في تقاديره لعرض البلدان والأماكن وأطوالها على النحو الدقيق الذي نجده عنده ، فإذا ذكرنا أن الخوارزمي في كلامه عن الأقاليم لا يورد لها أوصافاً مفصلة وإنما يورد جداول بما فيها من المدن والجبال والأنهار والبحار مع طول كل منها وعرضه تبينا أن ما فعله ابن سعيد هو أنه بدأ أولاً برسم خطوط الطول والعرض ودرجات كل منها ودقائقها على صiffة كبيرة ، ثم مضى يقرأ قوائم الخوارزمي موقعاً كل مدينة أو جبل أو

(١) جمجم الأسماء هنا غير محققة ، وقد نقلها أبو الفدا (من ١٥١ وما بعدها) كما هي عن ابن سعيد ، ولم يستطع تحقيقها ناشراً النسخ .

(٢) يبدو أن المراد بهذا بحيرة اليرت ، ورسمها أبو الفدا كورى .

(٣) ابن سعيد ، بسط الأرض ، ص ١٢ — ١٣

نهر أو بحيرة في موضعها من الطول والعرض على الصحفية ، وهكذا أصبحت أمامه خريطة هندسية للعالم .

ثم عاد قسم الأقاليم إلى أجزائها متبوعاً في ذلك الإدريسي ، ونهج نهج هذا بعد ذلك في الوصف المفصل لكل جزء من أجزاء الأقاليم ، فإذا وجد خلافاً بين ما ي قوله الخوارزمي والإدريسي أشار إلى ذلك ، فيما عدا كلامه عن البلاد الأفريقية جنوبي خط الاستواء والإقليمين الأول والثاني شماله فقد فضل ابن سعيد الاعتماد في ذلك على الرحالة الجغرافي ابن فاطمة .

ومن ذلك قوله في الكلام على الجزء الرابع من الأقاليم المعمور خلف خط الاستواء : « فيه انتهى جبل القمر على مذهب بطليموس ، حيث الطول ٥١ درجة و ٥٠ دقيقة والعرض ١١ درجة ، وجعله البيهقي وابن فاطمة يتصل من هناك [بال] بجبل الممتد مع أول العماره إلى جبل الندامه<sup>(١)</sup> ... » والمراد بقول ابن سعيد : على « مذهب بطليموس » هو تضمين الخوارزمي هذا دون غيره من الصور العربية الأخرى التي عملها العرب لكتاب جغرافيًّا لذلك الجغرافي اليوناني المصري الأشهر .

فلم يكن عمل على بن سعيد عملاً بسيطًا إذن . إنما كان عملاً دقيقاً معقداً يحتاج إلى فهم وإحساس جغرافيين ، ثم إلى دقة وصبر على متابعة مثل هذا العمل ، وبغير هذا ما كان من الممكن أن يخرج لنا هذه القطعة الممتازة من العمل العلمي الجغرافي التي يُعجب الإنسان لما فيها من تحقيقات وتدقيقات ويُعجب بالملائكة العلمية التي دفعت إلى القيام بها .

ولم يقتصر على بن سعيد على الخوارزمي والإدريسي ، بل اطلع على كتابات عدد كبير من الجغرافيين وأفاد منها على صورة تدل على معرفة بالمكتبة الجغرافية العربية وحسن اختيار من مادتها وانتفاع طيب بهذا الاختيار ، وهذه كلها

(١) بسط الأرض ، ص ١

خصائص تزيد من تقديرنا للجانب الجغرافي من نشاط ذلك العلامة الأندلسي المتعدد الجوانب والملكات .

وأولى مراجع ابن سعيد بالاهتمام هو كتاب رحلة ابن فاطمة الذي يعد — بدلالة ما نقل ابن سعيد عنه — من أحسن أصحاب الكتب من رحالة العرب والمسامين ، ومن أسف أننا لا نعرف عن هذا الرجل أو كتابه شيئاً على الاطلاق حتى اسمه لا نعرفه إلا منقوصاً . ويؤكد ابن سعيد وابن خلدون أن يكونوا أكبر من اعتمدوا عليه ونقلوا عنه ، وحكمنا هنا قائم على هذه النقول . ابن فاطمة فيما يبدو من أهل السودان الغربي ، وربما كان أصله مما يعرف اليوم بالسنغال أو ما يليه جنوباً ، وربما كان من أهل غانة الإسلامية ، وكانت تشمل معظم ما يعرف اليوم بجمهورية مالي على وجه التقرير ، فإن نسبة الناس إلى أممائهم كانت شائعة في هذه النواحي خاصة ، ولدينا أسماء مثل ابن الصحراوية وابن غانية وابن عائشة وابن فتو بنت يوسف ابن تاشفين وكلها شبيهة باسم ابن فاطمة ، ويستدل من الاشارات التاريخية الواردة في كتابه أنه كان سابقاً على ابن سعيد بقليل أى أنه من أهل القرن السادس المجري / الثاني عشر الميلادي في الأغلب .

ويدل كلام ابن فاطمة على علم دقيق بأحوال إفريقيا وأهلها مما يلي الحزام الصحراوى جنوباً ، فهو من أهل السودان الغربي أولاً ثم أنه كان رحالة لا يكل ثانياً ، وقد طاف في رحلاته بالسواحل الإفريقية كلها حتى وصل إلى الصومال والحبشة ثم أوغل داخل القارة ورأى منابع النيل ، وكلامه وملاحظاته تدل على ذلك دلالة صريحة ، ولا ينقض هذا الرأى أنه يقول إن منابع النيل تتكون من مجموعتين من الأنهار تتالف كل منها من خمسة أو أربعة تصب في بطیحة (بحيرة) ثم تخرج من كل بطیحة خمسة أنهار أخرى أو أربعة وتتلاقى هذه النهيرات كلها في بحيرة رئيسة تسمى بحيرة كورا ، فان الوهم في عدّ مجاري الماء التي يتكون منها نهر النيل في المنطقة الاستوائية هو أقل ما ينتظر من

رحلة في تلك الأيام مها بلغت قوة ملاحظته ، وقد نقل عنه ابن سعيد هذا القول مراجعاً على خريطة الخوارزمي والمهم أنه تنبه إلى أن منابع النيل تتألف من مجموعتين من مجاري الماء تتلاقيان آخر الأمر في بحيرة رئيسة يخرج النهر منها بعد ذلك ويسير في بحري واحد ، وهذه البحيرة على ذلك تقابل بحيرة ألبرت . وهذا المفهوم لمنابع النيل يرجع أساساً إلى بطليموس كأقى ، وهو يصور معلومات المصريين القدماء عن النهر العظيم ، وهي معلومات معقولة إلى حد كبير ،اكتشفها المصريون القدماء المغامرون للتطلع في عصور الشباب والمعاصرة والطموح من تاريخه واثبتهما الجغرافي الإسكندراني بطليموس ، ثم جددها الأفريقي العربي ابن فاطمة الذي عاش في عصر النهضة الأفريقية الغربية الأولى وقيام مملكة غانا الأولى التي قضى عليها سون — ديانا ملك مالي سنة ١٢٤٠<sup>(١)</sup> والطريف أن ابن سعيد لاحظ أن ابن فاطمة يمكن عمل بطليموس فيها يتصل بأفريقية فيقول في كلامه عن الجزء الرابع من الأقاليم الأول وراء خط الاستواء : «فيه انتهى جبل القمر [على مذهب بطليموس] حيث الطول ٥١ درجة و ٥٠ دقيقة والعرض ١١ درجة [وجعله البيهقي وابن فاطمة يتصل من هنالك بالجبل المتبد مع أول العماره إلى جبل الندامه ، فيرجع من الحد الذي وقف عنده بطليموس بانحراف إلى العرض الذي بدأ منه ، ويمر ويتجاوز الرابع ( يريد الجزء ) مستقيماً مع أول العماره ، ثم الجزء الخامس ...<sup>(٢)</sup> ».

وقد عرف ابن سعيد قيمة نص ابن فاطمة فقبس منه فقرات طوالاً هي معظم ما يذكره عن الأقاليم الأول المعمور جنوب خط الاستواء والأقاليم الأول شماله في أحوازها الستة الأولى ، أي أحوازها الخاصة بأفريقية ، فإذا ذكرنا أن أقدم معلوماتنا الجديرة بالثقة عن هذه التواحي ترجم إلى أبي عبيد الباركي

Vincent Monteil, *L'Islam Noir* (Paris, 1964), pp. 58-62 (١)

(٢) ابن سعيد ، بسط الأرض ، ١٣

(القرن الخامس/الحادي عشر) ثم يكملها الإدريسي (القرن السادس/الثاني عشر) ثم ابن فاطمة (النصف الثاني من نفس القرن) برواية ابن سعيد (النصف الأول من القرن السابع/الثالث عشر) ثم ابن خلدون (القرن التاسع/الخامس عشر) تبيينا أن أربعة من هؤلاء مؤرخون وجيغرافيون أندلسيون أو من أصول أندلسية، وأئمهم تعاونوا على اختلاف العصور التي عاشوا فيها وتبين البلاط التي كتبوا فيها على أن يقدموا سلسلة معقولة متراقبة من المعلومات الجغرافية والتاريخية عن بلاد كان مجرد دخول الغريب إليها معاصرة لا تؤمن عواقبها ، فكيف بجمع المعلومات والربط بينها وبيانها ذلك الم撒ق اللطيف الذي نجد نماذج ممتازة منه فيما نقل ابن سعيد عن ابن فاطمة في الأجزاء التي ذكرناها ؟

وستكتفي هنا بمثال واحد مما نقله ابن سعيد عن ابن فاطمة في وصف جزء من الصحراء الكبرى يذهب كتاب الغرب إلى أن رجالهم هم كانوا أول من اكتشفه وعرف الناس به تعريفاً عامياً مقبولاً ، وهو ذلك الجزء الجھول من الصحراء الكبرى الذي يمتد من جنوب جمهورية الجزائر عند مترفعتات آهجار ويتصعد شرقاً بهضبة جادو ثم جبال تیستی ويستمر فيطل على حوض النيل عند مترفعتات دار فور :

«الجزء الثاني من الأقليم الثاني : قال ابن فاطمة في وصفه : «لا ماء ولا مرعى ولا عمارة بل رمال سائلة وطرق مضللة طامسة . وأكثر ما يكون فيه اللامط<sup>(١)</sup> لأنّه صابر على العطش وهو على شبه الفزان لكنه أغاظ منه» .

«أول ما تلقاك من هذا الجزء شجر اليسر<sup>(٢)</sup> (التي تقطعها المسافرون) ما بين سجلماسة وغانة (وهي) طولية عريضة يكابدون فيها شدة العطش ووهج

(١) اللامط نوع من الوعول سميك الجلد يعيش في منطقة السهوب في حوض النيجر الأوسط ، وكانت تصنع من جلدته دروع تعرف بالدروع اللامطية .

(٢) كما في الأصل المطبوع ولم أستطع التتحقق من صحته ، وربما كانت صحته : صحراء تيزى الواقعة بين مترفعتات آهجار وهضبة جادو .

الحرور بما هبت فيها ريح جنوبية تنشف المياه التي في القرب . فهم يعدون لها المياه التي في بطون الأبل ويجعلون على أنفواها [كأئم] ليلاً تأكل شيئاً فإذا نشَّفَ الريح مياههم نحروا جلاً جلاً وشربوا ما في بطنه .

وليس في هذا الجزء مدينة مذكورة غير مدينة أودغشت يسكنها أخلاط من (البرابر للساميين والرياسة لصنهاجه) (ولهذه المدينة وصاحبها نباهة ( كما ورد )<sup>(١)</sup> في كتاب المسالك والممالك للبكري . وهي مع خط الاقليم الثاني ) حيث الطول ٢٢ درجة ( وفي عرضها مدينة ) زافون ( وهي ) لسودان كفار ولصاحبيها صيت بين ملوك السودان<sup>(٢)</sup> .

ويمتد في هذا الصحراء جبل الكاف<sup>(٣)</sup> من شرق جبل لميونة<sup>(٤)</sup> إلى أن يسامت أودغشت ثم يمرج إلى الجنوب فيبقى بينه وبين زافون ٥ مراحل وبه يهتدون في تلك الصحاري إلا أنهم لا يقربونه في تعریس<sup>(٥)</sup> لكثره ثعابينه وفي ظهره الشمالي<sup>(٦)</sup> جبل مزاب وهو عال وعر يعتصم به أهل واركان إذ دهمهم جور من ذى سلطان وبينهما ٤ أيام » .

ولا تقل هذه الدقة في كلام ابن سعيد عندما يترك المناطق التي وجد عنها مادة طيبة عن ابن فاطمة فطلب مادة طيبة أخرى في مصادر أخرى ، ويلاحظ هذا ابتداء من وصف الجزء الرابع من الاقليم الثاني (ص ٤٩ وما بعدها) . فان معتمده هنا على الإدريسي بصورة رئيسية مع إضافات من ابن حوقل في الغالب ، ولكنه ينظر دئماً إلى خرائط كتاب الحوارزمي ويتبع تحديد الأماكن مستعيناً بها وبخرائط الإدريسي ، ولهذا يقول بين الحين والحين : « على ما

(١) أضفت هذه العبارة للسياق .

(٢) يراد بالسودان هنا كل ما يلي الخزان الصحراء جنوباً .

(٣) المراد بهذا في الغالب جبال تبستي .

(٤) هضبة جادو ؟

(٥) أى عندما يضربون خيامهم .

(٦) أى إلى شمال هذه الجبال في جنوب المملكة الليبية .

صُورَ في الجغرافيا» . ولا يتسع المقام لايقاد أمثلة من كلامه عن مصر والشام والعراق وما يليه شرقاً فهو حافل بالنقول عن معظم من نعرف من أصحاب كتب المسالك والمالك ، ومن اليسير أن نتبين آثار هؤلاء فيها كتب .

ولكتنا سنتقف وقفة قصيرة عند جزء مما كتب عن الأندلس ، لأنه يتضمن مشكلة لها أمثلة كثيرة في كتابات الكثيرين من جغرافيينا ، وهي التناقض الواضح بين ما يكتبوه عن الأقليم الواحد في كتابين من كتبهم ، وهو أمر لوحظ عند المسعودي في كتابيه «مروج الذهب» و «التنبيه والشراف» ، وسبب ذلك التناقض في المددة عن الموضوع الواحد أن الكاتب من هؤلاء كان يكتب كتاباً معتمداً على مراجع ومصادر معينة ، ثم يمضي الزمان وينسى ما كتب لقلة المراجعة ، فإذا كتب كتاباً آخر تعرض فيه لنفس الأقليم رجع إلى ما تيسر له من المراجع في ذلك الوقت ، فأثبتت أشياء أخرى ، وعددهم في ذلك مقبول ، فقد كان يحدث أن يكتب الواحد منهم كتاباً في العراق وأخر في مصر ، وأين له وهو في هذا البلد أن يحصل على المراجع التي اعتمد عليها وهو في العراق ؟ وعلى ابن سعيد مثال حي لذلك ، فإن كتابه المغرب ولد وأينع كما رأينا في الأندلس قرب غرناطة ، في قلعة يحصب ، ثم كتبت أجزاء منه على طول رحلات ذلك السفار الذي لا يهدأ من تونس إلى حلب . وهذا نقطة جديرة بأن تدخل في الحساب ونحن ندرس أولئك العلماء وأعمالهم ، فإن الكثيرين من الباحثين يدرسونهم في إطار من ظروفنا الراهنة وما فيها من تيسيرات : إذا حاجنا كتاب لا تحويه مكتبتنا ألمتسنه في المكتبات العامة وما أكثرها ، فإذا لم نجد طلبناه بالبريد من ناشره أو مؤلفه ، وإذا أحتاجنا إلى مخطوط حصلنا على صورة منه إذا شئنا ، أما هؤلاء فما أعنzer الظروف التي عملوا فيها ! فقلما احتاجوا إلى كتاب فوجدوه في الوقت القريب ، فإذا عثروا عليه كانت نسخة أخرى غير التي أطعلوا عليها أولاً وبين الاثنين بون بعيد ، وقلما أتيحت لهم فرصة العمل في مكتبات أو خزانة كتب فيها

ما يحتاجون من أصول وساجع ، ورحم الله ياقوت ! ما إن رأى مكتبات مرو حتى ملأ نفسه الطلب كأنه وجد كنوز الدنيا ، وعلى ضوء هذه الكتب الكثيرة نشأت في ذهنه فكرة تأليف معجمه العظيم ، وشرع بالفعل يعمل . كان ذلك سنة ٦١٥/١٢١٨ ، ولكن ما كاد الحول يدور حتى ترامت إليه أنباء زحف المغول على عالم الإسلام ، فأسرع ناجيَا بنفسه إلى الشرق بلداً بلداً حتى دخل الموصل خالى اليad من كل ما ملك ، تم تداركته عنابة الله بالوزير ابن القسطنطين وزير صاحب حلب ، فأتىحت له فرصة مواصلة ما حالت الاخطار بيته وبين عمله ، فأكَبَ على العمل حتى أتم المعجم في عام ٦٢١/١٢٢٤ ، بعد خمسة أعوام من الشروع فيه ، وذلك رغم الأخطار والأسفار ومصائب الأيام ، ولو طُلب إلى أحدنا اليوم أن يكتب مثل هذا المعجم في عشر سنوات ويُسرّت له وسائل العمل أكثر مما هي ميسورة بالفعل ، فأشغل بطن أنه لن يستطيع .

نقول هذا لأننا نلاحظ اختلافاً غريباً بين مادة ابن سعيد عن بلده الأندلس في «المغرب» وفي «بسط الأرض» ، فتحن في الكتاب الأول مع رجل يكتب جغرافية إقليمية وصفية كأحسن ما كتب الناس في هذا الفرع من الجغرافية في العصور الوسطى : معلومات غزيرة قائمة على مشاهدة حيناً وعلى اطلاع واسع حيناً ، وأحكام عامة تنبئ عن معرفة حقيقية وثيقة وملحوظات ذكية تدل على تفتح ذهن ودقة ملاحظة ، كل ذلك في أسلوب سهل يشوق ويُمتع ، أما في «بسط الأرض» فتحن أمام رجل مُقيَّد يفضل ما يقرأ في الكتب التي ينقل عنها على ما يعرفه بتجربته الشخصية ، وناقل لا يفكِّر في تحقيق ما ينقل ، فهو يبدأ في الكلام على الاندلس في الجزء الأول من الأقليم الخامس ، ويبداً عند شاطئه الغربي عند مصب نهر الوادي الكبير ، وهو لا يسميه باسمه بل يقول «نهر أشبيلية وقرطبة» ، ولا نعرف لماذا بدأ عند مصب الوادي الكبير ، لانه ما دام يصف الأقاليم مقسمة إلى أجزاء بادياً من أقصى

الغرب فكان ينبغي أن يبدأ الكلام عن الأندلس بذكر الأشبوة أو رأس كنيسة الغراب وما إليها ، ولكنها يبدأ عند مصب الوادي الكبير ثم يسير إلى الغرب في عكس الاتجاه الذي ننتظره متابعاً الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة فيذكر جزيرة سلطيس ثم مصب نهر يانه ( واد يانه ) الكبير الذي يمر على ماردة وبطليوس ٩ أميال ، ثم إلى مدينة طَبِيرَة Tavira ٢٣ ميلاً ، وهي على غربى نهر يانه وشماليه ، ثم إلى مصب نهر شنتميرية ( Faro ) ثم إلى مصب نهر شلب ٢٨ ميلاً ، ثم إلى جون الريحانة ١٥ ميلاً ، ثم إلى طرف الفيران ( رأس كنيسة الغراب ) ٨٠ ميلاً . والمسافات كلها غير دقيقة ، وإذا كان من الممكن التسامح في فروق الميلين والثلاثة ، فكيف لم يتتبه ابن سعيد إلى أن المسافة بين جون الريحانة وطرف كنيسة الغراب لا يمكن أن يكون ٨٠ ميلاً أى ١٦٠ كيلومتراً ؟ إن هذا الجون لابد أن يكون أحد الخلجان الواقعة بين ميناء بورتيماؤ ورأس سان بيشنتي Cabo San Vicente وهي المسماى عند العرب برأس كنيسة الغراب وهو أقصى طرف جنوبي غربى لشبه الجزيرة .

غير أن الذى يستوقف النظر هو دقة ابن سعيد فى توقع المدن والعالم الجغرافية بالنسبة لخطوط الطول والعرض التى سار عليها ، ولسنا نناقش هنا الأساس الذى اتخذه فى تصوّرها ، فإن خطوط الطول والعرض — أيًا كانت — خطوط وهيبة رسّمها الناس مجرد تحديد مواضع الأماكن بعضها بالنسبة لبعض ، فسواء أرسمت خطوط الطول بالنسبة لخط مار بالجزائر الحالات أو بالخط المار بقبة أريين أو بالخط المار بجرينش فإن العبرة الحقيقة إنما هي في سلامته تطبيق هذا الأساس بعد ذلك ، وفي تيسيره لنا معرفة موقع المواقع بعضها بالنسبة لبعض ، وهنا ، وفيها يتصل بالأندلس بالذات — نجد ابن سعيد قد وفق توفيقاً عظيماً في استعمال خطوط طوله وعرضه بحيث إننا لو أخذنا ورقة ورسّمنا فيها تلك الخطوط ثم وقعنا الأماكن عليها كما حددها هو بالدرجات والدقائق ، ثم قارنا أوضاع هذه المدن بالنسبة بعضها البعض بأوضاعها على خريطة معاصره لما وجدنا كبير

فرق إلا في حالات قليلة ، وهذه الدقة لا تصدق مع الأسف على المسافات كما ذكرها ابن سعيد مقدرة بالدرجات ودقائقها ، وربما كان مرد ذلك إلى أن الطرق التي كان الناس يسلكونها إذ ذاك للانتقال من مدينة لأخرى كانت تختلف عن الطرق التقليدية المعروفة في شبه الجزيرة .

هذا التوقيع للمدن الاندلسية على خطوط طول وعرض ابتكره على بن سعيد ابتكاراً ، فإن المدن التي يذكرها بطليموس في شبه الجزيرة قليلة جداً ، والإدريسي لم يحدد موقع البلاد الاندلسية من الأطوال والعرض ، وإذن فلم يبق إلا أن ابن سعيد عمل ذلك الحساب بنفسه ، وأنه لما يدعوه إلى الاعجاب به أنه عرف كيف يقيم التقديرات على هذا المستوى من الدقة وحسن التصور ، ومصداقاً لذلك أورد فيما يلي البلاد والاعلام الجغرافية التي ذكرها في الجزء الأول من الأقليم الخامس وهو يتصل ما يقع من شبه الجزيرة بين خط عرض ٣٧ و ٤٠ وبالباقي إلى الشمال ذكره في الجزء الأول من الأقليم السادس متابعاً في ذلك التقسيم العام للإدريسي :

العرض		الطول		الموضع
درجة	دقيقة	درجة	دقيقة	
٣٦	٤٥	٨	١٥	مصب الوادي الكبير
٣٧	١٢	٧	٢٠	جزيرة شلطيش
		٦		طرف العيرات
٣٧	٣٠	٩	١٠	اشبيلية
٣٨	٠٥	٩		بطليموس
٣٩	(غير دقائق)	١٠		مساردة
٣٨	٣٠	١٠		قرطبة
٣٧	٣٠	١١	٤٠	غرناطة
٣٩ (غير دقائق)		١١	٤٠	جيانت
٣٩	دقيقة	١٨		مرسية
٣٨	٤٠	١٥		مصب نهرى الوادى الكبير وشقورة

وفي أشاء هذا الكلام الموجز يورد ابن سعيد تفصيلات جغرافية وتاريخية ذات قيمة عظيمة ، وبعض هذه التفصيلات مقتبس عن الإدريسي أو ابن حوقل أو البكري ، ولكن بعضه الآخر من معلوماته الخاصة ، وفيما يلي نماذج من هذه المعلومات :

سكان الأقليم الخامس : بياض أهلها متزوج بالمحنة ، وفيهم شُقْرَةٌ وَزَرَّةٌ (عيون) في غالب الحال ، ولا سيما فيما يلي (الأقليم) السادس .

حدود الأقليم الخامس : عند آخره من خط الاستواء ٤١ درجة و ٣١ دقيقة ، ووسعه ٥ درجات . (أى أنه يبدأ عند خط عرض  $^{\circ}36'31$  وينتهي عند  $^{\circ}36'36$ ).

طرف الغراب : ويدخل في البحر من هذا الطرف ٢٢ ميلاً<sup>(١)</sup> ، وهو آخر عرض الأقليم الخامس ، والطول هناك ٦ درجات .

النهر الكبير : الذي عليه أشبيلية ، وهذا النهر إنما حُسن جانبيه عند أشبيلية ، ويصعد المد فيه من البحر الخيط ٧٢ ميلاً ، وتصعده مراكب الفرج الكبير بوسقها إلى باب أشبيلية .

جبل شُلير وغرنطة : في جنوبي غرنطة لا يفارقه الثلج ، وحكي ابن اليسع أنه ينزل منه نيف على ٢٠ نهراً منها نهر الذهب<sup>(٢)</sup> الذي يشق غرنطة ، ونهر شِنْيل الذي يمر مع سورها ، وكلاهما عليه الأرحاء والبساتين ، وهذه المدينة في عصرنا هي قاعدة ابن الأحرار ملِكٍ ما بقي من المسامين بالأندلس .

مرسية ونهرها (شقرة) : وهي (مرسية) على شمال نهر مليح عليه النواص والبساتين ، أخو نهر أشبيلية (الوادي الكبير) منبعها من جبل شقرة حيث

(١) الأصل المطبوع طرف العران والصواب طرف الغراب ، والمراد كنيسة الغراب وهو يقابل رأس سان بنتي ، وتقدير ابن سعيد لطول هذا الطرف خاطئ ، وربما كانت صحته ٨ أميال لا ٨٠ ميلاً ، فإذا صدق هذا القرض كان التقدير معقولاً ، لأن ٨ أميال تساوى ١٦ ك.م. ، وطول الطرف من قرية Vila de Bispo إلى نهايته نحو ذلك .

(٢) المراد بذلك نهر حداره el Darro ويسمى بذلك لما كان يستخرج من مائه من برادة الذهب الحالص ، ويعرف بالذهب المدنى (الروض المختار ، ص ٢٤)

الطول ١٥ درجة والعرض ٣٨ درجة و ٤٠ دقيقة ، يخرجان من عين واحدة ، فيشرّق نهر مرسية ويصب في بحر الزقاق ، وينغرّب نهر اشبيلية ويصب في البحر المحيط<sup>(١)</sup> .

ولا يتسع المجال هنا لايقاد أمثلة أخرى من ذلك الكتاب الفريد ، فهو مطبوع متداول بين أيدي القراء اليوم ، وجدير بالذكر أن أجزاء هذا الكتاب متناسبة من حيث الدقة أو عدمها أو غزارة المادة وقلتها ، لأن علياً بن سعيد جمع مادة طيبة عن كل قطر تقريباً ، وكما انتفع بكتاب البلدانيين والمسالكين فيما يتصل بالموضع والطرق والبعد في قلب مملكة الإسلام ، فقد انتفع بالإدريسي عن بلاد أوروبا وبالبكري عن الشمال الأفريقي وبابن فاطمة عن بقية إفريقيا وبالبيروني عن الهند وإيران وبالمسعودي عن بخار الهند والصين وبسطه يوس عن نواح أخرى بعيدة لم يكن لدى العرب مرجع آخر عنها مثل جزائر الحالات وجزائر السعادات . وعرف ابن سعيد كيف يصب هذه المادة كلها على قالب واحد ، ولهذا فهذا الكتاب من الكتب الجغرافية العربية القليلة التي تتناسب أجزاؤها جميعاً ، ومن هنا فإن ذلك الكتاب يمكن أن يؤخذ كنموذج للتأليف العلمي العربي في أحسن صوره . وقد تنبه إلى ذلك أبو الفدا ، فجعل كتاب علي بن سعيد أساس عمله واغترف من مادته بكلنا يديه وقرر ذلك في عشرات الموضع على طول كتابه « تقويم البلدان » ، وقد وجه إليه بعض النقد على بعض هنات وجدتها عنده ، ولكنه نقد يؤكّد الاعتراف بالفضل ، وأنه لمن حسّن ذلك العلامة الأديب الرحالة الأندلسي أنه استطاع في فترة من فترات المدورة القليلة من حياته أن يسكن ببره ليهدى المكتبة العربية الجغرافية فيها أحسن رسالة مختصرة جامعه ألفها عربي في تقويم البلدان .

(١) التصور هنا صحيح إلى حد كبير ، فإن الوادي الكبير ينبع من جبال كاثورلا Sierra de Cazorla ونهر شقورة من سيرا سيكا Sierra Seca المتفرعة من جبال شقورة Sierra de Segura وكلها أجزاء من سلسلة جبال واحدة . وانظر بسط الأرض ، ص ٩٩ — ١٠٠

إلى هنا نقف بالكلام على على بن سعيد الجغرافي بعد أن بينا خصائصه في القسم الجغرافي من كتابه الرئيسي «فلك الأرض المحيط بحلي لسان العرب» وفي رسالته المبدعة «بسط الأرض في الطول والعرض» التي فرغنا من الكلام عليها ، ومن الواضح أن هذا الرجل الفذ سار بتيار التأليف الجغرافي العلمي في الطريق الجاد متابعاً لتقليد الرازي والعذري والبكري والإدريسي ومن إليهم من المنهجيين الأصوليين من أهل الأندلس محافظاً على جوهر العلم الجغرافي من أن ينحدر في الطريق السهل الفسيح الحظر الذي فتحه صاحبه وبلديه الغرناطي مثله أبو حامد ، فيندر أن نقرأ عند ابن سعيد شيئاً خرافياً أو كوزموغرافياً مما أورده أبو حامد وأبو بكر الزهري . وإذا كان «المسالك والممالك» لأبي عبيد البكري يمثل لنا قمة ما وصل إليه أهل الأندلس من التأليف في الجغرافية قبل الإدريسي ، فإن علياً بن سعيد يمثل قمة من القمم التي وصلها العرب في التأليف الجغرافي بعد الإدريسي مستعينين بمنهجه متبعين بعادته . وكتاب بسط الأرض إنما هو في الحقيقة إبتكار . إبتكار في التأليف الموجز المركز الغزير المادة القائمة على التفكير السليم والحساب الدقيق والتصور الواضح<sup>(١)</sup>.

لقد رأينا فيما مضى كيف ابتكر أبو حامد فن التأليف الكوزموغرافي أو الكوزموجي ، وكيف أعطانا أبو بكر الزهري نموذجاً من كتب الجغرافية الشعبية التي كان التجار والسفار والملاحون يعتمدون عليها ، وكيف اخترع أبو بكر العربي أدب الرحلة في الأندلس ، فوصل به ابن جبير إلى قمته ، وه فهو على بن سعيد يضيف إلى المكتبة العربية الجغرافية رسالة فريدة في بابها ستكون عظيمة الأثر عند كل من سيؤلفون في الجغرافية على المذهب الجاد بعده . وفي فقرة تالية سنرى كيف حدد أندلسي آخر هو ابن عبد المنعم التميمي مستوى عالياً لفن العاجم الجغرافية عند العرب .

(١) من القيد هنا أن نشير إلى مقدمة الجزء السادس بحصر (مطبوعات جامعة القاهرة ١٩٥٣).

## أبو عبد الله محمد العبدري (١) ورحلته

وقد جرت العادة عند الكلام على الجغرافيين والرحالة من أهل الأندلس أن يُؤتى بذكر أبي عبد الله محمد العبدري صاحب «الرحلة المغربية» على اعتبار أنه بلنسى الأصل ، ولكن الأستاذ محمد الفاسي نفى هذه النسبة الأندلسية عن الرجل في بحث له عن العبدري وقرر أنه مغربي من أصل عربي قرشي يرجع إلى بنى عبد الدار . وذهب الأستاذ أحمد بن جدو الذي نشر هذه الرحلة أخيراً في الجزائر إلى أن الرجل قد يكون أصل بيته من بلنسية ، ثم هاجر

(١) اسمه الكامل محمد بن محمد بن على بن أحمد بن مسعود – أو سعود – العبدري وكنيته أبو عبد الله ، لا أبو محمد كما قال محمد بن شنب في المادة التي أدارها عليه في دائرة المعارف الإسلامية ، وينبغي التحرز من الخلط بينه وبين عدرين آخرین من أهل الرحلة والعلم مثل محمد بن ابراهيم بن أحمد العبدري الألبی ، وهو أندلسي من أباه Avila هاجر به أهله من الأندلس إلى تلسان واستقروا بها ، ومحمد بن ابراهيم العبدري هذا هو شيخ ابن خلدون ، ومثل أبي العباس العبدري الميورق الأندلسي مؤلف بهجة المهج في بعض فضائل الطائف ووج » ، ولا نعلم سنة ميلاد أبي عبد الله محمد العبدري الرحلة أو سنة وفاته ، ولكننا يقول في فاتحة رحلته أنه بدأها في ٢٥ ذى القعدة سنة ٦٨٨ / ١٢٨٩ ديسمبر

مراجع : نشر الرحلة المغربية للعبدري – وهي أحسن مرجع عنه – أحمد بن جدو في الجزائر سنة ١٩٦٥ ، وقدم له بقديمة قيمة ، وكتب عنه بحثاً قياماً الأستاذ محمد الفاسي في صحيفـة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد (مجلد ٩ - ١٠ - ١٩٦١ - ١٩٦٢) ص ١٤ - ١ ، ابن القاضي ، جذوة الاقتباس (طبع حجر ، فاس ١٣٠٩) ص ١٧٩ - ١٨٠ ، تاج العروس ، تحت لفظ عـبدري – بـروـكـاتـ ، دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الأولى) مادة عـبدـري بـقـلمـ محمدـ بنـ شـنبـ ، وقد تـرـجمـ شـيرـبـونـوـ فـقـراتـ منـ رـحـلـةـ العـبدـريـ وـنـشـرـهـ فـيـ الـجـلـةـ الـأـسـيـوـيـةـ :

Cherbonneau; *Notice et Extraits des Voyages d'El-Abdery; dans Journ. AS. 5ème Série IV, 144 sqq.*

وتوجد فقرات أخرى مترجمة إلى الفرنسية في مقال :

Motylnski, *Itinéraires entre Tripoli et l'Egypte: El Aâachi, Moulay Ahmad et al-Ouarti-lâni (Extrait du Bulletin de la Société de la Géographie d'Alger)* Alger 1904, p. 4.

W. Honerbach, *Itinerar des 'Abdari;* ZDMG, XLIV, p. 193, sqq.

Pons-Boigues, no. 261 p. 310-313.

وقد ترجم بونس قطعة كبيرة من رحلة العبدري إلى الإسبانية ، وتاريخ الفكر الأندلسى لجندالث بالثانيا ، ترجمتنا العربية ، فقرة ٩٩ ص ٣١٨ وكرانش��وفسکی ، الأدب الجغرافي العربي ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨

أهل به وهو صغير إلى المغرب حيث استقروا في الأقاليم الذي ينسب إلى قبيلة حاجة المصمودية حول مدينة الصويرة الحالية المعروفة باسم موجادر أيضاً شمال مدينة أغادير، وهناك نشأ محمد العبدري عربياً مغربياً يعتبر منطقة حاجة بلده ونشأه، وهو تعديل مقبول لنسبة البلنسي التي حملها الرجل، وهي نسبة نجدها في بعض المراجع القديمة مثل كتاب المؤنس لابن أبي دينار القيروانى.

وسواء أكان الرجل أندلسيّاً بلنسى الأصل ثم نشا في المغرب أو كان عربياً مغربياً لا صلة له بالأندلس، فإنه يعد في المغاربة ولا مكان له والحقيقة هذه في بحثنا هذا، وإنما نذكره في هذا الموضوع لعرض موضوع الخلاف في نسبة وأصله، ولأنه منظوم في سلك الأندلسيين عند بونس بويس وشيربونو وبروكمان وجندالث بلنسية وكراشكونفوسكي، ومن الحق أن يصحح هذا الخطأ ويوضع الرجل في إطاره الصحيح، وإن كان تاريخ الثقافة العربية في الغرب الإسلامي كله لم يعرف التفرقة الخامسة بين أندلسي ومغربي.

وما دمنا قد وقفنا بهذا الرجل هذه الوقفة القصيرة فلا بأس ببعض ملاحظات على رحلته وهي في الصفيح من ذلك التاريخ الذي تتولاه، فقد رأينا كيف ولد أدب الرحلة في الأندلس على يد أبي بكر بن العربي وكيف سما إلى ذرورة ساقمة عند ابن جبير، ومن المفيد بعد ذلك أن نرى كيف لم يوفق من جاء بعد ابن جبير من الرحالة في السير في طريقه الذي حدد مستوى رفيعاً في الأدب العالمي كله لا بالنسبة للأدب العربي خحسب (في حدود عصره طبعاً)، وهو طريق يبدو لنا بسيطاً ونحن نقرؤه، ولكن قيمته وصعوبته تتجلى إذا قرأنا رحلات غيره كرحلة العبدري هذه، فإذا جاز أن يوصف شيء بأنه سهل ممتنع فذلك دون ريب وصف رحلة ابن جبير.

فابن جبير رجل صاف القلب صاف النظر يأخذ الجانب الطيب من الحياة والناس، ولا تشغله عواطفه وتثيراته بما يلقى من الناس عن أن يصفح وينسى ويأخذ البشر على أنهم بشر فيهم الصالح وفيهم أيضاً غير الصالح، ومن ثم

فهو لا يقسو في القد إلا إذا ضاق ذرعه بالفعل كما حدث له وهو بين يدي رجال الحدود وهو داخل إلى مصر ، أو هو يتأنب لركوب السفينة الرهيبة من عيذاب إلى جدة ، أما العبدري فرجل غاضب ساخط ممورو لا يكاد يلقي ما يرضيه إلا في النادر ، ورأيه في أهل زمانه يوجزه قوله : « وقد تعطل في هذا العصر موسم الأفضل ، وتبدل في كل قطر نظام الفضائل ، وتفرق أهلها أيادي سباً ، وصاروا حديثاً في الناس مستغرباً ، فعادوا إسماً بلا مسمى ، وحرفًا مادل على معنى ، فالحدث عنهم في مشرق أو مغرب كالحدث عن عنقاء مغرب ، ولو طاب الورد لحمل الري وقد عي قال أبو العلاء المعرى .. » فهذه مبالغة في الحلة على أهل عصره تجعل القارئ في شك من صحة أحکامه وأرائه ، وإلا فكيف يرمي أهل زمانه بهذا العنف عن قوس واحدة ثم يقول بعد ذلك أنه يتحقق الحق ويلتزم الصدق ؟ ومن غريب أحکامه على المغرب كله قوله : « أو ليس من الأمر الأمر الخارج عن كل قياس أن المسافر عند ما يخرج عن أنظار مدينة فاس لا يزال إلى الإسكندرية في خوض ظماء وخطب عشواء ، لا يأمن على ماله ولا على نفسه ، ولا يؤمل راحة في غده إذ لم يرها في يومه وأمسه ، يروح ويغدو وله على وضم ، يظلم ويتحف فيه قضم ، تتعاطاه الأيدي الفاشية ، وتهواه الأكف الظالماء ، لا منجد له ولا مغيث ، ولا ملجأ يعتضم به المسكين ، فيستنجد ويستغيث ، وأنى له بالمنجد المغيث ، ينادي وهو في قبر المظلوم يوسف : الا ناصر ينجد ؟ الا راحم يرؤف ؟ .. » فهذا كلام لا يمكن أن يصدق لأنه يصور جزء ضئلاً من عالمنا العربي الإسلامي في صورة لم يبلغ في وصفها بهذا السوء عدو ولا غريم . والغريب بعد ذلك أننا نجده يلقي الفضلاء وأهل الخير والصلاح على كل مرحلة من مراحل الطريق ويطيل في الكلام على ما وجد عندهم من الفضل والخير والعلم ! والحقيقة أن العبدري كان رجلاً متشارعاً شئ الظرف في الدنيا والناس ، وكان من أولئك الناس الذين لا يدركون ما يريدون ، فهم دائمًا في سأم وقلق وضيق وإسراع إلى التفوري

والنذمة ، فهو لا يكاد يلقي في طريقه رجلاً يوصف بالعلم إلا في النادر ، فيقول بمناسبة تلمسان : « ما رأيت بمدينة تلمسان من ينتهي إلى العلم ولا من يتعلق منه بسبب سوى صاحبنا أبي عبد الله محمد بن عمر بن خميس » ويقول عن مدينة مليلية « وما بقي بها من له بالعلم أدنى عناية » وعن مدينة الجزائر : « فلم يبق بها من هو من أهل العلم محسوب ، ولا شخصٌ إلى فن من فنون المعارف منسوب ، وقد دخلتها سائلاً عن عالم يكشف كُرْبَه أو أديب يؤنس غربة ، فكأنّي أسأل عن الأبلق العقوق ، أو أحاول تحصيل بعض الأنواع » ، ثم يصل إلى بجاية فيرضى عن أهلها بعض الشيء ويصفهم بالمواظبة على الصلوات ، ثم يعود إليه سخطه ونفوره ويقول : « غير أنه اعتراه من الفِير ما شمل في هذا الأوّان البدو والحضر ، قد غاض بحر العلم الذي كان به حتى عاد وشلا ، وعفا رسمه حتى عاد طللا » ويصل إلى قسطنطينية فيقول : « ولم أر بها من ينتهي إلى طلب ، ولا من له في فن من فنون العلم أرب سوى الشيخ أبي على حسن بن بلقاسم بن باديس » وهكذا في كل البلاد تقريراً فيها عدا تونس ، فهذه — من دون مارأى من بلاد الدنيا — أعمجته فأطنب في مدحها ومديح أهلها إلى درجة تعذر سخطه على غيرها من بلاد الله .

وقد قرأت في بحث الأستاذ محمد الفاسي عبارة نقلها عن رحلة ابن عبد السلام الناصري تفسر لنا بعض الشيء سبب سخط العبدري على الناس ، قال تعليقاً على ذمّه لمصر وأهلها : « ... جرياً على عادته عفا الله عنه في ذمّ البلاد وأهلها ، وما كان ينظر إلا بعين السخط إليها ، فليته مدح من يستحق المدح ، ودم من يستحق الذم ، أو يتغافل عنه إلا بقصد البيان ، وما رأينا مدح بلدة ولا سكانها إلا مدينة تونس ، ولو أمكنه أن يقول في الحرمين هجواً لقال ، وما ذاك إلا أن الرجل ببرى من سكان الجبال لم يألف الناس ولا البحث عنهم ولا الذهاب إليهم ، إنما ينزل بمدرسة من جملة الطلبة ، أو بفندق من جملة الغرباء ، ولا يتغطى له علم ولا ذو سروة حتى إذا صدر عن البلد قال فيه ما شاء » .

فإذا وضعنا إلى جانب ذلك بعض ما قاله عن تونس تبينا صدق ملاحظة الناصرى وسبب رضاه عن تونس وأهلها : « وما رأيت لأهلها نظيرًا شرقًا وغربًا : شيئا فاضلة وخلالا حميدة ومعاصرة جميلة ، وقد كان الأخلاق بمن شاهد أخلاقهم أن يطرب في وصفهم ويُطرّب<sup>(١)</sup> على من يمنحهم الوداد وينصفهم ، إذ ذلك من بعض واجبهم وأقل مراتبهم . ولكن الزمان لا يعين على توفيق الحقوق . ولا يتعمد بالفراغ إلى أهل العقوق<sup>(٢)</sup> . وناهيك من بلد لا يستوحش به غريب ولا يُعدم فيه كل فاضل أريرب ، يبدؤون من طرأ عليهم بالمداخلة ويخطبون منه لفضل طباعهم المواصلة ، فهو منهم بين أهل مشق ورفيق مرفق . وقد كان بعض أختيار طلبتها وحسبائهم لازمني مدة الإقامة بها ، وترك لأجل مهام أموره ، وعرفني بفضلاها وكان لا ينفصل عن عامة النهار . وكثيراً ما كنت أسر بمن لا يعرفني من أهلها ، فأسأله عن الطريق إلى ناحية منها ، فيقوم من حانته ماشياً بين يدي ، يسأل الناس عن الطريق ويدلني ، وهذا من أغرب ما يسمع من جحيل الأخلاق ، وذلك فضل الله يؤتى به من يشاء » .

وإذن فقد وجد العبدري في تونس ما لم يجده في غيرها من البلاد ، وجد ناساً يختلفون به ويؤنسونه بل يتزكون أعمالهم ليقفوا على خدمته ، ويعرّفونه بالفضلاء من أهلها ، فأنس بهم واستروح ، ولم يشعر بهذا التحول الذي كان يملأ نفسه إذا نزل بمدرسة في جملة الطلبة أو ينحدق من جملة الغرباء ، وهذا ما كان يثير نفسه ويملئها سخطاً . أما اطلاقه لسانه في أهل البلد بعد رحيله عنه ، فهو نفسه يقرر ذلك فهو يقول في مستهل رحلته « وهذه الرحلة بدأت بتقييدها في تامسنان ، ولم يمكنني اظهارها هنالك ، وأظهرتها بعد خروجنا منها<sup>(٣)</sup> ».

(١) في الأصل المطبوع : يضرب ، وما أثبتناه أشبه بالمعنى وإن كان قليلاً (انظر الرحلة ص ٣٧).

(٢) كذلك في الأصل المطبوع ، وهو غير واضح .

(٣) الرحلة المغربية ، ص ٥

وكان ابن عبد السلام الناصري أقرب ما يكون إلى الصواب في الحكم على العبدري عند ما قال : « وما ذاك إلا أن الرجل ببرى من سكان الجبال لم يألف الناس ولا البحث عنهم والذهاب إليهم » وهي عبارة تفهم حق الفهم ويدرك عميقها إذا فسرنا كلية « ببرى » هنا بأنها « ريف من سكان الجبال » فإن العبدري كان في حقيقته رجلاً ريفياً ألف العيش في الجو الطلق الصالحي في الجبال بعيداً عن زحمة الناس وضجيج المدن ، ولهذا فقد كان يحس بأنه في جوه الذى يألفه إذا خرج من المدن وضرب في الطرق على وعورتها ، فإذا دخل مدينة عاوده الانقياض والتلور ، وزاد شعوره بذلك عمقاً اضطراره إلى المبيت في بيوت الطلاب أو الفنادق ، مما كان يُشعره بهشاشة وضياع ، فتمنى نفسه مسراة يصبهها بعد ذلك على الورق ، وهذا التناقض هو الذى يضفي على رحلته طرافة فريدة في بابها تتأتى من انتقاله من الاستراحة والاطمئنان خارج المدن إلى الكابة والسيطرة في داخلها ، وإذا كنا قد قلنا أن كلام العبدري عن المدن والناس مليء بالمرارة والذم والسيطرة فاننا ينبغي أن نقرر أن كلامه عن الطبيعة ومناظر السهول والجبال والبحار وهياكل المدن كما تبدو له من بعيد كلام كله أشراق وانفعال يدل على حساسية مرهفة بكل ما هو طبيعى طلق ، وهنا — والرجل على سعيته وراحة نفسه — يتكشف لنا العبدري عن جغرافي طبيعى ملحوظ يدرك بالنظره الواحدة ما لا يدركه غيره بالتأمل الطويل .

هذا موضع القيمة الجغرافية للرحلة المغربية للعبدري ، فإن الأوصاف الدقيقة التي قدم بها لأحاديثه عن المدن ومن وجده (أو من لم يجده بتغيير أصح) بها من أهل العلم تعتبر خيراً ما في الكتاب وأعظمها قيمة ، لأن الرجل كان بطبيعته الريفية الجبلية السليمة قدرياً على أن يستبين من دقائق ما تقع عينه عليه من المناظر ما لا يستبينه غيره من أهل المدن ، وهو يصف ما يرى وصفاً ساذجاً واضحًا ينقل للقارئ ما رأه بعينه وأحس به ، في حين أن غالبية المغارفائيين في تلك العصور كانوا ينقلون من كتب ؛ ومن أمثلة ذلك قوله في وصف مدينة

آنسا من مدن إقليم السوس في جنوبى القطر المغربي : « وأما بلد آنسا — جبره الله — فهو بلد منفسح منشرح في بسيط مليح طيب التربة يغلب كثيراً ، وبه ماء جارٍ كثير ونخل وبساتين ، وهو آخر بلاد السوس من أعلىه ، متصل بالجبل مشرف على بلاد السوس ، وكان فيما مضى مدينة كبيرة ، فتوالت عليها الخطوب المحتاح ، ونزل الأقدار المتساحة ، حتى صارت رؤيتها قد ذلت في المقلتين ». وقد يورد في غضون هذا الوصف من ملاحظاته الساذجة الصادقة ما يتضمن حقائق عظيمة القيمة لا نجد لها عند غيره من أهل البحث والتتكلف ، ومثال ذلك قوله في وصف مدينة تامسان : « ثم وصلنا إلى مدينة تامسان فوجدناها بلداً حلت به زمانة الزمان . وأخلت به حوادث الحدثان . فلم تبق به علة . ولا تبصر في أرجائه لظمآن بللة . وقد شاهدت جمعاً من الحجاج ينيفون على الألف وردوها فوقوا إلى ملوكها ، فأعطواهم ديناراً واحداً . وأغرب من هذا ما شهدته من منصور صاحب مليكش ، وهو أن جماعة من الحجاج نحو العشرين وقفوا إليه في محلته عند بيته ، فكلموه في عشائهم ، فرحب بهم ، واحتفل في السلام عليهم ، ثم أخذ ينادي يا أهل الدوار : هؤلاء ضيوف الله ، من يحمل منهم إلى بيته واحداً ؟ وجعل يكرر ذلك كما يصنع المدرُّون أهل المدر . فاما لم يحبه أحد منهم ولعنة ورائه جمع كثيف من الفرسان . وهو سلطان تلك التواحي . وتامسان مدينة كبيرة سهلية جليلة جميلة المنظر مقسمة باثنتين بينهما سور ، ولها جامع عجيب مليح متسع ، وبها أسواق قائمة . وأهلها ذوو ليانة ، ولا بأس بأخلاقهم . وبظاهرها في سند الجبل موضع يعرف بالعباد وهو مدفن الصالحين وأهل الخير ، وبه مزارات كثيرة ، ومن أعظمها وأشهرها قبر الصالح القدوة فرد زمانه أبي مدين رحمه الله ورضي عنه ورزقنا بركته . وعليه رباط مليح مخدوم مقصود ، والدائر بالبلد كله مغروس بالكرم وأنواع الثمار ، وسوره من أوثق الأسوار وأصحها ، وبه حمامات نظيفة ومن أحسنها وأوسعها وأنظفها حمام العالية وهو مشهور ، قل أن يرى له نظير . وهذه

المدينة بالجملة ذات منظر وخبر وأقطار متعددة ومبانيها مرتقة ولكنها مساكن بلا ساكن ، ومنازل غير نازل ، ومعاهد أفترت من معاهد<sup>(١)</sup> .

ويصل إحسانه في الوصف إلى مده عندما يصل إلى الإسكندرية ، فان منظر البلد يروقه أول ما يهل عليه فيقول أنه « بلد الاشراق اللامع والطلاقة ، وطلاؤه المنظر وحلاؤه المذاقة<sup>(٢)</sup> » ويسترسل في هذا المديح المعجب صفحتين متواتتين يصف فيها شوارع البلد وبيوته بأحسن ما وصفها به رحالة عربي قبله ، وتستوقف النظر دقته في وصف عمود السواري ومنار الإسكندرية . ووصفه لهذا الأخير قريب من وصف ابن جبير . ولا يكاد يفرغ من هذا الوصف الجميل المشرق حتى تختويه المدينة الكبيرة بين دفتيها ويضيع في زحمتها ، فينقلب بإشراق نفسه عبوساً وانقباضاً فيمضي يقول : بيد أنها الآن بلد زادت صورته على معناه ، واستثار بالفضائل معناه ، فهو كجسم حسن لا روح فيه ، أو برد مفوف خلا من ملتحفيه ، أو غمد مرقش اندق الصارم الذي كان يخفيه ، أكثر أهلها رعاع ، ضرر بلا انتفاع ، مع سوء أخلاق ومرارة مذاق ...<sup>(٣)</sup> » ولا نلبث أن نعثر على علة سخطه على أهل الإسكندرية إلى هذا الحد ، وذلك حيث يقول : « الخير فيهم فعل لا يتصرف ، والغرير فيهم نكرة لا تتعرف . إن رأوه زادوا الوجوه جهامة ، ونكروا منها ما قد نكرته الدمامات ... » ولو قيس الله له من يرافقه وباصحبه ويخفف عنه عناء الغربة لما اندفع مع الندم هذا الاندفاع . وفيها عدا هذه الأوصاف للمناظر الطبيعية والمدن وتلك الحالات القاسية على من فيها من الناس والبشر ، ملا العبدري رحلته بكلام كثير في الفقه والنحو واللغة والأدب والشعر ، وانفق صفحات بأسرها في مناقشة دقائق من هذه العلوم أو في رواية أشعار له ولغيره ، وهذه الفقهيات والأدبيات واللغويات وما

(١) الرحلة المغاربية ، ص ٩ — ١٠

(٢) الرحلة المغاربية ، ص ٨٣

(٣) الرحلة المغاربية ، ص ٨٥

ينتشر في الكتاب من سير الصالحين وأخبار العلماء هي التي حببت الكتاب إلى الناس في الأعصر الخالية ، فقد كانت هذه المواد هي أهم ما يعنيهم في مثيله ، وللعبدري في نقهـه لبعض من نقـهـات الفقهاء والمفاضـة عبارات تستثير الضحك لسذاجتها ، ومن ذلك قوله في ذم قاض يسمى العمراني لقيه « بحضور مراكش ، كلاًها الله ولا كلاً القاضي المذكور حيّاً وميتاً ، فإنه من جنحنيق ظلم ترمي به قواعد الدين ، ونفط فساد يضرم قلوب المـهـتدـين » وقد أضاع العبدري في أمثلـهـ ذلك الكلام ثلاثة أربـاعـ الكتاب .

المـتـ بـذـكـرـ العـبـدـرـيـ وـرـحـلـتـهـ بـسـبـبـ نـسـبـتـهـ الـبـلـنـسـيـةـ أـوـلـاـ ، وهـيـ مـوـضـعـ مـنـاقـشـةـ كـاـ رـأـيـتـ ، وـثـانـيـاـ — وـهـوـ الـمـهـمـ — لـكـ يـرـىـ الـقـارـىـ نـمـوذـجـاـ لـأـدـبـ الرـحـلـاتـ فـيـ الـغـرـبـ الـإـسـلـامـيـ يـخـتـلـفـ كـلـ الـاـخـتـلـافـ عـنـ طـرـازـ اـبـنـ جـبـيرـ ، وـيـخـتـلـفـ أـكـثـرـ عـنـ رـحـلـةـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ أـمـيـرـ رـحـلـةـ الـمـسـامـيـنـ باـطـلـاقـ ، فـإـنـ الـعـبـدـرـيـ — بـسـبـبـ هـذـاـ الـبـحـثـ الـمـضـنـىـ عـنـ الدـفـائـقـ الـفـقـهـيـةـ وـالـلـغـوـيـةـ وـالـأـدـيـةـ الـتـىـ كـانـتـ كـلـ هـمـهـ — قد جـعـلـ رـحـلـتـهـ وـكـأـنـهـ سـيـاحـةـ عـقـلـيـةـ عـاطـفـيـةـ لـاـ رـحـلـةـ سـفـرـ وـضـرـبـ فـيـ مـنـاكـبـ الـدـنـيـاـ وـأـكـشـافـ لـلـأـرـضـ وـأـهـلـهـ . وـالـعـبـدـرـيـ رـغـمـ هـذـاـ كـلـهـ مـشـكـورـ فـقـدـ رـأـيـ مـنـ الـأـرـضـ وـالـنـاسـ شـيـئـاـ تـكـلـمـ عـنـهـ — عـلـىـ طـرـيقـتـهـ — وـلـكـنـ رـحـلـةـ آـخـرـينـ بـعـدـهـ كـابـنـ رـُشـيدـ السـبـتـيـ سـيـغـفـلـونـ ذـكـرـ الـأـرـضـ وـالـنـاسـ تـكـامـاـ ، وـلـاـ يـتـحـدـثـونـ إـلـاـ عـمـنـ يـلـقـونـهـ مـنـ الـعـلـمـاءـ كـأـنـهـمـ مـطـالـعـونـ فـيـ مـكـتـبـةـ ، وـعـنـدـ هـؤـلـاءـ تـنـقـطـعـ الـصـلـةـ تـكـامـاـ بـيـنـ أـدـبـ الرـحـلـاتـ وـالـجـغرـافـيـةـ . وـنـورـدـ بـهـذـهـ الـمـنـاسـبـةـ مـلـاحـظـةـ تـفـسـرـ لـنـاـ سـبـبـ السـخـطـ الشـدـيدـ الـذـيـ عـبـرـ عـنـهـ الـكـثـيـرـونـ مـنـ أـهـلـ الـأـنـدـلـسـ وـالـمـغـرـبـ الـذـيـ رـحـلـواـ إـلـىـ الـمـشـرـقـ فـيـ تـلـكـ الـعـصـورـ ، فـإـنـ الـقـارـىـ لـتـرـاجـمـ مـهـاجـرـةـ الـأـنـدـلـسـ وـالـمـغـرـبـ إـلـىـ الـمـشـرـقـ أوـ رـحـالـتـهـ خـلـالـهـ وـالـمـطـالـعـ لـكـتـبـهـ يـشـعـرـ أـنـ مـعـظـمـهـمـ يـشـتـرـكـ مـعـ الـعـبـدـرـيـ فـيـ هـذـاـ الضـبـرـ بـالـمـشـرـقـ وـأـهـلـهـ ، وـالـكـثـيـرـونـ مـنـهـمـ يـشـارـكـونـ الـعـبـدـرـيـ فـيـ الشـكـوـيـ مـنـ مـصـرـ خـاصـةـ . لـقـدـ لـاحـظـنـاـ شـيـئـاـ مـنـ ذـلـكـ عـنـدـ اـبـنـ جـبـيرـ وـابـنـ سـعـيدـ ، وـنـلـاحـظـهـ أـيـضاـ عـنـدـ أـبـيـ الـحـجاجـ عـتـبةـ الـاشـبـيـلـيـ وـعـنـدـ أـثـيـرـ الـدـيـنـ أـبـيـ حـيـانـ وـأـحـمـدـ بـنـ مـحـمـدـ الـقـرـيـ ، وـتـفـسـيرـ هـذـهـ

الظاهرة أن أولئك المهاجرين والرحلة جمِيعاً كانوا يدخلون مصر وأماكنها واسعة في أن يجدوا فيها أكبر قدر من الاحترام والاكرام وتوسيع العيش ، لأنها كانت كعبة العلم وأهلة في ذلك الحين ، ولكن الواحد منهم كان إذا وصل إلى القاهرة وجد نفسه في بحر مضطرب من العلماء من المصريين والوافدين عليهم من كل حدب وصوب ، وكما قصد باباً من أبواب الدولة وجد عنده العشرات من أمثاله يتزاحمون للدخول ، فإذا قصد رجلاً من السروات من عرفاوا بأكرام أهل العلم وجده مثقلًا بالوافدين ، فإذا اتجه إلى الجامع الأزهر وغيره من المدارس وجدتها تجج بالعلماء والطلاب ، فيسقط في يده ويشعر بخيبة الآمال ، وقد يجد بعد ذلك أنه أن ما عنده من زاد العلم قليل بالنسبة إلى الفيض الذي يحيط في القاهرة فتتجهم نفسه ويتعزى بالحملة على البلد وأهله وخاصة إذا كان من دخلوا ميدان المنافسة للوظائف كما حدث لابن خلدون . ولننصرف إلى ذلك أن أهل مصر — لكثرة الوافدين عليهم في تلك العصور من الشرق والغرب — أمحى من نفوسهم الشعور بالغرير ، فكل من حلوا في وطنهم من المسلمين فهم مواطنون مثلهم ، ومن ثم فلا معنى للاحتفال باستقبالهم والاجتياح في أكرامهم ، يعكس ما كان أهل تونس مثلًا يفعلون مع العلماء الوافدين ، كانوا يعاملونهم بسبب قلتهم على أنهم ضيوف غرباء ويظلون يعتبرونهم غرباء ، ومن هنا فالقليلون من أولئك الوافدين هم الذين أقاموا بتونس في راحة زمناً طويلاً ، إنما كانت الاقامة والاستقرار والتوطن في مصر وبلادها في الغالب ، فهنا في المكان الأول كان وطن العربي أو المسلم الغريب ومنته . وقد أحصينا في الدرر الكامنة لابن ججر فوق المائة مهاجر أندلسي إلى الشرق في القرن الثامن الهجري ، وتسعون في المائة منهم أقاموا بمصر واستقروا بها . ومن أطرف ما نلاحظه أن المصريين في تلك العصور لم يكونوا يأخذون ما يقوله عنهم بعض الساخطين من أولئك الغرباء على أنه قدح مقصود أو إهانة صادرة عن سوء نية ، وإنما على أنها نفثات أخ متأنم جدير بالمواساة ثم

النسیان . وسنكتقى هنا بمصدق واحد يغنى عن كثير ، وهو خبر يرويه على ابن سعيد عن صاحبه أبي الفضل التیفاشی — وكلاهما جاؤ إلى مصر وعاش فيها — قال : قدم علينا بالقاهرة الطبيب الجراح أبو الحجاج (يوسف) بن عقبة (الاشبيلي) فلم يجد من يُقبل عليه إلا كهف المغاربة الرئيس السيد جمال الدين بن يغمور . فَصَّيَرَه مشاركاً مع أطباء المارستان ، وكان يأنس به في بعض الأوقات مؤاسة الآخوان ، فسأله مرة عن أخبار بلاده ، فقال فارقت الأندلس مضطربة بدولة ابن هود ، ومع ذلك فأني أشتتى الرجوع إليها لما أعاين هنا من أشغال النصارى في الدولة واليهود ، ثم قال :

أصبحت في مصر مستضاماً  
أرقص في دولة القرود  
وا ضيّعـة العمر في أخير  
مع النصارى أو اليهود

إلى آخر الأبيات . ومثل هذه العبارة كانت جديرة بأن تغضب جمال الدين بن يغمور ، فهو مصرى صميم من أهل الصعيد ، ثم هو من كبار رجال الدولة التي يصفها هذا الأندلسي بأنها دولة القرود ، وكان جديراً بأن يغضب على ابن عقبة ، ولكنه لم يغضب ، ولم يحمل لهذا الأخ الأندلسي ضغناً ، بل أخذ كلامه على المأخذ الذى ذكرناه . وبقية الخبر أوقع في النفس من حكايتنا له : قال التیفاشی : أشد هذه الأبيات جمال الدين لاحتماله وحبه في طرائف الأدب كيما جاءت ، فقال أتدرى ما أراد الخبيث في البيت الأول ؟ قلت المشل السائر : يرقص للفرد في دولته ، فقال : قد أشار إلى شكل الغز وتشميرهم ، قال ، فعجبت من فهمه وحملة <sup>(١)</sup> .

(١) على بن سعيد ، اختصار القدر المعلى (بتتحقق الأستاذ ابراهيم الأبياري ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٦٣ - ١٦٤ ) ، والمراد بالغز هنا المايليك ، وكان ابن يغمور من رجالهم . وما يؤيد ما ذكرناه قوله ابن سعيد في الكلام عن أندلسى آخر من وفد على مصر : « لقيته بالقاهرة ، وكأنه لا خبر عنده عن الآخرة ، شيخ قد طال عمره فيأكل الأعراض ، ووُجِد في تلك البلاد التغافل فانهض في صفتة النمية أى اتهام .. » اختصار القدر المعلى ، ص ٢١٢

محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري وتطور فن المعاجم الجغرافية في الغرب الإسلامي

وإذا كانت «الرحلة المغربية» لأبي عبد الله محمد العبدري تصور لنا مشكلة نفسية كان الكثيرون من علماء القرن السادس وما بعده من أهل الأندلس يعانون منها بسبب ما نزل بيلادهم واضطرارهم إلى الهجرة وتبدل أوطان بأوطان ، فإن الجغرافي الذي سنتناوله بالحديث بعده يصور لنا مشكلة من المشاكل العويصة التي لا تزال تتعارض من يؤرخ للعلم والعلماء في تلك العصور ، وهي مشكلة حقيقة المؤلف وعصره ، وقد رأينا لتلك المشكلة وجهًا في حديتها عن أبي بكر الزهري والآن نرى لها وجهًا آخر لا يقل غرابة وطراوة عن الوجه الأول .

ذلك أن الكتاب الذي تتعرض له الآن وهو «الروض المعطار في خبر الأقطار» يبدو للناظر لأول وهلة وكأنه كتابان ملؤانين يحملان نفس الاسم مع خلاف طفيف . وأصل اللبس يرجع إلى حاجي خليفة ، فقد أورد ذكر كتابين : واحد هو «الروض المعطار في أخبار الأقطار» لأبي عبد الله محمد بن محمد الحميري المتوفى سنة ١٤٩٤ / ٩٠٠ و الثاني يسمى روض المعطار في خبر الأقطار للشيخ العمدة أبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري ، ولم يذكر سنة وفاة هذا الأخير . وزاد الأمر تعقيداً أن القلقشندي أخذ عن هذا الكتاب وذكره في صبح الأعشى الذي فرغ من تأليفه سنة ١٤١٢ / ٨١٤ ، ثم إن كتاب «جني الأزهار من الروض المعطار» كان يُظن أنه اختصار لكتابنا هذا صنعه تقى الدين المقريزى ، حتى أثبت جاستون فييت وجيفونى أومان أنه اختصار لنزهة المشتاق صنعه رجل يسمى شهاب الدين أحمد المقريزى لا تقى الدين عميد مدرسة المؤرخين المصريين في القرن التاسع المجرى (انظر ص ٢٢٩ من بحثنا هذا) .

وقد جهد في حل هذا المعضل ثلاثة من المستشرقين هم جودفروا ديمومبين وجاستون فييت وليفي بروفنسال ناشر المواد الأندلسية من «الروض» ، وقد أسعفه الحظ فوجد ترجمة للمؤلف (محمد بن عبد المنعم الصنهاجي) في الورقة ١٣٢ من مخطوط الاحاطة المحفوظ بمكتبة الاسكوريال تحت رقم ١٦٧٣ ، ويقرر ابن الخطيب في هذه المادة أنه نقلها من كتاب آخر له — لم نعثر عليه الآن — هو «عائد الصلة» . وما دام ابن الخطيب قد توفي سنة ٧٧٦ / ١٣٧٤ فلا بد أن محمدًا بن عبد المنعم الحميري هذا مات قبله . وقد كان ديمومبين قد ذهب إلى أن سنة ٩٠٠ هـ. التي وردت في أحدى مادتي «كشف الظنون» عن الروض ومؤلفه لا بد أن تكون تصحيحاً لسنة ٧٠٠ / ١٣٠١ فأخذ ليفي بروفنسال بهذا الرأي وأيداه بقوله إنه لم يوجد في الاستطرادات التاريخية التي يتضمنها النص ذكرًا لأى حادث بعد سنة ٧٠٠ هذه . أما ما ورد في آخر بعض مخطوطات الروض من أن مؤلفه ابن عبد المنعم الحميري فرغ من جمعه سنة ٨٦٦ / ١٤٦٢ فقد فسرها بروفنسال بأن هذا الأخير لا بد أن يكون أحد أحفاد المؤلف قام بإعادة كتابة الكتاب مضيفاً إليه أشياء طفيفة ثم وضع عليه اسمه ، وهو تفسير معقول مقبول<sup>(١)</sup> .

(١) انظر عن محمد بن عبد المنعم الحميري وكتابه الروض المطار ، حاجي خليفة ، كشف الظنون ، طبعة استانبول (١٣١٠ هـ.) ، ١ / ٥٨٠ — ٤١ / ٢ — بروكلان ، تاريخ الأدب العربي ، نفح الطيب للمقرئ (أوروبا) ٦٨٠ / ٢  
ابن الخطيب ، الاحاطة ، مخطوط الاسكوريال رقم ١٦٧٣ ورقة ١٣٢

Gaudefroy - Demombynes, *La Syrie à l'époque des Mamlouks d'après les auteurs arabes*, (Paris, 1923), f. XI-XII.

وقد نشر ليفي بروفنسال المواد الأندلسية من الروض في ليدن سنة ١٩٣٦ بعنوان صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المطار في خبر الأقطار ، وهو معجم جغرافي تاريخي لأبن عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري . جمعه سنة ٨٦٦ هـ. وقد أحسن بطبع النص العربي في القاهرة . وطبع الترجمة الفرنسية مع المقدمة والتعليقات في ليدن ونشر المجموع تحت عنوان :

*La Péninsule Ibérique au Moyen - Age d'après le Kitāb al-Rawd al-Miṭār fi ḥabar = al-Akṭār, d'Ibn 'Abd al-Mun'im al-Himyari* (Leiden, 1938).

وورد فيها يلي مادة ابن الخطيب فهى — رغم قلتها — جل — بل كل —  
ما لدينا عن المؤلف :

« محمد بن عبد المنعم الصهابي الحميري يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن عبد المنعم من أهل سبته ، الأستاذ الحافظ . حاله : من العائد : كان رحمة الله رجل صدق ، طيب اللهجة ، سليم الصدر ، تام الرجولة ، صالحًا ، عابداً ، كثير القرب والأوراد في آخر حاله ، صادق اللسان ؛ قرأ كثيراً وسنه تنيف على سبع وعشرين ، فشأى أهل الدرس والسابقة ، وكان من صدور الحفاظ ، لم يستظهر أحد في زمانه من اللغة ما استظهره ، فكان يستظهر كتاب التاج للجوهرى وغيره ، آية تتلى ومثلاً يضرب ، قاماً على كتاب سيبويه يسرده بلفظه ، اختبره الفاسيون في ذلك غير ما مرة ، طبقه في الشرطنج يلعبها محظياً ، مشاركاً في الأصول ، آخذاً في العلوم العقلية مع الملازم للسنة ، يعرب أبداً كلامه ويزنه . مشيخته : أخذ بيده عن الأستاذ أبي إسحق الغافق ولازم أبا القاسم بن الشاط وانتفع به وبغيره من العاداء . دخله غرناطة : قدم غرناطة مع الوفد من أهل بيده عند ما صار إلى إبالة الملوك من بنى نصر لما وصلوا بالبيعة . وفاته : كان من الوفد الذين استأصلهم الموتى من صرفهم عن باب السلطان ملك المغرب بأحواز تيزى حسبما وقع التنبية على بعضهم » .  
ونلاحظ أولاً أن هذه المادة لا تنسب لحمد بن عبد المنعم الحميري هذا كتاباً في الجغرافية ، وإنما تقول انه من أهل سبته وانه كان عضواً في الوفد السبتي الذي وفد على غرناطة ببيعة أهل بلدتهم ، وانه توفي في الموتان (أى

— ومقيدة هذه الترجمة الفرنسية تتضمن كل ما أوردناه عن تاريخ مشكلة الكتاب ومؤلفه مع دراسة وافية لكتاب ومادته ، أما التعليقات الضافية التي وضعها على الترجمة فقد أصبحت من يوم نشر الكتاب مرجعاً أساسياً لجغرافية الأندلس وتاريخه ، ويعتبر ذلك العمل من أجمل ما خلف لنا ذلك المستشرق الفرنسي الجليل .

وأنظر كراتشكونسكي ، تاريخ الأدب المغرافي العربي تعریب الأستاذ صلاح الدين عثیاث هاشم

الوباء ) الذى استأصل رجال ذلك الوفد عند ما انصرفو عن باب السلطان ملك المغرب بأحواز تيزى ( أو تازا ) .

فأما إهال ابن الخطيب ذكر اشتغال محمد بن المنعم الحميري بالجغرافية فلا ينفي هذه الحقيقة ، فإن الناس — كما رأينا — كانوا لا يرون كتب الجغرافية وعلوم الأوائل والفلسفة مما يستحق الذكر بين أعمال العلماء ، لأن الاشتغال بذلك كان — في رأى الكثيرين — مضيعة للوقت فيما لا ينفع ، وسرى أن هذا كان رأى الحميري نفسه ! بل ربما كان اشتغال الرجل بهذه العلوم مدعاة للشك في صحة عقيدته ، وقد رأينا بعض من أرخوا للعذرى والبكرى أهملوا ذكر مؤلفاتهم الجغرافيات كأن ذلك كان لوناً من صون السمعة ، بل إن ابن أبي أصيبيعة أهمل ذكر كتاب نزهة المشتاق عند ما تكلم عن الإدريسي ، وكثيرون من ترجموا لابن رشد أهملوا ذكر اشتغاله بالفلسفة إكراماً لذكراه ، بل إن محمد بن عبد المنعم الحميري نفسه اعتذر في آخر فاتحته للروض المطار عن اشتغاله بالجغرافية ، وقال كلاماً يصح أن يروى مثلاً لنظرة الناس إلى الاشتغال بذلك العلم في تلك العصور ، قال : « .. ومع هذا فقد لُمْتُ نفسي على التشاغل بهذا الوضع الصاد<sup>(١)</sup> عن الاشتغال بما لا يغنى عن أمر الآخرة والمهم من العلم المزاج عن الله تعالى ، وقلت : هذا من شأن البطالين وشغل مَنْ لا يهمه وقته ؛ ثم رأيت ذلك من قبيل ما فيه ترويج لهذه النفوس ، ومن حسن تعليتها باللباح حتى تنشط إلى ما هي به أعني ، ثم هو مهيع يسلكه الناس واعتنى به طائفة من العلماء وقيده جماعة من أهل التحصيل ، فلا حرج في الاقناء بهم بل أقول : أَعُوذ بالله مِنْ عِلْمٍ لَا ينْفَعُ ! وأَسْتَغْفِرُهُ وَأَسْتَغْفِرُهُ ، وَأَسْأَلُهُ التَّجاوزَ عَنِ الْهَفْوَاتِ ، وَالصَّفْحَ عَنِ الْاشْتِغَالِ بِمَا لَا يَفْيِدُ فِي الْآخِرَةِ ، فَيَارِبِّ عَفْوًا عَنِ اقْتِرَافِ مَا لَا رَضِيَ لِكَ فِيهِ ، فَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ! » .

(١) كذا في الأصل كما نشره ليلى بروفيسال ، وربما كانت صحيحة : الصادر .

وهذا أغرب ما قاله أحد من جغرافيينا في شأن اشتغاله بذلك العلم ، حقيقة كان بعض الأوائل من اشتغلوا به يجهدون في فوائح كتبهم في تبرير اشتغالهم به بمبررات هي أقرب للاعتذار ، ولكن مؤلفنا هذا ذهب إلى ما لم يذهب إليه أحد من اعتبار الاشتغال بالجغرافية « من شأن البطالين ومن لا يهمه وقته » ثم يمضي يعتذر عن تأليفه الكتاب ويرجو الله سبحانه أنه الصفح عنه كأنه اقترف جريمة . ويغلب على ظني أن هذه العبارة أضافها ابن عبد المنعم الحميري الثاني ، أى الذي كان من حَفَدَةَ الْأُولَى ، لأننا إذا طالعنا مواد الكتاب وجدنا رجلاً يجمع ويصنف ويكتب في شغف وراحة نفس واستمتاع بما يكتب يدل على إحساس بفائدةِه ، ثم إن جانباً كبيراً من مادة الكتاب تاريخ ، ولم يكن التاريخ قط من العلوم التي يعتبر الناس الاشتغال بها مضيعة للوقت ، ومثل هذا الرجل لا يعتذر عما يكتب قط ، وإنما يصدر هذا عن حفيده جاء بعد قرنين انحدر خلاهها مستوى العلم والمعرفة ، وأجال قلمه في عمل جده مضيقاً شويئات هنا وهناك ومن بينها تلك الخاتمة التي تتناقض في الروح والمعنى مع بقية الفاتحة .

وأما أن الرجل من أهل سبتة فلا يقطع صلة نسبته إلى الأندلس ، فقد كانت سبتة في بعض سنوات المؤلف جزءاً من الأندلس ، وكانت أجزاءً كثيرة من الأندلس تابعة لسلطان المغرب من آل مرин في ذلك العصر الذي أسندت بقية الأندلس خلاه ظهرها إلى المغرب لتظل في قيد الوجود ، وفي عصر مؤلفنا هذا دخلت سبتة في طاعة بنى نصر فيما بين سنتي ٧٠٥ و ١٣٠٦ / ١٣٠٩ وكان هو من بين أعضاء وفد سبتة الذين جاءوا ببيعة بلدتهم إلى غرناطة . وقد كانت وفاته بعد ذلك بسنوات في وباء نزل بالقطر المغربي ، وقد استبعد لييف بروفنسال أن يكون هذا الوباء هو الموت الأسود الذي اجتاح حوض البحر الأبيض بين سنتي ٧٤٨ و ٧٥٠ / ١٣٤٧ و ١٣٤٩ والذي وصف المقرizi

وأبو الحاسن أفاعيله في شرق المملكة الإسلامية ، وفصل ابن الخطيب وابن خاتمة ما أترزه بالغرب الأقصى والأندلس .

ثم إننا إذا تقيينا نظرة عامة على مواد الكتاب رأينا أن حظ الأندلس منها أوف من حظ أي قطر آخر بما في ذلك المغرب ، وقد أورد ليق بروفنسال أحصاء بمواد حرف الألف وتوزيعها على الأقطار ما بين شرق وغرب ، فكان حظ الأندلس ٣٤ مادة والمغرب ٣٢ وجزيرة العرب والعراق ٣٣ وببلاد آسيا الوسطى ٣١ والشام ١٧ ومصر ٩ وكل من السودان (الغربي) وشرق آسيا وغربي أوروبا ٥ وصقلية ٣ ، ولا يعلل هذا إلا بأن معلومات الرجل عن الأندلس كانت أوسع من معلوماته عن غيره ، واستطراداته التاريخية بالذات تنم عن أن كاتبها أندلسي يعرف دقائق بلده الذي يتتحدث عنه ، ولا نجد مثل هذا في مواده الغربية ، بل إن مادته عن سبتة ليست بالغنى الذي ينتظر من رجل سبتي .

#### كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار

فإذا فرغنا من هذه الملاحظات عن المؤلف والتقتنا إلى كتابه وجدنا أنفسنا أمام معجم جغرافي مرتب على الحروف كأحسن ما تكون معاجم الجغرافية ، ولا يقلل من سلامته هذا الحكم إن معظم الكلام فيه نقل عن الإدريسي والبكري وكتاب الاستبصار في عجائب الأمصار (الذى ألفه مغربي لا نعرف اسمه سنة ١١٩١ / ٥٨٧) وراجع أخرى سنذكرها فيما بعد ، بل لا يضيره أن الرجل نقد الإدريسي في فاتحة كتابه نقداً عنيفاً ، ثم اغترف من كتابه بكلتنا يديه دون اشارة إلى الأصل المنقول عنه في معظم الأحيان ، فلم يكن هذا بعييب كبير في التأليف في تلك العصور ، والمهم أن الرجل قدم لنا بهذا الجمجمة مادة جغرافية صحيحة دسمة عن الموضع التي اختارها لمعجمه ، وعرف كيف ينسق هذه المادة ويسوقها على نحو متراطط متكامل بحيث تبدو بعض مواده وكأنها دراسات

قصيرة عن هذا العلم الجغرافي أو ذاك . وما يزيد معجمه قيمة أنه لم يقتصر على المدن أو الأقطار بل شمل بعض المحيطات والبحار والجزر وما إليها من الأعلام الجغرافية ، وأورد في هذه المواد معلومات جغرافية تدل على فهم وتصور عالمين صحيحين ، ومن أمثلة ذلك كلامه عن أقيانوس ، ولمراد به البحر العظيم الذي كان يظن إنه محيط باليابس كله — ومن هنا جاءت ترجمته العربية بالمحيط — وأقيانوس هو الرسم العربي لاسميه اللاتيني Oceānus ولم يكن الرومان يقسمون الماء محيطات كال ATLANTIS والمادي والمندى ، وإنما كان عندهم بحراً واحداً هو أقيانوس هذا ، وأخذ بعض علماء العرب هذا المفهوم منهم . ومادة ابن عبد المنعم الحميري تعرض هذا التصور عرضاً واضحاً .

قال : « هو اسم لبحر الظلمات ، ويقال له البحر الأخضر ، والمحيط الذي لا يدرك له غاية ، ولا يحيط بمقداره ، ولا فيه حيوان ، وهو الذي يخرج منه البحر الرومي الذي هو بحر الشام ومصر والمغرب والأندلس ، فإنه خليج يخرج من هذا البحر . وقد خاطر بنفسه خشخاش من الأندلس ، وكان من فتية قرطبة ، في جماعة من أحذثها ، فركبوا سراكب استعدوها ، ودخلوا هذا البحر ، وغابوا فيه مدة ، ثم أتوا بفنائم واسعة وأخبار مشهورة . إنما يركب من هذا البحر مما يلي المغرب والشمال ، وذلك من أقصى بلاد السودان إلى بريطانيا ، وهي الجزيرة العظمى التي في أقصى الشمال . وفيه ست جزائر تقابل بلاد السودان تسمى الخالدات ، ثم لا يعرف أحد ما بعد ذلك . وسنأتي إن شاء الله تعالى بحكاية أخرى عن دخل هذا البحر أطول من هذه في موضعها في ذكر الأشبوئه » .

ومن العسير علينا أن نتصور اليوم ذلك البحر المحيط أو الأقيانوس الذي كان يدور بالأرض وتنشعب منه بحارها ، ولكن كتاب الجغرافية لأبي بكر الزهرى يقرب لنا هذا المفهوم بعض الشيء ، فهو يقسم الماء المحيط باليابس من الأرض إلى طوقين : الطول الأزرق « وهو الدائر بجميع أجزاء الأرض ، وهو

صفة البحر المعروف بـ«بحر الظلمة» ، والطوق الأخضر ، «وهو صفة البحر الخيط بالأرض وأجزائها» وعلى هذا يكون اليابس محاط بـ«بحر كبير دائر حوله هو المعروف بالطوق الأزرق» ، وهذا الطوق المحيط بـ«البابس» جزء من الأرض نفسها وهو الذي تتفرع منه البحار التي تتخلل اليابس كالبحر الأبيض وـ«بحر الهند» وـ«بحر الصين» ، فقد كانت هذه البحار عندهم أشبه بـ«خلجان» تتفرع عن بـ«بحر الظلمة» أو بـ«بحر الظلام» وهو الطوق الأزرق هذا . ويحيط بهذا الطوق الأزرق بـ«بحر أوسع وأشمل» هو المعروف بالطوق الأخضر ، وهذا الطوق الأخضر هو البحر الكبير الذي يحيط بـ«كرة الأرض» من الجهة الأخرى كما يحيط الماء في طبق باسفل كـ«كرة» وُضعت فيه ، وهذا مجرد تشبيه ، لأن ذلك الغلاف المائي المحيط بالجهة الأخرى من الأرض شبيه بـ«غلاف الثلوج» الذي يغطي القطب الجنوبي مثلاً . والتقطيع إلى نطاق أزرق ونطاق آخر إنما هو تقسيم بالنسبة للقرب من شواطئ اليابس والبعد عنها ، فالمياه القريبة من اليابس زرقاء والبعيدة عنه خضراء . واقيائين هذا ، أو الطوق — أو البحر — الأخضر كان المجهول الأكبر في نظر المغرافيين جميعاً خالل العصور القديمة والوسطى ما بين مسلمين وغير مسلمين ، ويصور لنا الإدريسي موقف الحيرة والرهبة الذي وقفه العقل البشري من هذا المجهول الأكبر إلى أيامه ، قال في كلامه عن الأندلس :

« وسميت جزيرة الأندلس بجزيرة لأنها شكل مثلث وتضيق من ناحية شرق الأندلس حتى تكون بين البحر الشامي والبحر المظلم المحيط بالأندلس خمسة أيام ، ورأسها العريض نحو من سبعة عشر يوماً ، وهذا الرأس هو في أقصى المغرب في نهاية انتهاء العمر من الأرض محصور في البحر المظلم ، ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم ، ولا وقف منه بشر على خبر صحيح لصعوبة عبوره وإظامه ، وتعاظم موجه وكثرة أهواهه وتسلط دوابه وهيجان رياحه »<sup>(١)</sup> .

(١) الإدريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب «نرها المشتاق في اختراق الأفاق » بتحقيق رابهارت دوزي ودى خوبه ، ليدن ١٨٦٤ ، ص ١٦٥

أما التصور الشعبي ، وهو قائم على حكايات الملائكة والشفار ، فلا يعطي عن هذا المحيط هذه الصورة الرهيبة ، بل يرسمها في صورة شاعرية نسجها الخيال الساذج على أساس بعيد من تجارب حقيقة ، وهذه الصورة نجدها بالذات عند محمد بن عبد المنعم الحميري في كلامه عن قادس وصنمها الذي كان موضعًا لأساطير وحكايات وتخيلات كثيرة عند أهل الأندلس ، وقد رأينا بعضها فيما نقلناه عن أبي بكر الزهرى ، ونورد فيها يلى فقرة الروض المعطار ، وهي من الفقرات القليلة التي لا نعرف الأصل الذي نقلت عنه ، قال : « ويزعم أهل جزيرة قادس أنهم إن يزالوا يسمون أن الراكب في هذا البحر إن ألح فيه وغاب عنه صنم قادس ، بدا له صنم ثانٍ مثله ، فإذا وصلوا إليه وجاؤوه حتى يغيب عليه<sup>(١)</sup> ، بدا له صنم ثالث ، فإذا تجاوزوا سبعة أصنام صاروا في بلاد الهند . وهذا مستفيض عندهم ، معروف جاري على أسلتهم ، ولما ينزل يأخذنه آخرهم عن أولهم<sup>(٢)</sup> » .

وقد درس ليفي بروفسال في مقدمته المستفيضة لما نشر من الروض المعطار موضوع المراجع التي استقى المؤلف منها المادة الجغرافية في كتابه ، وهي على الترتيب : نزهة المشتاق للادرسي والمسالك والممالك للبكري ونظم المرجان للعذري وكتاب الاستبصار في عجائب الأنصار لمؤلف مغربي من أهل القرن السادس المجري لا نعرف اسمه إلى الآن . وأما المادة التاريخية فيرجع معظمها إلى كتابين أولهما مجهول المؤلف وهو « مجموع المفترق » والثاني « كتاب المغرب في أخبار المغرب » لأبي الثقي طاهر بن عبد الرحمن ، والكتابان في عداد مفقودات المكتبة العربية إلى الآن . ومن الواضح أن كلام بروفسال منصب على الأجزاء الأندلسية من الكتاب ، وهي الوحيدة التي درسها دراسة وافية ، لأن الحقيقة

(١) يلاحظ هنا اضطراب السياق من ناحية النحو والصياغة ، وسبب ذلك — فيما يبدو — أن المؤلف يثبت رواية شعبية كما سمعها .

(٢) الروض المعطار ، ص ١٤٨

أن لكتاب الروض المعطار مراجع أخرى كثيرة فيها يتصل بمواهده غير الأندلسية ، وخاصة فيما يتصل ببلاد الشرق العربية والإسلامية ، وكذلك مادته المغربية تعتمد على مراجع أخرى غير البكري والاستبصار ، فقد اطلع الحميري دون شك على مؤلفات أصحاب «أطلس الإسلام» — وهم أبو زيد أحمد بن سهل البلخي وأبو إسحاق ابراهيم الاصطخري وأبو القاسم محمد بن حوقل ومحمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسى — فإن كتابه حافل بالاقتباسات منهم وإن لم يصرح بذلك .

وعدم التصريح بذلك المرجع هذا آفة من آفات هذا الكتاب ، حقاً أن ذلك عيب شائع في الكثير جداً من الكتب التي كتبت في هذه العصور ، ولكن ابن عبد المنعم الحميري يضيف إلى إغفال ذكر الأصول عيب النقد العنيف لأصحابها ، ومن ذلك مثلاً قوله في المقدمة مشيراً إلى نزهة المشتاق الادرسيي بعد أن نقل عنه أكثر من ثلث مادته الجغرافية عن الأندلس على الأقل : «نعم إنني قسمته (أي كتاب الروض المعطار) بالكتاب الأُجاري<sup>(١)</sup> المعروف بنزهة المشتاق فوجده أعظم فائدة وأكثر أخباراً وأوسع في فنون التوارييخ وصنوف الأحداث مجالاً حتى في وصف البلاد ، فإنه إنما ذكر نبذةً منها وشيئاً قليلاً في مواضع مخصوصة معدودة ، بل إنما عظم حجمه بما اشتمل عليه من قوله : «من فلانة إلى فلانة خمسون ميلاً أو عشرون فرسخاً ، ومن فلانة إلى فلانة كذا وكذا» ، أما الخبر عن الأصقاع مما يحسن إيراده ، ويلاز سماعه ، من خبر طريف ، أو وصفٍ يستغرب أو يستملح ، فإنما يوجد فيه في مواضع قليلة معدودة<sup>(٢)</sup> ، إلى ذلك من عُسْرٍ وجдан الناظر فيه بمطلوبه بأول وهلة بل بعد البحث والتفتيش<sup>(٢)</sup> .

(١) في الأصل المطبوع : الأخبارى ، ولا معنى له هنا ، وإنما هو الأخبارى أو الرجاري نسبة إلى أجرار وهي لغة في رجاري ، والمراد روجر الثاني ملك النورمان الذي تحدثنا عنه فيما سبق .

(٢) الروض المعطار ، مقدمة المؤلف ، ص . ح

وهذا كلام يستكثُر من رجل اغترف من الإدريسي حتى ثقل كتابه بما أخذ ، ثم إن الروض المعطار أيضاً مليء بقوله « من فلانة إلى فلانة خمسون ميلاً أو عشرون فرسخاً » وانظر على سبيل المثال كلامه عن مواضع مثل بيارة وبَيَّارَه وطربوشة وطركونه وما إليها .

أما أن كتاب الإدريسي لا يستكثُر من التاريخ والأخبار فترجمه كما رأينا إلى أنه كان يرى نفسه جغرافياً لا مؤرخاً ، وربما كان أول من فصل بين التاريخ والجغرافية بوضوح ، وهذه حقيقة لم يتبنّها محمد بن عبد المنعم الحميري لأنّه كان يرى أن التاريخ جزء لا يتجزأ من الجغرافية — أو هي جزء منه بتعبير أدق — وهذا يقول في المقدمة : « ورتبتة على حروف المعجم ، لما في ذلك من الأهماس<sup>(١)</sup> المرغوب فيه ، ولما فيه من سرعة هجوم الطالب على اسم الموضع الخاص من غير تكاف عناء ولا تجشم تعب ، فقد صار هذا الكتاب محتويا على فنين مختلفين : أحدهما ذكر الأقطار والجهات ، وما استعملت عليه من النعوت والصفات ، وثانيها الأخبار والواقع المختلفة بها ، الصادرة عن مجتباه<sup>(٢)</sup> ». .

وإذن فمحمد بن عبد المنعم الحميري يرى أن وصف البلاد لا يكتمل إلا إذا أضيف إلى « ذكر الأقطار والجهات » سرد « الأخبار والواقع المختلفة بها » أما الاقتصر على الوصف الجغرافي وحده والاجتهاد في تعرف المسافات وقياس الأبعاد فعيّب يأخذ هو على الإدريسي . وهكذا نعود إلى الوراء مرة أخرى ونُبِّهُم مفهوم الجغرافية كعلم قائم بذاته مستقل عن التاريخ والأدب .

غير أن ترتيب الأماكن على حروف المعجم يعتبر في ذاته الميزة الأولى لكتاب الروض المعطار ، ومن الحق أن تقر أنّه محمد بن عبد المنعم الحميري

(١) كلمة « الأهماس » هنا لا معنى لها . ولا بد من الرجوع إلى المخطوط لتصوّبها .

(٢) مقدمة الروض المعطار ، ص . ح .

قد خطأ في الغرب الإسلامي خطوة واحدة بفن المعاجم الجغرافية بعد البداية الطيبة التي قام بها أبو عبيد البكري في «معجم ما استعجم» ، فإن هذا رغم اجتهاده في احصاء الأماكن وترتيبها ابجدياً نادرًا ما يستوفى الكلام عن مكان في موضعه ، بل يحيط على مواد أخرى له ، فأنت تبحث فيه عن موضع يسمى المَرْقَعَة ، فيقول لك أنه موضع قد تقدم ذكره في رسم أَبْلَى ، وتبحث تحت أَبْلَى فيقول لك » موضع تنسب إليه رجلة أَبْلَى ، وهو مذكور في حرف الراء ، وتبحث في حرف الراء تحت «رجلة أَبْلَى» ، فلا تجد إلا ما يلى : قال أبو حنيفة : هي أرض مشهورة ، ثم يستشهد ببيت شعر للراوي ورد ذكرها فيه وبصيغة : «والرِّجْلَةُ مَسِيلُ يَنْبِتِ الْبَقْلَ» ، وهكذا تخرج بعد البحث أربع مرات دون نتيجة ، وحتى في الحالات التي تخرج فيها بنتيجة لابد أن يحيطلك مرة أو مرتين إلى مواد أخرى ، فإذا طلبت «رُحْبَه» أحوالك على رسم ضَرِّيَّة ، وبالفعل تجد ما تريده تحت هذه المادة ، وأنت تبحث عن فيفاء الحمير فيحيطلك على «فَيْفَ» حيث تجد بعض ما تريده ، ولكنك لا بد أن ترجع إلى مادة «الحشا» ل تستكمل ما تطلب . أما مواد «الروض المعطار» فستتوافأ دون إحالة أو حاجة إلى الرجوع إلى مواد أخرى ، وهذا المذهب الصحيح في عمل المعاجم يشبه ما نجده عند ياقوت . فهل نستطيع أن نفترض أن صاحب الروض المعطار رأى معجم ياقوت وأفاد منه ؟

الحق أن هذا سؤال تعسر الإجابة عليه ، ولا يمكننا نقى هذا الاحتمال مستندين إلى أن الحمير لم يشر إلى ياقوت مرة واحدة ، لأنه — أى الحمير — طالما أخذ عن الناس دون أن يشير ، ثم إن اطلاعه على ذلك المعجم الكبير غير مستبعد أصلًا ، فقد أتته ياقوت سنة ١٢٢٤/٦٢٤ وذاع صيته بعد ذلك مباشرة ، وقد عاش محمد بن عبد المنعم الحميري في النصف الثاني من ذلك القرن السابع الهجري ، بل زار الحجاز وأدى الفريضة وأطلال المقام في الأرض المقدسة وختم معجمه في جدة كا تدل على ذلك عبارة الختام ، ومن المستبعد

جداً أن يكون شيخ طالب علم كمؤلف الروض موجوداً في الحجاز مشغلاً بمعجمه ويغيب عنه ذكر معجم ياقوت وكان إذ ذاك ملء أسماء الناس ، وهناك قرينة واحدة تؤيد ذلك الفرض هي أن ابن عبد المنعم المميري يخلط الأدب بالجغرافية مثل ياقوت ، ويندر أن يذكر موضعًا نجم فيه أديب دون أن يذكر هذا ويروى له شعراً ما أمكن ، بل في بعض الأحيان تقتصر المادة على ذكر شاعر نشأ في الموضع وذكر بعض شعره .

فإذا تركنا هذا البحث وراء المراجع ونظرنا في المواد نفسها وجدنا أنفسنا أمام ثروة جغرافية عظيمة القيمة ، عرف المؤلف كيف يجمعها ويسوقها في نسق مترابط ، بل أعاد صياغة بعض الفقرات التي أخذها عن غيره لكن تنسجم مع الجموع ، وخير ما يعطينا فكرة عن طريقة تأليف هذا الكتاب ومنهج تصنيفه أن نحمل المادة الأولى من مواد القسم الخاص بالأندلس التي نشرها ليفي بروفيسال في كتاب «صفة جزيرة الأندلس» ، ونردها إلى أصولها ما تيسر ذلك ، ولن نستطيع إيرادها هنا على تواليهما ، فهي تحتل قرابة العشر صفحات من ذلك الكتاب ذي القطع الكبير ، والكتاب مطبوع متداول بأيدي الناس . تتكون مادة «أندلس» هذه كما يلي :

تبدأ المادة بمجموعة من الفقرات التمهيدية (١٠ - ١) التي تساق عادة كمدخل للكلام على الأندلس في كتب الجغرافية الأندلسية ، وهذه الفقرات مقتبسة من الرازي وصاعد بن أحمد الأندلسي والبكري وعبد الملك بن حبيب وأبي القاسم خلف بن بشكوال وابن حيان وآخرين أقل من هؤلاء أهمية . وهي خليط من الجغرافية الطبيعية والفلكلورية والباحث الفيولوجية في أصل اسم الأندلس والتاريخ المحقق والأسطوري والأحاديث النبوية التي أوردها عبد الملك بن حبيب وأبو القاسم بن بشكوال في فضل الأندلس . وهذه الفقرات تجمع هذه الأشتات من المعلومات العامة عن الأندلس وموقعه من الأقاليم ومكانه من الأرض والميئنة

المثلثة لشبه الجزيرة وما يحيط بها من البحار ، وجُو الأندرس وهوائه وبعض ميزاته الطبية وفضل أهله في الجهاد ومسافة ما يملكه المسلمين منه والاجناس التي سكنته قبل العرب . كل ذلك مسوق في نسق واحد لا يخلو من بلاغة ونحن نجد في هذه الفقرات كل العبارات المحفوظة عن الأندرس ، والتي أصبحت كقضايا مسلم بها أو « كليشيهات » ترود دون تغيير كلما جاء ذكر الأندرس مثل : « واسم الأندرس في اليونانية إسبانيا ... » (البكري) ، و « الأندرس آخر العمور في المغرب لأنها متصلة ببحر أوقيانوس ... » (الرازي) ، « وقيل اسمها في القديم إيبارية ... » (البكري) ، « وسميت جزيرة الأندرس بجزيرة لأنها شكل مثلث ... » (الرازي والإدريسي) ، « ويحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث » (الإدريسي) ، « والأندلس أقاليم عدة ورساتيق جملة ... » (الرازي) ، « والأندلس شامية في طيبتها وهوائتها ... » (البكري) ، « والأندلس دار جهاد وموطن رباط ... » (عبد الملك بن حبيب وابن بشكوال) ، « أول من سكن الأندرس بعد الصوفان — على ما يذكره علماء عجمها — قوم يعرفون بالأندلس (بشن معجمة) بهم سُنّي البلد ثم عُرب ... » (الرازي) ، إلى آخر هذه العبارات التي كانوا يعتبرونها جماعاً ما يمكن قوله كمدخل للكلام عن الأندرس ، وهي عبارات ذات قيمة جغرافية وتاريخية واحقة ، ولكن الذي يستوقف النظر أنها ظلت تكرر وتعاد قرناً بعد قرن من الرابع الهجري إلى آخر العصور الوسطى ، فلم يدخل على هذه الطريقة تغيراً إلا الإدريسي كأيضا ذلك بتفصيل ، وإن كنا ينبغي أن نقرر أن التغيير الذي أدخله الإدريسي ممس طريقة الوصف أكثر مما مس مادته نفسها ، فقد اختبر أطوال المسافات والحقائق الصغيرة عن المدن ، ولكنه لم يختبر الحقائق الكبرى الخاصة بشبه جزيرة إيبريا مثلا ، ومن هنا فقل ظل يقول أنها مثلث ذو ثلاثة أركان . وبعد هذه الفقرات يسترسل محمد بن عبد النعم الحميري مع التاريخ ويصل إلى فتح العرب للأندلس فيذكره بتفصيل كبير .

وهذه الطريقة التي اتبعها في تأليف المدخل هي التي سار عليها في الكلام على كل موضع بعد ذلك : يقرأ كل ما تيسر له من الأصول الجغرافية والتاريخية ويوجزها أو يختار منها ما يرى أنه أساسي ، ثم ينظم ما يوجز وما ينقل في نسق واحد . وهنا يتفاوت حظه من التوفيق وعدمه ، ففي أحيان كثيرة يكتفى ببعض كلمات لا تقييد كثيراً مثل قوله : «أَبَدَةٌ» (Ubéda) : مدينة بالأندلس ، بينما وبين بيسة سبعة أميال ، وهي مدينة صغيرة على مقربة من النهر الكبير ، ولها مزارع وغلال قمح وشعير كثيرة جداً<sup>(١)</sup> أو «أَبْطِير» : حصن بالأندلس بمقربة من بطليوس من بناء محمد بن أبي عامر من جليل الصخر ، دخله عينٌ ماءٌ خراة ، وهو اليوم خال<sup>(٢)</sup> « وهذه إشارات لا تقدم ولا تؤخر ، ويتبين لنا عجزه عن الاختيار أو التلميح عند ما نجد ياقوت يقول عن أبدة مثلاً (يكتبها بالدال) : « اسم مدينة بالأندلس من كورة جيّان تعرف بابدة العرب ، اختطها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، وأنها ابنه محمد بن عبد الرحمن<sup>(٣)</sup> ». وأمثال هذه التعريفات المزيلة كثيرة في الروض المعطار .

وفي بعض الأحيان يوفق توفيقاً طيباً في الاختيار والاختصار فمن أمثلة اختياره الجيد قوله عن بلدة أَبَلْ ناقلاً عن الإدريسي<sup>(٤)</sup> :

(١) الروض المعطار ، ص ١١

(٢) نفس المرجع والصفحة ، ولم يستطع ليفي بروفنسال تحقيق هذا الموقف ، وهذا لا يستغرب لأنَّه لم يكن إلا حصناً بناء المنصور محمد بن عاصي بعض أعراضه السياسية والعسكرية ، ثم خلا وهجر بعد ذلك كما يتضح من النص .

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ١ / ٧٣

(٤) صفة الأندلس والمغرب ، من ٢١٣ — ٢١٤

وذهب ليفي بروفنسال (الترجمة الفرنسية للروض المعطار ، هامش ١) أنَّ أَبَلْ تقابل اليوم بلدة Ovejo أو إلى الشمال قليلاً من قرطبة . واعتمد في ذلك على ما ذكره اليهانى بولوفر في بحثه الذى أشرنا إليه مساراً عن جغرافية شبه الجزيرة عند جغرافيي العرب :

José Alemany Bolufer: *La Geografía de la Península Ibérica en los Escritores Árabes*, Granada, 1921. (Separata de la Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino), p. 64.

« حصن بالأندلس في شمال قرطبة وعلى مرحلة منها ، وهو الحصن الذي فيه معدن الرئيق .

وفيه يعمل الزنجفور ومنه يتجهز بالرئيق والزنجفور<sup>(١)</sup> إلى جميع أقطار الأرض ، ويخدم هذا المعدن أكثر من ألف رجل ، فقوم للنزول وقطع الحجر ، وقوم لقل الحطب لحرق المعدن ، وقوم لعمل أواني السبك والتتصفيه ، وقوم لبنيان الأفران والحرق ، ومن وجه الأرض إلى أسفله فيها حكى أكثر من مائة قامة » .

فهذه المادة تعتبر من أحسن ما أوردده الإدريسي في كلامه عن « الأندلس » فهى وصف فريد في بابه للمناجم ونظام العمل فيها في الأندلس ، وقد أكد الباحثون المعاصرون التفصيات التي أوردتها الإدريسي في سطوره القليلة هذه وقالوا إن هذا التنظيم للعمل في المناجم كان متبعاً في كل مناجم إسبانيا إلى حين قريب ، ويدرك الإدريسي أنه كان بنفسه في أبال ورأى العمل في ذلك « المعدن » ويراد به المنجم ، وقد عرف محمد بن عبد المنعم الحميري أهمية هذه السطور فأوردتها في كتابه .

ومن أمثلة تلخيصه الجيد كلامه عن أرشدونه Archidona (ص ١٢) وهي اليوم بلدة صغيرة في مديرية مالقة ، ولكنها كانت أيام العرب كورة صغيرة شرق كورة مورور Moron تصل إلى البحر عند مالقة . فقد عرف الحميري كيف يفرق بينها وبين شذونه Medina Sidoña وكانت أيضاً كورة صغيرة جنوب الوادي الكبير ثم ضمت إلى كورة اشبيلية ، وهي الآن بلد صغير في

(١) والزنجفور أو الزنجفور هو سلفيدات الرئيق الماء red mercuric sulfide وكان من أهم المواد التي استعملها الناس منذ الزمن القديم لصباغ الألوان ، ولهذا يسمى بالأحمر الطبيعي native vermillion ومنتجه في جبال المعدن Sierra Morena مشهورة في الدنيا كلها ، ومدينة المعدن Almaden في هذه الجبال لا زالت إلى الآن من أكبر مراكزه . (انظر دائرة المعارف البريطانية تحت لفظ Cinnabar ) وانظر عن هذه المناجم وأهميتها المراجع التي أوردتها بروفنسال في تعليق رقم ١ ص ١٥ من الترجمة الفرنسية .

مديرية قادس في منتصف المسافة بين الجزيرة الخضراء وشريش Jerez de la Frontera ، وقد خلط الكثيرون من المغاربيين القدامى بين البلدين . وأمثلة توفيقه في الاختصار والاختيار — أو عرض خلاصة قراءات شتى — كثيرة ويبدو هذا في صورة واضحة عند كلامه على أعلام جغرافية تتعلق ببحار أو أقاليم واسعة أو صغيرة أو جبال وما أشبه ، فمن أمثلة كلامه على البحار مادة أقيانس التي ذكرناها ، ومن أمثلة كلامه عن أقاليم صغيرة كلامه عن إقليم الشرف (رقم ٩٠ ص ١٠١ من النص العربي) وهو إقليم الزيتون الواقع شمال اشبيلية وشماليها الغربي متداً إلى البرتغال ، ولا زال يسمى إلى الآن باسم Ajarafe أو Aljarafe (انظر الترجمة الفرنسية للروض ، ص ١٢٤ تعليق ٤) ومن أمثلة كلامه على أقاليم كبيرة كلامه عن « إفرنجة » (رقم ٢١ ص ٢٦ — ٢٨) ، وقد ذهب لي匪 بروفنسال (ص ٣٢ من الترجمة الفرنسية) أن المراد بها فرنسا ، ولكننا نحسب أن المراد هنا بلاد غربي ووسط أوروبا (عدا إسبانيا والجزر البريطانية وبلاد الشمال وإيطاليا) حتى حدود بلاد الصقالبة الروس ، وإليك نص القسم المغربي من المادة لتتبين قيمته :

« إفرنجة : في وسط الإقليم الخامس ، هواها غليظ لشدة بردها ، وصيفها معقول ، وهي بلاد كثيرة الفاكهة ، غزيرة الأنهر المنبعثة من ذوب الثلج ، ومدائنها متقدمة الأسوار ، محكمة البناء ، وأآخر حدودها البحر الشامي بقبليها ، والبحر المتوسط بجوفيهما ، وتتصل ببلاد روما أيضاً من ناحية القبلة ، وتتصل أيضاً من ناحية الجوف ببلاد الصقالبة<sup>(١)</sup> ، بينهما شعراء مختلفون مسيرة الأيام الكثيرة ، وتتصل في الشرق بالصقالبة<sup>(١)</sup> أيضاً ، وتتصل في الغرب بالبشكُنْش<sup>(٢)</sup> ، وتمادي أعمال إفرنجة في الطول والعرض مسيرة شهرين في

(١) هذا التحديد يؤيد ما ذهبنا إليه من المراد ببلاد إفرنجة هنا .

(٢) المراد بهم البسكويت Los Vascos الإسبان والفرنسيون ، ويسمى الإسبان منهم أيضاً Vascones ومن هنا أتت هذه الصورة العربية لاسم .

شهرین ، ويحجز بين بلاد إفرينجة وبلاد الصقالبة من الجوف والشرق<sup>(١)</sup> الجبل<sup>(٢)</sup> المعترض بين البحرين<sup>(٣)</sup> ، فيتمادي بلاد الإفرينج مع ساحل البحر الشامي حتى يلزق بجزيرة رومة<sup>(٤)</sup> وبلاد لُنْقَبِرْذِيَّة<sup>(٥)</sup> ، ويتمادي مع الجبل المعترض في الجوف إلى البحر الحيط ، ويتصل بالصقالبة بلاد الجوس المعروفين بالأقلش<sup>(٦)</sup> ؟ وسيوف إفرينجة تفوق سيفون المند ، ومنها يرد الرقيق من بلاد الصقالبة ، ولا يكاد يرى ببلاد إفرينجة زَمْنٌ ولا ذو عاهة ، والزنى في غير ذوات الأزواج عند الإفرينج غير منكر ، وإذا حلف أميرهم أو كبيرهم حانثاً استهانوه ، ولم يزالوا يعيروننه بذلك . وأبناء الأشراف عندهم يسترضعون في الأبعد ، ولا يعرف الابن أبويه حتى يعقل ، وإذا عقل رد إليهم ، فираها كالسيدين ويكون لها كالعبد » .

وقد نبه ليق بروفنسال إلى أن جزءاً من هذه المادة منقول عن البكري ، ونصيف إلى ذلك أن البكري أخذ معلوماته عن تلك البلاد عن ابراهيم بن أحمد الطروشى . والغالب أن مُحَمَّداً بن عبد المنعم الحميري أطلع على رحلة الطروشى بنفسه ، وهذا ظاهر من سياق كلامه عن مدينة لورقة (انظر ص ١٧١) ، وسواء أخذ الحميري عن البكري أو الطروشى فالمادة نفيسة تدلنا على أن معلومات أهل الأندلس عن بقية أوروبا كانت صحيحة في مجموعها ،

(١) أي من الجنوب الشرقي والشرق .

(٢) ذهب بروفنسال إلى أن المراد بهذه الجبال جبال الألب ، ولكننا نظن أن المراد جبال الكربات .

(٣) أي شبه جزيرة إيطاليا .

(٤) سهل لمبردية نسبة إلى المباردين ، والصورة العريضة هي رسم لاسمهم في اللاتينية Lungubardi ويكتبونه في بعض الأحيان الانكبردة (بضم الكاف وفتح الباء) .

(٥) الأقلش هنا تعريف للاسم القديم لقبائل الأنجلز Angles الذي اشتقت منه اسم الأنجلز ، والمراد هنا ليس الأنجلز وحدهم بل شعوب الشمال أهل اسكتلنديا أيضاً ، وكانوا معروفة عند الأندلسيين بالجوس كما بيناه في بحثنا عن يحيى الفزالي ورحلته إلى بلاد الشمال .

وهذا أمر لا يستغرب من قوم كانوا أول من نقل إلى العربية كتاباً في وصف أوروبا . وقد رأينا كذلك أطرافاً مما كتبه إبراهيم بن أحمد الطروشى والبكرى ، ومن أسف أننا لم نعثر إلى الآت على الجزء الذى كتبه ابن سعيد عن الأرض الكبيرة .

هذه صورة عامة عن تكوين ذلك المعجم الجغرافى ومادته ، وكلامنا مبني في الأغلب على الماد الخاصة بالأندلس كما نشرها ليفي بروفسال ، ولم نستطع الاطلاع إلا على جزء من الأصول التى نشر عنها ، ولا شك أن الكتاب كله فى حاجة إلى نشر عندما يتيسر جمع المخطوطات المتفرقة التى كانت فى حوزة هذا العالمة الفرنسي وحقق الكتاب عليها .

وبهذه المناسبة لا بد أن نذكر أن الترجمة الفرنسية التى قام بها للمواد الأندلسية من الروض المعطار والتعليقات التى أضافها إليها زادت في قيمة الكتاب وأظهرت فضله ، وهذا مثال على العمل العلمي الجيد القائم على الأخلاص في خدمة النص وقارئه ، ومن أحسن ما عمله بروفسال بالإضافة إلى مقدمته للكتاب ذلك التحليل الدقيق لمادته (ص ٣٤ - ٢٨) في آخر الترجمة الفرنسية ، فقد عمل ثبتاً بكل مواضع الكتاب التي وردت فيها معلومات جغرافية أو تاريخية أو أدبية ، وسأورد فيما يلى ترجمة للأبواب الجغرافية من ذلك التحليل ، وقد أوردها هو مشيراً إلى صفحات الكتاب ، وسنكتفى نحن هنا بذكر عدد المواضع في كل حالة ، لأن غرضنا هو بيان قدر المادة العلمية للكتاب .

#### أولاً : مصادر الثروة الطبيعية

- ا — المعادن والتعدين : يرد الكلام عنها في ٢٣ موضعًا .
- ب — عيون المياه المعدنية في ١٠ موضع .
- ج — نبات الأندلس الطبيعي : يتحدث عن ٤ نباتات في ٨ موضع .

- د - زراعة الحبوب (القمح والشعير خاصة) في ٨ مواضع .  
 ه - الشجيرات (وخاصة شجر الفاكهة) ، يتحدث عن ٧ أنواع من الأشجار في ٢٦ موضعًا .  
 و - الكروم في ١٢ موضعًا .  
 ز - الزيتون في ١٢ موضعًا .  
 ح - شجر التوت وتربيه دود القر في ٥ مواضع .  
 ط - زراعات أخرى ذات قيمة إقتصادية مثل الصبغ السماوي والزعفران وما إليها في ٦ مواضع .  
 ي - الري : نظامه في ١١ موضعًا من الأندرس .  
 ك - تربية الماشية في ٥ مواضع .  
 ل - تربية النحل واستخراج عسله في ٣ مواضع .  
 م - مصائد السمك في ٥ مواضع .

#### ثانياً : النشاط الصناعي

- ا - التعدين في ٥ مواضع .  
 ب - مواد البناء والمحاجر في موضعين .  
 ج - الطواحين في ٩ مواضع .  
 د - دور الصناعة والصناعات البحرية (مثل استخراج الملح) في ٨ مواضع .  
 ه - محصولات تصدر إلى خارج الأندرس : ١٠ محصولات .

#### ثالثاً : معلومات عن المدن

- ا - تحقيقات لغوية عن أصول اسمائها في ٩ مواضع .  
 ب - أمثال خاصة بالمدن : ٣ أمثال .

- ج — موقع أثرية في ٢٣ موضعًا .
- د — أسوار قديمة ظلت قائمة في العصر الإسلامي إلى أيام المؤلف في ٢٦ موضعًا .
- ه — بوابات : ٧ بوابات .
- و — قلاع : ١٣ قلعة .
- ز — قناطر وجسور قوارب : ٦
- ح — مجاري مياه في ٧ مواضع .
- ط — مواضع استثناء بالمياه في ١٠ مواضع .
- ى — مساجد ومساجد جامعة : ٣٠ مسجدًا موصوفاً .
- ك — كنائس وأديرة ومواقع مسيحية ذات قداسة : ١٠
- ل — أسواق : ٢١ سوقاً .

#### رابعاً : معلومات عن الضرائب

- أ — إشارات إلى أنواع إدارية ضرائية في ١٣ موضعًا .
- ب — إشارات إلى ضرائب في ٧ مواضع .

وهذا الأحصاء يعطى القارئ فكرة عن قيمة الثروة الجغرافية والحضارية التي تضمها مواد هذا الجزء الخاص بالأندلس من الروض المطلار ، فإذا ذكرنا أن مواده الغربية تضم مثل هذا القدر من المعلومات ، وأن البلاد التي تيسرت له عنها مادة وافرة — مثل مصر — حظيت بمثل هذا القدر الوافر من التفاصيل تبيننا بالفعل أن محمد بن عبد المنعم الحميري أهدى المكتبة الجغرافية معجلاً يعتبر بحق خطوة واسعة إلى الأمام في تاريخ المعاجم الجغرافية العربية .

ولم نشر في الكلام إلى مادته التاريخية لأنها خارجة عن موضوع هذه الدراسة ، ولكنها ينبغي أن تدخل في الاعتبار عند التقدير العام لذلك المعجم ،

ومن حسن الحظ أن معظم المادة التاريخية التي ساقها في هذا الكتاب تتناول عصرى المرابطين والموحدين وتعتمد على كتب لم نجد لها أو لم يجد بعض أجزائها إلى الآن مثل تاريخ أبي مروان بن صاحب الصلاة وأبي التقى طاهر بن عبد الرحمن .

## الاشارات الجغرافية في كتابات ابن الخطيب

ونصل إلى لسان الدين بن الخطيب وهو آخر من سنتعرض لهم بالكلام في هذا التاريخ ، لأننا قطع بأنه آخر أندلسي نعرف له إسهاماً في الجغرافية والرحلات ذات القيمة الجغرافية ، بل لأننا ينبغي أن نقف بالكلام عند نقطة ما ، وليس لدينا بعد ذلك شيء أندلسي متحقق في الجغرافية إلا مختصر جيد لجغرافية الأندلس وتاريخه كتبه رجل نحسب أنه عاش بعد ابن الخطيب ، ولم نعثر على اسم المؤلف أو عصره ، فإن القسم التاريخي من الكتاب يقف عند نهاية هشام العتيد آخر خلفاء المروانية الأندلسية في حين أننا نقرأ بخط مخالف على ظهر غلاف الكتاب أنه يصل بالحوادث إلى نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وسنلم بذلكه بعد أن نفرغ من ابن الخطيب .

ثم إن ابن الخطيب نهاية معقولة لمثل هذا التاريخ ، فهو دون شك آخر السلسلة الذهبية من أعلام الفكر الأندلسي ، وعنه ينتهي علم التاريخ وفنون الأدب فيه ، ولا نعني بذلك أنه لم يظهر بعده في الأندلس مؤرخ أو ناشر أو شاعر ، بل معناه أنه آخر من انتهى إليه التجويد في هذه الفنون ، فقد قال الشعر الجيد في الأندلس بعد موت ابن الخطيب أبو عبد الله محمد بن يوسف الشريحي المعروف بابن زمرك (٧٣٤-٧٩٦/١٣٣٣-١٣٩٣) وكتب في التاريخ بعده كذلك أبو الحسن علي الثناوي المالقي (توفي ٧٩٤/١٣٩١) ولكن هذين — وأمثالهما كثيرون — يبدون وكأنهم أصداء متعددة بل متلاشية بعد حقوط

الصوت الجهير وانقطاعه ، وهم بالنسبة لابن الخطيب <sup>كَذِبَة</sup> سلاطين غرناطة بعد محمد بن يوسف الغني بالله إلى من قبله ، فإن عصر محمد الغني بالله هذا هو الفاصل بين فترة الاستقرار والأمل في البقاء قبله وخلال حكمه وفترة الفوضى والتراجع واليأس التي بدأت في عهد ابنه وخليفة أبي الحجاج يوسف (الثاني) ابن محمد الغني بالله (٧٩٣ - ١٣٩١ / ٧٩٧ - ١٣٩٤) واستمرت بعد ذلك قرناً من الزمان في اضمحلال وتناقص مستمرتين فيما خلا فترات قليلة قصيرة حتى انتهت بزوال مملكة غرناطة في ٢ ربيع الأول / ٨٩٧ - ١٤٩٢ يناير ٢

وكان ابن الخطيب معاصرًا لـ محمد الغني بالله هذا ، وكان من كتابه وزرائه كما كان من كتاب أبيه أبي الحجاج يوسف (الأول) بن أبي الوليد . وأخذ ابن الخطيب بتصييب وافر من الأحوال التي خاض غمارها سلطانه محمد الغني بالله . ومن سوء الحظ أن مملكة غرناطة ابتليت من مولدها إلى مماتها بتنمية الشقاق والنزاع بين حكامها وأصحاب الأمر فيها ، ولم يستطع ابن الخطيب أن ينجو بنفسه من معاطب هذه المنازعات ، لأنـه كان بطبعه طموحًا إلى السلطان والجاه حريرًا على المال والثراء ، وقد أشقاء هذا الطموح وذلك الحرص فدخل في منازعات خطيرة وتعرض لخطوب وألوان من المowan ما كان أغنـاه عنها .

ولن نقص هنا حياة لسان الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ابن محمد بن عبد الله السـلمـانـي ، فقد أتـينا بموجـزـها في كتاب تاريخ الفكر الأندلسـي (فقرة ٨١ ص ٢٥٢ - ٢٥٩) ، وروـاـها محمد عبد الله عنـانـ في مقدمة الجزء الأول من « الإـحـاطـة » الـذـى حقـقـه ونشرـه سـنة ١٩٥٥ (٣٠ - ٥٨) ، وفي كتابه « نـهاـيةـ الأـنـدـلـسـ وـتـارـيخـ الـعـربـ الـمـتـصـرـيـنـ » (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٤٥٣ - ٤٦١) ، وأـتـىـ كذلكـ بـ درـاسـةـ شاملـةـ مستـفيـضـةـ لـ مؤـلفـاتهـ فـ الأـدـبـ وـ التـارـيخـ وـ الـطـبـ وـ الـمـوسـيـقـ وـ ماـ إـلـىـ ذـلـكـ مـاـ شـمـلـتـهـ عـقـرـيـةـ ابنـ الخطـيـبـ وـ روـيـ حـيـاتـهـ بـ تـفـصـيلـ كـبـيرـ فـرـانـشـيـسـكـوـ بـونـسـ بوـيـجـسـ فـيـ كـتابـهـ الـخـافـلـ الـذـيـ يـسـتعـنـيـ عـنـهـ دـارـمـنـ فـيـ تـارـيخـ الـفـكـرـ الـأـنـدـلـسـيـ (رـقـمـ ٢٠٤ـ صـ ٣٣٤ـ - ٣٤٦ـ) ،

وقصّها أَحْمَدُ مُخْتَارُ الْعَبَادِي وَمُحَمَّدُ إِبْرَاهِيمُ الْكَنَانِي فِي مُقْدَمَةِ الْجُزْءِ الَّذِي نَشَرَهُ مِنْ «أَعْمَالِ الْأَعْلَامِ» (الْدَّارُ الْبَيْضَاءُ ١٩٦٤)، هَذَا بِالإِضَافَةِ إِلَى مَادَةٍ بِرُوكْلِانَ عَنْهُ<sup>(١)</sup>.

وَهَذَا كَلَهُ يَغْنِيُنَا عَنْ رِوَايَةِ تَارِيخِ حَيَاةِ وَسِرِّ مَوْلَافَاتِهِ وَهِيَ كَثِيرَةٌ جَدًّا، لِأَنَّ لِسَانَ الدِّينِ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ رَجُلًا وَاسِعَ النَّفَاقَةِ مُتَعَدِّدَ الْجَوانِبِ وَالْإِهْتَمَامَاتِ الْفَكْرِيَّةِ، فَكَانَ شَاعِرًا مُتَرَسِّلاً مُؤْرِخًا جَغْرَافِيًّا طَبِيبًا عَالِمًا بِالْمُوسِيقِيِّ، وَكَانَتْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِشَئُونِ الْإِدَارَةِ وَاطِّلَاعٌ عَلَى مَسَائِلِ السِّيَاسَةِ وَالْحُكْمِ، وَمِنْ حَسْنِ الْحَظَّ أَنَّهُ كَانَ مَوْلَعًا بِالْكِتَابَةِ، فَأَلَفَ فِي ذَلِكَ كَلَهُ وَأَفَاضَ، وَلَمْ يَتَرَكْ فِكْرَةً دَارَتْ فِي ذَهْنِهِ إِلَّا كَتَبَهَا أَوْ مَعْنَى جَالَ فِي خَاطِرِهِ إِلَّا أَثْبَتَهُ، وَلَوْ أَحْصَيْنَا صَفَحَاتَ مَا كَتَبَ مِنَ الْمَوْلَفَاتِ الْعُلَمَىَّةِ لِبَلْغَتْ أَلْوَافًا غَيْرِ رِسَالَةِ الْدِيوَانِيَّاتِ وَالْإِخْوَانِيَّاتِ وَقَدْ جَمَعَ مِنْهَا الْكَثِيرُ فِي مُجَدَّدَاتِهِ، وَأَوْرَدَ لَنَا الْمَقْرِئُ فِي «نَفْحَهُ» عَدْدًا كَبِيرًا مِنْهَا، ثُمَّ دِيَوَانَ شِعرِهِ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ كَانَ ضَحْنًا، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مَكْثُرًا مِنَ الشِّعْرِ يَقُولُهُ فِي كُلِّ مَنْاسِبَةٍ، وَإِنْ لَمْ يَصُلْ إِلَى مَرَاتِبِ الْفَجُولِ إِلَّا فِي أَيَّاتٍ قَلَّا إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ الشِّعْرِ الْكَثِيرِ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ — أَخْسَبُ — عَنْ قَصْورِ فِي الْمَلَكَةِ، بَلْ عَنْ جُودِ فِي الْعَاطِفَةِ، فَأَنْتَ مِنْهَا تَقْرَأُ لِابْنِ الْخَطَّابِ لَا تَخْسَ أَنْ قَلْبَهُ وَرَاءَ شَيْءٍ مَا يَكْتُبُ، وَكُلُّ مَا نَقْرَأُ لَهُ صَادِرٌ عَنْ مَهَارَةِ ذَهْنٍ وَصَنْعَةِ لِسَانٍ، وَهَذَا فِي وَقْتٍ لَمْ يَكُنْ يَنْفَعُ غَرَنَاطَةً فِيهِ غَيْرِ الْقَلْبِ وَالْإِحْسَاسِ.

وَكَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَخْتَصَ لِسَانُ الدِّينِ بْنَ الْخَطَّابِ بِالْجَغْرَافِيَّةِ بشَيْءٍ مِنَ الْكَثِيرِ الَّذِي كَتَبَ، فَهَذَا الْكَثِيرُ لَمْ يَغْاَدِرْ ضَرِبَّاً مِنْ ضَرُوبِ الْعِلْمِ الْعَرَبِيِّ إِلَّا تَنَاوَلَهُ، فَكَانَ مِنَ الْبَدِيَّهِيِّ أَنْ يَكْتُبُ فِي الْجَغْرَافِيَّةِ وَالرَّحَلَاتِ، فَإِنَّ الْأُولَى كَانَتْ أَخْتَ التَّارِيخِ فِي الْأَنْدَلُسِ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَقَدْ عَاشَ ابْنُ الْخَطَّابِ عُمْرَهُ

(١) تَارِيخُ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، ج٢/٣٣٧—٣٤٠ وَالْمَلْحُقُ/٢ ٣٧٢ وَكَذَلِكَ مَادَةُ دَائِرَةِ الْمَعَارِفِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِقَلْمِ فَرِدِينَانِ زَابِولَدِ، الطَّبِيعَةُ الْأُولَى ج٢/٤٢١

كله في رحلة وتنقل ، وكان كما ذكرنا مُغري بالكتابية لا يكاد يدور في ذهنه خاطر إلا أودعه الورق ، ومن ثم فله في وصف رحلاته أكثر من رسالة ونستطيع أن نحصي كتاباته في الجغرافية فيما يلي :

- ١ — المقدمة الجغرافية لكتاب الاحاطة في تاريخ غرناطة ، وهو معجم ترجم لأعلام الغرناتيين ومن حل بغرناطة من غيرهم .
  - ٢ — المقدمة الجغرافية لكتاب المحة البدرية في الدولة النصرية ، وهو تاريخ لسلطين بنى الأحمر إلى أيامه .
  - ٣ — رسالة خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف .
  - ٤ — رسالة معيار الاختيار في ذكر المعاهد والمديار .
  - ٥ — وصف رحلة قصيرة في المغرب ضمّنه كتابه المسمى *نفّاضة الجراب* في علةة الاغتراب .
  - ٦ — مقامة مفاخرات مقالقة وسلا .

فأما القطعتان الأولى والثانية فهما في وصف غرناطة ، والثانية منها مختصر للأولى مع إضافات مختلفة ، فهما في الحقيقة عمل واحد يدخل في صميم العلم الجغرافي كما نعرفه اليوم .

وأما القطعتان الثالثة والرابعة فهما وصف رحلتين في قالب أدبي مسجوع هو أقرب إلى طريقة المقامات ، فهما بذلك أدخل في ميدان الأدب منها في الجغرافية .

والقطعة الخامسة وصف رحلة في نثر مرسى قريب مما نعرفه عند الجيدين  
من أصحاب أدب الرحلات عندنا .

والسادسة مقامة ، تمس الجغرافية من بعيد ، فهى محاورة بين الأندلس والمغرب متمثلين في مدینتى مالقة وسلا ، وكل منها تجتهد في إظهار فضائلها ووجوه امتيازها على صاحبتهما .

وعلى هذا فكتاباته في الجغرافية والرحلات تقع في أربعة أنواع : الوصف الجغرافي الخالص والرحلة الأدبية المسجوعة والرحلة العادية ثم المقدمة الجغرافية .

١ — الوصف الجغرافي الخالص :  
المقدمة الجغرافية لكتاب الاحاطة

على عادة الأندلسيين في التقديم للتاريخ بالجغرافية حرص ابن الخطيب على أن يورد في مقدمة « الاحاطة » وصفاً مطولاً لمنطقة التي شملها سلطان مملكة غرناطة ، واحتضن العاصمة نفسها بوصف مطول . وهذه المقدمة الجغرافية تعتبر عنصراً فريداً في بابه لا في علم الجغرافية عند الأندلسيين فقط ، بل في تاريخ العلم الجغرافي في أوروبا كلها إلى أواخر العصور الوسطى ، فلمدة الأولى نجد بين أيدينا وصفاً جغرافياً مفصلاً لأقليم صغير وعاصمته ، وقد حرى ابن الخطيب في هذا على تقليد اتبعه بعض المشارقة ، فلدينا مثلاً وصف مكة للأزرق ووصف المدينة للسمهودي وخطط بغداد لأبي طاهر طيفور ، وقد جود الأندلسيون قبل ابن الخطيب في وصف المدن الكبيرة وأقاليمها ، فللرازي كما ذكرنا كتاب في وصف قرطبة وخططها ، ولأبي جعفر بن خاتمة معاصر ابن الخطيب كتاب في وصف المرية وفضائلها يسمى مزية المرية<sup>(١)</sup> ، بل سبق ابن الخطيب إلى صفة غرناطة والتاريخ لها أبو القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقي المعروف بالملحبي في مقدمة كتابه « تاريخ علماء البيرة » والبيرة كانت بلدة صغيرة على بعد أربعة كيلومترات شمالي غرناطة ، كانت قبل ذلك عاصمة الأقليم ،

(١) يلاحظ أن الأندلسيين أخذوا فن التأليف في وصف المدن والتاريخ لها عن المشارقة ، وهم أئمة هذا الفن دون شك ، وإلى مطالع العصر الحديث لا نجد في أوروبا كتاباً يشبه ما كتبه الأزرق والسمهودي وأبي طاهر طيفور في مكة والمدينة وبغداد ، بل لا يوجد في التراث العلمي العالمي في تلك المصور ما يشبه كتاب خطط المقريزى وهو من أعاظم المؤلفات في تاريخ العرب الفكرى .

ثم خل أمرها وانتقلت الأهمية إلى غرناطة<sup>(١)</sup> ، ويبدو أن اعتماد ابن الخطيب على كتاب الملاحي كان كبيراً ، فهو يشير إليه في مواضع كثيرة من الاحاطة . وبعطفينا ابن الخطيب في كلامه المفصل في الاحاطة وصفاً جغرافياً كاملاً لغرناطة والإقليم الداخل في مملكتها على أيامه ، ولا يشوب الطابع العلمي لهذا الوصف إلا حرص ابن الخطيب على إظهار بلاغته واهتمامه بعرض مخصوصه الوفير من اللغة ما بين ألفاظ وعبارات وتصنيفات ، ولكننا نحمد الله على أنه تخلى في كتابي الاحاطة والمحة البدريّة عما أولع به من السجع ، فارسل كلامه طلقاً لا يشوبه غير الإسهاب وكثرة المتراوفات .

(١) أورد ابن الخطيب في مقدمة الاحاطة (ج ١ / ٩٣ — ٨٩) ثبات المراجع التي اعتمد عليها والمؤلفات في تواريغ المدن وأوصافها التي سبقت كتابه . وهذا الثبات في غاية الأهمية لمن يريد التأليف في المدن وتاريخها عندنا . ويتبع من هذا الثبات اطلاع ابن الخطيب الواسع واحاطته النادرة بالمكتبة العربية في التاريخ والجغرافية .

والبيرة أو ليبرة أو إلبيري كانت العاصمة القديمة للكورة التي سميت فيها بعد غرناطة ، وكانت في أصلها بلدة من إنشاء الإيبيريين القدماء قبل الرومان ، واسمها في القديم Eliberi أو Eliberri ، والاسم مكون من مقطعين : ili = مدينة و berri = بمعنى قديمة ، ثم عمرها الرومان وجعلوها قاعدة فيها مجلس بلدي وسميت في نصوصهم Municipium Florentinum Iliberritanum . وعندما فتح العرب الأندرس سكنها الكثير من الجنود الشاميين وموالي بني أمية ، ثم اهتم بها عبد الرحمن الداخل وعمرها وابنها جامعاً وجعلها عاصمة كورة البيرة ، وقد ظلت لها هذه المكانة حتى قاتلت الفتنة الكبرى أوائل القرن الخامس المجري ووقعت الحرب بين العناصر الأندرسية والعناصر البربرية من قوات الحلفاء المنتشرة ، فحمل البربر على البيرة وخربوها ، وعمر امراؤهم غرناطة التي تقع على نحو ٤ كيلومترات جنوبها وابتعدوا فيها الحصون فأصبحت عاصمة الكورة وتخل أمر البيرة شيئاً فشيئاً حتى لم يعد لاسمها وجود الآن إلا في قرية آبار البيرة Pozos de Elvira ، وباب من أبواب غرناطة العربية يسمى باب إلبيرة .

انظر المادة الواقية التي كتبها عنها فرديناند زابولد في الطبعة الأولى من دائرة المعارف الإسلامية ج ٢ — ٢٦ — ٢٧ ، والروض المطار لابن عبد المنعم الحميري تحت إغاثة رقم ١٩ ص ٢٣ — ٢٤ وإلبيرة رقم ٢٥ ص ٢٩ — ٣٠ والترجمة الفرنسية والتعليقات بقلم ليفي بروفنسال ص ٢٩ — ٣١ — ٣٢ ص ٣٧ — ٣٩ من القسم الفرنسي .

وخير ما بين أيدينا الآن عن إلبيرة وإقامتها — إلى جانب ما يقدمه ابن الخطيب من معلومات — الفصل الذي أداره العذرى على إلبيرة (نصوص عن الأندرس بتحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، مدريد ١٩٦٥) ص ٨١ — ٩٤ .

ولم يستطع ابن الخطيب الفصل بين الجغرافية والتاريخ ، وهو معدور في هذا فقد كان ذلك هو التقليد الجارى — كما رأينا — حتى أن مادة العذرى عن كورة البيرة ( وهو الاسم القديم لكوره غرناطة ) معظمها تاريخ . وابن الخطيب يبدأ بتحقيق أصل الاسم ويشير إلى البيرة قائلا : « يقال غرناطة ويقال إغريناطة ، وكلها أعمى ، وهى مدينة كورة إلبيرة فى نهرها فرسخان وثلثا فرسخ . وإلبيرة من أعظم كور الأندلس ومؤسسة ما اشتمل عليه الفتح من البلاد ، وتسمى في تاريخ الأمم السالفة من الروم سنام<sup>(١)</sup> الأندلس ، وتدعى في القديم بقسطيلية<sup>(٢)</sup> . وكان لها من الشهرة والعمارة ، ولأهلها من الثروة والعدة ، وبها من الفقهاء والعلماء ما هو مشهور . . . . » ثم ينقل بعد ذلك فقرة عن عمارة إلبيرة ومسجدها الجامع . ويدرك كيف حمل أمرها خلال القرن الخامس المجرى أثناء الفتنة الكبرى وانتقلت الأهمية إلى غرناطة ، ويختتم هذه النقول بفقرة من كتاب تاريخ علماء البيرة لأبي القاسم محمد بن عبد الواحد العافى المعروف بالملahi — نسبة إلى الملاحة La Mala قرية لا تزال قائمة إلى

(١) كذا في مخطوط الاحاطة المحفوظ في أكاديمية التاريخ ( ورقة ١٨ ) وأثبتتها عنان على هذه الصورة ( الاحاطة ٩٩/١ ) ولم أجده ما يؤيد هذه التسمية فيها كتب عن غرناطة في القديم . وقد ورد هذا اللفظ في أحد مخطوطات « المحة البدريه » التي اعتمد عليها محب الدين الخطيب في نشرها ( القاهرة ١٣٤٧ ) : شام الأندلس ( ص ١٢ تعليق ١ ) وهي صورة لا يأس بها ، غير أنها لا تنسجم مع الكلام قبلها .

(٢) تناول دوزي هذا اللفظ بالتعليق في أحاجاه ١/٣٢١ — ٣٢٢ ودرس موضوعها بتفصيل فرانتيسكو خابير سيمونث في كتابه عن صفة مملكة غرناطة :

Francisco Javier Simonet, *Descripción del Reino de Granada, Sacada de los Autores Arábigos* (Granada, 1872).

ومعظم مادته مستقى من كتابات ابن الخطيب عن غرناطة . وخلاصة رأيه ( ص ٣١—٣٢ ) أن قصطيلىة — ومعناها القلعة Castilla - Castellón — كانت قلعة في حوز بلدة إلبيرة القديمة ، وكان حاكم البلد يقيم فيه ويعتصم به أثناء الحروب العنيفة بين العرب والبربر . ثم عاب اسم إلبيرة وهي الحاضرة على اسم تلك القلعة وقد اعتمد سيمونث في ذلك على شواهد من كلام الرحالة لويس دي مارمول الذي طاف بنواحي غرناطة بعد خروجهما من يد العرب بوقت قصير .

اليوم جنوب غربي غرناطة — ومن أسف أن هذا الكتاب قد ضاع فهو الموج الذى احتذاه ابن الخطيب فى كتابة «الاحاطة» ولو عثروا عليه لعرفنا إلى أى حد اعتمد ابن الخطيب على سابقه هذا فى تأليف كتابه .

وتلى ذلك فقرة طويلة تعتبر من أحسن ما لدينا من أوصاف البلدان ، وقد احتفل ابن الخطيب فى جمع مادتها من شتى المراجع التى كانت فى متناول يده ، ولكن المرجع الأكابر كان دون شك عالمه وخبراته ، فقد نشأ ودرس فى غرناطة وتقلب فى شتى وظائف الدولة حتى وصل إلى الوزارة ، وملك زمام الإدارة فترات متطاولة ، وكان بطبعه ذا اهتمام بالمال والعقارات والضياع والأرض والزروع والحاصلات وما أشبه ، فتجمعت لديه معلومات وافرة عن تلك الموضوعات الداخلة فى صميم الجغرافية وعرف كيف يصوغها فى قالب محكم ، ومن أسف أنه لم يعطينا كل ما عنده فى هذا الباب ، لأنه ساق المادة الجغرافية كقدمة لما يليها من حديث التاريخ والأدب والترجم .

ورغم هذا الإيجاز فإن هذه المقدمة الجغرافية غنية بالمادة والمعلومات الدقيقة النافعة ، وهى تتضمن كل النقط التى كانت تدخل إذ ذاك تحت مفهوم الجغرافية ، ولن نستطيع إيراد هذا الوصف لأنه يقع فى نحو خمسين صفحة من النص المطبوع ، ولهذا فسنكتفى بإيراد النقط الرئيسية التى يحتويها :

- ١ — تحقيق عن أصل اسم غرناطة والبيرة ( وقد ذكرناه ) .
- ٢ — مكان الأندلس من الأقاليم : يقع في الأقليم الخامس ويقول صاعد بن أحمد أن معظمها في الخامس وجزء منه في الرابع . تحديد الأقليم الخامس بصورة عامة ( نقلًا عن ابن سعيد في الغالب ) .

٣ — طالع غرناطة نتيجة للأقليم الذي تقع فيه .  
 ٤ — موقع غرناطة من خطوط الطول والعرض . يلاحظ أنه يقول هنا أن غرناطة متساوية في الطول بأمر يسير لقربها وميورقة والمرية . وهذا الكلام لا يفهم إلا إذا ذكرنا ما قلناه آنفًا من أنهم كانوا يتصورون أن شبه الجزيرة

مثلث وأن ساحله الشرقي يسير في خط مستقيم من الشرق إلى الغرب وهذا يستتبع تصوراً أن قرطبة وغرناطة والمرية تقع على خط رأس واحد تقريباً ، ولما كانوا يتصورون أن الجزائر الشرقية (البليار) في مواجهة المرية فقد قالوا إن ميورقة أيضاً تقع على نفس الخط ، إلى جنوب المرية طبعاً .

وهو يقول أيضاً أنها متساوية في العرض لتشبيهية والمريه وشاطبة وطرطوشة وسردانة . وهذا الطول أيضاً ناتج من ذلك الخطأ في التصور .

٥ — تحديد المسافات بين غرناطة وقرطبة (٩٠ ميلاً) والبحر (٤ بُرُدٍ)  
 فاما الميل فكيلومتران وأما البريد فأربعة وعشرون ، وتقدير هذه المسافات يتوقف  
 على الطريق الذى كان يتبع ، وبين قرطبة وغرناطة اليوم على الطريق الرئيسى  
 ١٦١ ك. م. وبينها وبين أقرب نقطة إلها على البحر عند مطريل ٧٠ ك. م.

٦ - موقع غرناطة بين الجبال (يريد جبل الثلوج أو شلير أو سيرا نيفادا) والبراجلات ، جمع برجيلة أو برجاله وهو لفظ لاتيني معرب parcella ويراد به قطعة الأرض ، ولا يزال يستعمل إلى الآن في هذا المعنى في اللغة الإسبانية parcela ، وقد كان العرب عند ما نزلوا إقليم البيرة (أى غرناطة) قسموا بعض الأراضي قطعاً فنسبت إلى القبائل أو البطون فقالوا برجيلة قيس وبرجيلة أبي جرير ، واللفظ وارد عند ابن حيان في كلامه عن ثورة العرب وإبيرة أيام الأمير عبد الله ، وقد كتب عنه سيمونت في معجمه (٢٦٩-٢٧٠) دوني ، في ملحة القمams (٦٥/١).

ويحدد ابن الخطيب موقع غرناطة من الكتابية ويراد بها سهل قرطبة وكان يعرف أيام العرب بالكتابية أو القنبلة ، مغرب عن Campinia ويراد به السهل الفسيح ، ثم يذكر نتائج هذا الموقع الفريد لغرناطة بين السهل والجبل وقرب البحر ، وهى نتائج اقتصادية تتلخص في وفرة المياه والزراعات في إقليمها ، فهى دائمًا الفواكه و « بحر من بحور الخنطة » وهو لا ينسى هنا ذكر ما يمتاز به إقليمها من النباتات ال十里اقية أي ذات الخواص الطبية

ويختتم ذلك بقوله : « فجسم أهلها لصحة الهواء صلبة وسخنهم خشن وهم هضومهم قوية وفوسفهم لسكان الحر الغريزى جرّيبة . »

٧ — معادن إقليم غرناطة كما ترد في فقرة للرازي وأخرى لمؤلف لم يذكر اسمه وأهمها الذهب والفضة والرصاص والحديد والتوباك والمرقشيتا<sup>(١)</sup> واللازورد . وفي هذه الفقرة يرد ذكر كثير من النباتات الطبية وغيرها التي اشتهر بها إقليم غرناطة .

٨ — وبعد فقرتين طويتين عن فتح العرب لغرناطة واستقرار طوائف من العرب في إقليمها ووضع النصارى المعاهدين بها وما أصابه من تغيير نتيجة لحوادث معروفة رواها ابن الخطيب وغيره بالتفصيل .

٩ — يورد بياناً بما يحيط بغرناطة من الجنات والمدارج والغابات ومجاري الماء ، والجنات جمع جنة ويراد بها المزرعة ، ويقابل في الإسبانية اليوم huerta ، وقد تسمى الجنة أيضاً بالفالدان ، والمدارج جمع مدرج والمراد به سفح الجبل المزروع ، وقد ذكر ابن الخطيب عدداً كبيراً من هذه بأسمائها ، والمفروض أن هذه كلها كانت داخلة في زمام البلدة نفسها .

١٠ — المرتفعات الخصبة تسهل غرناطة من ناحية الشرق وهي التي تستمر حتى تتصل بارتفاعات البسارات ، وهو يصفها وصفاً دقيقاً ذاكراً تحصيناها بالأبراج والخنادق والحاصنون وما تضمه من المزارع والرياض والأشجار . ويتجدد كذلك عن المرتفعات أو التلال الواقعة شمال غرناطة وجنوبها مثل البياسين وجبل الفخار وجنة العريف وما يتصل بها من الككدي ( جمع كدية وهي التل من الحجر الرملي ) ، والككدي في الغالب أقل ارتفاعاً من العروق ) وكانت الككدي في إقليم غرناطة خضراء مسكونة تقوم عليها المزارع والغابات ، وقد وصفها ابن

(١) المرقشيتة أو المرقشطة حجر ذو خواص طيبة يغلب على الظن أنه البزموت ، وذكر ابن سينا أنه يوجد على أنواع مختلفة . راجع عنه جامع المفردات في آخر كتاب « ضوابط دار السكك » لعلى ابن يوسف الحكيم بتحقيقنا ، مدريد ١٩٦٠

الخطيب وصفاً مفصلاً وبينَ ما فيها من المزارع والمساكن والبساتين والمنازه وما تضمّه من ثمار وأشجار وزهور ورياحين .

١١ - ما يقع خارج أسوار البلد من قرى وضياع ، والضياعة هنا تسمى الدار وكانت بعضها أسماء معروفة فيقال : الدار المنسوبة إلى هذيل والدار البيضاء والدار المنسوبة إلى السُّنَيَّات ويقابل مصطلح الدار في الإسبانية اليوم casería ، وشبّيه بالدار البider ويراد به الدار الريفية تحيط بها ضياعة صغيرة ، وهي تقابل ما يعرف اليوم باسم cortijo . وهنا يذكر ابن الخطيب أسماء نحو ١٤ قرية من قرى إقليم غرناطة مع تفاصيل عن بعضها ، ويختتم هذا الكلام بعبارة إحصائية عما يرتفع إلى خزانة الدولة من ضرائب هذه الأراضي والقرى وانتاجها من القمح وما إلى ذلك .

١٢ - وينحصر ابن الخطيب الفقرة الأخيرة من هذه الدراسة الجغرافية لغرناطة للكلام على السكان ، وهو شديد الاعجاب بهم يثنى عليهم ثناءً قل أن قرأتنا مثله لرجل في أهل بلده ، وهذه سمة كريمة من سمات خلق ابن الخطيب ، ونحن إذا أسفنا لانطلاقه مع المدح انطلاقاً حال دوف الوصف الدقيق للغرناطيين بما لهم وما عليهم ، فإنه لا يفوتنا أن نقدر هذه العاطفة القومية في ذلك الرجل الكبير ، ويستوقف نظرنا قوله : « وصورهم حسنة ، وأنوفهم معقدلة ، وألوانهم زُهْرٌ مشربة بحمرة ، وأسنانهم فصيححة عربية يتخللها غَرْبٌ كثير ، وتغلب عليهم الإمالة ، وأخلاقهم ابَيَّة في معانى المنازعات ، وأنسابهم عربية ، وفيهم من البربر والمهاجرة كثير ، ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشي بينهم الملف المصبوع شتاء ، وتنتفاضل البزة بتناقض الحدة والمقدار ، والكتنان والحرير والقطن والمرعن والأردية الافريقية والمقاطع التونسية واللائز المشفوعة صيفاً ، فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتوحة في الباطح الكريمة تحت الأهوية المعقدلة » فهذه صورة كأنها لوحة بريشة مصور ، وهي في هذا الكتاب تحمل محل الصور والرسوم التي لا تخلو منها

كتب الجغرافية ، وهذا في ذاته عنصر هام من عناصر التأليف في الجغرافية ، وقد أورد مثل هذه الصور الكثير من مؤلفينا ، ولكن هذه الصورة الدقيقة التي جلاها ابن الخطيب فريدة في بابها ، فنحن نرى من خلالها أهل غرناطة تلك بملائتهم وهيآتهم وملابسهم وأشكالها وألوانها كأنهم أحياً يسعون أمامنا .

وفي هذه الفقرة يتحدث ابن الخطيب عن أشكال أزياء الملابس وعن طعام أهل غرناطة ثم عن النقود المستعملة فيها ، ويُجمل بالكلام على بعض عاداتهم وتقاليدهم ثم يتحدث عن نسائهم ، وهو شديد الإعجاب بهن ، لا يكاد يأخذ على أوصافهن إلا ميلهن إلى القصر ، ثم يختتم هذه المقدمة الجغرافية بعبارة تُنمِّي عما كان يحس به من الخوف الدائم على بلده غرناطة ورجائه أن يكلاها الله تعالى وبعنایته ويجنبها شر ما يحوم حولها من الأخطار : « وقد بلغن — أى نساء غرناطة — من التفنن في الزينة لهذا العهد والمظاهر بين المصبغات والتنقيش بالذهبيات والديباجيات ، والمتاجن في أشكال الحلى إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر ويكشف الخطب ، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة ، وأن يعامل جميعَ من بها بسُرْه ، ولا يسلبهم خفيَّ لطفه ، بعزته وقدرته » .

هذه ادنى دراسة جغرافية نستطيع أن نقول إنها كاملة ، فإنه لا ينقصها شيءٌ أساسيٌ مما تتضمنه الأوصاف الجغرافية الحديثة للبلدان فيما عدا العناصر التي تعتمد على العلم الحديث وأدواته مثل الاحصائيات والرسوم البيانية والبيانات الجوية ومقاييس الحرارة والضغط الجوي والأمطار وما إلى ذلك . ومع هذا كله فإن القارئ لا يكاد يحس بنقص هذه العناصر ، لأن ابن الخطيب عرف كيف يعيش ذلك بأسلوبه السليم الحكم ، ولا أبالغ إذا قلت أن أحداً من الجغرافيين لم يجمع بين البلاغة العالية وإحكام الكلام ودقة التعبير كما تيسّر لابن الخطيب في هذه المقدمة ، وهو يحدد بها مستوى من المستويات الرفيعة التي بلغها العلم الجغرافي في تاريخ الفكر العربي .

## المقدمة المغرافية لكتاب المحة البدري

المحة البدري من أصغر كتب ابن الخطيب ، ولكنها من أكثرهافائدة وأغزرها مادة ، فهو تاريخ مختصر لبني نصر أوجز فيه تاريخ هذه الأسرة إلى أيامه ، وقد قدم له بمقدمة جغرافية شبيهة بمقدمة « الاحاطة » وربما يتراوح إلى الظن أول الأمر أنها مختصر لها ، ولكن الحقيقة أن هذا لا ينطبق إلا على فقراتها الأولى ، ثم تفرد بعد ذلك بمعلومات لا تقل في القيمة عما وجدها في مقدمة الاحاطة .

ومن حسن الحظ أن ابن الخطيب صاغ هذا الكتاب كلـه في نثر مرسـل لا تـشـوـبـهـ عـقـباتـ السـجـعـ وـالـتـكـلـفـ ، وـأـرـسـلـهـ فـيـ أـسـلـوبـ فـخـ مـتـينـ هوـ دونـ شـكـ مـنـ أـجـلـ نـمـاذـجـ النـثـرـ العـرـبـيـ الـعـلـمـيـ الرـصـينـ ، وـمـثـالـ ذـلـكـ قولـهـ :

« وأما ما حازه السهل من جوفية<sup>(١)</sup> فـنـىـ عـظـيمـةـ الخـطـرـ ، مـتـنـاهـيـ الـقـيمـ ، تـضـيـيقـ جـدـيـةـ<sup>(٢)</sup> مـنـ عـدـاـ أـهـلـ الـمـلـكـ عـنـ الـوـفـاءـ بـأـهـانـهـ . مـنـهـ ماـ يـغـلـ فـيـ السـنـةـ شـطـرـ الـأـلـفـ مـنـ الـدـهـبـ<sup>(٣)</sup> عـلـىـ خـوـلـ أـمـانـ الـخـضـرـ بـهـذـهـ الـمـدـيـنـةـ ، يـخـتـصـ مـنـهـ بـمـسـتـخـلـصـ<sup>(٤)</sup> السـلـطـانـ مـاـ يـنـاهـنـ ثـلـاثـيـنـ مـئـيـةـ<sup>(٥)</sup> . وـيـحـيطـ بـهـاـ وـيـتـصلـ بـأـذـيـاهـاـ مـنـ الـعـقـارـ الـثـيـنـ الـذـىـ لـاـ يـعـرـفـ الـجـامـ<sup>(٦)</sup> وـلـاـ يـفـارـقـ الـرـيـعـ مـاـ يـنـهـيـ الـمـرـجـ<sup>(٧)</sup> »

(١) المراد هنا سهل غرناطة ، وجوفيـهـ معـناـهاـ غـربـهـ .

(٢) الجدة هنا الثروة أو القدرة المالية .

(٣) أـىـ ٥ـ٠ـ٠ـ دـيـنـارـ فـيـ السـنـةـ .

(٤) أـىـ أـمـلاـكـ السـلـطـانـ .

(٥) المـنـيـةـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ هـيـ الـبـيـتـ الـرـيفـ تـحـيطـ بـهـ أـرـضـ وـاسـعـةـ يـزـرـعـهـ صـاحـبـهـ خـاصـةـ فـيـجـعـلـ بـعـضـهـاـ حـدـيـقةـ وـبـعـضـهـاـ آخـرـ يـزـرـعـ فـيـهـ مـاـ يـحـتـاجـ إـلـيـهـ ، وـهـيـ تـقـابـلـ فـيـ الـمـصـلـحـ الـإـسـبـانـيـ huerta وـالـجـمـعـ مـنـهـ .

(٦) أـىـ الـذـىـ يـزـرـعـ باـسـتـمـارـ .

(٧) المـرـجـ مـقـيـاسـ لـلـأـرـضـ يـعـدـ نـحـوـ ٥ـ٠ـ٠ـ مـتـرـ مـرـبـعاـ تقـرـيـباـ ، وـقـدـ اـتـقـلـ إـلـىـ الـلـغـةـ الـإـسـبـانـيـ Marjal ، وـكـانـ قـيـمـةـ الـأـرـضـ الـزـرـاعـيـةـ فـيـ خـصـ غـرـنـاطـةـ تـخـلـفـ بـمـحـسبـ خـصـبـهـ وـمـاـ فـيـهـ مـنـ المـاءـ ، وـقـدـ الـوـثـائـقـ الـفـرـنـاطـيـةـ الـخـاصـةـ بـالـقـرـنـ الـخـامـسـ عـشـرـ الـمـيـلـادـيـ تـرـاوـحـتـ أـمـانـ الـمـرـاجـ بـيـنـ =

العملى منه إلى نحو خمسة وعشرين ديناراً من الذهب لعهدهنا هذا ، وفيه من مستخلص السلطان ما تضيق عنه بيوت الأموال ذرعاً وغبطة وانتظاماً ، يرجع إلى دور ناجمة وبروج سامية وبيادر فسيحة وقصاب للحائم والدواجن مائة ، منها في حي البلدة وطوق سورها من مستخلص السلطان ما ينبع على العشرين ، بها الجل الضخمة من الرجال والفحول الفارهة من الحيوان للاثارة وعلاج الفلاحة ، وفي كثير منها الحصون والارحام والمساجد . ويختلل هذا المتناع الغبيط الذى هو لباب الفلاحة وعين هذه المدرة الطيبة سائر القرى والبلاد التى بأيدي الرعية ، مجاورة لحدود ما ذكر بلاد عريضة وقرى آهلة : منها ما ابسط وتمدن فاشترك فيه الآلوف من الخلق وتعددت فيه الأشكال ، ومنها ما انفرد بمالك واحد أو اثنين فصاعداً وتنيف أسماؤها على ثلاثة ، تنصب في نحو خمسين منها منابر الجمعات [تقام فيها الصلوات<sup>(١)</sup>] وتقد الأكف البيض وترفع الأصوات الفصيحة لله . ويشمل سور هذه المدينة وما وراه من الارحام الطاحنة بملاء المعين على أزيد من مائة وثلاثين رحى .

وهذا الوصف يعتبر من أحسن وأدق ما لدينا من أوصاف الموضع الصغيرة المحددة مثل شخص غرناطة الأفيح وكان يعرف أيضاً بالبقاع ، وهذا اللفظ الأخير هو الأصل الذي حرف عنه لفظ فيجا الإسباني وجمعه las vegas ، وكلام ابن الخطيب يدل على تصور سليم لمطالب الوصف الجغرافي .

وتكمـل هذا الوصف فقرة تعتبر وثيقـة جغرافية تاريخـية ، فإن ابن الخطيب يذـكر فيها أقالـيم مملـكة غـرناطة الـتي يـسمـيها « الوطن الشـريف » وهـي تـسمـية

٤ و ٦ دنانير ، وكان وزن الدينار ٢٢ جراماً من الذهب عيار ٢٢ قيراطًا ، وكانت العادة أن يتعامل الناس بدنانير الدرهم ، أي بقيمة الدينار بدرهم الفضة ، وكان الدينار يعادل عشرة دراهم فضة ، وقيمة الدرهم الواحد ١٧٠ ومن جرام الذهب عيار ٢٢ قيراطًا :  
اطر ترجمتنا لمقدمة الوثائق العربية الفراتية ، بتحقيق لويس سيكو دي لوئينا ، مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٦١ م ١٩٠ م .  
(١) أضفت هذه العبارة للبيان .

جميلة تدل على حب ابن الخطيب لوطنه الأندلسي واعتزازه به ، وهذه الوطنية تعتبر من خصائص ابن الخطيب ، لا يزال يرددتها في كتاباته ، وهي مرتبطة عنده بمعنى «العروبية» أي ما نسميه نحن اليوم بالعروبة .

والإقليم في المصطلح الإداري الأندلسي هو القسم الإداري في مصطلحنا اليوم ، وعندما كان الأندلس بكماله كان مقسما إلى كور والكور إلى أقاليم وأجزاء ، فالإقليم بحسب ما انتهى إليه بحثنا أقسام إدارية ، كل قسم (أو إقليم) منها حوز مدينة ، أي المنطقة التي تتبع المدينة إدارياً وماليًا ، والجزء منطقة أحراش وغابات ومراع مشاع لأهل الإقليم الخريط بها ، وهي تقابل ما يسمى باسم Compascua في المصطلح اللاتيني ولفظ — أرض الكلاء في المصطلح العربي ، ولكن عندما اقتصر الأندلس على منطقة غرناطة ، وكانت تضم كورتين أو ثلاثة من صغار كور الأندلس الكبير القديم ، لم يعد الأمر يحتمل التقسيم إلى كور أو مديريات ، فاقتصر على الأقاليم — وقد ذكر ابن الخطيب أن مملكة غرناطة كانت مقسمة إلى ٣٣ إقليماً ذكر معظمها وأضاف إلى بعضها ملاحظات ذات قيمة جغرافية أو تاريخية ، وقد حققها فرانثيسكو خابير سيمونيت في كتابه العتيق الذي جمع فيه أوصاف غرناطة عند نفر من مؤلفينا القدامى ، وسنورد فيما يلي أسماء هذه الأقاليم و مقابلاتها الإسبانية الراهنة وملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت عليها ، رامين للأول بحرف خ وللثاني بحرف س :

اسم الإقليم	مقابل الاسم العربي إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
-------------	---------------------------	-----------------------------

أونيل		لا يوجد حالياً ولا في النصوص
-------	--	------------------------------

		القشتالية القديمة اسم موضع على هذه الصورة . س
--	--	---

الفحص	Albox	؟ اسم قرية . س
-------	-------	----------------

اسم الاقليم	مقابل الاسم العربي إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
تاجرة الجبل	Tachara	حصن كان موجوداً إلى حين قرب قرب الحامة .
مسنيط	Loja	وهو بلدنا لوشة . قال ابن حمامة في تاریخه : لوشة من إلبرة غرباً ، و قبلة من قرطبة على نهر شنيل ، بنيت عام ٢٨٠ زمن عبد الله بن محمد جد الناصر . قاله عریب في كتابه ، وهي بلد كثیر الخصب متذدق المياه كثیر المخصوص والقرى جامع للمرافق . خ
برجيلة قيس	Berchul - Berchules	ذهب س إلى أن لفظ برجيلة لا يعرف له أصل ، وسبق أن ذكرنا أنه معرّب من parcella وفيه حصن منت لوزنه el Castillo de Monte Luzena . خ
برجيلة اندره	Andaral	حصن اندرال الذي ذكره س قريباً من غرناطة ، وقربها قرية قنا الش بني حربون التي ذكرها خ la aldea de Canales . س
برجيلة أبي جرير	Albunieles	وهي حصن «بكور» . خ في بعض النسخ ورد البنیول والنیول والوضع الحالی ضيّعة صغيرة كانت تعرف قبل العرب باسم Viniolis . Montexicar . س وفيه حصن منت شاقر
برجيلة البنیول	cortijada	خ

اسم الأقليم	مقابل الاسم العربي إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
قلعة يحصب	Alcalá la Real	٢٠ بين غرب وجوف من إلبيرة على ميلا . خ
باغه	Priego	وهذان الإقليمان استولى عليهما العدو على عهمنا عقب الكائن بطريف ، فعظم فيها الفجع . خ
مشيلية	Benamegí	غرق هذا الموضع في المدوانات الإسبانية باسم Benamexil وفي بعض النصوص العربية : بنو مشيل . س
القبداق	Alcaudete	وهو أيضًا مما تقدم التغلب عليه . خ
قب قيس	?Cambea o Quempe	معرب من Campus . س
قب اليمن		
الأشر	Aluchar o Luchar	و فيه حصن نوالش خ = Nigüelas . س
شلوبانية	Salobreña	و فيه المقل العظيم بشاطئ البحر ، فيه للسلطان قصور نيبة وبساتين عظيمة . خ
المنكب	Almuñecar	و فيه المدينة العتيقة ذات الآثار العجيبة . خ
بشرة بنى حسان		و فيه حصن برجة Berja والمدراء والقلية Alcolea وحصن شبالش Xupiles دلاية Dalias خ و س . وبهذا الإقليم غبط كثير و عمران عظيم وهو معدن من معادن الحديد .
بريرة	Fereira	و فيه حصن أرجبه Orgiva والأنجرون

اسم الأقليم	مقابل الاسم العربي إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
أرش قيس	Orce	Andaráx Lanjarón وهو جليل الجبى عظيم المؤنة خ. س. الأرش هو عطية الأرض أو الأقطاع وكانت في الأندلس أروش كثيرة واللفظ من عربية اليمن .
أرش اليمن	Marchena	Marchena وفيفه مرشانة ومندوشر وحصن بلندوز Alboloduy خ. س.
أرش العنبين	Tabernas	وفيه مدينة المريدة معقل الإسلام ذات القصبة الشهيرة والجبلية الغزيرة والبساتين النعية والزمم (جمع زمام) الخطيرة . ويرجع إليها من الحصون بشرقها وغربها عدد كبير كطبرنث والحمام . خ. س .
أرش اليماني	Alcolya	فيه مدينة بني سام بن مهلهل وهي مدينة وادي آش Guadix إحدى قواعد الإسلام لا نظير لها سقياً ومتعة ونضارة ، ويرجع إليها من الحصون النبوية الجليلة جملة . خ
فزانة	Monterrubio	فيه القليعة Alcolya ومنت روبي فيه مدينة فيانة
	Fiñana	Fiñana وهي كالماء غزيرة السقيا والثار . خ

اسم الأقليم	مقابل الاسم العربي إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
بني أوس		
بني أمية		
فرنش	Fornex o Fornes	من هذه الناحية جاء ابن أمية زعيم Aben Humeya صاحب Válor الوريسيين الذين ثاروا أيام فيليب الثاني س .
دور		و فيه حصن الصخيرة خ .
والفحص		وإقليم الفحص خمسة أقاليم (صغرى) : هدان Alhendín والفخار Alfacar وابنيلات قلوبش والكنائس خ <sup>(١)</sup> .

وأضاف ابن الخطيب بعد ذلك : « ذكر ذلك أبو القاسم الملاحي وغيره ، وأغفل أكثر مما أثبت ، وجلاة هذه المدينة أعظم . وهذه الأقاليم منها ما استمرت إلى الآن شهرته بما دُعيَ به ، ومنها ما عَمَ الجهل به على عادة الدهر مُبْلِي الأسماء والسميات ، وما حي الأعلام والسمات ، والبقاء لله » .

هذا البيان يصور لنا إحاطة ابن الخطيب بجغرافية بلده وقدرته على عرض حقائقها في أسلوب دقيق يمكن أن يوصف بأنه على . ومن الواضح أن سياق كلامه والمصطلح الذي يستعمله ينبيء عن تطور واسع المدى في طريقة الكتابة في الجغرافية ، فإن ابن الخطيب لا يكاد يخلط بالجغرافية شيئاً من مادة علم آخر ، ولا أثر لأحاديث العجائب في كلامه ، بل لا نلمح عنده أى ميل إلى

(١) ابن الخطيب ، المحة البدري ، بتحقيق الشيخ محـب الدين الخطـيب ، القاهرة ١٣٤٧ ص ١٨ - ١٩

Francisco Javier Simonet, *Descripción del Reino de Granada, sacada de los autores arábigos*. Granada, 1873, pp. 221-223.

البلاغة الكلامية التي لا تنطوي على مادة نافعة ، ثم إن اهتمام ابن الخطيب بالناحية الاقتصادية والغلالات والزروع واضح ، وهو اهتمام يمكن أن يرد إلى عنايته الشخصية بكل ما يتصل بالأموال والعقارات والغلالات ، ولكن يدل على وعي إلى الحقائق الاقتصادية .

إذا أضفنا تلك المادة الجغرافية في «المحة البدرية» إلى ما ذكرناه متصلة بهذه الناحية في «الاحتاطة» تكونت لدينا فكرة واحدة عن ابن الخطيب الجغرافي وتبيننا أن هذه الناحية من ملكاته تحدد مستوى رفيعاً في الكتابة الجغرافية في الأندلس ، وهو مستوى وصل إليه الأندلس بعد تجارب الأجيال في معاناة التأليف في الجغرافية . وليس بغرير أننا لا نجد بعد من تخطى هذا المستوى وأعلا عليه ، إذ هو في الحقيقة أعلى ما كان يمكن الوصول إليه في تلك الأزمان ، وإذا كان ابن الخطيب آخر خوف المفكرين الأندلسيين ، فإن هذه الناحية الجغرافية تكشف لنا عن جانب من أحسن جوانب خوفاته ، وتضيف إلى تاريخ العلم الجغرافي في الأندلس كسباً عظيماً يمكن أن يوصف بحق إنه مسك الختام .

## ٢ — المقامات الجغرافية

وربما لم يتتبه ابن الخطيب نفسه إلى هذه الملكة التي أوتيها ، فقد كان رغم تعدد ميادين امتيازه كالطب والأعشاب والتاريخ (والجغرافية هذه) يرى نفسه أدبياً شاعراً ، وقد ألف ما قدر عليه في هذه الميادين بعقلية الأديب الشاعر وذوقه ، ومن ثم فهو لا يزال في كتاباته يحوّد ويتألق حتى تقاد كتاباته العالية أن تكون أدباً صرفاً في بعض الأحيان ، ومن حسن الحظ أن كتاباته الاحتاطة والمحة البدرية وبعض مؤلفاته الصغيرة الأخرى نجت — إلى

حد ما — من ذلك الانسياق مع طبع الأديب فسلمت مادتها العلمية من طوفان السجعات والمترافات .

ولكن طائفة أخرى من كتاباته الجغرافيات وأوصافه للرحلات لم تستطع الفكاك من أسر النزوع الأدبي ، فجاءت أدباً خالصاً كادت معه المادة الجغرافية أن تضيع أو مسخت مسخاً مؤسفاً ، ونخب أن ننبه إلى أنها نعني بالأدب هنا مفهومه في عصر ابن الخطيب ، أي أدب السجع والبهارج اللغظية التي أولع الناس بها من أيام بديع الزمان الممذانى والصاحب بن عباد في المشرق ، ثم انتقلت إلى المغرب والأندلس فغلبت على فن النثر في أندلس القرن الخامس الهجرى وما تلاه ، ولم يزل سلطانها يشتد حتى بلغت ذروتها على يد ابن الخطيب ، ولا نعني بالأدب مفهومه السليم كتجوييد للتعبير النثري والاقتراب به من مثله الأعلى ، وهو أن يكون الكلام مطابقاً لمعنى مع المجال والتناسق والبلاغ الذكي كما نرى عند رجل مثل المحافظ ، لأن هذا الطراز من البلاغة السهلة الممتنعة إنما هو المطلوب عند التأليف في العلم .

كتابات ابن الخطيب الأدبية في الجغرافية والرحلات كثيرة ، وهى تتفاوت في طرازها الأدبي وخصوصها لليسجع والزينة اللغظية أو تحررها منها ، ولكنها تشترك في صفة واحدة ، وهى أن الغاية من كتابتها لم تكن بيان حقيقة جغرافية أو تاريخيه وإنما عرض مهارة ابن الخطيب الأدبية ، والحقائق النافعة تجىء عفواً أو ضمناً ، وهى في كثير من الأحيان تبدو لنا وكأنها حطام متاثر في ماء مضطرب ، فهى لا تجمع إلا في مشقة .

وهذه الكتابات الأدبية الجغرافية يمكن تقسيمها إلى ضربين : «المقامات الجغرافية» و «الرحلة الأدبية» ، ولدينا من كل من هذين الضربين نماذج وافرة نستطيع الاعتماد عليها ، ومن حسن الحظ أن الدكتور أحمد خختار العبادى جمع أربعاءً من هذه النماذج ونشرها مع مقدمات وتعليقات فى كتاب لطيف

عنوانه « مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس » نشرته جامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٨ ، وعلى هذا التحقيق معولنا فيها يلي من الكلام .

كتب ابن الخطيب مقامات كثيرة ، ومن الطبيعى ألا يجد أى صعوبة فى كتابتها ، لأن هذا اللون من التأليف لا يتطلب من الجهد إلا البحث عن الألفاظ ، وكانت ثروة ابن الخطيب منها وافرة ، ولهذا فقد أجاد فى هذا الباب وأكثر . ولم يدع ضرباً من ضروب تأليف القمامات إلا تناوله ، فكتب مقامة الرحلة ومقامة المفاخرة ومقامة السؤال والجواب ومقامة القصة ، وهذه الثلاثة كانت فيما نعتقد أحسن أنواع المقامات وأقربها إلى نفوس القراء في تلك العصور .

ويهمنا من هذه المقامات الخطيبية هنا ثلاثة هي :

- ١ — خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف .
- ٢ — مفاخرات مالقة وسلا .
- ٣ — معيار الاختيار في ذكر المعاهد والمديار .

#### خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف (١)

هذه المقامة تصف رحلة ابن الخطيب في رفقة سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف بن نصر (٧٣٣ - ٧٥٥ / ١٣٣٣ - ١٣٥٤) لنفقد أحوال الجانب الشرقي من مملكة غرناطة .

(١) اورد الدكتور العبادى في مقدمة « مشاهدات ابن الخطيب » دراسة وافية لهذه المقامه وتفصيلا عن الأصول التي اعتمد عليها في نشرها ، وهي المخطوط رقم ٤٧٠ بمكتبة الاسكندرية (ورقة ٥١ - ٦٩ ) ونصها الوارد في كتاب « ريحانة الكتاب ونجمة المتناب » (مخطوط بالاسكندرية رقم ١٨٢٥ ) (لودة ٢٢٠ - ٢٢٧ ) ، وقد سبق إلى نشرها على أصل الريحانة فقط ماركوس يوسف مولر : Marcus J. Müller, *Beiträge zur Geschichte der westlichen Araber*, I (München, 1866), 15-40.

بدأت الرحلة من غرناطة في ١٧ محرم ٧٤٨ / ٣٠ أبريل ١٣٤٧ واتجهت نحو وادي آش ثم بسطه Baza وبرشانة Purchena ومررت بعد ذلك ببلدة بيرة Vera ، وهي بلد صغير قرب شاطئ البحر الأبيض ، وكانت إذ ذاك آخر حدود مملكة غرناطة شمالاً في هذه الناحية الشرقية ، ولهذا يصفها ابن الخطيب بأنها « الشعر الأقصى ، ومحل الرياط الذي أجر ساكنه لا يحصى » وهي عبارة تدعو إلى العبرة والأسى إذ أن بيرة لا تبعد عن العاصمة غرناطة كثيراً ، ولكن تصاول مساحة الأندلس الإسلامي أيام مملكة غرناطة جعلها تبدو في نظر ابن الخطيب ثغراً أقصى ، ثم عاد الركب عن طريق المرية — وكانت إذ ذاك من أكبر مدن المملكة -- وبجانه Pechina وبرشانة Marchena وفينيانة Fiñana فغرناطة . وقد فرغ ابن الخطيب من تدوين الرحلة في ٨ صفر ٧٤٨ أي قبل أن تنقضى ثلاثة أسابيع على بدئها ، ويمكن القول بهذا أنها دامت أسبوعين قطع الركب فيها حوالي ٢٠٠ كيلومتراً ، فهي على الحقيقة رحلة صغيرة في الزمان والمكان . وقد زادها ابن الخطيب قسراً باستعماله السجع في وصفها ، فضاع معظم الحيز في سجعات ومتtradفات وما لابد منه في المقامات من مقطوعات الشعر ، وفي غمار هذه ضاعت دقة الوصف وصدق التفصيل ، فهو يصل مثلاً إلى نهر صغير متفرع من شنيل يسمى فَرْدَس Río Fardes فيقول : « وكان بوادي فردس النزول ، منزل خصيب و محل له من الحسن نصيب » ، ثم يسترسل في سجعاته حتى يمر بوادي الحامة ، وهو نهر صغير تقع عليه بلدة الحامة ، حيث قضى الركب لياليه الثانية بعد أن عرض السلطان الجند ونظر في أحوال البلد ، وكلام ابن الخطيب هنا ذو قيمة تاريخية ، لأنها يصف استقبال الناس للركب ويذكر شيئاً من هياكلهم ، أما المادة الجغرافية فقليلة : « خيمينا بعض رُباهَا المطلة ، وسرحنا العيون في تلك العمالة المغلقة ، بالزروع المستغلة ، خيمها الله من بلدة أنيقة الساحة ، رحبة المساحة ، نهرها مطرد ، وطائرها غرد ، يسكن السحاب فيضحك نورها ، ويدنن النسيم فترقص حورها .. » ، وهذا كله

كلام يمكن تلخيصه في مثل قولنا إن الحامة كانت تقع وسط إقليم خصب وافر المياه غنى بالزروع والحاصلات .

وفي بعض الأحيان يسترسل مع موسيقى السجعات المشابهة فيعرق في المبالغة إغراقاً يتلاشى معه كل معنى من معنى الحقيقة الواقعة ، ومن أمثلة ذلك قوله في الأرضي الخيطه ببلد بسطة :

« وكان ملقي الجران منابت الزعفران بسطة حرسها الله ، وما بسطة ؟ محل خصيب ، وبلدة لها من اسمها نصيب ، بحر الطعام ، وينبع العيون المتعددة بتعدد أيام العام . ومعدن ما زين للناس حبه من الحرش والأنعم . يالها من عقيلة ، صفحتها صقيلة ، وخريدة محاسنها فريدة ، وعشيقه (نزاعتها) رشيقه ، ليست حل الدبياج الموشى ، مفضضة بلجين الضحى .. ». فهذا كلام كله مبالغات وتهويات ، ومما قيل في غنى الأرضي حول بسطة فإنها لا تصل إلى قريب من ذلك الوصف .

وهنا وهناك ، وعند ما تدقق النظر نعثر على بعض المعلومات ذات القيمة ، في كلامه عن بسطة هذه نقرأ أنه كان فيها مسجد يعرف بمسجد الجنة وأن أحد أبوابها كان يسمى باب المسك ، وأن قرية قنالش Canales كانت « كبرى بنيات » بسطة ، أى أكبر القرى التابعة لها إدارياً ، وانه كان إلى جانبها سهل فسيح يسمى فض الأنصار وفيه غابة تسمى المصير قرب حصن شironon Serón ويلى ذلك نهر يسمى وادى المنصورة ولا يزال يسمى إلى الآن Guadalmanzor Río de Almanzor أو إلى مدينة بيرة Vera ، وهنا يبلغ ابن الخطيب في الأغرار في زينة اللفظ حدأً يصعب معه أن نجد أى حقيقة جغرافية ذات بال .. إليك على سبيل المثال القطعة التالية يصف فيها مرور الركب بنهر المرية ووصوله إلى مرشانة ، قال : « ... إلى مرشانة وهى الكوكب الأعلى ، والأشهر الحلى ، والصباح إذا تجلى ، والعروس على المنصة تجلى . وبها حلت الفيوم سوطها ، ومدت عناكب

السحاب خيوطها ، فبتنا وعيون المزن باكية ، والمنازل من توقيع فراقتنا شاكيه واستقبلنا الوادى نجعله دليل تلك الطريق ، ونتبعه في السعة والضيق ، فكم مخاضة منه عبرنا ، وعلى مشقتهما صبرنا ، حتى قدرت الأدیال والأردان ، وشكّت أذى الماء الأبدان . . . » .

### مفالخرات مالة وسلا

هذه المقامات أغنى مادة وأكبر قيمة من مقامة « رحلة الصيف » ربما لأنها اقتصرت على بلدين اثنين واحدة من الأندلس وهي مالة والأخرى من المغرب وهي سلا ، ولهذا السبب لقيت من عنایة الباحثين أكثر مما لقيت سابقتها ، فقد نشرها معًا كل من ماركوس مولر والعبادى في كتابيهما الآفاق الذاكر ، وتناول راينهارت دوزى تحقيق مولر ب النقد طويل في مجلة جمعية الاستشراق الألمانية ( مجلد ٢٠ ص ٦١٦ وما يليها ) ، وعكف على دراستها فرانشيسكو خابير سيمونيت واستخلص مادتها لكتابه عن صفة مملكة غرناطة ، وانتق منها دوزى ما حاجه من الألفاظ لذيله المعروف على القواميس العربية ، ثم ترجمها إلى اللغة الإسبانية الأستاذ إميليو غرسية غومس ، وقدم لترجمته بدراسة وعلق عليها شروحًا وافية<sup>(١)</sup> ، فهي والحاله هذه أسعد ما كتب ابن الخطيب حظًا من النشر والترجمة والدراسة والشرح .

ولا ندرى شيئاً عن السبب الذى حفز ابن الخطيب على إنشاء هذه المقامات ، فهو يقول في مستهلها أن واحداً من أصحابه سأله أن يقوم بهذه المفاضلة ،

(١) نشرها العبادى في « مشاهدات ابن الخطيب » ص ٥٧ - ٦٦ ، أما مقال غرسية غومس فهو :  
Emilio García Gómez, *El Parangón entre Málaga y Salé de Ibn al-Jatib, Al-Andalus*, II, 1934 fasc. 1, pp. 183-194.  
وقد أورد كلاماً في مقاله بياناً بالمراجع الخاصة بهذه المقامات .

فاستجابة لما طلب إليه ، ولكن الأغلب أن هذه تعلة لما رمى إليه من تفضيل الأندلس على المغرب في صورة مفاخرة بين ميناءين : أندلسي هو مالقة ومغربي هو سلا ، نقول هذا لأن المقاومة في الحقيقة ليست مفاصلة وإنما هي تعظيم مبالغ فيه مالقة وحملة تخليو من الذوق على سلا ، وهي مدينة طلما آوت ابن الخطيب وأحسنت إليه ، ولكن هكذا كان شأن الكثريين من الأندلسيين مع المغرب — وغير المغرب — من البلاد وخاصة في العصور المتأخرة ، فهم يزهون عليها جيئاً ، ولا يرون أن في الدنيا كلها ما يعدل بلدتهم ، وهو مذهب مشكور لو أن الأندلسيين أيدوه بالتفاني وبذل الأرواح . ولو فعلوا لنجحت غرناطة قطعاً من الملائكة .

المهم أن ابن الخطيب قرر قبل البداية أن يميل بالميزان ناحية بلدة مالقة ، وهذا في ذاته يقتضي التقليل من شأن سلا ، والنتيجة أن المقارنة غير سليمة من أول الأمر ، وقد كنا نتوقع على الأقل لا يكون هذا مبلغ الحساسية الفنية عند ابن الخطيب ، فإن المقارنة بين الجيد جداً والسيء جداً لا تستقيم ، وتلوين اللوحات بالألوان المتعارضة المتناقضة ليس شأن الفنان الأصيل ، ولن يست هذه ملاحظة على فن ابن الخطيب بقدر ما هي استنفار للذهن إلى المبالغة الظاهرة في كلامه ، فإن قاريء هذه المقامات لا يكاد يصدق أنها صدرت عن نفس القلم الذي كتب مقدمتي الإحاطة والمحة البذرية ، ولكن هذا كان مفهوم الناس للإنشاء الأدبي في ذلك العصر : تهويل ومبالغة وبعد عن الحقيقة وسعى وراء زينة اللفظ وبهارج الكلام ، فإذا لم يفعلوا هذا لم يكن ما يكتبه أدباً ، واضح أن ابن الخطيب عند ما كتب المحة والإحاطة لم يتصور أنه يكتب أدباً ، بل جغرافية وتاريخاً ، ومن ثم فقد أراح نفسه من عناه التكلف والتتصنع وأرسل قلمه على سجيته ، وما أظن أنه خطر بباله أنه سيجيء زمان ينظر أهله إلى كلامه السهل البسيط هذا على أنه أحسن ما كتب .

غير أن ابن الخطيب بعد ديناجة قصيرة يؤكّد فيها ألاً وجّه المقارنة أصلاً بين مالقة وسلا — يقول عبارة تعطينا فكرة عن تصوّره للمدن ومقاييس أهميتها

وعدم أهميتها ، قال : «فنتقول : الأمور التي تتفاصل بها البلدان ، وتنتفاخر منها به الاخوان ، وتعزره حتى الولائد والولدان هي : المنعة والصنعة والبقعة والشنة ، والمساكن والحضارة والعمارة والأماراة والتضارة» وهي عبارة طيبة لولا هذا السبع الذي أفسدها ، فهو يزيد بالمنعة الموقع الجغرافي ، وكانت أهم خصائص الموقع الجغرافي الجيد عندهم الحصانة والمنعة ، لأن هاتين كانتا أساس الأمان والسلامة من العدوان ، وبدونهما لا تنمو بلدة أو تتحضر ، وأما الصنعة فيزيد بها الصناعات وما تشهر به البلدة منها .

وأما البقعة فيراد بها بقية خصائص الموقع الجغرافي بعد الحصانة ، وليس المراد بها خصوبة الأرض<sup>(١)</sup> فقط ، بل كل ميزات الموقع الجغرافي وإليك ما يقول عن كل من مالقة وسلا بهذا الخصوص .

سلا :مالقة :

«وسلا بلد الرمال ، ومراعي الجمال ، بطيخة لا تنجب السنابل ، وإن عرفت المطر الوابل ، جرد الخارج وبحرها مكفووف بالعقب والمدارج وواديها ملح المذاق ، مستمد من الأجاج الزعاق ، قاطع بالرافق من الآفاق ، إلى بعد الانفاق ، وتوقع الأغراق . وشابلها مقصور على فصل وكم لشكه من شبا نصل ، عدمت الفاكهة ، والمتزهات النابهة » .

«خص الله مالقة بما افترق في سواها ، ونشر بها الحاسن التي طواها إذ جمعت بين رمث الرمال وخصب الجبال ، وقارمة القلاحة الخصوصة بالاعتدال ، والبحر العديم الصداع ، الميسرة مراسية للحط والاقلاع ، والصيد العميم الارتفاع ، جبارها لوز وتين ، وسلها قصور وبساتين ، وبحرها حيتان مرتزقة في كل حين ، ومزارعها المغله عند اشتداد السنين » .

(١) ذهب إلى ذلك غرسية غومس في ترجمته التي سبقت الإشارة إليها ، فقد ترجم لفظ البقعة بعبارة la fertilidad de su tierra

وطريف أن ابن الخطيب لم يشير هنا إلى أهمية المواصلات كجزء أساسي في الموقع الجغرافي ، وقد كان حرياً أن يلاحظ ذلك ، لأن هذه الناحية كانت في ذلك العصر أكبر ميزات مالقة ، فقد كانت ميناء مملكة غزنطة الأكبر وبابها الأول إلى إفريقيا والشرق ، أى باب الأمداد العسكرية والمتاجر والأسفار في حين أن سلا لم تكن تمتاز من ذلك بشيء ، وإلى ذلك العصر لم يكن لوقعها على البحر من قيمة إلا أنه جعلها مركزاً لصيد السمك . وقد فاتت هذه الناحية ابن الخطيب ، إذ لو ذكرها لوجد مجال القول فيها ذا سعة .

ثم تأتي بعد ذلك المقارنة بين البلدين من ناحية ما سماه بالشنة وهو لفظ تكلفه ابن الخطيب حرضاً على السجع ، ولم يكن موفقاً فيه ، فقد أراد به طائفة من المعانى مثل الشهرة والتاريخ والأمجاد والأهمية العسكرية ووفرة الجنود وكثرة الخيال وقوة السلطان . وغموض هذا المعنى هو الذى جعل ماركوس مولر يقرر أنه محرف غير صحيح ، وقد ناقصه دوزي في ذلك في نقد تحقيقه لفاخرة مالقة سلا في مجلة جمعية المستشرقين الألمان (ج ٢٠ ص ٦١٦) ، وذهب إلى أن الشنة لفظ واضح المعنى ، فهو مقابل للشهرة *célébrité* (راجع ذيل القواميس ، ٧٩١/١) وهو ادعاء طويل منه فإن اللفظ مهم قلق ، وإذا قرأنا ما يذكره ابن الخطيب تحته وجدنا أنه يمكن إيجازه في قولنا : المكانة التاريخية والأهمية العسكرية .

وزيادة على هذا الإغماض في التسمية نجد أن ابن الخطيب لا يذكر هنا شيئاً يستحق الذكر ، فقد كما ننتظر أن يقول لنا بماذا اشتهرت مالقة في تاريخها وما أساس هذه الشهرة ، ولكنه يقدم كلاماً عاماً تشوبه المبالغات مثل : «إذ مالقة دار الملك في الروم ، ومثنوى المصاعد والقرورم ، تشهد بذلك كتب الفتح العلوم ؛ وذات ملك في الإسلام ، خافق الأعلام ، غنى بالشهرة عن الإعلام ..» إلى آخر هذا الكلام الواسع غير المحدد .

وكلامه عن فضل مالقة من ناحية الحضارة قريب من هذا في التعميم وقلة الضبط ، ومن أسف أنه عندما يقارنها بسلا يقوس في الكلام ويشتد حتى يصل إلى الاهانة والتجرح .

ثم يتكلم عن الامارة كلاماً عاماً يعتمد على اللفظ دون المعنى ، وجدير باللحظة أن غرسية غومس قرأ هذا اللفظ «الإثارة» وهي قراءة معقولة يستعملها ابن الخطيب في معنى الفلاح والزروع ، ويتوجه غومس بعبارة *la vida económica* أي الحياة الاقتصادية .

ويؤيد هذا الرأي أن ابن الخطيب يقارن بين البلدين من ناحية ما سماه «النضاراة» ، ويريد بذلك جمال المنظر وغزارة النبات ووفرة الأزهار والأضواء ، وقد ترجم غرسية غومس هذا اللفظ بقوله *el esplendor* أي الفخامة والبهاء ، وهي ترجمة موفقة . وجدير باللحظة هنا أن العرب في أوصافهم للمدن شديدو العناية بما يسمونه الضوء ، فيصفون بعض البلاد — دون بعض — بكثرة الضياء ، وقد اشتهرت بذلك عندهم بلنسية ومالة ، وهذا المعنى غير واضح لنا تماماً لأن ضوء الشمس الذي يغمر كل البلاد الأندلسية واحد ، فلا يقال مثلا إن قدس أضواً من شلب ، ولكن الغالب أنهم يريدون ذلك الضوء الروحي الذي يحس به المسلمون في «المدينة» مثلا ، وهي تلقي لهذا بالمنورة ، وهي صفة تعبّر عن احساس نفسي لا عن ضوء حقيقي ملموس ، وهذا واضح من مثل قولنا : فلان وجهه منير ، قلمراد بهذا أنه رجل طاهر القلب صاف النفس نبيل الخلق .

وكنا ننتظر أن يورد ابن الخطيب في فقرة «المساكن» شيئاً من عما في مالقة ومنشآتها ومساجدها وحصونها وما إلى ذلك مما يفيد في التعريف بهذه البلد في عصوره العربية ، ولكنه لم يذكر شيئاً محدداً غير مبني سماه «جنة السيد» ويراد بذلك قصر ريفي تحيط به حديقة واسعة بناء أحد أمراء الموحدين .

وربما كانت الكلمات القلائل التي اختص بها سلاً أكثر فائدة في هذا المعنى ، فهو يقول : « وأما سلا وإن كان بها للملك دور وقصور ، ولاهل الخدمة بناء مشهور ، فهو قليل ، وليس بالجمهور إليه سبيل » .

ولا حاجة بنا إلى عرض بقية المفاضلة ، فهي من هذا القبيل ، والطريف أنه بعد أن يوجه إلى سلا كل مساعة ويتجاوز في ذلك ما تتوسمه في رجل مثله من الاباقة وحلوة اللسان والمراعاة لبلدة تربطه بها صلات كثيرة ولها عليه فضل ، نجده يختتم الكلام بعبارة فيها بعض الترضية لها ، كأنه أراد أن ينخفف بذلك وقع ما سبق من قوله ، قال :

« ولسلا ، الفضل ، لكن على أمثالها ونظرائها من بلاد المغرب وأشكالها إذ لا ينكر فضل اعتدالها ، وأمنها من الفتنة وأهوالها عند زلاتها ، ومدفن الملوك الكرام يحبها .

ومالقة ، قطر من الأقطار ، ذوات الأقدار والأخطار ، وتحصيل الأوطار .

ولسلا ، مصب الأمطار ، ومرعى القطار ، وبادية بكل اعتبار » .

#### مقامة معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار

هذه المقامة التي تسمى في بعض الأحيان كتاباً هي أقرب كتابات ابن الخطيب إلى طريقة المقامات وأسلوبها وروحها ، وإذا كان هناك تجوذ في حسبان القطعتين السالفتين مقامتين فإن « معيار الاختيار » مقامة من الطراز الأصيل الذي نجده عند أساطين ذلك الفن ، وهي تنقسم إلى مجلسين لكل منها بطل من طراز أبطال المقامات وإن لم يذكر لها ابن الخطيب أسماء ، ولكنها قربان من أبي زيد السروجي وأبي الفتح الاسكندراني وعيسى بن هشام : الأول رحالة جواب آفاق ومجامر لا يتعدد في الإلقاء بنفسه في الخاطر ، والثانى ساحر

طبيب عالم لا يستعصى عليه محال أو يُحِبِّه مرض أو يعجزه الجواب على سؤال الأول يتحدث عن المدن الأندلسية والثاني يتحدث عن المغربية<sup>(١)</sup>.

والقيمة الفنية والعلمية لهذه المقاومة تزيد كثيراً عن قيمة سابقتها ، فقد تضمنت السجعات والتردفات قدرأً طيباً من المعلومات الجغرافية ، وهى لهذا جديرة بأن تعد في أحسن ما كتب العرب من مقامات .

والحق أن ابن الخطيب شَأْيَ في « معيار الاختيار » أحسنَ المستويات التي وصل إليها المقاميون ، ولكنَّه آذى مادته الجغرافية وأغرقها في سيل من التردفات ، وأذلَّ المعانى للالفاظ حتى لا نكاد نستخرج فائدة جغرافية إلا في جهد ، وتكتفى للتدليل على ذلك نماذج قليلة . قال عن جبل الفتح ، أى جبل طارق ، على لسان صاحبه العلامة السواح الجوال : « وفاتحة الكتاب من مصحف ذلك الإقليم (يريد الاندلس) ، ولطيفه السميم العليم ، وقصص المهارق ، وأفق البارق ، ومحظ طارقه بالفتح طارق . إِرَمُ الْبَلَادِ الَّتِي لَا يَخْلُقُ مِثْلَهُ فِيهَا ، وَذُو الْمَنَاقِبِ الَّتِي لَا تَحْصُرُهَا الْأَلْسُنَةُ وَلَا تَوْفِيهَا . . . »<sup>(٢)</sup> ويقول عن سهيل ، وهي قرية صغيرة على شاطئ البحر الأبيض على نحو ٣٥ ك. م. من مالقة ، تسمى اليوم Fuengirola « حصن حصين ، يضيق عن مثله هند وصين ، ويقضى بفضله كل ذي عقل رصين<sup>(٣)</sup> » ولو لا طلب السجعات ما أجاز ابن الخطيب لنفسه — أو لأى رجل ذي عقل رصين ، على حد تعبيره — أن يقول إن قرية مثل سهيل تضيق عن مثلها الهند والصين . وأطرف مثل للانطلاق مع اللفظ دون تحفظ قوله عن مدينة « سلا » التي أزرى بها على أسوأ صورة

(١) انظر عن مخطوطات هذه المقاومة ونشرها : البادى ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، ص ١٢ ، وقد حققها تحقيقاً جيداً وعلق حواشيه ، ص ٦٩ - ١٦٥ وعلى هذا التحقيق معولنا هنا .

(٢) معيار الاختيار ، ص ٧٤

(٣) نفس المصدر ، ٧٥

عند ما فاضل بينها وبين ماقفة : « قلت : فمدينه سلا ؟ قال : العقيلة المفضلة ، والبطيحة الخضلة ، والقاعدة المؤصلة ، والسورة المفصلة ، ذات الوسامه والنصرارة ، والجامعة بين البداوة والحضارة ، معدن القطن والكتان ، والمدرسة والمدارستان ، والزاوية كأنها البستان ، والوادي المتعدد الأيقان ، والقطر الآمن عند الرجفان ، والقصد عظيم الشأن ، والأسواق الممتازة حتى برقيق الحشان ، اكتفتها المسرح والخصب الذي لا يبرح ، والبحر الذي يأسو ويجرح ... »<sup>(١)</sup>.

ولكن أطواء هذا الحديث الفضفاض تضم كما قلنا عالماً واسعاً بهذه البلاد جيئاً ، ولو أن ابن الخطيب خف عن نفسه وحط عن كاهله أفقاً هذه السجعات وكانت هذه الرسالة ذخراً عظيماً عن جغرافية الأندلس والمغرب ، ومصداق ذلك أن للرجل في ثنياً هذه الزخارف لحات ثنيه عن الكثير . ولهذا رأيت أن استخرج أهم ما تضمه بعض الفقرات من مادة ذات قيمة بالنسبة للجغرافي ، وذلك لاظهار القيمة العلمية لهذه الرسالة :

مدينة جبل الفتح (جبل) طارق : حصانتها — الماء يحيط بها من ثلاثة جهات — سورها عظيم مرتفع — رباط للعبادة والحراسة — نقاء هوائتها — بعدها عن مصادر الزاد ولا بد من تموينها من الخارج — فقيرة في ذاتها .

اسطونه Estepona : كانت ذات خير وغير قبل أن يستولى القشتاليون على الجزيرة الخضراء .

مربله Marbella : مركز عظيم لصيد السردين والسمك المختلفة الالوان . تمتاز بالعنب الجيد إلا أن أرضها ليست خصبة وحصنه ليس منيعاً .

سُهيل Fuengirola : — تمتاز بالحصانة وبمزارع الشعير وأشجار التين — غنية بالمياه وتجود بأرضها الحبوب وواديها وافر السمك ، ولكن سواحلها معرضة للغارات .

(١) معيار الاختيار ، ص ١٠٤

مالة : قصبتها في غاية الحصانة — مشهورة بصناعة الفخار المذهب والأواني المختلفة الأنواع وحمل الدبياج المطرزة والنسيج مختلف الأصناف ؟ يزيد في حصانتها وجود جبل الرحمة خلفها . « دار العجائب المصنوعة والفواكه غير المقطوعة ولا الممنوعة » — شوارعها ضيقه غير نظيفه — منطقتها المزروعة صغيره وخيرها قليل ، وهي مجاورة لأرض الأعداء ومن ثم فهى معرضة للأخطار .

بليش Vélez-Málaga : بلد طيب غزير الامطار حصين الموقع آمن السرب يشتهر بأشجار اللوز والتين . أرضها خصبة عالية الثمن كثيرة الفواكه والخقول ، وفي أخلاق أهلها عنف وشدة .

قارش Comares : حصن كبير قرب غرناطة وافر الماء والزروع والكرروم والزيتون واللوز والتين والحبوب ، إلا أن أراضيها سفوح لا يستطيع فلاحتها إلا أهلها .

المنتkick Almuñécar : مرفاً كبير مشهور ينحدر إليه الكثير من سفن بلاد النصرانية . تشتهر بجمال المناظر وحصانة معقلها وجمال مسجدها ، والبلد كله عال مرتفع فيبدو مسجده شاهق العلو ، وأشهر زراعتها قصب السكر والزيبيب . هواوها غير صحى بسبب ضيق مساحتها وتلاصق بيوتها وصغرها . يستورد الزيوت والقمح .

سلوبانية Salobreña : مدينة حصينة أعلى تمتاز بعيون ماء ينحدر منها على السفوح — وافرة الأسماك مشهورة بزراعة الخضر — على مقربة منها حصن مُترail Motril . معظم أرضها ملك لسلطان غرناطة ولهذا فكل أهلها زراع قراء ، وفيها مبان عظيمة يبدو أنها للسلطان ، ويرى ابن الخطيب أن أهلها لا يمتازون بجمال .

برجة Berja : بلدة جميلة كثيرة الزروع والزهور ، موقعها حصين آمن ، تشتهر بالعنب وأرضها مرتقبة لا يركبها ماء المطر وهي لهذا أرض أشجار وافرة

المياه ، مزارعها فسيحة تنتشر فيها البيوت ، أهلها ميسير يشتعل الكثيرون منهم بتجارة الحرير ، ونظراً لارتفاعها وعلو أراضيها لا بد من نقل الماء إليها ولا تجود فيها الحبوب فلا بد من استقدامها من نواح أخرى .

دلاية *Dalias* (التي ينسب إليها الجغرافي العذري الدلائي) : بلد وافر الآخريات يشتهر بصناعة الحرير واستخراج الملح ، أرضه ذات صراع تشهر بمنتجات الالبان ، ولكنها معرضة لغارات الأعداء من البحر .

أمرية : بلد غني حصين ومركز الأساطيل الحربية لمملكة غرناطة ، أهلها مشهورون بطيب الخلق والشجاعة في الحرب ذياداً عن دينهم ، والكثيرون منهم يتزهدون ويرابطون . مرافقها واسع أمين معد لإيواء السفن الكبار ، وقصبتها غاية في الحصانة والسرعة بحيث تخزن فيها مقادير عظيمة من الأطعمة . أشهر حاصلاها العنبر والزيتون والكتان ، والرخام وتجارتها ذوو رؤوس أموال ضخمة ولكنها شديدة الحر قليلة المطر عمادها على نهرها وحده .

وهذه مجرد أمثلة مما نستطيع استخلاصه من المواد الأندلسية الأربع وثلاثين التي يضمها المجلس الأول من تلك المقامات وهي بعد ما ذكرناه منها : طبرنـش ، *Cantoria* ، *Mohacar* أو *Mujácar* ، *Vera* ، *Tabernas* ، *Baza* ، *Purchena* ، *Orija* ، *Bilis* ، *Vélez Rubio* ، *Ronda* .  
لورقة *Lorca* ، أشـكر *Huéscar* ، *Andarax* ، *Jubiles* ، *شـبالـش* ، *وادي* ، آش *Guadix* ، *فـيانـة* *Fiñana* ، *غرـناـطـة* ، *الـحـمـة* *Alhama* ، *صالـحة* *Zalia* ، إـلـيـرة *Illora* ، *منـتـفـريـد* *Montefrío* ، *لوـشـة* *Loja* ، (بلد ابن الخطيب) ، أرجـذـونـة *Archidona* ، *انتـقـيرـه* *Antequera* ، *ذـكـوانـ* *Coín* ، *قرـطـمة* *Cártama* .

وهذه على وجه التقرير كل مدن مملكة غرناطة فيما بين سنتي ٧٦٠ و ٧٦٣ / ١٣٥٨ - ١٣٦٢ وهي فترة إقامة ابن الخطيب في المنفى بسلا ، وفي أثناءها كتب هذه المقامات .

وتجدر باللحظة أن المادة التي يوردها ابن الخطيب عن البلاد المغربية لا تقل قيمةً عنها تتضمنه المواد الغرناطية ، وهذا إن دل على شيء ، فعلى أن ابن الخطيب كان رجلاً طلعة حريصاً على أن يعرف ويدرس ، دقيق الملاحظة متفتح الذهن لا يفوته شيء مما يرى ويسمع ، وسرى ذلك بوضوح عندما نتكلم عن رحلته ، أى عندما يريحنا من عناء السجعات ويرسل نفسه على سجيتها ويتكلم في نثر طلق مريح .

كتب ابن الخطيب في المجلس الثاني — أى النصف الخاص بالمغرب من «معيار الاختيار» — عن ست عشرة مدينة وقرية ، وموادها عنها أطول في الجملة من مواده عن المدن الأندلسية وأبلغ — بقياس بلاغة المقامات — منها ، وهو يسرف فيها في المديح إلى درجة تختلط معها المعانى ويفدو البلد الصغير في أهمية الكبير لكثرة الكلام وعدم تدقير ابن الخطيب فيما يقول ، وسبب ذلك واضح ، فقد كتب هذه المقدمة وهو في سلا تحت كنف سلطان المغرب وفي رعاية أهله ، ومن ثم فقد كان حقيقةً بأن يتلطف ويتمدح ويتذكر الحاسن إذا لم يجد لها ، ويحوز القول كذلك أن احتمال الإقامة الدائمة في المغرب كان يراود نفس ابن الخطيب بعد ما رأى من المحن في الأندلس ، ومن هنا فقد درس أحوال المغرب واستقصى وكتب هذه السطور مستجلاً لحبة الناس ومهدأً للعيش في أكنافهم .

وفي السطور التالية سنستخلص الحقائق الجغرافية من بعض المواد المغربية من هذه المقدمة لكي يستطيع القارئ مقارنتها بالمادة الأندلسية ، مع ملاحظة أن ما سنذكره مستخلص من كلام كثير جداً معظمه لا ينطوى على معنى ذي بال كقوله عن سبتة : عروس المحلي ، وثنية الصباح الأحلي ، تبرجت تبرج العقيلة ، ونظرت وجهها من البحر في المرأة الصقلية ، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة ؛ وإذا قامت بيض أسوارها مقام سوارها ، وكان جبل بنيونش

شمامه أزهارها ، والمنارة منارة شوارها ، كيف لا ترحب النفوس في جوارها ، وتخيم الخواطر بين انجادها وأغوارها ..<sup>(١)</sup> .

وإليك الحقائق الجغرافية التي يمكن استخلاصها من الفقرات :

سبتة : ميناء كبير ترسو فيه سفن كثيرة ؛ حوالها غابات متدة يؤخذ منها الخشب للوقود ؛ مركز قوافل وتجارة بحرية ومحطة صيد للأسمك . معتدلة الجو لأنها كما قال « الوسيطة خامس أقاليم البسيطة » ولكن أمطارها غزيرة ورياحها عنيفة مستمرة ثم إن أهلها معروفون بالتدبر الشديد .

طنجة : مدينة قديمة تقوم في منطقة وسطٍ بين الجودة والرداة ، كان أهلها يبدون على الأندلس ليشتراكوا في الجيوش وكانوا يسمون بالطنجيين أو الطنجاليين . تشتهر بمنارتها العالية ومرسالها الكبير ، وهي قريبة الشبه من جارتها سبتة ، وفيها عين ماء غزيرة تعرف بعين برقان .

قصر كتامة (المسماة اليوم بالقصر الكبير أو قصر عبد الكريم) : بلدة تقوم في منطقة غنية بالقمح والمراعي والألبان والفواكه الطيبة وخاصة التفاح ، ويصاد في مياه المحيط إلى جوارها سمك طيب وافر . وهي محطة قوافل ومركز تجارة مع الجبال المجاورة وخاصة جبال غمارة ، ولكن جوها غير صحى ويكثر بها البعوض . أصيلا : المادة عن هذا البلد قصيرة عظيمة القيمة ، ولهذا أوردها بيامها : « كثيرة المرافق ، رافعة الخصب في اللواء الخافق : العصير<sup>(٢)</sup> الأثير والحوت الكبير ، واللين الفزير ، والإدام الذي يرمي به من حُكم عليه بالتعزير ، والسفن المتعددة ، وفيها الملف (أى الأقشة) والأبازير (أى الحبوب) . إلا أن حضنها من اللوعة برى وساكنها بربى ، وجارُها من غُماره جرى » .

(١) معيار الاختيار ، من ١٠١ - ١٠٢ . وبنيونش قرية كانت مجاورة لسبتة لا زالت آثارها باقية إلى اليوم . تعليق للعبادي اعتماداً على دراسة لليفي بروفنسال :

Lévi-Provençal, *las Ciudades y las Instituciones Urbanas del Occidente Musulmán en la Edad Media*. (Tetuán 1950), p. 45.

(٢) العصير هنا هو التين الأخضر .

سلا : بلد حصين يجمع بين البداوة والحضارة يشتهر بالقطن والكتان ، واديه (أى نهره ، ويراد به نهر أبي الرقراق أو بورجرج) واسع تدخله السفن الكبيرة ، والبلد آمن تحيط به المزارع والمراعي .

شالة : بلدة غنية كثيرة المياه تقوم فيها مدافن بني مرین ، مشهورة بسمك الشابل ، ولكن الماء فيها قليل وأسعار الحياة مرتفعة .

أنفًا (الإسم القديم للدار البيضاء) : ميناء واسع النشاط يكتظ توارد السفن إليه ، يكتظ حولها حيوان الصيد وطيره ، كثيرة الفواكه والأعناب وافرة موارد الحياة إلا أن مياهها غير صحية ومناخها غير ملائم للصحة ، وتقيم إلى جوارها جماعات من البدو تهدد أمنها .

آزمور : بلد غنى تحيط به أراضٍ واسعة خصبة ، يمر به نهر غزير  
المياه ، وله مراعٍ غنية بالماشية ، وأهله يتصرفون بالحرث الشديد . « ويعدم  
بيลดهم الماء والملح والفحار » .

وتكتفى هذه الماذج من المادة الجغرافية التي تضمنها فقرات هذه المقامة . وبقيمة المدن التي تتكلم عنها هي : تيط ، رباط ، آسفي ، مراكش ، أغامات ، مكناسة ، فاس ، الجديدة ، آقر سلوين ، سبتمبر ، تازة ، غسسة .

وإذن فجموع المدن التي يتكلم عنها ابن الخطيب في هذه القامة ٥٥ مدينة مغربية وأندلسية ، يقدم لنا عن كل منها معلومات طيبة ، ولو جمعناها بعضها إلى بعض لخرجنا بحصيلة لا يأس بها من العلم بالجغرافية الطبيعية والبشرية لمملكة غرناطة والمغرب الأقصى أيام بني سرين . وأنه لمن المستبعد أن تتحصل عفواً هذه المعلومات الكثيرة لابن الخطيب عن كل بلد من تلك التي ذكرها ، لأنها معلومات دقيقة لا تجتمع إلا بالالتفات والعناية ، فهو يعرف أرض كل بلد منها وزراعته وحاصلاته وتجارته وشيئاً من عوائد أهلها ، وهو يفرق بين خصائص هذا البلد وخصائص ذاك ، بحيث يتجلّي بوضوح أنه يتكلم عن أشياء

يعرفها ولا يخلط بين بعضها وبعض . وهذا المستوى من العلم لا يتحصل إلا عن قصد ولا يتأنى إلا من صرف إليه البال والاهتمام ، وابن الخطيب من هذه الناحية جغرافي بالطبيعة ، يتبع حقائق ما يراه من الأرضين وما عليها دون مشقة ، ويدفعه الطبع والحرص والولع بالمال والقار إلى السؤال والاستفسار والنظر فيما يمر بين يديه من أوراق الدولة وما تعرضه من أمور الجباية وشئون المحاصيل ، ويتأمل هذه الحقائق بعين المولع المتذوق قبل أن يدرسها بعين رجل الدولة الإداري .

### ابن الخطيب الرحالة

لا نقصد بالرحلة في بحثنا هذا مجرد السّفار أو جواب الآفاق ، بل نقصد من وصف رحلة قام بها أو كتب عنها شيئاً يدخل في نطاق الجغرافية التي نورنخ لها في الأندلس ، لأن الرحاليين كثيرون ولكن الذين كتبوا رحلات منهم قليلون ، وما وصلنا من كتابات هذا القليل إنما هو جزء يسير مما كتبوا .

وقد كان ابن الخطيب صاحب رحلات وأسفار ، وكان إلى ذلك مُغري بالكتابة يجد فيها لذة كبرى كأنها كانت مراحه ومتنفس صدره عما كان ينقله من هموم ومتاعب ومخاوف ، ومن مظاهر ذلك أن الرجل كان مصاباً بالأرق لا يكاد ينفعه من الليل إلا الوقت القليل ، وهذا الأرق إنما مرده إلى المخاوف والمهموم التي تقض المضجع ، فإن ابن الخطيب كان من أولئك الذين ابتلوا بالعيش طول العمر وسيف دقيانوس معلق بشعرة فوق رءوسهم ، لأن مطامعه في المال والسلطان كانت واسعة ، وكان نطاق أعدائه لهذا فسيحاً ، ولم تخل حياته لحظة من ناس يدبرون مصرعه ويطلبون دمه ، وكانت حياته كلها فراراً من الشرك والأحابيل ولعبا حزيناً مريضاً مع الموت المتكالب ، وكان لا بد أن

يدركه المصير الملاحق يوماً ما . ولا يخفى الأسى على ما أصحاب ابن الخطيب إلا عرفاناً أنه كان أيضاً غريماً مطالباً للكثيرين ، يتعقبهم بكأس الحمام ، وصاحب مثل هذه الحياة الضاربة لا يكون قط صاحب نوم هنيء أو حتى أرق هادئ ، وإنما هو أرق الخائف الوجل الذي يتوقع وراء كل قدم تقترب من داره في سكون الليل طرق الباب وهجوم أعنوان الموت . وكان ابن الخطيب يُدافع الروع بالكتابة والتأليف ، فطالت لياليه والسراج موقد وهو بين الكتب ينظر ويُروي ويكتب في انتظار غمضة من نعاس مع شعاع نور الصباح ، ولهذا فقد لقب بذى العُمرَين : عمر بالنهار وأخر بالليل .

وهذا فيما يبدو هو السبب في ضحالة الكثير مما كتب ابن الخطيب ، فهو ألفاظ تلتقط من مطالعات أو تلتمس في أركان ذاكرة واعية ، وليس معان تنولد وتجود مع التفكير الطويل المادي ، والسبعينات في كثير من الأحيان إنما هي ستار على خلاء المعنى وقلة البصاعة ، وقد رأينا أمثلة من ذلك فيما سلف مما عرضناه من كلام ابن الخطيب وخاصة ما أتينا به من « خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف » ، فهذا وصف رحلة قصيرة دامت بضعة أيام ، ومع هذا فقد سماها « رحلة الشتاء والصيف » انسياقاً مع سجدة يسيرة لم يكلفه العثور عليها جهداً .

وفي قطعة الرحلة التي تتحدث عنها الآن لنختم بها الكلام عن ابن الخطيب نامس هذه الظاهرة بوضوح ، فإن ابن الخطيب كتب هذه الصفحات حول رحلته في جزء من جبال الأطلس الغربية هو المعروف بجبل هناتاته نسبة إلى قبيلة مصمودية صنهاجية كبيرة تحمل هذا الإسم ، وكان لها دور عظيم في تاريخ المغرب أيام الموحدين ، فقد كانت قبيلة فصكة بن ومزال الذي سماه محمد بن توسرت بـ«عمر إينتى أو ينتى أو المفتاتى» ، وكلها صيغ مغربية ومعربة لاسم هذه القبيلة ، وهو الذي تلقب بعد ذلك بأبي حفص وأصبح جد بني حفص أصحاب

الدولة المعروفة في تونس<sup>(١)</sup> وقد كان لهناته بعد ذلك دور كبير في تأييد دولة بنى مرين ، ومن هنا فقد كانت منازلها موضع عنایة ورعاية من سلاطين هذه الأسرة ، خاصة وهذه المنازل تقع على الطريق الرئيسي من مراکش عاصمة الدولة إلى فاس ومكنا وطنجة وغيرها من عواصم الإقليم الشمالي من ملك بنى مرين ، ولم يكن في يوم من الأيام ملكاً مستقر القواعد أو شاملًا لنواحي البلاد ، إذ هو اعتمد على ولاء بعض القبائل الكبرى ومنها هناته هذه .

ولا ندرى لماذا ذهب ابن الخطيب إلى هذه الناحية ، فقد كان إذ ذاك لاجئاً إلى المغرب مع سلطانه الخالع محمد الغنى بالله بن الأحمر ، وقد ظل هناك من ٧٦٠ إلى ٧٦٣ (١٣٥٩ إلى ١٣٦٢) ثم عادا إلى ما كانوا عليه قبلاً في غرناطة : هذا سلطاناً وذاك وزيراً ، ولم تكن أحوال الدولة التصريحة قد تدهورت بعدُ إلى ما صارت إليه عند ما هرب منها ابن الخطيب مرة أخرى سنة ١٣٧١/٧٧٣ فقد كانت الأحوال إذ ذاك قد بلغت — بالنسبة لابن الخطيب على الأقل — إلى درجة اليأس وانقطاع الرجاء ، ومن ثم فقد كان شديد الحرص أثناء إقامته الأخيرة تلك في المغرب على أن يقتني الأموال والضياع والارضين تمهيداً للإقامة الدائمة ، فلو أن ابن الخطيب قام برحلته تلك في هذه الفترة الأخيرة كما كان يُظن لقلنا إنه ذهب يبحث عن أرض يقتنيها أو عقار يضمها إلى أملاكه<sup>(٢)</sup> ولكن عبارة له في خطاب أورده في سياق الكلام ربما كشف لنا عن حقيقة المهدى الذي رمى إليه من وراء هذه الرحلة ، فقد قال في خطابٍ بعث به قبل رحلته إلى عامر بن محمد بن على المحتناتي شيخ ذلك

(١) انظر عنه التعليق الضافى الحافل بالمراجع بقلم الدكتور محمود على مكي في حواشيه على نظم الجان ، التى نشر جزء منه في طوان ١٩٦٤ ، ص ٨٠

(٢) انظر عن تحديد تاريخ هذه الرحلة : العبادى ، مشاهدات ، ص ١٣ - ١٤ . وقد فصل ابن الخطيب الكلام عن أحوال غرناطة أيام هربه الأول مع سلطانه إلى المغرب في نفاضة المحراب كما قال هو في المحة البدريه ، انظر ص ١١٣

الجبل ووالى القبيلة ومنطقتها : « فلما حُمِّ الواقع وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقص وأصبحت ديار الأندلس وهى البلاقع ، وحسنت من استعدادك إلى الواقع ، قوى العزم وإن لم يكن ضعيفاً ، وعرضت على نفسى السفر بسببك فألفيته خفيفاً ، والتمست الاذن حتى لا ترى في قبلة السداد تحريراً ، واستقبلت بصدر مشروح ، وزند العزم مقدوح ، والله يتحقق السول » .

ومعنى هذا أن ابن الخطيب سمع إلى أن يستدعيه هذا الشيخ لزيارته في منازل قبيلته وجلبها ، فاما وصلت إليه الدعوة عمل بتلبيتها أملأ في أن يكسب صداقه هذا الشيخ القوى فيجد في بلاده حي ومأمناً من الفتنة والخفاوف التي كان يحتجزها ، وهو نفسه يشير إلى حال الدولة الأندلسية المحزن إذ ذاك « فاما حم الواقع ، وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الواقع » مما يفهم منه أنه كان يلتزم في واقع الأمر أميناً من خوف وقراراً من فرار ، وربما كشف لنا ابن الخطيب عما كان يساوره من الآمال والخفاوف قوله « والتمست الاذن حتى لا ترى في قبلة السداد تحريراً » ومعنى ذلك أنه يطمئن ذلك الشيخ إلى أنه استاذن السلطان قبل أن ينهض إلى تلك الزيارة حتى لا يساء الظن بداعف رحلته وحتى لا يحسب الشيخ المفتاتي أن ابن الخطيب هارب إليه من ذلك السلطان .

على أي الأحوال لا يسم الإنسان إلا أن يأسى لحال هذا الرجل الموهوب وهو يعاني ما قدرت عليه ظروف حياته النكدة من آلام ومخاوف وتطامنٍ عن قدره عليه يظفر بأمانٍ كان إذ ذاك محلاً .

في ظروف كهذه لا تتطلب من ابن الخطيب التفاتاً إلى خصائص طبيعية أو ظواهر جغرافية ، بل أننا نكلمه شططاً إذا انتظرنا منه أن يصف لنا في دقة ما رأى وما شهد ، فقد كتب هذه الصفحات ليعرض على هذا الشيخ مثلاً من بلاغته وعلمه الواسع ، ثم لكي يُفرغ عليه وعلى قبيلته وأصحابه وكل من يلوذ به مدحجاً بالغاً يفتح له قلبه وقلوبهم ويقيم له بينهم مكاناً آمناً ، ومن

ثُمَّ فهو يطري كل شيء اطراجاً يجاوز الحد المقبول ، فالشيخ عامر بن محمد ابن على المحتناني : « عميد تلك البقعة وشاه تلك الرقمة ، صدر هذه الحدود القصوى ، المتميز بالرجاحة والرأى والسياسة . . . » وقربه ومتبوعه وحارس المجاز إلى منازل هناتاته عبد العزيز بن محمد المحتناني « صنوه وحافظ شيعته ، وقسمه في قعسأء عزته ، الحسنُ الوجه ، الراجحُ الواقار ، النبيه المركب ، الملوكي البزة ، الظاهرُ الحباء . . . » والطريق إلى منازل هناتاته جليل يشرح الصدر رغم صعوبة اجتيازه : « ولما بلغنا درج الجبل ، وانتهينا طريقه من السفح ، وهى ترکب ضفة الوادى الملتئف بعادي شجر الحور والطرفاء وشجر الخلاف والدردار ، وأمعنا كابدنا عتناً في اقتحام الوادى ذى الجريمة الكثيرة الصعب ، المسورة المد ، العظيمة التيار ، الجھولة الحاض ، ونقتجم منه أزرق شفافاً عن الحصباء ، كثير الجلبات ، أملس الصفاح ، لذاع البرد ، عبرناه نحواً من ثلاثين مرة في أماكن يتخللها الدّوح ، ويعظم الرّيْع ، وتختصر الحرباء ، وتسمو عن جانبها الجبال الشم ، والشعبات التي تزل بها العصماء ، وتفضى دروبه إلى أغوار فسيحة ، وأجواء رحيبة ، يكتنفها العمران ، ويوج بها السنبل » .

و محل سكنا عبد العزيز بن محمد المحتناني ومضارب خيماته هي الغاية في المجال والرواية : « وصعدنا الجبل إلى حلة سكانه ، المستندة إلى سفح الطُّوْد ، وقد هيأ ببعض السهل الموطن للإعمار بين يدينا من المضارب كل سائى العياد ، بعيد الطنب ، سوى القامة ، مقدر التفاصيل ، بديع النقش والصنعة ، ظاهر الجدة ، مصون عن البذلة ، بطلالٍ من مراتب الوطاء الرفيع ، ولحف الحرير ومساند الوشي ، وانطاع منعفر الجلد ما تضيق عنه القصور المحجبة والأبهاء المنضدة » .

ويتصل بهذا المعنى أن ابن الخطيب يصف ما قدم له من الطعام في تفصيل طويل فيه مبالغة ظاهرة ، فإن من يقرأ هذا الكلام بحسب ابن الخطيب لم يشهد قبل هذا ولية كهذه أو خواناً من هذا الطراز ، وهذا أمر لا يجوز

في خلد أحد ، فقد كان الرجل أندلسيًا خلا وزيراً خطيراً من سئمت نفوسهم هذه الموائد فضلاً عما يقوله من «وقوع البهت» لدى رؤيتها .

ويشعر القارئ وهو يتنقل بين صفحات هذه الرسالة أن ابن الخطيب حقق ما رجاه من كسب ود أولئك السادة المحتاتين والاطمئنان إلى أن له مكاناً في جبلهم «الذى يعصم من الطوفان ، ويواصل أمنه بين النوم والاجفان» كما قال هو بنفسه في رسالته التي أوردنا طرفاً منها ، فقد انشرحت نفسه بعد ذلك ومضى يصف ما يمر به في تؤدة وتدقيق ، شأن خلي الباب صافى النفس ، وهنا — أى بعد الوصول إلى جبل هنتاتة — يبدأ الجزء العظيم القيمة من هذه الرسالة ، ولكنها قيمة تاريخية في الأغلب ، لأن طريق العودة إلى مراكش كان حافلاً بمشاهد العبرة التاريخية ، فهناك الموضع الذى لجأ إليه السلطان أبي الحسن على بن عثمان بن عبد الحق المريني ومات فيه بعد ما كابد من أحوال المزيمة في الأندلس وقيام ابنه أبي فارس عنان عليه ، وهناك مسجد المهدى بن تومرت وضريحه في تينملل وما إلى ذلك من المواقع التي تثير شجون الذكريات ، وفي هذا الغم من العبر اندفع ابن الخطيب مع عباب التاريخ فلم يترك للجغرافية إلا القليل ، ولكن هذا القليل جيد يعود بنا إلى خولة ابن الخطيب في مقدمتي «الاحاطة» و «المحة» . ومن أجود أمثلة ذلك كلامه عن أغمات بجزئيها : أغمات وُريكة أو أوريكة وأغمات هيلانة أو عيلان أو إيلان . وأغمات كما يفهم من السياق لفظ بربى قديم يراد به سياج المدينة البدائية المعروفة بالكرال Kraal وهى أقدم طرز المدن البدائية ، وكانت هاتان الأغمانتان (أو السياجان) تقعان إلى جنوبى مراكش كأنهما ربضان أو ضاحيتان لها . وقد زار ابن الخطيب أغمات بعد أن خطت فى سبيل المدن خطوات فأنشئت فى كل من جزئيها قصبة أى حصن وجامع . ووصف ابن الخطيب لهاتين البلدين فى غاية الأهمية فى هذا الباب ، فهو يريينا نموذجين لبلدين بدأتا سياجين لقبيلتين ثم سارتتا فى طريق المدن دون أن توفيا على الغاية لسبعين

رئيسين ، الأول عداء ما بين القبيلتين والثاني قربها من مدينة كبيرة رئيسة هي مراكش ، ولو لا تكلف ابن الخطيب في اختيار الفاظه ووصف عبارته لكان هذا الوصف نموذجاً بدليعاً لوصف بلد صغير عند جغرافيينا .

وما دمنا بقصد هذه الفقرة العظيمة الأهمية بالنسبة لمن يدرسون المدن وقيامها وتطور نظمها — وهي دراسة حضارية مشتركة بين الجغرافية والتاريخ والمجتمع والسياسة — فهابنا فقرة أخرى أوردها ابن الخطيب بعد ذلك بصف لينا مدينة في طور الـكـرـالـ ، أى في الطور الأول لنشؤها ، أى وهـي مجرد حوز مسـوـرـ تـضـعـ القـبـيـلـةـ دـاخـلـهـ حـصـادـ مـحـصـولـهـ وـنـسـاءـهـ وـالـضـنـونـ بـهـ مـاـشـيـهـاـ وـسـلـاحـهـاـ وـيـلـجـأـ إـلـيـهـ رـجـالـ الـقـبـيـلـةـ لـتـحـصـنـ بـهـ فـيـ أـوـقـاتـ الـحـرـوبـ .ـ وـابـنـ الـخـطـيـبـ يـسـتـعـمـلـ هـنـاـ مـصـطـلـحـاـ عـرـبـاـ يـقـابـلـ الـأـغـمـاتـ أوـ الـكـرـالـ فـيـقـولـ «ـالـسـوـرـ»ـ أـوـ «ـالـجـمـعـ»ـ أـوـ «ـالـجـامـعـ»ـ وـفـيـماـ يـلـيـ نـصـ هـذـهـ الـفـقـرـةـ الـتـىـ نـعـتـقـدـ أـنـهـاـ فـرـيـدـةـ فـيـ بـابـهـ بـالـنـسـبـةـ لـتـارـيـخـ الـمـدـنـ :

«ـ ثـمـ سـافـرـنـاـ مـنـهـ إـلـىـ سـوـرـ مـوـسـىـ مـنـ بـجـامـعـ دـكـالـةـ ،ـ وـهـوـ حـلـقـ ذـوـ شـرـفـاتـ وـأـبـرـاجـ ،ـ بـادـىـ الـإـتـلـامـ وـالـتـشـعـيـثـ غـيرـ حـرـزـ الـفـلـقـ بـجـهـلـ هـذـهـ الـأـمـةـ الـمـصـحـرـةـ بـالـتـحـصـيـنـ ،ـ وـهـوـ بـعـضـ مـاـ يـلـجـأـ إـلـيـهـ أـهـلـ هـذـاـ الـوـطـنـ الـمـتـكـافـعـ الـعـارـةـ ،ـ الـجـمـ الـمـاـشـيـةـ ،ـ الـمـنـبـتـ الـخـلـلـ ،ـ الـفـاـصـ عـلـىـ اـنـفـسـاـحـ مـدـاهـ بـالـرـاغـيـةـ وـالـثـاغـيـةـ وـالـصـاهـلـةـ وـالـنـاهـفـةـ ،ـ الـبـالـغـ عـدـدـ أـزـواـجـهـ لـاثـارـةـ الـأـرـضـ وـمـعـالـجـةـ الـحـرـثـ ،ـ ثـلـاثـةـ آـلـافـ زـوـجـ مـنـ أـزـواـجـ الـثـيـرـانـ تـثـيـرـ أـرـضـهـ وـتـعـالـجـ حـرـثـهـ ،ـ يـتـحـرـمـ بـهـ عـنـدـ الـغـارـةـ الـشـعـوـاءـ الـمـصـمـلـةـ يـطـرـقـهـمـ بـهـ عـدـوـهـمـ مـنـ بـنـيـ الـحـارـثـ وـأـحـلـافـهـمـ مـنـ سـكـانـ السـهـلـ وـالـجـبـلـ فـيـسـدـ عـنـدـهـاـ »ـ .ـ

ونخت الكلام عن هذه الرسالة الفذة لابن الخطيب بعبارة أخرى ذات قيمة خاصة بالنسبة لمن يدرسون تاريخ المدن في عالمنا الإسلامي ، أئـهـاـ تـدـورـ حـولـ مـشـرـوعـ إـنـشـاءـ مـدـيـنـةـ وـالـأـسـبـابـ الـتـىـ حـفـزـتـ النـاسـ عـلـىـ الـعـمـلـ عـلـىـ إـنـشـائـهـاـ وـلـمـاـذـاـ اـسـتـجـابـ السـلـطـانـ لـرـغـبـهـمـ ،ـ وـالـقـوـاعـدـ الـتـىـ سـارـواـ عـلـيـهـاـ فـيـ اـخـتـيـارـ مـوـضـعـ الـمـدـنـ

وما إلى ذلك . ويلاحظ أن المدينة لم يتم إنشاؤها بسبب موت السلطان الذي فكر في اختطاطها ، وهو أبو عنان فارس المربي المتوفى سنة ١٣٥٨/٧٥٩ ، وهذه في ذاتها حقيقة تتعلق بتاريخ المدن عندنا ، وهي أنها كانت في أحياناً كثيرة تقوم وتحتفظ ببعض رغبات السلاطين . قال ابن الخطيب :

« وقد كان رُفع إلى السلطان المُعرَّى بالبناء وتخليد الآثار أبي عنان رحمه الله ، خَبِرُ ما عليه . الناس من إخافة عدوهم ، واهتمام عَرَصَتْهم واستهداف عقوتهم ، فأمر بارتياح محل لتأسيس مدينة ، فاختيَرَ على غلوات منهم ، محل أرضه صخر منطبق على تراب ، يتأتى فيه اتخاذ الحندق غير معلوم الشفا ، بعيد المأوى ، يبني السور بما يخرج منه من الثرى ويصون الأطباق المعدة للآخران عن أضرار السماء ، ويكون سطح الأرض على نفس قامات من منبع الماء . فشرع في البناء واستبعد الفضاء ، ومُمْلأَت الأبواب العديدة ، والأبراج المشيدة . وعاق عن إتمامها هجوم جَاهِمه وانصرام أيامه ، فرغب أهله في التنبية على تكيل نقيصته واحتياز حسته » .

إلى هنا نقف بالكلام عن ابن الخطيب الجغرافي ، وكان ينبغي أن نقف كذلك بالكلام عن الجغرافية في الأندلس ، فقد كان ابن الخطيب كما قلنا خاتمة الفحول من أهل الفكر في ذلك البلد ، وجاذبه الجغرافي يعين لنا بالفعل نهاية الفحولة والابتكار والتجويد في تاريخ العلم الجغرافي هناك ، ولكن لا بد لنا قبل أن نضع القلم من أن نقول كليتين عن كتاب الجغرافية والتاريخ المجهول المؤلف الذي أشرنا إليه قبل ذلك .

وبحسب القول في سهم ابن الخطيب في ثورة الجغرافية الأندلسية أنه سهم وافر ساقه الله على لسانه عن غير قصد ، ولكنه أجاد فيه ، بل كانت مقدماته الاحاطة والمحة البدريّة من أحسن ما كتب ابن الخطيب عموماً ، وفي مقاماته شوارد وأوابد تُجمَع بالصبر والتدقيق في النصوص ، ووصف رحلته دون شك يدخل في حصاد الجيد من أدب الرحلات في الأندلس .

## جغرافية الأندلس وتأريخه لمؤلف مجهول

هذا الكتاب مخطوطٌ محيرٌ محفوظ في الخزانة العامة في رباط الفتح<sup>(١)</sup> ، وهو مخطوط جيد لم نجد صعوبة كبيرة في تحقيق الجزء الجغرافي منه تمهيداً لنشره في القريب ، ولكننا لم نستطع رغم المطالعة المتصلة أن نصل إلى مؤلفه ، ثم إننا تخيّرنا في عصر هذا المؤلف وأصله ، فإن الإشارات التاريخية الواردة في صلب مواد القسم الجغرافي منه لا تتناسب مع عصر الخلافة ، وقسمه التاريخي كذلك يقف عند خلافة هشام المعبد آخر خلفاً . بني أمية في الأندلس ، ولكن صفحات العنوان تقول بعد البسمة : « ذِكْرُ بلاد الأندلس وفضلها وصفتها وذكر أصنافها ومدنها وجبالها وأنهارها ومجائبها وما خصت به من الفضائل والبركات والجوائز والمعادن والأشجار والنبات ؟ وذِكْرُ من نزلها من الأمم والملوک من بعد الطوفان إلى أن فتحها الإسلام ؛ ومن ولها من أمراء العرب بعد الفتح ، ومن ملوكها من خلفاء الأمويين والموهدين العلوين ، وذِكْرُ الدولة العاصرية القائمين بدولة هشام المؤيد بها ، وذِكْرُ الثوار المغاربة عليها بعدهم ، ومن ملوكها من ملوك المرابطين والموحدين وبني مرين وبني هود وبني نصر وبني اشقيقولة ، والله سبحانه المعين لا رب غيره » ، ومعنى هذا أن مؤلف الكتاب عاش في العصر الغرناطي أو بعده ، وهو أمر لا نجد ما يؤيده في النص نفسه .

ويهمنا هنا أن نذكر الحقائق الرئيسية المتعلقة بطبيعة هذا الكتاب وبنائه ومادته ، لأن هذا هو الذي يدخل في نطاق هذا البحث ، وأملنا لا زال قوياً في التعرف على صاحبه :

(١) نحن مدینون في الحصول على نسخة مصورة من هذا المخطوط القم لإخواننا المشرفين على الخزانة العامة في الرباط وخاصة الأستاذين إبراهيم الكتاني وعبد الله الرجراحي ، وهذا حقيقة مننا بكل شكر . وقد يسر لى الحصول على النسخة المصورة أخي الدكتور محمود على مكي مضيقاً بذلك فضلاً جديداً إلى سوابق عوارفه .

١ — أول ما نلاحظه أن مادة الكتاب جغرافية تاريخية ، فهو يحرى إذن من حيث بنائه على تقليد الجمع بين الجغرافية والتاريخ الذي جرى عليه معظم الجغرافيين والمؤرخين الأندلسيين ، ولكن مؤلف الكتاب ارتد إلى القاعدة الأولى التي وضعها أحمد بن محمد الرازي وهي إيراد المادة الجغرافية أولاً ثم التاريخية بعد ذلك ، ومن هنا فإن كتابنا هذا ينقسم قسمين منفصل أحدهما عن الآخر تمام الانفصال حتى ليبدو كتابين ، فالجغرافية قائمة بذاتها ويليها التاريخ سرسل في نسق واحد ، ولا نجد في القسم الجغرافي إلا أقل الإشارات التاريخية ، وكذلك القسم التاريخي يخلو من الجغرافية تماماً .

وتلك هي الطريقة التي سار عليها أحمد بن محمد الرازي ، فكأن المؤلف احتداه وصار على طريقه ، وهذا واضح يؤيده النص ، فإن المؤلف لا يزال يقول في قسمه التاريخي : « قال صاحب التاريخ » فإذا جاء إلى سنة ٩٣٦ هـ . قال : وفي هذه السنة توفي « صاحب التاريخ » فلم يرده به إذن الرازي لأنه توفي بالفعل في تلك السنة ( ٩٣٨ م ) .

وإذن فهذا الكتاب — إلى تلك السنة على الأقل — ملخص لكتاب الرازي ، وهذا واضح تماماً من مادة قسمه الجغرافي ، فهو نقل من الرازي أو اختصار لكلامه مع زيادات كثيرة . ومن أسف أن الخطوط لا يبدأ بصفحات الكتاب الأولى ، وقد كان من الممكن أن تعيننا على معرفة مؤلفه وشئ عن طبيعته .

وهذه العلاقة الوثيقة بين القسم الجغرافي من هذا الكتاب وجغرافية الرازي تجعل له أهمية خاصة ، فهو من الأصول التي نعتمد عليها في إعادة تكوين هذه الجغرافية الهامة ، وسنؤيّد هذه الناحية حقها في الدراسة الخاصة التي سنقدمها بين يدي تحقيقنا للنص .

٢ — إن المؤلف ليس مجرد ناقل أو موجز وإنما هو رجل عارف بما يكتب مطلقاً على أحوال الأندلس ملماً بتاريخه ، وعنه تصور سليم لهياته ،

فهو يقول في فقرة من الفاتحة مبشرة البداية : « ... ثم طرطوشة ثم برجلونه ثم بجحانة ثم [لفظ غير واضح] والمرية ثم غربنطة ثم جيان ثم اسجه ثم ابلة ثم الخضرا ثم مالقة ثم قرطاجنة ثم برجلونة ثم بيونه ثم قشتيله ثم جليقية ثم شامنكه ثم طبيرة (الأصح هنا طلبرة) ثم تطالية (تطيلة ؟) ، ومدينة تطالية وهي آخر بلد الأندلس شرقاً على حد بلد الأفريقي ، ومدينة تطالية وهي آخر بلد طركونة هي آخر ما فتح الإسلام بالأندلس ، وإليها انتهى ملك المسلمين . وأما المدن المتوسطة مثل شريش وقرمونة وبسطة وطلياطة وأباده وببايسة وباجة وكبتوه وأرجونة وقَيْجَاطة وطريف فما يحد عددهم الحصر » . وواضح أن هذه الفقرة تتكلم عن مدن الأندلس وترتبها بحسب الأهمية ، ولا يكتب مثل هذه العبارة إلا من عرف الأندلس معرفة طيبة ، وفي كلام المؤلف بعد ذلك ما يؤيد أنه أندلسي من العصر الغرناطي المتأخر .

٣ - ويعتمد المؤلف في مقدمات القسم الجغرافي على طائفة كبيرة من المؤلفين مثل ابن خرداذة وابن بشكوال وابن سيده والحسن بن محمد بن مفرج وغيرهم إلى جانب أحمد بن محمد الرازى وهو مرجعه الأكبر . والفترات التي ينقلها عن هؤلاء فترات هامة نجد الكثير منها في نقول المجرى وغيره ولكنه ينفرد ببقيتها ، ومعنى هذا أنه يقدم لنا مادة تسد فراغات واسعة فيما بين أيديينا مما كتب الأندلسيون عن جغرافية بلادهم .

٤ - وأولى فصول المقدمات ذلك الذي يدور على « فضل الأندلس وما نُقل في شأنها وفضلها من الأحاديث الواردة » وقد نقل المؤلف هذا الفصل كله عن أبي القاسم بن بشكوال وأضاف إليه أشياء قليلة ، وهو يورد لنا شيئاً كاملاً بكل الأحاديث النبوية التي تتحدث عن فضل الأندلس ، وكلها أحاديث موضوعة طبعاً ، ولكنها تعطى فكرة عن نظرية واضعيفها إلى بلدهم وفضائله . ومن المعروف أن هذه الأحاديث مشتركة بين الكثير من بلاد الإسلام ، أي أن أهل كل بلد يعدون الحديث وينسبونه إلى بلادهم ، ولكن الغريب أن

محدثين ناقدين عارفين بالجرح والتعديل مثل ابن بشكوال يوردون هذه الأحاديث أى يقولون بصحتها وهم أعرف — فيما نحسب — بمواعدها من الصحة والسلامة ، ولكن حب الوطن يغلب على قواعد العلم عندهم ، وهي نزعة عاطفية تجعلنا نقرأ مثل هذا الفصل بشعور عميق من التقدير بصرف النظر عن الصحة أو عدمها في هذه الحالات .

ويدخل في باب الفضائل هذا ذِكر ما يمتاز به الأندلس من المحاصيل والمعادن والخيرات وما إلى ذلك ، مما يدخل في صميم المعلومات المغرافية .

٥ — إن القسم الجغرافي من الكتاب ينتهي بفقرة عن « نزلها من الأمم والملوك بعد الطوفان إلى أن فتحها الإسلام ». واضح أن مثل هذا الفصل يدخل في باب التاريخ ، ولكن الرازي اعتبر ما وقع من الحوادث قبل الفتح الإسلامي جزء من المقدمات العامة وأدرجها في المغرافية على اعتبار أن التاريخ الحق يبدأ مع الإسلام ، وهي ظاهرة جديرة باللاحظة نجد شبيهًا لها في موقف العلم الحديث من عصور ما قبل التاريخ ، فهناك من يعتبر دراسة هذه العصور داخلة في العلم الجغرافي وهناك من يرى أنها من التاريخ ، وهناك من يرون أنها أدخلت في الأركيولوجية أى الآثار ، وعلى هذا الاعتبار نستطيع القول بأن مؤلفينا كانوا يعتبرون ما قبل الإسلام عصرًا ما قبل التاريخ ، وهي حقيقة طريفة جديرة بأن يشار إليها .

٦ — وقد أحصى المؤلف حديث العجائب وجعله كله في فصل واحد من فصول المقدمات ، وفرغ بهذا المادة الجغرافية الصرفة بعد ذلك .

٧ — وبعد هذه الفصول التقديمية يبدأ القسم الجغرافي الحقيقى من الكتاب ، والمؤلف يجعل عنوانه : « الخير عن بلاد الأندلس على التفصيل مدينة بعد مدينة ، وما اختصت به كل مدينة من الفضائل والحسن » ويبدأ بعبارة يذكر فيها مراجعه أو بعضها : « قال المؤلف عفان الله عنه : ذكر أحمد بن أبي الفياض والدلائى ( أى العذري ) وابن القوطية وابن حيان والرازي

وابن مزين والمزنى وابن الزقاق وغيرهم مما (كذا) عن ب تاريخ الأندلس أن المعمور من الأرض مقسم على سبعة أقاليم ...» وبعد سطور قليلة من التقديم يأخذ في الكلام عن المدن بادئاً بقرطبة ، والفصل الذى يخصصه لها وجماعتها ولأقاليمها هو دون شك أولى ما لدينا عن تلك العاصمة الأندلسية الكبرى ، فهو يقع فيها تزيد على سبع ورقات ، ولو لا طوله لأوردته هنا على تواليه . ولهذا فسنكتفى الآن بإيراد النقط التى يتكون منها هذا الفصل الطويل عن قرطبة ليأخذ القارئ فكرة عن أهميته وقيمة : مقدمة قصيرة عن قدر قرطبة وفضالها — بعض غرائبها — فقرة من كلام الرازى عنها — فقرة من كلام العذري — فقرة لابن حيان — بعض أبعاد قرطبة — مدة بقائهما فى حوزة الإسلام : من ٩٢ هجرية إلى ٢٣ شوال ٦٢٣ — وصفها العام وأرباضها — احصاء دورها ومساجدها وقصور الخلفاء بها — اضمحلالها — وصف جامعها بتفصيل — أقاليم قرطبة .

وهذه المادة الوافرة التى يأتينا بها المؤلف عن عروس مدائن الغرب الإسلامي تستوقف نظرنا من ناحية هامة جديرة باللحظة ، وهى أن المؤلف يصف البلد كأنه لا يزال قاماً كاملاً كما كان في أيام أوجه ، مع أن قرطبة في أيامه كانت قد خرجت من دار الإسلام بعد أن مرت بعصر اضمحلال طويلاً نتيجة للمحن التي عبرت بها ، ولكن المؤلف لا يذكر عن ذلك شيئاً ، لأن إحساسه بالزمان و فعله قليل ، وما دام ابن بشكوال قال إن قرطبة وصفها كذا وكذا فلا بد أن يورد وصفها على هذه الصورة ولو بعد ألف سنة ، وهذا ناشيء من تلاشى البعض الزمني عند كتاب العصور الوسطى ، فإن الزمن عندهم مفهوم غامض معقد شرير ، فبالنسبة للأحياء يعتبر الزمن هو الموت ، وبالنسبة للتاريخ لا محمل للزمن إلا تخريب ما هو قائم ، فإذا قامت دولة فلا بد أن تبلغ أوجها ثم تنحدر ، لا لأن هذا له أسبابه بل لأنه فعل الزمن الذى لا مفر منه ، وإحساسهم بالأطوال الزمنية قليل فيستوى عندهم القرن والقرنان ، ومن ثم فهم لا يستغرون

حكاية شجرة تزهر وتشمر ويؤكل ثمارها في ليلة واحدة وهذا موضوع طويل نرجو أن نكتب فيه شيئاً يوماً من الأيام ، والمهم لدينا هنا أن قرطبة بقيت في أذهان المسلمين في صورتها أيام عبد الرحمن الناصر بدون تغيير . نعم إنهم يقررون في بعض الأحيان أن التهدم والتخريب نال منها ، ولكنهم عند ما يصفونها يصفونها في صورتها الحالية التي لم تتغير .

ولا تتضح الأهمية الحقيقية لهذا الفصل إلا إذا نشرناه كاملاً مع ما لا بد منه من التعليق والتفصيل ، ولكن يكفي أن نقرر الآن أن مؤلف الكتاب جمع فيه مادة وافرة جداً من كلام ابن الفرضي وابن حيان والعذرى وابن بشكوال ، وهذا الأخير هو معتمده الأكبر عن قرطبة ، وواضح أن المؤلف اعتمد على كتابه الخاص بها الذى أشرنا إليه في حديثنا عن الجانب الجغرافي من ابن بشكوال .

أما المواد المخصصة للمدن الأندلسية الأخرى فقصيرة في مجموعها ، ولكنها غنية بالمادة النافعة ، وفي أحيان كثيرة تنفرد بأشياء لا تجد لها في غير هذا الكتاب . وعلى سبيل العلم فحسب نورد أسماء المدن التي يتكلم عنها بعد قرطبة : قبرة ، أبنة ، حيانت ، طليطلة ، الأشبونة ، قنطرة السيف ، شنترين ، شلب ، بطليوس ، برقال ، باجة ، ماردة ، شنتبرية ، كورة مدينة الفرج ووادي الحجارة ، لبلة الحمراء ، اشبيلية ، مورور ، شدونة ، حصن روطة ، جزيرة قادس ، الجزيرة الخضراء ، ريه وهى مالقة ، كورة تاكرنا ، مدينة البيرة ، اسجه ، سرقسطة البيضاء ، افراغ ، لاردة ، طرطوشة ، دانية ، مرسية ، طركونة ، برباته (كذا) ، بلنسية ، تطليقة (?) ، شاطبة ، بسطة ، طلياته ، المرية .

وجملة القول في هذا الكتاب أنه جمع وتأليف من مصادر شتى ، وهو يجري في ذلك على سنن التقليدين من الجغرافيين ، أي الذين يأخذون على الدرب المطروق كما بدأه أحمد بن محمد الرازي من تقديم عام لشبه الجزيرة ثم

الكلام عن مدينة مدينة أو كورة كورة مورداً في كل فقرة ما يتيسر من التقول دون أن يضيف من عند نفسه شيئاً جديداً . وهذا لا يعني أن الكتاب قليل القيمة إذ الواقع أن قوله عظيمة الفائدة ، فقد كانت بين يديه مراجع وأصول شتى ضاع الكثير منها .

ولكنه بصورته تلك لا يعيّن تقدماً أو تجديداً في طريقة الدراسة أو أسلوب المعالجة ، ولا نعثر فيه على شيء شخصي ذي قيمة كهذه المميات التي وجدنا عند الكثيرين من ذكرناهم وأآخرهم ابن الخطيب ، وهذا هو الطبيعي والمعقول ، فقد توفي ابن الخطيب سنة ٦٧٤ / ١٣٧٤ أثناء الحكم الثاني لشامن سلاطين بنى نصر أبي عبد الله محمد الغنى بالله ، وهو — رغم اضطراب أيامه واستمرار تدهور الدولة على عهده — آخر كبار سلاطين بنى نصر ، وليس لدينا بعده إلا حكم صغار ضعاف أسرعت الدولة أيامهم إلى النهاية . ولم يظهر بعد ذلك في الأندلس من يداني ابن الخطيب أو يقارب أحداً من الفحول الأول ، وخلال القرن ونيف الذي بقى من عمر الأندلس الإسلامي لا نجد رجال الفكر إلا مقلدين للماضين وطاحنين إلى الوصول إلى مستواهم دون توفيق ، وكتاب الجغرافية والتاريخ هذا إنما نموذج من حصاد عصر الاحتضار هذا ، وهو على هذا الاعتبار نهاية مناسبة نقف عندها بالكلام ؟

حسين مؤنس

تم البحث والحمد لله

# ظاہرۃ تعریبیۃ فی المغرب أيام السعدیین

## مقدمة :

من الظواهر التي بروزت في عصر الدولة السعديّة : عهد أَمْهُد المنصور الذهبي وأَبْنَائِهِ ، ظهور طبقة من المترجمين ، كانوا يشتغلون — بالغرب على ضآلته عددهم — بنقل نصوص علمية ، من بعض اللغات الأوروبية الحية ، إلى اللغة العربية . وأَوْد — قبل الدخول في تفاصيل هذا الموضوع — أن أَبْنَاهُ إِلَى أَنْهُ وقع في غير العصر السعدي — أَيْضًا — اشتغال مغربي ببعض اللغات الأجنبية ، ويترجمتها إلى العربية ، وهذا ما يكتسي به التمهيد لهذا البحث فيما يلي :

ان اهتمام المغرب بهذه الناحية يكتسي ، من أيام الموحدين : على عهد يوسف الأول ، فإن هذا هو صاحب فكرة تعریب كتب أرسقو من اليونانية ، وباقترابه وضع أبو الوليد محمد ابن رشد الحفید القرطبي ، ما نقله من مؤلفات أرسقو الفلسفية<sup>(۱)</sup> .

ولم يخل العصر المربي من بعض أفراد يعرفون اللغة الإسبانية ، ويستخدمونها في نطاق الترجمة الرسمية لدى بعض ملوك بني مرين ، ولا يزال عدد المعروف من هؤلاء لا يتعذر أربعة :

الأول : عبد الحق الترجماني ، ترجمان السلطان يعقوب بن عبد الحق المربي<sup>(۲)</sup>.

(۱) انظر (عبد الواحد المراكشي : «العجب» مطبعة السعادة بمصر من ۱۵۹ ، محمد المنوني : «العلوم والأداب والفنون على عهد الموحدين» ص ۹۸—۱۰۱).

(۲) روض القرطاس ، طبعة فاس سنة ۱۳۰۵ھ ص ۲۶۱

الثاني : أبو العباس ابن الكهاد ، ترجمان السلطان أبي ثابت عامر بن أبي عاص عبد الله بن يوسف المريني<sup>(١)</sup> .

الثالث : يحمل اسم « مسعود » ، وقد كان ترجماناً لدى السلطان أبي الحسن المريني<sup>(٢)</sup> .

الرابع : عمر بن العجوز كان يقوم بالترجمة لدى السلطان أبي عنان المريني والظاهر أن هذا كان يتقن أكثر من اللغة الإسبانية ، حيث أنه محل بترجمان الخلافة<sup>(٣)</sup> .

واللغة البرتغالية — هي الأخرى — كان يتقنها أحد ملوك المغرب في العهد الوطاسي ، وهو محمد التراغلي بن محمد الشيخ الوطاسي ، ثانى ملوك هذه الدولة ، المتوفى سنة ١٥٢٤ هـ / ٩٣١ م ، قال الوزان الفاسى في كتابه : « وصف افريقيا »<sup>(٤)</sup> في صدد الحديث عن هذا الملك : « ولقب بالبرتغالي ، لأنه أسره البرتغال أيام أبيه في أصيلا ، ومكث عندهم سبع سنين ، ولما افتداه أبوه ورجع ، وجد يتقن البرتغالية ، فلقب بالبرتغالي » .

وإذا تخطينا عصر السعديين إلى العهد العلوى ، نجد السلطان اسماعيل بن الشريف ، يتخد أسيراً إسبانياً « برنار يوسى » لتعليم اللغة الإسبانية لاثنين من أولاده<sup>(٥)</sup> .

كأنه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر م برقت — بالغرب — بارقة للترجمة ، تحت رعاية السلطان محمد الرابع ، ثم على عهد ابنه الحسن الأول ، وقد تناولت تعریب بعض النصوص الأوربية الحديثة<sup>(٦)</sup> .

(١) « مجموعة حراسلات بين الممالك الإسلامية وملوك أراغون وكتلونية » ، طبعة مدريد سنة ١٩٤٠ م ص ١٦٢ — ١٦٣ .

(٢) المصدر الأخير ص ١٩٦ — ١٩٨ .

(٣) « فيض العباب ... » لابراهيم ابن الحاج التميري خ ، نسخة المكتبة الملكية بالرباط ، رقم ٣٢٦٧ ، ص ٣٥٠ .

(٤) « حياة الوزان الفاسى وأثاره » ص ١٣ .

(٥) « المتنزع النطيف في التلميح لما خلفه ملوك ملوك مولاي اسماعيل بن الشريف » مؤرخ مكتناس عبد الرحمن ابن زيدان ، أثناء الباب الرابع ، خ .

(٦) هذا الموضوع لا يزال بمحاجة إلى بحث على حدة ، وتوجد نتفة منه في « مظاهر بقضة المغرب الحديث » مجلة « تطوان » ، سنة ١٩٦١ ، العدد السادس .

وهكذا يتبيّن من هذا العرض المقتضب ، أن المغاربة اهتموا — قبل العصر السعدي — بدراسة بعض اللغات الأجنبية ، وبالترجمة عنها إلى العربية ولو أن ذلك قليل ، كما يتبيّن — أيضاً — وجود معلومات — وإن كانت محدودة — عن حركة الترجمة العلمية الواقعة أثناء كل من العصرين الموحدى والعلوي . وعلى عكس ذلك ، فإن حركة التعرّيف في العصر السعدي بقيت غير معروفة ، ومهمة هذا البحث ، هي محاولة الكشف عن هذه الظاهرة السعدية . ولنذكر ، أولاً ، أن مرد هذه الظاهرة يرجع إلى عدة مؤثرات أوجدها هذه الحركة التعرّيفية .

فهناك الحاليات المدجنة<sup>(١)</sup> التي تواجدت على الغرب بكثرة في هذه الفترة . وهناك الأسرى المغاربة وغيرهم ، من طالت مدة أسرهم ، حتى تعلّموا لغة البلاد المأسورين بها ، ثم عادوا من معتقلاتهم إلى المغرب . وهناك الاحتكاك الذي تضاعف — آنذاك — بين المغاربة والسيطرتين على بعض المواقع من شواطئ الوطن : من برلagal وإسبانيا .

وهناك التأثير بعض الشخصيات الغربية السامية ، مثل السلطان السعدي عبد الملك المعتصم ابن محمد الشيخ : فقد كان يفهم اللغة الإسبانية جيداً ويكتب بها وباللغة الإيطالية<sup>(٢)</sup> ، ومثل السلطان الوطاسي : محمد البرتغالي آنف الذكر<sup>(٣)</sup> الذي كان يتقن البرتغالية .

وسبب خامس وأخير : وهو محاولة المغرب للاستفادة من حركة الانبعاث بأوروبا ، والعمل على إيهام مغربي في بوادر النهضة الأوروبية الحديثة . وهكذا انتهى عن هذه المؤثرات الخامسة ، ظهور حركة تعرّيفية لمعت من المغرب السعدي ، ومن المؤسف أن لا يستطيع هذا البحث ، أن يقدم سوى

(١) المدجنون هم المساهمون الأندلسيون الذين لبوا تحت حكم المسيحيين المغلبين على بلادهم وقد كانوا كثيراً ما يضطرهم تفاقم الأوضاع إلى عليهم إلى الرحيل إلى بلاد الإسلام .

(٢) «المغرب الأقصى» مطبعة دار الطباعة الحديثة بمصر ، ص ٣٥ ، مجلة «تطوان» ، العدد السادس ، ص ١٤٦ و ١٥٠

(٣) راجع ص ١ من هذا المقال ، هنا وينبغي أن يذكر بعد الشخصيتين الساميتين : عبد الرحمن القطاواني الذي كان يتقن الأنجلizية والإسبانية ، ويقوم بالترجمة بها في بلاط المنصور السعدي . راجع مجلة «تطوان» عدد ٨

عدد ضئيل ، لا يتجاوز أربعة من رجال التعريب في هذا المهد ، قاموا بترجمة أربعة كتب ، ومع تفاهاه هذه الكلمة ، لا يسع الباحث إلا أن يشيد بها ويتقصى تفاصيلها .

## ١ - أبو القاسم الغساني :

هذا أول رجال التعريب الأربعـة ، وهو أبو القاسم بن محمد بن ابراهيم الغساني ، الشهير بالوزير ، الأندلسـي ثم الفاسـي ، ولد عام ٥٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م ، وبقي بقید الحياة إلى ما بعد عام ١٠٠٠ هـ / ١٥٩٢ م ، أما تاريخ وفاته فهو ١٠١٩ هـ / ١٦١١ م<sup>(١)</sup> ، عالم أدبـي طبـيب ، تفرد بمشيخة الطـبـ بفـاسـ وـ مـراـكـشـ ، وتـوـجـدـ تـرـجـمـتـهـ بـعـدـ مـصـادـرـ مـغـرـيـةـ<sup>(٢)</sup> ، وـمـنـهـ : « رـوـضـةـ الـأـسـ » ، العـاطـرـةـ الـأـنـفـاسـ ، فـيـ ذـكـرـ مـنـ لـقـيـتـ مـنـ أـعـلـامـ الـخـضـرـتـينـ : مـراـكـشـ وـفـاسـ»<sup>(٣)</sup> وهو اسم رحلة قام بها - في المدينتين - جامعاها أبو العباس أحمد بن محمد القرى التلمسـانـيـ ، نـزـلـ فـاسـ ، وـمـتـوفـ بـمـصـرـ سـنـةـ ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ مـ .

وفي هذه الرحلة يذكر القرى قصة اشتغال الغساني بالتـعرـيبـ ، ويقول : « وله جملة تـأـلـيفـ رـفـعـهـ إـلـىـ الـقـامـ الـأـحـمـدـيـ الـمـنـصـورـيـ الـعـلـوـيـ . . . . وـمـنـهـ « مـغـنـيـ الـلـبـيـبـ ، عنـ كـتـبـ أـعـدـاءـ الـجـيـبـ » ، وـذـلـكـ أـنـهـ قـدـمـ عـلـىـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ - الـنـصـورـ السـعـدـيـ - بـعـضـ أـكـاـبـرـ الـرـوـمـ ، فـأـنـجـفـهـ بـهـذـاـ الـكـتـابـ ، مـكـتـوبـاـ بـالـقـلـمـ الـأـعـجـمـيـ ، فـعـرـبـهـ الشـيـخـ أـبـقـاهـ اللـهـ ، وـجـعـلـهـ خـطـبـةـ ، وـزـادـ فـيـهـ زـيـادـاتـ وـأـسـماءـ بـاـ ذـكـرـ » .

(١) راجـعـ «ـ الـإـنـقـانـ وـالـاحـکـامـ ، فـيـ شـرـحـ تـحـفـةـ الـحـکـامـ »ـ وـهـوـ اـسـمـ شـرـحـ مـحـمـدـ بـنـ أـحـمـدـ مـيـارـةـ الـفـاسـيـ عـلـىـ رـجـزـيـةـ اـبـنـ عـاصـمـ فـيـ أـحـکـامـ الـقـضـاءـ «ـ التـحـفـةـ »ـ جـ ١ـ صـ ٤٤٢ـ طـبـعـةـ فـاسـ سـنـةـ ١٢٩٩ هـ .

(٢) راجـعـ عـلـىـ سـبـيـلـ الـمـثـالـ (ـ اـبـنـ الـقـاضـيـ : درـةـ الـحـجـالـ رقمـ ١٣٤٧ وـنـشـرـ الـثـالـثـيـ ، جـ ٤ـ)ـ .

(٣) نـسـخـةـ الـمـكـيـةـ الـمـلـكـيـةـ بـالـرـبـاطـ رـقـمـ ٢٠ـ ، وـهـيـ نـسـخـةـ وـحـيـدةـ كـتـوبـةـ بـخـطـ مـؤـلـفـهـ ، وـتـشـتمـلـ عـلـىـ بـعـضـ الـبـابـ الثـالـثـ وـالـبـابـ الثـالـثـ مـنـ الـكـتـابـ ، عـدـدـ صـفـحـاتـ الـمـوـجـودـ مـنـهـ ٣٢٦ـ . وـقـدـ طـبـعـهـ أـخـيـراـ بـالـمـطـبـعـةـ الـمـلـكـيـةـ بـالـرـبـاطـ .

إن هذه الفقرات ، تفيينا — بدون التباس — اسم مغرب اشتغل بالتعريب في هذه الفترة ، وتحدد عنوان الترجمة التي أنجزها ، كما تذكر أنه أضاف للنص الأصلي زيادات ، وهذا قد نستفيد منه بعض جوانب منهج الفساني في التعريب . وفوق هذا فإن هذه الفقرات تؤكد وجود الترجمة الفسانية ، لأنها تذكر أنها من مجلة التأليف التي رفعها أبو القاسم الفساني إلى المنصور السعدي . ثم إن المقرى يزيد القول تأكيداً بقوله :

« وفيه — يقصد « مغني اللبيب » — يقول — حفظه الله — مخاطباً أمير المؤمنين نصره الله ، ووافق ذلك الزمان ، قدوم البشير بفتح السودان :

هنيئاً لك المنصور دانت لك الدنا      وذلت لك الأملاك ذل الترهب  
فضضت ختاماً لم يفض لسابق      بفتح الزنوج والكتاب العرب

وهذا النص الأخير يزيد واقعية الترجمة الفسانية تأكيداً ، ويحدد تاريخها بعام ١٥٩٢ هـ / ١٠٠٠ م. حيث أن هذا هو تاريخ فتح السودان على المنصور السعدي .

هذا ويوجد بالخزانة الملكية ، مخطوط طبى يقع ضمن مجموع ، ويحمل رقم ٢٨٧٧ ، وهو عبارة عن قطعة مبتورة الطرفين ، وتنافل من ٢٦ ص ، ويهمنا من هذه القطعة أنها عند ما تذكر « العشبة الرومية »<sup>(١)</sup> تختتم الحديث عنها بهذه العبارة : « ونحن وقفنا عليها مصورة في الكتاب الرومي المعروف — تصحيف عن العرب — لولانا أبي العباس المنصور » .

وهذا الكتاب الرومي المعرب ، لا يبعد أن يكون هو « مغني اللبيب لأنه » هو الكتاب الوحيد المعروف — لحد الآن — تعريبه برسم أبي العباس المنصور السعدي .

وإذا ترجح هذا فهو يضاعف الأمل في العثور على الترجمة الفسانية في يوم ما . كما يفيد أن مادة الكتاب العربى هي الطب ، ويقرب هذا أن هذه المادة

(١) هي التي صارت تعرف بعد بـ « العشبة الهندية » نسبة للهند المغربية التي كان يقصد بها — إذ ذاك — أمريكا ، وهي موضوع الرسالة المعروفة بـ « النفحة الوردية في العشبة الهندية » تأليف عبد القادر بن العربي بن شقررون المكناسى ، مخطوطة في بعض المخطوطات الخاصة .

هي الفن الذي بُرِزَ فيه أبو القاسم الفساني حتى قال في «روضة الآس» : أنه تفرد بعلم الطب بالحضرتين : «فاس ومراڭش» .

ويقرب هذا أيضاً ما سجله أبو القاسم هذا في افتتاحية «حدائق الأزهار» من أن اهتمام المنصور السعدي بالطبع كان فوق كل اهتمام.

وبعد هذا نذكر أن المجرى لم يوضح اللغة التي نقل عنها الكتاب ، وأكتفى بالتصريح بأن الأصل مكتوب بالقلم الأعجمي ، وهى كلة تتسع لأكثر من لغة أجنبية ، على أنه لا يبعد أن يعني بها أحدي اللغتين : البرتغالية أو الإسبانية ، استناداً للمتقدم في صدر هذا البحث ، من وجود العارفين باللغتين — معاً — بالغرب ، وإذا كانت لنا أن نرجح أحدي اللغتين فهى البرتغالية ، التي يدو أنها كانت — آنذاك — أكثر استعمالاً بالغرب .

## ٢ - ابو محمد المسفيوي :

هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن الحسن المسفيوي البراكشي المولود سنة ٩٦٨هـ / ١٥٦٠مـ<sup>(١)</sup> ، وتاريخ وفاته مجهول .

أديب مشارك مع رسوخ في الطب حسبياً ورد في «روضة الآس» التي تثبت له «تعريفه لبعض الكتب الطبية».

إن هذه النقطة من المقرى تفيد — بوضوح — اسم مغرب ثان ، اشتغل بالتعريب — في هذا العصر — في مادة الطب ، وبعد هذا لا نستفيد شيئاً آخر عن عمل العرب في هذه الترجمة ، فلا نعلم اسم الكتاب المعرّب الذي لا يزال في حكم الفقدود ، كما لا نعرف خطته في الترجمة ، ولا اللغة التي وقع التعريب عنها . وفي خصوص هذه الملاحظة الأخيرة ، يمكن أن نقول : أن الكتاب المعرّب عن احدى اللغتين الآفاقي الذكر ، أو البرتغالية بالخصوص ، استناداً على ما ذكر

(١) له ترجمة وجيزة في « درة الحجـال » رقم ٣٥٦ ، وقد خلت في تاريخه وفاته على خلاف روضة الأسـن » التي توسيـت في ترجمـته ، وأورـدت له الكـثير الطـيـب من شـعرـه .

بصدق الترجمة الفسانية ، سينا والترجم المسفوي تلميذ للغسانى في فن الطب ، كما تسجل هذا «روضة الآس» .

### ٣ - الشهاب احمد الحجرى :

هذا ثالث رجال التعرّيب في هذه الفترة ، وهو أندلسي متمغرب ، حيث أنه أقام بال المغرب ما يزيد على ٣٨ سنة .

ولا توجد له ترجمة في المراجع المعروفة ، وما أكثر أمثلة من الذين ضاعت ترجمتهم ، وإنما يعثر بين الفينة والفينية على بعض موضوعاته التي توضح جوانب من حياته ، وهذه هي التي سنستعرضها — قبل الحديث عن عمل الحجرى في ميدان التعرّيب — لنحاول أن نستخرج منها ما يلقى بعض النور على ترجمة حياته ، ولهذا سيتسع الحديث عن حياته ، على عكس الواقع في المراجع السابقات حيث توجد لكل منها ترجمة — ولو محدودة — في مراجع متداولة .

إن أول آثار الحجرى ظهوراً ، هي فقرات من رحلته المعونة بـ « رحلة الشهاب ، إلى لقاء الأحباب » ، وقد وردت هذه الفقرات — كاملاً — في « زهر البستان ، في نسب أخوال مولانا زيدان »<sup>(١)</sup> لمحمد العياشى<sup>(٢)</sup> . وعن هذا المصدر نقلها المؤرخان : السيد عباس بن ابراهيم في « الإعلام » ، بن حل بيراكش وأئمّات من الأعلام »<sup>(٣)</sup> . مع محمد العبدى الكانوى في « جواهر الكمال ، في تراجم الرجال »<sup>(٤)</sup> ، كما أن اليفرنى في « ترفة الحادى »<sup>(٥)</sup> اختصر من تلك الفقرات ما نظمه بالمعنى وأورده من حفظه .

(١) توجد منه نسخ متعددة ، ومنه نسخة مخطوطة بالهزارة العامة بالرباط ، تقع ضمن مجموع يحمل رقم ٢١٥٢.

(٢) راجع ترجمة له في (ابن زيدان : اتحاف أعلام الناس ، ج ٤ ص ١٠٠ - ١٠٥) .

(٣) الجزء الثاني ص ٦٩ - ٧٢.

(٤) ج ١ ص ٨٧ - ٩٣.

(٥) طبع فاس ص ٩٩.

**الأثر الثاني :** قطعة من كتاب وضعه الحجري في الرد على المسيحيين واليهود ، وستتبين أن هذا الكتاب يسمى « ناصر الدين ، على القوم الكافرين » وتوجد كراسيس منه في حوزة الأستاذ المستشرق جورج كولان ، حيث وقف عليها الأستاذ الكبير محمد الفاسي مدير جامعة محمد الخامس ، وقد لخصها تلخيصاً وجيزاً في موضوعه « الرحالة المغاربة وآثارهم »<sup>(١)</sup> .

**الثالث :** ترجمة لكتاب في فن المدفعية ، قام بها الحجري وسماها : « كتاب العز والمنافع ، للمجاهدين بالمدافع » ، وستتحدث عن هذه الترجمة بعد ، بما أنها من صميم موضوعنا وينتمي الآن منها خاتمتها التي توجد في نسخة الخزانة العامة بالرباط ج ٨٧ ، وقد كتبها الحجري بقلمه ، وذيل بها الكتاب المترجم . وفي هذه الخاتمة نظفر بمعلومات قيمة جداً عن حياته ، فإذا أضفناها للمعلومات القليلة التي يعدها الآثار السابقان تكون قد اطلعنا على جوانب مهمة من حياة الحجري ، وهي التي سنستعرض هنا مشفوعة بالتوضيحات المطلوبة : إنه يقدم اسمه هكذا : أحمد بن قاسم بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي<sup>(٢)</sup> وهو يلقب بشهاب الدين وبآفوقاي<sup>(٣)</sup> . أما الجهة التي ينتمي لها من الأندلس فقد تقييد كلمة الحجري أنها قرية « أجر » الواقعة حوز غرناطة ، وهي التي يعتقد البعض أنها محرفة عن قرية الحجر<sup>(٤)</sup> .

ولا يعارض هذا ما في « رحلة الشهاب » من تصريحه بأنه — قبل هجرته لل المغرب — كان يسكن باشبيلية ، لأن هذه كانت من بين المدن التي صار إليها بقايا الأندلسيين باسبانيا بعد ما طردوا عن السكك في غرناطة وناحيتها<sup>(٥)</sup> .

(١) راجع مجلة « دعوة الحق » السنة الثانية ، العدد الثالث ، ص ٢٢

(٢) راجع كتابه « العز والرفعة » ، ورقة ١١٢ ب.

(٣) في « زهر البستان » قدم الفقرات التي نقلتها عنه هكذا : « في رحلة شهاب الدين الحجري الأندلسي المعروف بأفوقاي » واقتصر في « الصفو » على تلقينه بأفوقاي .

(٤) انظر ابن الخطيب « الاحاطة » ، في أخبار غرناطة « المجد الأول » ص ١٣٤ ، الطبعة الثانية .

(٥) قصة هذا الطرد أشار لها في خطبة « العز والرفعة » ، ورقة ١ ب.

وفي صدد حياته بالأندلس و Hegreه إلى المغرب ، يذكر أن أول ما تكلم به ييلاد الأندلس كان بالعربية ، ولما كانت محاكم التفتيش تعاقب كل من يقرأ العربية ، تعلم اللغة الإسبانية واقتصر في بادئ الأمر على دراسة ما يحتاج له للمخاطبة والمحاجة ، ثم خطرت له فكرة الهجرة إلى بلاد الإسلام ، ولكنه وجد أن بقایا الأندلسيين كانوا منوعين من الوصول للبلاد الشاطئية ، خشية أن يفروا منها إلى البلاد الإسلامية ، وهنا قر عزمه على التعمق في دراسة الإسبانية ، ليؤثر بثقافته العالية على الإسبانيين حتى يحسبوه إسبانياً أصيلاً ، ويُمكّنه الوصول للبلاد الشاطئية ، وهكذا اعتكف — سنتين — على دراسة الإسبانية حتى بز فيها

وقد نجح الحجري في تصميمه ، واستطاع أن يصل إلى إحدى بلاد الأندلس الشاطئية التي سافر منها تحت ستار إسباني إلى بلاد الإسلام<sup>(١)</sup>.

وكان سفره من مرسى « شنتمرин »<sup>(٢)</sup> على متن سفينة تحمل القمع للبريمحة « مدينة الجديدة الحالية » ومن هذه المدينة فر إلى داخل المغرب الأقصى ، فدخل مدينة آزمور واتصل بقائدها الذي كتب لمنصور الذهبي في شأنه ورفيقه الذي هاجر معه فأجابه بأن يستحضرها معه في حضوره لعيد الأضحى الذي كان قريباً ، وهكذا سار الحجري ورفيقه في صحبة قائد آزمور حتى وصلوا إلى محله سلطان المغرب التي كانت خيمة بتانسيفت بسبب وباء كان بمدينة مراكش ، وقد كان هذا الوباء في سنة ١٠٠٧ ، ومن هذا نعلم تاريخ اتصاله بالمنصور وسنة هجرته للغرب<sup>(٣)</sup>. أما عن حياته بالمغرب ، فيستفاد من بعض كلامه أنه استوطن مدينة مراكش طيلة مقامه بالمغرب<sup>(٤)</sup> ، وقد امتدت هذه الإقامة مقاً آخر سنة ١٠٠٧ هـ حتى سنة ١٠٤٦ هـ .

(١) العز والرفة ، ورقة ١١٦ ب ، ١١٧ .

(٢) شنتمرية الغرب ، وهي مدينة إسلامية قديمة ، من مدن كورة أشونبه ، وتقع جنوب غربى الأندلس ، وقد استولى عليها البرتغاليون نحو سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٣ م ، قال في الروض المعطار ص ١١٥ : « وشنتمرية على معظم البحر الأعظم ، سورها يصعد ماء البحر فيه فإذا كان فيه المد ». .

(٣) راجع : « جواهر الكنال ، في تراجم الرجال » ج ١ ص ٩٣ .

(٤) هذا يؤخذ من أول خاتمة « العز والمنافع » ورقة ١١٢ ب .

وهو يذكر — في اعتزاز — أنه كان ترجمانًا لدى السلطان زيدان بن أحمد المنصور السعدي سنين عديدة ، وكان — أيضاً — كاتبه باللسان العجمي « الإسباني » ثم قام بالترجمة عن السلطانين ولديه<sup>(١)</sup> الذين لم يسمها ، ولا شك أنه يقصد أبا مروان عبد الملك بن زيدان ، وأخاه الوليد بن زيدان ، وقد كانت مبادلة عبد الملك بعد وفاة زيدان الواقعة في المحرم عام ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٧ م ، ووفاته في ٦ شعبان ١٠٤٠ هـ / ١٦٣٠ م ، وفي نفس هذا التاريخ بُويع الوليد المتوفى في ١٤ رمضان ١٠٤٥ هـ / ١٦٣٥ م .

والحجرى يتحدث عن سفارة قام بها إلى فرنسا ، وكانت عن زيدان فيما يظهر ، وقد زار فيها باريس ، وبوردو ، والماهر ، وبعد قضاء مهمته في فرنسا أبحر إلى هولاندا ، ودخل أمستردام ولايدن ، ثم ذهب إلى لاهية ، واتصل بأميرها ، فطلب منه هذا الأمير أن يفصل له الكلام على طرد الإسبان للمسلمين من الأندلس ، فأجابه لطلبه .

وفي كل من فرنسا وهولاندا ، جرت له مناقشات دينية ، مع القسيسين والرهبان ، وأصحاب اليهود ، وهو في الرد على هؤلاء — جميعاً — يحتاج عليهم بالإنجيل والتوراة ، وقد درس ترجمتها بأوروبا لهذه الغاية ، واستعملها في مناظراته التي يذكر أنه وفق فيها مراراً عديدة<sup>(٢)</sup> .

وعدا اتصال الحجرى بملوك المغرب ، فقد كانت له علاقة ببعض علمائه ، حيث يذكر أنه أخذ علم النجوم بمدينة مراكش عن الفقيه أحمد المصيوب الفاسي<sup>(٣)</sup> ، كما يتحدث عن مجالسته لقاضي الجماعة بنفس المدينة عيسى بن عبد الرحمن السكتى<sup>(٤)</sup> « السكتانى » .

(١) « العز والمنافع » ورقة ١١٢ ب .

(٢) سفارة الحجرى بأوروبا ومجرياتها : ورد حديثها في « العز والمنافع » ورقة ١١٧ ، وفي التلخيص الوجيز لكتاب « ناصر الدين ، على القوم الكافرين » المشار له صدر هذه الترجمة .

(٣) التلخيص الوجيز لكتاب « ناصر الدين ، أما أستاذ الحجرى في الترجم فتوجد ترجمته في « صفوة من انتشر » من ١٠٤ وفى « الأعلام » ، عن حل بمراكم وأنعمات من الأعلام » ج ٢ ص ٨٣—٨٢ ، وقد سمى في المصادرين أَمْدَنْ بْنُ قَاسِمَ بْنُ الْفَقِيْهِ مَعْيُوبَ — بَالْعَيْنِ — الْأَنْدَلُسِيَّ .

(٤) « العز والرفعة » ورقة ١١٧ ، واطر ترجمة السكتانى في « نشر المثانى » ج ١ ص ٢٠١

وبعد هذا نذكر أن الحجري بعد إقامته الطويلة بالغرب سافر عنه لأداء فريضة الحج في تاريخٍ غير محدد بعد ، وهو يذكر عن سفره هذا أنه جاء من مدينة مراكش إلى قصبة سلا ورباطها — على حد تعبيره — وركب البحر هناك فحج وزار السيد الرسول صلوات الله تعالى عليه وعلى آله<sup>(١)</sup> ، ثم عرج في إيايه على مصر ، ومن اتصل به هناك عالمها الشيخ على (بن محمد بن عبد الرحمن) الأجهوري<sup>(٢)</sup> الذي أشار عليه بوضع كتاب عن مناظراته مع المسيحيين واليهود بأوربا ، فجمع تأليفاً في هذا الموضوع وسماه : « ناصر الدين ، على القوم الكافرين »<sup>(٣)</sup> وهو الذي توجد كارييس منه لدى المستشرق الفرنسي جورج كولان<sup>(٤)</sup> ، ويقع كتاب ناصر الدين في إثنى عشر باباً ، وقد فرغ من تأليفه ببصر يوم الجمعة ٢١ ربى الثاني سنة ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٧ م<sup>(٥)</sup> .

وهذا التاريخ قد يحدد سنة رحلة الحجري عن الغرب للحج ، إذا قدرنا أنه عاد من الحرمين الشريفين إلى مصر أثر فراغه من مناسك الحج والزيارة ، وهذا قد يؤيده حديثه عن رحلته للحج ، حيث لم يذكر أنه جاور بالحرمين الشريفين ، كما لم يذكر أنه أطّال إقامته بمصر ، وبهذا يقدر أنه سافر عن المغرب للحج في سنة ١٠٤٦ هـ / ١٦٣٦ م ، ويقرب هذا أن ثالث الملوك السعديين الذي قام بالترجمة عنه وهو الوليد بن زيدان إنما توفي في ١٤ رمضان سنة ١٠٤٥ هـ / ١٦٣٥ م ، ثم تبدلت الأحوال السياسية بالغرب أثر وفاته مما يظهر أن له دخلاً في اتجاه المترجم للبقاء المقدسة .

**وهكذا تتوضح سنة رحلة الحجري عن المغرب ، كما تتبين مدة إقامته**

(١) « العز والمنافع » ورقة ١١٢ ب ، وهنا نذكر أن الحجري يعني أن يتحقق بلازمة « حجاج الأندلس بعد سقوطها » وهو موضوع تناوله الأستاذ الكبير عثمان الكعاك ، وكتب عنه بحثاً في مجلة « الزريا » السنة الثانية : العددان ١١ و ١٢ وقد تحدث فيه عن الحاج المزروني .

(٢) راجع ترجمة الأجهوري في « صفة ما انتشر » ص ١٢٦

(٣) « العز والمنافع » ورقة ١١٧ ، ب .

(٤) انظر ص ٨ من هذا البحث .

(٥) التلخيص الوجيز لكتاب « ناصر الدين » .

بالغرب التي تزيد على ٣٨ سنة ، تبتدئ من أواخر عام ١٠٠٧ هـ إلى عام ١٠٤٦ ، ولا شك أنها مدة كافية لمغريته المترجم .

هذا وقد انتقل الحجري من مصر إلى تونس ، وقد أثار إعجابه بتونس واليها الداي أبو الحاسن مراد ، فتحدث عن سيرته ومنشأته الداعية<sup>(١)</sup> ، وفي مدينة تونس تعرف بأحد المهاجرين الأندلسيين<sup>(٢)</sup> وهو ابراهيم غانم الشهير بالإسبانية بالرياش بن أحمد غانم الأندلسي ، وأصله من تدشين من إقليم غرناطة ثم انتقل منها إلى جهة قرب مدينة غرناطة ، وهناك نشأ وأقام إلى أن أجل عنها — ضمن بقايا الوريسيين — إلى إشبيلية ، ولما أجل الإسبان هؤلاء من شبه الجزيرة هاجر إلى تونس التي وصلها أخيرات أيام الداي عثمان<sup>(٣)</sup> .

وقد أطلع ابراهيم غانم الحجري على كتاب وضعه في فن المدفعية باللغة الإسبانية ورغب منه أن ينقله إلى اللغة العربية التي يجهلها واضح النص الإسباني<sup>(٤)</sup> ، فاستجاب الحجري لهذه الرغبة الكريمة ، وقام — كاسيد كر — بتعريف الكتاب الذي فرغ منه في ١٠ ربیع الثانی سنة ١٠٤٨ هـ<sup>(٥)</sup> .

\* \* \*

تلك هي المعلومات المتصلة بحياة الحجري ، مقتبسة من موضوعاته الثلاثة المشار لها صدر هذه الترجمة ، مع ما انضاف لها من التوضيحات والتعليق . ولوسوء الحظ فإن هذه المعلومات تقطع أثناء مقام المترجم بتونس ، وبالضبط من عشر ربیع الثانی عام ١٠٤٨ هـ ، وبعد هذا لا ندرى هل بقى هذا بتونس ،

(١) « العز والمنافع » ورقة ١١٣ ب ، ١١٤ ب ، والدای مراد هو المعروف بأسطرا مراد ، وقد بويح بالولاية على تونس في ٢٣ ربیع ١٠٤٧ هـ . وكانت وفاته ليلة الأحد ١٨ ربیع الأول ١٠٥٠ هـ . ولداته ذكر في « الحال السندينية » ، في الأخبار التونسية » تأليف المؤرخ التونسي محمد الوزير خ . وكذا في المؤنس لابن أبي دينار ص ١٨٧—١٨٨ .

(٢) « العز والمنافع » ورقة ١١٢ ب .

(٣) المصدر الأخير ، ورقة ١ ب و ١٢ . أما الداي عثمان فقد توفي يوم الأحد ١٣ ربیع ١٠١٩ هـ . ودولته مذكورة في « الحال السندينية » و « المؤنس » ص ١٨١ ، ١٨٣ .

(٤) « العز والمنافع » ورقة ١١٢ ب .

(٥) المصدر الأخير ، ورقة ١٠٨ .

أو انتقل عنها ؟ وهل عاد إلى المغرب الأقصى ؟ وما هو نشاطه العلمي بعد تعریب الكتاب المذكور ؟ وما هو تاريخ وفاته ؟ وأين توف ودفن ؟ كل هذه أسئلة ستظل بدون جواب ما دمنا لم تقف على مصدر أو مصادر جديدة عن حياته .

ورغمًا عن هذا كله ، فإن المعلومات التي أمدنا بها موضوعات الحجري الثلاثة مفيدة جداً عن حياته ، ولو لاها لكان في عداد المجهولين .

### ١ - كتاب « العز والنافع » :

والآن وقد قدمنا - حسب الإمكان - حياة الحجري نقل الحديث إلى نشاطه في ميدان الترجمة ، ونذكر أنه قام بترجمة مؤلفين اثنين : أحدهما في فرن الدفعية ، والثاني في علم التعديل ، ومنها - فقط - يستفاد اشتغاله بالتعريب العلمي ، وسند رسماها - تباعاً - فيها يلى :

وفقاً لما ذكر آفأ ، قام الحجري بترجمة مؤلف إبراهيم غانم في المدفعية ، من الإسبانية إلى العربية ، ولما أتم هذه الترجمة سماها - باتفاق مع مؤلف الأصل الإسباني - : « كتاب العز والنافع ، للمجاهدين بالمدافع »<sup>(١)</sup> ، ومن حسن الحظ أن أبقى الزمان على هذه الترجمة التي توجد منها نسخ في المغرب والجزائر وفيينا وفي دار الكتب المصرية بالقاهرة<sup>(٢)</sup> .

وفي المغرب بالخصوص يعرف منه - حتى الآن - ثلاث نسخ : الأولى بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ج ٨٧ ، والثانية بنفس الخزانة وتقع آخر مجموع يحمل رقم د ١٣٤٢ وهي ناقصة من آخرها ، أما النسخة الثالثة فهي محفوظة بالسكنية الملكية بالرباط ، وتحمل رقم ٢٦٤٦

(١) هكذا ورد اسم هذه الترجمة « أبناء الحامة » ورقة ١١٥ ، أما العنوان الذي وضعه لها أول الكتاب فقد جاء هكذا : « كتاب العز والرفعة والنافع ، للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع » .

(٢) جاءت الإشارة لهذه النسخ الموجودة خارج المغرب ، في : « تاريخ آداب اللغة العربية »

ويأتي في مقدمة النسخ المغربية : مخطوطة الخزانة العامة التي تحمل رقم ح ٨٧ ، فهي - فيما يظهر - مكتوبة تحت إشراف المغرب نفسه الذي يوجد خطه في هوا منشأها بالإلحاد والتصحيف ، وهي - أيضاً - تنفرد بالخاتمة المكتوبة بقلم المغرب نفسه ، وبما يتبعها من الملحق .

ولهذا ستكون هذه النسخة هي معتمدنا فيها سنحاول من دراسة لهذه الترجمة ، كما كانت - سابقاً - مرجعاً لما اقتبسه منها هذا البحث عن حياة الحجري .

ان الكتاب يتناول فن المدفعية ، ويشتمل على افتتاحية ، وخمسين باباً ، وخاتمة ، وفي الافتتاحية يقدم معلومات عن حياته بالأندلس وتونس : فيتحدث عن أسفاره البحرية بين إسبانيا وأمريكا ، ومخالطته - أثناء هذه الأسفار - للمدفعيين الإسبان ، وحضوره مداولاً لهم المدفعية التي كانوا - في بعض الأوقات - يرجعون فيها إلى الكتب المؤلفة في هذا الفن ، وقد كان المؤلف يحفظ بعض ما يتفقون عليه ، ويبادر بيده العمل المدفعي .

ثم يذكر خروجه من الأندلس واستقراره بتونس ، حيث توظف مع الداي عثمان<sup>(١)</sup> في البحرية التونسية ، وترأس على فرقه قوامها ٢٠٠ من الأندلسيين الذين صار يسافر بهم للجهاد في البحر ، وقد أسر في ثانية سفرة ، واستمر في الأسر سبع سنوات ، عاد بعدها إلى تونس ، في أيام الداي يوسف<sup>(٢)</sup> ، وهو الذي أمره بالجلوس في حصن حلق الوادي<sup>(٣)</sup> ، فاشتغل ب المباشرة العمل في المدفع بيه ، ويدراسه الكتب الموضوعة في هذا الفن ، وهكذا أكتملت ثقافته المدفعية التي باشر دراستها قراءة وتطبيقاً .

(١) انظر عنه ص ٦ . تعليق ٨

(٢) صار على رأس الولاية التونسية إثر وفاة الداي عثمان ، وتوفى ليلة الجمعة ٢٣ رب ١٠٤٧ هـ . ودولته مذكورة في « الخلل السندي » و « المؤنس » ص ١٨٣ - ١٨٧

(٣) بنفس المكان الذي يوجد به رباط الأمير المؤسس على عهد الأغالبة ، وعلى بضعة أميال من دار الصناعة التي أسسها حسان بن النهان في القرن الأول ، وعلى كثب من القوطون دار الصناعة الفينيقية « مراكز الثقافة في المغرب » محاضرات الأستاذ عثمان الكعاك ص ٩٨

وحيثما عانى أن المدفعيين التونسيين لا خبرة لهم بهذا الفن ، حفظته غيرة إسلامية إلى وضع كتاب في فن المدفعية لتوجيه هؤلاء ، وإرشاد رؤسائهم ، وقد وضعه باللغة الإسبانية التي لا يعرف سواها ، وترجى أن يتم نقله للعربية ، حتى يتمكن من توزيع نسخ منه على بعض الملك الإسلاميين<sup>(١)</sup> .

وهنا يتطرق المؤلف إلى الباب الأول الذي هو كدخل لوضع الكتاب : فيذكر تاريخ اختراع البارود ، ويصحح أنه إنما وقع سنة ١٣٦٦ هـ / ٢٦٨ م ، كما يذكر تنظيمات فرق المدفعيين بأوروبا وأمريكا .

وبعد هذا يصل إلى صييم موضوع التأليف فيتناول المواضيع التالية موزعة على بقية أبواب الكتاب من ٢ إلى ٥٠ :

شرح ما تتركب منه الآلات البارودية المعدنية أي أنواع المدافع الثلاثة ، وهي : النارية ، ومدفع التهديم ، ورميهما يكون بكور من حديد ، ثم المدفع الحجارة التي ترمى بكور من حجارة ، مسائل تتعلق بالمدفع غير الحجرية ، السبب الموجب لكون الدافع النارية على الحالة التي هي عليها في طولها وعرضها وعمارتها ، الرمي بالقياس ، وما يحتاجه المدفع لهذه العملية من آلات هندسية ومعرفة عمل السرائر والعبارات للمدفع ، مسائل عن المدفع الحجارة ، معادن أنواع المدفع ، اختبار الآلات الجديدة الخارجة من معمل التذوب ، ذكر الماء الذي يكون لكل كورة ، عملية استخراج الكورة الناشبة في داخل المدفع ، عملية تزويق المسار الذي يضعه العدو في بخش المدفع ، كيفية تبريد المدفع ، المسطرة العددية التي يعرف بواسطتها ما تزن كل كورة ، وهذا البحث مؤكّداته

(١) يفيد هذا المصدر الأخير ص ٩٨ أن ابن غانم كان يعلم الماياك ببطاشية حلق الوادي ، وجد زواوة بشيريه المكان « سيدى الشريف البشري » كما يذكر أنه ترجم عن الإسبانية كتاب « المان » وهو أعظم كتاب في الحساب والجبر وال الهندسة .

وقد وقع للأستاذ الكمال سبق قلم حيث سمى المذكور بمحمد بن غانم في حين أن هذا المؤلف في افتتاحية كتاب « العز والمنافع » يسمى نفسه « إبراهيم غانم » ، كما أن ما نسبه للمذكور في ترجمة كتاب « المان » بعيد — إن كان يقصد الترجمة العربية — حيث أن إبراهيم غانم يصرح في افتتاحية كتاب « العز والمنافع » : أنه لا يعرف العربية ، وقد يكون الذي قام بترجمة هذا الكتاب هو الحجري رفيقه ومترجم كتاب « العز والمنافع » .

من أمرار المهنة ، طريقة معرفة البعد أو الارتفاع ، اختبار البارود لتعرف جودته أو رداءه ، كيفية عمل البارود ، طريقة إصلاح البارود الفاسد ، طريقة استخراج ملح البارود ، مع ذكر الموضع التي يوجد بها ، علاوة على الأماكن الشهورة ، اختبار ملح البارود لمعرفة خلوصه وكيفية تخليصه ، الكور المدرة بالنيزان ، التراكيب التي توضع في هذه الكور ، الموضع الصالحة للمدافع ، صفة عمل السلال التي يتستر بها المدفعيون من رمي الأعداء ، طريقة معرفة العدو الحاصل هل ينقب تحت الأرض ؟ حيل لتركيب المدفع ، كيفية السفر بالمدافع في البر ، عمل القناطر على الأودية ، سر فرقعة ودوى البارود ، ما يحتاجه المدفعي للسفر في البر والبحر بالات البارود ، كيفية استخراج ملح البارود من التراب وطريقة تخليصه ، طريقة جديدة لعمل البارود حسب آخر ابتكار لصنعيه .

هذه أهم الموضوعات الرئيسية لكتاب الذى وضجه المؤلف برسوم تحمل طابعاً إسبانياً ، وتبلغ ٧٠ رسماً لأشكال المدفع وتوابعها .

وقد جاء في آخر الباب ٤٨ : أن المؤلف ابتدأ كتابة النص الإسباني — في حصن حلق الوادي من مدينة تونس — عام ١٠٤٠ هـ / ١٦٣٠ م ثم أكمله في ٢٢ ربيع النبوى عام ١٠٤٢ هـ / ١٦٣٢ م<sup>(١)</sup> .

أما أسلوب الترجمة فواضح سهل ، تخلله تماير عامية ، ومن حسن الحظ أن هذه الترجمة تمت بتعاون بين المؤلف والمترجم الذى كان منها أشكل عليه شيء في النص الإسباني ، يرجع إلى المؤلف ليستوضحه ، ثم ثبتت الترجمة طبق تفسيره<sup>(٢)</sup> .

والكتاب مديل بخطه من وضع المترجم ، وهى مما انفرد به النسخة التي اعتمدها هذا البحث ، وهى — أيضاً — أهم مراجعنا عن حياة الحجري وقد تحدث فيها عن جوانب من حياته بالأندلس والمغرب ، وذكر رحلته للشرق وتونس التي تعرف فيها بمُؤلف الكتاب المترجم ، وقد قص حديث

(١) « العز والمانع » ورقة ١٠٨ .

(٢) نفس المصدر ورقة ١١٤ ب .

ترجمته لهذا الكتاب وخطته فيها ، كما سجل إعجابه بوالى تونس الدائى أبى الحasan مراد «أسطرا مراد» وأسهب فى ذكر سيرته ومنشأته الدفاعية ، وسوى هذا ، فإن الخاتمة تلم ببعض مظاهر العلاقات بين المسلمين والمسيحيين آنذاك .

ولقد وقع الفراغ من الترجمة وخاتمتها في ١٠ ربيع الثاني عام ١٤٤٨هـ / ١٦٣٨م  
وعدد أوراق مجموع الترجمة والخاتمة : ١١٧<sup>(٢)</sup> ، مسطرة ٢٢ مقاييس ٣٠٠ / ٣٠٠ خط  
أندلس عباد الله نسخة ، وهو خط حجاً ماضٍ - ماذن -

ويوجد — بعد الخاتمة — ملحق يشتمل على ثلاثة تنويرات بالكتاب : الأول صادر عن المفتى الحنفي بالديار التونسية السيد أحمد الشريف الحنفي<sup>(٣)</sup> ، ومكتوب بخطه الشرقي ، وفيه يشهد بأنه طالع الكتاب — برغبة من معربه — فوجد فيه نفعاً للمساين ، وإرشاداً للمعاين والمعامين ، من أهل صناعة الدفاع ورماة المسامن .

الثاني عبارة عن قصيدة دالية من بحر البسيط ، تقع في ١١ بيتاً ، وهى من شعر الاديب التونسي عبد الرحمن بن مسعود الجبالي الذى ذيل بهـا التنويم الأول ، وكتبها بخطه التونسي ، وفيها يمدح الكتاب ومؤلفه ابراهيم غانم ، ويقول في مطلعها :

هذا المدافعان عن كل مملكة من العدو إذا ما أمننا وعدا  
أهدي لنا حكماً تبدي للتنا نهج الحروب على شكل وما عهدا  
الثالث كتبه بخطه التونسي محمد بن عثمان الحشائحي الشريف<sup>(٤)</sup> متقد خزائن  
الكتب بالجامع الاعظم والمكافف بتراييها .

(١) نفس المصدر السابقة، ورقة ١٠٨.

(٢) تبتدئ الخاتمة أثناء ورقة ١١٢ بـ وتنتهي أثناء الورقة ١١٧ بـ .

(٣) تركى ولد بتونس ودرس بها ، وله ترجمة في « شرح الرجزية الم موضوعة في المقتني الحنفية بتونس » النظم والشرح لحمد بيرم الثاني التونسي: ص ١١٧ - ١٢٠ من المجموع الذى يشتمل على هذا الشرح ، والمحفوظ بالخزانة العامة بالبوباط تحت رقم ١١٠٢ . وتوجد ترجمته أيضاً في « الذيل لكتاب بشائر أهل الالام » ص ٧٥ - ٧٦

(٤) له ترجمة في «الأعلام» لخير الدين الزركلي ج ٧ ص ١٤٦ ، وفي «معجم المؤلفين» لعمر رضا سكافلة ج ١٠ ص ٢٨٢

وهو متأخر عن التبيهين السابقين ، حيث أن هذا إنما كتب في ٢ محرم سنة ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٢ م وفيه يعرف بقيمة الكتاب ، ويردد ما قاله المعرب : من أن هذه الترجمة أول كتاب ظهر بالعربية في هذا الفن ، كما يسجل أن بواسطته تعلمت ملوك تونس أعمال الدافع والبارود وآلات الحرب .

هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن هذه النسخة التي ندرسها مصدرة بفهرس موسع للأبواب ، كما يوجد على أولها ملكلية بخط شرق ، تحمل اسم : « محمود باكير » .

\* \* \*

وتتجلى قيمة الكتاب في جدة الدراسات التي قام بها عن الآلات المدفعية وتوابعها ، وفي تصنيف هذه الدراسات ، برسم العالم الإسلامي الذي كان — إذ ذاك — في حاجة ماسة لها .

ويزيد في أهمية الكتاب أن تكون مواده مقتبسة من معارف دولة كانت — آنذاك — تعد في مصاف الدول الطليعية في الميدان المدفعي ، فإن المعلومات التي دونها المؤلف في كتابه ، إنما استمدتها من مخالطيه للمدفعيين الإسبانيين ، ومن مباشرته للعمل المدفعي تحت أنظارهم ، ومن دراسته لكتاب مدفعية إسبانية . وبهذا يقدم الكتاب آخر ما وصل إليه تطور الفن المدفعي في أوربا وأسائل عصر المهمزة .

وهكذا يكون في ترجمته للعربية إفاده ثمينة للعالم الإسلامي ، وفي صدد هذه الإفادة يقول المعرب عن الترجمة العربية : « وظهر لي أنه أول كتاب ألف بالعربية في هذا الفن »<sup>(١)</sup> .

وما يدل لتطلع الملاوك المسلمين — آنذاك — للاستفادة من مثل هذا الكتاب ما ذكره المعرب عن الملك المغربي زيدان السعدي من أنه كان يبذل تشجيعات سخية لمحبيه على بعض أمراء الفن المدفعي ، على حين أن

---

(١) « العز والمنافع » ورقة ١١٤ ب .

هذا السر لا يعدو أن يكون مسألة واحدة بين الموضوعات المدفعية الكثيرة التي درسها هذا الكتاب<sup>(١)</sup>.

وإلى جانب المعلومات المدفعية فإن مقدمة وخاتمة الكتاب تقدمان معلومات نادرة عن حياة كل من المؤلف والمترجم ، مع بعض أحوال الأندلس والمغرب وتونس حينئذ .

كما أن الباب الأول من الكتاب ، يتحدث عن تاريخ اختراع البارود ، ويدقق أنه إنما وقع اكتشاف سره سنة ١٣٦٨ هـ / ١٢٦٨ م ، كما يصحح أنه فيها قبل هذا التاريخ لم تعرف آلات بارودية وإنما كانت حيل على وجوه عديدة نارية وغيرها<sup>(٢)</sup> .

أما أثر هذه الترجمة فقد ظهر في تونس بالخصوص ، فقد سجل محمد بن عمان الحشائحي التونسي في تقريره المشار له آنفًا : أنه واسطة هذا الكتاب تعلمت ملوك تونس أعمال الدفاع والبارود وآلات الحرب .

وبالنسبة للمغرب وغيره من الدول الإسلامية الأخرى فإن موضوع تأثير الكتاب بها لا يزال بحاجة إلى دراسة ، على أنه من المحقق أن هذا الكتاب كان معروفاً بالمغرب في عهد قريب من تاريخ ترجمته ، وكان قد وقف عليه أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي التوفيق سنة ١٠٩٦ هـ / ١٦٨٥ م ، فإن هذا نقل عن كتاب « العز والمنافع » أواخر شرحه على النظم الذي وضعه في العمليات الفاسية ، وذلك لما تعرض لمسألة حمل الرصاص في الزكاة ، فقد ذكر في هذا الموضوع ما نصه :

« ... لخدوث الرمي بهذه المدفع بمدحوث البارود حسبما ذكر بعضهم في

(١) نفس المصدر ، ورقة ١١٦ ب.

(٢) تاريخ اختراع بارود المدفع ، وتعيين مخترعه : مسألة شغلت بالطائفة من الباحثين ، وبالخصوص رجال الاستشراف ، الذين يذكر منهم على سبيل المثال : يوسف أشباع في « تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين » : الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٨ و ٤٩٠ - ٤٨٩ ، ٢٤٧ - ٢٤٦ ، وسيديوف في « تاريخ العرب العام » الترجمة العربية ، ص ٤٨٩ - ٤٩٠ ، وغوغستاف لوبيون في « حضارة العرب » الترجمة العربية ص ٥٧٦ - ٥٨٠ ، وانظر « الاستقصاء » ج ٢ ص ١٨ ، الطبعة الأولى . و « تاريخ التمدن الإسلامي » لجريدة زيدان ج ١ ص ١٨٠ ، أحمد مختار العبادي : دراسة حول كتاب البارود والأسلحة النارية لدافيد آيلون ، مجلة هسبرييس ١٩٥٩

تأليف له في الجهاد وقتل العدو بالمدافع ، وأنه استخرج حكيم كان يستعمل الكيما ، ففرقع له ، فأعاده فأعجبه ، فاستخرج منه البارود سنة ١٠٧٠ . وستين وثلاثة وألف عجمية ، ويوافقه في العربي سنة ثمان وستين وسبعين « . فهذه الفقرات تلخيص واضح لما ذكره كتاب « العز والمنافع » في الباب الأول عن اكتشاف البارود<sup>(١)</sup> .

وبهذا يتضح أن هذا الكتاب عرف بالغرب في زمان قرب من عهد ترجمته .

ب — ترجمة الرسالة الزكوطية :

إلى جانب ترجمة كتاب « العز والمنافع » — وهو في فن المدفعية — قام الحجري بتعريف مؤلف في علم التعديل ، وهو رسالة زيج زكوط .  
توجد نسخة من هذه الرسالة بالكتبة الملكية بالرباط ، وتقع ضمن مجموع يحمل رقم ١٤٣٣ ، ومنها يستفاد قيام الحجري بهذه الترجمة ، كما يوجد بنفس المجموع جداول متصلة بالرسالة ، وهي نفس الزيج المنسوب لـ زكوط .  
إن زكوط هذا أو أزكوط كما يلقبه البعض<sup>(٢)</sup> : هو إسرائيلي يسمى إبراهيم<sup>(٣)</sup> ، وينتسب إلى مدينة أندلسية هي مدينة سلمونكة<sup>(٤)</sup> التي وضع الزيج على طولها<sup>(٥)</sup> ، وكان يعيش في القرن التاسع المجري ، وبالضبط كان يكتب زيج رسالته سنة ١٤٧٢ هـ / ٨٧٧ م<sup>(٦)</sup> .

(١) ورقة ٣ ب .

(٢) هو المعذل عبد الكريم أغبالي في رسالته الآتية .

(٣) نفس المصدر .

(٤) الرسالة الزكوطية ، التي تصف سلمونكة بأنها مدينة العلوم ببلاد الأندلس ، وهذه المدينة هي المعروفة عند العرب بـ « شامنة » وهي قصبة الولاية الأسبانية المعروفة بالاسم نفسه ، موقعها على الضفة اليمنى لنهر تورمس ، على بعد ١٧٢ ميلاً بالكرة الحديدية شمال غرب مدريد ، اشتهرت بجامعتها التي أسسها الفونسو التاسع ملك ليون سنة ١٢٢٠ م واستمرت حتى سنة ١٨١٢ م ارجع إلى « دائرة المعارف الإسلامية » ، الترجمة العربية ج ١٣ ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .

(٥) الرسالة الزكوطية .

(٦) نفس المصدر .

أما الزيج فهو الجداول المذيلة بها الرسالة ، والموضوعة لتعديل الكواكب ، وقد بلغ عددها ٢٤٨ جدولًا موزعة على ٢٤٨ صفحة ، حيث ينقسم كل جدول — طولاً وعرضًا — إلى مرباعات . يرسم بداخلها الأعداد المعنية بالأمر . ووظيفة هذه الجداول : أن يستخرج — بواسطتها — الحركات الطولية والعرضية ، للكواكب المرصودة ، حتى يعرف موضع الكوكب المرصود في دائرة فلك البروج لأى وقت فرض ، كما يعرف منها — أيضًا — زمن حصول الكسوف للشمس . والكسوف للقمر ، وما إلى ذلك .

هذا هو الزيج الزكوطى ، وهو — أيضًا — مدلول سائر الزيجات الفلكية .

أما رسالة الزيج فهي مدخل إرشادى يوضح خطة العمل في الجداول ، وهي التي قام الحجرى بترجمتها إلى العربية<sup>(١)</sup> وقد جاءت هذه الترجمة — حسب المسخة الوحيدة التي نعتمدها — خالية من الخطبة التي قد تشرح باعث الترجمة ومهجّبها وزمنها ومكانها ، وفي آخرها ورد اسم المُرَبِّ هـكذا : «أحمد بن قاسم بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجر (تصحيف الحجرى) الأندلسى» . وهذا يصحّح نسبة هذه الترجمة للحجرى ، وقد تأكّد هذا في خطبة «تحفة المحتاج» في علم التعديل بالازياج وهو مؤلف سُنّة حدث عنه بعد . وكلا المصدران يقرأون رسالة الزكوطية حررها مصنفها بالعبرانية ، ومنها نقلت إلى اللغة اللاتينية ، ثم نقلت عنها إلى الإسبانية ، وهي اللغة التي قام الحجرى بالترجمة منها إلى العربية .

تشتمل هذه الترجمة على ٢٤ باباً معروفة هكذا :

الباب الأول في معرفة الطالع وتسوية البيوت الائتني عشر على أقرب وجه ،  
الباب الثاني في معرفة موضع الشمس من البروج ، الباب الثالث في معرفة دخول الشمس بأوائل البروج الائتني عشر ، الباب الرابع في معرفة موضع القمر من البروج ، الباب الخامس في تعديل رأس التنين ، الباب السابع في معرفة حركة القمر ، الباب الثامن في معرفة الاجتماعات والاستقبالات ، الباب التاسع

(١) لم تذر ما إذا كان الحجرى هو الذي قام بتعريف أسماء الجداول وما فيها من الألفاظ ، حيث إن محتويات هذه الجداول منقولة — أيضًا — إلى العربية .

فـ الـ كـ سـ وـ فـاتـ ، الـ بـابـ الـ عـاـشـرـ فـ تـعـدـيـلـ مـوـضـعـ زـحـلـ الـ حـقـقـ ، الـ بـابـ الـ حـادـىـ عـشـرـ فـ مـعـرـفـةـ حـرـكـةـ زـحـلـ لـكـلـ يـوـمـ ، الـ بـابـ الـ ثـانـىـ عـشـرـ فـ مـعـرـفـةـ عـرـضـ زـحـلـ ، الـ بـابـ الـ ثـالـثـ عـشـرـ فـ تـعـدـيـلـ الـ مـرـكـزـ وـ الـ حـمـصـةـ بـعـدـ مـضـىـ الدـورـ الـ اـولـ ، الـ بـابـ الـ رـابـعـ عـشـرـ فـ مـعـرـفـةـ حـرـكـةـ مـوـضـعـ الـ شـتـرـىـ ، الـ بـابـ الـ خـامـسـ عـشـرـ فـ مـعـرـفـةـ حـرـكـةـ عـرـضـ الـ شـتـرـىـ ، الـ بـابـ الـ سـادـسـ عـشـرـ فـ مـعـرـفـةـ حـرـكـةـ الـ حـقـقـةـ الـ شـتـرـىـ ، الـ بـابـ الـ سـابـعـ عـشـرـ فـ مـعـرـفـةـ مـوـضـعـ الـ رـيـخـ بـالـ تـحـقـيقـ ، الـ بـابـ الـ ثـامـنـ عـشـرـ فـ مـعـرـفـةـ حـرـكـةـ الـ رـيـخـ فـ كـلـ يـوـمـ ، الـ بـابـ الـ تـاسـعـ عـشـرـ فـ مـعـرـفـةـ حـرـكـةـ عـرـضـ الـ رـيـخـ ، الـ بـابـ الـ مـوـفـ عـشـرـينـ فـ مـعـرـفـةـ الـ مـوـضـعـ الـ حـقـقـةـ لـلـ زـهـرـةـ ، الـ بـابـ الـ حـادـىـ رـالـعـشـرـونـ فـ مـعـرـفـةـ حـرـكـةـ الـ حـقـقـةـ لـعـرـضـ الـ زـهـرـةـ ، الـ بـابـ الـ ثـانـىـ وـ الـ عـشـرـونـ فـ الـ مـوـضـعـ الـ حـقـقـ لـلـ كـاتـبـ ، الـ بـابـ الـ ثـالـثـ وـ الـ عـشـرـونـ فـ مـعـرـفـةـ حـرـكـةـ عـطـارـدـ ، الـ بـابـ الـ رـابـعـ وـ الـ عـشـرـونـ فـ مـعـرـفـةـ الـ نـوـدـارـ : وـ هـوـ مـعـرـفـةـ السـنـةـ الـ حـقـقـةـ الـ تـيـ كـانـ فـيـهاـ مـيـلـادـ بـطـلـمـيـوسـ .

هـذـهـ أـبـوـابـ رـسـالـةـ الـ رـيـخـ الـ رـكـوـطـيـ الـ عـرـبـةـ طـبـقـ ماـ وـرـدـتـ بـهـاـ ، مـعـ تـعـدـيـلـاتـ تـوـضـيـحـيـةـ يـسـيـرـةـ مـقـتـبـسـةـ مـنـ بـعـضـ الرـسـائـلـ الـ مـؤـلـفـةـ حـولـ هـذـاـ الـ رـيـخـ<sup>(١)</sup> .

أـمـاـ لـغـةـ الـ تـرـجـمـةـ فـهـىـ وـاـخـةـ سـهـلـةـ فـ الـ أـكـثـرـ ، وـيـقـعـ فـ بـعـضـ تـعـاـيرـهـاـ تـعـقـيـدـ ، وـتـوـجـدـ هـذـهـ الـ تـرـجـمـةـ مـعـ الـ جـداـولـ الـ تـنـصـلـةـ بـهـاـ ضـمـنـ مـجـمـوعـ الـ مـكـتـبـةـ الـ مـلـكـيـةـ الـ آـنـفـ الـ ذـكـرـ ، عـدـ صـفـحـاتـ الـ رـسـالـةـ ١٠ـ ، مـسـطـرـتـهـاـ مـخـتـلـفـةـ ، خـطـهـاـ مـغـرـبـيـ مـتـوـسـطـ مـلـوـنـ بـجـدولـ بـهـ تـصـحـيـفـ يـسـيرـ ، وـعـدـ صـفـحـاتـ الـ جـداـولـ ٢٤٨ـ جـمـ

## الـ جـمـيعـ / ٢٩٥

وـتـبـدوـ قـيـمةـ تـرـجـمـةـ هـذـهـ الرـسـالـةـ ، فـ تـمـكـيـنـهـاـ لـقـرـاءـ الـ لـغـةـ الـ عـرـبـةـ مـنـ الـ اـسـتـفـادـةـ مـنـ الـ رـيـخـ الـ رـكـوـطـيـ ، وـهـوـ قـرـبـ الـ أـعـمـالـ الـ تـعـدـيـلـيـةـ أـكـثـرـ مـنـ زـيـجـ اـبـنـ الـ بـنـاـ<sup>(٢)</sup> ، الـ دـىـ شـاعـ — فـ الـ غـرـبـ بـصـفـةـ خـاصـةـ — مـنـذـ تـأـلـيـفـهـ ، وـصـارـ مـرـجـعـاـ

(١) يـتـعـاقـدـ الـ أـمـرـ بـرـسـالـتـيـنـ سـيـتـاـولـهـاـ هـذـاـ الـ بـحـثـ بـعـدـ ، وـهـاـ «ـ تـحـفـةـ الـ حـتـاجـ ، فـ الـ تـعـدـيـلـ وـالـ أـرـيـاجـ»ـ مـعـ «ـ رـسـالـةـ الـ أـنـوـارـ ، فـ الـ تـعـدـيـلـ بـالـ أـدـوارـ»ـ .

(٢) هـوـ أـمـدـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ عـمـانـ الـ أـزـدـيـ الـ مـرـاكـشـيـ الـ مـتـوـفـ عـامـ ١٣٢١ـ هــ ٢١٧ـ مــ ، وـزـيـجـهـ هـوـ «ـ نـهـاـجـ الـ طـالـبـ ، الـ تـعـدـيـلـ الـ كـوـاـكـبـ»ـ مـخـطـوـطـ مـحـفـوظـ فـ عـدـةـ خـزـائـنـ خـاصـةـ وـعـامـةـ .

لدراسة تعديل السكواكب ، حتى إذا ظهر هذا الزيخ الزكوطى أخذ يزاجه ، لما كان لا يحتاج لكترة الأعمال الحسابية التي يحتاجها زيج ابن البناء .

\* \* \*

أما أثر هذه الرسالة العربية ، فقد كان بارزاً في المغرب الأقصى بالخصوص ، فإن المغاربة هم وأضعوا المؤلفات التي كتبت لتكميل الرسالة الزكوطية وتوضيحها وهذه المؤلفات تدل — بدورها — على مدى اشتغال المغاربة بهذه الرسالة وزيجها ، وقد تدل — أيضاً — على أن الحجرى إنما عرب تلك الرسالة أثناء وجوده بالمغرب ، بما أنها اشتهرت به دون سواه من الأقطار .

هذا ، ولكن يتناقض من فعالية الرسالة الزكوطية وزيجها بالمغرب ، نستعرض طائفه من المؤلفات الغربية المشار لها ، وأولها : رسالة أذفها عبد الله أصناك المراكشى<sup>(١)</sup> على الجداول الزكوطية ثانياً : تعاليق وضعها عبد الله بن عبد القادر أبي شيخ المخمي الفصري<sup>(٢)</sup> ، وهمش بها على الرسالة الزكوطية وعلى رسالة أصناك المراكشى المذكورة أولاً ، وقد ورد ذكرها معاً في مراجع « تحفة المحتاج » التالية الذكر ولم أقف عليها .

(١) لم أقف على ذكره إلا عند مؤلف « تحفة المحتاج » الذي يصفه بالفقير المعدل .

(٢) ورد ذكره في خطبة كل من « تحفة المحتاج » و « كنز الأسرار » وما — مما ستدرسه هذه العجالة ، ويزيد المصدر الثاني في وصف أبي شيخ بأنه أحد شراح « روضة الأزهر » ، في علم وقت الليل والنهر » للجادري . وله — أيضاً — زيج سماء : « كتاب العلم الخزون المظيم ، والدر المشرق بالنور المنظم ، في معرفة أوقات الصلوات الخمس في كل يوم من الشهور من شهر العجم » وهو مصدر برسالة تشمل على ٢٤ باباً ، وقع الفراغ من تأليفها ضحوة الاثنين ٢٢ جمادى الثانية عام ١١٠١ هـ ومن مصادرها زيج ابن البناء : « منهاج الطالب » و « الريح القوم » لابن الرقان ، وزيج ابن جندوز ، وفي آخر الرسالة سمى المؤلف نفسه هكذا : عبد الله بن عبد القادر بن عبد الرحمن بن عبد الواحد بن عبد الرحمن بن إبراهيم أبي شيخ المخمي .

توجد من هذه الرسالة نسخة خاصة بها برق أولها ، وتبتدئ أثناء الباب الأول ، يقع الموجود منها في ٣٢ صفحة عدى بعض الجداول .

أما شرح أبي شيخ على روضة الأزهر فهو مؤلف بسيط في موضوعه ، يقع في جزأين ثانيهما يوجد منه نسخة خاصة .

الثالثة : « تحفة المحتاج ، في علم التعديل والأزياج » كتبها مؤلف مغربي لم يذكر اسمه ، وضمنها تكميلات وتوضيحات للرسالة الزكوتية ، درتها على ثمانية أبواب ، مصودرة بخطبة أبانت عن قيمة الرزيج ومنهاج العمل في تحفة المحتاج ، وهذا أهم ما جاء في الخطبة :

« ... وبعد : فاعلم — رعاك الله وحفظك — أني لما رأيت ( تصحيف أردت ) الشروع في علم التعديل والأخذ فيه ، ووقفت على بعض الأزياج التي ألفها زَكُوك ( ط ) ، فرأيتها سهلة المأخذ ، لا تحتاج إلى كثرة الأعمال الحسابية ، كما يحتاجها زيج ابن البناء . . . وقد كنت اطلعت على رسالة الرزيج التي ألفها مصنفها باللسان العبراني ثم حولت إلى لغة اللتين ، ومن اللتين حولت إلى لسان الرمنض ، إلى لغة العرب ( كذا ) عبد الله . . . . أحمد بن قاسم بن حمود بن الفقيه قاسم الجدرى ( تصحيف الحجري ) الأندرسى . . . هكذا وجدته بخط سيدي عبد الله بن عبد القادر أبي شيخ الخمي رحمه الله تعالى ، فرأيت هذه الرسالة ، قد أخلت بكثير من الأبواب المهمة ، المحتاج إليها في كثير من الجداول . . . إلى أن وقفت على رسالة ألفها الفقيه العدل ، سيدي عبد الله أصناك الراكشى على الجداول المذكورة ، قد اشتملت على كثير من الأبواب التي خلت منها رسالة المؤلف المذكور ، غير أنها — أيضاً — قد خلت من بعض الأبواب المهمة التي يتوقف على معرفتها العمل ، ويحصل بها الأمل ، فرأيت — لأجل ذلك — أن أجمع رسالة تشتمل على كتابا الرسالتين ، وأثبتت فيها جملة الأبواب المهمة ، وأضيف إلى ذلك ما يتوصل به إلى إدراك تاريخ المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، لأن الأعمال كلها متوقفة عليها ( كذا ) ، فهو من الأمور الواجبة ، لا بد منه لكل طالب ، فمن لم يعرف التاريخ المذكور ، لا يستقيم له في هذه الأزياج عمل ، وأثبتت فيها أيضاً ما وجدت من الطرر مكتوبًا على الرسالتين ، بخط سيدي عبد الله أبي شيخ ، زيادة في الإيضاح والبيان ، كما ستفت على ذلك كله ، إن شاء الله تعالى ، وجعلت فيه من الأبواب ثمانية . . . ».

هذا أهم ما ورد في افتتاحية « تحفة المحتاج ، في علم التعديل والأزياج » .

توجد نسخة منها أول مجموع المكتبة الملكية الآنف الذكر ، والذى يحمل رقم ١٤٣٣ ، خطها مغربي متوسط ملون بجدول ، به بعض تصحيف ، مسطرة مختلفة ، مقاييس ٢٩٠/٢٠٥ ، عدد الصفحات ٧

الرسالة الرابعة : « رسالة الأنوار ، في التعديل بالأدوار » تأليف أبي الريبع سليمان بن أحمد الفشتالي الفاسي<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م .

قال في خطبتها : « وبعد : فلما كانت صناعة ازيجات ، من أجل ما توصل به لأحوال الجنس والمستقيمات ، وكان كتاب ضوابط الأدوار في الحركات لركوط ، في ذلك وحيداً كفيلاً بالغایات ، رأيت أن أخف طالبه بما يلح به على المخدرات ، متحرياً هجنة المترجم ، مع فوائد وزيادات في هذه الرسالة .

عدد أبوابها سبعة عشر ، ومنها نسخة بالخزانة العامة بالرباط آخر مجموع يحمل رقم ١٤٦٨ ، من ص ٢٧٨ إلى ص ٣٠٣ ، خط مغربي متوسط ملون ، مسطرة ٢٥ ، مقاييس ١٥٠/٢٠٠

فهذه أربع رسائل شاهدة للأثر الذى أثره — بالغرب — الرسالة الزكوطية المعرفة وزيجتها .

#### ٤ — المعلم يوسف الأندلسى :

ان هذا ينسب له البعض تعريب الرسالة الزكوطية ، ويعنى بهذا البعض : المعدل عبد الكريم بن علي أغالب في « رسالته » التي وضعها على زيج زكوط ، فقد ذكر أن المعلم يوسف الأندلسى ترجم الرسالة الزكوطية من الإسبانية إلى العربية بمدينة مراكش ، وأنه أول من قام بهذه الترجمة .

فهل هذا يتعارض مع ما أسلفته هذه العجالة من نسبة تلك الترجمة للحجرى ، نسبة مستقاة من نفس هذه الترجمة الأخيرة ، ومن بعض الذين كتبوا حولها ؟

(١) له ترجمة في « السلوة » ج ٣ ص ١١٥ ١١٦

يبدو أنه لا يوجد تعارض في ذلك ، وأن هناك ترجمتين اثنتين للرسالة الزكوطية : الترجمة الحجرية ، مع هذه التي قام بها المعلم يوسف ، ويؤيد هذا ما ذكره أغال : من وصف هذا المعلم بأنه أول من قام بتعريب الرسالة الزكوطية ، فإن هذه الأولية توذن بترجمة أخرى لهذه الرسالة بعد ذلك ، وهي الترجمة الحجرية ، وعلى هذا نستفيد أن تلك الرسالة عربت مرتين ، كما نستفيد إسماً جديداً ورابعاً لأحد رجال التعريب بالمغرب ، وهو المعلم يوسف الأندلسي نزيل مراكش ، والذى لم يحدد المصدر الذى أورده : تاريخ قيامه بهذه الترجمة .

على أنا إذا حاولنا معرفة هذا التاريخ . ولو على جهة التقرير — ينبغي أن نذكر أن تعريب الرسالة الزكوطية وقع بعد سنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م ، وهى تاريخ كتابة الزيج ، وتذكر — أيضاً — أن هذه الرسالة وضعت باللغة العبرانية ثم ترجمت عنها إلى اللاتينية ، ثم من هذه اللغة إلى الإسبانية ، وهى التي وقع النقل عنها إلى العربية ، وبهديهى أن هذه الترجمات الثلاث لم تقع في أزمة متصلة ، وإنما وقعت في فترات متقطعة ، يدل لهذا قول رسالة أغال عن الرسالة الزكوطية : « وكانت أولاً مكتوبة بالقلم العبراني ، ثم كتب بخط اللطين ، ثم نقلت منه بخط روم إسبانية . . . » .

فهذا التعبير ثم يفيد أن التعريب وقع بعد تاريخ النص العبراني بزمن ليس باليسير .

كما ينبغي أن نذكر — مع ذلك — أن هذه الترجمة سابقة على الترجمة الحجرية التي يقدر أنها وقعت خلال النصف الأول من القرن ١١ هـ . وهكذا يستنتج من هذه التقديرات أن ترجمة المعلم يوسف وقعت في القرن العاشر أو أوائل القرن ١١ هـ ، أي قرب العصر السعدي أو في نفس هذا العصر الذى ينتدىء حدود سنة ٩٣٠ هـ في مدينة مراكش البلد الذى كانت فيه الترجمة .

أما نص هذه الترجمة فلم أقف عليه ، وإنما أشارت له الرسالة الأغالية ، التي ذكرت أن المعلم يوسف الأندلسي لم يقدم بترجمة الرسالة الزكوطية بكمالها ، وإنما عرب منها ما قدمته الرسالة الأغالية في تسعه عشر باباً هكذا :

الباب الأول في معرفة الطالع وتسوية البيوت الإثنا عشر ، الباب الثاني في معرفة موضع الشمس ومعرفة دورها وتعديلها ، الباب الثالث في معرفة ميل الشمس وحقيقةه ، وهل هو شمالي أو جنوبي ، الباب الرابع في معرفة حلول الشمس بأوائل البروج ودوره وتعديلها ، الباب الخامس في معرفة موضع القمر ودوره وتعديلها ، الباب السادس في معرفة الاجتماع والاستقبالات ودورها وتعديلها ، الباب السابع في معرفة تحقيق ساعات الاجتماع والاستقبالات ، الباب الثامن في معرفة عرض القمر ، الباب التاسع في معرفة استخراج حصة القمر ودورها وتعديلها ، الباب العاشر في معرفة حركة الجوزهر<sup>(١)</sup> ودوره وتعديلها ، الباب الحادى عشر في معرفة بعد الشمس عن الجوزهر ، الباب الثاني عشر في معرفة كسوف الشمس ، الباب الثالث عشر في معرفة حدود خسوف القمر ، الباب الرابع عشر في معرفة موضع زحل ودوره وتعديلها واستقامته ووقوفه ورجوعه ومعرفة مركزه وحصته وعرضه ، الباب الخامس عشر في معرفة موضع المشتري ودوره واستقامته ووقوفه ورجوعه ومعرفة مركزه وحصته وعرضه الباب السادس عشر في معرفة موضع المريخ ودوره واستواه في البروج واستقامته ووقوفه ورجوعه ومعرفة مركزه وحصته وعرضه ، الباب السابع عشر في معرفة موضع الزهرة ودورها وتعديلها واستقامتها ووقوفها ورجوعها ومعرفة مركزها وحصتها وعرضها ، الباب الثامن عشر في معرفة موضع عطارد ودوره وتعديلها واستقامتها ووقوفه ورجوعه ومعرفة مركزه وحصته وعرضه ، الباب التاسع عشر في معرفة المطالع الاستوائية .

\* \* \*

وإذا حاولنا أن نتعرف **الأثر** الذي أثرته هذه الترجمة ، فلا نعدم أصداء لها — بدورها — في بعض الموضوعات المغربية .

(١) الجوزهر هو النقطتان اللتان تتقاطع عليهما الدائرةان من الأفلاك اللتان تسميان العقدتين ، وهي كلمة فارسية تعنى صورة الجوز أو صورة الكرة « صحيفـة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد » مجلـد ٦ ص ٢٣

وأول ذلك رسالة المعدل أَغْبَال<sup>(١)</sup> التَّكَرِّرَةُ الْذَّكَرُ ، وقد عنيت بدراسة الأبواب ١٩ الآنفة الذكر ، بعد ما مهدت لهذه الدراسة بافتتاحية عن أصداء «الرسالة الزَّكُوطِيَّة» وعن مصادر ومنهج المؤلف ، وهي التي تقتطف منها ما يلى :

قال كاتبه ومؤلفه : عبد الكريم بن على أَغْبَال ، رحمه الله . . . وبعد : فهذه رسالة فائقة لطيفة ، في كيفية التعديل بالزيج الذي وضعه إبراهيم اليهودي المعروف بازكوط . . .

وهذه الرسالة قد جمعتها من رسائل عديدة ، وكلها في غاية ما يكون من الاختصار ، حتى أن من تمسك بالبعض منها لم يحصل على طائل ، وهي كلها مأخوذة من رسالة مؤلف الزيج ، وكانت — أولاً — مكتوبة بالقلم العبراني ، ثم كتبت بخط الطين ، ثم نقلت منه بخط روم سبانيا ، ووُجِدَت بيد نصارى إسنه زمنض ، وأخذها من عنده العلم يوسف الأندلسي ، وهو أول من ترجمها بالعربية في مدينة مراكش ، وأخذ الناس منها ما قدروا على أخذه ، لصعوبته لفظها ، واختصروها غاية الاختصار ، حتى أجهضوا بالكثير من عملها ، وهذا نحن الآن — بعون الله وقوته — جمعنا ما في تلك الرسائل ، ولفقنا بعضها البعض ، بعد مشورة من أخذنا عنه هذا العلم ، وعواقبته على ذلك ، وقد بذلك المجهود في بيان معاناتها ، وترتيب أبوابها : الأول فال الأول .

تقع هذه الرسالة ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ٢٠١٤ من ص ١ إلى ص ٥٥ ، مسطرة ١٨ ، مقاييس ١٥٠/١٩٠ خط مغرب مستحسن ملون بجدول .

الرسالة الثانية : «كنز الأسرار ، وفيض الأنوار في تعديل النيرين والخمسة المتغيرات بالأدوار» تأليف محمد المعطي بن أحمد الطيب بن محمد مربن الرباطي الأندلسي<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ١٢٢٣ هـ / ١٨٠٨ م .

وهي — بدون شك — موضوعة على هذه الترجمة المتحدث عنها ، وسنرى

(١) لم أقف على ترجمته .

(٢) له ترجمة في «الاغتباط ، بترجم أعلام الرباط» خ .

— في خطبة هذه الرسالة — لأنها تحادى — كثيراً — افتتاحية الرسالة الأنبالية الآنفة الذكر ، والموضوعة بخصوص تلك الترجمة .

ألفها استجابة لرغبة الفقيه المشارك السيد التهامي بن العلامة الشهير سيدى على بن أحمد الوزانى البليحى الحسنى<sup>(١)</sup> الذى طلب منه أن يضع رسالة على الزيج الزكوطى ، تكون جامعة لمعانىه ، ضابطة لقواعد ومبانيه .

تشتمل هذه الرسالة على ١٨ باباً ، مصدرة بافتتاحية عن منهج المؤلف وقيمة هذه الترجمة ، وما جاء فيها :

« . . . ولفقت هذه الرسالة ، بعد أن طالعت على هذا الزيج رسائل عديدة ، غير أنها في غاية ما يكون من الاختصار ، حتى أن من تمسك بالبعض منها أو كلها ، ربما لم يحصل على طائل ، لأنها مأخوذة من رسالة مؤلف الزيج فأخذ الناس ما قدروا عليه منها لصعوبة لفظها ، فوضعوا على هذا الزيج تلك الرسائل مختصرة جداً حتى جحفوا بالكثير من عملها ، فنها رسالة الإمام الجياني الأندلسي ، وهى أجملها ، ورسالة الإمام البركة سيدى عبد الرحمن الفاسى ، ورسالة سيدى عبد الله بن سيدى عبد النادر أبي شيخ الخمي القمرى ، شارح « روضة الأزهار ، في علم وقت الليل والنهار » ، ورسالة الفقيه المعدل سيدى عبد الكريم المعروف بأغبال ، رحم الله الجميع بمنه آمين ، وليس ذلك جهلا منهم — رضى الله عنهم — وإنما ذلك من عدم تبين المترجم عن رسالة المؤلف ، لأن نقل التأليف من لغة إلى لغة صعب جداً ، لا سيما إذا لم يكن العرب عارفاً بالألسن وقد زعم كثير من الناس ، أن هذا الزيج سهل عمله ، و قريب مهمه ، وليس كما زعم ، ثم إن لم أثبت — في هذه الرسالة — عملاً إلا بعد أن امتحنه ، « وثبتت لدى صحته » .

قال في آخر الرسالة : « وافق الفراغ من جمعها بزاوية وزان — كلها الله بمنه — وذلك بعد غروب الشمس بنصف ساعة معتدلة ، من ليلة الأحد الثاني من ذى الحجة الحرام بحساب العلامة ، الأول منه بحساب الرؤية ، من

(١) له ترجمة في « الكوكب الأسعد » المطبوع بفاس ، بهامش « تحفة الاخوان » ص ١٨٥ —

عام أحد عشر ومائتين وألف ، من سني الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضى  
الصلة وأذكى السلام ، الموافق للسابع عشرة مايه من سنة سبعة وسبعين وسبعين  
ألف ، من تاريخ السيد المسيح ، عليه السلام » .

تقع ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط ، تحت رقم د ٢٠٢٧ من ص ٨٣  
إلى ص ١١٨ ، مسطرة ٢٣ ، مقاييس ٢٢٠ / ١٧٥ ، خط مغرب متوسط  
به تصحيف .

**وهكذا تبين — مرّة ثانية — الآثار التي كانت لهذه الترجمة الأخرى  
للرسالة الزكوطية .**

\* \* \*

هذا وستكون خاتمة حديث « الزيج الزكوطى ». وخاتمة هذا البحث أيضاً :  
ما جاء في بعض « مقدّيات »<sup>(١)</sup> العلامة الكبير أبي إسحاق إبراهيم بن محمد  
النادلي الرباطي<sup>(٢)</sup> ، المتوفى سنة ١٣١١ هـ / ١٨٩٤ م ، فقد ذكر أنه درس أحد  
أبواب « الزيج الزكوطى » على بعض علماء « الرباط » : وهو « محمد الرطل »  
الطيب ، العدل الموسيقى ، الذي أخذ عنه تعديل القمر ، بطريقة هذا الزيج .  
وهو لم يبين الترجمة العربية التي اعتمدتها في هذه الدراسة ، ولم يوضح هل  
هي الترجمة الحجرية ، أو ترجمة المعلم يوسف الأندلسى ، وأياً ما كان ، فإن هذا  
يدل على أن الترجمة العربية للزيج الزكوطى ورسالته ، امتدت دراستها بال المغرب ،  
حتى النصف الأخير من القرن الثالث عشر المجرى ، والله — سبحانه —  
ولي التوفيق .

محمد المنوبي

(١) توجد ضمن كنفالة العلامة الحليل محمد بن بوبكر الطواني بسلا . حيث وقفت عليه  
أثناء سنة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .

(٢) من مصادر ترجمته : « الاعتباط ، بترجم أعلام الرباط » .

# الكتاب : تقدُّم وَ عَرْضٌ

لسان الدين بن الخطيب : كتاب أعمال الأعلام . القسم الثالث الخاص بالغرب . حققه ونشره بعنوان « المغرب العربي في العصر الوسيط » الأستاذان الدكتور أحمد مختار العبادي و محمد ابراهيم الكتاني . نشر دار الكتاب العربي بالدار البيضاء ، ١٩٦٤

هذه خدمة جليلة تسدى لتاريخ المغرب وللتاريخ الفكر الأندلسى فى آن واحد ، فإن كتاب أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب يعتبر من عيون المراجع الخاصة بتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى أول عصر الموحدين . وقد كان الأستاذ حسن عبد الوهاب قد نشر منه جانباً من الجزء الخاص بإفريقية ( تونس ) وصقلية منذ سنوات طويلة في مجلد ذكرى ميلاد ميكيل إمارى ، وهو كتاب نادر يزداد الاطلاع عليه صعوبة مع الأيام ، خفاء الزميلان العبادي والكتاني ، ونشرها القسم كاملاً محققاً على ثلاثة مخطوطات جديدة ( بيانها في صفحة د من الورقة ) بالإضافة إلى نسخة ح. ح. عبد الوهاب المطبوعة ، فأهديانا بذلك ذخراً عظيماً من المادة التاريخية السليمة عن تاريخ أقطار المغرب العربي خلال العصور الوسطى .

ومن أسف أن الكتاب يقف بالكلام عند أوائل خلافة عبد المؤمن بن علي وقد قال المحققان أن ذلك الانقطاع ربما رجع إلى وقوع النكبة التي انتهت بمقتل ابن الخطيب ، وهو تعليل طيب ، لأن عزم ابن الخطيب كان منعقداً على الوصول بتاريخ المغرب الأقصى إلى أيام مقامه الأخير هناك ، لكن يفيض في الكلام على بني مرين وينعد المدح عليهم ، وقد كان ابن الخطيب في هذه الفترة الأخيرة

من عمره منتمياً إليهم جاهداً في إظهار الإخلاص لهم تمهيداً للهجرة النهاية إلى المغرب يائساً من صلاح الحال في الأندلس .

وقد قدم الدكتور العبادى للنص بقدمتين ، الأولى عن كتاب أعلام الأعلام والثانية عن ابن الخطيب وصلته السياسية والعلمية بالغرب ، والاشتغال من أحسن ماقرأنا عن ابن الخطيب وأعماله ، وخاصة الثانية التي تتضمن دراسة بيليوغرافية لأعمال ابن الخطيب ، وهى تضيف مادة جديدة إلى ما نشره من قبل في نفس الموضوع في مجلة هيسبريس سنة ١٩٥٩

والنص نفسه عظيم القيمة وإن كان لا يسمى إلى قيمة الجزء الخاص بالأندلس من أعمال الأعلام ، والصفحات الأولى منه السابقة على بني الأغلب عرض سريع لم يكلف ابن الخطيب نفسه عناء في كتابته ، ومادته أقل بكثير مما عند ابن الأثير وابن عذاري ، ولا تقارن بحال بما أورده ابن الأبار في الحلة عن شخصيات أمراء إفريقية قبل بني الأغلب . وربما كان مرجع ذلك إلى المجلة ، فإن هذا الجزء كله من أعمال الأعلام قليل التدقير إلى أول دولة المرابطين بصورة خاصة (انظر مثلاً كلامه عن الفاطميين ، يسميهم ملوك الشيعة ص ٤٦ - ٦٠ ) ، وكلامه عن بني زيري الصنهاجيين أشبه بمجدول تاريخي (١٠٠ - ٦١) .

ويبدأ القسم ذو القيمة الحقيقية من الكتاب في ص ١٠١ من النص المطبوع عند ما يتكلم عن صقلية ، فهذه القطعة دون شك من أحسن ما لدينا عن تاريخ المسلمين في هذه الجزيرة الكبيرة ، وقد سبق إلى نشره أمازي في المكتبة الصقلية ، ولكن نص الأستاذين العبادى والكتابي أوفق وأصح خاصة إذا نظرنا في التعليقات الضافية التي علقاها على حواشى الكتاب ، وقد كان بودنا أن نعرف شيئاً عن المقدمة الجغرافية التي قبسها ابن الخطيب عن كتاب لابي محمد عبد الله ابن على الرشاطي الاندلسي المتوفى سنة ٥٤٢ / ١١٤٢ ، فنجحن لا نعرف لهذا الرجل كتاباً في الجغرافية والتاريخ إلا إشارات يسيرة أوردها في كتابه عن أنساب الصحابة . ولا ندرى من أين أخذ ابن الخطيب هذه المادة الغنية عن صقلية ، ولو عرفنا مراجعه في هذا الجزء كله لكان ذلك أعون على تقدير هذه القطعة قدرها الصحيح .

ومادة ابن الخطيب عن الفصول التالية من هذا القسم — خاصة بملوك القبائل أى جنوب المغرب في منطقة سجلماسة ، وبيان ابن الخطيب عن توالى على حكم هذه النواحي من المسلمين يعتبر جديداً من كل ناحية ، وخاصة عند ما يتكلم عن دولة أبي القاسم سعون بن يزيلان الصفراوى المعروف بالمدار ( أو مدرار ) وبنيه وتنسب الدولة أحياناً إلى ثالث أمراء هذا البيت أبي المتصر اليسع ، فيقال بني اليسع بن مدرار ، أو بني اليسع المداريين وهذا هو اسمهم الشائع في الكتاب . وكلام ابن الخطيب عنهم يصحح كل معلوماتنا عنهم ويضيف جديداً إلى قائمة أمرائهم التي أوردها زامابور في كتابه المعروف . ونحس ونحن نقرأ ابن الخطيب أنه اعتمد على نفس المراجع التي رجع إليها ابن خلدون في الكلام عن هذه الأسرة وما يشبهها من الأسر الغربية الخالصة الأخرى التي يتحدث عنها بعد ذكره . ونخص بالذكر كلامه عن المرابطين وأولائهم قبل يوسف بن تاشفين ، فقد أورد ابن الخطيب هنا معلومات لم يوردها مؤرخ آخر فيما نذكر وإن كان التشابه شديداً جداً بين مادة أعمال الأعلام ومادة كتاب الحلل الموسوية في هذا الجزء .

وقد أضاف الناشران إلى النص تعليقات تبلغ في الحجم أضعاف الأصل ولا تقل عنه في القيمة ، فهي مجموع وغير من المعلومات عن كل علم ورد في الكتاب ، ولا شك أنها بذلا في ذلك جهداً شاقاً ، ونحن إذ نحمد لهم سلامة النشر واستيفاءه أشرطة الدقة والبيانة وحسن التقدير في القراءات ، فإننا نحمد لهم مرة ثانية ذلك الجهد الذى تكفلاه خدمة القراء ، فإن تاريخ المغرب في حاجة إلى من يخدمه بالعزم والإخلاص والعلم ، وقد أُوتي الاستاذان مختار العبادي وابراهيم الكتاني من هذه كلها النصيب الأولي .

ديوان ابن شهيد الأندلسي : عن بجمعه الأستاذ  
شارل بلا ، دار الكشوف ، بيروت ، ديسمبر ١٩٦٣

أحسن الأستاذ شارل بلا بإهداء المكتبة العربية هذا الديوان النفيس ، وهي مأثرة جديدة من مآثره على الأدب العربي وتاريخه ، ومن حسن الحظ أن

ذلك المستشرق النابه يصرف جزءاً من وقته في الأندرسنيات ، ولا تنسى له ترجمة رسالة ابن حزم في فضل الأندرس إلى الفرنسيه وما زود هذه الترجمة به من تعليقات وشرح وفهارس زادت من قيمة الرسالة نفسها ، ونحن اليوم لا نرجع إلى تلك الرسالة القيمة دون ترجمة بللا معها ، مما يدل على عظيم فضله وجهده في عملها .

وقد فاتني أن أعتذر عن رسم لقب الأستاذ بيللا على هذا الشكل — باء ولامين — فالحق أن رسم لقبه بالعربية ربما دقيناً أمر عسير ، وقد بحثت هو رسم الاسم فكتبه على عنوان الكتاب بالفرنسية ، وهو تخلص ذكي ، ولكنه فيما يبدو غير منسجم ، إذ كيف يرسم الإِمْمَ هكذا بالإنجليزية وسط صفحة عنوان عربية ؟

وقد قدم للكتاب الدكتور بطرس البستانى بمقدمة نعتقد أنها غير موقعة فقد بدأها بالقول بأن أدباء الشرق لم يعرفوا فضل أدب المغاربة (يريد الأندرسيين أيضاً) حتى نشر الشيخ فيليب قعدان الخازن كتاب « العذاري المائسات في الأزجال والموشحات » ، وان نفح الطيب للمقرى لم ينل اهتماماً كبيراً مع أنه نشر في مصر سنة ١٣٠٢ ( ١٨٨٤ ) وأن أدباء المشارقة لم يهتموا بالأندلس إلا قبيل الحرب العالمية الثانية ، فأخذنوا يلتقطون إليه وينحصونه بالدراسات أسوة بالمستشرقين الذين تقدموا أشواطاً في هذا المضمار ، وهذا كلام كأنما صيف توسلإلى منزيد من رضى الحقائق الأستاذ بيللا ، لأن الثابت أن اهتمام المشارقة بالأندلس وتاريخه لا يرجع قط إلى كتاب فيليب قعدان الخازن ، وان المستشرقين — مع تقديرنا العظيم لجهودهم — لم يسبقونا إلى تقدير الأدب الأندرسي لا شوطاً ولا أشواطاً ، فإن نفح الطيب كان في مقدمة ما عنيت بطبعه مطبعة بولاق ، ونفت نسخه لأول ظهوره وأعيد طبعه في القاهرة على طبعة بولاق مراراً ، ودواوين كبار الأندرسيين طبعت في القاهرة قبل الحرب العالمية الأولى وأسماء ابن خفاجة وابن حمديس وابن عباد وابن عمار كانت دائماً على كل لسان . وبعد الحرب العالمية الأولى أصدر أحمد ضيف كتابه عن بلاغة العرب في الأندرس و هو قطعاً أبعد أثراً في تعريف الناس بأدب الأندرس من كتاب قعدان الخازن وفي ذلك الوقت أيضاً طاف محمد لبيب البتانوني بالأندلس وكتب رحلته التي

كان لها دوى بعيد ، وزار أحمد زكي (باشا) شيخ العروبة الاندلس و كتب عنه كثيراً بل شارك في مجلد تكريمه فرانسيسكو كوديرا الذى صدر سنة ١٩٠٤ ، ووفد شوقى على الاندلس وقال فيه قصائده التى حركت أشجان العرب ، وحاضر المرحوم عبد الحميد العبادى فى الجامعة عن تاريخ الاندلس ، ودعا إليه طه حسين دعوة عريضة ، وألف شوقى مسرحيته المعروفة بغاية الاندلس ، وكل هذا لا يراه الاستاذ بطرس البستانى شيئاً ، وكل ما يذكره كتاب فيليب قعدان و سبق المستشرقين علينا فى ذلك الضمار ، ومن الثابت أنه لم يهتم بالادب الاندلسى من غومس من معاصرينا وهو تلميذ أحمد زكي شيخ العروبة وتلميذ طه حسين ، ولم هذا كله فإننى آذن لنفسى فى أن آخذ على الاستاذ البستانى هذه الششننة التى فرغنا منها من زمن طويل ، فإن الاعتراف بفضل فيليب قعدان واجب ، وتقدير جهود المستشرقين واجب وكذلك تقدير فضل الأخوة من المواطنين العرب واجب أيضاً . وأحسب أن هذا كلام لا ينفع البستانى لأن قوله واجب علينا كذلك ، ورجو أن يكون شيئاً فى سعة الصدر بسميه بطرس و سليمان طيب الله ثرها فقد كانوا بستانيين إستاً و معنى .

أما مقدمة شارل بيللا فدراسة عظيمة القيمة ككل ما يكتبه ، وناحيةاً البليوغرافية ذات فائدة واضحة وستكون منذ الآن من المواد الاساسية للمكتبة عن ابن شهيد والأدب الاندلسي بصورة عامة .

وأورد شارل بيللا (ص ١٢-١٣) ثبتاً بمراجعةه . وقرر في نهاية المقدمة أنه لن يجد رأياً في الناحية الجمالية من الأشعار التي سيوردها مكتفياً ببيان الأبيات التي استحسنها النقاد ذاهباً إلى «أن مثل هذه الآيات لو لم يقل ابن شهيد غيرها لكتفت دليلاً على نبوغه وسبباً لتخليل ذكره» وهي عبارة تدل على تقدير عظيم لذلك الشاعر الاندلسي الجيد ، وكنا نود لو أتحفنا بيللا برأيه ، فهذا هو المهم هنا ، لأن أهم ما نعني به من كلام المستشرقين في أدبنا هي آراءهم فيه من الناحية الفنية ، لأنهم ينظرون إلى الآثار الفنية من زوايا خاصة ويقيسونها بمقاييس لم تتدريب نحن بعد على استعمالها ، أما تحقيق النصوص وجمع

الدواوين وتخریج أبیاتها فما لا يعسر علينا عمله ، وفي الوقت الذى أکتب فيه هذه السطور یطبعون في القاهرة جمیاً جديداً لـ دیوان ابن شہید قام به صدیقنا الاستاذ جیمس دیکی أو یعقوب زکی .

وقد ضبطت الایات ضبطاً دقیقاً ، وأشار في آخر كل قطعة إلى مصادر تخریجها وروايات ما تکررت روايته منها في کتب أخرى ثم شروح قيمة تضاف إليها في أحيان كثيرة مقابلات فرن西ة ترید معنى الألفاظ وضوحاً .

وقصائد الـ دیوان مرتبة على حروف المعجم بحسب قوافيهما على طريقة العرب في ترتیب الدواوین . وعدد القطع الواردة في الـ دیوان خمس وسبعون – ونستطيع القول الآن أن لدينا دیواناً جديداً من عيون الشعر الاندلسی يعنينا في درسه وقدیره ، وهو فضل كبير لا بد أن نقدر له المستشرق الكبير ، وزجو أن يتفضل إخواننا المتخصصون في الأدبیات أن یقيموا عليه دراسة تکمل ما قاله الأستاذ بطرس البستاني في دراسته القيمة لرسالة الزوابع والتوابع لأبی عامر ابن شہید أيضاً ، ومثل الدراسة المستفیضة التي قدم بها الدكتور محمود على مک لتحقیقه لـ دیوان ابن دراج القسطلی .

أبو على حسین بن القطن الکتابی : نظم الجمان ، الجزء السادس ، بتحقيق الدكتور محمود على مک ، بمساهمة المركز الجامعی للبحث العلمی ، تحت إشراف معهد مولای الحسن ، المطبعة المهدیة ، (تطویل المغرب) بدون تاريخ .

ما یسعد دارس الأندلسیات والمریبیات في هذه السنوات أن نصوصها الأساسية تخرج إلى النور محققة على أيدي أساندة عارفین قدر هذه الأصول ومتکنین من قواعد التحقيق النهجی ، وقد تناولنا في هذا الباب جزءاً من أعمال الأعلام لابن الخطیب وكتاب المن والإمام لآبی مروان ابن صاحب الصلاة ، وهذا أصل ثالث یهدیه إلينا الأستاذ الدكتور محمود على مک وكیل هذا المعهد .  
هذا الأصل هو الجزء السادس من كتاب نظم الجمان لابن القطن ، وهو نص عظيم القيمة عن تاريخ المرابطین في إمارة على بن يوسف وما تلاها وقيام

دولة الموحدين وخاصة ما كان بين الدولتين من صراع انتهى بزوال الأولى وثبات أقدام الثانية .

والنص يقص ذلك بتفصيل كبير يسد فراغاً واسعاً كنا نحس به ، لأن أخبار الدولة المرابطية عندنا ناقصة إذ أنها لم تجد كتاب الأنوار الجليلة لابن الصيرفي ، وهو فيما نعتقد الكتاب الوحيد الذي يمكن أن يعرفنا بأمور المرابطين تعرضاً صحيحاً ، حتى نص ابن عذاري لا يعني عنه كثيراً ، لأن كل من كتب عن المرابطين أيام الموحدين أو بعدهم غاب عنه فضلهم وحقيقة الدور الجليل الذي قاموا به في تاريخ المغرب والأندلس ، لأن الغالبية العظمى من مؤرخي المغرب من أيام الموحدين فساعدوا كانوا من طبقة كتاب الدواوين ، فهم يكتبون التاريخ ليذروا سلطاطينهم وربما أضافوا إلى هذه التواريخ المدحية فضولاً عما سبق أيام سلطاطينهم السعيدة ( ولا يمكن إلا أن تكون كلها أعياداً ) وهم ينقلون هذه الفضول بما سبق لهم من التواريخ دون تكليف نقد أو إيضاح ، وما دام مؤرخو الدولة الموحدية قد سوءوا سمعة المرابطين متابعة لآراء ابن تومرت وبقية الموحدين فيهم فقد أصبحت هذه الإساءة هي الصورة الغالبة على ما كتب عن المرابطين في المغرب ومن حسن الحظ أن أخبار المرابطين وصلت إلى الشرق في أيامهم وسجلها بعض مؤرخيه ، واطلع نفر منهم على كتاب الأنوار الجليلة ، فصارت للمرابطين صورة أخرى في كتب المغاربة هي أصبح مما نجده في كتب المغاربة ، ومثال ذلك ما نجده عند ابن الأثير والنويري من مادة طيبة عظيمة القيمة عن هذه الدولة الإسلامية المغربية التي خدمت المغرب والأندلس أكثر مما خدمته أي دولة أخرى إلى آخر العصور الوسطى على الأقل .

والخطوط الذى نحن بصدده وقع في يدي في شتاء ١٩٥٩ ضمن مجموعة طيبة من الخطوطات تختلفت من تركه الاستاذ ليف بروفيسال ، فاشترتها لمعهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، وعكفنا على تحقيقها ، فكانت هذه القطعة من نظم الجمان من نصيب الدكتور محمود على مكي ، فأفرغ في تحقيقها ما لديه من علم غزير وخبرة طويلة بشئون الشر والتحقيق فأحاطها من أوراق متناثرة سيئة الترتيب حافلة بالأغلات إلى نص تاريخي من الطراز الأول ، وقد بلغ به الاجتهاد

أن أعاد ترتيب الورقات الأولى حسب السنين ، وتمكن من ضبط عشرات الأسماء الغربية الخالصة وهو أمر غاية في الصعوبة في خطوط كهذا يكتب « أجد » مكان « أجداي » عامل قرطبة و « يَكُر » مكان « يَكُو » و « دَكَان » مكان « دَكَّالَة » و « يَخْشِتُونَ » مكان « غَشْتُونَ » وهكذا ، وقد نبه الدكتور مكي على ذلك كله في موضعه .

وقد أضاف الدكتور مكي إلى النص تعليقات ضافية ضاعفت من قيمة الكتاب ، فما من علم فيه سواء كان أندلسيّاً أو مغربيّاً أو إسبانيّاً إلا قومه أولاً ثم عرف به التعريف الكامل على قدر ما تسمح به المراجع ، ومن هنا فإني أعتقد أن تعليقات هذا الكتاب ستتصبح من الآن مرجعاً أساسياً لكل المشتغلين منا بتاريخ المغرب والأندلس ، وخاصة فيما يتصل برجال الدولتين المرابطية والمودية ومن عاصرهم من رجال الممالك النصرانية في شمال شبه الجزيرة ، ومن حسن الحظ أن أمبروسيو أويشي في تاريخه الفصل للموحدين قد حقق الكثير جداً من هذه الاعلام وتتبع تاريخ حياة أمراء الموحدين ورجالهم جميعاً على نحو يدعو إلى الإعجاب ويقتضي الشكر ، فقد يسر عملنا جميعاً في هذا الباب تيسيراً عظياً .

وفهرس الاعلام في آخر الكتاب مفصل دقيق شامل ، وربما كان من المستحسن أن يتبع ذلك بفهرس للمحتويات ، فإن ذلك ضروري ، وربما كان السبب في خلو الكتاب من ذلك الفهرس أن الدكتور مكي شغل بإحصاء الأغلاط الطبيعية التي حفل بها الكتاب ، ولا يد له فيها فإن التشرفين على الطباعة لم يعنوا بمراجعة تصويباته لتجارب الطبع ، وسهوا أحياناً عن إرسالها إليه ، فكانت النتيجة ست صفحات من التصويبات لا بد أن تقرأها أولاً وتدخل تصويباتها على النص قبل أن تقرأ .

اغناثيوس يوليانيوفتش كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، القسم الأول ، نقله من الروسية إلى العربية الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم .  
مختارات الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٦١

يعتبر ظهور هذا الكتاب في اللغة العربية حدثاً جديراً بالتسجيل لأكثر من سبب ، فإن كراتشكوفسكي من أعلام المستشرقين وأصدقهم خدمة للفكر العربي ، وهو دون شك كبير المستشرقين الروس ، وكان لا بد أن يقرأ العرب شيئاً مما كتب ، وهذا الكتاب هو غرة مؤلفاته ، وهو عنوان على الاستشراق الروسي في أحسن صوره ، لأن كراتشكوفسكي كان إلى جانب مكانته كعلامة إنساناً ممتازاً يعرف الناس له كتابه الطريف ، مع الكتب والخطوطات العربية والمنقين عنها . وكتابه عن تاريخ الجغرافية عند العرب يسد فراغاً ضيئلاً في تاريخنا الفكري ، فقد كان القارئ العربي في حاجة إلى كتاب جامع يعرفه بجهود العرب في هذا الميدان بعد أن ترجم الأستاذ محمد فتحي عثمان كتاب الأستاذ نفيس أحمد عن جهود العرب في الجغرافية ، وهو أشبه بمقعدة صغيرة لتاريخ هذا العلم عند العرب ، وهو مجرد فتح للطريق ، ثم تجيء الترجمة العربية لكتاب كراتشكوفسكي فتقدم للعرب زاداً غنياً وتفتح أمام الباحثين آفاقاً واسعة في ذلك المجال . أضف إلى ذلك أن هذا الكتاب أول مؤلف روسي ينقل إلى العربية من الروسية مباشرة وناله شاب عربي سوداني من أهل العلم والعزم والإحساس العربي الصادق ، فإن إنساناً يتکافل الجهد المضني في نقل مثل هذا الكتاب لا بد أن يكون ذا قلب كبير وإحساس كريم .

والكتاب في ذاته عظيم القيمة ، هذا واضح من مجرد القراءة السريعة ، وقد أتيحت لي خلال السنوات الأخيرة فرصة الاطلاع الواسع على الأدب الجغرافي العربي لمناسبة بحثي عن الجغرافية والجغرافيون في الاندلس ، ولم تصل إلى الترجمة العربية لكتاب كراتشكوفسكي إلا بعد أن فرغت من الجزء الثاني من هذا البحث عن الإدريسي ، فأخذت منه فيما بعده ، وتبينت بالفعل أنه كتاب

جيد بمعنى الكلمة ،قرأ له صاحبه قراءة واسعة جداً وقضى سنوات يجمع مادته في صبر . ويبدو اجتهد المؤلف بصفة خاصة في المدخل والالفصل الاربعة الأولى فقد أعطى في المدخل نظرة عامة عن الانتاج الجغرافي العربي في مجده وذكر حسناته ووجوه نقصه العامة وأصوله والمراحل الخامسة في تاريخ العلم الجغرافي عند العرب ، وللمؤلف في أثناء ذلك كله ملاحظات غاية في الحصافة وإن كنا نستدرك عليه أشياء كثيرة ، وبديهي أننا إذ نرفض قبول رأي لكراتشكونفسكي ونقترب غيره لا نؤكد أنه هو المخطئ ونحن على الصواب ، فقد يكون العكس هو الصحيح ، ولكننا تتبادل الرأي في الموضوع معه ، والقاريء والرمان بعد ذلك هما الحكمان اللذان يقرران مصائر الآراء وأصحابها . ومن قبيل ما نستدرك عليه في هذا المدخل قوله أن التأليف الجغرافي العربي «تغلب عليه التزعة إلى الوصف الشامل بدلاً من العرض المفصل العميق للمناطق المعروفة على أساس الملاحظة المباشرة » (ص ٢٤) ، فالواقع أن العرب جعوا بين الإثنين ، والمؤلفات الكبرى في وصف مدينة واحدة بأكبر قدر من التفصيل كثيرة كأوصاف مكة والمدينة وبغداد والقاهرة وغرنطة للأزرق والسميمودي وأبي طاهر طيفور وتق الدين المقريزي ولسان الدين بن الخطيب على الترتيب . وهذه كلها (عدا وصف غرنطة لسان الدين بن الخطيب) كانت بين يدي المؤلف وتكلم عنها في دقة في مواضعها في كتابه ، ولكنه أغفل حسابها عند التقدير العام .

ولكن المؤلف أصاب عند ما نقد أصحاب الجغرافية العربية « الخصوصيات النظرية العلمية الموروثة عن الأوائل بالرغم من أن تجارب العرب العلمية كثيراً ما أدت إلى استكمال تلك النظريات وتعديلها ، بل حتى إلى صرف النظر عنها » (ص ٢٣) ، وهذا من أغرب ما يدهش له دارس الجغرافية العربية فإذاك ترى الواحد منهم ينقل عن اليونان قولهم بأن سكني البشر جنوب خط الاستواء مستحيلة جنوب خط العرض الأول ، ثم يردون بعد ذلك أوصاف أقاليم واسعة جنوب ذلك الخط آهلة بالسكان مثل مدغشقر وموزمبيق . وقد ناقشنا ذلك في مواضع شتى من تاريخنا للجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، وقلنا إن أقوال

اليونان أفسدت مذهب العرب الأصيل في الجغرافية ، وهو مذهب يقوم على المشاهدة والرحلة كما نرى عند المساكين .

وقد أجاد المؤلف إجاده تدعو إلى الإعجاب فيما كتب عن الجغرافية عند المشارقة وخاصة أهل القرنين العاشر والحادي عشر ، ولكن فاتته في الأندلس فصول هامة مثل ترجمة جغرافية هروشيش وهي أساس التأليف في الجغرافية في الأندلس ، وفاته كذلك الرازي الأندلسي ، وهو أمر يستغرب منه لأن جغرافية الرازي في ترجمتها الإسبانية الشوهه معروفة من أكثر من قرن ، ولم يكتب كذلك شيئاً عن ابن الخطيب الجغرافي . وأهم الجغرافيين المصريين من القضاى إلى المقرن الرابع مع عظيم غنائهم .

وهذا كله شيء قليل بالنسبة لما في هذا الكتاب من وجوه الإجاده التي تمثلاً النفس ببهجة ، فأنت منها تقرأ في هذا الكتاب فأنت مع آراء جيدة وملاحظات دقيقة وأحكام سليمة ، وأنت على الجملة مع عالم حق عرف معنى العلم وقام بما ينبغي له عن كفاية ودراءة .

وربما كان من الأسباب الرئيسية لإعجابي بذلك الكتاب سلامه الأسلوب العربي الذى صاغ الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم ترجمته فيه ، فهو أسلوب جميل صاف خلا من عيوب الترجمة وما يضطر صاحبها إليه أحياناً من الركاكة والعجمة . ومن هنا فإن جهد الأستاذ صلاح هاشم جدير بالتقدير الكبير ، وأمام عمل كهذا لا نرجو إلا أن يتفضل الأستاذ المترجم فيتفضله بتحفتنا بالجزء الثانى من ذلك الكتاب النفيس .

أحمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر ، نشر دار الكتاب ،  
البلدية (الجزائر) طبع دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٦٣

هذا أول كتاب عربي جيد عن الجزائر قرأته بعد ابن خلدون ، والطريف أن الشعور الذى يساور نفوسنا ونحن نقرأه هو نفس شعورنا ونحن نقرأ أجزاء تاريخ ابن خلدون الخاصة بالمغرب ، وهو شعور حزن وخوف على المصير نتيجة

للحروب والفتن التي تتوالى في فصول تاريخ ابن خلدون ، وهنا أيضاً يساور النفس القلق على المصير ، فقد ألف هذا الكتاب وطبع طبعته الأولى سنة ١٩٣١ ، والقطر الجزائري الحميد يئن تحت وطأة الاستعمار الفرنسي الذي كان قد خلف وراءه إذ ذاك قرناً من عمره وشرع في قرنه الثاني . وفي تلك الأيام كانت الطرق بيننا وبين الجزائر مقطوعة تماماً حتى لكان إذا فكرنا فيه كان يبدو لنا وكأنها في كوكب آخر لا يوصل إليه ولا يدرك .

ولكذلك يسرّى عنك عندما تذكر أنك تقرأ الطبعة الثانية لذلك الكتاب ، طبعة خرجت والجزائر بحمد الله بلد عربي حر عظيم يقف على أقدامه ثابتاً في مجمع الأمم ، وقد كسب رجاله استقلاله وكسبوا احترام الدنيا كلها .

ومن بين أولئك الرجال مؤلف هذا الكتاب الأستاذ أحمد توفيق المدنى المجاهد الباسل والمفكر الجليل والوزير القدير والأديب ذو القلم السيال والعربي الأصيل الذى تشتت بعروبة الجزائر وقضى بأيمانه على التيارات الخطرة والنوازع المضلة كما يقول أبو بكر بن العربي ، وإذا كنا نسعد اليوم بالجزائر العربية التي ارتدت إلى معدها العربي الإسلامي الأصيل فينبغي أن نذكر أن أحد توفيق المدنى في طليعة صناع هذا الوطن العظيم ، وهو من بناء العروبة ورجالها ومن أعلام الحرية في عالمنا العربي وأبطالها .

ومن حسن الحظ أنه أعاد طبع هذا الكتاب بنفس صورته التي صدر بها في الجزائر ، لأنـه بهذه الصورة وثيقة ينبغي أن تبقى كما هي ، فإذا أراد أحد أن يكتب عن الجزائر اليوم فليكتب كتاباً آخر ، وليدع هذا فهو ذخيرة في ذاته .

الكتاب حافل بمادة قيمة عن الجزائر وهى مادة متنوعة فيها تاريخ وجغرافية وتكون بشري وأوصاف مدن ونظام إدارى واجتماعى . فهو على هذا صورة عامة لذلك القطر العظيم أيام الاحتلال . وإن الإنسان ليدهش من غزارة المادة التي حشدت في قرابة ٣٨٠ صفحة ، ولا أذكر أنـى قرأت من زمن كتاباً في هذا الحيز غنى بالمادة على هذه الصورة .

وقد أتعجبني القسم الخاص بالتاريخ لأنـ هذه هي أول مرة أقرأ فيها تاريخ الجزائر بقلم جزائـرى ، لأنـ ما قرأنا إلى الآن من تواريخ هذا القطر كتبها

فرنسيون باستثناء كتاب نيفل باربر عن المغرب كله ، وقد قرأنا منذ عام الجزء الأول من كتاب شارل أندريه جولييان عن تاريخ الجزائر وهو كتاب جيد معتدل ينظر إلى الجزائر على أنها بلد مستقل ووطن له شخصيته ومركته في الماضي والحاضر ، ولكن تاريخ الجزائر كما يقصه أحمد توفيق المدنى تاريخ مشرق غير المادة يصحح ما كنا نقوله من أن الشعب الجزائري شغل بعمل تاريخ المغرب وتونس حتى نسى أن يصنع تاريخ نفسه ، وقد كتبت بعض صفحات هذا التاريخ من خمس وعشرين سنة عند ما خصصت لمغرب فصلا في كتابي « الشرق الإسلامي في العصر الحديث » .

وأطرف ما قرأت في الكتاب على الإطلاق هو القسم الرابع الخاص بالعنصر البربرى ، فهو فصل غاية في الأهمية عن ذلك الشعب الجزائري الأصيل وصفاته وخصائصه ، واستوقف نظري تشبيهه بأهل الصعيد في مصر ، فالحق أن الشبه حقيق وقائم ، وإن كنا في بلدنا لا نسمى الصعيدي ببربرياً ، ولفظ ببرى في اللهجة المصرية منهم غامض يطلق على النوبين أحياناً وعلى الزوج أحياناً أخرى ولكنه يرتبط في أذهاننا بصورة إنسان كريم طيب القلب . وصورة « على الكسار ببرى مصر الوحيد » صورة جميلة في الأدب الشعبي المصري المعاصر .

وفي القسم الخامس يحدثنا عن العنصر العربي ويدخل فيه الآراك المعروفين بالقرا أو غلية ، وأعتقد أن الجزائر المستقلة لم تعد تعرف هذا التقسيم إلى ببر وعرب ، فهذا كان من صنع الفرنسيين . وأنه لما يدعو إلى الإعجاب أن الجزائر خرجت من محن الاستعمار سليمة كاملة كما يخرج العدن الأصيل صافياً من النار وقد وقفت طويلاً أمام ملاحظته عن بلاد الجرجرة أو بلاد القبائل الكبرى وخوفه على اسلام أهلها وعروبتها ، وأرجو أن يكون هذا الخطر قد زال وتوقفت على الأقل جهود البشرى والمدارس العلمانية الفرنسية في إخراج هذه المناطق الواسعة من نطاق العروبة والإسلام .

هذا كتاب جيد تقرأه ل تستفيد و تتعلم و تتعظ ، وكانت فائدته تكون أعود لو زود بخراط شتى للجزائر فقد استعنت في تتبع مادته بأكثر من خريطة

لذلك القطر الكبير ، ولو أضيف إليه فهرس أبيجدى بالأعلام لأنّ ذلك على زيادة الفائدة منه .

وشيء آخر قبل أن أختم الكلام عن ذلك المؤلف القيم : هو أسلوبه العربي الجميل ، فإنّ أحمد توفيق المدنى يكتب في أسلوب أدبي عالمي في غاية الصفاء والجمال ، وهذه ملكة ينبغي أن تقدرها عنده ، وهي صادرة فيها أحسب عن شعوره العربي الإسلامي العميق .

عبد الملك بن صالح انصلاة : تاريخ المن بالإمامية على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين . السفر الثاني ، بتحقيق الأستاذ عبد الهادي التازى . دار الأندرس لطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٤

لنا سنوات في انتظار هذا الكتاب القيم الذي يعتبر المرجع الرئيسي عن تاريخ إحدى دول الإسلام الكبرى وهي دولة الموحدين وقد كان معولنا في الانتفاع به على صور شمسية مخطوطة أكسفورد ، وهي الوحيدة التي نسيتها غواص المخطوطات ، وهي لا تضم مع ذلك إلا السفر الثاني الذي يبدأ أثناء حوادث ١١٥٤ / ٥٥٤ في أواخر خلافة عبد المؤمن بن علي (٥٢٢ - ٥٥٨) وينتهي أثناء حوادث شعبان ٥٦٨ / مارس ١١٧٣ على وجه التقرير في منتصف خلافة أبي يعقوب يوسف النصوري ثالث خلفاء الموحدين (٥٥٨ - ١١٦٣ - ١١٨٤) ، أي أن هذا السفر يعطى أربع سنوات فحسب من تاريخ الموحدين ، فتأمل والله مقدار الناقص منه ، والمفروض أن المؤلف بدأه من أيام المرابطين واستمر به إلى قريب من وفاته فيما بين ٥٩٤ و ١١٩٧ / ٦٠٠ - ١٢٠٣ وحتى لو فرضنا أنه بدأ بحوادث سنة ٥٠٠ / ١١٩٨ - ١١٩٩ وهي سنة ولادة يوسف بن تاشفين ووقف عند حوادث ٥٩٥ - ١١٩٩ وهي سنة وفاة أبي يوسف يعقوب النصوري ولولاه ابنه محمد الناصر بالله رابع خلفاء الموحدين ، تبينا أن كتاب المن والإمامية كان يغطي قرابة القرن من تاريخ المغرب ، وهو القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي وهو دون شك عصره الذهبي حقاً ، فقد بدأ بإماراة يوسف بن تاشفين وانتهى بعد موت أبي

يوسف يعقوب المنصور . ومن كل هذا ليس لدينا إلا حوادث سنوات الأربع ، وهذهحقيقة تكاد تكون كالرعن على نسبة ما ضاع إلى ما بقي من تراث الأندلس العزيز .

وربما تكون قد أسرفنا في الحساب ، فإن صاحب الصلة لم يفصل في أيام المرابطين تفصيله في أيام الموحدين ، ولكنه على أي حال استصحى تاريخ الأولين من هؤلاء ، وهو أمر ما أشد حاجتنا إليه .

ولكننا نتعذر عما ضاع بأن تحقيق ما بقي من كتاب المتن بالإمامية كان من نصيب شاب من خيرة من يرجيهم الغرب العربي لحاضره ومستقبله ، وهو الأستاذ عبد الهادي التازى مدير العلاقات الخارجية بوزارة التعليم الغربية أولاً وسفير المغرب في بغداد بعد ذلك . وقد احتفل التازى بهذا العمل احتفالاً عظيماً ، فقرأ الخطوط القراءة جيدة وخرج نصه تحرجاً صحياً ، ثم حقق حوادث وأعلامه تحقيقاً بالغ الدقة والاستفاضة ، ودرس بعد ذلك حياة ابن صاحب الصلة دراسة مستفيضة وقدم للنص بمقدمه زادت على المائة صفحة هي وحدها دراسة جديرة بكل تقدير .

وقد حرى التازى في ذلك العمل كله على أوسع مذاهب تحقيق النصوص فاستبحر في التقديم واستبحر في التعليق نخدم النص خدمة صادقة وخدم القارئ خدمة جليلة ، وقد جرت مدرستنا على هذا المذهب من سنوات ، من يوم نشرنا الجزء الأول من رياض النفوس لمالك حتى حققنا الحلقة السيراء ، وجرى عليه محمود على مكي وأحمد مختار العبادى وبقية الآخرين بالأخذ الصعب في العمل وهو مذهب يراه البعض تكلفاً وشططاً ، ولكنهم دون ريب يسعدون إذا تناولوا نصاً منشوراً تبعاً لقواعد وينهون من المقدمات والتعليقات بكلنا اليدين .

التحقيق هنا ممتاز وإن كنا نفتقد شكل الأعلام بين حين وحين ونتمى لو ضبط لنا مستعيناً بالعارفين بالبربرية ألفاظاً مثل تيجيت وسيدارى (يكتبها سيد رأى) وما إليها بدلًا من التعريف بقرطبة في سطر ونصف (١١٦ هـ - ٣) وإشبيلية في سطرين ونصف (١١٧ هـ - ٤) وهذا من أيسر الملاحظات . وجدير بالذكر هنا أننا في تقدمنا للنصوص المحققة قدر الجهد المضنى - غير

الشكور — الذي ينفق فيها ونستطرد عن تصحيح القراءات واقتراح التعديلات والتعلم على المحققين وتکلیفهـم الشـطـط ومـطالـبـهـم بالـعـسـير كـأـنـهـم غـرـماء ، وـكـلـ ذـنـبـهـم أـنـهـم نـاسـ عـمـلـوا وـتـعـبـوا فـيـ حـيـنـ لـمـ يـعـمـلـهـمـ لـمـ يـتـعبـ ، وـإـنـماـ اـکـتفـ بالـجـلوـسـ عـلـىـ السـوـرـ کـاـ يـقـولـونـ وـالـتـحـکـمـ فـيـ عـبـادـ اللـهـ الـعـامـلـيـنـ .

هـذـاـ عـمـلـ جـيـدـ مـسـتـوـفـ مـنـ کـلـ وـجـهـ ، أـضـافـ إـلـيـهـ النـاـشـرـ تـعـلـيـقـاتـ ضـاعـفـتـ قـدـرـهـ وـجـمـهـ ، وـذـيـلـهـ بـفـهـارـسـ ضـافـيـةـ هـىـ أـكـبـرـ مـعـيـنـ عـلـىـ الإـفـادـةـ مـنـهـ وـوـضـعـ کـذـلـكـ خـرـيـطـةـ جـيـدةـ جـداـ لـلـأـنـدـلـسـ وـالـعـرـبـ الـأـقـصـيـ .ـ إـنـاـ نـشـكـرـ الـأـسـنـادـ التـازـيـ إـهـدـاءـنـاـ هـذـاـ النـصـ الـقـيمـ ، وـزـرـجـوـ أـلـاـ تـشـفـلـهـ الـدـبـلـوـمـاـسـيـةـ عـنـ مـوـاـصـلـةـ الـجـهـدـ فـ خـدـمـةـ وـطـنـهـ فـيـ مـيـدانـ الـعـلـمـ ، وـفـهـوـ مـؤـهـلـ لـهـ مـعـانـ عـلـيـهـ ، كـتـبـ اللـهـ لـهـ التـوـفـيقـ فـ کـلـ طـلـبـ مـنـ الـخـيـرـ .

الـدـکـتـورـ حـکـمـتـ عـلـىـ الـأـوـسـىـ :ـ الـقـوـاعـدـ الـأـسـاسـيـةـ لـلـغـةـ الـإـسـبـانـيـةـ ،ـ مـطـبـوعـاتـ جـامـعـةـ بـغـدـادـ ،ـ دـيـسـمـبـرـ ١٩٦٤ـ

الـدـکـتـورـ حـکـمـةـ عـلـىـ الـأـوـسـىـ مـنـ شـبـابـ الـعـرـاقـ الـذـيـ درـسـواـ فـيـ إـسـبـانـيـاـ بـنـجـاحـ وـقـدـ شـهـدـنـاهـ يـعـمـلـ فـيـ جـدـ سـنـوـاتـ مـتـوـالـيـةـ فـيـ جـامـعـةـ مـدـرـيدـ حـتـىـ حـصـلـ عـلـىـ شـهـادـةـ الـدـکـتـورـاهـ فـيـ التـارـيخـ مـنـ کـلـيـةـ الـآـدـابـ بـجـامـعـةـ مـدـرـيدـ .

وـهـوـ يـعـمـلـ آـلـآنـ مـعـاـوـنـاـ لـعـمـيـدـ مـعـهـدـ الـلـغـاتـ الـعـالـىـ التـابـعـ لـجـامـعـةـ بـغـدـادـ ،ـ وـهـوـ مـعـهـدـ يـقـابـلـ مـدـرـسـةـ الـأـلـسـنـ الـعـلـيـاـ فـيـ الـقـاـهـرـةـ ،ـ وـلـاـ شـكـ أـنـ الـدـکـتـورـ الـأـوـسـىـ يـقـومـ بـتـدـرـيـسـ إـسـبـانـيـةـ هـنـاكـ ،ـ وـهـذـاـ فـيـ الـأـغـلـبـ هـوـ دـافـعـهـ إـلـىـ تـأـلـيفـ هـذـاـ الـكـتـابـ .

وـتـأـلـيفـ الـكـتـبـ الـعـرـبـيـةـ تـعـلـيمـ الـلـغـاتـ الـأـخـرـىـ أـمـ نـحنـ فـيـ أـشـدـ الـحـاجـةـ إـلـيـهـ ،ـ وـرـبـمـاـ کـانـ مـنـ الغـرـيبـ أـنـاـ لـاـ نـمـلـكـ إـلـىـ الـآنـ کـتـبـاـ صـغـيرـاـ جـامـعـاـ يـعـلـمـ النـاسـ الـفـرـنـسـيـةـ أـوـ الـأـنـجـلـيـزـيـةـ .ـ نـعـمـ هـنـاكـ کـتـبـ مـدـرـسـيـةـ کـثـيـرـةـ ،ـ وـلـكـنـ فـرـقـ کـبـيرـ بـینـ کـتـبـ تـعـلـيمـ الـلـغـاتـ للـتـلـامـيـذـ وـکـتـبـ تـعـلـيمـهـاـ لـلـكـبـارـ ،ـ وـهـذـاـ هـوـ الـذـيـ نـحـنـ بـحـاجـةـ إـلـيـهـ ،ـ وـنـحـنـ نـعـرـفـ کـذـلـكـ أـنـ هـنـاكـ بـعـضـ الـکـتـبـ فـيـ تـعـلـيمـ الـلـغـاتـ فـ

لبيان ، ولكننا نرجو نوعاً آخر من هذه الكتب ، نوعاً يمثله هذا الكتاب الذي أعرضه الآن .

ولا بد أن أقرر منذ البداية أن هذا الكتاب جيد ، وأنه على صغر حجمه مستوف للقواعد الأساسية التي يحتاجها المبتدئ لدراسة هذه اللغة ، مع قدر صالح من المفردات ومقابلاتها . ولا شك في أن الدكتور حكمة قد تعب كثيراً في العثور على مقابلات لصطلاح القواعد الإسباني والأوربي بصفة عامة ، فإن لهم في الأفعال بالذات أحوال وصيغ وتركيبات يعسر أن تجد ما يقابلها في العربية ، فللماضي أربع صيغ أو خمسة ، ومثلها للمستقبل ، وهم يفرقون تفريقاً واضحأً بين الفعل التقريري indicativo والاحتمالي subjuntivo والشرطى condicional .  
والأسم الفاعل el gerundio هو الإسبانية أهمية كبرى ، وهو يدخل عندهم تحت الأفعال كما هو الحال في الانجليزية واللغات المشتقة من اللاتينية .

وهذا كله استطاع حكمة الأوسى أن يذله ويبتكر له المقابلات العربية ، وابتكراته في هذا المجال قد يخالفه فيها ، ولكنها تمثل رأيه ، ولم يقل أحد أن رأى الناقد لابد أن يكون أصح من رأى المؤلف ، ولهذا فإننا ترك تسمياته ومصطلحاته كما هي ، فهي في مجموعها تمثل رأيه ووجهة نظره ، وعليها بني الكتاب . ولكل كتاب من هذه منطق في التأليف وترتيب الموضوعات .  
المهم أن لدينا الآن كتاب عربي جيد يستطيع أن يعتمد عليه من يريد أن يدرس الإسبانية ، ونحن نذكره هنا مقدرين اصحابه جهده شاكرين له حسن تأليفه لهذا الكتاب .

#### الأصول المطبوعة التي تحفيتها مكتبة الشنقيطي بغداد :

ليس هناك باحث لم يتعرض لصعوبة الحصول على أصول عربية طبعت من خمسين أو ستين — وربما مائة — سنة وأصبحت نسخها اليوم أغلى على الوجود من أندر المخطوطات . وقد لجأنا منذ حين إلى تصوير هذه الكتب ، وفي مكتبتي مصورات لصفة افريقية للبكرى الذي نشره دى سلان فى الجزائر سنة

١٨٥٧ وجء نزهة المشتاق للادرسي الخاص بالغرب والأنداس الذى نشره دوزى ودى خويه سنة ١٨٩٧ وغير ذلك كثير مما تكفل الكثير .

وقد تنبه السيد قاسم محمد الرب صاحب مكتبة المثنى في بغداد إلى هذه الصعوبة فتجبره انتزاعها ، والسيد الرب من أجيال الكتبين في شرقنا العربي ، وقد خطر بباله أن موضوع الوراقه والوراقين (تجارة الكتب وأصحابها) موضوع طريف يستحق أن يدور عليه كتاب ، نظراً لما أسمهم به الكتبين من نصيب كبير في تاريخ الثقافة العربية . وجدير باللحظة هنا أن الأندلسين كانوا يفرقون بين الوراق ، وهو تاجر الكتب والرفاقي ، وهو تاجر الأدوات الكتابية كما يقول اليوم ، وكان في قرطبة شارع خاص للوراقين في حي الأسواق شرق الجامع وشارع آخر للرفاقين في الربيض الغربي على مقربة من أحد أبواب قصر الخلفاء .

تنبه قاسم الرب إذن إلى ضرورة إعادة طبع ما يتيسر إحياؤه من الكتب النافدة ، وهو يقوم بذلك بطريقة التصوير والطباعة المعروفة بالأوفست ، وقد نبهت على فائدة الالجوء إلى هذه الطريقة في إحياء المطبوعات القديمة من عشر سنوات أيام كانت في إدارة الثقافة ، وقدمن للمطبعة فعلا قاموس تاج العروس ، فقالوا ولم لا نعيد تحقيقه ونشره ؟ وانقضت على ذلك سنوات عشر أسع بعدها أنهم ينشرونه اليوم بالأوفست في القاهرة .

وفضيلة مطبوعات مكتبة المثنى أنها تشمل الكتب كاملة : المقدمة - بأى لغة كانت - وصفحة العنوان والفهرس وما إلى ذلك ، وهذا أمر عظيم الأهمية ، فإن كتاب صورة الأرض الذى استخرج له محمد بن موسى الخوارزمي من كتاب جغرافيا بطليموس لا يفهم أصلا بدون المقدمة الألمانية التي كتبها له هانس فون مزيك ، لأن الكتاب لا يستعمل للأطوال والعرض أرقاً بل حروفًا ذات قيم عددية وصفتها الخوارزمي نفسه ، وقد استخرج فون مزيك هذه القيم بعد البحث الطويل وشرح ذلك في مقدمته ، ولولاها ما استطعنا استفهام مغالطي ذلك الكتاب .

ويصرف النظر عن هذه الحالات فإن مقدمات المستشرقين لما نشروا حافلة

دائماً باللادة والفع ، وخاصة ما كتب منها من أوائل هذا القرن إلى سنة ١٩٣٠ تقريباً ، فقد كانوا يكتبون مقدمات هي في الواقع دراسات ، ولا معنى إذن لاقتطاعها وحرمان القارئ منها . وسأذكر هنا ما يخص الأندلس والمغرب من هذه النصوص ، وما يتضمن مادة أساسية بالنسبة للباحث في دراستها ، تاركاً الباقى للفهرس الخاص الذى أعدته المكتبة لهذه السلسلة القيمة :

المعجم فى أخبار أبي على الصدف لأبي بكر ابن الأبار بتحقيق كوديرا ،  
مadrید ١٨٨٦

تقويم البلدان لأبي الفدا ، تحقيق دى سلان ، باريس ١٨٤٠  
المسالك والمالك لابن خردابه ومعه قطعة من كتاب الخراج لقديمة بن جعفر  
بتحقيق دى خويه . لايدن ١٨٨٩

مؤلفات صغيرة لابن عربى (إنشاء الدواير وعقلة المستوفز والتدبرات  
الإلهية ، بتحقيق نيرج ، لايدن ١٩١٩

الأعلاق النفيسة لابن رشته ، بتحقيق دى خويه . لايدن ١٨٩٢  
طبقات الأطباء والحكماء لسلیمان بن جاجل ، بتحقيق فؤاد السيد ،  
القاهرة ١٩٥٥

المشتراك وضعياً لياقت ، بتحقيق فستانفلد ، جوتينجن ١٨٤٦

علم الفلك وتاريخه فى القرون الوسطى بقلم كارلو نالينو ، روما ١٩١١

أحسن التقاسيم للمقدسى بتحقيق دى خويه ، لايدن ١٩٠٥

بغية الملتمس لأحمد بن يحيى بن عميرة الصبى ، بتحقيق كوديرا ، مدرید ١٨٨٨  
الفصل فى الأهواء والملل لابن حزم . القاهرة ١٩٠٣

فهرسة ابن خير ، بتحقيق كوديرا ورييرا ، مدرید ١٨٩٣

ديوان ابن عربى ، طبعة بولاق ، سنة ١٨٥٥

كتاب صورة الأرض للخوارزمي بتحقيق هانس فون مجيك ، لايسك ١٩٢٦

الجامع لفردات الأدوية لابن البيطار ، طبعة بولاق ١٨٧٤

صفة المغرب لأبي عبيد البكري ، بتحقيق دى سلان ، باريس ١٨٥٧

محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس . القسم الثاني  
عصر الموحدين وانهيار الأندلس الكبير ، القاهرة ١٩٦٤ عصر المرابطين  
والموحدين في المغرب والأندلس ، وهو العصر الثالث من كتاب دولة الإسلام

بهذا المجلد الضخم يختتم الأستاذ محمد عبد الله عنان التاريخ العام للأندلس  
الذى يتولاه عن كفاية وجدارة منذ قرابة السنتين عشر .

وهذا المجلد هو أضخم أجزاء تلك الموسوعة التاريخية الكبرى عن الأندلس  
 فهو يقع في نيف وثمانمائة صفحة من القطع الكبير ، والصفحات متقدلة بالسطور  
والكلمات ، فلو أنك بسطت هذا الكتاب على النحو الذى نجوى عليه فى عامه  
كتتبنا لجاوز الألف بكثير .

وهذا القدر الضخم من الصفحات كله علم غزير حصله الأستاذ عنان بالصبر  
الطوبل والإخلاص البالغ للعلم . فمنذ أن قرر إنشاء هذا التاريخ وأخذ في ترتيب  
محصوله الغزير من المعلومات عن الأندلس ليشرع في الكتابة لم يسترح أبداً ،  
ولقد رحل إلى إسبانيا المرة بعد الأخرى ، وجال أرجاءها جهيعاً وعاين الآثار  
والشاهد والواقع ، ولم يدع مكان معركة إلا أتاه ، ولا غادر موضع حادث هام  
إلا عاينه ، ولا سمع بمخطوط أو وثيقة في مكان من جبال البرانس إلى الصحراء  
الإفريقية جنوب المغرب إلا خف إلى موضعه ، حتى أتفق في ذلك عمراً طويلاً  
ومالا جسيماً ، ولكنه خلف بعد ذلك صرحاً ضخماً يعتبر من أعظم الأعمان  
العلمية التي حققها مؤرخ مصرى معاصر ، وإن الإنسان ليشعر نحو عنان  
بالتجلة والاحترام ، ويطمئن على مستقبل المدرسة المصرية من المؤرخين ،  
فلا زالت بخير ما دام فيها مثل عنان ، ولا عجب أن يكون من بين مؤلفاته  
الكثيرة كتاب : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ( القاهرة ١٩٣١ ) ،

فإن عناناً يشعر فيما بينه وبين نفسه أنه مواصل لعمل المقرizi وابن حجر وأبي المحاسن وابن إياس والجبرتي ومحمد شفيق غربال وعبد الرحمن الرافعى ، نعم إنه ليس صاحب حوليات ولم يقصر جهوده على مصر كما فعل رجال المدرسة المصرية حتى الجبرتى ، ولكن النظر إلى التاريخ قد تغير اليوم ، وعنان في هذه الناحية ابن عصره ، عصر الدرس والبحث والصبر والنظر إلى التاريخ من الزاوية الإنسانية ثم العربية ، وقد اجتذبت الناحية الأندلسية عبد الله عنان من زمن بعيد فقصره عليها كل جهده تقريباً ، فاستطاع التجويد بل الإبداع .

والكتاب الذى تتحدث عنه الآن يغطي عصر الموحدين كله فيما عدا حياة ابن تومرت وعبد المؤمن بن على ، فهذا تحدث عنها فى القسم الأول من العصر الثالث من تاريخ الأندلس على تقسيمه . وقد غنت المكتبة العربية وغير العربية بالبرامج والأصول عن هذا العصر ، فوجد عنان بين يديه مادة وافرة استطاع أن يرتبها وينظمها وينتفع بها على خير وجه . وأuanه على ذلك إنقاذه للإسبانية خاصة إلى جانب الفرنسية والإنجليزية والألمانية والبرتغالية ، فاقتصر في غير صعوبة أن يغوص في الكتب وجموعات الوثائق ويستخرج أحسن ما فيها .

وقد عرف عنان كيف يعالج الفترة العصبية التى بدأ بخلافة أبي محمد عبد الواحد المعروف بالملوؤ وما كان من ثورة البياضى عليه ثم قيام أبي العلا إدريس المأمون صاحب إشبيلية وأخذه معظم جند الأندلس من الموحدين والعبور بهم إلى المغرب لطلب الخلافة ، وما كان بعد ذلك من انهيار جمة الوادى الكبير فى الأندلس وبده التصفية المجزنة التى لم يوقفها إلا تماسك محمد بن نصر بن الأحمر بجبل غرناطة وبنائه فيه وإنشائه مملكة غرناطة التى انسأت فى عمر الأندلس قرينين ونصف تقريباً ، مما أرخ له عنان عن اقتدار كبير فى آخر أجزاء تاريخه العام للأندلس وهو المسى : « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ( الطبعه الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ ) .

وقد حرص عنان فى تاريخه كله على أن يدرس إسبانيا النصرانية بنفس العناية التى درس بها الأندلس الإسلامي ، وفي هذا الجزء بالذات - وفي أثناءه بلغت الملك النصرانية مبلغاً خطيراً من القوة والثبات - طالت فصول عنان

عن هذه الناحية وحفلت بالمادة القيمة ، وليس ذلك بغرير عليه فقد سبق له أن ترجم إلى العربية كتاب يوسف أسباخ عن المرابطين والموحدين ، وهو كتاب قيم يولي الناحية النصرانية عنابة كبرى ، وإلى زمن قريب لم يكن لدينا غيره مما يعتمد عليه حقاً ، حتى نهض الإسبان للعنابة بتاريخهم وأصدروا تاريخ عامة ودراسات عن عصور معينة في غاية الجودة ، فسهلت علينا هذه الناحية بعض الشيء ، وإن كانت قد اتسعت آفاقها واستلزمت الوقت الطويل في الإللام بما فيها . وقد ذيل عبد الله عنان كتابه بمجموعة من الوثائق على عهده في كل جزء ، ووثائق هذا الجزء أصيلة عظيمة القيمة تكمل ما أورده في تاريخه الطويل .

وبعد فلا يسعنا إلا أن نهنئ الاستاذ عنان بفراغه من هذا العمل العظيم ، لقد أدى لنا خدمة لا تقدر وأنصف الاندلس وتاريخه إنصافاً يحيزيه الله عليه خير الجزاء . وهو من كل ناحية جدير منا بكل تقدير وتبجيل ، فهذا رجل عمل وأجاد وصدق ونصح ووعد ووف وأضاف إلى المكتبة العربية صرحاً هو تشريف لتاريخ العلم في مصر والعروبة . وسيظل اسم عنان مقتربنا بأحسن المستويات التي وصل العرب إليها في علم التاريخ .

إيرنست ن. ماككاروس وعادل يعقوب بالاشتراك مع فردرريك ويوفس قدوة : قراءات من العربية المعاصرة ، أربعة مجلدات ، جامعة ميشيغان ، آن آربر ، ميشيغان ، ١٩٦٣

Ernest N. Mc Carus and Adil Yacub, *Contemporary Arabic Reader*, Ann Arbor, The University of Michigan Press, 1963.

وصلنا هذا الكتاب الضخم في دوره التجاري ، فهو مطبوع بطريقة شبيهة بالرونيو لا طباعة عادية على المطبعة ، ومن ثم فقد استقر في ذهتنا أنها طبعة تجارية محدودة النسخ حتى إذا ثبت الكتاب في صورته الأخيرة طبع على المطبعة . والكتاب يعتبر أضخم محاولة في تصنيف نصوص مما يسمى بالعربية المعاصرة ليدرسها طلاب يعودون في المكان الأول للعمل في البلاد العربية لا للبحث والدراسة ، وفي يدنا نموذج آخر من هذه الكتب هو الذي ألفه فرجوسن وختار العائلي الأستاذان بجامعة جورجتاون بواسطتهم في الولايات المتحدة .

وقد قدم المؤلفون لكتابهم بقديمة كتبها إيرنست مالك - كاروس ، وهو اختصاصي ضلیع له صوته في كل ما يتصل بتعليم العربية للكبار من غير العرب ، وتجربته في الميدان طويلة ، ومن ثم فإن كلامه جة لها قدرها عندنا ، وإذا كان يقرر في المقدمة أن دروسه تلك تعتبر خطوات بعد دروس فرجوسن والمانى فإننا نستنتج أن هذا الكتاب يمثل تجارب أولئك الأساتذة الأربع ، وهي إذن تجارب لها قيمتها في ميدان لا يبذل فيه جهداً جاداً اليوم مثل الأمريكيين . ولا نقول هذا تقليلاً من افضال غيرهم ، ولكن الواقع أنهم مواصلون الجهد في حين أن غيرهم - مع امتيازه - سار خطوة أو خطوتين ثم توقف أو تلاکاً .

المحتارات كلها مما يسمى بالعربية المعاصرة ، ويراد بها لغة الصحف والإذاعة وكتب الأدب الماجري بما فيها التخصص ، وتدريس هذه اللغة أو هذا الطراز من التعبير بالعربية يقوم على حدين أحدين من القواعد والمفردات ، ولا بأس بالحد الأدنى من النحو فإن الحقيقة أن نحو اللغة العربية هو في الواقع حد أدنى إذا قيس إلى غيره ، وأما الحد الأدنى من المفردات فقد افترض أنه ٣٠٠٠ كلمة ، ألف منها تدرس في المرحلة الأولى وألفان في الثانية ، وفي حالة السير على طريقة «فرجوسن - المانى - مالك كاروس - يعقوب» لا تخرج هذه المفردات عنها تستعمله الصحف في أقسام الاخبار والمقالات الإخبارية أو السياسية منها . وقد جربنا نحن في معهد الدراسات الإسلامية هذه الطريقة ، فنجحت معنا إلى حد بعيد ، شجودناها وزدنا عليها ، ولكننا لاحظنا بعد زمن أن الطالب يفهم هذه السطور ويحفظ مفرداتها ويستطيع أن يقرأ شيئاً من الصحف بها ولكنه يظل بعد ذلك غريباً عن العرب وما يدور في أذهانهم ، لأن ألفاظ الاخبار السياسية سطحية ولها معان اضطرارية وغير طبيعية ، فكل المانى السياسية التي تستعمل فيها القاط مثل أعلن واعترف ورشح وأجرى وتحدث معان مفتعلة ، ويفصدق هذا على أسماء ابتكرت استعمالها الحالية تحت ضغط الحاجة ، ولكنها غير صحيحة ، وستصبح صحيحة بالاستعمال ومضي الزمن ، ولكن عند ما نصل إلى ذلك تكون أمام عصر جديد من تاريخ اللغة العربية .

وقد رأيت بعد تجربة طويلة أننا لا بد أن نخالط بهذه المسادة الصحفية السياسية شيئاً من النصوص العربية الأدبية الصرف ، بل أدخلت بعض الشعر وهو أحسن وسيلة للإحساس بروح العربية ونبض قلوب العرب ، وأنا هنا لا أعود إلى المتنبي أو البحترى أو أبي تمام ، وإنما لخیر الشعر الذى نستطيع ربطه بالحاضر وظروفه مثل قول حفى ناصف يرجو رئيس الوزراء حسين رشدى مد خدمته ، وهى دعابة شاعرية اطيفة .

صاحب الدولة ياشيخ الوزارة حاجى إن شئت تقضى بإشارة  
نالمـا قبلـى الـأـلـفـ لمـ أـكـرـ  
دونـهـمـ عـلـمـاـ ولاـ أـدـنـىـ إـدـارـةـ  
ناـهـزـ السـتـيـنـ عـمـرـىـ إـنـاـ  
لمـ أـزـلـ جـمـ القـوىـ جـمـ الجـدارـةـ

وأعتقد أن يتيمن من الشعر مثل محمود سامي البارودى يعينان على إيصال الطالب بروح اللغة العربية وأهلها ، خذ مثلا قوله :

ردوا على الصبا من عهدى الخالى وهل يعود سواد العمة البالى  
ماض من العيش ما لاحت خاليه فى صفحة الفكر إلا هاج بليالى

ففي مثل ذلك الشعر مفردات جديدة قليلة وقواعد النحوية لا تتخطى الحد الأدنى ، ولكنها تخرج الطالب بعض الوقت من جمل جامدة عديمة الروح مثل : « اجتمع رئيس الوزراء » و « أعلن الوزير أن قرارات هامة ستصدر بعد أيام ... » وما إليها .

إننا نعلم اللغة لأنفسنا لكن يفهموا الشعوب لا لكن يراقبونها صرامة الغريم ، فعلينا أن نعطيهم مفتاح القلوب لا مفتاح الشفرة . نعم إن الكتاب يختص الجزء الرابع للقصص ، ولكنني أسأل أين الأدب — عربياً كان أم غير عربي — في قول سعيد تق الدين في فاتحة قصة له المؤلفون : رأيت معدما يأكل قلة من جوعه وأبصرت أمّا تشهد كلاب البحر تهش طفلتها حية إذا سقطت من بآخرة ، وتطلعت إلى أبوين يريان أطفالهما يختنقون في بناية تلتهم ، ولكن لم أر شخصاً أحق بالشفقة من ذلك الذي يقرأ الجريدة من أولها إلى آخرها ؟

أرجو أن ينثأَ كـ الأصدقاء ، والأعزاء أصحاب هذا الكتاب أن هذا ليس نقداً يقدر ما هو دعوة للتفكير وإعادة النظر وفتحاً لباب الحوار حول موضوع تعليم العربية لغير العرب . إنني أجري في تدريس اللغة في نفس الاتجاه ، ولكن آن الأوان لأن نضع هذا الاتجاه نفسه موضع الماقشة .

طه حسين ، مجلد تكريم مهدي من مدرسة المستشرقين الإيطاليين إلى عميد الفكر العربي المعاصر لمناسبة ميلاده الخامس والسبعين ، المعهد الجامعي الشرقي بمدينة نابولي ، ١٩٦٤

Taha Husein, *Omaggio degli Arabisti Italiani a Taha Husein di occasione del Settantacinquesimo Compleanno*. Instituto Universitario Orientale, Napoli, 1964.

هذا المجلد تكريم لطه حسين ، ولكنه أيضاً تكريم لمدرسة الاستشراق الإيطالية ، فإن التفكير في أصدار هذا المجلد تكريماً للمفكر العربي الجليل يدل على شرف نفس وعراقة جميل ، وليس هذا بغريب على الاستشراق الإيطالي فقبل خمسين سنة ختم المستشرق الإيطالي الجليل كارلو الفونسو نالليني سلسلة محاضراته التي ألقاها في الجامعة المصرية القدعة سنة ١٩١٠ عن علم الفلك عند العرب بعبارة تحية وشكر هي من أبلج ما قرأناه لاستاذ غربي يخاطب شرقين . الكتاب مجموعة دراسات عن طه حسين وترجمات بعض آثاره اشتراك فيها كل المستشرقين الإيطاليين من الشيوخ — من طبقة جبور جيو ليفي دلا فيدا ولاورا فيتشيا فاليري وفرانشيسكو جابريليل — إلى الشباب الحديث من أمثال كليليا ساريني تشير كوا وبنينتو فولي ، وصاحب فكرة الكتاب هو الصديق أومبرتو ريزيتانو زميلنا في جامعة القاهرة فيما مضى وأستاذ الدراسات العربية بجامعة نابولي حالياً ، وأشرف عليه المستشرق الضليع فرانشيسكو جابريليل .

ويبدأ الكتاب بعبارة تحية لطه حسين كتبها جابريليل ، وقد سبق أن ترجمتها ونشرت نصها في « الأهرام » لأنها تعبير عن عاطفة أخوة نبيلة ، ثم يلى ذلك عرض شامل لحياة طه حسين وأعماله بقلم أومبرتو ريزيتانو .

والكتاب بعد ذلك مقسم إلى ثلاثة أقسام كبرى هي :

## ١ - دراسات نقدية :

- أعمال طه حسين في ميدان التاريخ . جيورجيو ليفي دلا فيدا :
- طه حسين الناقد . فرانشيسكو جابريلل :
- طه حسين القصاص . أومبرتو زيزيتانو :
- طه حسين وإيطاليا . ماريا ناللينو :
- طه حسين والإسلام . مارتينو مارييو موريينو :
- طه حسين والتعليم في الأرض . باولو مينجانتي :

## ٢ - عرض بعض أعمال طه حسين :

- |                         |   |
|-------------------------|---|
| لaura فيتشيا فاليرى     | } |
| القصر المسحور .         |   |
| روبرتو روبينانشى        | } |
| أديب .                  |   |
| كيليليا سارنيل تشيركى : | } |
| شجرة البوس .            |   |
| جوسيي بلفيورى :         |   |

## ٣ - مختارات من مؤلفاته مترجمة إلى الإيطالية :

- قارئاً الشعر العربي القديم : ترجمة فرانشيسكو جابريلل .
- من كتاب الأيام ( ج ٦ ص ٤٢ - ٤٢ ) ترجمة أومبرتو زيزيتانو .
- من كتاب الأيام ( ج ٢ ص ١ - ٢٦ ) ترجمة أومبرتو زيزيتانو .
- الحرية فوق كل شيء : ترجمة ريتا روز دي ميليو .
- مدرسة الـ Mogli : ماريا تيريسا بيتي سوما .
- حوار حول موضوع أدبي : « فانا كريونيسى .
- زيارة الأكروبوليس : « جينو بالدوتشى .
- الخطوة الثانية : « بينتو فولي .
- الدولة الإسلامية أيام الرسول وأبناء الراشدين ، ترجمة ماريا تيريسا بيتي سوما .
- شخصية عمر وخلفه : ترجمة فانا كريونيسى .

الديوان ووظيفته : ترجمة فانا كريونيسى .

المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن الفتوحات :

ترجمة نيلا جانا كوفى .

الشعور الإسلامي في مواجهة معاوية : ترجمة جيوفاني أومان .

والقطع النمس الأخيرة فصول وفقرات من كتابي طه حسين عن الفتنة الكبرى ، وها من أحسن وأقيم ما كتب أستاذنا الأكبر طه حسين ، مد الله في عمره وأليسه ثياب العافية بقدر ما خدم العرب والعروبة والإسلام وأهله .

راو. لنديس : المدارس الأمريكية في بلاد الشام في القرن التاسع عشر . سلسلة منشورات جامعة ميشيغان في التعليم المقارن رقم ٥

Rao A. Lindsay, *Nineteenth Century American Schools in the Levant*. University of Michigan Comparative Education Series

هذا كتاب يهم كل المستغلين بتاريخ العرب في العصور الحديثة ، فهو دراسة أصلية قائمة على الوثائق لغاية هامة من نواحي النهضة الفكرية المعاصرة في بلادنا ، وهي ناحية التعليم الأجنبي : أهدافه ونظمه والتتابع الحقيقة التي يمكن أن يؤدي إليها . والموضوع في ذاته رئيسي ، والكثير من البلاد العربية يواجهه وخاصة في أقطار المغرب ولبنان ، فلا زال التعليم الأجنبي – وزريد به هنا الأوروبي والأمريكي – يحتل مكاناً رئيسياً في النظام التعليمي العام للبلاد .

الكتاب يدور حول المدارس الأمريكية في بلاد الشام في القرن التاسع عشر وقد ترجمت لغظ Levant هنا ببلاد الشام ، لا لأن هذه هي الترجمة الدقيقة للفظ بل لأن هذا هو الذي عناه المؤلف به ، بل ربما كان من الاوفق أن يقول لبنان ، لأن هذا القطر العربي هو المعنى حقيقة بهذه الدراسة ، وهو الذي تركت فيه جهود الأمريكيين والفرنسيين عند ما بدأوا في إنشاء مدارسهم في الشرق في القرن التاسع عشر . في ذلك الحين كان الشام لا يزال قطراً واحداً يشمل سوريا وفلسطين والأردن ولبنان ، وكان رجال الإرساليات يفضلون إنشاء

مراكز التبشير والتعليم في الجزء الساحلي من الشام ، أى ما يعرف الآن بلبنان وفلسطين ، فاما لبنان فتحول خلال القرن التاسع عشر إلى منطقة تنافس بين الأمريكان والفرنسيين ، وأما فلسطين فأصبحت أواخر القرن منطقة نفوذ للمدارس الإنجليزية وحدها ، وهذه كلها نتاج لضعف الدولة العثمانية وتدورها السياسية ووقعها تحت سلطان القوى الغربية التي كانت ترعم في ذلك الحين أنها تحميها من روسيا ، والحقيقة أنها كانت تمهد لنفاسها فيما بينها عند ما تنسح الفرصة ، وهذا ما وقع بالفعل .

ويقرر لنديسي في كتابه — ربما دون قصد — أن التعليم الامريكي في بلاد الشام كان غزوًّا ثقافياً يهدى لغزو ديني ، ومن النصوص التي ينشرها زرى بوضوح أن الهيئة الامريكية التي كانت قائمة بشئون التعليم الامريكي في الشام وهي : The American Board of Commissioners for Foreign Missions كانت ترى أن المدارس هي الطعم والتنصير هو الصنارة ، وهذا واضح في كل ما كتب المستر دانييل بليس Daniel Bliss — وكان من كبار نظار هذه المدارس في تقرير نشره في سنة ١٨٥٨ في مجلة The Missionary Herald وهي لسان حال المجلس الامريكي لبعثات التبشير الذي أشرنا إليه : « ولدينا بعد الصلاة تمرين في الحساب ، وهذا بوضوح هو الطعم bait الذي يجتذب أولئك الناس و يجعلهم في متناول الكتاب المقدس ، وعند ما يفقد هذا الطعم ( يريد به درس الحساب ) جاذبيته ، سننجرب شيئاً آخر ، لعلنا نصل بأى طريقة إلى اصطياد بعضهم » .

وقد اعتمد لنديسي في دراسته على التقارير الرسمية التي قدمت لهذا المجلس الامريكي للمشرفين على البعثات التبشيرية في الخارج ويرمز إليه بحرف ABCFM أو الدراسات التي صدرت عنه والمقالات التي نشرت في مجلة « ذى ميشنرى هيرالد » التي ذكرناها ، واعتمد على مقالات نشرت في صحف أمريكية أخرى وكتب الفت في الموضوع وما إلى ذلك . وعلى أساس هذه المادة يقسم لنديسي تاريخ الأهداف التعليمية الأمريكية في الشام إلى ثلاث مراحل ، فالمدارس الأولى التي أنشأها المجلس المذكور في بلاد الشام وسَعَتْ أفق مهمتها فقصدت إلى التثقيف العام

وتنوير الأذهان « للقضاء على الأفكار المتحجرة والخرافات السائدة في مهد الحضارة المسيحية ، وذلك لتفتح العقول والقلوب للتنصير الذي يتلو ذلك » كما يقول لنديسي ، وهذه النظرة يجعل التنصير المهدى النهائى للتعليم ولكنها اعتبرت نشر العلم غاية في ذاته « في نفس الوقت الذى اعتبرته وسيلة لمهد أخير...» .

ويقول لنديسي أنه من منتصف ١٨٤٠ إلى منتصف ١٨٦٠ سادت سياسة التعليم الأمريكية في بلاد الشام نظرة أضيق ، فقد اعتبر التعليم مجرد وسيلة للتنصير ، وكان الحكم عليه يقوم على نتائجه من هذه الناحية فقط ، ويضيف : « ان مدارس المبشرين التي صرفت إلى الطعم the bait جانبًا من الاهتمام أكبر بكثير مما حرفت إلى الصنارة the hook كانت تفقد عطف مجلس الشرفين وتأييده ، وكان هذا المجلس هو موردuron المادى الوحيد من الولايات المتحدة . وهو يرى أن نوع التعليم الذى كانت المدارس الأمريكية تقدمه في هذه الفترة تدهور وقد جاذبته للناس ، ويرى لنديسي — وهو ينظر في كتابه إلى الصالح الأمريكي وحده — أن المدارس الأمريكية فقدت نتيجة لذلك فرصة ذهبية كان من الممكن أن تفيده منها خلال السنوات القلائل التي تلت سنة ١٨٦٠ عند ما تداعى بناء المجتمع اللبناني نتيجة ل الفتنة بين الدروز والمسيحيين وتدخل الفرنسيين العسكري وتمهد الطريق لعصر جديد في تاريخ لبنان ، فقد تطلب هذا العصر الجديد تعليماً حديثاً ، وكان من الممكن أن تقدمه المدارس الأمريكية . لقد تنبأ الأمريكيون إلى هذه الحقيقة بعد فوات الأوان ، وأقبلوا أواخر القرن التاسع عشر على إنشاء مدارس مدنية هدفها الرئيسي التعليم والتنقيف ، وكان لهذه المدارس أثر كبير فيما بعد ، ولكن الفرصة الذهبية كانت قد ضاعت . ويتعذر لنديسي بالقول بأن اللبنانيين شهدوا آخر الأمر بأن الأمريكيين كانوا أقل أناية من رجال التعليم الأوروبيين ، وكانت تجربتهم أوسع وأشمل على الرغم من أن مجلس التبشير ظل متعلقاً بهدف التنصير المباشر وبخل بمال على المدارس رغم ما بذله رجال مثل دانييل بليس ، الذى ظل ينادي زمناً طويلاً بأنه لا خير في صنارة بدون طعم .

ويرى لنديسي أنه نتيجة لعجز مجلس التبشير الأمريكي عن مد مدارس البعثات

بالتأييد الكافى دخلت دول أوربية تملاً الفراغ ، وخاصة فرنسا . ويرى أيضاً أن نظام التعليم اللبناني المتنافر إلى درجة كبيرة يرجع إلى هذه الفترة .

Lebanon's highly heterogeneous educational pattern stems from this period.

وهو يعتقد أنه كان الأفضل للبنان أن يسير على نظام تعليمي واحد متجانس وخاصة إذا كان هذا النظام هو الأمريكي ، ولو أن الولايات المتحدة عرفت كيف تقيد من هذه الفرصة لكان ذلك أعنون على خدمة المصالح الأمريكية .

وتحية لفشل مجلس التبشير الأمريكي في تأييد مدارس البشرن انفصل عنه دانييل بليس وزملاؤه وأنشأوا المدرسة الثانوية البروتستنية السورية The Syrian Protestant College مستقلين بأمرها تماماً . ومن تاريخ إنشاء هذه المدرسة في ستينات القرن الماضي سار التعليم الأمريكي في بلاد الشام مقارباً الطريقة المطلوبة وموفياً بالغرض المرجو منه ، ولكن الفرصة الذهبية كانت قد افلتت .

ويؤرخ لنديسي في كتابه لكل مدرسة أمريكية أنشئت في الشام في القرن الماضي ، وهو يقسمها كذلك إلى أنواع : مدارس عادية ، مدارس بنات ، مدارس داخلية وهكذا ويحاول أن يتعرف مقدار نجاح كل نوع ، وهو يرى بصورة عامة أن الحرص الشديد على استعمال المدارس كوسيلة للتبشير أدى إلى فشلها ، إذ أنّ رد فعل قوى ، وقامت هيئات الدينية المحلية ، وخاصة الإسلامية ، بإنشاء مدارس مضادة ، وذلك بدوره أدى إلى تخلي المدارس الأمريكية والفرنسية التبشرية عن الظاهر التبشيري الذى كان يخفف الناس ، وهذا كله أدى إلى تحسن نوع التعليم الأمريكي في بلاد الشام .

وهذا بعض ما يتناوله هذا الكتاب الذى يعتبر شيئاً فريداً بين ما يصلنا من الكتب ، فهو يتبع لقارئه فرصة الوقوف على ناحية من دخائل سياسة دولة غربية كبرى حيال العالم العربي .

أبو الحسين هلال بن المحسن الصابي : رسوم دار الخلافة بتحقيق ميخائيل عواد ، بغداد ١٩٦٤

لا يزال الباحث العربي كلما تناول بحثاً عن حضارة الإسلام على عهد العباسين يذكر ميخائيل عواد وأخاه كوركيس ، هذين الفاضلين الذين وهما نفسها للبحث والدرس وإحياء تراث العرب ، وقدما لنا بذلك من الخدمات ما يسعد كل عربي أن يذكره ويشكره .

والكتاب الذي أقدمه اليوم فضل من أفضال ميخائيل ، فإن النص الذي يتضمنه نص أصيل كنا ننتظر بفروغ صبر أن يصل إلى أيدينا لنتعمد عليه في دراسة النظم الإسلامية ، ومؤلفه أبو الحسين هلال الصابي كبير آل الصابي ، وهو بيت من أهل السياسة والعلم نشأوا صابئة ثم أسلموا وكان لهم دور عظيم في تاريخ الثقافة الإسلامية في العراق . وقد أحضر ميخائيل عواد إذ قدم للنص بدراسة مستفيضة عن الصابئة ومكانتهم في المجتمع العراقي أيام العباسين ثم عن آل زرهون بن حيون الصابئين الحرانيين وخاصة هلال منهم ، فهو واسطة عقدهم وأكبر من نبغ منهم . وافت النظر بصورة خاصة إلى جدول نسبهم الواردin في ص ٣٩ - ٣٨ من المقدمة ، ثم إلى الطريقة الفريدة التي اتبعها الساسخ في كتابة بعض ألفاظ الكتاب ، وهي طريقة تبدو وكأنها الغاز ، ولكن ميخائيل عواد استطاع أن يجعل مشكلها ويرسلها في نثر عربي مبين .

والنص نفسه هو أطول ما لدينا عن نظام العمل والحياة في قصور الخلافة العباسية ، وجدير بالذكر أن هذا هو النص الوحيد الذي تملّكه عن هذه الناحية المهمة من نظم الدول الإسلامية ، ولدينا بعد ذلك نصوص أقل قيمة عن نظم الدولة الفاطمية ورسوم قصورها إلى جانب المعلومات الضافية التي أتانا بها الموسوعيون في مسالك الأبصار وصبح الأعشى ونهاية الأرب . ونص هلال الصابي على هذا وثيقة ثمينة لا يستغنى عنها باحث في تاريخ الإسلام ، وقيمتها لا تقتصر على تعريفنا بنظام القصور ، بل هي تلقى صوًءاً كاشفاً على الحياة السياسية والاجتماعية أيام العباسين . ومن حسن الحظ أن هلالا الصابي أورد خلال نصه حكايات قصيرة هي أدل على حقائق التاريخ من كل إسهاب ، ومثال

ذلك حكاية منصور بن القاسم الفقاني لما جرى بيته وبين على بن عيسى الوزير ومازوك التركي ، وهي حكاية تكشف عما كان الناس فيه من هم وخوف وقلق على المعاش ، وما كان بين كبار رجال الدولة من تصنع وتظاهر .

ويقص هلال كذلك حكايات عن زيارات شخصيات كبيرة خلفاء العباسيين وما كان يعد لهم من عظيم الاحتفال ، وهذا بدوره يكشف عن الكثير من أسرار علاقات العباسيين بالبيزنطيين وغيرهم . وقد تكفل ميخائيل عواد بشرح الغامض وتفسير الموجز وحل الرموز بصورة تدعو إلى العجب حقاً .

هذا كتاب جليل لهلل الصابي ، أضاف إليه ميخائيل عواد ثروة من العلم في تعليقاته وشروحه ومقدمة ، وهو من هنا حقيقتنا بالشكر المضاعف : شكر لتحقيق النص ويسيره للناس وشكراً على تعليقاته وشروحه ، وهي في ذاتها ذخيرة تحمل عن كل تقدير .

ب. م. هولت : تاريخ السودان في المصادر الحديثة . سلسلة  
فايدنفلد ونيكلسون لآسيا وإفريقيا ، الطبعة الثانية ، لندن ١٩٦٣

P. M. Holt, *A modern history of the Sudan*. The Weidenfeld and Nicolson Series. 2<sup>a</sup> ed. London 1963.

تحتاج مكتبتنا العربية إلى مثل هذا الكتاب عن بلد عربي غنيز على قلب كل عربي هو السودان . وسيقدر بعضاً إلى ترجمته ( وهو أمر ضروري ) ولكن ليس هذا هو ما أقصده ، لأن المرجو هو أن يكتب واحد منا مثل هذا الكتاب من وجهة النظر السودانية العربية ، وليس معنى هذا أن الكتاب ليس معتدل النظرة ، فالواقع أن المستر هولت بذل جهداً كبيراً ليقص تاريخ السودان بأقصى ما ننتظر من مثله من اعتدال .

والميزة الكبرى لهذا الكتاب هو إيجازه مع ضخامة الموضوع الذي تعرض له ، فإن تاريخ السودان منذ سنة ١٨٢٠ دخل في تيار خطير متدفع لم يزل يدفعه حتى استقر بعد مأس وأهوال على شامئ الأمان مع الاستقلال ابتداء من ١٢ فبراير ١٩٥٣ ، أي منذ اليوم الذي استطاعت فيه مصر والسودان أن يعبرا

عن رأيهما الصحيح في نوع العلاقات التي يريدان أن تقوم بينهما : علاقات أخوة وتعاون في نطاق الاستقلال الكامل لكل واحد منها في حدوده . وفي ذلك اليوم وقعت الاتفاقية التي خرجت الجلترا بمقتضاها من ميدان العلاقات السودانية المصرية جلة .

والكتاب مكتوب بعناية تدل على فهم ودراسة ، ويكفي أن نقرأ الفصل الأول عن أرض السودان وأهلها لتبين الجهد الذي بذل في الجمع والإيجاز ، وإذا كان الوصف الجغرافي للسودان بسيطاً فإن الوصف البشري أو السكاني في غاية الصعوبة ، لأن الوحدات البشرية — قبليّة أو غير قبليّة — كثيرة جداً وهي متداخلة في أصولها ومناطق نفوذها وأنسابها ، ومنذ التدخل المصري في سنة ١٨٢٠ زاد هذا الاختلاط وخاصة في أواخر أيام محمد علي ثم في أيام محمد سعيد وسماعيل ، وعندما نصل إلى الثورة المهدية تشعر وكأن قبائل السودان قد أصبحت موجاً متلاطحاً لا يستقر على حال . وقد عرف المؤلف كيف يتبع الخيوط العقدة في صبر طويل ويرضها في وضوح لا أعتقد أن أحداً وصل إلى مثله قبله .

والفصل الثاني يقص تاريخ الإسلام والعروبة في السودان حتى التدخل المصري ، و واضح أن عماده الرئيسي في هذا الفصل على كتاب ترجمة جمام عن الإسلام في السودان ، ولكنه اعتمد كذلك على مصادر أخرى ورد ذكرها في عرضه للبليوغرافية السودانية ( ص ٢٢٧ وما بعدها ) ، والحقيقة أن تاريخ السودان مخدوم جيداً من ناحية البليوغرافية ، فهناك كتاب ريتشارد ل. هيل وهو يتناول المراجع عن السودان إلى سنة ١٩٣٧ ثم كتاب عبد الرحمن الناصري وهو يصل بالمراجع إلى سنة ١٩٦٢ ، وأعتقد أن دراسة المراجع الواردة في نهاية الكتاب الذي نعرضه تعتبر من أحسن ما قرأناه في الموضوع ، وإن كنت ينبغي أن أضيف إليها مجموعة رسائل مهدي السودان التي نشرتها في القاهرة سنة ١٩٥٢

والفصول التالية عن التدخل التركي المصري حتى ثورة المهدى وما بلي ذلك حتى استيلاء الفريق ابراهيم عبود على الحكم في السودان تقص قصة نعرفها جميعاً في مصر ، وقد شعرت وأنا أقرأها اليوم أن رابطة التاريخ بين السودان ومصر أقوى وأعمق بكثير مما تتصور ، فكل ما مر على السودان من أحداث

وحن من علينا أيضًا ، وكل ما قاساه السودانيون قاسياناً مثله . قاسياناً معًا من محمد على واتقعننا به كذلك ، وشقينا أيام استعمايل واتقعننا في نفس الوقت بما أدخل من مظاهر العصر الحديث ، بل اتفع السودان أكثر لأن جرأة استعمايل وتهوره هنا اللذان مدا حدود السودان إلى خط الاستواء ، ولو لا ذلك لما تحيطت حدود السودان الجنوبية قاشاشة على الأكثـر ، فإن مصر استعمايل هي التي وصلت بالسودان إلى خط الاستواء وأنشأت مديرية خط الاستواء (اكواتوريا) وجعلت للسودان هذا الملك العريض الذي يطرب له قلب كل عربي .

وقد قص المؤلف حوادث السودان أثناء الثورة المهدية وهي معروفة له تماماً إذ أن له فيهـا كتاب مستقل ، واستمر في رواية الأحداث حتى استقلال السودان ، ولم يدخل على مصر بحـقها في هذا العرض ، وهو أمر يحمد عليه . إن الرابطة بين مصر والسودان رابطة دين وثقافة واشتراك في نهر عظيم واحد ، وهي في نفس الوقت رابطة تاريخ من سنة ١٨٢٠ إلى اليوم ، وهو تاريخ حزين إلى فبراير ١٩٥٣ ، وروابط الآلام بين الشعوب وشائع وأنساب ، وقد كان أكثر ما ربط أجزاء روسيا بعضها إلى بعض قبل الثورة الليبية هو اشتراك شعوب روسيا في الآلام ، وهذا الاشتراك هو الذي ولد القوة فيما بعد . لقد استقلت مصر والسودان في وقت واحد وأعلن استقلالهما في بلد واحد هو القاهرة ، وسيشتركان بإذن الله في تاريخ مقبل كله رخاء وأخوة وسلام للشعبين .

جيوفاني أومان : بذرة بيليوغرافية عن الجغرافى العربى الإدريسي (القرن الثاني عشر) (مـؤلفاته . فصلة من حلـيات المعهد الجامعى الشرقي بمـدينة نايلـى . السلسلة الجديدة . مجلـد ١١ رومـا ١٩٦١ Giovanni Oman, *Noticie bibliografiche sul geografo arabo al-Idrisi (XII secolo) e sulle sue opere.* Estratto dagli, *Annali dell' Instituto Universitario Orientali di Napoli.* Nuova serie, volume XI, Roma 1961.

هذه دراسة قصيرة عن مؤلفات الشريف الإدريسي ولكنها من أقيم ما قرأناه من دراسات المستشرقين في باب البيلـيوغرافية ، وأعتقد أنها نموذج جميل جداً لما ينبغي أن تكون عليه مثل هذه الدراسات .

وجيوفاني أومان مستشرق إيطالي ممتاز يدهش الإنسان لاقتانه العربية واطلاعه الواسع على التراث العربي ، وقد انصرف من سنوات إلى الدراسات الإدريسيّة وتولى كذلك سكرتارية اللجنة القائمة اليوم بنشر مؤلفات أكبر المغارفيين العرب وهو مشروع جليل نرجو أن يتحقق ويرى النور . وقد أخذت من هذه الدراسة البيليوغرافية فائدة كبرى في الفصل الخاص بالإدريسي من تاريخ المغارفية والمغارفيون في الأندلس ، ورأيت لاماً على أن أنه الدارسين العرب إلى فضل هذه الرسالة وصاحبها .

والدراسة مختصرة تقع في ٣٧ صفحة ، ولكنها ذخيرة لا يستغنى عنها دارس للإدريسي وقد قسمها أومان تقسيماً دقيقاً يدل على تفكير منهجي سليم ، وفيما يلى هذا التقسيم :

- ١ - بيانات بيليوغرافية .
- ٢ - نبذة عن حياة الإدريسي .
- ٣ - ملاحظات عامة على أعمال الإدريسي .
- ٤ - أعماله :
  - ١ - كتاب نزهة المشتاق .
  - ٢ - المشكلة الخاصة بتحريره .
  - ٣ - النشرات الجزئية للنص العربي ، ترجماته إلى لغات أخرى . الدراسات الخاصة بأسماء الموضع .
  - ٤ - طبعة آل ميديتشي .
  - ٥ - كتاب جنی الأزهار .
  - ٦ - دراسات مختلفة .
- ب - كتاب روض الأنف ونزهة النفس .
  - ١ - مختصره .
  - ٢ - ترجماته .

- ج - كتاب جامع أشئرات النبات .
- ه - الخرائط .
- ١ - المشاكل المتعلقة بها .
- ٢ - دراسات خاصة .

وقد أتيح لي أن أعرف كل نقطة من هذه في بحثي عن الإدريسي وخاصة فيما يتصل بكتاب جنى الأزهار الذي كان يظن أنه مختصر لكتاب الروض المعطار لحمد بن عبد المنعم الحميري عمله المقرizi .

إن مجموعة كبيرة من العلماء ما بين غربيين ومشارقة تعمل الآن في إحياء نزهة المشتاق للإدريسي ، ويتولى جيوفاني أومان تنظيم هذا العمل الكبير ، وهي خدمة تشهد بما لهذا العلامة الإيطالي من فضل لا بد أن يذكره له كل مشتغل بالعلم من العرب .

حسين مؤنس

# أَنْبَاءُ

معهد الدراسات الإسلامية خلال سنة ١٩٦٣

## وضع أساس مبني المعهد الجديد بمدريد

في خلال شهر يناير من تلك السنة تم وضع أساس مبني المعهد الجديد ، وقد عهدت وزارة التعليم العالى إلى السيد الدكتور المهندس محمد نصرى كامل الأستاذ بكلية الهندسة بجامعة عين شمس بالقاهرة في وضع مشروع هذا المبنى ، فوضعيه على أساس احتياجات المعهد الحالية والمقبلة .

والمعهد الجديد تبلغ مساحة أرضه ١١٧٢,٩٩ متراً مربعاً ويقع على زاوية شارع أرماندو بالاثيو وفرنسيسكو دي أسيس منتث كاسارييجو الذى يتفرع من شارع لاهابانا عند أوله .

ولقد استقرت عطاءات البناء على شركة مبانى الكالا ، وهى سائرة في العمل بشكل صرضى .

## دروس اللغة العربية في المعهد

بدأت دروس اللغة العربية لموسم ١٩٦٣ - ١٩٦٤ في مساء الأربعاء ١٦ أكتوبر سنة ١٩٦٣ ، وقد بلغ عدد الطلبة المسجلين ٩٩ طالباً قسموا على فصلين بحسب مستواهم في اللغة العربية . وقام بالتدریس للفصلين السيد الدكتور محمود على مكي وكيل المعهد . وقد بلغ عدد طلاب الفصل الأول ٧٨ طالباً بينما بلغ

عدهم في الفصل الثاني ٢١ طالبًا ، وقد ذهب إلى مصر على منحة دراسية مصرية واحد من طلابنا الذين تعلموا اللغة العربية في هذا المعهد وهو السيد سنتياجو جونثالث بلاثيوس .

### المحاضرات التي القيت في دار المعهد

أقيمت في ذلك العام بدار المعهد سلسلة محاضرات عرضناها كلها عرضًا وافيًا في تقاريرنا الشهرية ، وفيما يلى بيان هذه المحاضرات ونبذة عن كل منها :

الدكتور حسين مؤنس : الاشتراكية العربية ، ٢١ مارس ١٩٦٣

أقيمت هذه المحاضرة في جامعة الكلا دى إينارس وهى جامعة دينية قديمة يرجع إنشاؤها إلى القرن الخامس عشر الميلادي . وببلدة الكلا دى إيناريس تقع على بعد ٣١ ك.م. شمال شرق مدريد وكانت أيام العرب قلعة مشهورة تسمى قلعة عبد السلام ، وقد احتفظت التسمية الإسبانية لهذه المدينة بعد ذلك بالكلمة العربية الكلا أى القلعة .

وقد تناول الأستاذ المحاضر بالشرح والتحليل المفهوم الاشتراكي العام للدولة الإسلامية منذ أيام الرسول (صلعم) ثم استطرد بعد ذلك إلى الكلام على دواعي الاتجاه الاشتراكي العربي الجديد والضرورات التي دفعت إلى السير فيه سواء أكانت ضرورات نابعة من طبيعة الإسلام والتفكير العربي الخالص أو ناتجة عن ظروف العرب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مبيناً أنها اشتراكية للخير العام للمواطنين جميعاً .

الأستاذ محمد عبد الله عنان : الحسن الوزان ، ٢٨ مارس ١٩٦٣

ألقى سيادته هذه المحاضرة باللغة الإسبانية ، وتناول فيها حياة الحسن الوزان وأعماله بالتفصيل . فذكر أن هذا الرحالة الأندلسى المغربي قد ولد في

غرنطة ثم رحل عنها إلى المغرب مع أسرته قبيل سقوطها في يد الإسبان  
سنة ١٤٩٢ م.

وقام برحلات واسعة في بلاد المغرب ثم انتقل إلى تونس ومن هناك عبر إلى صقلية ثم إلى إيطاليا حيث عاش هناك مدة طويلة اتصل خلالها بالرهبان والأحبار ، وقد تأثر الحسن الوزان بهذا الاتصال تأثراً كبيراً إلى درجة أنه ارتد عن الإسلام وتنصر على يد البابا واتخذ اسماً مسيحياً هو ليون الأفريقي .  
وفى إيطاليا كتب ليون الأفريقي كتاباً باللغة اللاتينية فى وصف إفريقيا وصحرائها الكبرى . وقد ترجم هذا الكتاب فيما بعد إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والاسبانية وصار من أهم المراجع التي لا يستغني عنها أحد من يدرسون تاريخ إفريقيا وأحوال أهلها خلال العصور الوسطى .  
وقد أكد المخاطر فى ختام محاضرته بأن الحسن الوزان قد عاد فى أواخر حياته إلى المغرب واعتنق الإسلام أيضاً فكفر بذلك عن خطيبه الكبير ومسح عن نفسه ذلك العار .

الأستاذ محمد عبد الله عنان : الشريف الإدريسي ، ٩ ابريل ١٩٦٣

هذه هي المخاضرة الثانية التي القتها في دار المعهد الأستاذ محمد عبد الله عنان أثناء رحلته العالمية في إسبانيا خلال سنة ١٩٦٣ وقد تناول المخاضر هذه المرة شخصية الجغرافي العربي المشهور أبا عبد الله محمد بن محمد بن علي ابن إدريس المعروف بالشريف الإدريسي وهو من مواليد سبتة سنة ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م واتجهت دراسته منذ أول الأمر نحو الجغرافية والطب والنباتات الطبية ثم رحل إلى المشرق في شبابه وزار مصر والشام والعراق والججاز وآسيا الصغرى ثم عاد إلى المغرب . وفي طريقه مر بصفلية وكان النورمان قد استولوا عليها من المسلمين وقام على حكمها روجر الأول ثم ابنه روجر الثاني وكان من المهمتين بالجغرافية والطب ، فوجد في الإدريسي عالماً فذاً يستطيع أن يتحقق له ما كان

يفكر فيه من عمل خريطة شاملة للأرض . ثم دعاه إلى المقام عنده والعمل معه فقبل الإدريسي ذلك العرض واستقر في بلاطه في بلرم وعمل له صورة للأرض على صفات من الفضة أثبت فيها كل ما لديه وما حصل عليه من معلومات . وبعد ذلك كتب كتاباً كبيراً في شرح هذه الخريطة ، وهذا الشرح هو الذي عرف باسم نزهة المشتاق في اختراق الآفاق وهو يعتبر من أعظم الكتب التي تناولت جغرافية العالم إلى مطلع العصر الحديث . وقد توفي الإدريسي حوالي سنة ١١٦٥ هـ / ٥٦٠ م ولا يعرف إن كان قد توفي في المغرب أو في صقلية .

الدكتور أنطونيو الماجرو ديات : التصوير والمعمار في العالم الإسلامي ، ١٧ أبريل ١٩٦٣

الأستاذ أنطونيو الماجرو ديات من علماء تاريخ الفن البارزين في إسبانيا ، ومن أصدقاء المعهد القدماء وقد سبق أن حاضر كثيراً في معهدنا في الأعوام السابقة وله نظريات بدئعة مبكرة أهمها أن مصر هي أصل حضارة الغرب ومهدها . وفي هذه الحاضرة تناول الأستاذ الماجرو موضوع الفن الإسلامي من ناحيته الجمالية لا من ناحية تطوره التاريخي أو خصائصه الإقليمية على أساس أن هذه حاضرة عامة أشبه ما تكون بمقدمة الغرض منها لفت أنظار الناس إلى نواحي المجال التي تتجلّى في الفن الإسلامي وتجعل له في مجموعة اتجاهات متميزةً بشخصيته بين اتجاهات الفن العالمي .

وقد أيد المحاضر كلامه بعرض مجموعة كبيرة من صور المساجد والقصور الإسلامية التي تمثل كل بلاد الإسلام من الهند شرقاً إلى المغرب غرباً ومن روسيا شمالاً إلى قلب أفريقيا جنوباً ، مرتبأ تلك الصور على حسب عناصر المجال الفني التي وجدتها فيها ، ثم مضى يشرحها ويعلق عليها مجتهداً في الربط بينها ما أمكنه ذلك . وختم المحاضر كلامه بوقفة طويلة عند مسجد قرطبة الجامع ، فتحدث عن اصالته وروعته وكيف أنه يمثل جلال الإمارة ثم الخلافة

الأمويتيين ، وقال إن هذا المسجد فن إسباني أصيل يقوم على تقليد معماري إيبيري وأنه بهذه الصفة يعتبر أقدم وأعظم أثر معماري بنته أوربا خلال العصور الوسطى .

الدكتور أنطونيو الماجرو ديات : من الشرق إلى الغرب ،  
فن الجريكو بين التطور والثورة ، ١٩٦٣ أبريل ١٩

بدأ الأستاذ أنطونيو الماجرو محاضرته بالكلام عن نظرياته عن الأصل المصري للفنون المعمارية في إسبانيا ، وقال أن هذه المؤشرات الفنية المصرية وصلت إلى إسبانيا في العصور القديمة عن طريق الشمال الإفريقي حيث تركت في ققصة بنواحي تونس الحالية ونشأت هناك حضارة خاصة تعرف بالحضارة الفقصية وهي في أساسها مصرية امتدت بها عناصر محلية قليلة . ومن ققصة انتقلت إلى صقلية وإلى المغرب الأقصى وبشبه جزيرة إيبيريا . وهناك توطنت وأخذت الطابع المحلي وتكونت لها أصول ومميزات جعلتها أساساً لكل انتاج فني ظهر في إسبانيا بعد ذلك .

ثم تتبع المخاض تاريخ هذا الفن الإيبيري من عصر ما قبل التاريخ إلى اليوم ووقف طويلاً عند الفن الإيبيري الإسلامي وقال بأنه قد ظهر بأجل صوره في الفن المدجني وهو فن كامل لم يقتصر على العمارة بل تعداها إلى التصوير والنحت . ومن آرائه أن الأصول التي تكون منها الفن الروماني في القرن العاشر الميلادي والفن القوطي في القرن الثاني عشر ما هي إلا من ابتكارات أهل الفن المدجني .

ثم تناول المخاض أخيراً فن المصور دومينيكو تيتو كوبولوس الذي عرف باسم الجريكو أو اليوناني لأنه ولد ونشأ في بلاد اليونان ودرس في إيطاليا ثم وفد على إسبانيا وعاش فيها حتى وفاته . وقد كانت لوحات هذا الفنان في بادئ الأمر ذات طابع إيطالي ثم لم تثبت أنأخذت الطابع الإسباني والروح الإسبانية الخالصة . ثم تتبع المخاض تطور فن الجريكو كفنان إسباني كما تكلم عن الخصائص الإسبانية لفنه وكيف أن بعض لوحاته تبدو وكأنها بعث للفن

المصرى القديم وبعضاها الآخر يبدو وكأنه استمرار لرسوم الفن المدجني ، وختم كلامه قائلاً بأننا لا يمكن أن نفهم فن الجريكو ومن جاء بعده من مصوري إسبانيا حتى جويا إلا إذا عرفنا الأصول المصرية والإسلامية لفن الإسباني عامه .

الدكتور أنطونيو الماجرو ديات : جولة قصيرة في الزمان والمكان ،  
طرشيش والأندلس واقليم اندالوبيا الحالى ، ٢٤ أبريل ١٩٦٣

هذه هي ثالثة المحاضرات من تلك السلسلة التينظمها لكي يعرض فيها الأستاذ الماجرو آراءه حول الفن الإسلامي عامه والأندلسى خاصة ، وفي هذه الحاضرة أراد الأستاذ الماجرو أن يظهر كيف أن كل العناصر الفنية والطرز المعاصرة التي ذكرها في محاضرته السابقتين باقية مستمرة إلى اليوم ، وقد دعم رأيه بعرض مجموعة كبيرة من الأفلام الثابتة الملونة (سلايدز) تمثل جولة كبيرة في نواحي الأندلس الحالى بما في ذلك القرى والضياع والمدن والكنائس والقصور والآثار والمبانى العادية وبيوت الفلاحين مبيناً العناصر الإيبيرية والمصرية القديمة والإسلامية في كل منها .

### محاضرات أقيمت في خارج دار المعهد خلال سنة ١٩٦٣

سلسلة من أربع محاضرات للتعريف بالجمهورية العربية المتحدة :

قام السيد الأستاذ عبد الحميد عوض المستشار الصحفى بالسفارة بتنظيم سلسلة من أربع محاضرات للتعريف ببلادنا بالاشتراك مع المكتب السياحى ومعهد الدراسات الإسلامية .

وقد أقيمت هذه المحاضرات في مدريد بدار اللجنة القومية للشباب Delegación Nacional de Juventudes الإسبانية (الفلانخ) كما أنها تتبع أيضاً انتقابة الطلاب الجامعيين (السيو .S.E.U .).

ولم يقتصر الأمر على المحاضرات ، بل قدمت بعد كل محاضرة عروض سينائية عرضت فيها أفلام ثقافية عن بلادنا ووزعت كذلك نشرات دعائية . وعلى أساس المعلومات التي تضمنتها المحاضرات والأفلام والنشرات ، نظمت مسابقة صغيرة بين الجمهور الذي حضرها وهي عبارة عن أسئلة يراد منها تحديّن الشباب الإسباني على الاهتمام بشئون مصر وقراءة بعض الكتب عنها . وقد أقيمت هذه المحاضرات بعد ظهر أيام السبت على النحو التالي :

الأستاذ عبد الحميد عوض : ما هي مصر ؟ ، ١٢ يناير ١٩٦٣

الدكتور محمود على مكي : معالم تاريخ مصر الحديث ، ١٩ يناير ١٩٦٣

السيدة بلانكا تييرا فييرا : آثار النوبة ، ٢٦ يناير ١٩٦٣

الدكتور حسين مؤنس : مشاكلنا وكيف نعالجها ؟ ٢ فبراير ١٩٦٣

### أسبوع محاضرات عن مصر القديمة

أقيمت هذه المحاضرات نفر من كبار المتخصصين والأستاذة الإسبانية وذلك في القاعة الكبرى للأنثيو وكان الغرض من تنظيم هذه السلسلة إعطاء فكرة كاملة عن حضارة مصر القديمة وتاريخها منتهرين في ذلك فرصة صدور كتاب قيم عن مصر القديمة باللغة الإسبانية المؤرخ البلجيكي الكبير جاك بيرين . وفيما يلي بيان هذه المحاضرات وتاريخ القائمة :

١ - الدكتور حسين مؤنس : مصر ودورها في تواريχ الحضارة العالمية ،  
٢٤ أكتوبر ١٩٦٣

٢ - الدكتور مارتين الماجرو : تكوين الشعب المصري ، ٢٤ أكتوبر  
١٩٦٣

٣ - الأستاذ رودولفو خيل بن أمية : مصر واسبانيا بين الماضي والحاضر ،  
٢٥ أكتوبر ١٩٦٣

٤ — الأب بنيمتو ثيلادا : مكان علم المصريات القديمة بين الانسانيات ،

٢٦ أكتوبر ١٩٦٣

٥ — الدكتور أنطونيو الماجرو دياش : أصول حضارة الغرب وثقافته ،

٢٨ أكتوبر ١٩٦٣

٦ — الدكتور سنتياغو مونتيرو دياش : الثورات الثلاث في تاريخ مصر

القديمة ، ٣٠ أكتوبر ١٩٦٣

٧ — الأستاذ ازريكي بيريث كومندادور : المثال خرافسيو دي نوريا

الإشبيلي في مصر .

### سلسلة محاضرات عن الأدب العربي المعاصر

ألقى هذه المحاضرات اثنان من خيرة شباب المستشرقين الإسبان وهما : الدكتور بدرُو مُنْتَابِثُ الأَسْتَاذُ بِكْلِمَةُ الْآدَابِ بِجَامِعَةِ مَدْرِيدِ وَالْآنْسَةُ مَارِيَا اوخينيا جالبُث ، وكلاهَا عاش ودرس بالقاهرة بعض سنوات كاً اشتغل كل منها بترجمة بعض عيون الأدب العربي المعاصر . وقد القيت هذه المحاضرات في قاعة اللاتينيو بمدريد وفيها يلى بيان بهما :

١ — بدرُو مُنْتَابِثُ : الْقَوْمِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ كَتْنِيَّةٌ مِنْ نَتَائِجِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى وَكَمْوَجَّهٌ أَسَاسِيٌّ لِلْآدَبِ الْعَرَبِيِّ الْمُعَاصِرِ ، ١١ دِيْسِمْبِر ١٩٦٣

٢ — بدرُو مُنْتَابِثُ : الْقِيمُ الْأَدِيَّةُ وَالْإِنْسَانِيَّةُ فِي اِتَّاحَةِ شِعَرَاءِ الْمَهْجُورِ ، ١٨ دِيْسِمْبِر ١٩٦٣

٣ — مارِيَا اوخينيا جالبُث : النَّثَرُ الْعَرَبِيُّ قَبْلَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى — جيل أدباء النهضة ٨ يناير ١٩٦٤

٤ — بدرُو مُنْتَابِثُ : الشِّعْرُ الْعَرَبِيُّ قَبْلَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى — محاولات التجديد في المواضيع والأوزان ، ١٥ يناير ١٩٦٤

- ٥ — ماريا ايوخينيا جالبث : المسرح ، ميدان جديد في الأدب العربي — توفيق الحكيم وانتاجه المسرحي ، ٢٢ يناير ١٩٦٤
- ٦ — بدرُو مونتابث : من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥٢ ما بين التقليدية والاتجاه الاشتراكي في الأدب العربي ، ٢٩ يناير ١٩٦٤
- ٧ — بدرُو مونتابث : أدب الثورة العربية — اتجاهات جديدة في شعر الشباب — الشعر الغنائي الوطني ، ٥ فبراير ١٩٦٤
- ٨ — بدرُو مونتابث : اتجاهات جديدة في شعر الشباب — الواقعية الاجتماعية ، ١٢ فبراير ١٩٦٤
- ٩ — بدرُو مونتابث : اتجاهات جديدة في شعر الشباب — الشعر الغنائي وطابع الرومانسية الجديدة ، ١٩ فبراير ١٩٦٤
- ١٠ — ماريا ايوخينيا جالبث : الرواية في الأدب العربي من سنة ١٩٥٢ حتى الوقت الحاضر ، ٢٦ فبراير ١٩٦٤
- ١١ — ماريا ايوخينيا جالبث : الأقصوصة في الأدب العربي من سنة ١٩٥٢ حتى الوقت الحاضر ٤ مارس ١٩٦٤
- ١٢ — ماريا ايوخينيا جالبث : المسرح العربي من سنة ١٩٥٢ حتى الوقت الحاضر ، فن أدبي جديد في مفترق الطرق ، ١١ مارس ١٩٦٤
- ١٣ — ماريا ايوخينيا جالبث : تحرير المقالة الصحفية كفن جديد من فنون الأدب العربي ، ١٣ مارس ١٩٦٤
- ١٤ — بدرُو مونتابث : الشعر العربي الشعبي في القرن العشرين — الزجالون المعاصرون ، ١٨ مارس ١٩٦٤

### كتب ومطبوعات

أنجز المعهد خلال شهر أبريل سنة ١٩٦٣ طبع الجزء الخاص بمحفظة وتاريخ الأندلس من كتاب : ترصيع الأخبار وتتويع الآثار ، والبستان في

غرائب البلدان والمسالك إلى جمیع الممالک ، لأحمد بن عمر بن أنس العذری الذى حققه الأستاذ الدكتور عبد العزیز الأھواني . ويعتبر هذا الكتاب من أحسن ما أخرجه المعهد من مطبوعات . وبهذه المناسبة نشير إلى أن الكتاب الذى استحق عليه الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى جائزة الدولة التشجيعية في الفلسفة لسنة ١٩٦٣ وهو كتاب مختار الحكم ومحاسن الكلم للمبشر بن فاتك ، هو أيضاً من منشورات هذا المعهد .

### الاحتفال بالذكرى المئوية التاسعة لوفاة العالم الأندلسى ابن حزم

يعتبر أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم في طليعة من أنجذب الفكر الإسلامي في ميادين الفقه والتاريخ والأدب ، وهو دون شك واحد من ثلاثة أو أربعة هم أعظم من أخرجتهم قرطبة من المفكرين ، ولا زال كتابه « الفصل في الملل والنحل » أحسن ما أخرجته العصور الوسطى في الشرق والغرب في تاريخ الأديان المقارن ، وكتابه « طوق الجمامه » درة من درر الأدب العربي في تحليل عاطفة الحب وعلماته . وكذلك بقية كتبه ، كل منها يعد فريداً في بابه . وقد توفي ابن حزم في ١٥ شعبان سنة ٤٥٦ هـ ( يوليو ١٠٦٣ م ) .

وكان هذا المعهد قد سعى في تبنيه السلطات الإسبانية إلى ضرورة الاحتفال بهذه الذكرى وتحدث مع المسؤولين في قرطبة في ذلك منذ بداية هذه السنة فأيدوا الفكرة على أن يكون الاحتفال باسم معهد الدراسات الإسلامية وأكاديمية العلوم في قرطبة ومدرستى الدراسات العربية في مدريد وغرناطة .

وفي نفس الوقت أرادت بلدية قرطبة أن تحيط هذا الاحتفال بأكبر مظاهر الدعاية فأبدت رغبتها في عمل تمثال لابن حزم واقامته في قرطبة . وقد كلف بهذا العمل مثال ممتاز هو السنیور أماریو رویث أولموس أستاذ النحت في مدرسة الفنون والصناعة في قرطبة . ونظراً لعدم وجود أى نص تاريني

في وصف ملامح ابن حزم وهيئته فقد اضطررنا إلى أن نستشف ذلك من كتاباته وأقوال معاصريه فيه . وقد جاء المثال مطابقاً للوصف الذي قدمناه للمثال المذكور : ملامح رجل وسيم مهيب الهيئة عصبي المزاج ، طويل التأمل ، عميق التفكير ، ملابسه ملابس رجال ثرى يعيش في سعة من العيش كما كانت حال ابن حزم . والمثال بالحجم الطبيعي لرجل وقد أقيم المثال في قرطبة عند باب اشبيلية الذى كان يعرف على أيام العرب باسم العطارين . وقد احتفل بازاحة الستار عن هذا المثال في اليوم الأول من المهرجان أى في حفل الافتتاح الذى أقيم في صباح الأحد ١٢ مايو سنة ١٩٦٣

ولقد استمر مهرجان ابن حزم ثمانية أيام من الأحد ١٢ إلى السبت ١٨ مايو سنة ١٩٦٣ وكان البرنامج فيه على النحو التالي :

١ — جلسة علمية يومية تبدأ من الساعة العاشرة صباحاً وتستمر حتى الساعة ١٢ ظهراً وتلقى في أثنائها ثلاث محاضرات وذلك في احدى قاعات نادي الصداقة في قرطبة .

٢ — جلسة شعرية تعقد عقب كل جلسة علمية وتستمر حتى الساعة الثانية ظهراً . وقد خصص يوم لكل بلد عربي ، يقدم فيه وفد هذا البلد منتخبات من شعراء بلاده أو من الشعر الأندلسى أو من الشعر العربي عامه .

٣ — زيارة معالم قرطبة الأثرية وحضور الحفلات الرسمية وما إلى ذلك بعد الظهر .

### المجلسات العلمية وما ألقى فيها من المحاضرات في هذا المهرجان

المجلسه العلمية الأولى ، الاثنين ١٣ مايو سنة ١٩٦٣

١ — الأستاذ سعيد الأفغاني : نظرات في اللغة عند ابن حزم .

- ٢ - الدكتور محمود على مكي : ابن حزم وعمل قرطبة الفقهى .
- ٣ - الدكتور روجيه أرنالديز : ابن حزم وعلم الكلام في الإسلام .
- ٤ - الأستاذ محمد عبد الله عنان : ابن حزم والمجتمع الأندلسى في عصر الطوائف .

الجلسة العلمية الثانية ، الثلاثاء ١٤ مايو سنة ١٩٦٣

- ١ - الدكتور خوان بيرنيت : العلامة الرياضيون في الأندلس في كتب ابن حزم .
- ٢ - الدكتور شارل بلا : ابن حزم وابن شهيد والشعر العربي .
- ٣ - الدكتور مانويل أوكانيا خيمينيث : ملاحظات حول قرطبة في عصر ابن حزم .

الجلسة العلمية الثالثة ، الأربعاء ١٥ مايو سنة ١٩٦٣

- ١ - الدكتور بوسك بيلا : ابن حزم النسابه .
- ٢ - الدكتور فرناندو دي لاجرانخا : السوابق المشرقة لموضوع «علامات الحب» .

الجلسة العلمية الرابعة ، الخميس ١٦ مايو سنة ١٩٦٣

- ١ - الدكتور الأب داريو كابانيلاس : ابن حزم ومناهج التعليم في الأندلس .
- ٢ - الدكتور بدرود مارتينيث موتايث : قرطبة والأندلس في الشعر العربي المعاصر .
- ٣ - الدكتور الياس تيريس سادابا : أخبار عن حياة ابن حزم في كتاب تلميذه الحميدى .

الجلسة العلمية الخامسة ، الجمعة ١٧ مايو سنة ١٩٦٣

- ١ — الدكتور دافيد جونثالث مايسو : بحاجة دينية بين ابن حزم وابن التغراة .
- ٢ — الدكتور ميجيل كروث ايرناندث : تفكير ابن حزم والثقافة الأندلسية في عصر الخلافة .
- ٣ — الدكتور خيمي أوليفر أسين : طوق الحمامه وأثره في الأدب الإسباني .

الجلسة العلمية السادسة ، السبت ١٨ مايو سنة ١٩٦٣

- ١ — الدكتور هنري تيراس : فن العمارة الإسلامي في أواخر القرن العاشر وأوائل الحادى عشر .
- ٢ — الدكتور نافع النجاري : ابن حزم المفكر الأديب المتكلم الجدل .
- ٣ — الدكتور حسين مؤنس : مراتب العلوم عند ابن حزم .
- ٤ — الأستاذ أنطونيو كارلوس بيدال : الحميدى الميورق تلميذ ابن حزم .
- ٥ — الدكتور لويس سيكو دى لويثينا : ملاحظات حول كتاب نقط العروس لابن حزم .

### الجلسات الشعرية في هذا المهرجان

أقيمت أيضًا في القاعة الكبرى في نادي الصداقة بقرطبة وذلك عقب الجلسات العلمية وقد خصص يوم لكل بلد عربي على النحو التالي :

- الجلسة الشعرية الأولى ، الاثنين ١٣ / ٥ / ١٩٦٣ : سوريا
- » » الثانية ، الثلاثاء ١٤ / ٥ / ١٩٦٣ : لبنان وليبيا
- » » الثالثة ، الأربعاء ١٥ / ٥ / ١٩٦٣ : الجمهورية العربية المتحدة

- الجلسة الشعرية الرابعة ، الخميس ١٦ / ٥ / ١٩٦٣ : المملكة العربية السعودية  
 » « الخامسة ، الجمعة ١٧ / ٥ / ١٩٦٣ : الباكستان  
 » « السادسة ، السبت ١٨ / ٥ / ١٩٦٣ : المملكة المغربية

وإلى جانب هذه الجلسات العلمية والشعرية ، حفل هذا الأسبوع أيضاً  
 بنواحي نشاط أخرى نجملها فيما يلي :

- ١ - تمثيل ثلاث مسرحيات للأستاذ توفيق الحكيم وهي بيت الفل  
 وأغنية الموت وشهرزاد وذلك في مساء يومي ١٤ ، ١٦ مايو سنة ١٩٦٣ على  
 مسرح نادي الصداقة بقرطبة ، وقد مثلت هذه المسرحيات باللغة الإسبانية وهي  
 من ترجمة المستشرق الإسباني بدره موتتابث .
- ٢ - إقامة معرض للفنون والصناعة التقليدية المصرية القديمة والإسلامية  
 في إحدى قاعات نادي الصداقة بقرطبة وقد ظل هذا المعرض مفتوحاً حتى  
 أوائل يونيو سنة ١٩٦٣
- ٣ - اشتراك الزميل الفنان محمد صبرى في هذا المهرجان بمجموعة من  
 لوحاته تصوير مناظر مصرية وأندلسية وذلك في صالون المعارض الرسمي التابع  
 لبلدية قرطبة .
- ٤ - إلقاء محاضرة عن الجمهورية العربية المتحدة ، أعدها وألقاها الأستاذ  
 عبد الحميد عوض المستشار الصحفي في سفارتنا وذلك في مساء الأربعاء ١٥ مايو  
 سنة ١٩٦٣ في إحدى قاعات نادي الصداقة بقرطبة .

#### شئون البعثات والمنح والاجازات الدراسية المصرية

أشرف المعهد خلال هذه السنة ١٩٦٣ على الطلبة المصريين الآتية أسماؤهم :  
 السيدة فاطمة أحمد حسن : حصلت على إجازة دراسية لمدة سنة لمراقبة  
 زوجها الدكتور أحمد عن الدين نعيم ثم لاستكمال دراستها في إسبانيا .

الدكتور أحمد عن الدين نعيم : طبيب الرمد بوزارة الصحة ، حصل على بعثة دراسية لمدة سنة في إسبانيا ابتداء من أكتوبر سنة ١٩٦٣ للتحصص في الكيرو بلاستيكا أي ترقيع القرنية ، وقد التحق بمعهد الدكتور براكيه في برشلونة وقام بدراساته هناك .

الدكتور مصطفى كمال حجازي : وصل إلى إسبانيا في فبراير سنة ١٩٦٣ قادماً من هولندا بناء على توصية أساتذته هناك الذين نصحوا بأن ينحصص الشهور الأخيرة من بعثته للدراسة في إسبانيا . وقد التحق منذ وصوله بمعهد دراسة المصالح في مدينة بلنسية ، وسارت دراسته سيراً منتظماً هناك .

الآنسة ماري إلين بول كلوناريس : درست فن التصوير تحت إشراف المعهد منذ سنة ١٩٦٣ والتحقت بكلية سان فرناندو للفنون الجميلة في مدريد وكانت منتظمة في دراستها .

الآنسة آمال أحمد كامل : حاصلة على شهادة إتمام الدراسة الثانوية من القاهرة ووفدت على إسبانيا لدراسة فن التصوير في كلية سان فرناندو للفنون الجميلة في مدريد وذلك في ٤ مايو سنة ١٩٦٣ وقد التحقت بهذه الكلية وبدأت دراستها فيها .

الآنسة عفاف أحمد كامل : حاصلة على دبلوم الفنون الجميلة قسم التصوير من القاهرة وقد وفدت على إسبانيا في مايو ١٩٦٣ لاستكمال دراستها في التصوير في كلية سان فرناندو للفنون الجميلة وقد التحقت بهذه الكلية وسارت في دراستها سيراً طبيعياً .

الآنسة ماجدة أحمد نجيب : طالبة كفيفه وفدت على إسبانيا في سبتمبر سنة ١٩٩١ على منحة خاصة من رئيس الدولة الإسبانية للدراسة في معهد الكفيفات في مدريد ، وكانت تدرس في القاهرة في معهد النور في الزيتون وهي حاصلة على الشهادة الابتدائية . والمعهد الذي درست فيه معهد داخلي يعطي شهادة

تعادل الاعدادية عندنا . وقد يسر لها المعهد إلى جانب ذلك دروساً منتظمة في العزف على الاكورديون نظراً لميلها إلى الموسيقى .

السيد أحمد عبد الحميد يونس : طالب كفييف أرسله والده الدكتور عبد الحميد يونس إلى إسبانيا في أكتوبر سنة ١٩٦٣ ليحصل على البكالوريا الإسبانية ويواصل دراسته في الجامعة بعد ذلك .

### المعارض والنوادي الفنية

— في ١٤ مارس ١٩٦٣ تم افتتاح قسم جديد للفنون الشرقية بمتحف الآثار البلدي بمدريد وقد احتوى هذا القسم على تماثيل وأواني خزفية وآلات بدوية تمثل حضارات ما قبل التاريخ كالمصرية والبابلية والاشورية والفارسية .. الخ . وهي من إهداء العالم الأخرى الإسباني ماريبيث سانتا أولايا .

— أقيم في هذا الشهر أيضاً المعرض السنوي الرابع والثلاثون للفنون الجميلة بقصر الريترو بمدريد . وقد اشترك في هذا المعرض أكثر من أربعين فنان على اختلاف مدارسهم . وقد تقدم السيد الزميل الفنان محمد صبرى إلى هذا المعرض بلوحتين باستيل نالتا تقدير لجنة التحكيم ففتحته الميدالية الثانية في التصوير وكان في العام الماضى قد حاز الميدالية الثالثة . وقد ظهرت اللوحات الفائزة في التلفزيون وأذيعت من جميع محطات الإذاعة ونشرتها الصحف .

## معهد الدراسات الاسلامية خلال سنة ١٩٦٤

### دروس اللغة العربية في المعهد

افتتح موسم تدريس اللغة العربية في المعهد كما هي العادة في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٦٤ ، وقد قسم الطلبة المسجلون إلى فصلين بحسب مستوىهم في معرفة اللغة العربية :

الفصل الأول ٢٣ طالباً ويقوم بالتدريس فيه الدكتور حسين مؤنس .  
الفصل الثاني ١٦ طالباً ويقوم بالتدريس فيه الدكتور أحمد مختار العبادى .  
ويعطى طلبة كل فصل درسان في الأسبوع .

### المحاضرات التي أقيمت في دار المعهد

— محاضرة للأستاذ الدكتور باسكوال مارين ييريث أستاذ القانون المدني بجامعة مدريد عن «الاصلاح الزراعي في الجمهورية العربية المتحدة ومقارنته بما تم في ذلك الميدان في إسبانيا» .

وقد أقيمت هذه المحاضرة بدار المعهد في مساء ٦ مارس سنة ١٩٦٤

— محاضرة للمستشرق الألماني ويلهلم هونرباخ عن كتاب منتخبات جديد من تشبيهات شعراء الأندلس » وقد أثبت المحاضر أن مؤلف هذا الكتاب هو أبو عبد الله محمد بن الحسن المذبحي المعروف بابن الكثاني وقد عاش في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الهجري وكان أستاذًا للعلم الأندلسي المعروف

ابن حزم القرطبي . وقد عقد الأستاذ هونرباخ بعد ذلك مقارنة بين هذا الكتاب ومنتخب أبي آخر ألف في نفس عصره وهو كتاب البديع في وصف الربع لأبي الوليد اسماعيل الحميري الذى نشره الباحث الفرنسي هنرى بيريس سنة ١٩٤٠ وقد بين المخاضر أن نزعة هذين الكتابين متتشابهة ولو أن كتاب ابن الكتانى أوسع بكثير إذ هو لا يكتفى بجميع التشبيهات الغربية النادرة الخاصة بالرياض والزهور كما فعل الحميري بل يشمل ما وضعه الشعراء من مرئيات . وقد أقيمت هذه المخاضرة بدار المعهد فى مساء ٢٧ أبريل سنة ١٩٦٤

— محاضرة عن التشريع الإسلامي في الباكستان الحالية للدكتور خالد إسمحاق الأستاذ بالمعهد المركزي للبحوث الإسلامية في كراتشي . وقد ألقى سيادته هذه المخاضرة بدار المعهد فى مساء ٢٧ أكتوبر ١٩٦٤  
— محاضرة للأستاذ شار بيلا ، الأستاذ بجامعة باريس عن ملامح البطولة الفرنسية الأولى والإسلام .  
وقد أقيمت هذه المخاضرة بدار المعهد فى مساء ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٦٤

### محاضرات أقيمت خارج دار المعهد

— محاضرة للمستشرق الإسباني الكبير غرسية غومس سفير إسبانيا في تركيا عن «آراء حول الخرجات المستعربة» وذلك في مساء ٢٩ يناير ١٩٦٤ بدعوة من جمعية الدراسات والنشرات . وهذه الجمعية هي التي تتولى طبع كتاب له حول المنشجات الأندلسية والخرجات .

### ثلاث محاضرة عن ابن حزم الأندلسى

أقيمت هذه المحاضرات الثلاث في معهد لويس بليس للفلسفة (١٢٧ شارع سيرانو)

بمدريد) وذلك في ٤ أبريل سنة ١٩٦٤ ، وقد ألقى المحاضرة الأولى الأستاذ ميجيل كروث إيرناندث أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة سالمكا ومحافظ البسيط Albacete الإسبانية ، وألقى المحاضرة الثانية الدكتور خواكين لومبا الأستاذ المساعد في قسم الدراسات السامية في جامعة سرقسطة أما المحاضرة الثالثة فقد ألقاها الأب سلفادور نوجالس عميد كلية الفلسفة في جامعة الكلا دى إينارس . وفيما يلي عناوين هذه المحاضرة الثلاث :

الأولى ابن حزم والثقافة الأندلسية في القرن الحادى عشر .

الثانية التفكير الجمالى عند ابن حزم .

الثالثة المكونات الميتافيزيقية للإنية عند ابن حزم .

### سلسلة محاضرات عن الحضارة المصرية القديمة في مدينة سانتاندير

تقع مدينة سانتاندير في أقصى شمال إسبانيا على ساحل المحيط وهى تعتبر من مصايف إسبانيا الكبرى ، ولهذا السبب فضل المعهد أن يكون موعد هذه المحاضرات في موسم الصيف من ٣ إلى ٣١ أغسطس ١٩٦٤ وقد أقيمت في متحف ما قبل التاريخ والآثار في سانتاندير على النحو التالي :

المحاضرة الأولى : الدكتور ميجيل انخل جارثيا جينيا :

وادي النيل فيما قبل التاريخ ، ٣ أغسطس ١٩٦٤

المحاضرة الثانية : الأب خواكين جونثال اتشيجاراي :

نظرة تاريخية على الحضارة المصرية ، ٥ أغسطس ١٩٦٤

المحاضرة الثالثة : الأستاذ حسين وهي أبو العز :

الأهرامات الخالدة ، ٧ أغسطس ١٩٦٤

- الحاضرة الرابعة : الأستاذ مانويل كاريون أيرون :  
العمراء في عصر الدولة القديمة ، ١٠ أغسطس ١٩٦٤
- الحاضرة الخامسة : الدكتور ميجيل أنخل جارثيا جينيا :  
النحت والتصوير في الدولة القديمة ، ١٢ أغسطس ١٩٦٤
- الحاضرة السادسة : الدكتور ميجيل جارثيا جينيا :  
الفن في عصر الدولة الوسطى ، ١٧ أغسطس ١٩٦٤
- الحاضرة السابعة : الأستاذ مانويل كاريون أيرون :  
العمراء في عصر الدولة الحديثة ، ١٩ أغسطس ١٩٦٤
- الحاضرة الثامنة : الأب خواكين اتشيجاراي :  
النحت والتصوير في الدولة الحديثة ، ٤٢ أغسطس ١٩٦٤
- الحاضرة التاسعة : الدكتور ميجيل أنخل جارثيا جينيا :  
الفن في العصرين الصاوي والبطماني ، ٢٦ أغسطس ١٩٦٤
- الحاضرة العاشرة : الدكتور ميجيل أنخل جارثيا جينيا :  
الآراء الدينية للمصريين القدماء ومعتقداتهم ، ٢٨ أغسطس
- الحاضرة الحادية عشرة : الدكتور حسين مؤنس :  
ميلاد مصر الحديثة ، ٣١ أغسطس ١٩٦٤
- وقد تخلل هذه المحاضرات عرض أفلام دعائية عن مصر قام بعرضها المكتب السياحي بسفارتنا في مدريد .

### ست محاضرات عن الحضارة العربية في مدينة مرسية

أقيمت هذه المحاضرات خلال شهر أكتوبر ١٩٦٤ في نادي كراو الثقافي بمدينة مرسية في شرق إسبانيا . وفيما يلي برنامج هذه المحاضرات :

- ١ - الدكتور أنطونيو دي أويوس :  
لحوات عن الحضارة العربية في إسبانيا ، ٥ أكتوبر ١٩٦٤
  - ٢ - الدكتور حسين مؤنس :  
نهضة مصر المعاصرة ، ٧ أكتوبر ١٩٦٤
  - ٣ - الدكتور خوسيه ريكيلمي سالار :  
ابن هود ، ملك مصرية ، ٧ أكتوبر ١٩٦٤
  - ٤ - الدكتور بسكوال مارين بيروت :  
الإصلاح الزراعي في الجمهورية العربية المتحدة ، ٢٠ أكتوبر ١٩٦٤
  - ٥ - الدكتور خوسيه ريكيلمي سالار :  
أثر الإسلام في حضارة الغرب ، دراسة عن حياة ابن عربي المرسى ، ٢١ أكتوبر
  - ٦ - الأستاذ خوسيه بايسنتر :  
صور من الحياة في مصرية الإسلامية ، ٢٦ أكتوبر ١٩٦٤
- وقد تخلل هذه المحاضرات عرض أفلام ثقافية عن مصر وبعض البلاد العربية الشقيقة وذلك في قاعة سينما ركس ، وهي أكبر دور السينما في مصرية .  
وفيما يلى بيان الأفلام التي عرضت :
- الأربعاء ٧ أكتوبر ١٩٦٤ : نداء الأهرام — الشتاء في مصر — دير سانت كاترين — إجازة في مصر
- الجمعة ١٦ أكتوبر ١٩٦٤ : المثال مختار — الأردن التاريخي والديني والسياحي والاقتصادي .
- الاثنين ١٩ أكتوبر ١٩٦٤ : العراق — زيارة وزير الاعلام الإسباني للجمهورية العربية المتحدة — إنفاذ آثار التوبة

### الدورة الثالثة للجلسات العلمية الأندلسية في مدريد

في خلال شهر نوفمبر من هذه السنة ثم عقد الدورة السنوية الثالثة للجلسات العلمية الأندلسية وقد أقيمت هذه المرة في مدينة مدريد في القاعة الكبرى بدار المجلس الأعلى للأبحاث العلمية رقم ٤ شارع مديناثيلي . وقد اقتصرت هذه الدورة على الجانب العلمي أي المحاضرات والزيارات العلمية ، وفيما يلي بيان ما تم في هذه المناسبة :

حفل الافتتاح : أقيم هذا الحفل صباح الاثنين ٢٣ نوفمبر ١٩٦٤ ، ورأسه وزير التعليم الدكتور مانويل لورا تمايو والسيد خوسيه ماريا الباريدا إيريرا سكرتير عام المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، والمدير العام للتعليم الجامعي بوزارة التعليم ، ومديراً مدرستي الأبحاث العربية في مدريد وغرناطة ، ومدير معهد الدراسات الإسلامية في مدريد . وببدأ الحفل بخطاب عظيم الأهمية من الأستاذ لويس سيكولو دى لوثينا مدير مدرسة الأبحاث العربية في غرناطة ، وقد دار هذا الخطاب حول نقطة رئيسية هي أن العصور الإسلامية من تاريخ إسبانيا حلقات من التاريخ القويم الإسباني وأبطالها أبطال قوميون جديرون بكل تمجيد وعظيم ، وتراثها السياسي والحضاري تراث عظيم يقارن بأعظم ما وصلت إليه إسبانيا في عصورها المسيحية .

وتحدث بعد ذلك وزير التعليم الدكتور لورا تمايو فأيد هذا الكلام وقال أن تاريخ العرب في إسبانيا يعتبر فترة قومية مجيدة من تاريخها ثم أطري فكرة هذه الجلسات العلمية الأندلسية باعتبارها طرificeً لتوكيد علاقات الصداقة مع العالم العربي الناهض .

ثم ألقى السيد مدير المعهد محاضرة الافتتاح وهي المحاضرة الأولى في سلسلة محاضرات هذه الدورة وبيانها كما يلي :

المحاضرة الأولى : الدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الإسلامية  
بمدررید : آراء حول عصر ملوك الطوائف ، صباح ٢٣ نوفمبر ١٩٦٤

الخاتمة الثانية : الدكتور فرناندو دي لاجرانجا الأستاذ بجامعة سرقسطة :  
حياة أبي مروان اليحاني وكراماته ، مساء ٢٣ نوفمبر ١٩٦٤

الحاضرة الثالثة : الأستاذ هنري تيراس مدير المعهد الثقافي الفرنسي في  
مديري المعروف باسم «دار بلاسكت» : الفن الأندلسي ، اكتشافات واتجاهات  
جديدة ، مساء ٢٣ نوفمبر ١٩٦٤

الحاضرة الرابعة : الأب الدكتور فيليكس بارينخا :  
الشطرنج الأندلسي ، مساء ١٣ نوفمبر ١٩٦٤

الحاضرة الخامسة : الدكتورة سوليداد خبيثت :  
الأديب الشاعر أبو البركات البليغى ، مساء ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤

الحاضرة السادسة : الدكتور خاثنتو بوسك بيل الأستاذ بجامعة غرناطة :  
علم الانساب والنسبون في الأندايس ، مساء ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤

الحاضرة السابعة : الدكتور أحمد مختار العبادى  
الأعياد فى مملكة غربناطة ، مساء ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤

الحاضرة الثامنة : الأستاذ ميجيل كروث ايرنانت الأستاذ بجامعة سامنكة :  
اعادة النظر في الدراسات الخاصة بابن رشد ، مساء ٢٥ نوفمبر ١٩٦٤

الحاضرة التاسعة : الدكتور خوسيه باسكوت رويث الأستاذ بالمعهد الإسباني في طنجة : مؤلفات مخطوطات ابن الأهرام المؤرخ ، مساء ٢٥ نوفمبر .

الحاضرة العاشرة : الأستاذ نيفل باربر :

السعديون ملوك المغرب وموقفهم من المغرب ، مساء ٢٥ نوفمبر ١٩٦٤

الحاضرة الحادية عشرة : الدكتور خوان بيرينيت خيمس الأستاذ بجامعة برشلونة : دراسات حديثة حول تاريخ العلوم عند العرب ، مساء ٢٦ نوفمبر .  
الحاضرة الثانية عشرة : دافيد جوشالو مايسو الأستاذ بجامعة غرناطة : ملحمة السيد والإسلام ، مساء ٢٦ نوفمبر ١٩٦٤

الحاضرة الثالثة عشرة : بورو مارتينيث مونتابث الأستاذ المساعد بجامعة مدريد : دراسة عن التجارة الأندلسية في العصر الوسيط ، مساء ٢٦ نوفمبر .  
الحاضرة الرابعة عشرة : خواكين بالبيه الأستاذ المساعد بجامعة مدريد : دراسة حول الاعلام الجغرافية في اقليم مالقة الإسلامية ، مساء ٢٧ نوفمبر .  
الحاضرة الخامسة عشرة : الأب دارييو كابانيلاس الأستاذ بجامعة غرناطة : الموريسيكي الونسو دل كاستيليو وترجمته للكتابات المنقوشة في قصر الحمراء ، ٢٧ نوفمبر .  
الحاضرة السادسة عشرة : الدكتورة كليليا سارنيلي الأستاذة بالمعهد الشرقي بجامعة نابلي : شخصية مجاهد العاصي وجهاده في الخوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، مساء ٢٧ نوفمبر ١٩٦٤

الحاضرة السابعة عشرة : الدكتور شارل بيللا الأستاذ بجامعة باريس : حول ابن وهبون ، مساء ٢٧ نوفمبر ١٩٦٤

الحاضرة الثامنة عشرة : الدكتور إيلياس تيريس سادابا الأستاذ بجامعة مدريد : بيستان مروانيان أندلسيان ، مساء ٢٨ نوفمبر ١٩٦٤

الحاضرة التاسعة عشرة : الدكتور خايمي أوليفر آسين مدير مدرسة الأبحاث العربية بمدريد : مسائل لغوية أندلسية ، مساء ٢٩ نوفمبر ١٩٦٤

الحاضرة العشرون : الدكتور لويس سيكتو دى لوثينا مدير مدرسة الأبحاث العربية في غرناطة : اكتشاف وثائق عربية غرناطية ، مساء ٢٨ نوفمبر ١٩٦٤

الحاضرة الحادية والعشرون : الأب سلفادور جومس نوجالس الأستاذ بجامعة الكالا دى إينارس : شخصية ابن عربي هامة وصل بين العالم العربي والثقافة الغربية صباح ٢٩ نوفمبر ١٩٦٤

الحاضرة الثانية والعشرون : الدكتور محمود على مكي وكيل معهد الدراسات الإسلامية بمدريد : ابن حيات ونشأة الملك المسيحية ، صباح ٢٩ نوفمبر .

### كتب ومطبوعات خلال سنة ١٩٦٤

— نشر المعهد الإسباني العربي للثقافة في مدريد خلال هذه السنة ترجمة إسبانية لقصة العربية « قرية ظلمة » للأستاذ الدكتور محمد كامل حسين وذلك ضمن سلسلة « مؤلفين عرب معاصرین » وقد قام بترجمة هذه القصة إلى اللغة الإسبانية المستشرق الإسباني الشاب خوسيه ماريا فورنياس الأستاذ بالمعهد الإسباني في سبتة ، وقد سبق أنه درس في مصر مدة سنتين على منحة من الإدارة العامة للثقافة .

— نشر معهد الدراسات الإسلامية في مدريد خلال ١٩٦٤ كتاباً بالأسبانية عن القصة المصرية المعاصرة بعنوان *Siete cuentistas egipcios contemporáneos* أي سبعة قصاصين مصريين معاصرين وهو : نجيب محفوظ ، يحيى حقي ، محمد عبد الحليم عبد الله ، يوسف الشaroni ، يوسف ادريس ، مصطفى محمود ، حسين مؤنس .

مؤلف هذا الكتاب هو الدكتور بدرو مارتينيث مونتابث الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة مدريد . وقد اختار هذا المؤلف سبعة نماذج قصصية لمؤلفات القصاصين وترجمتها إلى الإسبانية مع دراسة عامة عن القصة في الأدب العربي المعاصر . ويقع الكتاب في ١٢٠ صفحة .

— نشر معهدنا أيضاً في خلال هذه السنة كتاباً بالاسبانية في ٣٢ صفحة عن الاصلاح الزراعي في الجمهورية العربية المتحدة ومقارنته بجهود اسبانيا في هذا السبيل للأستاذ الدكتور بسكوال مارين بيرث .

وهذا الكتاب عبارة عن دراسة قانونية للإصلاح الزراعي في بلادنا مع بيان الأسس القانونية والقومية التي دفعت الحكومة المصرية إلى إصدار هذا القانون الاشتراكي ثم من إياته التي يمكن للإصلاح الزراعي الاسباني أن يفيد منها .

### معارض نظمها المعهد أو اشترك في إقامتها خلال سنة ١٩٦٤

— اشترك الفنان المصري الاستاذ محمد صبرى في المعرض السنوى الخامس والثلاثين للتصوير والفنون التشكيلية في مدريد بلوحتين من لوحاته . وقد سبق سيادته أن اشترك في العام الماضى والذى قبله ونال فى الأول ميدالية برونزية وفي الثانى ميدالية فضية وفي هذا العام استطاع الحصول على الجائزة الأولى وميدالية ذهبية وهو نصر كبير حققه لنا هذا المصور الممتاز .

— اشترك كذلك السيد الزميل محمد صبرى بلوحتين من لوحاته في المعرض السنوى الثامن والخمسين لجمعية الباستيل في لندن خلال شهري يوليو وأغسطس .

— أقام المعهد والمكتب السياحى بالسفارة في مدينة سانتاندير شمال اسبانيا معرضاً سياحياً مصرىاً يعبر عن حاضر بلادنا وماضيها وذلك في شهر أغسطس .

— أقام المعهد في شهر اكتوبر ١٩٦٤ في مدينة مرسية شرقى اسبانيا

ثلاثة معارض هي :

- ١ — معرض الفنون المصرية القديمة في قاعة المتحف الاركيدوجي .
  - ٢ — معرض لوحات السيد محمد صبرى في قاعة المعارض بكازينو مرسية .
  - ٣ — معرض اللوحات السياحية والصور الفوتوغرافية في نادى كراو .
- وقد افتتحت هذه المعارض الثلاثة في ٥ اكتوبر واستمرت مفتوحة إلى ٣١ منه .

## ملخصات

### المقالات المنشورة في القسم غير العربي من الصحيفة

د. محمود على مكي : دراسات عن التيارات الثقافية المشرقية  
في الأندلس وأثرها في تكوينه الثقافي (ص ٧ - ١٤٠)

في هذا المقال يتبع الدكتور محمود على مكي نشر بحثه المطول عن هذا الموضوع ، وقد سبق أن نشرنا منه في المجلدين الأسبقين من الصحيفة جزء يتضمن ثلاثة الفصول الأولى .

ويبدأ الجزء الذي نشره هذه المرة بالفصل الرابع — الذي خصصه المؤلف لتأثير العراق الثقافي على الأندلس — بدراسة الأحوال السياسية في العراق منذ قيام العباسيين ، وما كان لهذه الأحداث من صدى في الأندلس وأشار إلى محاولات العباسيين التدبير على بنى أمية الأندلسيين للخلاص منهم وفشل هذه المحاولات وذكر كذلك هيج الربيع وإخراج عدد كبير من أهل قرطبة من الأندلس واستيلائهم على الاسكندرية ثم على جزيرة اقريطش ، وتكلم لهذه المناسبة عن علاقات بنى أمية الأندلسيين مع أباطرة الدولة البيزنطية ، واستمر في دراسة هذه المحاولات وتلك العلاقات حتى نهاية خلافة المعتصم العباسي في سنة ٨٤٢/٥٢٢ م . وأشار بعد ذلك إلى علاقات المودة التي ربطت مصر والمغرب والأندلس إلى بنى أمية الأندلسيين حتى قيام الخلافة القرطبية .

وتكلم بعد ذلك عن الأحزاب السياسية في عراق ذلك العصر مثل الشيعة والخوارج ، ووقف طويلا عند حركات الخارجية في المغرب وتكلم عن الأباذية .

ورأى أئمّة الأندلس في تكفير أصحابها ، في حين أنّ الأمويين نظروا إلى الاستفادة من تلك الحركات الخارجية المعارضة للعباسيين وكسب أصحابها إلى جانبهم ، ومثال ذلك موقفهم من بني رسم الأباضيين أصحاب تاهرت ، وأضاف أنّ الأبااضية انتقلت إلى الأندلس في حدود ضيقة عن طريق مهاجرة البربر إلى هذه البلاد ، وضرب أمثلة على ذلك .

وتكلّم بعد ذلك عن أثر العراق في الحياة الاجتماعية وفي النظم الإدارية في الأندلس ، فقال إن عبد الرحمن الأوسط هو صاحب الفضل في فتح الباب للحضارة العباسية لدخول الأندلس إذ هو الذي «رتب رسوم المملكة وكسا الخلافة أبهة الجلالة» كما يقول المؤرخون ، وقد اتّخذ نظم العباسيين أساساً لهذا الترتيب ، وفصّل الكلام عما دخل الأندلس من معلم الترتيب الإداري العباسي ونظم المجتمع العراقي ، فتحدث عن زریاب وما يعزی إليه ، وعن دخول الاحتفال بالنیروز والمرجان في الأندلس وما إلى ذلك .

ووقف طويلاً عند المذاهب الفقهية التي نشأت في العراق وكيف انتقلت إلى الأندلس فتحدث بتفصيل عن الحنفية خاصة فيه .

وذكر بعد ذلك مدرسة الحديث ، فتتبع أولاً تطور الدراسات الفقهية في الأندلس منذ البداية ، واقتضى منه ذلك دراسة تاريخ علم الحديث في المشرق مع إشارات طويلة إلى أعلام مدرسة الحديث من المشارقة ، وانتقل علم الحديث بعد ذلك إلى الأندلس وكان له فيه تاريخ طويل قصه الدكتور مكي ووقف عند أعلامه من أمثال محمد بن وضاح وبقى بن مخلد ، وتكلّم كذلك على تقارب مدرسة الفقه ومدرسة الحديث وائللافها في مدرسة كبار شيوخ الأندلس خلال القرن الهجري الثالث من أمثال أحمد بن دحيم بن خليل وقاسم بن أصبغ البیانی وأحمد بن سعید ابن حزم .

وبعد أن سرّعاً بدخول المذهب الظاهري الأندلس تكلم عن المدرسة المالكية في العراق وأثرها في الأندلس وأعقب ذلك بدراسة عن الاعتزاز في ذلك البلد ووقف عند هذا المذهب وقفة طويلة ، وضم هذا الباب بحثاً عن ثبات أركان المذهب المالكي في الأندلس وغلبته على غيره من المذاهب .

ثم انتقل إلى الحياة الأدبية فتكلم أولاً عن التجديد الأدبي في المشرق سواء أكان ذلك في الشعر أم في النثر ، ودرس كيف انتقلت تيارات التجديد تلك إلى الأندلس وخاصة الاتجاه الكلاسي المحدث ، وهو الاتجاه الذي غلب على الأدب الأندلسي كله بعد ذلك ، ولهذا وقف د. مكي عنده وقفة طويلة شملت بقية الكتاب .

وفي الختام أتى المؤلف بقائمة من المراجع وقد استغرقت أحدى وعشرين صفحة من المقال .

د. خوان بيرنيت خينس : ألقاب إسبانية ذات أصل عربي في شرق الأندلس . دراسة منهجية (ص ١٤١ - ١٤٧)

في هذا البحث القصير عن الأصول العربية لكثير من أسماء الأعلام الأندلسية يلجم د. خوان بيرنيت أستاذ الدراسات العربية بجامعة برشلونة إلى إحصاء هذه الأسماء أولاً عن طريق قوائم جارية للأسماء ذات طابع تجاري أو مهني أو علمي ، ومن هنا لا يلتفت الناس إليها في مجال الأبحاث العلمية ، وقد اعتمد هنا على اثنين من هذه ، الأول هو الدليل السنوي العام لاسبانيا Anuario General de España ثم أدلة التليفونات Anuarios Telefónicos الخاصة بإقليم قططونية وبلنسية ومرسية ، وهي أدلة كثيرة جداً إذ أن لكل بلد كبير أو عاصمة محافظة أو مركز قضائي دليل باشتراكات التليفون فيه ، أما الدليل

السنوي العام فليس دليلاً احصائياً ، ولكن دليل تنشره إحدى الشركات كل سنة ولا تنشر فيه بطبيعة الحال إلا أسماء من يشتريون فيه ويؤدون الاشتراك .

في هذه النشرات الاحصائية ترد الأسماء مرتبة حسب الألقاب على الطريقة الأوروبية ، وهذا هو المهم ، لأن الأصول العربية لا تبدو في الأسماء وإنما في الألقاب ، لأن الأسماء في العادة مسيحية ، أما الألقاب فاسماء عائلات قديمة أو مواضع قديمة أو حدائق ، وهي ترجم في العادة إلى أجنبية كثيرة سابقة ، ومن ثم فهي تعودنا إلى أصولها .

ويرى د. بيرنيت أن هناك ألقاباً واضحه الطابع العربي مثل Abden و Abda و Atalaja و Albacar ولكن هناك أخرى تحتاج إلى دراسة وتتبع تاريخي وصرف (فيولوجي) . وقال أن النتائج التي تخرج بها من دراسة مثل هذه الأدلة تخص بالضرورة طوائف معينة من الإسبان ، وهي طوائف الميسير بين أوساط وأغنياء وكبار الموظفين ، فهولاء هم الذين ترد أسماؤهم في دفاتر التليفونات وسجلات الضرائب والأدلة العامة وتبقي بعد ذلك ملايين كثيرة من الإسبان لهم ألقاب ذات دلالات لغوية كبيرة ، ومن هنا فإن الاحصاء الذي بني عليه د. بيرنيت هذه الدراسة احصاء نسبي .

وعلى هذا الأساس أحصى الألقاب ذات الأصل العربي في بلاد المريية ومرسية ولقنت وبالماء (ميورقة) وبلنسيبة وقسططيليون وطركونه ولاردة ووشقة فكانت نسبتها إلى بقية الألقاب الواردة في الأدلة والسجلات التي اعتمد عليها تتراوح بين ١,١٪ (المريية) و ٥,٥٪ (في مدينة لاردة) وقد حرص المؤلف على أن يورد الأرقام الاحصائية الخاصة بالمحافظات إلى جانب نسب المدن .

وبعد أن أتي بجدول مقارن شامل للأرقام أورد أهم الاستنتاجات التي يخرج بها من تلك الأرقام وأهمها :

١ - إن نسبة الألقاب العربية تزداد كلما سرنا من الشمال إلى الجنوب فيها عدا محافظتي لقنت ومرسيه .

٢ - في كل المحافظات المذكورة تزداد نسبة الألقاب العربية الأصل في الأرياف عنها في المدن ، فيما عدا بلنسية والبليار ورجح أن السبب في هذا الاستثناء هو أن نسبة التليفونات إلى السكان في هاتين المحافظتين أعلى من مثيلاتها في بقية المحافظات التي درسها ، فهي في البليار ١٥٪ وفي بلنسية ١٦٪ .

٣ - تزداد نسبة تلك الألقاب في وشقة عنها في ماردة وذلك لأن عدد أسماء الموضع في وشقة أعلى منه في لاردة .

ثم تسأله في نهاية المقال عما إذا كانت تلك الألقاب العربية ترجع حقيقة إلى أصول عربية أو ببرية أو مدجنبة أو مدريشلية ، ورجح أن يكون ذلك هو الواقع وأتى بأدلة ذلك في إيجاز معتمداً على دراسات سابقة لباحثين سابقين عليه مثل فادال وجيرالث .

أمبروزيو أوبيني ميراندا : ابن جحاف فاضي بلنسية الذي أحرقه السيد حياً . إعادة نظر في الموضوع (ص ١٤٩ - ١٦٧)

في هذا المقال يحاول الأستاذ أمبروزيو أوبيني أن يعيد النظر في موقف الاستشراق الإسباني بالذات في قضية القاضي أبي جعفر أحمد بن جحاف الذي أحرقه السيد القمبيطور أثناء فترة استبداده بأمر بلنسية في النصف الثاني من القرن الحادى عشر الميلادى . وقد اقتضاه ذلك ترديد النظر من جديد في كل ما قام به السيد من أفعال في بلنسية .

والموضوع قديم يرجع إلى أواخر القرن الماضى عندما اكتشف دوزى نص ابن بسام الذى يدور على السيد ونشره مع مقال ضاف عن السيد كشف فيه

النواب عن أعماله ووصفه بأنه محارب مرتق عمل مع المسلمين وعليهم ثم ، عندما استولى على بلنسية أذاق أهلها الوبيلات وأحرق القاضي ابن جحاف ونفراً من أهل بلنسية انتقاماً منهم على معارضتهم إياه . ثم جاء العلامة اللغوي الإسباني منندذ بيدال فرفع السيد إلى مقام الأبطال المثاليين وتقى عنه كل شبهة تهمة أو خطأ ، وقد بهر منندذ بيدال الناس بعلمه وسعة اطلاعه وحماسه فقلبت نظرته وشاعت بين الناس وأصبحت وجهة النظر هذه هي السائدة على دراسة السيد داخل إسبانيا وخارجها .

وبطبيعة الحال لم تكن الحقيقة كلها عند دوزي أو منندذ بيدال ، فلم يكن السيد من أهل الحرابة السفاكين كما وصفه دوزي ولا كان هو البطل المثالى الذى صوره العلامة الإسباني ، بل كان محارباً ماهراً جريئاً ذكياً استطاع أن يبهر عيون المجاهير بأعمال رنانة جعلته بطالاً أسطورياً عند الفصاين الشعبين ، ومن هنا فقد اشتقد مع خصومه وجاؤز الخد في معاملتهم في بلنسية ، وهذا ما قاله ليفي بروفنسال في مقال عن السيد كما يراه التاريخ وما أكدناه نحن في دراسة عنه نشرناها في مجلة الجمعية التاريخية المصرية سنة ١٩٥٠

وأمبروزيو أويثي مؤرخ الموحدين أتيحت له الفرصة للاطلاع على وثائق جديدة ، أهمها الورقات التي عثرنا عليها من كلام ابن عذارى عن المرابطين ، وقد نشرها ليفي بروفنسال في مقال مشهور عن استيلاء السيد على بلنسية نشره في مجلة الأندلس . ولكن أويثي في دراسته هنا يسلك مسلكاً جديداً ويقول إن ابن جحاف كان الرئيس الشرعي لأهل بلنسية ، فقد انتخبه أهلها ووكلوا إليه أمراً في ظروف تلاشت معها سلطة الدولة العامة ، وإن قد كان من واجبه الدفاع عن البلد حتى تظهر سلطة شرعية عامة أخرى تتولى الأمر عنه . وهنا لا تتعرض لمسألة كفاية ابن جحاف أو عدم كفايته ، فهذا موضوع آخر ولا يتعرض كذلك لتصرفاته ، لأن الذى يهمنا هنا هو حقيقة مركز الرجل .

والسيد في هذه الحالة معقد على بلنسية فليس له أى حق في الاستيلاء عليها ، فهو لم يكن أميراً ولا ملكاً ولا صاحب حق ، وإنما هو محارب يستغل ما لديه من قوة عسكرية فيأخذ ما ليس له حق فيه ، ثم أنه كان على خلاف مع ملك قشتالة وهذا لا يجعل له أى سبيل إلى الاستيلاء على بلاد وحكمها .

وتتبع الأستاذ أويني علاقات السيد بابن جحاف ودلل على أن المحارب القشتالي خدع هذا الشيخ المسكين واستغل ضعفه وافتقاره إلى قوة عسكرية تسند له لكي يحصل منه على ما يريد خاصة وقد تأخر المرابطون عن إغاثته .

وقد تناول أمبروزيو أويني الأساطير التي قبلها منندز بيدال ليزيد من عظمة السيد مثل عقد زبيدة الذي يقال أنه وصل إلى السيد ولبسه زوجته شيئاً . وختم مقاله بخلاصة أوجز فيها رأيه الذي ذكرناه في الموضوع .

دافيد جندالو مايسو : العرب أستاذة اليهود في  
اسبانيا في العصور الوسطى (ص ١٦٩ - ١٧٩)

ألقى د. جندالو مايسو أستاذ الدراسات العربية بجامعة غرناطة هذه المخاضرة في الدورة الأولى للجلسات العلمية الأندلسية في غرناطة سنة ١٩٦٢ وهو لهذا يبدأ بتحية العلامة المشتركين في هذه الدورة ثم انتقل إلى موضوعه فبدأ عبارة لمنندز بيلابو تشير إلى فضل العرب على العلوم وعلى النهضة الأوروبية بصورة ملتوية تداناً بوضوح على موقف هذا العالمة الإسباني من العرب وحضارتهم وهو موقف تشدد وانكار . وفي هذه العبارة تقرير لدور اليهود في نقل حضارة العرب إلى غيرهم من الأمم .

ومن هنا ينتقل جندالو مايسو إلى الأدب العربي فيقول أنه أدب غريب يتكون تياره من روافد متعددة ، وأعظم هذه الروافد هو العربي ، بل أن العصر الذهبي الحق للأدب العربي كان على أيام العرب وفي الأندلس بالذات ، ومن هنا كان العرب — أستاذة اليهود — بالفعل أستاذة اليهود قاطبة .

ويبدو فضل العرب على اليهود أولاً في اللغة والبلاغة ثم في الشعر ، فقد كتب اليهود في الأندلس نحو لغتهم وبلغتهم على مثال النحو العربي وعلم البلاغة العربية . ووضعوا كذلك أوزان شعرهم على بحور الشعر العربي ، وأنفوا كتاباً في الأدب يحاكون فيها مؤلفات العرب في الأدب . ثم أتى بنص أورده موسى بن عزرا في كتابه المسمى «الحاضرة والمذاكرة» ولا زال مخطوطاً بمكتبة أوكسفورد يعترف فيه بأن اليهود تعاملوا على أيدي العرب وقدروا قولاتهم الفنية وساروا على أثر خطفهم في ميدان العلوم .

ثم تكلم عن حسداي بن شبروط اليهودي الأندلسي العربي الذي كان وزيراً لعبد الرحمن الناصر وابنه الحكم وما قام به للنهوض بالأداب العربية في الأندلس وأتى بترجمة أبيات من شعر المديح وجهها إليه موسى بن عزرا فيقول فيها أن حسداي أيقظ الفكر العربي بعد طول سبات . وعلق جندالو مايسو على ذلك بقوله إن ذلك السبات طال مئات السنين إذ أنه بدأ بعد عهد النبي سليمان في القرن العاشر قبل الميلاد . فكان العرب هم أصحاب الفضل الوحيد في انتهاص الفكر اليهودي ثم أورد بعد ذلك فقرة أخرى لموسى بن عزرا فقرر امتياز العرب وعبقريتهم لغتهم وتفوقهم الفكري في كل ميدان .

ثم قال إن الفكر اليهودي عندما استيقظ بعد طول ركود كان عاجزاً عن إحياء اللغة العربية لأنها لم تعد صالحة لمطالب الحياة في العصور الوسطى ، ولهذا فقد كانت المشكلة التي واجهت اليهود الأندلس هي : هل يعملون على بعث لغتهم أو يتركوها ويتخذلوا العربية . وقد اتبع اليهود السبل الأولى أولاً ثم

الثانية ، وفي بعض الأحيان ساروا عليهما معاً . وخلال قرون كثيرة كانت العربية اللغة الرسمية لليهود في إسبانيا والشرق كله ولا غرابة في ذلك فقد استقر بها تماماً .

وليس معنى ذلك أن اللغة العبرية كانت قد نسيت تماماً ولكنها كانت قد ازوت منذ الأسر البابلي في القرن السادس قبل الميلاد وحلت محلها الآرامية . وفي أيام العرب انتعشت بعض الشيء ولكنها ظلت قاصرة على بيوت العبادة .

وقد بدأت حركة إحياء العبرية بحياء نحوها ، وهى ظاهرة غريبة لأن العادة أن يبدأ الاحياء والنهوض بالشعر والنثر ، ثم يكون وضع النحو بعد ذلك .

ثم تتبع حركة نهوض العربية والفكر اليهودي الأندلسى بفضل العرب وتساهمهم وعلومهم ، وهو تاريخ معروف قصه الأستاذ جونزالو مايسو بتفصيل في كتابه عن تاريخ الفكر العبرى وأورданاه كذلك في تاريخ الفكر الأندلسى . ووقف طويلا بمئلافات اليهود في باب الأدب لأنها كلها تسير على نفس طريقة كتب الأدب العربى مثل الكامل للمبرد او العقد لابن عبد ربه وكذلك فمن المقامات وقد أجاد فيها سلومون الحريري مترجم مقامات الحريري إلى العربية .

وختـ المقال قائلاً إـنه لوـلا الفـكر العـربـي ماـ كان هـنـاك شـيء يـسمـي الفـكر اليـهـودـي ، ولوـلا رـجـال مـشـل أـبـي بـكـر الـزـيـدـي وـالـأـعـلـم الشـنـقـمـي وـأـبـي عـلـى الشـلـوبـين ماـ كان هـنـاك أـمـثـال مـنـاحـم بـن سـرـوق أو دـونـاس بـن لـبـرـاط وـلـا أـبـي زـكـرـيـا دـاوـود حـيـوج وـلـا يـوـحـنـنا بـن جـنـاح أو اـبـراـهـيم بـن عـزـرا أو مـبـذ القـمـحـي . ولوـلا اـبـن رـشـد وـابـن طـفـيل ماـ كان هـنـاك مـوسـى بـن مـيمـون الـذـي لا يـكـفـي اليـهـود عنـ الفـخـر بهـ .

خادو سلاف ستكتيفتش : مشاكل النثر العربي  
الحديث وظواهره ( من ١٨١ - ٢٠٨ )

بعد مدخل عن نشأة النثر في الأدب العالمي بصورة عامة ومناقشة الآراء الخاصة بسبق الشعر عليه في الظهور ، ومن بينها آراء في هذا المعنى لطه حسين واعتراض عمر الدسوقي عليها تحدث ستكتيفتش عن نشأة النثر في الأدب العربي وأتى برأى قال به أحمد أمين في فخر الإسلام عن غلبة الملكة اللعوبية على الملكة التفكيرية عند العرب وولم العرب بجرس اللغة ورنينها دون ما تضمه من المعانى والأفكار . وأشار إلى القرآن الكريم كأول صورة لدينا من النثر العربي وتحدث عن مفهوم بلاغة القرآن : واعجاز القرآن عند مؤرخي الأدب العربي وقال إن أولئك المؤرخين لم يتبيّنوا من هاتين الناحيتين إلا ما يتصل بالبلاغة اللفظية والصور الفنية المفردة ، وقال إن الكتاب الكريم لم يصبح مصدر الهمام أدبي وفني إلا في العصر الحديث فظهرت كتب مثل الأدب القصصي عند العرب لموسى سليمان ( بيروت ١٩٥٦ ) والفن القصصي في القرآن الكريم لمحمد أحمد خلف الله واقتبس توفيق الحكيم أهل الكهف من السورة القرآنية المعروفة .

ثم تسامل بعد ذلك : ما هو أصل النثر العربي الحديث وأجاب أن الأصل هو الصحافة والترجمة ومتطلبات الحياة الحديثة ، وأن النثر الحديث لهذا صنع صنعاً كائناً ركب في معمل . وهذا المعمل كان صحافة القرن التاسع عشر ، وأن هذا القرن لم يظهر فيه نثر عربي واحد عبقرى يستطيع أن يعطي هذا النثر الوليد طابعه المميز مرة واحدة ، وفي هذا المجال نلاحظ أن الصحفة . فقد اجتذبت أهل الفكر والأدب بسرعة صدور من يكتب فيها وتداؤله . لقد اشتغل فيها أدباء العربية المحدثون جيّعاً ، ولهذا فقد سمّيناها المعمل الذي تطورت فيه اللغة ، ونرى مثلاً واضحاً من أثرها عند الشدياق وصحيفته الجواب .

وهذا الأدب الصحفي هو الذي قضى على القوالب القديمة من سجع ومحسنات ، لأن ذلك لا يتفق مع طبيعة النثر الصحفي . وقد التفت الكتاب في أثناء ذلك إلى المذاجر الدقيقة للأدب العربي القديم من أمثال ترجمة كلية ودمنة وكتاب البخلاء للباحث ومقدمة ابن خلدون . وقال أن ابن المقفع اجتذب الناس لأنه اشتهر كمترجم وكانت الترجمة من الواحى الهامة للنشاط الفكري والتقويا إلى المحافظة في الإنشاء البلاغي وإلى ابن خلدون ككاتب اجتماعى يكتب عن قضايا مماثلة لما كان الناس يعالجونه إذ ذاك .

ثم عرض الكاتب مشكلة الفصحي والعامية وما دار من نقاش بين الكتاب من أوائل القرن إلى ما بين الحربين واعتمد هنا على كتاب معروف لمحمود تيمور عنوانه مشكلة اللغة العربية وأشار إلى ما نزع إليه بعض الكتاب إلى العامية مثل يعقوب صنوع وعمان جلال وتحدث عن الفارق البعيد في رأيه بين الفصيحة والعامية وشرح صعوبة الكتابة الفصحي سواء في القصص أو المسرح .

وتكلم بعد ذلك عن الترجمة في القصص خاصة وتحدث عن عمان جلال وطريقته في الترجمة وذكر ما ترجم من اسكندر دوماس ووالتر سكوت وذكر لهذه المناسبة نجيب الحداد وسليمان البستانى .

وتحدث على الأسلوب القصصى بادئاً بالكلام على قصة زينب وعرض آراء محمود حامد شوكت في كتابه عن الفن القصصى في الأدب المصرى الحديث وآراء اسماعيل أدهم في كتابه عن توفيق الحكيم ومحمود تيمور في كتابه المسئى فن القصص وتوفيق الحكيم في كتابه تحت شمس الفكر .

وبعد ذلك عاد إلى الوراء ليتبع تطور النثر بعد ما درس مشاكله فتكلم عن أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ - ١٨٨٧) وقال إن شخصيته تعطى على النثر العربي في القرن التاسع عشر وتحدث عنه في تفصيل وكذلك فعل مع جورجى زيدان وخصائصه كقصاص وجبران خليل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١) ومحمد

حسين هيكل وذكر بعد ذلك طه حسين وعباس محمود العقاد وميخائيل نعيمة ووقف طويلاً عند عودة الروح ويوميات نائب في الأرياف .

وتكلم كذلك على أدب المقالة الصحفية وغير الصحفية وهنا أيضاً تحدث عن محمد حسين هيكل بسبب كتابه المسمى ثورة الأدب بصفة خاصة وتكلم عن مؤلفات أخرى له مثل «جان جاك روسو» و«أوقات الفراغ» الذي يتحدث عن تطور الأدب العربي الحديث من أيام الثورة العرابية وكذلك ذكر كتب طه حسين الخاصة بالنقد الأدبي أو تاريخ الآداب مثل «من حديث الشعر والنشر وحديث الأربعاء» وكذلك فعل مع المازني فتكلم عن صندوق الدنيا وبعض الرسم وخيوط العنكبوب ، ثم انتقل إلى عباس محمود العقاد وميخائيل نعيمه وتوفيق الحكيم وذكر بصفة خاصة كتاب التعادلية ومذهبي في الحياة والفن ، ولطفى السيد وأحمد أمين ومارون عبود .

وبذلك تكون هذه المقالة عرضاً عاماً ممتعاً وشاملاً لنشوء النثر العربي وتطوره في العصر الحديث .

الدكتور أحمد مختار العبادى : محمد الغنى  
بالله ملك غربناطة (ص ٢٠٩ - ٢٢٧)

يعتبر عهد محمد الخامس ، العهد الذى بلغت فيه الدولة الناصرية أوج قوّتها ، والحضارة الغرناطية أبهى مظاهرها وقد ترك لنا ابن الخطيب معاون هذا السلطان ومعاصره عنه فى مؤلفاته أخباراً ومعلومات كثيرة ، وكذلك فعل المؤلفون اللاحقون القريبون من عصره .

وهو خامس السلاطين الذين يحملون اسم محمد . وقد ولد في ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٣٨ / ٥٧٣٩ م . وجلس على العرش بعد أبيه أبي الحاج يوسف .

وعزل لأول مرة في سنة ١٣٥٩ م. وعاد من منفاه بالغرب إلى ولاية العرش في سنة ١٣٦٢ ، ثم توفي في سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م.

ولم يكن «الغنى بالله» لقبه منذ البداية ، ولكنَّه اتخذه عقب انتصاره الحربي في سنة ١٣٦٧ هـ / ٧٦٨ م وكانت شبه الجزيرة الإسبانية تنقسم في عهده إلى خمس ممالك هي قشتالة وأراجون ونبرة والبرتغال وغرناطة ويحدثنا المؤلف بعد ذلك عن نشأة مملكة قشتالة ومعالمها الجغرافية ، ثم عن أراجون ونبرة والبرتغال . ثم يعطف على مملكة غرناطة ، وما كان من تزوج أهل الأندلس إليها ، وشعورهم بالقلق وعدم الاستقرار ، وما كان يتبنّاً به مفكرون مثل ابن خلدون وابن الخطيب عن مصير غرناطة المحتوم .

وكانت قشتالة ألد وأقوى أعداء غرناطة ، وكانت غرناطة في سبيل المحافظة على حياتها ووجودها تخضع لمطالب قشتالة من دفع الجزية وغيرها ، وكانت من جهة أخرى تتجه إلى الاستئثار ببناء الشواطئ المغربية ، وإلى محالفتها بنى مرين .

### الحوادث التاريخية التي سبقت حكم محمد الخامس

كانت موقعة العقاب (١٢١٢ م.) ضربة قاصمة لسلطان الموحدين في شبه الجزيرة ، وقد فتحت خلفاء الفونسو الثامن أبواب الأندلس من ناحية الوادي الكبير ، فعكفوا على التقدّم إلى داخلها دون صعاب .

و لما انهار سلطان الموحدين بالأندلس ، قامت حكومات أندلسية مستقلة جديدة ، وغلب محمد بن الأحمر على بسطة ووادي آش وغرناطة ، ثم نقل مقر حكمه إلى غرناطة في سنة ١٢٣٨ م. وقادت بذلك مملكة غرناطة .

وشغل القشتاليون عن غرناطة مدى حين ، فتوطدت قوتها ، وتحالفت مع بنى مرين ملوك المغرب ، فكان ذلك عاملاً في ثباتها وتأخير دور انحلالها .

ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن أخبار خلفاء محمد بن الأحمر ، منذ محمد الثاني الملقب بالفقيمه ، وعن الحرب الأهلية التي نشبت في المغرب بين أمراء بنى مرين ، وعن محاولة أراغون وقشتالة غزو المرية والجزيرة . ثم يحدثنا عن محمد الثالث ، وأحداث عهده ، وعن فشل الأرجمونيين والقشتاليين في الاستيلاء على المرية والجزيرة ، وما عقد عندئذ من علاقات السلم بين غرناطة وأرagon . ويتناول بعد ذلك عهد السلطان أبي الوليد اسماعيل ، وما وقع فيه من هزيمة ساحقة للقشتاليين ومصرع الوصيin على الفونسو الحادى عشر ملك قشتالة ، واضطرار قشتالة إلى عقد الصلح مع غرناطة وما حدث بعد ذلك داخل قشتالة من نزاع على مسألة الوصاية ، وانهاز السلطان اسماعيل هذه الفرصة لافتتاح عدة مواقع في مناطق بسطة واسكر ومرتش . وينوه المؤلف بما حدث في حصار أشقر من استعمال المسلمين آلة تشبه المدفع ، وذلك حسبما يحدثنا ابن الخطيب ، وهو أقدم تاريخ ينسب إلى استعمال هذه الآلات القاذفة .

وتوفي السلطان اسماعيل قتيلاً في سنة ١٣٢٥ م . وخلفه ولده محمد الرابع ، ثم توفي قتيلاً بعد أحداث حرية عديدة ، وخلفه ولده أبو الحجاج يوسف الأول في سنة ١٣٣٧ / ٧٣٣ هـ .

وفي عهد السلطان أبي الحجاج جددت علاقات السلم مع أرagon ، وعقد بين الملكتين معاهدة صداقة وسلام . وهنا يحدثنا المؤلف عن موقع طريف البحرية التي وقعت بين قشتالة وغرناطة وحليفها السلطان أبي الحسن المريني ، وما أصاب المسلمين فيها من هزيمة شديدة ، وذلك في سنة ١٣٤٠ / ٧٤١ هـ . ويورد لنا ما يقوله ابن الخطيب في شرح أسباب هذه الهزيمة ، وما تلا ذلك من استيلاء القشتاليين على ثغر الجزيرة الخضراء ، وذلك في سنة ١٣٤٣ / ٧٤٣ هـ . وعلى ذلك عقد الفريقان السلم والمهدنة مرة أخرى . ولكن الفونسو التاسع ملك قشتالة قام بالرغم من ذلك بمحاصرة جبل طارق يريد الاستيلاء عليها ، ولكنه توفي تحت أسوارها بالوباء ، ورفع الحصار (١٣٢٠ / ٧٥١ هـ) .

وحدث بعد ذلك أن ساءت العلاقة بين يوسف سلطان غرناطة ، وبين أبي عنان سلطان المغرب وذلك لحماية السلطان يوسف لاخوه السلطان أبي عنان اللاجئين إلى الأندلس ، وترتب على ذلك أن حاول كل فريق أن يخالف قشتالة ضد الآخر ، وتوفى السلطان أبو الحجاج يوسف قتيلا في يوم عيد الفطر سنة ١٣٥٤ هـ / ٧٥٠ م . خلفه ولده أبو عبد الله محمد الخامس السلاطين بهذا الاسم .

### الحقبة الأولى من حكم محمد الخامس

بدأ محمد الخامس حكمه ، والأحوال في قشتالة غير مستقرة ، وفي أراجون تدور الحرب الأهلية وقضى خمسة أعوام في سلم وهدوء بمعاونة وزيره الحاجب رضوان النصري ، ومعاونه الوزير ابن الخطيب ، وقد حظى بنقته ، وأثره بالمشاركة في تدبير شؤون الملك ، ومن ذلك الحين تدخل مملكة غرناطة في مرحلة توطد ورخاء .

وعقد الغنـى بالله معاهدة صداقة ومهادنة مع كل من قشتالة وأراجون ، وبعث وزيره ابن الخطيب سفيراً عنه إلى السلطان أبي عنان . والقى الخطيب بين يدي السلطان قصيـته المشهورة — وحظى باعجابـه وعطفـه — ووـعده بتحقيقـ مطالبـ سلطـانـه .

ولـكن العـلاقـة لم تـكـنـ معـ ذـلـكـ عـلـىـ صـفـاتـهاـ بـيـنـ غـرـنـاطـةـ وـأـبـيـ عـنـانـ ،ـ إـذـ كـانـ بـلـاطـ غـرـنـاطـةـ يـشـكـ فـيـ اـطـاعـ أـبـيـ عـنـانـ فـيـ مـلـكـ الـأـنـدـلـسـ ؛ـ وـعـلـىـ أـىـ حـالـ فـانـ مـثـلـ هـذـهـ المـشـارـيعـ تـحـطـمـتـ بـوـفـاتـ السـلـطـانـ أـبـيـ عـنـانـ فـيـ سـنـةـ ١٣٥٨ـ مـ .ـ وـقـامـتـ عـلـىـ أـثـرـ وـفـاتـهـ حـربـ أـهـلـيـةـ حـولـ الـعـرـشـ ،ـ وـانـتـهـيـ الـأـمـرـ بـجـلوـسـ أـخـيـهـ السـلـطـانـ أـبـيـ سـالـمـ عـلـىـ الـعـرـشـ ،ـ وـذـلـكـ فـيـ سـنـةـ ١٣٥٩ـ هـ / ٧٦٠ـ مـ .ـ وـفـيـ الـحـالـ بـعـثـ أـبـوـ سـالـمـ سـفـراءـ إـلـىـ غـرـنـاطـةـ لـتـجـدـيـدـ عـلـاقـةـ الـمـوـدـةـ وـالـصـدـاقـةـ ،ـ وـعـقـدـتـ بـذـلـكـ بـيـنـ الـمـلـكـتـيـنـ أـوـاصـرـ صـدـاقـةـ مـتـيـنةـ .ـ

ووَقَعَتْ فِي هَذِهِ الْأَنْتَهَىِ حَرْبٌ بَيْنَ قَشْتَالَةَ وَأَرَاجُونَ ، وَسَاعَدَ فِيهَا الْغَنِيَّ  
بِاللَّهِ مَلِكِ قَشْتَالَةَ بِثَلَاثَ سُفُنٍ مُسْلَحَةً بِرَجَالِهَا وَعَنَادِهَا .

وَلَمْ يَمْضِ قَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى وَقَمَتْ فِي غَرْنَاطَةَ مُؤَمَّرَةٌ دُبْرِهَا إِسْمَاعِيلُ  
أَخُو السُّلْطَانِ بِمُسَاعَدَةِ الرَّئِيسِ أَبِي سَعِيدٍ لِاِنْتِزَاعِ الْعَرْشِ . وَنَجَحَ الْمَشْرُوعُ ، وَفِي  
لَيْلَةِ مِنْ لَيَالِيِّ رَمَضَانَ سَنَةَ ٧٦٠ هـ . اسْتَطَاعَ الْمُتَّأْمِرُونَ الْإِسْتِيَلَاءَ عَلَى قَصْرِ الْحَمَرَاءِ  
وَقَتَلُوا الْحَاجِبَ رَضْوَانَ وَآلَهُ ، وَاعْلَمُوا إِسْمَاعِيلَ مُلَكًاً مَكَانَ أَخِيهِ ، وَكَانَ مُحَمَّدُ  
غَائِبًاً عَنِ الْقَصْرِ يَقِيمُ عَلَى مُقْرَبَةِ مِنِ الْحَمَرَاءِ فِي قَصْرِ جَنَّةِ الْعَرِيفِ ، فَلَمَّا عَلِمْ  
بِمَا حَدَثَ فَرَّ نَاجِيًّا بِحَيَاتِهِ إِلَى وَادِيِّ آشَ ، وَحَاوَلَ عَبْشًا أَنْ يَسْتَنْجِدَ بِمَلِكِ قَشْتَالَةِ  
فَاتَّجَهَ عَنْدَئِذٍ إِلَى الصَّفَةِ الْأُخْرَى مِنِ الْبَحْرِ . وَكَانَ السُّلْطَانُ أَبُو سَلَّمَ قَبْلَ  
جَلوْسِهِ عَلَى عَرْشِ الْمَغْرِبِ ، يَقِيمُ مُنْفِيًّا فِي غَرْنَاطَةَ تَحْتَ كَفِّ مُحَمَّدٍ وَرِعَايَتِهِ ،  
فَرَعَى لَهُ عَنْدَئِذٍ حَقُّ الصَّدَاقَةِ ، وَبَعْثَ إِلَى غَرْنَاطَةَ سَفِيرًا لِيُسَعِّيَ فِي إِبْرَاجَةِ الْمَلَكِ  
الْخَلْوَعِ ، وَوَزِيرِهِ أَبْنَى الْخَطَّيْبِ ، وَكَانَ مُعْتَقَلًا فَأُفْرَجَ عَنْهُ ، وَانْضَمَ إِلَى مَلِيكِهِ  
فِي وَادِيِّ آشَ . وَعَبَرَ مُحَمَّدُ وَوَزِيرُهُ الْبَحْرَ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَوَصَلَ إِلَى فَاسَ فِي الْمُهْرَمِ  
سَنَةَ ٧٦١ هـ / ١٣٥٩ م ، وَاسْتَقْبَلَهُمَا السُّلْطَانُ أَبُو سَلَّمُ فِي حَفْلٍ مُشَهُودٍ ،  
وَأَنْشَدَ أَبْنَى الْخَطَّيْبَ بَيْنَ يَدِيهِ قُصْيَدَةً عَصَمَاءَ يَلْتَمِسُ فِيهَا نِصْرَةَ سُلْطَانِهِ .

وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ ، كَانَتِ الْأَحْوَالُ فِي غَرْنَاطَةَ فِي ظَلِ الْحُكْمِ الْجَدِيدِ قَدْ  
اَضْطَرَبَتْ ، وَفَرَّ كَثِيرٌ مِنَ الْأَكْبَارِ وَالرُّؤْسَاءِ ، وَعَبَرَ بَعْضُهُمُ الْحَدُودَ إِلَى قَشْتَالَةَ ،  
وَعَبَرَ الْبَعْضُ الْآخَرُ الْبَحْرَ إِلَى الْمَغْرِبِ . وَكَذَلِكَ غَادَ غَرْنَاطَةَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَدْبَاءِ  
وَالْكُتَّابِ الَّذِينَ لَمْ يَرْقُ لَهُمُ الْحُكْمُ الْجَدِيدِ .

وَعَكَفَ أَبْنَى الْخَطَّيْبَ فِي مَنْفَاهِ عَلَى الْكِتَابَةِ . وَكَتَبَ خَلَالَ هَذِهِ الْفَتَرَةِ  
عَدَةٌ مِنْ كِتَبِهِ . فَكَتَبَ كِتَابَ «الْمِحْمَةُ الْبَدْرِيَّةُ فِي تَارِيخِ الدُّولَةِ النَّصْرِيَّةِ»  
وَكِتَابَ «نَفَاضَةُ الْجَرَابِ فِي عَلَالَةِ الْاعْتَرَابِ» ، وَفِيهِ يَقُصُّ عَلَيْنَا أَخْبَارَ طَوَافَهِ  
بِمَدِينَةِ الْمَغْرِبِ ، ثُمَّ إِقَامَتِهِ بِسَلَّامَ ، كَمَا يَقُصُّ عَلَيْنَا حَادِثَ وَفَاتَةِ زَوْجِهِ ، وَمَا أَصَابَهُ  
مِنْ جَرَاءِ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْمِ وَالْأَسَى .

وكتب ابن الخطيب غير ذلك عدة كتب ورسائل أخرى ، يذكرها المؤلف ويتناولها بالوصف والتفصيل .

أما السلطان محمد فقد لبث في منفاه يدبر الخطط لاسترداد عرشه ، ويتابع الأحوال في غرناطة . ولم يمضى سوى قليل حتى تمحضت الأحداث في الأندلس عن تحرك ملك قشتالة ضد غرناطة ، وذلك تنفيذاً لما عاهد عليه محمد الخامس من مساعدته على استرداد عرشه . واعتزم محمد عندئذ مغادرة فاس ، وخرج منها في ركب فخم شيعه السلطان أبو سالم ، وعبر من سبتة إلى جبل طارق ، وسار إلى مقابلة ييدرو الأول ملك قشتالة ومعه بعض كبرائه ، فاستقبله بترحاب ، وزاده بالمال ، وكرر وعده بمعاونته على استرداد عرشه دون أية مطالب يفرضها عليه . فعاد محمد إلى رندة ، وزوده السلطان أبو سالم وملك قشتالة كل بعده من السفن لتحرس شواطئ غرناطة ، ثم خرج محمد من رندة في صحبته واستولى في طريقه على انتقيرة ، وهنالك وصلته الأنباء بمصرع السلطان أبي سالم وتلقت السفن المغربية أوامر العودة إلى قواعدها .

ولكن محمد استمر في جهوده ، واستولى على مالقة أهم ثغور غرناطة ، وفي أثناء ذلك شعر سلطان غرناطة المغتصب باعراض الثورة تضطرم ، وبملك قشتالة يرهقه بالزحف على أراضي غرناطة ، ففر منها وقصد إلى ييدرو الأول ملك قشتالة يلتمس إليه الانضواء تحت حمايته ، ولكن ملك قشتالة أمر باعتقاله وقتله ، فقتل في طلياطة ، وفي أثناء ذلك دخل محمد الخامس غرناطة ، واستقر على عرشه مرة أخرى ، وكان ذلك في ٢٠ جمادى الثانية سنة ٧٩٣ الموافق مارس سنة ١٣٦٢

### الحقبة الثانية من حكم محمد الخامس

كانت خطة محمد الخامس حين عوده إلى العرش أن يعمل لعقد الصداقة مع قشتالة . وأن يخضع علاقته مع أراجون لسير العلاقات بين قشتالة وأراجون ،

وأن يقوى أسطوله لكي يحتاط ضد أي غزو يحاوه ملك المغرب الجديد ، وأن يوطد صداقته مع أمير تلمسان ، وأن يقيم العلائق مع تونس ومصر . وأبدى محمد الخامس ، منذ بداية حكمه الجديد ، صداقته نحو قشتالة فيسائر تصرفاته ، ولكنه اتخذ موقف التريث نحو أراجون . وفي هذه السنة بالذات (سنة ١٣٦٢) قامت الحرب بين قشتالة وأراجون ، وذلك لأن هنري دى ثراسمارا وهو الأخ غير الشرعي لملك قشتالة بيبرو الأول ، عبر أراجون لمحاربة أخيه ، وعقد بيبرو حلفاً مع إنجلترا وبنده لمقاومة الأخ الداعي ، وتحالف ملك أراجون مع أمير تلمسان ، وأرسل إليه هذا الأمير ألف فارس ؛ وحاول نفس الوقت أن يتقرب من غرناطة والمغرب . ولكن محاولته لم تفلح لدى غرناطة ، لما كان يربط محمد الخامس ، بقشتالة والمغرب من أواصر الصداقة والتحالف . ولما نشب الحرب بين أراجون وقشتالة بعث محمد الخامس بفرقة قوامها ستمائة فارس لمعاونة بيبرو الأول واشتركت هذه الفرقة في حصار طرسونة وفي حصار بلنسية وذلك في سنة ١٣٦٣

ويتحدث المؤلف بعد ذلك طويلاً عن أحداث الحرب التي نشب بين ملك قشتالة بيبرو الأول وأخيه هنري (اريكي) دى ثراسمارا . وكان هنري قد جمع جيشاً من المتقطعة الانجليز والفرنسيين والألمان وغيرهم . وعاد محمد الخامس فأرسل إلى بيبرو فرقة السمائة فارس معاونة له ، ولكن الدائرة كانت على بيبرو ، وشعر أنه عاجز عن مقاومة خصمه ، ففر إلى البرتغال ، ويقص علينا ابن الخطيب حوادث هذه الحرب الأهلية بين ملك قشتالة وأخيه في تفصيل دقيق .

وكان محمد الخامس يدرك عواقب هذه التطورات بالنسبة لمصير غرناطة . وقد بعث إلى ملوك المغرب يشرح له خطة البابا «كبير النصرانية» في حشد القوات للمحاربة مع هنري دى ثراسمارا ، حتى إذا تم له الاستيلاء على قشتالة اتحد مع أراجون على غزو مملكة غرناطة . وبادر محمد كذلك باعلام شعبه ،

وحيثه على يد وزير ابن الخطيب على النهوض والمبادرة إلى الجهاد ضد النصارى . وبعث إلى زملائه ملوك المغرب يطلب العون والانجاد ، وقد اسعفه أمير تلمسان بارسال الأموال ، ووعد فاس بمعاونة أسطوله . وقام محمد في الوقت نفسه بالزحف على أراضي قشتالة ، لينتزع بعض الواقع الاستراتيجية (سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٦ م) ، واستولى على حصن اللوز بعد معركة عنيفة ، ثم استولى بعد ذلك على بلدة السهل قرب جبل طارق بيد أن محمد الخامس رأى أن يتقي الخطر بالتفاهم مع ملك قشتالة الجديد ومسالمته ، فبعث إليه يطلب المهاونة ، فأجابه الملك هنري إلى رغبته . ومن جهة أخرى فقد سعى محمد إلى عقد المدنية مع بيذرو الرابع ملك أراغون ، وعقدت بالفعل بينهما المدنية لمدة أربعة أعوام (مارس سنة ١٣٦٧) ، ولكنها لم تنفذ بين البلدين بما يجب من الدقة ، وكان رعايا كل منها يرتكب ضد الآخر بعض أعمال القرصنة .

وعقد بيذرو الأول ملك قشتالة المعزول حلفاً مع ولی عهد إنجلترا الملقب بالأمير الأسود ، وقاد معه حملة خلال نبرة ، وحارب أخيه هنري مرة أخرى ، وهزمها في موقعة ناجدة ، وذلك في إبريل سنة ١٣٦٧ ، وفي خلال ذلك انهز محمد الفرصة وغزا بلدة اطيررة على مقربة من أشبيلية ، وعات في أحوازها ، وأسر جموعاً كبيرة من أهلها .

ولما عاد بيذرو الأول على العرش بانتصاره على أخيه سعى لدى محمد إلى عقد التحالف القديم ؛ ورأى محمد أن يجبيه إلى طلبه خوفاً من تحالف القوى النصرانية ضده ، وهكذا عادت الصداقة بين الملكين . وكتب ملك قشتالة بهذه المناسبة خطاباً إلى الوزير ابن الخطيب يشرح له تفاصيل نصره ، فرد عليه ابن الخطيب بكتاب ينصحه فيه بأن يحذر دسائس بطانته ومن حوله ، احتفاظاً بالسكينة والسلم ، وابن الخطيب يقص علينا في الواقع تفاصيل معركة ناجدة بدقة شاهد العيان .

وعاد هنري دي ثراسمارا إلى استئناف الصراع مع جيش من حلفائه الفرنسيين ومحاربة أخيه مرة أخرى ، واضطربت الأحوال في قشتالة ، وثارت معظم المدن في وجه بيذرو ، فبعث إلى محمد الخامس يطلب العون ، ولكن محمد رأى بالعكس أن ينتهز الفرصة لللأغار على أراضي قشتالة ، وتكررت جهوده في هذا السبيل ، وكان يقود قواته بنفسه في كل مرة . ووقعت هذه الغارات على جيان وأبدة وباغة . وعلى أثر هذه الواقائع ، اتخذ محمد لقب « الفالب بالله » .

واستمرت الحرب بين هنري وأخيه . وطلب بيذرو من محمد أن يعاونه على افتتاح قرطبة ، وفي بعض الروايات أن ملك قشتالة وعده بامتلاكها إذا فتحت . فنزل محمد عند هذه الرغبة ، وقاد حملة قوية إلى عاصمة الخلافة القديمة ، يقدرها البعض بنحو خمسة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل . ويقدرها البعض الآخر بأكثر من ذلك . وهاجت القوات المشتركة قرطبة ، ووقعت بينها وبين القرطبيين معركة دامية ، ردوا على أثراها عن المدينة (سنة ١٣٦٨) . وتعلل الرواية ارتداد القوات الغرناطية عن قرطبة بشدة المقاومة ، وهطل الأمطار الغزيرة ، وفي ظان الزهر . وهاجم محمد خلال عود قلعة اندوجر القريبة . ومن المفهوم أن كل هذه الغارات القوية التي شنها محمد الخامس على أراضي قشتالة كانت بموافقة بيذرو الأول .

وحدثت بعد ذلك تطورات جديدة حاسمة في الحرب بين بيذرو الأول وأخيه هنري ، فقد قاد هنري جيشه صوب طليطلة ، وحاول بيذرو لقائه ، وعاونه محمد بفرقة كبيرة من فرسانه ، ولكن رجحت كفة هنري ، وهزم بيذرو أمام حصن موئيل ، وأسر وقتل بذلك في يوم ٢٢ مارس سنة ١٣٦٩ وكان مصرع بيذرو الأول ضربة لحمد الخامس ، لما كان بينهما من صداقة وتحالف ، ولكن محمد لم يرعه تطور الأحوال على هذا النحو ، بل انتهز فرصة اشغال الملك الجديد ، وقام بعدة غارات جديدة في أراضي قشتالة ،

لكي ينتزع من ورائها بعض النقط الواقع الاستراتيجية (ابريل سنة ١٣٦٩) وفضلا عن ذلك فإن ملك قشتالة الجديد هنري (أزيكي) الثاني قد شغل نفسه بالحرب مع نبرة وأراجون والبرتغال ، وحاول هنري أن يعقد الهدنة والخلف مع محمد ، ولكن مهما آثر أن يتوجه إلى محالفه أعداء قشتالة ، أراجون والبرتغال ، فعقد مع كل منها حلفاً ، صادق عليه ، وشارك فيه ملك المغرب المريني .

وفي أثناء ذلك غزا محمد ثغر الجزيرة بمعونة ملك البرتغال ، وشاركت السفن المرينية في حصار الجزيرة ، وسقط الثغر في يد المسلمين في ٢٣ ذي الحجة سنة ٧٧٠ هـ (٢٨ يوليو سنة ١٣٦٩) ، وقام محمد بتخريب هذا الثغر تخريباً تاماً ، حتى إذا وقع ثانية في يد أعدائه ، لم يترب على سقوطه اذى .

وعاد محمد فغزا أشونة من أحواز اشبيلية لكي يرغم القشتاليين على ترك حصار قرمونة التي كان يمتنع بها أبناء صديقه الملك بيذرو المتوفى ، ثم غزا من بعدها مرشانة ، وحصل على غنائم لا تمحى .

وجدد التحالف بين أراجون وغرناطة وفاس بمعاهدة جديدة ، اتفق الجميع فيها على أن لا يقدم منهم أية معاونة إلى ملك قشتالة . واتجه هنري ملك قشتالة من جهة أخرى إلى عقد الصلح والتهادن مع غرناطة ، وبعث رسلا إلى محمد ، وانتهى الأمر بعقد هدنة بين غرناطة وفاس وقشتالة أمدتها ثمانية أعوام .

وعلى أثر ذلك ، شعر الوزير ابن الخطيب أنه قد تم بذلك تأمين غرناطة من خطر أعدائها ، واعتمم مغادرة البلاد ، فغادر الأندلس في سنة ٧٧٣ هـ إلى المغرب . وهنالك ، وبعد ثلاثة أعوام فقط توفى قتيلاً بعد أحداث وتطورات جمة . وكان فقد ابن الخطيب على هذا النحو خسارة فادحة ، إذ انقطعت بموته أصول المصدر العربي الوحيد لدراسة عهد محمد الخامس ودراسة العلاقات القشتالية الغرناطية .

وتوفي هنري الثاني ملك قشتالة في سنة ١٣٧٩ ، والظاهر أن المدنة التي كانت معقودة بين قشتالة وغرناطة ، قد نقضت على أثر موته ، إذ أن بعض السرايا الغرناطية قد اغارت على بلدة قيجاطة ، وحصلت على اسرى واسرارا من الماشية ، وأغارت القوات القشتالية من جهة أخرى ، على الأرضي الغرناطية على أن هذا القطع في علاقه البلدين لم يدم طويلا ، لأن ملك قشتالة الجديد خوان الأول ، رأى لانشغاله بالحرب ضد انجلترا والبرتغال ، أن يعقد السلام مع غرناطة ، وانهزم ملك غرناطة فرصة المدوء والسلم ، فعكف على تحصين أطراف بلاده ، سواء في البر أو البحر .

وفيما يتعلق بالعلاقة بين غرناطة وأراجون ، فإنه بالرغم من المعاهدات المعقدة بينهما ، كانت أعمال القرصنة من الجانبين ، تحدث من آن لآخر ، وقد تبادل الملاكان في ذلك مراسلات عديدة تحتفظ بها محفوظات التاج الأرجموني وانهى الأمر بأن عقداً معاهادة جديدة في شهر يونيو سنة ١٣٧٥ ، ثم جرت المفاوضات بينهما ثانية لعقد معاهادة سلم جديدة ، وبعد مفاوضات طويلة ، عقدت المعاهادة ، المنشودة ، وذلك في شهر مايو سنة ١٣٧٦ ، ومدتها خمسة أعوام . وبعد انتهاءها في سنة ١٣٨٢ ، تم تجديدها لمدة خمسة أعوام أخرى .

ولما توفي بيذرو الرابع في ٥ يناير سنة ١٣٨٧ ، بعث محمد الخامس إلى ولده وخلفه خوان الأول ، يعزيه ، ويهنئه في نفس الوقت بارتقائه العرش ، وبعث خوان إلى سلطان غرناطة يؤكّد له أنه سوف يسير على سياسة والده السامية .

#### سياسة محمد الخامس الافريقية

كانت سياسة بني مرين قائمة على الاستمرار في انجاد جزيرة الأندلس ونصرتها ضد النصارى ، جارياً على سنن المرابطين والموحدين من قبلهم ، وترتب

على سياسة بني مرين في المشاركة في شئون الأندلس ، أن سيطروا على مضيق جبل طارق ، وذلك باحتلال بعض المواقع الشعور الجنوبية مثل رندة وجبل طارق وطريف والجزيرة .

وكان بني الأحر من جانبهم يخشون عواقب هذا التدخل من جانب بني مرين . وبالرغم من رغبتهم وترحيمهم بالمعونة العسكرية التي كان يقوم بها بني مرين ، فإنهم لاتقاء مطامعهم في شبه الجزيرة ، كانوا يقومون أحياناً بمحالفة قشتالة وأراجون على رد خطير المرينيين ، وأحياناً يطلقون الأماء المرينيين المأسورين لديهم ل القيام بحركات ثورية ضد عرش فاس ، وأحياناً بالاستيلاء على بعض أراضي عدوة المغرب الشمالية .

وأما محمد الخامس فكانت أطعنه تقد إلى السيطرة على المصيق ، ولما عزل لأول مرة ولجأ إلى بلاط السلطان أبي سالم ، كان أبو سالم يريد فيها بعد أن يمنعه من العبور إلى شبه الجزيرة لاسترداد عرشه ، لو لا تدخل بيذرو الثالث ملك قشتالة ، وعندئذ اضطر أبو سالم أن يتركه وشأنه ، بل وقام بمعاونته ، وقبل أن يرد إليه رند ليتذرّدّها قاعدة لمسيره إلى غرب ناطة .

وكانت العلاقة بين بني الأحر وبني مرين ودية طيبة حتى فرار ابن الخطيب من الأندلس في سنة ٧٧٣ هـ . وكان من أدلة توثيقها أن السلطان عبد العزيز المريني ساعد بسطوله في حصار الجزيرة حينها هاجمها محمد الخامس .

ولتكن هذه العلاقة ساءت منذ وفود ابن الخطيب على بلاط السلطان عبد العزيز بتامسأن . ويعلل لنا ابن خلدون ذلك بقوله أن ابن الخطيب ، لبغضه لحمد الخامس ، كان يغرس السلطان عبد العزيز بملك الأندلس ، ويحرضه على غزوتها . ومن ذلك الحين تبدو الدولة المرينية خطراً على مملكة غرب ناطة ، وكان من آثار هذا الريب المتبادل أن ساءت العلاقة بين البلطيقين ، ولما توفي السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل ، أخذ محمد الخامس يعمل للتدخل في

شئون المغرب ، ويحرض بعض أفراد الأسرة المرينية على انتزاع العرش من ولد عبد العزيز الطفل والقائمين بأمره ، وقام بالفعل بمعاونة بعضهم بفرق من جيشه . ونجحت المحاولة ، واستطاع الأمير أبو العباس أحمد ، ولد السلطان أبي سالم بعد أحداث وتطورات جمة أن ينتزع العرش بمعاونة محمد ، وذلك في الحرم سنة ٨٧٦ هـ . وكان في مقدمة مطالب السلطان محمد الاستيلاء على جبل طارق ، واسلم ابن الخطيب ، وقد تم استيلاءه بالفعل على الجبل ، وقبض على ابن الخطيب وقتل في محبسه ، وتحقق بذلك ما يبغيه محمد من الانتقام من وزيره السابق .

وأما سياسة غرناطة نحو مملكة تلمسان ، فقد كانت سياسة مودة وتحالف ، وكانت العلاقة وطيدة بين البلدين ، وبالأخص أيام الأمير أبي حمو آخر ملوكها المستقلين . وكان أبو حمو يتصل بغرناطة بعلاقة ودية وثيقة ، وكان محمد يقدر صفات هذا الأمير أبي حمو وشهادته ونجدته . وكان يتبادل معه السفارات والمدايا الفخمة .